

تاريخ لسانات الاجتماعي

١٩٢٦ - ١٩١٤

مسعود ضاهر

دكتور في التاريخ

facebook.com/musabaqat.wamaarifa



أبو عبدو البغل

تاريخ ليلتات
الاجتماعي
١٩١٤ - ١٩٢٦

مسعود ضاهر
دكتور في التاريخ

دار الفارابي - بيروت

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبعة أولى

تشرين اول - ١٩٧٤

الاقــداد

الى الذين ناضلوا ضد الانتداب ومن
اجل الاستقلال
الى موحدى نضال الكادحين على ارض
لبنان
والعاملين على ضرب الطائفية والانعرالية
والتفرقة العنصرية .

مسعود ضاهر

موضوعات الكتاب

صفحة

- ١٧ * الباب الاول : من لبنان الصغير الى لبنان الكبير .
- ١٩ □ الفصل الاول : سياسة الوفاق الاستعماري في الشرق الاوسط
وفرض الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان
- ١٩ ★ القطب الشرقي لمحور السياسة الاستعمارية الفرنسية
- ٢٤ ★ التفتيش عن دعم داخلي للمخططات الفرنسية
- ٢٥ ★ موقف اللبنانيين ايام الحرب العالمية الاولى
- ٢٨ ★ بروز الصراع مجددا بين حلفاء الامس الفرنسيين والانكليز
- ٣١ ★ موجبات الاتفاق الفرنسي - الانكليزي لعام ١٩١٩
- ٣١ اولاً : الخطر الاميركي
- ٣٢ ثانياً : خطر المد الوطني المدعوم من الثورة السوفياتية
- ٣٨ ★ ميسلون او معركة المصير المحتوم
- ٤٢ ★ دولة لبنان الكبير في الميزان
- ٤٥ □ الفصل الثاني : من المتصرفية الى لبنان المعاصر ، توازن من نوع جديد
- ٤٥ ★ لبنان المتصرفية
- ٤٧ ★ نظام المتصرفية في الميزان
- ٥١ ★ دولة لبنان الكبير
- ٥٢ ★ مجتمعان لبنانيان لا مجتمع واحد
- ٥٢ أ : في توزيع الملكية الزراعية
- ٥٥ ب : في توزيع السكان والطوائف
- ٥٧ ★ بعض الايضاحات
- ٥٨ ★ الفرنسيون حققوا التوازن الطائفي في لبنان
- ٦٠ ★ دولة طائفية ام طبقية ؟

□ الفصل الثالث : صك الانتداب في التطبيق العملي

★ صك الانتداب

★ سياسة التجزئة الاستعمارية

★ أجهزة الإدارة الفرنسية في سوريا ولبنان

أ: المفوض السامي

ب: السكرتير العام

ج: دوائر المفوضية العليا

د: مندوبون ومستشارون

★ الإدارة اللبنانية بين الموظفين الفرنسيين والعناصر الوطنية

★ النفقات الباهظة للإدارة العسكرية

★ بعض أساليب الإدارة العسكرية الفرنسية في سوريا ولبنان

★ سياسة التمييز العنصري في الاجور بين عمال وموظفي الإدارة الواحدة

★ ضياع اراض لبنانية في الحولة

★ فشل الإدارة العسكرية في سوريا ولبنان

* الباب الثاني : بيروت تحجب لبنان وجميع دويلات الانتداب الفرنسي

□ الفصل الاول : تجارة بيروت قلب الانتداب النابض

★ تجارة بيروت قبيل الحرب العالمية الاولى

★ مرفأ بيروت في نهاية الحرب

★ ازدهار الحركة التجارية في مرفأ بيروت

★ الاختلال الكبير في الميزان التجاري

★ مرفأ بيروت يحجب باقي المرفأء اللبنانية والسورية

أ: مرفأ طرابلس

ب: مرفأء صور وصيدا واللاذقية والاسكندرون

★ نماذج من انواع السلع المستوردة والمصدرة ١٩٢٣ - ١٩٢٤

★ ربط الزراعة المحيية بالسوق العالمية

★ تجارة الترانزيت واعادة التصدير

★ السياسة الجمركية للانتداب الفرنسي

أ: المعاهدات التجارية

ب: الرسوم الجمركية

★ لماذا فرضت الولايات المتحدة سياسة « الباب المفتوح » في صكوك الانتداب ؟

★ هيمنة الرساميل والشركات الفرنسية

★ تغيير جذري في مواقع الدول المصدرة الى مرفأ بيروت

صفحة

- ١١٤ ★ ضرب الاقتصاد اللبناني لصالح القطاع التجاري
- ١١٥ ★ نشوء بورجوازية تجارية بيروتية «أممية» المصرة والوساطة
- ١١٩ □ **الفصل الثاني:** ربط الاقتصاد اللبناني بعجلة الفرنك الفرنسي والشركات الفرنسية في بيروت
- ١١٩ ★ الحرب العالمية الاولى تغير الموازين المالية السابقة
- ١٢١ ★ الفوضى المالية في سوريا ولبنان
- ١٢٤ ★ التكالب على الذهب المدخر في سوريا ولبنان
- ١٢٦ ★ سياسة الانتداب في الحقل المالي
- ١٢٩ ★ المؤسسات المالية والمصارف الفرنسية في بيروت
- ١٣١ أ: بنك سوريا ولبنان الكبير
- ١٣٣ ب: المؤسسات المالية الفرنسية الاخرى
- ١٣٥ ★ المكانة الاولى للشركات والمؤسسات المالية الفرنسية
- ١٣٨ ★ أسس دولة رأسمالية في لبنان المعاصر
- ١٣٩ ★ بعض الملاحظات
- ١٤٣ □ **الفصل الثالث:** ولادة قطاع جديد: الاصطياف في جوار بيروت
- ١٤٣ ★ بيروت قاعدة بحرية للملاحة الدولية
- ١٤٤ ★ الخطوط الحديدية تربط بيروت بالداخل
- ١٤٥ ★ النقل بالسيارات يختصر المسافات
- ١٤٦ ★ الازدياد الهائل في عدد السيارات
- ١٤٩ ★ أثر المواصلات في نمو قطاع الاصطياف
- ١٥١ ★ دور بيروت في امتصاص خيرات الاصطياف
- ١٥٢ ★ الهجرة اللبنانية تدعم قطاع الاصطياف وتنميه
- ١٥٥ ★ الاصطياف قطاع وافر الارباح
- ١٥٦ ★ بعض الاستنتاجات
- ١٥٩ □ **الفصل الرابع:** التعليم الخاص يهيمن على التعليم الرسمي
- ١٥٩ ★ التعليم في سوريا وجبل لبنان حتى الحرب العالمية الاولى
- ١٥٩ أ: التعليم العالي
- ١٦١ ب: التعليم الثانوي والابتدائي
- ١٦٥ ★ « معاداة الاكليروس ليست سلعة قابلة للتصدير » الى لبنان
- ١٦٨ ★ التنافس الحاد بين جامعة القديس يوسف والجامعة الاميركية
- ١٦٩ أ: في مجال الطب والصيدلة
- ١٧١ ب: تدريس الحقوق في لبنان حكر على اليسوعية

صفحة

- ج : في الهندسة وطب الاسنان وباقي المجالات ١٧٢
- د : آفاق تطور الجامعتين ١٧٥
- ★ التعليم الثانوي في ظل الفرنسيين ١٧٦
- ★ التعليم الابتدائي أيام الانتداب ١٧٩
- ★ معركة العلمانية نصر آخر لليسوعيين ١٨٢
- ★ النتائج الاجتماعية لهيمنة التعليم الخاص في لبنان ١٨٥
- ★ بعض الاستنتاجات ١٨٨
- ❖ **الباب الثالث : الارياف اللبنانية في مطلع عهد الانتداب** ١٩١
- **الفصل الاول : سياسة الانتداب تدعم مركز كبار الاقطاعيين** ١٩٣
- في الريف اللبناني
- ★ النظام العقاري التركي المطبق في لبنان ١٩٣
- ★ الملكية العقارية في لبنان حتى الحرب العالمية الاولى ١٩٤
- ١ : الجبل ١٩٤
- ب : في المناطق اللبنانية الاخرى ١٩٦
- ★ الحرب العالمية الاولى تؤزم وضع الفلاحين في الجبل ١٩٨
- ★ مراسيم الانتداب تعطي الواقع السيء صفة حقوقية ١٩٩
- أ - توسيع ملكية الدولة ١٩٩
- ب : المساحة والتحديد يشتان قانونيا النهب السابق ٢٠١
- ج : حق الشفعة يرسخ الملكية العقارية الكبيرة غير المجزأة ٢٠٣
- د : السخرة ترتدي طابعا قانونيا ٢٠٤
- ★ استمرار الوجود الاقطاعي والسيطرة الاقطاعية ٢٠٥
- في الريف اللبناني
- ★ البنك الزراعي يدعم كبار الاقطاعيين والضرائب ٢٠٧
- ترهق الفلاحين
- ★ النتائج الاجتماعية لسياسة الانتداب في الريف اللبناني ٢٠٨
- ١ : ترسيخ الملكية العقارية الكبيرة ٢٠٨
- ب : اعطاء الاقطاعيين السلطة التنفيذية المطلقة في مقاطعاتهم ٢١٠
- ج : دور نظام المغارسة في ابراز الملكية العقارية الصغيرة ٢١٢
- في الارياف اللبنانية
- د : بداية ظهور البروليتاريا الزراعية ٢١٤
- هـ : بين الملكيات الكبيرة جدا والمتناهية في الصغر ٢١٥
- ★ استمرار تمايز جبل لبنان عن سائر الارياف اللبنانية ٢١٦
- ★ بعض سمات الريف اللبناني في نهاية المرحلة الانتدابية الاولى ٢١٨

□ الفصل الثاني : ملامح من الحياة الاجتماعية اللبنانية

٢٢١

١ - المسكن اللبناني :

٢٢١

★ التجمعات السكنية

٢٢٢

★ دلالة البيت اللبناني في الريف

٢٢٣

★ مسكن فقراء الريف والمدينة

٢٢٤

★ مسكن الفلاح المتوسط والعامل الميسور

٢٢٥

★ مسكن تجار المدن وأعيان الريف

٢٢٦

٢ - العائلة اللبنانية :

٢٢٦

★ بنية العائلة اللبنانية

٢٢٧

★ الزواج المبكر

٢٢٨

★ الزواج من بنت العم

٢٢٩

★ كثرة الاولاد

٢٣١

★ الاسرة اللبنانية بين العائلية والزواج الحر

٢٣٤

★ ابرز سمات الزواج في لبنان

٢٣٤

أ : الوجه الطبقي

٢٣٥

ب : الوجه الاقليمي

٢٣٥

ج : الوجه الديني الطائفي

٢٣٦

★ الفتاة اللبنانية ضحية الشرع والتربية والتقاليد

٢٣٧

★ استفلال للرجل والمرأة لا استفلال الرجل للمرأة

٢٣٩

★ تعليم الفتاة وأثره على تطور الحركة النسائية في لبنان

٢٤٢

٣ - نظام العمل في الريف اللبناني :

٢٤٢

★ المحاصصة او المزارعة

٢٤٢

أ : نظام المربعة

٢٤٢

ب : نظام الشركة الحموية

٢٤٣

ج : نظام الشركة الحلبية

٢٤٣

د : نظام الخمس

٢٤٣

★ نظام الالتزام الدائم او العمل القسري مدى الحياة

٢٤٤

★ الالتزام السنوي

٢٤٥

★ الاجير السنوي

٢٤٥

★ الاجير الموسمي

٢٤٦

★ الاجير الشهري

٢٤٦

★ الاجير اليومي

صفحة

- ★ أدوات الزراعة والري ٢٤٧
- ★ لمصلحة من اختلاف المكايل والمقاييس والاوزان ؟ ٢٤٨
- ★ سمار المدينة يشارك ايضا في نهب الفلاحين ٢٥١
- ★ سوء نظام التفضية ٢٥١
- ★ سوء العناية الصحية ٢٥٣
- ★ بعض الملاحظات ٢٥٤
- * الباب الرابع : الحركة السياسية في لبنان :**
من الحكم العسكري المباشر
الى الديمقراطية الشكلية (١٩١٨ - ١٩٢٦)
- **الفصل الاول : بين الرفض المطلق والتبعية الكاملة**
للانتداب (١٩٢٠ - ١٩٢٤)
- ٢٥٩
- ★ تيار القومية العربية العلمانية ٢٥٩
- ★ اضاء على مواقف اللبنانيين من الاتحاد والانفصال ٢٦١
- والانتداب (١٩١٨ - ١٩٢٠)
- أ : في الداخل ٢٦١
- ب : في الخارج ٢٦٦
- (١) حزب سوريا الفتاة ٢٦٦
- (٢) الحزب الوطني العربي ٢٦٧
- (٣) الجمعيات السياسية في المهجر الاميركي ٢٦٨
- (٤) في مصر ٢٦٨
- ★ غورو يحسم الموقف لصالح دعاة الانفصال ومؤيدي الانتداب ٢٧٠
- ★ النضال ضد الانتداب يوحد بين الوطنيين من جميع الطوائف ٢٧٢
- ★ الحركة السياسية في لبنان (١٩٢٠ - ١٩٢٤) ٢٧٣
- اولا : الموالون للانتداب**
- (١) التيار الطائفي الرفض لعروبة لبنان ٢٧٣
- (٢) في النقابات ٢٧٥
- أ : بين عمال الصناعات والمدن ٢٧٥
- ب : بين العاملين في الزراعة والاريف ٢٧٨
- (٣) ولادة التيار الشعبي ٢٧٩
- ثانيا : المعارضون للانتداب**
- (١) في الخارج ٢٨٠
- (٢) في الداخل ٢٨٣
- (٣) النضالات المطلوبة المشتتة ٢٨٤

صفحة

٢٨٧	□ الفصل الثاني : مرحلة النضال الديمقراطي العام وولادة الدستور والجمهورية في لبنان (١٩٢٤ - ١٩٢٦)
٢٨٧	★ جذور الفكر الاشتراكي العلمي في لبنان
٢٩١	★ الحياة السياسية عند أرمن سوريا ولبنان
٢٩١	(١) الهجرة الارمنية الى لبنان وسوريا
٢٩٣	(٢) الاحزاب النياسية الارمنية
٢٩٤	(٣) شبيبة سبارتاك الارمنية رافد اشتراكي آخر ضد الانتداب
٢٩٧	★ دور ساراي في تفتيت الجبهة الموالية للانتداب .
٢٩٩	★ النضال الديمقراطي ضد الانتداب
٢٩٩	(١) الحزب الشيوعي يقود بالسرا خطى حزب الشعب اللبناني
٣٠٢	(٢) حزب الشعب اللبناني مرحلة هامة للنضال المطليبي
٣٠٤	(٣) مهرجان الكريستال يرسخ دور حزب الشعب اللبناني في قيادة المعارضة
٣٠٧	(٤) حزب الشعب اللبناني يتجه نحو تجذير المطالب الاجتماعية
٣٠٩	(٥) وجهاً لوجه امام السلطة الانتدابية وضرب الحزب الشيوعي
٣١٣	★ دستور ١٩٢٦ وعلان الجمهورية اللبنانية في ظل الانتداب
٣١٦	★ بعض الاستنتاجات
٣١٩	خاتمة
٣٢٣	مكتبة البحث
٣٢٥	مراجع باللغة العربية
	جرائد ومجلات باللغة العربية
٣٢٩	وردت اسمائها في الكتاب
٣٣١	مراجع باللغة الاجنبية
٣٤٥	فهرس الاعلام
٣٥٥	فهرس الاماكن

توطئة

« لم يكتب التاريخ الا بشكل سرد قصصي . وانا كلي رغبة لكتابة تاريخ العادات والتقاليد الاجتماعية ، لكتابة تاريخ العلوم والقوانين والاعراف . في كل ما قرأت ، لم ار الا تواريخ الملوك ، وما اريد هو تاريخ الناس ، كل الناس » .

تلك كانت صيحة فولتير عام ١٧٧٤ ، والتي ما تزال تحمل الكثير من الصواب حول كتابة تاريخ لبنان ، تاريخ اللبنانيين ، كل اللبنانيين . فالتاريخ علم قادر على استخدام واستكشاف قوانين التطور الاجتماعي . ومهمة المؤرخ الرئيسية في الوقت الحاضر بانت في دراسة وكشف قوانين الانتاج وقوانين تطور القوى المنتجة ، وعلاقات الانتاج . بمعنى آخر تاريخ قوانين التطور الاقتصادي والاجتماعي ، تاريخ منتجي الخيرات المادية لا تاريخ الملوك والقادة والطوائف ، تاريخ الناس ، كل الناس . هؤلاء الذين صنعوا تاريخهم بأنفسهم ، لا وفق ارادات فوقية او اقوال وتصريحات بل نتيجة الوضع الاقتصادي والاجتماعي السائد آنذاك ومدى استفادة الفرنسيين من هذا الوضع وثماره لصالح رساميلهم ومصالحهم المتغلطة في سوريا ولبنان حتى « النخاع الشوكي » قبيل الحرب العالمية الاولى .

ان معرفة تاريخ لبنان المعاصر وتطور المجتمع اللبناني هي معرفة ممكنة استنادا الى القوانين الموضوعية لتطور هذا المجتمع ، وذلك وفق دراسة علمية تاريخية لا وفق تكديس احتمالات وفرضيات ومذكرات المساسة ورجال الدين اللبنانيين . فهذه المذكرات بطبيعتها تتناول حياة فرد واحد ، غير معزول اجتماعيا عن البيئة التي عاش فيها . والمذكرات لا تقدم في احسن الاحوال ، الا سلوك هذا الفرد الاجتماعي تجاه محيطه والتاثير المتبادل بينهما . اي ان تلك المذكرات توضح شخصية الفرد عن طريق حوارهِ مع نفسه ومع الآخرين ، عن طريق علاقته الاجتماعية بالآخرين ، عن طريق انعكاس البيئة الاجتماعية على شخصيته وتكوينه السياسي والفكري والاجتماعي . فلا قيمة للمذكرات الا اذا وضعت في اطارها الاجتماعي التاريخي ، اي في انسجامها مع القوانين العامة لتطور المجتمع اللبناني وليس بايراد بعض الاعمال الفردية «البطولية» . من هنا نقول بأن استنادنا الى مذكرات الزعماء اللبنانيين ، دينيين ومدنيين ،

لم تكن الا في الحالات التي لم نستطع فيها الحصول على دراسات علمية ووثائق تاريخية بسبب العرف الاستعماري الفرنسي القاضي بعدم الافراج عن الوثائق الا بعد مرور خمسين عاما على احدثائها . فالارشيف الفرنسي كان مقلقا في وجه هذه الدراسة التي اعتمدت بأغلبية مراجعها على الدراسات الجامعية ورسائل الدكتوراه والكتب العلمية الرصينة مع الاستناد ايضا الى تقارير ادارة الانتداب الفرنسي المرسلة الى عصبة الامم سنويا ، ومجموعات المراسيم والقوانين الصادرة عن تلك الادارة في سوريا ولبنان ، والتي جاءت وفيرة في الكتاب .

يبد ان هذه الدراسات والكتب والمجموعات كانت تتناقض احيانا بفعل تناقض آراء واضعها وتناقض سياسة الانتداب بالذات وتبدلها المستمر وتهمل العديد من جوانب دراسة المجتمع اللبناني . لذا سارعنا الى الاستعانة بالعديد من الاحياء اللبنانيين ، وعلى مختلف المستويات ، من رؤساء وزارات سابقين ووزراء ونواب وتجار وحقوقيين وضباط وصناعيين ونقابيين وعمال وفلاحين ، وكانت شهادات هؤلاء بحق اصدق الحقائق التاريخية التي وردت في هذا الكتاب والتي اعتمدنا فيها على ما اتفق عليه اجماع شهود العيان لا على مجرد ذكريات فردية غير ثابتة تاريخيا . فالى جميع من استشهدنا بأقوالهم ودراساتهم نتقدم بالشكر العميق .

هذا الكتاب جديد في منهجيته وتحليله واستنتاجاته حول تاريخ لبنان المعاصر . فهو يستند اساسا الى منهج التاريخ الاجتماعي القائل بأن الحدث الاجتماعي ليس معزولا عن البيئة التي أنتجته ، وان الاحداث الاجتماعية المفككة لا تكون تاريخا بقدر ما تكون نماذج تاريخية معينة خاضعة زمانيا ومكانيا للتراكم التاريخي الكمي والنوعي . فالحدث الاجتماعي يستمد وجوده من علاقة اجتماعية ثابتة ومحددة في الزمان والمكان ، وتنتفي استقلالته عن الاطار العام لتلك العلاقة الاجتماعية التاريخية . بمعنى ان الحدث الاجتماعي ليس هدفا تاريخيا يسعى اليه المؤرخ لذاته ، وليس حقيقة تاريخية مطلقة ، فالحقيقة التاريخية الفردية المطلقة لا وجود لها في التاريخ الاجتماعي ، بل هنالك قوانين موضوعية تتحقق في الزمن التاريخي وتتراكم بفضل نشاط الناس وقدراتهم ككائنات واعية . فليس ثمة هدف داخلي ، لا في التاريخ ولا في الحدث التاريخي ، حركه منذ البداية ولا زال يحركه ، بل سير التاريخ عملية مشروطة لها اسبابها وقوانينها ونتائجها . وهذه الاسباب والقوانين والنتائج موجودة في النشاط الانساني وحده الذي يحدد الاهداف التي يضعها الناس نصب اعينهم ويحدد معها كذلك امكانية تحقيقها، ضمن التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية لتطور هذا المجتمع بالذات .

هل يعني هذا ان هنالك قوانين تاريخية « جاهزة » استعنا بها فطبقتها على المجتمع اللبناني باسم « نظرية التاريخ الاجتماعي » ؟ في الواقع ، نحن لا نؤمن بوجود مثل هذه القوالب الجامدة اطلاقا ، الا ان تكوين المؤرخ الثقافي ذو اثر هام في دراسته وتحليله واستنتاجاته . فلا وجود لمؤرخ دون ثقافة تاريخية . هذه الثقافة التاريخية بالذات هي المنطلق النظري والاساسي لتحديد عمل المؤرخ وكتابته للتاريخ . فنحن لم ننتقل من افكار مسبقة و « قوانين جاهزة » نحاول ايجاد الدعم والاستشهادات لها في تاريخ لبنان المعاصر ، بل كان جهدنا منصبا على تحليل جميع المعطيات والحقائق

التاريخية المتوافرة لدينا بكثرة لاستنتاج تلك القوانين الخاصة بتطور المجتمع اللبناني . وبالتالي ، كان انطلاقنا من الحقائق التاريخية التي هي نتاج تاريخي لنشاط اللبنانيين انفسهم وذلك لاستنباش القوانين التاريخية لتطور المجتمع اللبناني وفهمه ورسم آفاق تطوره بحيث تناولنا الفترة التي درسناها كسبب للفترة التي سبقتها وكسبب للفترة التي لحقت بها . فكان هدفي اذاً ، كمؤرخ اجتماعي يدرس تاريخ لبنان ، تحليل الماضي واعطاء صورة عن المستقبل في الوقت نفسه . وصورة المستقبل هذه، لا تعني استشفاف الغيب او التنجيم ، بل ابراز التناقضات الطبقية التي بدأت تظهر وتنمو في الماضي ، والتي ستشدد وتقوى في المستقبل القريب ، لتلعب دور القوى الصدامية الاساسية كمحرك رئيسي للصراع . وبدون هذا البعد المستقبلي يفقد التاريخ الاجتماعي دوره كمحلل لصراع الطبقات وعلم شامل لباقي العلوم الاجتماعية والانسانية لينزوي في احدى زواياها كواحد منها ، وينتفي وجوده كعلم انساني يشمل باقي العلوم .

وبسبب قصر الفترة الزمنية التي يتناولها هذا الكتاب ، لم يكن بالإمكان اعطاء استنتاجات وافية حول تطور لبنان في عهد الانتداب بأكمله ، فالدراسة التالية : « المجتمع اللبناني من الجمهورية الى الاستقلال » والتي ما زالت قيد الاعداد ، ستبرز بوضوح قوانين ذلك التطور التاريخي للبنان بين الحربين العالميتين . لذا يقتضي التنويه ان الاستنتاجات هنا لا تنحج بالضرورة على كامل عهد الانتداب بل يقتصر العديد منها على السمات البارزة للمجتمع اللبناني منذ نهاية الحرب العالمية الاولى حتى اعلان الجمهورية في ظل الفرنسيين . وآمل ان يكون هذا الكتاب لبنة صالحة في مدماك دراسة تاريخنا المعاصر على أسس أكثر موضوعية وشمولاً .

وأخيراً لا بد من اسداء الشكر سلفاً لكل من سببهم في نقد منهجية وافكار واستنتاجات هذا الكتاب . فبالنقد البناء المدعوم بالوثائق التاريخية الدقيقة، وبالبعد عن الانفعالية والسطحية في التحليل ، نستطيع الكشف عن القوانين الموضوعية لتطور المجتمع اللبناني المعاصر ، وكتابة تاريخ اللبنانيين ، كل اللبنانيين .

مسعود ضاهر

بيروت في ٢ ايار ١٩٧٤

الباب الأول :
من لبنات الصغير الى لبنات الكبير

□ الفصل الأول □ سياسة الوفاق الاستعماري في الشرق الاوسط وفرض الانتداب على سوريا ولبنان

القطب الشرقي لمحور السياسة الاستعمارية الفرنسية

منذ مطلع القرن التاسع عشر ، بدأ الاستعمار الاوروبي بالسيطرة المباشرة على بعض ولايات السلطنة العثمانية او الرجل المريض ، كما كانوا يسمونها ، وذلك باختيارهم نقاطا استراتيجية على البحر الابيض المتوسط لتكون فيما بعد منطلقا لتوسعهم الشامل داخل السلطنة بعد ان عبث نظام الامتيازات الاجنبية المعمول به في معظم ارجاء الدولة العثمانية وولاياتها الطريق امام هذا التوسع . « فقد تأكد تفوق اوروبا في هذا القرن وظهر الى الوجود - كما يقول مكسيم رودنسون - عن طريق السيطرة الاستعمارية المباشرة » (١) .

وبالرغم من ان فرنسا استطاعت بسط سيطرتها على الجزائر وتونس في نهاية ذلك القرن ، فانها بقيت دون موطىء قدم لها في شرقي البحر الابيض المتوسط ، في حين كانت بريطانيا تسيطر على الطرق التجارية الكبرى التي تحتاج اليها في اتصالاتها مع الهند ، وتحتل مباشرة اجزاء من سواحل اليمن وتسيطر فعليا على مصر والسودان ومناطق واسعة من الخليج العربي .

« ففي مطلع القرن العشرين لم تكن الامبراطورية العثمانية قد ماتت بعد ، بل كانت مريضة فقط . وكنتم معشر الاستعماريين الفرنسيين والانكليز تدعونها بالرجل المريض ، لكنكم اتفقتم على تقاسم اراضيها منذ زمن بعيد » (٢) .

وكان لجبل لبنان وضع مميز ازاء الامبراطورية العثمانية منذ اعلان نظام المتصرفية . كما كان للفرنسيين معرفة واسعة وشاملة عن هذا الوضع المتميز ، فهم الذين شاركوا في خلقه منذ اواسط القرن التاسع عشر . « لقد استفاد المستعمرون الاوروبيون ، وبشكل خاص الفرنسيون والانكليز منهم ، من موقع جبل لبنان الاستراتيجي لاثارة الخلافات الطائفية هناك ، ولممارسة تأثير سياسي ، عن هذا

Maxime Rodinson « Marxisme et monde Musulman » — P. 344. (١)

Doriot « La Syrie aux Syriens » — P. 8. (٢)

الطريق ، على الباب العالي نفسه « (٢) .

لذا كان لجبل لبنان دور بارز ضمن الخطوط العريضة للاستراتيجية الاستعمارية الفرنسية والانكليزية ، تلك الخطوط التي تميزت بوضوح منذ عام ١٨٦٠ . فرنسا تبحث عن مركز استراتيجي لها في شرق المتوسط ، بينما تقاوم بريطانيا باصرار للحيلولة دون بروز مرتقب لقوة عسكرية فرنسية في هذه المنطقة وتستخدم كل نفوذها وقواها العسكرية للوقوف في وجه اية قوة فرنسية تحاول البقاء فيها . وضمن هذا الاطار يمكن تفسير افسال حملة نابوليون الثالث عام ١٨٦٠ . اما متصرفية جبل لبنان ، التي انشئت مباشرة على اعقاب تلك الحملة ، فلم تعتمد على الحماية الفرنسية الوحيدة الجانب ، بل على حامية اوروية جاعية شكلت الفرنسية منها جزءا هاما ولا شك .

فالاطماع الفرنسية كانت متجهة نحو سوريا وجبل لبنان لما يشكلان من اهمية حيوية بالنسبة لمستقبل المصالح الفرنسية في البحر المتوسط . وقد صرح جورج ليغ ، وهو وزير سابق للبحرية الفرنسية ، بأن « محور السياسة الفرنسية قائم في البحر المتوسط » . واذاف « ان احد قطبي هذا المحور قائم في المغرب اي في تونس ومراكش ، والآخر في المشرق عبر سوريا ولبنان ، اللذين يشكلان احد الميادين المفضلة للنشاط الفرنسي ، نظرا لمصالحنا الاقتصادية ، ولنفوذنا المعنوي فيها » (٤) .

غير ان حدة النزاع مع بريطانيا التي سارعت الى توسيع تبادلها التجاري مع المتصرفية بحيث بقيت تحافظ على المرتبة الاولى في حجم مبادلاتها التجارية حتى عام ١٩٢٦ ، اي بعد فرض الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان فيما بعد بست سنوات . هذا النزاع الشديد النابع من استراتيجية كلا الدولتين التي تكلمنا عنها ، دفع فرنسا الى زيادة رؤوس اموالها العامة ، لا في جبل لبنان وسوريا فحسب ، بل في الامبراطورية العثمانية برمتها . ففي حين كانت العلاقات الاقتصادية بين فرنسا وجبل لبنان قوية ، وحيدة الجانب ، تقتصر آنذاك على تجارة الحرير ، فان التنظيمات العثمانية (٥) سمحت باجتذاب رؤوس الاموال الاوروية ، وبخاصة

(٢) Dominique Chevalier « La Société du Mont-Liban à l'Époque de la Révolution Industrielle en Europe » — P. 287.

V. aussi : Toufik Touma « Les Paysans et les Institutions Féodales chez les Druzes et les Maronites du XVIIe siècle jusqu'au 1914 » — P. 297.

(٤) Joseph Achkar « L'évolution politique de la Syrie et du Grand-Liban — Thèse — P. 31.

(٥) تلك التنظيمات التي صدرت ١٨٢٩ و ١٨٥٦ و ١٨٧٤ و ابرزها تنظيمات ١٨٥٦ التي جاء فيها « اقرار امتيازات الطوائف غير الاسلامية (المادة الاولى) والسماح لها بالحرية في ممارسة شعائرها الدينية وبناء معابدها بشروط يتواتر بينها التسامح (المادة الثانية) واعلان المساواة في المعاملة بين جميع الطوائف (المادة الثالثة) وحق الدخول الى الوظائف والاستفادة من الخدمات التعليمية لجميع الرعايا (الرابعة) وانشاء محاكم مختلطة مع الابقاء على المحاكم الطائفية لغير المسلمين (السابعة) ومنع تزييم الضرائب (الثامنة) وتنظيم ميزانية الدولة (التاسعة) واشراك رؤساء الجماعات والطوائف في مناقشات المجلس العالي المتعلق بشؤونهم (العاشرة) والوعد باجراء اصلاحات شاملة في المجالات المالية والمواصلات والمصارف والزراعة والتجارة (الحادية عشرة) .

الفرنسية منها الى داخل السلطنة بعد ان منحها الدولة التركية ضمانات اكيدة وكافية ووضعت تحت تصرفها جميع الموارد الرئيسية للسلطنة التي افلست ماليا بسبب القروض (٩) الواسعة والمتكررة منذ اواسط القرن التاسع عشر . وبعكس جبل لبنان وسوريا ، كانت السلطنة العثمانية تشكل مجموعة اقتصادية شديدة التنوع ووافرة الارياح . لذا سترتفع فيها حصة الرساميل الفرنسية ارتفاعا هائلا في مطلع القرن العشرين .

ففي عام ١٩٠٥ ، كانت بريطانيا العظمى تمتلك في الامبراطورية العثمانية اكثر من ٢٠٠ مليون فرنك ، وتأتي بعدها المانيا وفرنسا - هنغاريا على مستوى واحد بمبلغ مئة مليون فرنك ثم ايطاليا بسبعين مليون ، اما حصة فرنسا فلم تتجاوز الخمسين مليون فرنك .

هذا الوضع سينقلب برمته عشية الحرب العالمية الاولى حيث توزعت حصص الرساميل في الدين العمومي العثماني وفي الشركات الخاصة العاملة في السلطنة العثمانية على الشكل التالي :

الشركات الخاصة	الدين العام
فرنسا	٪ ٦٠،٦٣
لانكلترا	٪ ١٤،٣٦
لالمانيا (٧)	٪ ٢١،٣١

لقد اصحت رؤوس الاموال الفرنسية في الامبراطورية العثمانية تمثل لوحدها اكثر من ثلاثة مليارات من الفرنكات الذهبية وبالضبط ٣ مليارات و ٢٨٥ مليون و ٢٧٣ الفا و ٣٧٧ فرنكا ذهبيا اي ما يعادل نسبة ٥٩،٠١٪ (٨) من الدين الخارجي العام الثابت و ٨١،٨٣٪ من الدين الداخلي او المتحرك . واصبحت جميع شركات المناجم العاملة آنذاك في السلطنة العثمانية ذات رؤوس اموال فرنسية كما اضحى لفرنسا نسبة ٨٨،٦٥٪ من اسهم شركات المياه و ٦٧،٩٧٪ من اسهم شركات المرافئ والارصفة ، و ٤٦،٦٩٪ في رؤوس الاموال العاملة في السكك الحديدية ، و ٣٧،٧٧٪ من رساميل المصارف ، و ٦٢،٨٢٪ من اسهم باقي المشاريع الاخرى (٩) .

لقد اتخذ التفلفل الاقتصادي الفرنسي في تركيا طابع الفوز المالي . فمشاريع

➔ راجع كتاب عبد العزيز عوض « الادارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤ - ١٩١٤ » ص ١٩ وما يليها .

(٦) للتفصيل راجع الكتاب الهام :

Jean Ducruet : « Les Capitaux Européens au Proche-Orient » — P.P. 102 et suivantes.

L'Asie Française — No. 175 — Juillet 1919 — P.P. 181 et s.

Maurice Desjardins « Le Problème Syrien du Point de Vue Economique » — P. 28.

L'Asie Française — No. 175 — P. 182.

البناء الخاصة والعامّة ، وتجهيز وتوسيع المرافق ، وشق طرق المواصلات ، ومد الخطوط الحديدية ، والمشاريع البلدية الكبرى كالإنارة والهاتف والتلغراف ، والنقل العام وغيرها كانت تخص ، كليا أو جزئيا ، شركات فرنسية بالإضافة الى ادارة الدين العمومي العثماني وادارة حصر التبغ والتبناك ، وادارة حصر الملح التي كانت بأغلبية رساميلها الساحقة للفرنسيين .

ويشير اتيان فلانندان الى « ان فرنسا كانت تحتل المرتبة المالية الاولى في السلطنة العثمانية قبل حرب ١٩١٤ . كما كانت تحتل المرتبة الاولى كذلك في مشاريع الاشغال العامة المنفذة والمنوحة بالتزيم ، والمرتبة الاولى ايضا في أهمية مؤسساتها الطبية والتعليمية ، وكذلك بالنسبة لمجموع السكان المطالبين بحمايتها وعونها » . ثم يضيف « فلو جمعت المصالح المادية والمعنوية لانكلترا وايطاليا والمانيا وروسيا والولايات المتحدة الاميركية كلها في الامبراطورية العثمانية في فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى مباشرة ، لما بلغت جميعها حاصلا يمكن مقارنته بمجموع مصالح فرنسا لوحدها ، والتي كانت تمتلك منفردة هناك ٦٠٪ من مجموع الدين العمومي العثماني » (١٠) .

اما النائب كاستيلاني فيؤكد في تقريره لمجلس النواب الفرنسي بصد مناقشة معاهدة السلام المبرمة في لوزان في ٢٤ تموز ١٩٢٣ ان « من اصل الدين العثماني البالغ ١٦٠ مليون ليرة تركية ذهبية ، اي ما يعادل ٣ مليارات و ٧٠٥ مليون فرنك ذهبي ، كان اكثر من ٦٠٪ منها يعود مباشرة الى دائنين فرنسيين » (١١) .

هذا الهدف الذي وضعته فرنسا نصب عينها بالسيطرة التامة على الشرايين الحيوية لاقتصاد الامبراطورية العثمانية بدا واضحا في تخوف سفير فرنسا في القسطنطينية الذي كتب عام ١٩١٣ الى حكومته يقول : « انني اعتقد ، ويشاركني كثيرون هنا هذا الاعتقاد ، ان الامبراطورية العثمانية قد انتهت ، سواء في آسيا او في اوروبا . ولكن ، اليس من مصلحتنا نحن ان نطيل في امد احتضارها حتى لا تقسم تركتها على عكس ما نصبو اليه ؟ فالهم الآن هو توفير القروض للحكومة التركية التي لا بد وان تمنحنا امتيازات خاصة و ضمانات جديدة مقابل دعمنا لها وتضحياتنا في سبيلها » (١٢) .

ان موجة تفلغل الرساميل الفرنسية في ارجاء السلطنة العثمانية قد انعكست بشكل واضح على سوريا وجبل لبنان المصرفية . فقدّر مجموع الرساميل الفرنسية الموظفة فيهما ، قبيل الحرب العالمية الاولى بأكثر من مئتي (١٣) مليون فرنك فرنسي سيطرت على سكك الحديد ومرفأ بيروت وشركات الكهرباء والمياه وفروع البنك الامبراطوري العثماني . وتوجهت تلك المبادلات التجارية من سوريا (١٤) وجبل لبنان

(١٠) Correspondance d'Orient — No. 261 du 15 Mai 1921 — P. 397 « La Politique Française en Orient » .

(١١) L'Asie Française — Documents — Supplément du No. 225 — Septembre- Octobre 1924.

(١٢) Cité par Najib Sadaka : « La question Syrienne pendant la Guerre » Thèse — P. 7.

(١٣) Doriot — op. cit. p. 8 et Maxime Nicolas « Questions Monétaires en Syrie » — P. 21.

(١٤) Antoine Khair « Le Moutaçarrafat du Mont-Liban » — P. 24.

الى فرنسا خاصة في مجالات التحرير والجلود الخام والمذبوغة والحبوب والحيوانات الحية وغيرها . ولكن ، هل كان بوسع فرنسا إيقاف احتضار الامبراطورية العثمانية ؟ فان كانت غير قادرة على ذلك ، فلا اقل من العمل على ألا يتم اقتسام اراضيها على حساب مصالح فرنسا ، كما يوصي سفيرها في الاستانة . وان كان لا بد من تجزئة الامبراطورية العثمانية ، فان السيد ريمون بوانكاريه يحذر ، قبل سفيره بعام واحد ، أي منذ ١٩١٢ ، قائلا : « ان لنا في لبنان وسوريا مصالح تقليدية ، ونحن عازمون على فرض احترام الجميع لها » (١٥) .

وقد علقت جريدة « الشعب » التي كانت تصدر في الباروك على هذا التهديد الفرنسي تحت عنوان « هل تحتل فرنسا سوريا ؟ وهل يشمل الاحتلال لبنان ؟ » وجاء في تعليق صحيفة « الشعب » : « فالدولة الفرنسية ، وهي المشهورة باحترام الحقوق ، والتي ما كانت في يوم من الايام الانصيرة للانسانية ، لا يعقل ان تقدم على هذا الاحتلال . اما في لبنان ، فلا نعتقد ان لبنانيا واحدا يسهل عنده احتلال فرنسا للبنان » (١٦) .

لقد ادرك الكثير من اللبنانيين والسوريين آنذاك اطماع فرنسا الاستعمارية في المنطقة . فهي لا تسيطر على اية رقعة في شرقي البحر الابيض المتوسط ولن يكون بإمكانها ترك بريطانيا طليقة اليدين في هذه المنطقة التي تكشف عن ثروة نفطية هائلة في ايران والموصل .

اما روبر دو كيه ، المندوب السامي بالوكالة ورجل الرساميل الفرنسية القوي في امانة سر الادارة المنتدبة في بيروت لاحقا ، فكان اكثر وضوحا من بوانكاريه في رسم الدور المتوقع على فرنسا القيام به في سوريا ولبنان . فقد كتب عام ١٩١٥ . يقول : « اننا لا نعلم كيف ستسوى الامور بالنسبة لاراضي الامبراطورية العثمانية في نهاية هذه الحرب التي اشتركت فيها الامبراطورية بهذا الشكل الجنوني والاحمق ، لكننا واثقون من شيء واحد على الاقل ، لأنه لا يتوقف الا على مشيئتنا نحن بالذات ، وهو ان نظاما اصلح سيمنح لسوريا تحت اشرافنا ، سواء ابقى في هذه البلاد اثر للسلطة العثمانية ام لم يبق ، ولن يتم فيها (سوريا) اي مشروع بعد الآن الا بعد موافقتنا المسبقة عليه » (١٧) .

وارسل جان كوانيه ، رئيس غرفة التجارة في مدينة ليون خطابا هاما في السابع من حزيران ١٩١٥ ، باسمه وباسم رجال الاعمال اللبانيين ، الى وزير الخارجية الفرنسية دلكاسيه قال فيه : « اننا لا نتصور ان الحرب الحالية ستعطي نتائج بارزة في الشرق الاوسط ، سوى تلك التي تعزز مكاسبنا ومستقبل مصالحنا الموجودة هناك الآن . . . ان سوريا (لبنان من ضمنها) لمن أبرز المنتجين للتحرير ،

(١٥) Charles Ayyoub « Les Mandats Orientaux » — Thèse — P. 11, et Sadaka — op. cit. p. 17.

(١٦) جريدة الشعب عدد ٥ كانون الاول ١٩١٢ — من كتاب المنفى لرشيد نخله — نشر وتقديم امين نخله ص ١٢٢ .

(١٧) Robert de Caix « L'Asie Française » — No. 161 — Janvier-Mars 1915 — P. 28.

وهذا يعني انها ستبعب سوقنا اللبونية الواسعة حتما» (١٨) .
 ايس من الواضح اذا ان مصر سوريا وجبل لبنان قد رسم قبل مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠ بوقت طويل ؟ الم يكن من الواضح ان جميع الاعمال الدبلوماسية لحكومات بأريس المتعاقبة منذ ١٩١٢ ، كانت تصب في الاتجاه الرامي الى ربط سوريا وجبل لبنان نهائيا بالسيطرة الفرنسية المباشرة بعد ان قام الراسمال الفرنسي بربط هذين البلبدين بتبعية واسعة قبل الحرب بالذات ؟ وباعتراف الفرنسيين انفسهم « فان النفوذ الفرنسي في سوريا ولبنان ، قبل ١٩١٤ ، كان متفلا حتى النخاع الشوكي » (١٩) .

التفتيش عن دعم داخلي للمخططات الفرنسية

لقد ادركت فرنسا ، ولا شك ، ان نهاية السلطنة العثمانية باتت وشيكة . وكان لا بد من ايجاد دعم داخلي لتوظيفاتها المالية والاقتصادية في سوريا ولبنان . وانقلب اصداق فرنسا ، بين ليلة وضحاها ، الى تعداد مساويء المتصرفية بعد ان كانوا يتفزلون بهذا النظام ويرددون « هنيئا لمن له مرقد عنزة في جبل لبنان » . وقام مجلس بلدية زحلة بوجه مذكرة في عام ١٩١٣ باسم جميع مجالس بلديات جبل لبنان ، الى المتصرف اوهانس باشا تحت عنوان « البقاع للبنانيين » جاء فيها : « ان لبنان الحالي هو سلسلة من الجبال تتناثر فيها قري صغيرة ، اما اللبنانيون ، فقد هاجر منهم ثلاثمائة الف الى اميركا وغيرها ، واذا لم تتكرم الدول الكبرى ، وفرنسا بشكل خاص ، ان تعيد الى الجبل حدوده الطبيعية ، فسيجد شعبنا نفسه محكوما عليه اما بالزوال واما بسلوك طريق المنفى » . وتنتهي المذكرة ، البالغ عدد صفحاتها ١٨ صفحة ، بهذه العبارة « ان فرنسا ، ذلك الجندي المرسل من الله ومن اوروبا ، مدعوة بفخار الى مساعدة جبل لبنان المسكين » (٢٠) .

وفي نفس العام ، جرى التحضير في مدينة بيروت لاضراب شامل دعت اليه جمعية بيروت الاصلاحية في ١٢ آذار ١٩١٣ وكانت لجنتها التنفيذية مؤلفة من نخله تويني ، يوسف الهاني ، بترو طراد ، ايوب ثابت ، رزق الله ارقش و خليل زينيه (٢١) . وقام اعضاء الجمعية ومؤيدوها يطالبون بضم بيروت الى جبل لبنان المتصرفية ، في الوقت الذي كانت فيه مركزا لولاية تخضع مباشرة للباب العالي ، ويدعون الى توسيع حدود لبنان المتصرفية نحو البحر والسهول الداخلية .

وقام مهاجرون لبنانيون ، خاصة من الذين تربوا في المدارس اليسوعية و يقيمون في فرنسا ، يعملون في الوقت نفسه من اجل توسيع جبل لبنان مع ضمان فرنسا لهذا التوسيع . « الى جانب مبدأ استقلالنا ، يقول خير الله خير الله ، نطالب بكامل

Cité par D. Chevallier « Lyon et la Syrie en 1919 » — Revue Historique (١٨)
 — No. 224 — P. 306.

René de Gontaut-Biron « Comment la France s'est installée en Syrie ? » (١٩)
 — P. 5.

« البقاع للبنانيين » ص ٩ — ١٠ ، مذكرة تقدم بها مجلس بلدية زحلة في عام ١٩١٣ نيابة من جميع المجالس البلدية في جبل لبنان المتصرفية .

Najib Dahdah « L'évolution historique du Liban » — P. 138. (٢١)

أراضينا ضمن حدودها الطبيعية . اننا نطالب بهذه الارض التي كانت لنا بالملكية الدائمة العريقة ، اننا نطالب بهذه الاراضي كاملة غير منقوصة » (٢٢) .

ولعب الوجود التبشيري الفرنسي (٢٣) في جبل لبنان بشكل خاص ، حيث يتمركز العدد الاكبر من افراد الهيئة التعليمية التي كانت غالبيتها من المبشرين الفرنسيين ، وكذلك جامعة القديس يوسف بيروت ، دورا اساسيا في الدعوة لتوسيع حدود لبنان المتصرفية ولطلب ضمان فرنسا للوطن المسيحي المنوي اقامته . فحتى عام ١٩١٤ كانت فرنسا تؤمن السيطرة على ٥٠٪ من المدارس والطلاب في سوريا ولبنان . وقد ساعد وجود المبشرين الفرنسيين كثيرا على ازدياد النفوذ الفرنسي بشكل هائل . لذا جاء هذا التأييد للحماية الفرنسية في الداخل والخارج ، مضافا الى نفوذ المصالح الاقتصادية الفرنسية في الداخل والخارج ، ليشكل مصلحة مشتركة بين اصحاب الرساميل الفرنسية ودعاة توسيع الجبل اللبناني نحو ما سموه بالحدود التاريخية للبنان . صحيح ان توسيع جبل لبنان نحو تلك الحدود « التاريخية » يشمل بيروت وطرابلس وسهل البقاع وعكار ومرجعيون وصيدا وصور ووادي التيم ، سيشكل الحلقة الاولى في المخطط الفرنسي الرامي الى السيطرة الكاملة على سوريا ، غير ان هذا التوسيع ، كان في الواقع ضرورة حيوية لسكان الجبل ، بعد ان اثبت تكوين المتصرفية انه لم يعد قابلا للحياة ، وان حربا محلية او عالمية ، كما كان يلوح في الافق ، ستكون بالغة الضرر على سكان المتصرفية .

ومن الملاحظ ان دعاة « استقلال لبنان ضمن حدوده الطبيعية » كانوا مجموعات متفاوتة في الوعي لاهداف ذلك الاستقلال ويفلب عليهم طابع الطائفية المسيحية الماروني داخليا ، وطابع الارتباط الفرنسي خارجيا ، وطابع التربية على ايدي المدارس اليسوعية ثقافيا . لكن اثرهم بقي ضئيلا قبل الحرب العالمية الاولى ولن يبرز بقوة الا بعد انتصار الحلفاء على تركيا .

موقف اللبنانيين ايام الحرب العالمية الاولى

ما ان دخلت تركيا الحرب عام ١٩١٥ حتى اضطرت كافة البعثات الفرنسية والحليفة الى مفادرة سوريا ولبنان ، فاحتلت ابنتها واغلقت جميع المدارس الخاصة تقريبا ، واعلنت تركيا الغاء استقلال جبل لبنان وانهاء نظام الامتيازات (٢٤) بالنسبة لجميع الدول فيه .

وجاء جمال باشا ، القائد العام للجيش التركي في المنطقة ، يعمل على القضاء ، وبصورة منتظمة ، على القسم الاكبر من المثقفين الوطنيين في البلاد ، من دعاة

(٢٢) من محاضرة القيت في باريس في ٢٨ ايار ١٩١٥ .

K. Khairallah « La question du Liban » — P. 44.

Pierre Lyauty « Le Liban moderne » — P. 41, et Pierre Renouvin « La crise européenne et la première guerre mondiale » — P. 21.

Haut Commissariat « La Syrie et le Liban en 1922 » — P. 88, et Edmond Rabbath « La formation historique du Liban politique et constitutionnel » — P. 251.

الوحدة مع سوريا او الانفصال عنها على السواء ، وذلك عن طريق النفي والسجن والشنق . يضاف الى هذا ان الحركة التجارية بيروت انخفضت انخفاضا هائلا بسبب الحصار البحري المفروض على مرفئها والذي شاركت فيه بريطانيا بالذات ، مما أدى الى ارتفاع جنوني في الاسعار والى نفاذ المواد الغذائية من الاسواق .

ان اساليب جمال باشا الوحشية ، والمجاعة والابوثة المنتشرة في كافة المناطق اللبنانية بسبب الحرب والجوع ، في نفس الوقت الذي كان الجراد يعيث فسادا في المناطق اللبنانية الى جانب الطاعون والملاريا ، ادت جميعا الى فقدان جبل لبنان المتصرفية لاكثر من ثلث سكانه . ففي تقرير للدكتور جوزف زيادة عن تلك الفترة يقول : « يمكن للمرء ان يصيب كبد الحقيقة في تقديره لعدد ضحايا المجاعة في لبنان بأكثر من مئتي الف انسان . ففي البترون مثلا ، والتي كانت تضم خمسة آلاف نسمة ، لم يبق منهم في نهاية عام ١٩١٦ سوى ألفين . وسكان قرية مار نعمة الذين كانوا يبلغون ٢٠٠ نسمة لم يبق منهم سوى ٦ اشخاص . وكان في عبدلي ٢٠٠٠ فلم يبق منهم سوى ١٥٠ نسمة ، ومن اصل ١٦٠ شخصا في روشه لم يبق سوى ٣٠ ، ومن ٣٠٠٠ مقيم في عبرين بقي ٥٠٠ فقط ، ومن ٣٠٠ نسمة في الذوق بقي ٧ اشخاص فقط ، وقد اختفى سكان نهر الذهب عن بكرة ابيهم بعد ان باعوا جرس كنيستهم » (٢٥) .

لقد دفعت اعمال جمال باشا جميع الوطنيين من دعاة الوحدة والانفصال الى المطالبة بالغاء النير العثماني ، وراحوا يطالبون متحدين بالاستقلال التام لسوريا مع اعطاء جبل لبنان استقلاله الذاتي القديم . وانجمت اهداف الوحدويين مع أحلام الشريف حسين الذي تبنى مطالبهم باستقلال سوريا في ظل ملكه .

وكانت لعلاقة الشريف حسين وأبنائه وكثير من دعاة الوحدة الوثيقي الاتصال بالانكليز ما وضع هؤلاء جميعا في موقف حرج للغاية نتيجة التقلبات المستمرة في السياسة البريطانية آنذاك . فقد اعترفت لهم علانية في بادىء الامر بمملكة عربية مستقلة يرئسها الملك حسين ، ثم تنكرت لوعودها بعد الحرب ، وضفطت على الامر فيصل للاتفاق مع كليمنصو وقبول الانتداب الفرنسي ، وقبول وعد بلفور ، واصدار اتفاقية مع وايزمن الصهيوني وغيرها .

صحيح ان دعاة الوحدة السورية في لبنان وجدوا في الدعوة الى توسيع الجبل نحو المناطق المنتجة للحبوب توسيعا لرقعة النفوذ الفرنسي ، غير ان ارتباطهم بالسياسة البريطانية ساعد رجال الحملة الفرنسية ودعاة الانفصال على تصويرهم امام جماهير السكان بأنهم مجرد عملاء او تابعين للانكليز . وسرعان ما بدأت حركة تمايز سياسي واضحة داخل دعاة الوحدة مع سوريا اذ قام الجناح الاكثر تقدما (٢٦) .

(٢٥) Cité par R. de Gontaut-Biron « Comment la France... » — P. 88, et Chikri Ghanem « L'opinion syrienne à l'étranger pendant la guerre », Documents du comité central syrien — P. 10.

وقد تدرت مجلة «اسيا الفرنسية» عدد مئتي الجوع في جبل لبنان بسنة وثمانين الفا . ملحق العدد ١٩٩ — شباط ١٩٢٢ — ص ٦ .

(٢٦) من ابرز دماء هذا التيار ندره مطران صاحب كتاب « La Syrie de demain » . — الصادر عام

منهم بتبيان المخاطر التي تنجم عن الارتباط بقوة امبريالية ، فرنسية كانت ام انكليزية ، ودعا الى وجوب تحرير سوريا ولبنان من نير اية قوة اجنبية والعمل للاستقلال التام عن تركيا واوروبا .

كما طالبوا بدولة اتحادية عربية مع رفض تجزئة سوريا الى ما يسمى بدويلات مستقلة على اساس طائفي ، واصبح هذا الجناح الوحدوي بالغ القوة طيلة الفترة التي تلت الحرب مباشرة ، وقد تزعمه الامير زيد ، شقيق الامير فيصل .

وبالمقابل ، فان النفوذ الفرنسي ضعف كثيرا ، ان لم نقل زال بدخول الجيش التركي ، طيلة فترة الحرب ، يوم كان كل تعاطف مع فرنسا يعاقب عليه بالشنق او بالنفي ، ويوم هجر لبنان جميع اولئك الذين كان يطلق عليهم لقب «اصدقاء فرنسا» (٢٧) الى خارج لبنان ، خاصة الى فرنسا ومصر ويقوا هناك حتى وضعت الحرب اوزارها فبدأ قسم كبير منهم يعود الى لبنان بمساعدة الفرنسيين بالذات .

لذا اقتصر الدعوة الى توسيع جبل لبنان نحو حدوده التاريخية على بعض المهاجرين اللبنانيين في مصر واميركا وفرنسا دون ان يتجاهلوا مطلب الوحدة السورية على اساس مساعدة فرنسا لهذا الاتحاد . حتى في باريس بالذات ، حيث كان دعاء هذا التيار يتمتعون بالحرية التامة في التعبير عن مطالبهم ، قامت اللجنة المركزية السورية في ١٩١٨ باعلان برنامجها على اساس النقاط التالية :

- ١ - اقامة الوحدة السورية ، نواة الانبعاث العربي الشامل .
- ب - اقامة نظام اتحادي في سوريا .
- ج - طلب المساعدة الفرنسية (٢٨) .

→ ١٩١٦ والامر شكيب ارملان ، والامام رشيد رضا ، والامير امين الريحاني . وقد التقى دعاء هذا التيار جميعا على رفض الوصاية الفرنسية او الانكليزية كما عبر عن ذلك الامام رشيد رضا « اما اما نقول لكم ان الدولتين الحظيقتين (بريطانيا وفرنسا) قد اتفقتا على قسمة بلادكم فيما بينهما لاستعبادكم باستعمارها » - المنار - المجلد ٢٢ الجزء ٦ - ص ٥٦ .

وقد وجد البعض منهم ان لا خطر من الاتراك بل من الاجانب ، ففي المقال السابق نفسه وهو بعنوان « الفرق بين الترك والامرنج عند العرب » يضيف رشيد رضا قائلا : ان الترك ضعفاء وجاهلون مثلنا فلا يستطيعوا ان يستعبدونا اذا نحن تنبنا لحقوقنا . اما انكثروا وفرنسا فهما اقوى منا في كل شيء فلا نستطيع ان (نتخلص) من عقابهما اذا هما استولتا علينا - هم اقوى منا في العلم ، هم اقوى منا في المال ، هم اقوى منا في السياسة ، هم اقوى منا في الحرب » المنار - المصدر السابق ص ٥٦ .

(٢٧) « لما ينس الافرنسيون من التفاهم مع الشريفين على مصر سوريا ، انشأوا في مصر وفي اواخر ١٩١٧ هيئة باسم « جمعية الدفاع عن حقوق سوريا ولبنان » ، وولوا رئاستها عبدالله صفر باشا ، وهو لبناني متحضر ، لنشر الدعاية لفرنسا بين السوريين واللبنانيين . وكان ما اقترحه انشاء دولة مستقلة للبنان ، تحت حماية فرنسا على ان توسع حدودها فتشمل طرابلس وصيدا وصور وسهل البقاع » .

امين سعيد - « اسرار الثورة العربية الكبرى » ص ١٩١
والمنار - المجلد ٢١ - الجزء الرابع - مقالة المسألة السورية والاحزاب ص ٥٠٢ .

Le Comité Central Syrien « Documents » op. cit. p. 24.

(٢٨)

من البرنامج الذي ادلى به السكرتير العام لهذه اللجنة ، الدكتور جورج سونة ، في باريس في ٧ آذار

. ١٩١٨

بروز الصراع مجددا بين حلفاء الامس الفرنسيين والانكليز

« ان انتصار الحلفاء لم يكن انتصارا لشركائهم العرب ، بل على العكس من ذلك ، فقد كان مهيبا لهم ان ينتقلوا من سيطرة محتل الى سيطرة آخر اسوا منه » (٢٩) .

فلم تجلب نهاية الحرب العالمية الاولى ، ولا دخول القوات الحليفة الى سوريا ولبنان ، ولا نشوء عصبة الامم في جنيف ، اي نصر حقيقي لسكان هذين البلدين ولا للشعوب العربية عامة . وتميزت السنة الاولى لما بعد الحرب بالوجود الفرنسي العسكري الضئيل في سوريا ولبنان . فقد كانت المفرزة الفرنسية لا يتجاوز رجالها الفئ جندي ، انشئت بموجب قرار وزاري فرنسي بتاريخ ٢٨ كانون الثاني ١٩١٧ ووضعت تحت امره الكولونيل دو بياباب De Piéapape ، وكانت معدة في الاساس لتأمين الحراسة على الاماكن المقدسة والمؤسسات الفرنسية فقط (٣٠) . في حين كانت بريطانيا العظمى تمول بشكل او بآخر عام ١٩١٨ عددا كبيرا من الزعماء المحليين عند دخول الحملة الانكلو - فرنسية الى المنطقة ، وكان لها ١٧٥ كتيبة (٣١) عسكرية منظمة في الشرق الادنى . فهل كانت القوة الفرنسية العسكرية قادرة على تثبيت الحصة التي نالتها بموجب اتفاقية سايكس - بيكو ١٩١٦ ؟

عامل جديد نشأ ابان الحرب العظمى ، هو اندلاع ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى في روسيا سنة ١٩١٧ ، تلك الثورة التي وضعت الامبرياليتين ، الفرنسية والانكليزية ، منفردتين في مواجهة اطماعهما لاقتسام تركة الرجل المريض بعد ان اعلنت تلك الثورة رفضها لكامل المخططات الاستعمارية التي ابرمتها روسيا القيصرية وابرزها اتفاقية سايكس - بيكو - سazonوف (٣٢) . هذا الوضع الناشئ كان لصالح الامبريالية البريطانية في المنطقة حيث تتفوق على قرينتها الفرنسية بالسلاح والرجال والحلفاء المحليين والمصالح الاقتصادية والمخططات الاستعمارية . لذا حاولت بريطانيا استفلال هذا الوضع المستجد الى اقصى حدود الاستفلال بقصد اجبار فرنسا على تنازلات هامة لمصلحتها . فراحت تتحدث عن بطلان الاتفاقات المعقودة بين الحلفاء اثناء الحرب وتنصب نفسها وريثة وحيدة لحصة روسيا القيصرية التي كانت مخصصة لها بموجب

(٢٩) امين الريحاني - مجلة البقطة - السنة الاولى - العدد ٥ و ٦ - كانون اول وكانون الثاني ١٩٣٠ ص ١٥ .

(٣٠) — Jean Pichon « Le partage du Proche-Orient » — P. 142.

(٣١) — Correspondance d'Orient « La politique britannique dans le Proche-Orient » — No. 267-268 du 15-30 Août 1921 — P. 590.

وقد قدرت هذه المجلة عدد الذين كانت تبولهم بريطانيا لانغراض شتى في المنظمة انذاك بسبع مئة الف رجل .

(٣٢) سميت الاتفاقية بهذا الاسم او الاتفاقية الانكليزية - الفرنسية - الروسية المعقودة في ٢٦ نيسان ١٩١٦ . راجع نص هذه الاتفاقية في كتاب جورج انطونيوس « بقطة العرب » - الطبعة الثانية - ص ٥٧٨ - ٥٨٢ .

اتفاقية سايكس - بيكو . وقام مارك سايكس ، صاحب الاتفاقية الشهيرة ، بصرح داخل باريس بالذات ، في ٢٣ كانون الاول ١٩١٧ ، اي بعد قيام السلطة الثورية في موسكو بنحو خمسين يوما فقط ، بقوله : « ان عالم ما قبل الحرب قد مات ، ولكن عالم ما بعد الحرب لم يولد بعد » (٢٣) . وقد وضع هذا التصريح فرنسا في شك وحذر حيال الخطط السرية لانكلترا في المنطقة بعد ان ازداد دعمها المباشر للامير فيصل وتشجيعه علانية في « مشاريعه الاستقلالية » . وقام اللورد كيرزون ، وهو من ابرز رجالات السياسة البريطانية آنذاك ، يعلن ببالح الاسف ، من على منصة مجلس العموم البريطاني بلندن عن « تسرع » بريطانيا في توقيع اتفاقية سايكس - بيكو قبل ان تستجلي الامور جيدا ، ويختصر خطابه بالقول « لو كان يتعين علينا عقد اتفاقيات ١٩١٦ من جديد لما عقدناها » (٢٤) . واعتبر الاتفاق مجحفا بمصالح بريطانيا ويعطي فرنسا مناطق كان اخرى بها ان تكون من نصيب بريطانيا نظرا لعلاقتها الاقتصادية والسياسية الوثيقة معها .

وفي هذا الاتجاه بالذات قام الجنرال اللنبي ، القائد العام للقوات الحليفة في المنطقة ، بصدر القرارات المالية الهامة التي حصرت امتياز النقد الرسمي المتداول بالنقود الذهبية لمختلف الدول من جهة ، والنقود الفضية الانكليزية والمصرية والهندية والتركية ، وكذلك بالعملة الورقية المصرية ، مع استبعاد الفرنك الفرنسي الورقي من التداول واجبار فرنسا على ابدال عملة جنودها بالذات بالعملات المعترف بها . كما حدد بقرارات لاحقة الضرائب والالتزامات ورواتب الموظفين بالنقد المصري . فكانت خسارة فرنسا من جراء ذلك كبيرة جدا ، وقدرت لعام ١٩١٩ وحده بحوالي ١٢٨ مليون فرنك » (٢٥) .

وتحدثت جريدة « الديلي تيلغراف » ، الواسعة الانتشار آنذاك ، صراحة في عددها الصادر في الرابع من ايلول ١٩١٩ تقول « نحن - اي الانكليز - نعتبر انفسنا مرتبطين بفيصل بقدر ارتباطنا بالفرنسيين ان لم يكن اكثر » (٢٦) . وتحدثت بوضوح عن اقامة حكومة وطنية في سوريا ، يرئسها زعيم عربي ، وان مثل هذه الحكومة اصبحت امرا هاما بالنسبة لبريطانيا ، ويجري البحث فيها حاليا ويخطط لها باشراف الوزراء المفوضين الانكليز بالذات .

ويؤكد السيد ديدز ، المستشار البريطاني لشؤون الشرق الاوسط ذلك فيقول : « ان مفاوضاتنا مع جماعة الشريف حسين تدور فعلا حول انشاء مملكة عربية دينية زمنية ، وهذا هو ما يريده الحسين . اما انا شخصا - واظن ان معظمنا يري رأيي في هذا الامر - فارى ان هذا الامر ليس واقعا اذ انه يستحيل جمع كلمة جميع العرب في سوريا والعراق واليمن وغيرها من البلدان العربية الاخرى على الاعتراف

(٢٣) اللجنة المركزية السورية - وثائق حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ - المصدر السابق صفحة ٤ .

(٢٤) - Cité par Maurice Desjardins « Le problème syrien au point de vue économique » thèse - P. 106.

(٢٥) سعيد حماده - النظام النقدي والمصري في سوريا - ص ٥٣ .

(٢٦) اورد هذا الاستشهاد جوزف اشتر في اطروحته المذكورة سابقا ص ١٢٢ .

بحاكم زمني واحد . . . » (٢٧) (!)

فهل كانت بريطانيا « جادة » في تحقيق مشاريعها العربية ؟ وهل كانت مستعدة لرؤية مملكة عربية كبيرة ، او دولة قوية تبرز الى الوجود بصيغة وحدوية عربية على طريق الهند ؟ ألم تقا تل بضراوة ، ومنذ زمن بعيد ، ضد بروز مثل هذه الدولة العربية على هذا المفرق الهام من مفارق التجارة العالمية وطريق المصالح البريطانية ؟ وهل كان جنرالها اللبني جادا في خطابه الذي القا في ٢ تشرين الثاني ١٩١٨ ، عندما توجه الى الشعبين اللبناني والسوري بقوله « ان الحملة الفرنسية - الانكليزية لا هدف لها سوى التحرير التام والنهائي لشعوب ظلت زمنا طويلا تتحمل الاضطهاد من قبل الاتراك ، واقامة حكومة وطنية وادارة محلية تستمدان سلطتهما فقط من التمثيل الحر لشعبي المنطقة ؟ » (٢٨) .

والسؤال الاهم ، ذلك الذي تعرف فرنسا سلفا الجواب عنه ، وهو : هل انقلبت بريطانيا بين ليلة وضحاها الى محرر للشعوب العربية ، وداع لوحدها ، ام ان لها دوافع سياسية واقتصادية اخرى ؟

في الواقع ، ان المناورات البريطانية لم تكن تخفى على كليمنصو او على غيره من الساسة الفرنسيين في ذلك العهد . بل ادركوا بوضوح ان جل ما تريده بريطانيا هو تنازلات جديدة في الموصل ، وان دعمها للوحدويين السوريين لم يكن الا من قبيل الضغط على فرنسا ليس الا . وكان الفرنسيون يحاولون المساومة لابدال تنازلات مشتركة مع الانكليز ، فاذا كان لا بد من التنازل لهم عن الموصل ، فعلى الانكليز ان يتنازلوا بالمقابل عن سوريا وبكفوا عن مساعدة الامير فيصل . وهكذا تولدت مصلحة مشتركة لاتفاق وقع بين بريطانيا وفرنسا في الخامس عشر من ايلول ١٩١٩ وسمي باتفاق لويد جورج - كليمنصو (٢٩) والذي جرى على اساسه تقسيم الانتدابات في مؤتمر سان ريمو باللات . وقد لخص دوريو هذا الاتفاق بالعبارة التالية : « قالت انكلترا لفرنسا : اطلقني يدي في الموصل ، فاطلق يدك في سوريا » .

ان ما يلفت النظر فعلا ان الاتفاق جاء في اوج النهوض الجماهيري العربي ضد سياسة الفرنسيين . وكان لعملاء بريطانيا وموظفيها يد طولى في عرقلة المصالح الفرنسية عرقلة تامة في شتى انحاء سوريا ، وما لبث موقف انكلترا ان تغير تغيرا جذريا بين ليلة وضحاها بعد ذلك الاتفاق . وارسل الامير فيصل برقية للويد جورج يعلمه فيها ان الجيوش البريطانية تمزق الاعلام العربية (٤٠) في كافة الاماكن وانها تنسحب لصالح القوات الفرنسية . وقامت فرنسا بارسال ابرز رجالها العسكريين ، الجنرال غورو ، مندوبا عاما للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان وكيليكيا . وقد ودعه كليمنصو شخصا بهذه العبارة « ستكون الجندي البطل الذي سيبني لفرنسا

(٢٧) زين نور الدين زين « الصراع الدولي في الشرق الاوسط » ، ص ٦٨ .

(٢٨) من جورج انطونيوس « بقطة العرب » ص ٥٩٠ - ٥٩١ .

(٢٩) دوريو « المصدر السابق » ص ١٥ .

(٤٠) من مذكرة وجهها فيصل الى لويد جورج في ٢٣ ايلول ١٩١٩ - من سليمان موسى « الثورة العربية

الكبرى - وثائق واسانيد » ص ١٤٢ .

موطناً في الشرق» (٤١) . وعلقت جريدة «التان Le Temps» الفرنسية على هذا التعيين بقولها: «أن تعيين منتصر الارغون في مثل هذا المنصب كان يمكن تفسيره بمثابة امتهان لكرامته ومكانته العسكرية لولا دلالة هذا التعيين على نية الحكومة الفرنسية بالألتقنع بالشريط الساحلي الضيق حيث تنحصر قوات الجمهورية الفرنسية الان» (٤٢) .

فهل اقرّ الانكليز للفرنسيين باحتلال سوريا وتخلوا عن مساعدتهم للامير فيصل ؟ كل الدلائل بدأت تشير الى هذا الواقع الجديد . وقد أوضح بوانكاريه ذلك لاحقاً في رده على عضو مجلس الشيوخ الفرنسي فيكتور بيرار بقوله : «... لا يمكنني السكوت على تأكيد السيد بيرار من ان احتلالنا لسوريا سيخلق لنا حتما متاعب مع بريطانيا . فليس في هذا التأكيد أي نصيب من الصحة . فالانكليز قد تخلوا لنا عن سوريا منذ عام ١٩١٢ ...» (٤٣) .

موجبات الاتفاق الفرنسي - الانكليزي لعام ١٩١٩

لقد برز الاتفاق الفرنكو - انكليزي لعام ١٩١٩ مفاجأة غير سارة للوحدويين السوريين من جهة ، وللأمريكيين وأصدقائهم المحليين من جهة ثانية ، ودعم مركز الفرنسيين في سوريا ولبنان ، مقابل تقديم مركز الانكليز في فلسطين والعراق ومصر . ولعل أبرز موجبات هذا الاتفاق تدور على جبهتين :

أولاً - الخطر الاميركي : لقد كانت خسائر حرب ١٩١٤ باهظة التكاليف على فرنسا وبريطانيا(٤٤) . ومنذ شهر آذار ١٩١٩ هبطت اسعار الليرة الانكليزية (السترلينية) اكثر من الخمس بالنسبة للدولار وهبط سعر الفرنك الفرنسي الى النصف . في حين ان الحرب نفسها اتاحت لانتاج الولايات المتحدة الاميركية الكبير والمنظّم ان يتخطى انتاج أوروبا بشكل هائل . وانقلبت الولايات المتحدة من مدينة لاوروبا بالامس القريب الى دائرة لها وغدت بعد الحرب خزانا لرؤوس الاموال . وكان نتيجة استقرار الدولار ، ان أصبح العملة الدولية الاولى وغدت الولايات المتحدة أغنى بلدان العالم على الاطلاق(٤٥) . واضطرت بريطانيا وفرنسا الى الاقتراض منها باستمرار . وكان للنقاط الاربع عشرة التي نادى بها الرئيس ويلسون ، وأبرزها

(١) — Cité par E. Rabbath « Unité syrienne » — P. 395

(٢) عدد ١٧ تشرين اول ١٩١٩ .

(٣) — Le temps du 2 juillet 1922.

(٤) « قدرت اضرار حرب ١٩١٤ بما يقارب ٢٠٠ مليار دولار » — بحر الدين السباعي — « اضواء على الراسمال الاجنبي » ... ص ٧٨ « قدرت اضرار فرنسا وحدها بخمسة مليارات دولار مع ١٤٥ مليون قتيل ونحو ٤٥ مليون جريح ومشوه ، مقابل ٨ مليارات من الدولارات خسرتها انكلترا ومستعمراتها ومليون من القتلى و ٢٤٥ مليون من الجرحى » . ابراهيم الاسود « تنوير الاذهان .. » الجزء الثالث ص ٤٨ — وجريدة صوت العمال — العدد الرابع الصادر في ٨ ايار ١٩٣٠ .

(٥) — Maurice Beaumont « La faillite de la paix 1919-1939 » — P. 295.

بحاكم زمني واحد . . . » (٢٧) (!)

فهل كانت بريطانيا « جادة » في تحقيق مشاريعها العربية ؟ وهل كانت مستعدة لرؤية مملكة عربية كبيرة ، او دولة قوية تبرز الى الوجود بصفحة وحدوية عربية على طريق الهند ؟ ألم تقاتل بضاوة ، ومنذ زمن بعيد ، ضد بروز مثل هذه الدولة العربية على هذا المفرق الهام من مفارق التجارة العالمية وطريق المصالح البريطانية ؟ وهل كان جنرالها اللبني جادا في خطابه الذي القاه في ٢ تشرين الثاني ١٩١٨ ، عندما توجه الى الشعبين اللبناني والسوري بقوله « ان الحملة الفرنسية - الانكليزية لا هدف لها سوى التحرير التام والنهائي لشعوب ظلت زمنا طويلا تتحمل الاضطهاد من قبل الاتراك ، واقامة حكومة وطنية وادارة محلية تستمدان سلطتهما فقط من التمثيل الحر لشعبي المنطقة ؟ » (٢٨) .

والسؤال الاهم ، ذاك الذي تعرف فرنسا سلفاً الجواب عنه ، وهو : هل انقلبت بريطانيا بين ليلة وضحاها الى محرر للشعوب العربية ، وداع لوحدها ، ام ان لها دوافع سياسية واقتصادية اخرى ؟

في الواقع ، ان المناورات البريطانية لم تكن تخفى على كليمنصو او على غيره من الساسة الفرنسيين في ذلك العهد . بل ادركوا بوضوح ان جل ما تريده بريطانيا هو تنازلات جديدة في الموصل ، وان دعمها للوحدويين السوريين لم يكن الا من قبيل الضغط على فرنسا ليس الا . وكان الفرنسيون يحاولون المساومة لابدال تنازلات مشتركة مع الانكليز ، فاذا كان لا بد من التنازل لهم عن الموصل ، فعلى الانكليز ان يتنازلوا بالمقابل عن سوريا ويكفوا عن مساعدة الامير فيصل . وهكذا تولدت مصلحة مشتركة لاتفاق وقع بين بريطانيا وفرنسا في الخامس عشر من ايلول ١٩١٩ وسمي باتفاق لويد جورج - كليمنصو (٢٩) والذي جرى على اساسه تقسيم الانتدابات في مؤتمر سان ريمو بالذات . وقد لخص دوريو هذا الاتفاق بالعبارة التالية : « قالت انكلترا لفرنسا : اطلقني يدي في الموصل ، فاطلق يدك في سوريا » .

ان ما يلفت النظر فعلا ان الاتفاق جاء في اوج النهوض الجماهيري العربي ضد سياسة الفرنسيين . وكان لعملاء بريطانيا وموظفيها يد طولى في عرقلة المصالح الفرنسية عرقلة تامة في شتى انحاء سوريا ، وما لبث موقف انكلترا ان تغير تغيرا جذريا بين ليلة وضحاها بعد ذلك الاتفاق . وارسل الامير فيصل برقية للويد جورج يعلمه فيها ان الجيوش البريطانية تمزق الاعلام العربية (٤٠) في كافة الاماكن وانها تنسحب لصالح القوات الفرنسية . وقامت فرنسا بارسال ابرز رجالها العسكريين ، الجنرال غورو ، مندوبا عاما للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان وكيليكيا . وقد ودعه كليمنصو شخصا بهذه العبارة « ستكون الجندي البطل الذي سيبني لفرنسا

(٢٧) زين نور الدين زين « الصراع الدولي في الشرق الاوسط » ، ص ٦٨ .

(٢٨) عن جورج انطونيوس « يعظة العرب » ص ٥٩٠ - ٥٩١ .

(٢٩) دوريو « المصدر السابق » ص ١٥ .

(٤٠) من مذكرة وجهها لفيصل الى لويد جورج في ٢٢ ايلول ١٩١٩ - من سليمان موسى « الثورة العربية

الكبرى - وثائق واستيد » ص ١٤٢ .

موطناً في الشرق» (٤١) . وعلقت جريدة «التان Le Temps» الفرنسية على هذا التعيين بقولها: «ان تعيين منتصر الارغون في مثل هذا المنصب كان يمكن تفسيره بمثابة امتهان لكرامته ومكانته العسكرية لولا دلالة هذا التعيين على نية الحكومة الفرنسية بالألا تقنع بالشريط الساحلي الضيق حيث تنحصر قوات الجمهورية الفرنسية الان» (٤٢) .

فهل اقرّ الانكليز للفرنسيين باحتلال سوريا وتخلوا عن مساعدتهم للامير فيصل ؟ كل الدلائل بدأت تشير الى هذا الواقع الجديد . وقد اوضح بوانكاريه ذلك لاحقاً في رده على عضو مجلس الشيوخ الفرنسي فيكتور بيرار بقوله : «... لا يمكنني السكوت على تأكيد السيد بيرار من ان احتلالنا لسوريا سيخلق لنا حتما متاعب مع بريطانيا . فليس في هذا التأكيد اي نصيب من الصحة . فالانكليز قد تخلوا لنا عن سوريا منذ عام ١٩١٢ ...» (٤٣) .

موجبات الاتفاق الفرنسي - الانكليزي لعام ١٩١٩

لقد برز الاتفاق الفرنكو - انكليزي لعام ١٩١٩ مفاجأة غير سارة للوحدويين السوريين من جهة ، وللأمريكيين وأصدقائهم المحليين من جهة ثانية ، ودعم مركز الفرنسيين في سوريا ولبنان ، مقابل تدعيم مركز الانكليز في فلسطين والعراق ومصر . ولعل ابرز موجبات هذا الاتفاق تدور على جبهتين :

اولا - الخطر الاميركي : لقد كانت خسائر حرب ١٩١٤ باهظة التكاليف على فرنسا وبريطانيا(٤٤) . ومنذ شهر آذار ١٩١٩ هبطت اسعار الليرة الانكليزية (السترلينية) اكثر من الخمس بالنسبة للدولار وهبط سعر الفرنك الفرنسي الى النصف . في حين ان الحرب نفسها اتاحت لانتاج الولايات المتحدة الاميركية الكبير والمنظّم ان يتخطى انتاج اوروبا بشكل هائل . وانقلبت الولايات المتحدة من مدينة لاوروبا بالامس القريب الى دائرة لها وغدت بعد الحرب خزانا لرؤوس الاموال . وكان بنتيجة استقرار الدولار ، ان أصبح العملة الدولية الاولى وغدت الولايات المتحدة اغنى بلدان العالم على الاطلاق(٤٥) . واضطرت بريطانيا وفرنسا الى الاقتراض منها باستمرار . وكان للنقاط الاربع عشرة التي نادى بها الرئيس ويلسون ، وأبرزها

— Cité par E. Rabbath « Unité syrienne » — P. 395

(٤١)

(٤٢) عدد ١٧ تشرين اول ١٩١٩ .

— Le temps du 2 juillet 1922.

(٤٣)

(٤٤) « قدرت اضرار حرب ١٩١٤ بما يقارب ٢٠٠ مليار دولار » — بدر الدين السباعي — « اضواء على الراسمال الاجنبي » ... ص ٧٨ « قدرت اضرار فرنسا وحدها بخمسة مليارات دولار مع ١٤٥ مليون قتيل ونحو ٤٤٥ مليون جريح ومشوه ، مقابل ٨ مليارات من الدولارات خسرتها انكلترا ومستعمراتها ومليون من القتلى و ٢٤٥ مليون من الجرحى » . ابراهيم الاسود « تنوير الاذهان .. » الجزء الثالث ص ٤٨ — وجريدة صوت العمال — العدد الرابع الصادر في ٨ ايار ١٩٣٠ .

— Maurice Beaumont « La faillite de la paix 1919-1939 » — P. 295.

(٤٥)

حق الشعوب في تقرير مصيرها ، صدى واسع في اوساط الشعوب المقهورة التي بدأت تنادي بمساعدة اميركا بالدرجة الاولى . واشرف الرئيس ويلسون شخصيا على صياغة بنود ميثاق عصبة الامم بالتفصيل مع وزير خارجية بريطانيا بلفور (٤٦) . وكان الرئيس ويلسون يصّر دوماً على حق كل شعب، باختيار السلطة التي تساعد للوصول الى الاستقلال طبقاً للبند ٢٢ من ميثاق عصبة الامم المبرم في ١٨ حزيران ١٩١٩ (٤٧) ، اي قبل ثلاثة اشهر تقريبا من توقيع الاتفاق الفرنسي - الانكليزي .

اما في الداخل ، فقد تجنّد اصدقاء الولايات المتحدة في المنطقة للدعوة الى الحماية والانتداب الاميركي ، والتفوا جمعية باسم « جمعية سوريا الوطنية الجديدة » التي كانت تجد في الولايات المتحدة الاميركية جميع الشروط المطلوبة من اجل تنفيذ الانتداب على سوريا ولبنان . ونشر رئيس هذه الجمعية ، ابراهيم متري الرحباني ، كتابا بعنوان « يا اميركا خلّصي الشرق الادنى » (٤٨) .

وفي هذا الاتجاه كان الحزب الوطني اللبناني في مصر يناهز بالوحدة السورية ومساعدة اميركا وحمايتها لهذه الوحدة . « ووجد دعاة هذا الحزب ان الانفصال اللبناني عن سوريا معناه البؤس وقت السلم والموت زمن الحرب ، وان طلب الحماية الاميركية يوافق عليه الجميع » (٤٩) .

فهل كانت الولايات المتحدة تسعى لان تصبح بلدا منتدبا على هذه المنطقة ؟ وهل اصبحت خطرا جديا على مصالح الانكليز والفرنسيين في الشرق الاوسط ؟

الكثير من الدلائل التاريخية تؤكد ان حكومة واشنطن لم تكف عن العمل من اجل هذا الهدف . وقد اثبت البري ميور في كتابه « الانتدابات الدولية » (٥٠) الصادر في باريس ١٩٢٤ ان « اعين الاميركيين متجهة منذ وقت طويل نحو الشرق الادنى . فراسماليوهم كانوا يرون فيه امعالا وافرة الارباح ، ومبشروهم ، الفائقو النشاط ، وجدوا هناك رسالة دينية وانسانية عليهم تاديتها فيه . وبفعل هذا التأثير المزدوج طلبت صحف الحزبين الرئيسيين ، الجمهوري والديمقراطي ، ان تعنى اميركا بمصر الشرق الادنى بما في ذلك منطقة المضائق (٥١) . وحجة تلك الصحف ان اميركا لم تدخل في حرب مع الامبراطورية العثمانية ، لذا فهي مؤهلة اكثر من أية دولة اخرى للوصول الى هذا الهدف اي الانتداب دون ان تجرح الشعور الوطني لاية قومية من قوميات المنطقة او لاية طائفة من طوائفها » (٥٢) .

(٤٦) ج - بيشون - « تقسيم الشرق الاوسط » - المصدر السابق - ص ١٢٦ .
(٤٧) حسب منطوق هذه المادة « يجب ان تؤخذ رغبات هذه الشعوب (سوريا وفلسطين والعراق ولبنان) بعين الاعتبار عند اختيار الدولة المنتدبة » .

(٤٨) الحقيقة - (جريدة) - العدد ١٠٤٣ الصادر في ٢٧ شباط ١٩١٩ .

(٤٩) الحقيقة - السنة الحادية عشرة - العدد ١١٣٥ الصادر في ٧ تموز ١٩١٩ .

(٥٠) - A Millot « Les mandats internationaux » - P. 22.

(٥١) الدرمنيل والبوسفور التابعان لتركيا .

(٥٢) - ميبو - المصدر السابق - ص ٢٢ - وقد ايد هذا القول محمد جليل بيهم ، عضو المؤتمر السوري الذي انتخب الامر فيصل ملكا على الاتحاد السوري . وقد مثل السيد بيهم مدينة بيروت في ذلك المؤتمر . (مقابلة خاصة) .

ويؤيد زين زين هذه الفكرة بقوله : « . . . ويبدو ان الرئيس ويلسون كان يفكر بمشروع انشاء اتحاد كونفدرالي للدول العربية بحماية الولايات المتحدة » (٥٢) .
ويضيف زين : « وفي هذه الاثناء رفع « قسم الاستخبارات » لوفد الولايات المتحدة الاميركية لمؤتمر الصلح في باريس توصية بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩١٩ الى الرئيس ويلسون والى المفوضين المطلقى الصلاحية للدول الاخرى فيها : اولاً - انشاء دولة سوريا ، ثانياً - ان يطبق على هذه الدولة السورية نظام الانتداب ، ثالثاً - ينبغي الا توضع عراقيل من شأنها ان تحول دون ادماج هذه الدولة السورية المقترحة في اتحاد عربي كونفدرالي اذا تبين ان هناك ميلاً في البلاد نحو هذا الحل » (٥٤) .

لذا سارع ويلسون الى ارسال لجنة اميركية ، بعد ان تمنعت بريطانيا وفرنسا عن الاشتراك فيها ، والتي دعيت بلجنة كينغ - كراين من اجل استفتاء السكان حول صفة المنتدب وجنسيته . اما في الواقع ، فان الرئيس ويلسون قد ارسل لجنة كينغ - كراين لتشجيع القوميين العرب على مقاومة الاطماع الفرنسية والانكليزية » (٥٥) .

وفي هذا الاتجاه ايضا جاءت رحلة الدكتور هيوارد بلس Bliss ، رئيس الكاية السورية (الجامعة الاميركية لاحقاً) في بيروت آنذاك ، الذي استدعي الى باريس « للاستشارة » . ففي ١٣ شباط ١٩١٩ ، استمع مجلس العشرة الى الدكتور بلس الذي طالب بارسال لجنة تحقيق « تتعرف على رغبات السكان السوريين » (٥٦) .

ونصت مذكرة الدكتور بلس على ان السوريين ، ومن ضمنهم اللبنانيين ، يطالبون بالاستقلال التام ، لكنهم يريدون في الوقت الحاضر حماية دولة منتدبة : « ان سوريا بلد صغير ، ولكن القضية السورية تنطوي على مبدأ صريح ، وهو امر يمس شرف الولايات المتحدة وحلفائها . . . ان البلاد ينبغي الا تسلم الى سيطرة اية دولة اخرى قبل استشارة سكانها وقبل الاطلاع على رغباتهم » (٥٧) . وفي هذا القول انسجام تام مع قول الرئيس ويلسون « ليس هناك من قانون يسمح بنقل شعب من سلطة الى اخرى كما لو كان سلعة تباع وتشترى » (٥٨) .

وقد فضلت فرنسا وانكلترا ، لتفادي فشل محقق ، ان تمتنع عن الانضمام الى لجنة كينغ - كراين للتحقيق . غير ان التقرير البالغ الاهمية الذي قدمته هذه اللجنة عند عودتها دفن عمداً في ادراج عصابة الامم . وجاء في الاستفتاء الذي قامت به اللجنة ان سوريا تريد الاستقلال المطلق دون اي انتداب او وصاية . ويضيف التقرير : « اما فيما يتعلق باختيار المنتدب ، فاذا كان لا بد من فرض الانتداب على سوريا ، فان اغلبية السكان فيها ستكون الى جانب انتداب اميركي . اما في جبل لبنان ، فان

(٥٢) زين الدين زين « الصراع الدولي في الشرق الاوسط » ص ٩٩ .

(٥٣) زين نور الدين زين المصدر السابق - ص ١٠٢ .

(٥٤) — Henri Grimal « La décolonisation 1919-1963 » — P. 17. (٥٥)

(٥٦) سليمان موسى « الحركة العربية » . . . ص ٤٧٢ .

(٥٧) زين زين - « الصراع الدولي » ص ١٠٦ .

(٥٨) من رسالة للرئيس ويلسون وجهها الى مجلس الشيوخ الاميركي في ٢٢ كانون الثاني ١٩١٧ .

الاجلبية هناك تؤيد الانتداب الفرنسي عليه « (٥٩) .

ان الولايات المتحدة لم تتمكن فعليا من فرض انتدابها المباشر على الحجاز وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق ، لذا لم تعترف بالانتداب الا بعد اربع سنوات من اقراره في سان ريمو بعد ان ضمنت سياسة الباب المفتوح امام تجارتها وذلك بمنع احتكار اية دولة منتدبة من السيطرة على الاراضي التي لم يسبق ان كانت مستعمرة من قبل . ونظرا لمركز الولايات المتحدة في التجارة الدولية آنذاك ، ولما بين أيديها من الرساميل والاقتصاد المنظم ، فقد كان في مقدورها اجبار فرنسا وبريطانيا على اعادة توزيع الحقوق النفطية بحيث حصلت على حصة واسعة من الاراضي والمصالح التي كان الراسمالان الفرنسي والبريطاني ينويان الاحتفاظ به . فقد حصلت الولايات المتحدة على حصة كبيرة من بترول الموصل بلغت رسميا ٢٣،٧٥٪ للشركات الاميركية . واشترى اتحاد الشرق الادنى المثل لشركات بترول بان اميركان وستاندارد نيويورك وستاندارد نيوجرزي ٢٥٪ من اسهم شركة البترول التركية (٦٠) .

ونذكر ايضا ان سياسة الباب المفتوح في التجارة ضمنها رسميا صك الانتداب الخاص بسوريا ولبنان في المادة ١١ . « وبضبط من الولايات المتحدة - يقول جان بيثون - انضمت شيئا فشيئا جميع الحكومات المتحالفة الى تأييد وعد بلفور . ولم يكن الامر فيصل مستبعدا عن هذا التأييد . فبعد توقيع اتفاق ١٥ ايلول ١٩١٩ ، عاد الجنرال اللبني فذكر فيصّل بأنه سيقمع بالقوة اية محاولة معادية للصهيونية « (٦١) . يضاف الى ذلك ايضا الاتفاق الفرنسي-الاميركي الذي عقد في ٤ نيسان ١٩٢٤ حيث جاء في مادته الخامسة : « ان الرعايا الاميركيين ستكون لهم حرية انشاء وادارة مؤسسات ثقافية ودينية على الاراضي الخاضعة للانتداب الفرنسي . ولهم الحق كذلك في استقبال الطلاب فيها وتعليمهم باللغة الانكليزية دون اية مضايقات » . وقد علقت مجلة « آسيا الفرنسية » الواسعة الاطلاع على ذلك الاتفاق بقولها : « ان حكومة واشنطن كانت ، وهي توقع اتفاق الرابع من نيسان ١٩٢٤ ، مدفوعة بأهمية دور البعثات التبشيرية الاميركية في هذه البلاد ، خاصة في لبنان الكبير » (٦٢) .

فمقابل فشل الاميركيين في الحصول على الانتداب على سوريا ولبنان ، سارعوا الى تحقيق العديد من المكاسب . كما اشترطوا في بيانهم الصادر في ٩ آب ١٩٢١ على ضرورة تعديل نص صك الانتداب من فئة « ا » بحيث يعترف رسميا ببعض الضمانات

(٥٩) شكيب ارسلان - من مقدمة كتاب الدكتور ادبون رباط

— « L'évolution politique de la Syrie sous Mandat » — P. 3.

وقد اصر الاستاذ جواد بولس - في مقابلة خاصة معه - على القول ان مسيحيي لبنان بجموعهم قد طالبوا بالانتداب الفرنسي . ونرى ان هذا القول مبالغ فيه كثيرا حتى ولو كان المقصود هنا الموارنة وليس جميع الطوائف المسيحية . اما الكاتب الفرنسي Bouron فيقول « ان ٩٠٪ من سكان الجبل اللبناني وبعض سكان السواحل قد طالبوا بالانتداب الفرنسي » .

راجع ايضا « المعهد المخضرم في سوريا ولبنان » لمحمد جميل بيهم - ص ٨٦ .

(٦٠) بدر الدين السباعي « اضواء على الراسمال الاجنبي في سوريا » ص ٦٥ .

— Jean Pichon « Le partage du Proche-Orient » — P. 174.

— L'Asie Française — No. 221 — Mai 1924 — P. 274.

لسكان البلاد المحليين وبحرية التجارة العالمية وبوجوب معاملة الولايات المتحدة كعضو كامل الحقوق من أعضاء عصبة الأمم من حيث علاقاتها التجارية مع الدول الواقعة تحت الانتداب» (٦٣) .

لقد كان اتفاق ١٥ ايلول ١٩١٩ تقرير مصر بالنسبة لفرنسا وانكثرا بعد ان اصبحت الاميركيون منافسا خطيرا لمصالحهما في هذه المنطقة . لذا عبر الاتفاق بوضوح تام عن رغبة الفرنسيين والانكليز بتفادي بروز الاميركيين ، الاقوياء جدا في جميع المجالات بعد الحرب ، في منطقة الشرق الادنى بحيث تتهدد بعنف مصالح ومخططات الاستعمار القديم .

ثانيا - خطر المد الوطني المعنوم من الثورة السوفياتية : ان موقف ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى في روسيا منذ ١٩١٧ ابرز حليفا قويا جديدا للحركات الوطنية داخل البلدان التي تسيطر عليها القوى الاستعمارية . وقد جاء فضح اتفاقية سايكس - بيكو (٦٤) منذ الايام الاولى لاستلام السلطة السوفياتية للحكم ليضع قيادة الحركة الوطنية في الاقطار العربية على بيئة من المخططات الاستعمارية التي تحيها كل من بريطانيا وفرنسا للسيطرة على اجزاء السلطنة العثمانية في شرقي المتوسط .

وقد اربع لينين الاستعمار الاوروبي باعلانه نداء موجها الى جميع الشفيلة في الشرق بعد اقل من شهر على استلام السوفيات لحكم موسكو ، شدد فيه على مساندة الثورة السوفياتية اللامشروطة لجميع الحركات التحررية في الشرق (٦٥) . وجاء في النداء :

« يا شعوب الشرق ! من فرس وترك وعرب وهنود ! ان غزاة اوروبا الجشعين قد تاجروا باوطانكم وحريراتكم واملاككم ودمائكم ! ان اللصوص الذين اضرموا نار الحرب يريدون تقسيم اوطانكم . ليست روسيا وحكومتها الثورية اللتان يريدان استعبادكم ، انهم طفاة الاستعمار الاوروبي الجشعون ، الذين يقودون الحرب الحاضرة ليتقاسموا بلدانكم فيما بينهم ، هؤلاء الذين جعلوا من اوطانكم المساوية ، المهانة مستعمرات لهم ! عليكم ان تكونوا انتم اسيا بلادكم ! وعليكم انتم ان تشيدوا اسس حياتكم كما تشاؤون ، ولكم حقكم في ذلك لان مصركم هو بين ايديكم » .

التوقيع : لينين (٦٦)

ان الحقائق التاريخية تؤيد ما ذهب اليه مكسيم رودنسون من « ان الثورة الروسية لعام ١٩١٧ ، كان لها الاثر الاهم على مجرى الاحداث في المناطق المحكومة من قبل الامبريالية ، اذ قدمت نموذجا لحركة شعب متخلف يناضل ضد دول الغرب

(٦٣) — Victor Kûri « L'évolution du Mandat A » Thèse — P. 81.

(٦٤) نشرت جريدتا الازغتيا والبرافدا السوفياتيتان نصوص هذه الوثائق السرية بكاملها في مديهما

الصادرين في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٧ . راجع زين زين . « الصراع الدولي » ... ص ٢١٢ .

(٦٥) صدر النداء في ٣ كانون الاول ١٩١٧ .

(٦٦) لوتسكي « ثورة اكتوبر والبلاد العربية — مجلة الطريق البيروتية — السنة السادسة — العدد

العاشر — تشرين الاول ١٩٤٧ — ص ٨٣ .

الراسمالية والامبريالية . وقد بينت تلك الثورة بوضوح تام ان نهاية الامبريالية قد اصبحت وشيكة «(٦٧)» .

ان مجرى الاحداث قد اتخذ مارا جديدا بعد الحرب العالمية الاولى وقيام الثورة السوفياتية الكبرى ، اذ « ان حقا للضعفاء والمهانين والمفجورين قد انتصب بعنف في وجه سيطرة المتبدين ، واضحى البلاشفة يرون بأم اعينهم كيف قام الالوف من المفجورين في كل مكان يحذون حذوهم ويتشبهون بهم »(٦٨) .
كما « ان حق المفجورين الذين انتفضوا يطالبون بحريتهم وجد حلفاء له ، رسميين الى حد كبير ، في النظام المنبثق عن ثورة اكتوبر وفي الطبقات العمالية داخل البلدان الراسمالية »(٦٩) . فقد سارعت روسيا السوفياتية الى عقد تحالف (٧٠) وثيق مع الحركة التحريرية التركية التي قادها مصطفى كمال . وفشلت حروب فرنسا الاستعمارية ضد قوات التحرير في كيكيا . ولعب العون السوفياتي دورا حاسما في ذلك الانتصار مما زاد في تعميق الدعوة بين صفوف قادة حركات التحرر الوطني للارتباط الوثيق بهذه الثورة الفتية والتخطيط معها لضرب القوى الاستعمارية .

وجوابا على رسالة مصطفى كمال الى روسيا السوفياتية يعرب فيها عن رغبته في توثيق علاقاته بها ، رد وزير الخارجية السوفياتي تشيرن يقول : « ان حكومة السوفيات تمد يد الصداقة الى كافة شعوب العالم مخلصا لمبادئها التي تعترف لكل امة بحق تقرير مصيرها بنفسها »(٧١) .

لقد برز خطر جديد في وجه الاطماع الفرنسية والانكليزية في المنطقة ولا يقل عن الخطر الاميركي السابق بل يزيد اهمية ، فهو خطر من نوع جديد . فالسوفيات لا يرمون الى الحلول محل اي منهما ، كما يود الاميركيون ، لكنهم يرون في حركة شعوب المنطقة التحريرية حليفا استراتيجيا لهم ، وبالتالي فقد ابدوا استعدادهم المطلق لتأييدهم في ثوراتهم ضد الفرنسيين والانكليز ، وغدا وضع فرنسا وبريطانيا صعبا جدا في سوريا والعراق وفلسطين ومصر . وجاءت هزيمة فرنسا امام قوات مصطفى كمال لتزيد من قناعة الزعماء الوطنيين من العرب بضرورة تعميق الصلات مع الثورة السوفياتية . وقام سعد زغلول ، زعيم حزب الوفد المصري ، الذي قاد ثورة ١٩١٩ ، بشن حملة عنيفة ضد الانكليز ويطالب باستقلال مصر التام كحق من

— Maxime Rodinson « Marxisme et Monde Musulman » — P. 348. (٦٧)

— J. Berque « L'Orient second » — P. 21. (٦٨)

— J. Berque: ibid. — P. 21. (٦٩)

(٧٠) معاهدتا قار Kars وموسكو — انظر م. رودنسون المصدر السابق ص ٢٤٩ وما بعدها . كان مصطفى كمال يقول « اننا اصديقاء مع روسيا لانها اول من اعترفت بحقوقنا التومية واعتبرتها . وبهذه الشروط ستكون تركيا لروسيا صديقة وفيه الى الابد ، كما هي اليوم » .

جريدة « المعرض » البيروتية — السنة الاولى — العدد ٤٩ الصادر في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ — الصفحة الرابعة .

(٧١) — جريدة « الحقيقة » البيروتية — السنة الثانية عشرة — العدد ١٢٢٢ الصادر في ٨ نوز ١٩٢٠ — الصفحة الاولى .

حقوق تقرير المصير الذي تنادي به عصبة الامم ، في حين كانت « الطبيعة الوفدية » (٧٣) ، او شباب حزب الوفد ، تجري اتصالاتها المستمرة مع لينين . وقام ابراهيم هنانو (٧٣) ، وهو من أبرز الزعماء الوطنيين في سوريا آنذاك ، بتبادل الرسائل مع لينين ، بينما كان العراق وفلسطين يتمخضان بثورتين وطنيتين كبيرتين ضد بريطانيا (٧٤) .

صحيح ان جبل لبنان كان بعيدا عن مثل تلك الاتصالات ، وكان يرسل الوفود المتتالية (٧٥) الى مؤتمر السلام بباريس للمطالبة « بلبنان متحرر من كل قيد او عبودية ، لبنان حر المصير ، لبنان الموسع نحو حدوده الطبيعية » (٧٦) غير ان قطاعا واسعا من سكان لبنان كان لا يزال منضما آنذاك الى السلطة الوطنية في دمشق ، ويؤثر فيه دعاة الوحدة مع سوريا وضد كل تدخل اجنبي . كما ان انصار الانتداب الفرنسي لم يكونوا وحيدين على الساحة اللبنانية فهناك من يدعو الى استقلال لبنان التام مع مساعدة دولة اجنبية دون تحديد لهوية تلك الدولة . ويفضل دعاة هذا التيار حماية جماعية كالتي كانت زمن المتصرفية شرط ان يرأس الجبل حاكم وطني من اهاليه (٧٧) . وفي جميع الاحوال ، فان جبل لبنان لم يكن بمقدوره ان يعزل

(٧٢) اكد لي عبد المنعم الغزالي ، سكرتير التحرير المساعد لجلة الطبيعة المصرية ، ان محمد مندور ، احد القادة البارزين في قيادة الطبيعة الوفدية ، هو الذي اجرى الاتصالات باسم الوفد مع لينين منذ ١٩١٨ . (مقابلة شخصية) .

(٧٣) — عايش الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك الزعيم ابراهيم هنانو في ساعاته الاخيرة . ويقول الاستاذ يزبك ان هنانو قد اكد له وجود تلك الرسائل المتبادلة مع لينين والتي ما زالت مفقودة حتى اليوم وقد اورد الاستاذ يزبك ايضا ان هنانو اوما له ، وهو على فراش الموت ، على مكان الرسائل في علبة بسكويت كبيرة على ظهر الخزانة في منزله . لكن مصر تلك الرسائل لا يزال مجهولا .
مجلة البلاغ البيروتية — الممدد ١٧ الصادر في اول ايار ١٩٧٢ ص ٢٧ — ٢٨ . راجع ايضا يوسف يزبك « حكاية اول نوار » ص ٩٥ — ٩٧ .

(٧٤) علقت صحيفة « المورننغ بوست » اللندنية في عددها الصادر في ١٧ كانون الثاني ١٩٢٠ على الوضع في العراق وفلسطين تقول « لم يحدث قط ان تولت السلطة ادارة بغيضة الى هذا الحد في اي بلد من البلدان ، فحتى البهائم كانت ستثور عليها حتما » .

Cité par E. Jung « La révolte arabe » T. 2 — P. 134.

(٧٥) ثلاثة وفود رئسها على التوالي داود عمون ، البطريك الياس الحويك ، والمونسنيور عبد الله خوري .

(٧٦) « استقلال لبنان وتوسيمه نحو حدوده التاريخية وطلب العمون من فرنسا » . خيرالله خيرالله .
« Les régions arabes libérées » ص ٧٥ .

ان تلك التصريحات تستمد محتواها من « مشروع لبنان » الذي تقدم به مجلس ادارة جبل لبنان منذ ١٩١٩ .

راجع بنود هذا المشروع في مجلة «المقتطف» السنة ٥٤ — الجزء الاول — كانون الثاني ١٩١٩ ص ٩٧ .

(٧٧) في لقاء مع الجنرال غورو شدد البطريك الحويك « ان فرنسا بنفسها سنة ١٨٦٥ كانت تريد ان تحقق لنا الاستقلال التام والحكومة الوطنية البحتة وعلى رأسها حاكم وطني لبناني » .

جريدة لسان الحال — الممدد ٨٤٩٤ الصادر في ١٠ كانون الاول ١٩٢١ .
وكتب البير ميبو منذ ١٩٢٤ يقول « ان الطوائف اللبنانية، رغم مشاحناتها وروح الاستسلام

عن مؤثرات ثورة وطنية شاملة ، في حال حدوثها في تلك الظروف ، وتشمل سوريا وفلسطين والعراق بالإضافة الى مصر .

ان ثورة عربية تمتد الى تلك الاقطار برمتها ، لم تكن حلما من الاحلام، بل حقيقة تاريخية حدثت بالفعل بين عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ دون ان ترتفع الى مستوى التنسيق الاستراتيجي فيما بينها ، لذا استطاع التحالف الفرنكو - انكليزي المعقود في ١٥ ايلول ١٩١٩ ان يستفرد تلك الثورات ويقضي عليها تباعا بعد ان وحد جبهته الهجومية .

ميسلون او معركة المصير المحتوم

لقد وضع اتفاق الخامس عشر من ايلول ١٩١٩ الحركة الحدودية السورية وجها لوجه امام فرق الجيش الفرنسي التي كانت تنتشر من قبل في المناطق الساحلية فقط . صحيح ان الاتفاق الفرنسي - التركي (٧٨) في ذلك الحين كان يعني فشل التدخل الاستعماري لفرنسا في كليكيا ، غير ان الاتفاق بالذات اتاح للجنرال غورو سحب فرق عديدة الى ميدان المعركة المرتقبة مع سوريا .

وبالمقابل ، احدث هذا الاتفاق الفرنكو - انكليزي هياجا صاخبا في سوريا والمناطق اللبنانية خارج الجبل وتوسعت الدعوة الى الاستقلال والوحدة مع سوريا وبلغ الحماس ضد الفرنسيين اقصى مداه بعدما تجمع الوجدويون حول اللجنة الوطنية للدفاع عن الامة التي ترأسها الامير زيد (٧٩) ، الذي ناب عن فيصل الموجود في باريس ، في تسيير مقاليد الحكم . واعلنت العناصر الوجدوية في سوريا ولبنان جهارا انها ترفض اي اتفاق ، من اي نوع كان ، مع دولة اجنبية وارفع الشعار الوحيد « الاستقلال المطلق دون وصاية او انتداب » . وقد علقت مجلة « آسيا الفرنسية » على برنامج دعاة الوحدة هؤلاء فكتبت تقول « اذا كانت فكرة الوحدة تظهر في راس برنامج المثقفين العرب فلان نشاطهم اذ ذاك كان منصبا على نزع نير السيطرة البريطانية والفرنسية والايطالية في الشرقين الادنى والاوسط » (٨٠) .

وجاء مؤتمر دمشق ، في ٧ اذار ١٩٢٠ ، تعبيرا عن قمة هذا المد الوجدوي العارم اذ تجمع فيه الوجدويون من كافة المناطق السورية واللبنانية والفلسطينية والعراقية لمبايعة الامير فيصل ملكا على هذا الاتحاد العام . واعترف المؤتمر بمركز متميز لجبل لبنان ، اذ اعلن المؤتمر بوضوح تام « على ان تراعى اماني اللبنانيين

→

والتدريعية لديها - وهي الصفات المشتركة لدى جيب الشرقيين - كانت تطمح كلها الى الحكم الذاتي، ان لم نقل الاستقلال التام » .

A. Millot « op-cit » — P. 21.

(٧٨) وقع الاتفاق مصطفى كمال والجنرال غورو في ٥ تموز ١٩٢٠ - راجع عن هذه الحرب كتاب امون رباط « التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري » ص ٢٩٢ وما يليها .

(٧٩) « اعلن الامير زيد التجنيد الاجباري في ٢٢ كانون الاول ١٩١٩ . وكان يدعو الى الاستقلال المطلق دون وصاية او انتداب . وقد تجمع حوله طلاب الوحدة الذين كانوا المحركين الفعليين للمؤتمر

السوري المنعقد في ٢ تموز ١٩١٩ » . نشر هنا الى ان المقطع مأخوذ بحرفية عن :

Haut Commissariat « La Syrie et le Liban en 1921 », Conférence du L. C. Goudot — P. 79.

— F.T. « L'Asie Française » — No. 277 — Février 1930 — P. 64.

(٨٠)

في ادارة مقاطعتهم لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب بشرط ان يكون بمعزل عن كل تأثير اجنبي» (٨١) . وتعهد الامير فيصل ، ملك سوريا الجديد ، سرا للفرنسيين « بالقضاء على العصابات التي كانت تعتدي على المنطقة الغربية التي يخفق عليها العلم الفرنسي» (٨٢) .

ان محاولة ضرب العصابات الوطنية على ايدي قوات فيصل العربية ، كان نصرا كبيرا للسياسة الفرنسية التي كانت ترمي الى ضرب العناصر الوطنية بعضها ببعض . غير انه من المفالة القول ان فرنسا كانت عاجزة عن القضاء على تلك العصابات ، بل ان القوات الفرنسية كانت تخطط سلفا لاستغلال اعمال طائفية استفزازية فكانت تتباطأ عمدا عن نجدة القرى المسيحية التي تتعرض للسلب والتخريب .

ان افضل تفسير لاسباب ذلك التباطؤ المتعمد من جانب الفرنسيين قول امين الريحاني في هذا الصدد « المر هو ان المستعمرين الفرنسيين كانوا يريدون ان تتسع اعمال الاعتداء على المسيحيين ، ليتخذوا من ذلك حجة للقيام بعملية « دفاع » واسعة تشمل جميع الاراضي السورية . وقد كان ذلك ، وكانت ميلون ، حصاد سياسة « حماية الاقليات » وثمره تقاسم النفوذ بين « المدافعين » عن حق العرب في الحرية والاستقلال» (٨٣) !! .

ان اعلان فيصل ملكا على سوريا قد ادى الى هلع في صفوف دعاة الانفصال اللبناني عن سوريا وتوسيع حدود الجبل ، لكن انعكاسه كان اشد تأثيرا في صفوف الفرنسيين وحتى البريطانيين الذين ، على حد تعبير الجنرال اندريا - وجدوا « ان فيصلا قد تجاوز الاتفاق المرسوم معه» (٨٤) .

لذا سارع الفرنسيون والبريطانيون ، بعد خمسة واربعين يوما بالضبط من مؤتمر دمشق ، الى عقد مؤتمر سان ريمو في ايطاليا ، الذي اقر الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ، والانكليزي على فلسطين والعراق ، بعد تغطية جماعية من عصبة الامم .

ورافق عقد هذا المؤتمر اتفاق فرنسي انكليزي حول النفط في سان ريمو بالذات في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ وطبقا لهذا الاتفاق « تمهدت الحكومة البريطانية بان تخصص للحكومة الفرنسية ، او لمن تعينهم فرنسا ، حصة مقدارها ٢٥٪ وبسعر السوق ، من الانتاج الصافي للزيت الخام الذي يمكن للحكومة صاحب الجلالة ان تحصل عليه من حقول النفط العراقية لقاء تنازل فرنسا عن حصتها في الموصل» (٨٥) . لقد منحت عصبة الامم فرنسا وبريطانيا الانتداب كما لو كان الامر قد حدث بطريق الصدفة او بناء على رغبة السكان بينما كان في الواقع تأكيدا للسياسة الوفاقية بين

(٨١) ساطع الحمري - يوم ميلون - ص ٢٧٢ . وثيقة .

(٨٢) محمد كرد علي - خطط الشام - الجزء الثالث - ص ١٧٢ .

(٨٣) امين الريحاني - ملوك العرب - الجزء الثاني - ص ٢٤٨ .

(٨٤) — Général Andréa « La révolte druze » — P. 18.

(٨٥) — Correspondance d'Orient « Documents » — No. 302 — Février 1923 — P. 79-80.

هاتين الدولتين المبررتين في مؤتمر سان ريمو ، وجاء الانتداب عمليا استمرارا للاتفاقيات المعقودة اثناء الحرب وبعدها ، فكانت اتفاقات ١٩١٦ و ١٩١٩ اساسا لاسناد الانتدابات في عام ١٩٢٠ (٨٦) .

فالانتداب ، كما اقره مؤتمر سان ريمو في ايطاليا ، لا يختلف بشيء عن الاحاق والضم والحماية ، وكلها اشكال لمحتوى الاستعمار القديم المتجدد (٨٧) . هذا الانتداب ، لم يختلف عن سابقه ، لا بالطريقة التي انتهجتها السلطات المنتدبة ولا بالشكل الذي اسندته به عصبة الامم . زيادة على ذلك ، خرقت تلك العصبة نظامها الداخلي، خاصة المادة الثانية والعشرين منه القاضية بوجوب استشارة البلد المنتدب عن جنسية الدولة المنتدبة، كل ذلك حرصا منها على صيانة مصالح فرنسا وبريطانيا . اما على الصعيد الداخلي في سوريا ولبنان ، فهل كان بمقدور الوحدويين مواجهة قرارات مؤتمر سان ريمو ورفض الانتداب الفرنسي المفروض عليهما ؟ بمعنى آخر ، هل كان فيصل جادا في تحديه للفرنسيين والصمود في وجه مخططاتهم حتى النهاية ؟ . ام ان فيصلا كان قد ارغم على عقد المؤتمر بضغط من الوحدويين دعاء الاستقلال التام ؟

وتجيب النار على هذه الاسئلة بقولها : « جاء الامير فيصل سوريا من فرنسا في ٢٣ ربيع الآخر ١٣٢٨ ، ١٤ يناير ١٩٢٠ ، وهو يعتقد انه باتفاقه مع كليمنصو على قبول الوصاية الفرنسية مع تخفيف شروطها قد قدم الى سوريا اجل خدمة ولكنه لم يستطع ان يقنع حزبه الخاص بذلك . وحاول ان يؤلف حزبا من المحافظين يستعين به على ذلك . وكان ذلك حزب عبد الرحمن بك اليوسف ، الفرنسي النزعة، الذي سمي بالحزب الوطني ، لكنه لم يستطع مساعدته ولا الاستعانة به ، بعد ان تعرف اليه وتكر لحزبه . وظل سلطان الحزب الاول (الاستقلال) عليه اقوى من سلطانه على الحزب على ما اوقع فيه من الشقاق . فالحزب هو الذي منعه من العودة الى اوروبا وحمله على قبول اعلان استقلال سوريا ، وجعله ملكا عليها ، وارضاه بجعل ملكها ارثا على ذريته ويجعل الراية الحجازية راية لسورية مع زيادة نجم ابيض في الزاوية الحمراء التي هي رمز علم شرفاء مكة فيها وجعل القواعد التي بنى عليها المؤتمر السوري اعلان الاستقلال قائمة على اساس الاعتراف بأنه حارب الترك من قبل والده مع جيوش الحلفاء لاجل تحرير البلاد العربية وتحقيق استقلالها الذي كان ينشده احرارها » (٨٨) .

لقد تزايدت القوات الفرنسية بسرعة مذهلة بعد اتفاق ايلول ١٩١٩ اذ ارتفع مدد تلك القوات الى ١٣ الفا في تشرين الاول من هذا العام وقفز الى ٧٠ الفا في تشرين الاول من عام ١٩٢٠ (٨٩) .

— Doriot « La Syrie aux Syriens » — P. 9. — Voir aussi pour l'accord San Remo — E. Rabbath « La Formation historique du Liban » — P. 289. (٨٦)

— Jacques Couland « Mouvement syndical du Liban » — P. 17, et Paul Pic « Syrie et Palestine sous Mandat » — P. 1. (٨٧)

(٨٨) النار — المجلد ٢٢ الجزء السادس الصادر في ايلول ١٩٢١ — مقالة « حال الشريف فيصل في سوريا » ص ٢٦٤ وما يليها .

— V. de Saint Point « La vérité sur la Syrie » — P. 95, et E. Jung « La Révolte arabe » — P. 121-122, et E. Rabbath « L'évolution politique » — P. 107. (٨٩)

ان المعركة بين القوات الفرنسية والوحدويين كانت حتمية وكان انذار غورو(٩٠) في ١٤ تموز ١٩٢٠ ، ذروة التأزم في تلك المرحلة . فالفرنسيون يريدون فرض الانتداب على سوريا ، وعلى الحركة الوحدوية ان تدفع الثمن . ورغم تدخل تجار وبرجوازيي دمشق الذين لوّحوا بأن المقاومة ضرب من الجنون وبالتالي « يجب الرضوخ لقرارات مؤتمر السلام » ، ادرك الوطنيون ان لا بد من اللجوء الى السلاح كوسيلة وحيدة للدفاع عن حق الامة . ووقف الملك فيصل الى جانب التجار ودعاة الاستسلام للفرنسيين (٩١) واقرب بتسريح الجيش العربي السوري فسهل بعمله هذا احتلال الجيش الفرنسي لدمشق بعد دحر القوات الوطنية في ميلون وبدأت بذلك فعليا بداية مرحلة جديدة في تاريخ سوريا ولبنان .

« لقد كشف يوم ميلون - عن وجه الدول الاستعمارية على حقيقته . ففيه احس العرب بخيبة الامل بانقراض اول دولة عربية حديثة تأسست في الشام عقب الحرب العالمية الاولى ، وفيه بدأ عهد الاحتلال الفرنسي لسورية واخذ الفرنسيون ينفذون خططهم الاستعمارية التي كانت تستهدف تقسيم البلاد السورية وتجزئتها الى دويلات منفصلة » (٩٢) .

واعترف الفرنسيون انفسهم « بان سورية اصبحت فرنسية بقوة السلاح » (٩٣) . ان موقعة ميلون قلبت آمال الوحدويين راسا على عقب ، وغدا الاستقلال التام وهما من الاوهام . ووجد الوطنيون الوحدويون في سوريا ولبنان ان آمالهم الزاهية تبخرت ، فانقلبوا الى معارضة عنيفة دامية مما جعل تلك الحركة الوحدوية تتخذ ، منذ نشأتها ، طابع مناهضة الانتداب الفرنسي (٩٤) ، وتبقى في هذه المسار حتى جلاء القوات الفرنسية عن سوريا ولبنان .

ان موجة من الاغتيالات السياسية انفجرت في سوريا ضد القادة الفرنسيين والزعماء المحليين المتعاطفين معهم ، وانتشرت عصابات الثوار (٩٥) في جميع المناطق اللبنانية التي ضمت الى الجبل بعد فترة وجيزة من هزيمة الوحدويين في ميلون ، فقتل رئيس الوزارة السورية ، صديق الفرنسيين ، علاء الدين الدرربي في درعا عام ١٩٢١ . وفي ١٢ نيسان ١٩٢٢ ، قتل وزير داخلية لبنان الكبير ، اسعد بك في دمشق . كما وقعت محاولة لاغتيال المفوض السامي الفرنسي الجنرال غورو في القنيطرة في ٢٢ حزيران ١٩٢١ . . . الخ .

(٩٠) - راجع بنود الانذار الخمسة في ساطع الحمري - يوم ميلون ص ١١٨ .

(٩١) - لقد قيم روبير دو كيه ، رجل الانتداب الفرنسي الاول في ادارة بيروت ، الملك فيصل كما يلي « كان صديقا لفرنسا ، لكن المتطرفين كانوا يتجاوزونه باستمرار » .

R. de Caix « Histoire des Colonies Françaises » T. III — P. 502.

(٩٢) - نور الدين حاطوم « المراحل التاريخية للقومية العربية » ص ٢١ - ٢٢ .

(٩٣) - L. Aurent: Correspondance d'Orient — No. 206 — Janvier 1919 — P. 91.

(٩٤) - R. de Gontaut-Biron « Sur les routes de Syrie » — P. 46.

(٩٥) - ابرز تلك العصابات عصبة ادهم خنجر ، وعصابة محمود بزي وعصابة صادق حمزه . راجع في هذا المجال الدراسة الجيدة التي قام بها الطالب منذر جابر في عام ١٩٧٢ في كلية التربية - الجامعة اللبنانية ، بعنوان « مؤتمر الحجر وآثاره » .

دولة لبنان الكبير في الميزان (٩٦)

في اول ايلول ١٩٢٠ ، اعلن الجنرال غورو قيام دولة لبنان الكبير . وغدا هذا اليوم عيداً قومياً رسمياً ، وظل كذلك حتى الفتي في عام ١٩٥٤ . فأصبح هذا اليوم في نظر دعاة الانفصال عن سوريا ، عيداً وطنياً اشرق فيه ، للمرة الاولى ، فجر استقلال واضح واكيد .

اما في نظر الوجوديين ، فكان يعني تقطيعاً اصطناعياً لأوصال سوريا ، تقطيعاً لا يستند الا على ميثية الاجنبي المستعمر . فالفرنسيون سادة الموقف ، قد ضموا اراض سورية غنية تقطنها اغلبيية اسلامية الى جبل المتصرفية . لكن ذلك الضم او اللاحاق لم يسبقه اي استفتاء شعبي او اي شكل من اشكال الاستشارة التي نادى بها عصبة الأمم . لذا ، اعتبر الوجوديون في المناطق الملحقه بالجبل اللبناني ، ان لبنان الكبير ، بالشكل الذي اعلن فيه ، ما هو الا « قاعدة عسكرية ضد بريطانيا وضد العرب ، هو قلعة متقدمة للنفوذ الفرنسي في الشرق الاوسط » (٩٧) .

في عام ١٩٢٠ ، برز في لبنان تياران سياسيان كادا ان يكونا متساويين (٩٨) : تيار مرحب بالانتداب ويدعو للتعامل معه ، وهو التيار الواسع الانتشار بين صفوف المسيحيين عامة والموارنة خاصة ، وتيار معارض للانتداب ويستمر في دعوته الى الوحدة مع سوريا المستقلة ، وهو التيار الغالب في صفوف المسلمين . واتخذ الانتقام وجهاً طائفياً ولا شك . فقد قاطع المسلمون المجلس التمثيلي للبنان الكبير في ١٩٢٢ وفي مناسبات اخرى .

فهل كان لبنان الكبير « حاجزاً في مواجهة تيار العروبة الجارف والخطر الاسلامي المزعوم » كما يقول بوبلان ؟ وان الانتداب بالذات فرض للحيلولة دون وقوع افطع حرب دينية ؟ « (٩٩) .

بمعنى آخر هل كان الفرنسيون يخططون للبنان خارج الاتحاد السوري العام . في جميع نشاطاته السياسية والاقتصادية والثقافية والادارية والعسكرية وغيرها ؟ في الواقع ان لبنان الكبير ، وبيروت بالذات ستصبح المركز الاساسي لادارة الانتداب ، لا في دولة لبنان الكبير فحسب ، بل وفي باقي الدويلات السورية .

ويؤكد الجنرال غورو في خطاب اعلان دولة لبنان الكبير بالذات : « انني لا اذكر هنا ، ضمن دول الاتحاد العام ، لبنان الذي ينبغي ان تجعله تقاليد الخاصة يتطور بمعزل عنها وبمشاركة اقتصادية فقط مع الاتحاد الكونفدرالي السوري ، الى اليوم الذي يقرر فيه بنفسه الانضمام الى هذا الاتحاد » (١٠٠) .

« فعلى اعقاب الوحدة التقليدية لأراضي الامبراطورية العثمانية ، اقيمت .

(٩٦) راجع الفصل الخاص حول توسيع لبنان من المتصرفية الى لبنان الكبير الذي ورد في هذا الكتاب .

(٩٧) — Robert de Caix: Cité par E. Rabbath: « L'évolution politique... » — P. 267. —

(٩٨) — جوزف اشقر — المصدر السابق ص ١١٦ .

(٩٩) — Beauplan « Où va la Syrie ? » — P. 220. —

(١٠٠) — غورو — الخطاب — البرنامج في دمشق ، في ٢٠ حزيران ١٩٢١ .

فسيفهاء من الدول المقطعة عشوائيا في زمن ميزته الاولى التعلق بالقومية ، لكن السيطرة فيه كانت لما نزل للقوى الامبريالية «(١٠١) . صحيح ان الفرنسيين اقاموا دولة لبنانية كتوع من التفسير الاقليمي لولاء الموارنة التقليدي لفرنسا (١٠٢) ، لكن « لنقل صراحة : لا يمكن ان يكون لبنان وطنا مسيحيا ولا وطنا اسلاميا . . لا يمكن ان يكون وطنا لأي دين من الاديان ، او مذهب من المذاهب . . . لا يصح ان يكون لبنان الا وطنا لجميع اللبنانيين على السواء »(١٠٢) .

فهل ارادت فرنسا تأييد طائفة ضد اخرى ام السيطرة على جميع الطوائف اللبنانية ؟ هل ارادت حماية الموارنة باغراقهم في لبنان الكبير حيث ستتعادل نسبة المسلمين والمسيحيين تقريبا ، ام ارادت حماية مصالح الراسماليين الفرنسيين المتمركزة في المنطقة ؟ « كنتم - اي الحكام الفرنسيون - تريدون بابا على طريق الهند ، وكنتم تريدون قاعدة عسكرية وبحرية في شرق المتوسط ، واخيرا كنتم تريدون ان تحموا ، في سوريا ، مصالح الراسماليين الفرنسيين المسيطرة هناك »(١٠٤) .

لقد وجد دعاة الانفصال عن سوريا وعلان دولة لبنان الموسعة نحو « حدوده التاريخية » آنذاك حليفا اساسيا في الجيش الفرنسي المرابط في سوريا ولبنان ، وتلاقت اهدافهم مع اطماع الفرنسيين الساعين الى بسط سيطرتهم على سوريا بكاملها . « فالفرنسيون كانوا وحدهم يعرفون ما يريدون - يقول امين الريحاني . . هم يريدون لبنان كبيرا لا صغيرا لانهم يريدونه لانفسهم . اجل ، مهما تطورت احواله وتعددت وتلونت مطالبه وآماله ، فهو منذ البدء لم يزل مطمح انظار الفرنسيين ، يريدونه قيد سياستهم الخارجية ليعززوا به مركزهم البحري في هذه الزاوية المباركة من البحر المتوسط »(١٠٥) .

حتى دعاة الاستقلال اللبناني ، الذين غررتهم كثرة الاقوال حول ديمقراطية الانتداب والعون والمساعدة والتدريب . . من جانب الفرنسيين ، سيدركون بعد قليل ان الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان لم يكن خطوة على طريق الاستقلال الذي يتوقون اليه بل سيتحتم عليهم الانخراط في النضال الوطني ضد هذا الانتداب الذي فرض عليهم شكلا حديثا من اشكال الاستعمار المباشر .

— Jacques Berque « Mouvement Syndical » — Préface — P. 7. (١٠١)

— J. Berque : Ibid — P. 7. (١٠٢)

(١٠٣) عمر ناخوري « آفة لبنان » - الطريق - المجلد الثاني - الجزء ١٤ - آب ١٩٤٣ - ص ١ .

Doriot — op. cit. p. 10. (١٠٤)

(١٠٥) امين الريحاني . « فيصل الاول » . طبعة ١٩٢٤ - ص ٩ .

□ الفصل الثالث □ من المتصرفية إلى لبنان □ المعاصر □ توازن من نوع جديد

لبنان المتصرفية

« بعد اربعماية وثلاث سنوات (١٥١٦ - ١٩١٩) . يقول الدكتور ادمون نعيم ، اخلى المستعمر التركي زمام الحكم في لبنان لسلطة الانتداب بعد ان شهد حماية جماعية من الدول الاوروبية لنظام المتصرفية الذي اقيم فيه . تلك كانت فترة احتلال ، غير مباشر دون شك ، لكنه احتلال لا يقل اهمية عما سبقه » (١) .

فلبنان المتصرفية ، او « لبنان الصغير » (٢) كان يشتمل على محافظة جبل لبنان الحالية مضافا اليها الاقضية الحالية ايضا لبشري وزغرتا والكوره والبترون في الشمال ، وقضاء جزين في الجنوب ، وقضاء زحلة في البقاع . اما انهرمل فقد كان تابعا لقضاء البترون ، وبلدة شمطار اتبعت بقضاء كسروان . وقد قسم جبل المتصرفية الى ٧ اقضية تضم . { مديرية باستثناء مديرية دير القمر المستقلة ، وتشتمل المتصرفية على ٩٥٦ (٣) قرية تتوزع على الاقضية السبع ١ - قضاء جزين وفيه مديريتان : اقليم التفاح ، ومديرية جبل الريحان . ٢ - قضاء الشوف وفيه ١٢ مديرية : الشوفين ، اقليم الخروب ، العرقوب الاعلى ، العرقوب الشمالي ، العرقوب الجنوبي ، المناصف ، الجرد الشمالي ، الجرد الجنوبي ، الغرب الاعلى ، الغرب الشمالي ، الغرب الاقصى ، والشحار . ٣ - قضاء المتن وفيه ٥ مديريات : المتن الاعلى ، بسكنتا ، الشوير ، القاطع ، والساحل . ٤ - قضاء زحلة وهو اصغر اقضية المتصرفية ولا يقسم الى مديريات . ٥ - قضاء كسروان وفيه ٩ مديريات :

(١) — E. Naïm: « Le Moutaçarifat du Mont-Liban » Préface — P. 5.

(٢) — Antoine A. Khair « op. cit. » — P. 16.

واند رستم « لبنان في عهد المتصرفية » ولحد خاطر « عهد المتصرفين في لبنان » وسليم هشي « يوميات لبناني في ايام المتصرفية » .

(٣) — اساعيل حتى : « لبنان مباحث علمية واجتماعية » باشراف د. نؤاد انرام انبستاني — الجزء الاول

جبل السفلى ، جبل العليا ، المنيطرة ، جرد جبيل ، الفتوح ، غوسطا ، جونية ، الزوق ، وجرّد كسروان . ٦ - أما قضاء البترون فيضم أيضا ٩ مديريات : البترون ، السفلى ، البترون الوسطى ، البترون العليا او تنورين ، قنات ، حصرون ، بشري ، اهدن ، الزاوية ، والهرمل . ٧ - واخيرا قضاء الكورة وفيه ثلاث مديريات : الكورة الشمالية ، الكورة الوسطى ، القوبطع . ٨ - يضاف الى هذه الاقضية السبع مديرية دير القمر المستقلة (٤) .

وكانت حدود المصرفية تنحصر من الشمال بمحافظة طرابلس التابعة لولاية بيروت آنذاك، ومن الجنوب بقضاء صيدا التابع لها ايضا ، ومن الغرب بمدينة بيروت والبحر الابيض المتوسط ، ومن الشرق بقضائي بعلبك والبقاع التابعين لولاية دمشق (٥) .

ومن الصعب تفسير كيفية ادخال مديرية الهرمل في مصرفية جبل لبنان ذات الطابع المسيحي باعتراف واضعي نظام هذه المصرفية بالذات ، في حين كانت هذه المديرية التي اعتبرت مستقلة اداريا وجزءا من قضاء البترون ، شيعية بالأغلبية الساحقة من سكانها . ان هذا الادخال يصعب تفسيره دون اخذ الثروة الحرجية لمنطقة الهرمل بعين الاعتبار والتي قطع جزء كبير منها في عهد المصرفية ذلك . وبدل على غنى المنطقة بالاحراج المساحة المتبقية فيها حتى عام ١٩٣١ والتي قدرت بحوالي ٤٥ الف هكتار في منطقتي بعلبك الهرمل مقابل ٧٦٥ الف هكتار في اكروم و ٣ آلاف في الضنية القريبتان منها ، في حين لم تتجاوز مساحة الاحراج في صور في تلك الفترة ٦ آلاف هكتار وفي الشوف ٥ آلاف وفي قاديشا ٥ آلاف ايضا (٦) ، في حين قدرت مساحة الاحراج في لبنان لعام ١٩٢٠ بحوالي ١٠٠ الف هكتار (٧)، اي بخسارة ٣٠ الف هكتار من الثروة الحرجية في لبنان ، خلال عشر سنوات فقط .

وقد قدرت مساحة المصرفية بحوالي ٥٠٠ كلم^٢ او ٤٥ الف هكتار . اما نسبة الطول والعرض فقد اختلفت من ١٣٠ كلم طول الى ١٤٥ كلم ومن ٣١ كلم عرض او متوسط عرض الى ٢٥ كلم حتى ان جورج سمنه يقدر مساحة المصرفية بحوالي ٥٦٠٠ (٨) كلم^٢ .

وتقوم بجوار المصرفية ولاية بيروت التي تمتد على ٣٠٥٠٠ (٩) كلم^٢ وتبسط سلطانها على اراض في الشمال والجنوب تتجاوز حدود لبنان الحالي ويتبعها محافظة طرابلس واقضية صيدا وصور ومرجعيون وحاصبيا وراشيا والضنية . اما البقاع

(٤) حتى - المصدر السابق - ص ٥٠ - ٥٢ .

(٥) حتى - المصدر السابق - ص ٥٠ - و Georges Samné « La Syrie » - P. 265.

(٦) - Saïd Himady « Economic Organisation of Syria » - P. 40.

(٧) - V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » - P. 156.

(٨) - Voir G. Samné «op. cit.» - P. 265 et «Correspondance d'Orient» No. 138. Juin 1914 - P. 530 et Toufic Touna « Les institutions féodales... » - P. 610 et Huvelin « Que vaut la Syrie ? » - P. 8.

اما « دوسان بوان فتربع المساحة الى ٦٥٠٠ كيلو متر مربع للبنان المتصرفية عام ١٨٦٤ » .

- V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » - P. 155.

(٩) محمد ربيع ومحمد بهجت « ولاية بيروت » ص ١٧ .

والجانب الغربي من سلسلة لبنان الشرقية فيؤلفان جزءا من قضاء بعلبك ويتبعان آنذاك ولاية دمشق . وهكذا كانت ولاية بيروت تتجاوز مساحتها سبعة اضعاف متصرفية جبل لبنان تقريبا وتشتمل على سهول زراعية خصبة ومدن عامرة ومرافئ هامة مستثمرة او قابلة للاستثمار . في حين كانت المتصرفية تتكون من مجموعة كبيرة من القرى الزراعية او القائمة على الانتاج الحرفي . وتندم فيها المدن بحيث لا تصح عليها هذه التسمية ولا تستطيع الاتصال بالخارج الا عن طريق مرافئ المدن الساحلية اللبنانية التي تسيطر عليها الحكومة التركية مباشرة ، اي بيروت وطرابلس وصيدا . اما مرفأ جونيه ، ذو الموقع الجغرافي الممتاز ، فلم تعتمد ادارة المتصرفية ولا الدول الحامية لها على توسيعه واصلاحه بل كانت تعتمد اساسا على ميناء بيروت . اقتصاديا ، كان الحرير والتبغ اكثر السلع انتشارا في جبل المتصرفية . وكانت مراكز التصنيع تقوم في بكفيا وجونيه وانفه والحدث وفرن الشباك والخنشارة ، والشويز وزحله ، والدامور ووادي شحرور وانطياس وبيت شباب وغيرها . وبلغ تعداد معامل الحرير ٢٣٠ معملا تضم ١٠٨٢٤٨ حوزا .

نظام المتصرفية في الميزان

ما يميز الارض الزراعية في جبل لبنان عن سائر المناطق ان هذه الارض بالذات هي من صنع مجهود الانسان بعد ان كانت صخورا وعرة المسالك . والشريط الضيق من الاراضي الخصبة كان يتحدد على الساحل ما بين جونيه والدامور وما بين جبة بشري - الزاوية - الكورة ، وني قضائي الشوف وجزين بالجنوب وعلى الجانب الشرقي من الهرمل وفي جوار مدينة زحله .

ولم تتجاوز مساحة الارض المزروعة في المتصرفية ، في عام ١٩١٥ ، نسبة تزيد على ٣٦٨٪ (١١) من مساحة تبلغ ٥٠ الف هكتار تحتوي عنصرا بشريا يتجاوز ٤٠٠ الف نسمة ، في حين قدرت مساحة المناطق التي طالب اللبنانيون بضمها الى الجبل والتي الحققت عام ١٩٢٠ بحوالي ٥٥٠ الف هكتار يتراوح عدد سكانها بين ٣٥٠ و ٤٠٠ الف نسمة يتمركز القسم الاكبر منهم في بيروت وطرابلس وصيدا . وعلى مقربة من جبل المتصرفية الذي يصعب استصلاح اراضيه تنبطح سهول خصبة وغنية وسهلة الاستصلاح في البقاع وعكار ومرجعيون .

وحسب احصائيات هوفلان ، كانت ولاية بيروت تضم اراض زراعية خصبة . وقدرت الاراضي المزروعة منها عام ١٩١٩ بحوالي ٢٩٧٦٤٦٠ هكتار على مساحة كلية قدرها ٢٠٨٦١٦٨٠ (١٢) هكتار اي ما يعادل ٩٪ من المساحة العامة تقريبا ،

(١٠) ابراهيم الاسود « تنوير الازهان .. » الجزء الرابع ص ٢٤١ - راجع ايضا مجلة « الحارث » عدد حزيران ١٩٢٢ ص ٥٦ وعدد نيسان ١٩٢٥ ص ٧٥٠ .

(١١) — Huvelin « Que vaut la Syrie ? » — P. 14.

(١٢) — Huvelin Ibid. P. 14 et V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » P. 155.

(١٣) — Huvelin Ibid P. 8.

بينما كانت الارض القابلة للزراعة تبلغ ٢٥٠ الف هكتار اي ١٢٪ تقريبا في حين لا يزيد عدد السكان فيها على ٢٥٠ الف نسمة بتمركز ١٣٦ (١٤) الف منهم في مدينة بيروت بالذات .

كان الواقع الاقتصادي الزراعي دافعا قويا للعامة توسيع المتصرفية « نحو حدود لبنان التاريخية والطبيعية » كما كانوا يسمونها . فالمشكلة الزراعية اخذت تتسم بالعنف والحدة ، خاصة في سنوات الجفاف وبسبب الامراض الزراعية التي اصابته المحاصيل بصورة دائمة ، خاصة مرض « الفيوكرا » الذي هاجم كروم العنب منذ ١٨٩٠ محدثا فيها اضرارا بالغة وكان يتكرر سنويا . اضافة الى ذلك وفرة الاملاك الموقوفة للكنيسة المارونية في المتصرفية والتي بدأت تبور مع ازدياد الهجرة الى الخارج ، مما زاد في تفاقم الوضع الزراعي بجبل لبنان .

لقد طرحت القضية الزراعية نفسها بحدة قبيل الحرب العالمية الاولى . ما العمل لاطعام سكان الجبل ذي الارض الصخرية غير القابلة للاستصلاح آنذاك في حال حدوث حرب محلية او عالمية ؟ كيف يمكن انقاذ سكان الجبل من الموت جوعا اذا كان الفلاح الجبلي يعيش في ضيق مستمر (١٥) ايام الهدوء والسكينة ؟ حتى في سنوات المحاصيل الوفيرة ، لم يجتن الفلاح فيها الا ما يعيله لمدة اربعة اشهر من السنة (١٦) فقط . . « فالتصرفية لا تنتج الا الحرير والتبغ . وموسم الزيتون فيها لا يكفي سوى للاستهلاك المحلي » (١٧) .

اما الحرف في المتصرفية فكانت واسعة الانتشار خلال تلك الفترة وقد عمل فيها قطاع سكاني واسع بلغ حوالي ١٤٪ من عدد السكان . وبرز الحرف في المتصرفية كانت صناعة النسيج وصناعة الحرير والديما والاعباني وغزل الحرير ، والانية الفخارية وصناعة السكاكين ، وصناعة صب الاجراس ، والنجارة ، وصناعة الكحول ، وصناعة التبغ وغيرها .

وبسبب انتشار الهجرة على نطاق واسع في الجبل ، كانت اليد العاملة من النساء والاولاد هي الغالبة في هذا المجال نظرا للأجر الضئيل الذي كان يعطى للمرأة العاملة . وكانت الاغلبية الساحقة من العمال والعاملات تعيش في امية شبه مطلقة . غير انه يمكن القول ان وضع الحرفيين كان افضل بكثير من وضع اخواتهم الفلاحين في الجبل سيما وان عددا من الحرف كان في موقع قوي للفاية بسبب احتكار الصنعة او « سر المهنة » في اسر مخصصة في فروع معينة : كصناعة الاجراس في بيت شباب ، وصناعة الخناجر والسكاكين في جزين وغيرها . فقد تخصصت بعض الأسر في نشاط حرفي معين راحت تمارسه لمنطقتها بكاملها ان لم نقل للمتصرفية بأسرها وحتى للمناطق المجاورة لها . . بيد ان ما يجب ملاحظته هنا ان حرفيي

— G. Samné « La Syrie » — P. 260. (١٤)

— Elie Safa « L'émigration libanaise » — P. 163. (١٥)

— Henry Guys « Esquisse de l'état politique et commercial de la Syrie » P. 264. (١٦)

— Henry Guys Ibid — P. 266. (١٧)

المتصرفية لم يفقدوا بالضرورة كل علاقة لهم بالارض(١٨) وبالاعمال الزراعية . وهذا ما يفسر ان الضائقة الزراعية كانت تصيب مباشرة اولئك الحرفيين وعيالهم وتدفعهم ايضا للتفتيش عن حلول لازمتهم المستعصية في الجبل .

ان سكان جبل لبنان هم الذين حكموا بأنفسهم على متصرفيتهم في مذكرة قدموها ، عام ١٩١٣ ، الى المتصرف اوهانس باشا ، وجاء فيها : « ان تركيا ، رغبة منها في سجن الشعب اللبناني ضمن حيز ضيق من الصخور ، واجباره على طلب الانضمام الى ولاية بيروت متنازلا بذلك عن جميع امتيازاته ، قامت بحرمان الجبل من منفذ الى البحر والى السهول الداخلية . . » (١٩) وازافت المذكرة تقول : « ها نحن اليوم ، تحت ضغط الجوع والفقر ، نغادر جبلنا الحبيب ، الذي اصبح قاحلا لا اخضرار فيه . . . » (٢٠)

لا ريب ان اصابع الفرنسيين كانت وراء هذه المذكرة التي رافقت تهديد الوزير الفرنسي ريمون بوانكاريه في عام ١٩١٢ والذي جاء فيه « ان لنا في سورية ولبنان مصالح تقليدية ، ونحن مصممون على فرض احترامهما » ، غير ان مطلب توسيع الجبل ، الذي كان يعني في نظر الوجوديين من اللبنانيين والسوريين توسيعا لنفوذ فرنسا ، جاء يعبر عن ضرورة حياتية لسكان الجبل من اجل البقاء فيه من جهة ، والاستمرار على قيد الحياة اذا ما حدثت حرب او ازمة اقتصادية . وجاءت الهجرة، التي باركتها تركيا والدول الاجنبية ، تزيد الوضع سوءا . فقد عبرت مذكرة مجلس بلدية زحلة عن ذلك بالقول : « ان شعبنا سرى نفسه محكوما عليه بأحد امرين ، اما الانقراض ، واما سلوك طريق الهجرة(٢١) . فالضيق الاقتصادي قد بلغ ، قبيل الحرب ، اقصى مداه ، اذ غدت الهجرة جماعية في اوساط الشباب الذين غادروا الجبل تاركين آباءهم وامهاتهم وزوجاتهم واولادهم ، وجميع هؤلاء لا يستطيعون العمل تقريبا . » هذه الحالة من الفقر التي عاشها سكان الجبل دفعت العديد من شبيبة لبنان للهجرة نحو جميع بقاع الدنيا ، والى الاميركيتين بوجه خاص « (٢٢) .

ان القول بأن المتصرفية كانت « عهد قلة وبسط » كما يشير لحد خاطر في كتابه « عهد المتصرفين في لبنان » لا يعبر فعلا عن واقع اللبنانيين آنذاك مهما حاول تغليف تلك الحقبة الصعبة من حياتهم بعبارات انشائية منمقة كقوله « عادوا الى فطرتهم الاصلية ، وتناسوا ما حرّمهم آياه نظامهم الجديد من حقوق وحدود ، وأقبلوا في الغالب على الاخلاص الى الراحة والحياة البسيطة القانعة بما تيسر . . . » (٢٣) فهل كان بمقدور شعب يفوق تعداداه . . . { الف نسمة العيش على رقعة مزروعة

(١٨) Jacques Couland « Mouvement syndical du Liban... » — P. 40.

(١٩) مذكرة تقدم بها مجلس بلدية زحلة تحت عنوان « البقاع اللبنانيين » موقعة من جميع مجالس البلديات بالجبل — ص ١٠ .

(٢٠) المذكرة السابقة ص ١٦ .

(٢١) المذكرة السابقة — ص ١٦ .

(٢٢) — A. Khair « Le Moutaçarrifat du Mont-Liban » — P. 18.

(٢٣) لحد خاطر — عهد المتصرفين في لبنان — مقدمة ص ٥ .

من الارض لا تتعدى نسبتها ٣,٨٪ في ذلك الجبل القاحل والذي قال عنه لحد خاطر
بالذات انه حصر « ضمن نطاق ضيق هو عبارة عن جبال صخرية جرداء » (٢٤) ؟ حتى
استفلال كل شبر منه لم يكن يكفي حاجة الجبلين سوى لاربعة اشهر فقط في ظروف
السلم كما اشار سابقا هنري غيز .

نضيف الى ذلك ان تزايد السكان في المتصرفية تعدى بكثير نسبة الاراضي
الجديدة المستصلحة التي دخلت في مجال الانتاج الزراعي بفضل الجهود المضنية
لفلاحي الجبل . وقد تعمق الضيق الاقتصادي اكثر فأكثر مع الهجرة الجماعية قبيل
الحرب العالمية الاولى . ويقدر عدد اللبنانيين الذين هاجروا بين اعوام ١٩١٠-١٩١٤
بحوالي « ربع سكان لبنان » (٢٥) . اما مجلة رسائل الشرق ، فقدرت اللبنانيين
المنشرين في الولايات المتحدة واميركا الجنوبية ومصر فقط حتى عام ١٩١٤ بحوالي
٢٥(٢٦) الف نسمة اي اكثر من نصف سكان الجبل تقريبا . صحيح ان هذا الرقم
الاخير قد يكون مبالغا فيه غير ان من الثابت والاكيد ان عدد المهاجرين قد تجاوز ربع
سكان الجبل حتى بداية الحرب العظمى . تلك الحرب التي ستودي بحياة الثلث
المتبقي من سكان جبل المتصرفية خلال اعوام ١٩١٥ - ١٩١٨ بسبب المجاعة والاعدام
والنفي والمظالم التركية والجراد .

ربع سكان لبنان هاجروا قبل الحرب ، وثلث الباقي لا قوا حتفهم اثناءها .
تلك كانت حصيلة « البجوحة والرخاء » اللذين عمّا لبنان ايام المتصرفية و « هنيئا
لمن له مرقد عنزة في جبل لبنان » . باعتراف اشد المتحمسين لنظام المتصرفية ،
فان جبل لبنان « قد اعطي ما بين المدن البحرية (اللبنانية) من سواحل ، ولكنه منع
من ان يقيم فيها موانئ ينفذ منها الى العالم الخارجي ، الا في عهد اوهانس باشا
ولكن لم ينفذ له الوقت لاستخدامها للتصدير والاستيراد ، اللذين بدونها لا يتسنى
لاي بلاد ان تعيش في بجموحة ، ممتعة باستقلال ، وبحياة حرة كريمة » (٢٧) . اما
عن استقلال جبل لبنان عن الدولة العثمانية وعن سوريا فهل كان ذلك الاستقلال
قائما اقتصاديا وسياسيا ام مجرد مظهر شكلي ليس الا ؟ (٢٨) .

حرمان من الموانئ والتصدير والاستيراد ، حرمان من المدن الكبرى ، حرمان
من الاراضي الزراعية الخصبة ، حرمان من سواعد الشيطيين من شبابه المهاجر ،
تلك باختصار ابرز سمات المتصرفية في لبنان التي حصرت اللبنانيين « ضمن نطاق
ضيق من الجبال الصخرية الجرداء » .

(٢٤) لحد خاطر - المصدر السابق - ص ٢٥ .

(٢٥) — B. Aboussouan « Le problème syrien » — P. 29.

(٢٦) — Correspondance d'Orient » No. 138 — Juin 1914 — P. 534.

(٢٧) لحد خاطر - المصدر السابق - ص ٢٥ .

(٢٨) ينفي فيليب كروسيه هذا الاستقلال حين يقول « لبنان لم يكن مستقلا » لا عن التتسطينية ولا عن
سوريا ، وهذه النقطة هي الهم . فلبنان كان يتشارك وسوريا المصالح والقوانين بالاضافة الى
الاصل الواحد واللغة الواحدة لسكان البلدين .

— Ph. Crousset « La Constitution Libanaise du 23 Mai 1926 » Thèse — P. 18.

دولة لبنان الكبير (٢٩)

اعلن الجنرال غورو قيام دولة لبنان الكبير بعد ان ضم الى متصرفية جبل لبنان السابقة مناطق بيروت وطرابلس وصيدا وصور ومرجعيون وراشيا وحاصبيا وبعبك، وسهول البقاع وعكار والبقية في شمالي سهل عكار . كما اعلن غورو ايضا حل ولاية بيروت القديمة وجميع تقسيماتها الادارية وانهى بالمقابل متصرفية جبل لبنان بعد ان ازال العثمانيون استقلالها الذاتي منذ دخولهم الحرب ، وحلت بذلك جميع هيئاتها الادارية وتقسيماتها السابقة .

لقد اصدر الجنرال عدة قرارات متتالية ابرزت دولة لبنان الى الوجود وكان اهمها على التوالي : قرار رقم ٢٩٩ الصادر في الثالث من آب ١٩٢٠ والقاضي بفصل اقضية حاصبيا ، راشيا ، المعلقة ، وبعبك وضمها الى جبل لبنان المستقل . والقرار ٣٢٠ الصادر في ٣١ آب ١٩٢٠ الذي حل ولاية بيروت وتقسيماتها السابقة . والقرار ٣٢١ الصادر في نفس التاريخ الذي قضى بحل متصرفية جبل لبنان المستقل وجميع تقسيماتها .

ودولة لبنان الكبير تحددت بالقرار رقم ٣١٨ الصادر في ٣١ آب ايضا كما يلي : من الشمال مصب النهر الكبير على خط يلزم مجرى هذا النهر صعودا على علو بلدة جسر القمر حتى التقاء النهر الكبير مع رافد وادي خالد . ومن الشرق خط القمم الفاصل بين وادي خالد ونهر العاصي والمار بقري : مصرعه - حار بعنا - فيسان ، على علو قري بريفا ومتربة . اما في الجنوب فحدود فلسطين التي ستحدد لاحقا باتفاقات دولية . ومن الغرب ، البحر الابيض المتوسط .

وعلى اثر تلك القرارات اعلن الجنرال غورو ولادة هذه الدولة الجديدة في الاول من ايلول ١٩٢٠ من مركزه في قصر الصنوبر في بيروت بحضور البطريرك الماروني ومفتي الطائفة السنية والعديد من رجال الدين والموظفين والناصرين ، وبلغت مساحة الدولة الجديدة ١٢ الف كلم^٢ تقريبا (٢٠) قبل خسارة منطقة الحولة التي قلصت مساحة لبنان الحالي الى ١٠٤٠٠ كلم^٢ .

اما الوحدة الادارية للتقسيم الاداري الجديد فقد بقيت السنجق (٢١) مقسما الى اقضية وتقسيم الاقضية بدورها الى مديريات . وقد انشأ القرار ٣٣٦ ، الصادر في اول ايلول ١٩٢٠ ايضا ، اربعة سناجق مقسمة الى ١٢ قضاء . اما السناجق الاربعة فكانت :

(٢٩) — Pour ce paragraphe, voir les arrêtés cités et E. Rabbath « Formation historique » — PP. 351-259 et Longrigg « Syria and Lebanon under french mandate » — P. 123 et s.

راجع ايضا : مسعود ضاهر « الادارة في لبنان زمن الانتداب الفرنسي » رسالة جامعية — صفحات ٧٢ — ٧٧ .

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 156.

(٢٠) وفي الواقع فان هذا الرقم مبالغ فيه كذلك الرقم الذي اعطاه ريمون اوزو اي ١١ الف كلم مربع وليست لدينا احصائيات دقيقة عن المساحة التي اغتصبها الصهاينة من اراضي الحولة اللبنانية .

— Voir Raymond O'Zoux « Etats du Levant... » — P. 94.

— Raymond O'Zoux « Etats du Levant sous mandat français » — P. 69. (٣١)

- ١ - سنجد لبنان الشمالي ومركزه زغرتا ويشتمل على اقصية عكار وزغرتا والبثرون .
- ٢ - سنجد لبنان الجنوبي ، مركزه صور ويشتمل على اقصية صور وصيدا وحاصبيا .
- ٣ - سنجد البقاع ، مركزه زحلة ويضم سهل البقاع واقضية راشيا والمعلقة وبعلبك ومديرية الهرمل .
- ٤ - سنجد جبل لبنان ، مركزه بعبدا ، ويضم اقصية كسروان والتمن والشوف . اما مديرية دير القمر فقد بقيت ذات استقلال اداري .

اصبحت بيروت العاصمة الجديدة للدولة اللبنانية . هذا الامتياز الجديد لبيروت لم يكن في الواقع سوى تثبيت للوضع الذي نشأ عن ازمة المصرفية بالذات . فبيروت كانت المركز التجاري الكبير لمقاطعة بحرية طويلة منذ اواسط القرن التاسع عشر (٢٢) . وكان لها امتياز الجمع بين المرفأ والخطوط الحديدية ، اي المواصلات الرئيسية في ذلك القرن . فقد سيطرت على السوق السورية ومارست عليها تأثيرا كبيرا (٢٣) ، فقد قيل في بيروت آنذاك انها تحجب لبنان ولبنان يحجب سوريا (٢٤) . يضاف الى ذلك ايضا ان سكان المصرفية ، الذين كانوا يغادرون حدودها تفتيشا عن الرزق وجمع الثروة ، بدأوا يتمركزون في بيروت بالذات ومنها يتابعون سفرهم نحو الخارج . ومارس الكثير ممن استقروا فيها اعمال الوساطة التجارية للشركات الاجنبية او الوظائف والاستخدام والتعليم . لذلك اغتنت بيروت بسرعة فائقة بروافد سكانية نازحة من الجبل وباقي المناطق واستقروا فيها حيث كانت تتمركز المصالح التجارية الغربية الواسعة . وارتفع تعداد سكانها من ٦ آلاف نسمة في بداية القرن التاسع عشر الى ٨٠ الف عام ١٨٦٥ (٢٥) الى ١٣٦ الف عام ١٩٠٨ .

واستمر هذا التقسيم الاداري حتى عام ١٩٢٥ عندما اصدر حاكم لبنان الكبير، ليون كايلا ، القرار رقم ٣٠٦٠ المؤرخ في ٩ نيسان والذي ألغى السناجق والنواحي والاقضية القديمة وقسم لبنان الكبير الى ١١ مقاطعة ومديرية دير القمر المستقلة (٢٦) ، في حين ابقى على السنجد القديم بوصفه الدائرة الانتخابية التي كان يجري على اساسها اختيار مجلس تمثيلي موزع على الطوائف الكبيرة ، بعضه منتخب والبعض الآخر يعين تعيينا . واختفت بعد ذلك تسمية المصرفية وغدت المقاطعة هي الدائرة الادارية الاساسية التي يجري تقسيمها الى مديريات . وقد خفض عدد تلك المديريات من ٥٢ مديرية الى ٣٥ فقط . اما المقاطعات فكانت بيروت وصيدا وصور ومرجعيمون والتمن والشوف وكسروان وطرابلس والبثرون وزحلة وبعلبك بالاضافة الى مديرية دير القمر .

-
- D. Chevallier « La Société du Mont-Liban... » — P. 291. (٢٢)
 — M. Nicolas « Questions monétaires en Syrie » — P. 24. (٢٣)
 — La Mazière « Partant pour la Syrie » — P. 216. (٢٤)
 — D. Chevallier — op. cit. — P. 292. (٢٥)
 — V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 159. (٢٦)

اغتنت متصرفية جبل لبنان ، منذ ١٩٢٠ ، بأراض زراعية خصبة كانت تتبع سابقا ولاية دمشق ، خاصة منطقتي البقاع ومرجعيمون بالإضافة الى تلك التي كانت تتبع ولاية بيروت كسهي عكار والبقيعه . « فأقام الفرنسيون - يقول جاك بيرك - دولة لبنانية كتفسير اقليمي لتبعية الموارنة التقليدية لفرنسا » (٢٧) . . . فقد ضمت الى جبل لبنان المتصرفية مدينة طرابلس وسهل البقاع رغم احتجاج سكانها الداعين الى الوحدة مع سوريا . وكان رد الفرنسيين ان عاملوا تلك المناطق كمواطنين من الدرجة الثانية « فالضرائب هناك اكثر ارتفاعا عن الضرائب في جبل لبنان ، وادارة حصر التبغ تختلف امتيازاتها ايضا فيها ، كذلك تفرض الرسوم الضريبية على المواد الغذائية الاولية كالمالح والسكر وغيرهما . فبقيت المناطق المضمومة في موقع وسط بين سوريا ولبنان ، اذ انتزعت من الاولى دون ان تعتبر فعليا مناطق لبنانية اصيلة » (٢٨) .

مجتمعان لبنانيان لا مجتمع واحد

١ - في توزيع الملكية الزراعية :

عرف جبل لبنان ، ومنذ عهد طويل ، نظام الملكية العقارية الصغيرة ، كحق من حقوق التملك في الجبل اذ كانت الارض المزروعة فيه ثمرة جهد انساني شاق وطويل . وكان على الفلاح الجبلي ان يستغل كل شبر من ارضه في صراعه مع البقاء . اما في المناطق الجبلية « فكان الفلاح يعامل من قبل سيده الاقطاعي كعبد من عبيد القرون الوسطى » (٢٩) .

فاذا كانت الاراضي المزروعة في الجبل من صنع الانسان بالذات ، كانت المساحات الشاسعة في المناطق الملحقة على العكس من ذلك ، من صنع الطبيعة ، نالها اقطاعيون بهبات سلطانية او انتزعوها بالقوة من الفلاحين ومن بعضهم البعض . وحتى اليوم لا تزال بعض القرى في عكار والبقاع ملكا كليا لأفراد من عائلات معينة ، كما يشاركون في ملكية قرى اخرى . وفي عام ١٩٢٠ كانت عائلة المرعب تمتلك في سهل عكار قرى بكاملها واخرى بالمشاركة كقرى تل حياة وكفرملكي والحوشب والكويخات والحيفا ودارين والمعودية وغيرها . وكان عبود عبد الرزاق المرعب يمتلك اكثر من ١٧ (٤٠) قرية في عكار والبقيعه وداخل سوريا . وقد زاد في انتشار ذلك الشكل من الملكية الواسعة في المناطق الملحقة ان الكثير من تلك الاراضي كان ملكا مشاعيا لعائلات كبيرة او صغيرة ، وكان الورثة المشتركون في ملكيتها نادرا ما يلجأون الى القسمة فيما بينهم رسميا بل الى اقتسامات حية مؤقتة لا قيمة لها قانونيا . ولعل

- Jacques Berque « Le Mouvement Syndical du Liban ». Préface — p. 8. (٢٧)
 — V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 25. (٢٨)
 — Jean Luquet — « op. cit. » — P. 158. (٢٩)
 — Jean Donon « Le régime foncier en Syrie et au Liban ». L'Asie Française. No. 224. Juillet-Août — P. 27. (٤٠)

السبب في ذلك تهريبهم من دفع رسوم الانتقال وتكاليف التسجيل الجديدة الى الخزينة .

ففلاح الجبل كان مالكا صغيرا يعمل غالبا على ارضه او يتأجر قطعة ارض لحسابه الخاص ، في حين كانت الملكية الكبيرة ، والكبيرة جدا هي الشكل الغالب في المناطق الملحقة بالجبل آنذاك . فخارج اسوار ملكية الكنيسة المارونية ، كان فلاحو الجبل مالكين لارض يقيمون عليها ويحراثونها بأيديهم ، في حين كان معظم مالكي المساحات الشاسعة في المناطق الاخرى من لبنان ، من الاقطاعيين الذين يسكنون المدينة ولا يأمون املاكهم الا في مواسم الحصاد بينما تتم عملية استغلال الاراضي عن طريق استغلال الفلاحين المربعين والمحاصنين طبقا لنظام عبودي رهيب .

اما نسبة الاراضي الجبلية الى الاراضي السهلية فكانت مرتفعة جدا في الجبل والمناطق المضمومة اليه ، لكنها تتميز كثيرا بين الجبل والمناطق الاخرى . فمن اصل ١٠٤٠٠ كلم^٢ ، مساحة لبنان الحالية ، هناك ٩ آلاف كلم^٢ من المناطق الجبلية ، والباقي اي ١٤٠ الف هكتار اراض سهلية تتوزع كالاتي (٤١) :

٨٠٦٠٠٠ هكتارا	في سهل البقاع
٢٥٦٠٠٠ هكتارا	في سهل عكار ومنطقة نهر البارد
٢٠٦٠٠٠ هكتارا	في السهل الساحلي بين صور وبيروت
١٠٦٠٠٠ هكتارا	في منطقة طرابلس
٥٦٠٠٠ هكتارا	في منطقة الكورة

اما مساحة الاراضي المروية منها فكانت على الشكل التالي (٤٢) :

٢٠٦٠٠٠ هكتارا	في سهل البقاع
١٠٦٠٠٠ هكتارا	في المنطقتين الوسطى والجنوبية الملحقتين بالجبل
٤٦٠٠٠ هكتارا	في سهل عكار
٨٠٠ هكتارا	في سهل طرابلس
٣٠٠ هكتارا	في سهل صور

وذلك مقابل ٢٦٠٠٠ هكتارا فقط مروية في جميع انحاء جبل لبنان .

يتبين من ذلك ان معظم الاراضي الصالحة للزراعة والمروية كانت تتمركز في المناطق التي الحقت في جبل لبنان المتصرفية ، كذلك بالنسبة لمساحة الاراضي الصالحة للزراعة . اما اراضي الجبل فصخرية ووعرة وغير مروية وقليل منها قابل للاستصلاح الزراعي . اضافة الى ذلك ان شكل الملكية في الجبل كان يعتمد على الفلاح الصغير الحر وعلى الملكية الصغيرة ، تقابلها الملكية الكبيرة جدا في المناطق الملحقة والفلاح - العبد المرهون لسيد الاقطاعي وللارض التي يعمل عليها .

(٤١) — M. Sarrage «La nécessité d'une réforme agraire en Syrie». Thèse — P. 123.

— M. Sarrage — Ibid — P. 124.

(٤٢) حتى الان لا تتجاوز مساحة الاراضي المزروعة في لبنان حوالي ٢٠٪ من مساحة لبنان العامة و ٨٪ مساحة الغابات به — راجع :

— J. Dresch « Le Moyen-Orient arabe » T. II — P. 380.

et E. de Vaumas « La répartition de la population au Liban » — P. 14.

ب - في توزيع السكان والطوائف :

تميز جبل لبنان المتصرفية بكثافة سكانية شديدة يعكس المناطق الملحقة والتي ، خارج مدن بيروت وطرابلس وصيدا ، كانت كثافتها السكانية ضئيلة جدا . اُضف الى ذلك ان توزيع سكان الجبل طائفيًا في عام ١٩١٩ ، كان يعتمد بشكل خاص على الموارد ، وبشكل عام على المسيحيين واعداد قليلة من الدروز دون سواهم . فقد قدر سكان الجبل في ذلك العام بحوالي ١٤٤٨٠٠ نسمة موزعي كالاتي (٤٢) :

من الدرّوز	٤٧٠٢٩٠	من الموارنة	٢٤٢٠٣٠٨
من الشيعة	٢٣٠٤١٣	من الارثوذكس	٥٢٠٣٥٦
من السنة	١٤٠٥٢٩	من الكاثوليك	٣١٠٩٣٦
		من البروتستانت	٢٠٨١٥

يضاف اليهم ٨٦ يهوديا و ٦٧ من الاقليات .

اما المناطق التي التحقت بالمتصرفية عام ١٩٢٠ فكانت الاغلبية الساحقة من سكانها من الطوائف الاسلامية عامة ، ومن السنة والشيعة بشكل خاص . ففي بيروت ، قدر تعداد السكان عام ١٩٢١ بحوالي ١٤٤٩٨٠٩١ (٤٤) مقيما ، منهم ٧٧٠٢٩٢ لبنانيا ، و ١٤٠٢٠٦ اجنبيا ، يضاف اليهم ٢٠٩٣٤ لبنانيا مهاجرا من سكان بيروت ويدفعون الضرائب . فيصبح سكان العاصمة الجديدة ٩٤٠٤٣٢ شخصا . ويتوزع اللبنانيون المقيمون طائفيًا كما يلي : ٣٢٠٨٤٤ من السنة و ١٧٠٥٧٣ من الموارنة ، و ١٢٠٤٢٢ من الارثوذكس ، و ٤٠٢٢٥ من الكاثوليك ، و ٣٢٧٣ من الشيعة ، و ١٥١٤ من الدرّوز و ٥٣٣ من البروتستانت ، و ٤٩٠٦ من الاقليات .

اما مقاطعة صيدا التي كانت تضم ١٣٧ (٥٠) قرية فقد بلغ تعداد سكانها آنذاك ٣٢٠٢٥٤ (٤٦) مقيما و ١٨٠ اجنبيا . وتوزع سكانها طائفيًا كما يلي : ٢١٠١٦٠ من الشيعة ، و ٦٠٥٣٣ من السنة ، و ٢٦٩٨ من الموارنة ، و ١١٩٩ من الكاثوليك ، و ٢٠١ من الارثوذكس ، و ٢٩ من الدرّوز ، و ٦٤ من البروتستانت ، و ٣٧ من الاقليات . وضمت مقاطعة صور ٤١٠٢١٤ (٤٧) شخصا مقيما دون ذكر للأجانب او لدافعي الضرائب من اللبنانيين المهاجرين . وقد توزعوا طائفيًا كما يلي : ٣٤٠٦٩٤ من الشيعة ، و ٣٦٠٦٣ من الكاثوليك ، و ٢٠٤٣٢ من الموارنة ، و ٧٣٥ من السنة ، و ١٣٧ من الارثوذكس ، و ١١ من الدرّوز ، و ٩٦ من البروتستانت ، و ٤٦ من الاقليات .

وتوزع سكان مقاطعة مرجعيون البالغ عددهم ١١٦٠٢٨ (٤٨) شخصا على الطوائف التالية : ٣٠٣٣٧ من الشيعة ، و ٢٥٣٦ من الارثوذكس ، و ٢٢٨٣ من السنة ،

(٤٢) — Halim Fayyad « The effects of the sectarianism in the lebanese administration » — P. 19.

(٤٤) — Haut-Commissariat « Recensement officiel de 1921 ». Bulletin hebdomadaire officiel du H. C. No. 11 de 12 Mars 1922 — P. 78-79.

(٤٥) — H. C. Recensement de 1921.

(٤٦) — H. C. Recensement de 1921.

(٤٧) — H. C. Ibid.

(٤٨) — H. C. Ibid.

و ١٤.١٥ من الكاثوليك ، و ٩٧.٠ من الموارنة ، و ٥٤٥ من البروتستانت ، و ١٤١ من الدروز ، و ١٩٨ من الاقليات .

اما سكان مقاطعة حاصبيا البالغ عددهم ٩٤٩٠٣٥٩ (٤٩) شخصا عام ١٩٢١ فقد توزعوا طائفا كالاتي : ٣٤٣٩٢ من السنة ، و ٣٤.١٢ من الدروز ، و ١٩١٠ من الارثوذكس ، و ٥١١ من الموارنة ، و ٢٧.٠ من الكاثوليك ، و ٢٣٣ من البروتستانت ، و ٣١ من الشيعة .

وتوزع سكان مقاطعة البقاع الغربي ، وعددهم ٣٩٤٦٧٤ (٥٠) شخصا على الطوائف التالية : ١١٤٩٧٩ من السنة ، ١.٠٧.٦ من الكاثوليك ، ٧٠٥٣٥ من الموارنة ، و ٥٣١٦ من الارثوذكس ، و ٣٤.٠١ من الشيعة ، و ٣٨٢ من البروتستانت ، و ٢٣٩ من الدروز ، و ٥٧.٠ من الاقليات .

كذلك توزع ٣١٤٧٧١ (٥١) لبنانيا في مقاطعة بعلبك على الطوائف كما يلي :

١٩٤٥٣٤ من الشيعة ، ٤٤٦٢٦ من الكاثوليك ، ٣٤٥٥٦ من السنة ، ٣٤.١٨ من الموارنة ، ٩٩١ من الارثوذكس ، ٢٢ من البروتستانت ، ٨ دروز ، و ٢٢ اقلية .

اما سكان مقاطعة راشيا فكان عددهم ١٢٤٨٠٨ (٥٢) توزعوا كما يلي :

٤٤٥٩. من الدروز ، ٤٤.٧١ من الارثوذكس ، ٣٤.٨٧ من السنة ، ٤.٦ من الموارنة ، ٣٥٩ من الكاثوليك ، ١٩ من البروتستانت ، ١٧ من الشيعة ، و ٩ من الاقليات .

وتوزع سكان مقاطعة الهرمل ، وهم ٨٤٧٩٥ (٥٣) على الوجه التالي :

٨٤١٢٤ من الشيعة ، ٤١٤ من الموارنة ، ٢٢٧ من السنة ، ٢٥ من الكاثوليك ، ٥ من الدروز .

في حين توزع سكان مقاطعة عكار ، وهم ٣٤٧٣٢ (٥٤) نمة ، على الطوائف اللبنانية كما يلي :

١٦٤٨٣. من السنة ، ٩٤٥٧٦ من الارثوذكس ، ٥٤٨٤٧ من الموارنة ، ٤٣٥ من الكاثوليك ، ٢٩٣ من البروتستانت ، ٢ من الدروز ، و ٧٤.٠ من الاقليات .

اخيرا ، توزع ٣٤٤٥١٢ (٥٥) نمة وهم سكان طرابلس ، على الطوائف اللبنانية على الوجه التالي :

٢٤٤٧٣٨ من السنة ، ٤٤.٦٠ من الارثوذكس ، ١٤٦٨٧ من الموارنة ، ١٧١ من الكاثوليك ، ١٤٨ من البروتستانت ، ٣ من الشيعة ، ١ من الدروز ، ٧.٤ من الاقليات .

— H. C. Ibid. (٤٩)

— H. C. Ibid. (٥٠)

— H. C. Ibid. (٥١)

— H. C. Ibid. (٥٢)

— H. C. Ibid. (٥٣)

— H. C. Ibid. (٥٤)

— H. C. Ibid. (٥٥)

بعض الايضاحات

قبل ان نتقل الى المعطيات التي توفرت لدينا من خلال هذا الاحصاء الرسمي لعام ١٩٢١ لا بد من بعض الملاحظات :

١ - لا يجوز اعتبار هذا الاحصاء كما لو كان الحقيقة بعينها ، انما لم نستطع الحصول على احصاء اكثر دقة بالنسبة للفترة التي ندرس وهو احصاء اعلن الفرنسيون ارقامه دون دقة علمية لأسباب طائفية معروفة .

٢ - لم تجر عملية احصاء جميع المهاجرين اللبنانيين الذين كانوا يدفعون ضرائب في جميع المناطق بل سيكتفي الاحصاء بإيراد اعدادهم فقط فيما بعد ويركز على الجانب المسيحي دون سواه .

٣ - المقاطعات والتميمات القديمة لم تتحدد بشكل دقيق وثابت كما هي عليه اليوم بالنسبة للتوزيع الجغرافي والقرى التابعة لكل مقاطعة .

٤ - يؤخذ من بعض الارقام ان الاحصاء جرى بشكل عشوائي كان يقدر عدد الدروز في مدينة طرابلس مثلا بفرد واحد وبخمس دروز في مقاطعة الهرمل وبائنين منهم في مقاطعة عكار وبثلاثة من الشيعة في طرابلس ... الخ . وباعتقادنا ، انه صادف مرور هؤلاء اثناء اجراء الاحصاء في تلك المدينة او المقاطعة فجلوهم من سكانها او وضعوا هذه الارقام بشكل اعتباطي .

وبالرغم من ذلك ، فسنحاول اثبات نوع من التوازن الجديد على صعيد الطوائف اللبنانية في الدولة التي اقامها الفرنسيون عام ١٩٢٠ في لبنان . هذا التوازن سيضرب الاختلال الكبير ، والطائفة الكبيرة المسيطرة بالنسبة لسكان المتصرفية . ومع التنويه سلفا الى ان الحقيقة التاريخية تفرض رفع اعداد الطوائف الاسلامية وصولا الى الواقع الفعلي ، فان ارقام الفرنسيين بالذات ، بالرغم من تحيزها ، تعطي صورة عن الواقع الجديد .

فاذا اعتمدنا ارقام احصاء ١٩٢١ الفرنسي الرسمي تبين لنا ان سكان المناطق الملحقه كانوا يلفون ٧١٨،٣٢٠،٥٦ نسمة يتوزعون على الطوائف التالية :

١٠٦،٢١٣ من السنة ، ٨٥٦،٤٩ من الشيعة ، ٤٣٦،٩١ من الموارنة ، ٤٠،٧٢٠ من الارثوذكس ، ٢٥٦،٩٩٤ من الكاثوليك ، ٩٦،٥٥٢ من الدروز ، ٢٦،٤٢١ من البروتستانت ، و ٧٦،٦٧٨ من الاقليات . بحيث أصبحت النسبة الجديدة ٨١٤،٨١٤ من الطوائف الاسلامية ، مقابل ١١٢،٢٢٦ من الطوائف المسيحية ، يضاف اليهم جميعا ٧٦،٦١٨ من الاقليات . وقد قدر الفرنسيون سكان لبنان الكبير لعام ١٩٢١ بحوالي ٧١٠،٥٦٢ نسمة منهم ٥٧٩،٧٧٩ (٥٧) مقيما و ١٣٠،٧٨٤ مهاجرا يضاف اليهم ٢٠،٢٥٠ اجنبيا تتمركز اكثرهم الساحة (١٤،٢٠٦) في بيروت . ومن اصل ١٣٠،٧٨٤ مهاجرا

— H. C. Recensement de 1921.

(٥٦)

أما ف. دوسان يوان فتخضع عدد المسلمين الى ٢٩٢،٠٠٥ مقابل ٤٠٢،٣٥٦ لجميع

— « La vérité sur la Syrie » — P. 157.

الطوائف المسيحية .

— R. O'Zoux « Etats du Levant sous mandat français » tableau P. 95.

(٥٧)

لبنانيا ، فان ٨١،٢٤٣ منهم لم يدفعوا ضرائب ، كشرط فرضته ادارة الانتداب للاعتراف بلبنانيتهم ، لكن كونهم من المسيحيين بأغلبية ساحقة ، اعتبروا لبنانيين تجاوزا لشرط الانتداب بالذات .

وبموجب التقييمات الادارية الجديدة فان سكان جبل لبنان البالغ عددهم ٢٥٩،٠٦٠ مقيما ، بعد ان ابتلعت المجاعة والهجرة والحرب قسا كبيرا منهم ، وبعد ان اضيفت مدينة زحلة في احصاء ١٩٢١ الى البقاع ، توزعوا كالآتي :

٢٥،٤١٨ في زغرنا ، ٣٤،٧٣٩ في الكورة - البترون ، ٨٢،٠٤٥ في المتن ، ٦٠،٦١٨ في الشوف ، ٤١،٠٠٤ في كسروان ، و ١٥،٨٩٣ في جزين . و اضاف الاحصاء ٢٩،٣١١ مهاجرا لبنانيا من الجبل يدفعون ضرائب . و انقسم سكان الجبل البالغ تعدادهم اذ ذلك ٢٨٨،٣٧١ بين مقيم ومهاجر، على الوجه التالي : ١٥٦،٠٩٠ من الموارنة، ٤٠،٦٨٩ من الارثوذكس، ١٦،٤٦٨ من الكاثوليك، ١،٧٩٤ من البروتستانت، مقابل ٣٤،١٨١ من الدرروز ، ١٩،٨٩٨ من الشيعة ، ١٨،٥٧٣ من السنة و ٧٥٨ من طوائف مسيحية متفرقة .

يبين هذا الاحصاء ان مسيحيي جبل لبنان ، بتقدير الفرنسيين انفسهم ، اصبحوا بعد الحرب ٢١٥،٤٧١ مقابل ٧٢،٦٥٢ من المسلمين . بيد ان عدد الموارنة ، باعتراف الفرنسيين ايضا ، سينخفض في لبنان من ١٩٩،١٨١ الى ١٧٥،٦٣١ مقيما اي بفارق ٢٣،٥٥٠ مهاجرا . اما عدد السنة فيبلغ ١٢٤،٧٨٦ بقيم منهم في لبنان ١٢١،٩٦٢ شخصا اي بفارق ٢،٨٢٤ مهاجرا . و يبلغ عدد الشيعة ١٠٤،٩٤٧ بقيم منهم ١٠٣،٠٧٥ بفارق ١،٨٧٢ مهاجرا ، في حين يبلغ عدد الارثوذكس ٨١،٤٠٩ بقيم منهم ٧٨،٤٠٧ مقابل ٣،٠٠٢ مهاجرا ، كذلك بالنسبة للدرروز البالغ عددهم ٤٣،٦٣٣ يوجد منهم ٣،٣٣٤ مهاجرا والباقي ٤٠،٢٩٩ مقيما في لبنان . وبالنسبة للكاثوليك البالغ عددهم ٤٢،٤٦٢ نمة منهم ٣،٧٩٤ مهاجرا و ٣٩،٧٦٨ مقيما . يضاف الى ذلك ان ٤٧٦ مهاجرا بروتستانيا مقابل ٣،٧٣٩ مقيما يشكلون عدد البروتستانت في لبنان البالغ ٤٢١٥ نمة .

الفرنسيون حققوا التوازن الطائفي في لبنان

وهكذا يتبين لنا ان نسبة المقيمين من الطوائف المسيحية تنخفض ، حسب الاحصاء الرسمي ، من ٣٢٧،٢٦٧ (٥٨) نمة الى ٢٩٧،٥٤٥ مقيما في حين لا تنخفض نسبة المسلمين الا من ٢٧٣،٣٦٦ الى ٢٦٥،٣٣٦ مقيما يضاف الى الجميع ٨،٤٣٦ من الاقليات .

فالاختلال الهائل الذي كان سائدا في التصرفية وحتى عام ١٩١٩ حيث بلغ مجموع المسيحيين ٣٢٩،٤٢٧ (٥٩) من جميع الطوائف مقابل ٨٥،٢٣٢ من الطوائف الاسلامية و ١٥٣ من الاقليات ، قد تغير تماما في دولة لبنان الكبير . فقد أصبح

— H. C. Recensement officiel de 1921.

(٥٨)

— H. Fayyad « op. cit. » — P. 19.

(٥٩)

الوجود المسيحي الفعلي يتمثل من جميع الطوائف المسيحية بنسبة ٢٩٧،٥٤٥ نسمة مقابل ٢٦٥،٣٣٦ مسلما مقيما في لبنان الكبير . أضف الى ذلك ان الهجرة التي شملت اعدادا كبيرة من الموارنة بشكل خاص ، جاءت لتضييق الشقة بين اعداد المسيحيين والمسلمين في لبنان . ففي حين قدر سكان لبنان الكبير عام ١٩٢١ بحوالي ٧١٠،٥٦٢ نسمة بين مقيم ومهاجر ، لم تتعد نسبة المهاجرين منهم ١٣٠،٢٤٨ . اما في عام ١٩٢٥ فقد ارتفع عدد سكان لبنان، المقيمين منهم والمهاجرين بحوالي ٧٥٦،٣١٠ نسمة اي بزيادة حوالى ٤٦ الفا فقط في حين قدر عدد المهاجرين بحوالى ٢٥٨،٢٤٨ نسمة في ذلك العام اي بزيادة بلغت الضعفين تقريبا لعام ١٩٢١ . وبقيت الاغلبية الساحقة من المهاجرين تنحصر بالموارنة والارثوذكس بشكل خاص . الهجرة الارمنية وحدها ، والتي تمركز قسم هام منها في لبنان آنذاك ستلعب دورا بارزا في ترجيح الكفة العدديّة دوما لصالح المسيحيين اذ قدرت اعدادهم عام ١٩٢٢ بحوالى ٣٢٢،٨٥٩ (٦٠) ارمينيا . وهكذا توزع سكان لبنان عام ١٩٢٥ بنسبة ٥٩٨،٠٦٢ مقيما و ٢٥٨،٢٤٨ مهاجرا . وتوزع المقيمون على الشكل التالي :

١٧٨،٢٥٧ من الموارنة ، و ١٠١،٧٣٧ من الشيعة ، و ١٢٢،٦٧٨ من السنة ، و ٦٩،٥٣٩ من الارثوذكس ، و ٤٠،٤١٤ من الكاثوليك ، و ٣٨،٩٤٠ من الدرّوز ، و ٣،٩٨٦ من البروتستانت ، و ٩،٦٥٢ من الاقليات يضاف اليهم ٣٢،٨٥٩ ارمينيا .

فباستثناء هؤلاء الارمن الذين اعطاهم الفرنسيون الجنسية اللبنانية ، انخفضت نسبة المسيحيين المقيمين من ٣٢٩،٤٢٧ في عام ١٩١٩ الى ٢٩٧،٥٤٥ في عام ١٩٢١ الى ٢٩٢،٢٧٨ عام ١٩٢٥ حسب الاحصائيات الرسمية بالذات ، في حين ارتفعت نسبة المسلمين من المتصرفية الى لبنان الكبير من ٨٥،٢٣٢ عام ١٩١٩ الى ٢٦٥،٣٣٦ عام ١٩٢١ وبقيت النسبة ذاتها تقريبا عام ١٩٢٥ بحوالى ٢٦٣،٥٥٥ (٦١) مقيما .

لقد تحققت رغبة الفرنسيين في ايجاد توازن طائفي في لبنان بدل الوطن المسيحي الذي شكلته المتصرفية بحماية دولية . فالفرنسيون لم يخطوا قط لمصالح طائفة مسيحية في لبنان بل لمصالحهم هم بالذات . فهم لم يسعوا الى ايجاد اغلبية مسيحية مقابل اقلية اسلامية بقدر ما سعوا الى ايجاد دولة متوازنة طائفية تصلح منطلقا لرساميلهم نحو الداخل الاسلامي . وقد عبّر الجنرال غورو بوضوح عن هذه الفكرة منذ عام ١٩٢١ حين قال : « يهمني ان تخف حدة المنافسات الطائفية شيئا فشيئا لئلا يؤدي استمرارها الى اضعاف لبنان الكبير » (٦٢) .

وقد عبّر الشيخ رشيد رضا عن هذه الحقيقة عندما قال : « ان دول اوروبا ، وان بنت سياستها القديمة في الشرق الادنى على دعوى حماية المسيحيين وانصافهم او انقاذهم من سلطة المسلمين ، فهي تتخذ الدين وسيلة الى مصالحها ولا تبالي بما يعارضها وان نصف الدين وأهله في ايم نفا » (٦٣) .

(٦٠) — E. Gédeon « L'indicateur syrien de 1925 » — P. 115-116 et L. Jalabert « La Syrie et le Liban : réussite française ? » — P. 110.

(٦١) — Voir: H. C. « Recensement de 1921 » et H. Fayyad « op. cit. » — P. 19 et Pierre Rondot « Les institutions politiques du Liban » — P. 28-29.

(٦٢) — Gouraud « Foire-exposition de Beyrouth de 1921 » — P. 19.

SMUTS

(٦٣) المنار — المجلد ٢٢ الجزء ١٠ — مقالة « الدين والقوة والملحة في سياسة اوروبا » ص ٧٨٢ .

دولة طائفية ام طبقية ؟

في عام ١٩٢٠ تحققت دولة لبنانية ذات توازن اقليمي وسكاني وطائفي . فاذا قدرت مساحة جبل لبنان المتصرفية بحوالي ٤٥٠٠ كلم^٢ زيدت هذه المساحة الى ١٠٤٠٠ كلم^٢ عام ١٩٢٠ اي بنسبة حوالى ١٣٠٪ ، فان سكان الدولة الجديدة قد ازداد عددهم من ٢٥٩٠٠٦٠ مقيما في جبل لبنان عام ١٩١٤ الى ٥٧٩٠٧٧٨ مقيما في عام ١٩٢١ اي بنفس النسبة تقريبا . غير ان الاغلبية المطاعة للمسيحيين الموارنة في جبل لبنان قد تم تجاوزها فأضحى الموارنة اكثرية نسبية فقط ونشأت دولة ذات توازن طائفي مقصود اقامها الفرنسيون وفق مخططاتهم في المنطقة .

وعلى ركائز القلعة الصخرية التي كونتها متصرفية جبل لبنان والتي لم تضم سوى قرى صفيرة ومتوسطة دونما مدن هامة ، ودونما مرافىء ناشطة ، ودونما سهول خصبة ، ودونما اراض زراعية مروية او قابلة للاستصلاح ، اقيمت دولة جديدة ضمت مدنا كبيرة ومرافىء نشيطة ، وسهولا فسيحة خصبة . تلك كانت دولة لبنان الكبير .

ان عام ١٩٢٠ شهد ولادة كيان لبناني بالغ التوازن اقليميا وطائفيا واقتصاديا ومدينيا . هذا الكيان الجديد ، بعكس نظام المتصرفية ، كان قابلا للبقاء والاستمرار . وفي هذا العام ، لم يعد تاريخ لبنان مجرد تاريخ جبل لبنان دون سواه ، اي تاريخ لبنان الصغير ، بل اضحى تاريخ كل لبنان ، تاريخ لبنان الكبير . هذا العام سيقضي على ما اسماه بالصراع بين الدروز والموارنة الذي دمغ تاريخ لبنان منذ زمن بعيد ليبدأ تاريخ لبنان على اسس جديدة شهدت ولادة صراع من نوع جديد مع حزب الشعب اللبناني عام ١٩٢٤ الذي نادى بالغاء الطائفية فكان اول صوت ارتفع ضدها كحركة سياسية في لبنان . هذا الصوت سيجد صده مع رياض الصلح في جلسة ٧ كانون الاول ١٩٤٣ الذي وصف الطائفية بأنها « وصمة عار على جبين لبنان يجب ازالتها » .

في عام ١٩٢٠ انتقل عهد الطوائف اللبنانية الى مرحلة بناء النظام الطائفي اللبناني باسم لبنان الكبير ، على اسس عصرية وحديثة . فحمل هذا النظام في تكوينه بالذات عوامل انهياره والقضاء عليه . فدولة لبنان الكبير لم تكن دولة طائفية بل دولة لبنانية على اسس راسمالية حديثة . دولة دمج الفرنسيون فيها جميع الطوائف بتوازن جديد وحدود جديدة . وبالرغم من الرفض المطلق للطوائف الاسلامية الذي عبرت فيه عن عدم اعترافها بهذه الدولة « المعزولة » عن العرب و « المرتبطة » بالعرب ، فقد ادرك راسماليو لبنان ، مسيحيين كانوا ام مسلمين ، ان الفرنسيين لم يسعوا الى كيان مسيحي بل كيان لجميع الطوائف يصلح كمنطلق لراسماليهم نحو الداخل .

اما تجار بيروت ، والعديد منهم من المسلمين ، وزعماء الارباب اللبنانية المسلمون ، دخلوا طوعا في اطار السياسة الفرنسية هذه وجنوا ثروات مالية وعقارية هائلة بفضل تعاونهم معها بحيث اتضح للوطنيين اللبنانيين من جميع الطوائف ، ان لبنان الكبير ليس دولة طائفية ولن يكون كذلك ، وان النضال ضد هذا الكيان الذي

ساهم الفرنسيون في ولادته ، ليس نضالا طائفيًا بل وطنيا . فالفرنسيون ، وان فشلوا في دمج لبنان بسوريا ، نجحوا في ضرب وجه لبنان الطائفي المسيحي الذي كان زعماء الدين الموارنة يصرّون على اظهار لبنان به .

لقد تغير هذا الوجه المسيحي للبنان في عام ١٩٢٠ عما كان عليه ايام المتصرفية . فبنان الكبير ، كدولة جديدة ذات وجه متعدد الطوائف ، كان خطوة اولى على طريق ضرب الوجه الطائفي الوحيد الجانِب للبنان والذي انتهى مع الميثاق الوطني الى صيغة تفاهم بين الطوائف اللبنانية لم تلبث ان اظهرت عقم الصيغ الطائفية المطروحة .

ان ازمة النظام الطائفي اللبناني بدأت تشتد وتقوى منذ ولادة لبنان الكبير بالذات . هذه الازمة ما زالت حتى اليوم تحاول ان تخفي الصراع الحقيقي في لبنان، والذي هو صراع اجتماعي طبقي بالذات . ان تكوين لبنان التاريخي المتعدد الطوائف ، ونظام المتصرفية ، وسلطة الانتداب الفرنسي ، ساعدت جميعا على اظهار الصراع في لبنان بمظهر الصراع الطائفي في محاولة لطمس الصراع الاجتماعي وطمس الصراع الوطني ضد الانتداب الفرنسي . غير ان محاولة تسيير الصراع الاجتماعي في لبنان بوجه درزي - ماروني ، او مسيحي - اسلامي ، او ماروني - سني منذ ولادة المتصرفية حتى الميثاق الوطني والتي استطاعت فعلا تحوير الصراع الاجتماعي لفترة طويلة من تاريخ لبنان الى صراع ذي مظهر طائفي لم تستطع القضاء على الصراع الاجتماعي بل بالعكس من ذلك كانت جذوره تمتد عميقا في المجتمع اللبناني مع احزاب سياسية تظهر الصراع الحقيقي الطبقي وتؤيد العلمانية كخطوة اولى على طريق ازالة الطائفية . ان الوعي الاجتماعي ذا الوجه الطبقي الذي ولد في اواخر ١٩٢٤ كان ايذانا بأن الشعب اللبناني لن يخدع طويلا بطبيعة النظام اللبناني الطبقي فالنظام الطائفي الذي ولد مع ولادة دولة لبنان الكبير ليس تعبيرا عن مصالح طوائف لبنانية ، وليس بمقدوره ان يكون تعبيرا عن مصالح طائفة واحدة من الطوائف اللبنانية بل هو تعبير عن مصالح الفئات الرأسمالية العليا التي تعاطى التجارة الوسيطة خاصة في بيروت ، وعن مصالح كبار الاقطاعيين في الريف اللبناني . ان تلك الفئات العليا من الرأسمالية اللبنانية الوسيطة وكبار الاقطاعيين اللبنانيين كانوا دعامة ذلك النظام اللبناني على الصعيد الداخلي . وان هؤلاء واولئك ليسوا من طائفة واحدة ولا يربطهم رابط ديني ، بل تربطهم مصالحهم الطبقيّة الواحدة البالغة الانسجام آنذاك مع مصلحة الانتداب الفرنسي الموالين له . ان توسيع لبنان من المتصرفية الى لبنان الكبير كان بداية ظهور الصراع الطائفي في لبنان ككيان سياسي ، لكنه كان في الوقت نفسه بداية ظهور الصراع الحقيقي في لبنان بوجهه الطبقي الواضح . ومع ازدياد تبلور هذا الصراع الطبقي ، كانت تزداد عزلة دعاة الطائفية وتزداد معها صعوبة انقاذ نظامهم الطائفي بالذات حتى باتت الطائفية في الوقت الحاضر اعجز من ان تخفي ذلك الصراع الطبقي واعجز من ان تستمر في قيادة الكيان السياسي في لبنان وتخليصه من ازماته الحادة كازمات لنظام طبقي رأسمالي واضح لا كنظام طائفي وحيد الجانِب او متعدد الوجوه الطائفية .

□ الفصل الثالث □ صك الانتداب في التطبيق العملي

صك الانتداب

عندما آن انعقاد مؤتمر الصلح في باريس ، تقدم الجنرال سموتس Smuts ،
البريطاني الجنسية والمسؤول العسكري عنها في جنوب افريقيا ، باقتراح خاص اسماه
« عصب الامم : اقتراح عملي » لاقى استحسانا من قبل المؤتمرين فضمنوا بعض بنوده
البالفة احدى وعشرين بندا في صكوك الانتدابات التي قسمت الى ثلاث درجات :
درجة (ا) للمناطق الاكثر استعدادا للحكم الذاتي وتشمل ما تبقى من ممتلكات الدولة
العثمانية ، ودرجة (ب) وتشمل بعض المستعمرات الالمانية في افريقيا كالكاميرون
وتوغولند وافريقيا الشرقية الالمانية وافريقيا الغربية وجزيرة سموا . ودرجة (ج)
وتشمل باقي الممتلكات الالمانية كجزيرة نوزو ، والجزر الالمانية في المحيط الهادىء (١) .

وتأخرت صكوك الانتدابات من الدرجة (ا) عن الصدور نظرا لتدخل الولايات
المتحدة الاميركية (٢) ولم يوضع صك الانتداب على سوريا ولبنان الا في ٢٤ تموز ١٩٢٢
وطبق رسميا في ٢٩ ايلول ١٩٢٣ (٣) . ولعل ابرز مواد هذا الصك ان « تضع الدولة
المنتدبة نظاما أساسيا لسوريا ولبنان خلال ثلاث سنوات تبتدىء من تاريخ الشروع
في تطبيق هذا الانتداب . ويعد هذا النظام الاساسي بالاتفاق مع السلطات الوطنية
وينظر فيه بعين الاعتبار الى حقوق الاهلين في الاراضي المذكورة والى مصالحهم
وأمانهم وينص فيه على اتخاذ التدابير التي من شأنها ان تسهل لسوريا ولبنان
سبيل النمو والتقدم كدولتين مستقلتين . . . » (المادة الاولى) . و « . . . يحق للدولة
المنتدبة في كل حين ان تستخدم الموانئ والخطوط الحديدية ووسائل المواصلات

(١) مجيد خوري — « نظام الانتداب : تطيل ونقد » ص ٨ — ٩ .

(٢) مجيد خوري — « نظام الانتداب : تطيل ونقد » ص ١٠ .

(٣) — Voir Jean Luquet « Le Mandat A et l'Organisation du Mandat français en Syrie et au Liban ». Chapitre I, et Charles Ayyoub « op. cit. » — P. 10-11, et Stoyanovsky « La théorie de Mandats internationaux » — chap. II : Mandat A.

في سوريا ولبنان ... » (المادة الثانية) (٤) .

و ... » ان علاقات سوريا ولبنان الخارجية وتسليم اوراق الموافقة على اعتماد قناصل الدول الاجنبية تكون كلها من اختصاص الدولة المنتدبة دون سواها » (المادة الثالثة) و ... » ان الدولة المنتدبة تضمن صيانة سوريا ولبنان من خسارة اراضيها كلها او بعضها ومن تأجيرها كلها او بعضها ومن بسط اية مراقبة من قبل دولة اجنبية اخرى » (المادة الرابعة) و ... » تنشئ الدولة المنتدبة في سوريا ولبنان نظاما قضائيا يصون حقوق الاجانب والوطنيين صيانة تامة ... » (المادة السادسة) و « تضمن الدولة المنتدبة حرية القيام بجميع الشعائر الدينية . ولا يجوز ان يقع شيء من التمييز وانتفاء المساواة بين سكان سوريا ولبنان بسبب اختلاف الجنس او الدين او اللغة ... وتقوم الدولة المنتدبة بتنمية التعليم العام باللغات الوطنية المستعملة في اراضي سوريا ولبنان » (المادة الثامنة) و « لا يجوز منح امتياز تكون له صفة احتكار عام ... على ان هذا الشرط لا يحول دون حق الدولة المنتدبة في انشاء احتكارات تنحصر في مسائل الرسوم والضرائب ... » (المادة الحادية عشرة) و ... » ان اللغتين الفرنسية والعربية تعتبران رسميتين في سوريا ولبنان ... » (المادة السادسة عشرة) (٥) .

واذا ما طرحنا السؤال التالي : ماذا اعطى صك الانتداب للدولة المنتدبة وللدولة الواقعة تحت الانتداب ؟ لتبين لنا صدق ما ورد في القاموس الدبلوماسي : « رجح نظريا ان السيادة هي للشعب الواقع تحت الانتداب ولكنها سيادة مؤجلة التنفيذ انى امد غير مسمى ، على ان ممارستها عائدة قانونا وفعلا الى الدولة المنتدبة طوال مدة انتدابها » (٦) . اما حقيقة الانتداب فقد اوضحها وزير راديكالي فرنسي للمؤرخ اميل خوري بقوله : « ان كلمة الانتداب لا تفيد شيئا مما تظن ، وما هي الا اصطلاح سياسي حديث توافقت عليه الدول المنتصرة في وقت معين ولسبب معين . ان لبنان بلد وضعه النصر في ايدينا ، ولنا ان نطبق فيه الاساليب التي تؤمن له العدل والراحة . ونحن ادرى من سوانا بما هو العدل وما هي الراحة .. » (٧) .

ويعلق الملك فيصل الاول ، ملك سوريا ، على كلمة الانتداب قائلا : « ان كلمة الاستعمار كانت اصبحت ممقوتة في نظر الشعوب الغالبة والمغلوبة على السواء . ومن اجل التوفيق بين الاعتراف الاسمي بحقوق البلدان المسلوخة عن تركيا وتنفيذ مبادئ الفتح ، ابتدع اسلوب جديد سمي بالانتداب ، ليستر من جهة حق الفتح ، ويؤمل من جهة اخرى للمغلوب بامكانية الحصول على استقلاله » (٨) وللأمير شكيب ارسلان رأي في هذا المجال اذ يقول « ان من بين جميع البدع التي استجدت بعد

(٤) — E. Rabbath « La formation historique du Liban... » PP. 333-335; voir aussi V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 41-47.

(٥) نشر صك الانتداب في العدد ١٧٠٦ من الجريدة الرسمية لدولة لبنان الكبير تاريخ ١٩٢٣/١١/١٩ .

(٦) بشاره الخوري — حقائق لبنانية — الجزء الاول ص ١١٢ .

(٧) عن بشاره الخوري — حقائق لبنانية — الجزء الاول ص ٨ — مقدمة .

(٨) من خطبة له نشرت في جريدة « العالم العربي » العدد ٢٢٢١ تاريخ ١٩٢١/٩/٦ — عن خدوري

— مصدر سابق — ص ٢٠ .

الحرب العالمية الاولى ، لم تظهر بدعة مخادعة كذلك التي ادت الى قيام نظام الانتداب . . « (٩)

فالانتداب كما فرض على سوريا ولبنان في مؤتمر سان ريمو لم يكن في الواقع سوى النتيجة الحتمية للوجود العسكري الفرنسي الذي انسحبت لصالحه القوات البريطانية التي كانت ترابط في المنطقة . وهكذا لم تحمل نهاية الحرب العالمية الاولى نتائج ايجابية لسوريا ولبنان ، بل انتقلت من حكم تركي او حماية جماعية اوروية الى انتداب فرنسي . وجاءت صيغة الانتداب من الفئة « الف » وكأنها وضعت خصيصا للمناطق العربية التي كانت تابعة لتركيا قبل الحرب ، استنادا الى المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الامم ، والتي نصت « ان بعض القوميات التي كانت تخضع في الماضي الى الامبراطورية العثمانية (سوريا وفلسطين والعراق ولبنان) قد بلغت درجة من التطور يمكن الاعتراف بها مؤقتا كقوميات مستقلة شرط ان يقوم الحكم فيها على توجيهات ومساندة سلطة منتدبة ، الى اليوم الذي تصبح فيه قادرة على حكم نفسها بنفسها » .

سياسة التجزئة الاستعمارية

على اثر التبادل في مواقع القوات الانكليزية والفرنسية في المنطقة بعد اتفاق ايلول ١٩١٩ ، عين الجنرال غورو مفوضا ساميا عاما للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان وكيليكيا ، وبدأ تجميع القوات الفرنسية في الساحل استعدادا لضرب الحركة الوطنية في سوريا . وارتفع عدد الجنود الفرنسيين في سوريا ولبنان الى ١٣ الفا في تشرين الاول ١٩١٩ بعد ان كان الفين فقط في تشرين الاول ١٩١٨ حتى اتفاق ايلول ١٩١٩ . ثم ارتفع العدد الى ٣٢ الفا في كانون الثاني ١٩٢٠ و ٥٠ الفا في ايار ١٩٢٠ ثم ٦١ الفا في تموز ١٩٢٠ و ٧٠ الفا في تشرين الاول ١٩٢٠ وتناقص الى ٦٦ الفا في تموز ١٩٢١ (١٠) .

ان تلك القوات استطاعت بسهولة القضاء على الحكم العربي في دمشق ، غير ان الملك فيصل المخلوع منها ، سرعان ما تلقفه عرش بغداد حتى وفاته . فليس الامر صدفة على ما نعتقد ، بل نتيجة اتفاق فرنسي - انكليزي مسبق على مصر الملك المخلوع . اما ميلون ، في نظر الوطنيين فكانت تجزئة سوريا الى دويلات ، وبداية مرحلة جديدة من تاريخ سوريا ولبنان . اذ حتى ذلك التاريخ ، كانت سوريا لا تزال تحت ادارة عربية في دمشق ويتبعها مباشرة جميع المناطق اللبنانية خارج متصرفية جبل لبنان .

وبفضل فترة المد الجماهيري الوطني التي قاد زمامها الامير زيد في غياب

(٩) — Edmond Rabbath « L'évolution politique de la Syrie sous Mandat ». Préface — P. 1.

(١٠) — E. Jung « La révolte arabe » — P. 121-122. et V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 95.

فصل، تمتعت سوريا والمناطق اللبنانية ببعض الحريات الديمقراطية (١١) . وقامت بانتخاب ممثليها الى المؤتمر السوري العام واعلنت الحكومة الوطنية التجنيد الاجباري ووضعت قواعد مكتوبة لاعلان دستور سياسي يعترف بالنظام البرلماني وقيام مجلس شعبي ينتخب بالاقتراع العام على اساس نائب واحد لكل . ٤ الفا من الاغلبية العرقية للسكان ونائب واحد لكل ثلاثين الفا من الاقليات القومية .

لقد جزئت سوريا بعد معركة ميلون الى دويلات سميت بالدول ذات الحكم الذاتي تحت الانتداب الفرنسي ، وهذه الدويلات كانت تشكلة فسيفائية من البلاد المقسمة اعتباريا (١٢) على الطريقة الاستعمارية التقليدية . فظهرت الى الوجود تباعا ، بعد اعلان دولة لبنان الكبير ، دويلات دمشق وحلب وبلاد العلويين ودويلة جبل الدروز . واعتبر تقسيم سوريا ثم تجميعها احدى السمات المميزة لتلك المرحلة الانتدابية الاولى من ١٩٢٠ - ١٩٢٦ بعد ان اتخذت الادارة الفرنسية ، فور دخولها الى سوريا ولبنان ، الصبغة العسكرية الواضحة .

» لقد عرفت سوريا خلال السنوات الست الاولى من حكم الانتداب ، جميع المقامرات الاقليمية ، فقد قسمت الى دويلات ، ثم جمعت في اتحاد ، ثم اعيد تجزئة بعض اوصالها مرة اخرى « (١٣) ، كل ذلك وفق آخر ما توصل اليه التكتيك الاستعماري الفرنسي في المغرب العربي وافريقيا والهند الصينية وغيرها .

اجهزة الادارة الفرنسية في سوريا ولبنان

١ - المفوض السامي

كان اول مفوض سام لفرنسا في سوريا ولبنان هو فرنسوا جورج بيكو ، القنصل الفرنسي العام السابق في بيروت والقاهرة الذي عين مساعدا للجنرال اللنبي ، القائد العام للقوات الحليفة في المنطقة . وكان صاحب الاتفاقية المشهورة ، يتلقى مباشرة اوامر حكومته ، لكنه بقي فعليا تابعا لتنفيذ القائد العام لجيوش الاحتلال المتحالفة . واستمر هذا الوضع حتى اتفاق الخامس عشر من ايلول ١٩١٩ الذي نص على حلول الجيش الفرنسي محل القوات البريطانية في سوريا ولبنان ، وقامت الحكومة الفرنسية بتعيين الجنرال غورو مفوضا ساميا عنها بدل بيكو واضحي المفوض السامي تابعا مباشرة لحكومة الجمهورية الفرنسية وحدها وبات مسؤولا

(١١) « في تلك الحقبة التاريخية، كانت دمشق تشبه مدينة حررت من نير بفضل ثورة ديمقراطية حرة . ففي كل مكان كانت تقوم الاجتماعات الجماهيرية والنقابات والاندية » . دوريو - مصدر سابق - ص ١٣ .

(١٢) « كان تقسيم سوريا مصطنعا الى ابعد الحدود ، وكان قائما على مشيئة الاجنبي دون سواء » . — Mounir Ajalani « La Constitution de la Syrie » — P. 4.

— « اما تجزئة سوريا فمفوضون ضربة قاضية على حياة البلاد » المقدسي - جريدة الحقيقة البروتية - السنة ١١ - العدد ١٠٧٤ - الصادر في ١٤ نيسان ١٩١٩ .

— La Mazière « Partant pour la Syrie » — P. 196.

(١٣)

مامها فقط عن اعماله .

كانت صلاحيات المفوض السامي مطلقة وبمركز بين يديه السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية التي تعترف بها النصوص الرسمية لسك الانتداب بالذات (١٤) . فهو يمثل الجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان ويتبع وزارتها الخارجية ويمارس جميع صلاحياتها في هذين البلدين ويعتبر الوسيط الوحيد للحكومات المحلية في علاقاتها مع القناصل الاجانب .

وبفضل سلطات واسعة غير مقيدة ، اصبح المفوض السامي السيد غير المنازع في البلاد (١٥) وكان دوره سياسيا وعسكريا في آن معا . فالمعاهدات ، والاتفاقات السياسية والاقليمية والجمركية ، والادارة العامة للبلاد ، والعلاقات الخارجية ، والمفاوضات مع الآخرين ، وتقرير السياسة الداخلية والمشاركة ، والدستورية ، وتلك المتعلقة بالتعليم والهجرة والاقتصاد العام ، ومنح الامتيازات للشركات والبنوك ، الاجنبية منها والمحلية ، والكثير ايضا من الصلاحيات ، كان يتولاها المفوض السامي الفرنسي بنفسه ، حتى القضاء ، الذي كان محظورا على الحاكم الفرنسي العام في المستعمرات التابعة لفرنسا ، اعتبر من الصلاحيات التي يمارسها المفوض السامي في سوريا ولبنان . فالمفوض السامي اذا لم تكن له روادع في ادارته بل هو الذي يقرر شخصيا توجه السياسة الفرنسية في المنطقة حسب مصالح حكومته ، وذلك بموجب الصلاحيات غير المشروطة التي منحت له . وبراى الدكتور ادمون رباط « انه لم تكن هناك سياسة واضحة لفرنسا المنتدبة في سوريا ولبنان يتمشى عليها المندوب السامي ، بل بالعكس من ذلك ، فالمندوب السامي في الواقع هو الذي ينفذ سياسة تخدم مصلحة فرنسا المنتدبة » (١٦) . وهذا ما يفسر بوضوح كيف كانت تتقلب اشكال السياسة الفرنسية احيانا عند تبديل مفوض سام جديد دون تغيير جدي في العمق (١٧) .

(١٤) راجع المرسوم الفرنسي الصادر في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٠ الذي اعتبر النظام الاسامي في هذا المجال المتعلق بصلاحيات المفوض السامي الفرنسي ، خاصة البندين الاول والثاني منه .
— Cité par J. Luquet « Le Mandat A et l'organisation du Mandat français en Syrie et au Liban » — P. 79; voir aussi: E. Rabbath « formation historique... » — P. 336.

(١٥) يقول الدكتور ادمون رباط ان هنالك تشابها مدهشا بين المفوض السامي والسكرتير العام في المستعمرات — ولنبين هذا التشابه ينبغي الرجوع الى المادة الثامنة من مرسوم ٢٠ تشرين الاول عام ١٩١١ المتعلق بالهند الصينية .

— L'évolution politique de la Syrie sous mandat — P. 95.

(١٦) مقابلة شخصية . ويؤيد جوزف اشقر هذا الرأي في كتابه « التطور السياسي لسوريا ولبنان الكبير » ص ٥٧ . اما هنري غريمال فيرى « ان خطأ الفرنسيين هو انهم لم يعدوا سياسة واضحة من اجل النجاح في المهمة التي كانوا يضعونها نصب اعينهم » .
— H. Grimal « La décolonisation... » — P. 24.

(١٧) هناك امثلة عديدة تؤيد هذا القول . واذا اخذنا نموذجا منها ما قاله اسكندر رياشي مثلا من مجيء الجنرال ساراي حيث نقرا « ما كساد الجنرال ساراي يصل الى البلد حتى انقلب كل شيء الى عكسه . فبعد ان كنا نرى السرايات تضيق بالكهنة ومنافع الكهنة واهل الدين ، صرنا نرى بها فلا نرى فيها ثوبا اسودا واحدا ... »
رياشي : « رؤساء لبنان كما عرفتهم » ص ٢٤ .

وتجدر الاشارة الى ان المفوض السامي احتفظ لنفسه بحق ادراج الاعتمادات المخصصة للمصاريف الملزمة في الموازنة وذلك بموجب قرار في حال رفض المجلس التمثيلي اعتمادها ، كما بقيت جميع الاعمال التشريعية التي يصدرها حاكم لبنان ويقرها المجلس التمثيلي لا تعتبر نافذة ما لم يقر تنفيذها المفوض السامي. وفي حال عدم اجتماع الموازنة ذاتها لا تعتبر نافذة ما لم يقر تنفيذها المفوض السامي. وقد كان هذا المفوض المجلس التمثيلي اعطي المفوض السامي حق وضع الموازنة . لكان هذا المفوض السامي بالفعل الحاكم الوحيد والمطلق الصلاحية في سوريا ولبنان ، اما وجود مجالس تمثيلية او تشريعية فيهما فلم يكن لها في التطبيق العملي اية صلاحيات حقيقية .

ب : السكرتير العام

لم يكن المندوب السامي وحيدا في ادارته ، بل كان يساعده سكرتير عام للمفوضية العليا ، يحل محله اثناء غيابه ، او في حال عدم تمكنه من مزاولة اعماله . صحيح ان السكرتير العام لم يشاطره رسميا الصلاحيات المعطاة له من باريس ، لكنه ، في التطبيق ، مفوض بالتوقيع عن المندوب السامي على الرسائل الموجهة من والسى وزير الخارجية الفرنسية (١٩) .

فالسكرتير العام كان ، من الناحية العمالية ، المدير الفعلي لاعمال المفوضية العليا ولجميع اجهزة الانتداب ، وهي اعمال يديرها السكرتير العام ويشرف عليها بعد الرجوع الى رأي المفوض السامي ، الذي كان رجلا عسكريا في معظم الاحيان ، وغير مختص في الشؤون الادارية ، والذي كان يخوله في الغالب جميع الصلاحيات التي منحتها اياها حكومة باريس .

ويكفي ان نذكر في هذا المجال ، ان روبر دو كيه R. de Caix ، مؤسس ومدير مجلة « آسيا الفرنسية » التي اقترحت ، منذ عام ١٩١٥ ، احتلال فرنسا لسوريا ولبنان ، قد شغل منصب السكرتير العام والمندوب السامي بالوكالة طيلة الفترة الانتدابية الاولى . ان روبر دو كيه هذا ، قد عين في منصب السكرتاريا العامة ، في نفس الوقت الذي عين فيه الجنرال غورو . وكان دو كيه بالفعل ، الرجل القوي للراسمال الفرنسي في بيروت .

يقول الشيخ بشاره خليل الخوري في مذكراته « لقد عاون الجنرال غورو في الشؤون السياسية والاقتصادية والادارية الميسو روبر دو كيه . وصارت لهذا الاخير الكلمة المسموعة والرأي السائد في جميع القضايا » ثم يضيف « لكن دو كيه اضاع فضله كمنظم مصلح ، بشدة اثاره المصالح الفرنسية في بلاد المشرق على المصلحة اللبنانية . فوطد نفوذ شركاتها ذات الامتياز ورسخ اقدامها ووسع سيطرتها وجعل من البنك العثماني القديم مصرف سوريا ولبنان وحوّله اصدار النقدين السوري واللبناني . ولا تزال آثار دو كيه متصلة الى يومنا هذا في بعض الشؤون

(١٨) انطوان عارج : « لبنان ، السلطات العامة » - من ٢٧ - ٢٨ .

— E. Rabbath « formation historique... » — P. 336.

(١٩)

العمرانية والاستعمارية التي تجعل منها مزيجا يعود علينا ببعض الفائدة وعلى الفرنسيين بحصة الاسد فيها .. « (٢٠) .

كان المفوض السامي وسكرتيره العام اقوى شخصيتين فرنسيتين في الجهاز التنفيذي في ادارة بيروت، وقد حكما سوريا ولبنان بصلاحيات مطلقة توازي صلاحيات الحاكم الفرنسي العام في الجزائر او تونس او المغرب او الهند الصينية ان لم نقل تتجاوزها في مجال السيطرة على القضاء الذي كان خارج صلاحيات الحاكم العام هناك .

ج : دوائر المفوضية العليا

احيط المندوب السامي وسكرتيره العام بدوائر المفوضية العليا العديدة وابرزها : مكتب مستشار الدراسات القانونية ، وقسم القضايا ، والمستشار المالي ، والتفتيش العام للجمارك ، ومكاتب البريد والبرق ، والمستشار العام للمعارف ، ولعلم الآثار والفنون الجميلة ، وللشؤون الاقتصادية والزراعية ، وللنفاية الصحية والاسعاف العام ، ومكتب الخدمات القنصلية ، ومكتب حماية الملكية التجارية والصناعية والفنية والادبية والموسيقية ، ومكتب مراقبة دوائر الشرطة المحلية (٢١) وغيرها .

وشكل هؤلاء المستشارون نواة السلطة التنفيذية الحقيقية لادارة لبنان الكبير . وقد عين مستشارون ، عسكريون في الغالب ، الى جانب كل محافظ او مدير او قائمقام . وكانت لهم صلاحيات التنفيذ في شتى المجالات . كذلك كانت لديهم صلاحية عزل قاض وتعيين آخر مكانه ، كما يحلو لهم - على حد تعبير الوزير الأسبق للعدل الاستاذ فؤاد خوري في مذكراته (٢٢) . ولم تكن المفوضية العليا تتدخل قط ضد مشيئتهم . ورغم الجنسية الفرنسية التي يتمتع بها حاكم لبنان الكبير ، فقد وضع الى جانبه مستشار فني من قبل المفوضية العليا ايضا . وتفسيرا لسبب اختيار هذا الحاكم من التابعة الفرنسية يقول السكرتير العام لادارة الانتداب ، روبر دو كيه ، انه « كان من المستحسن الاحتفاظ بحاكم فرنسي في لبنان حيث لا تزال الانقسامات الطائفية قوية جدا » (٢٣) (!!!) . ولم تكن قرارات حاكم لبنان الكبير قابلة للتنفيذ الا بعد توقيع المستشار الفني ، مندوب المفوض السامي في حاكمية لبنان . وظل هذا الحاكم الفرنسي الجنسية وفرنسية الرقابة عليه ايضا حتى اعلان الجمهورية اللبنانية عام ١٩٢٦ حيث زال شرط الجنسية وبقي شرط الرقابة فرنسي الطابع واستمر التعيين او الانتخاب لهذا الحاكم رهنا بأوامر المفوض السامي .

(٢٠) حقائق لبنانية - الجزء الاول - ص ١٢١ - ١٢٢ .

— E. Rabbath « formation... » — P. 337 et 350.

(٢١) راجع مرسوم ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٠ الصادر في باريس وقرار ١٤ شباط ١٩٢٥ الصادر في بيروت .

(٢٢) « سوانح خمسين » - ص ١١٨ .

(٢٣) — C.P.M. « Documents » — Sessions du 23 octobre à 6 novembre 1924 — P. 100.

اما المستشارون العسكريون الذين وضعوا الى جانب المحافظين والقائمقامين والمدراء فقد استقدموا في الغالب من الادارة المراكشية وكانوا مشبعين بأساليب الحكم الاستعماري فيها . وكان يزيد في فداحة جهلهم المبك للامال الادارية ، تصريحاتهم الاستفزازية الوقحة التي كانت تسيء الى السوريين واللبنانيين وتحقرهم في معظم الاحيان . وباعتراف وزير الخارجية الفرنسية ورئيس جمهوريتها ، ريمون بوانكاريه ، نقرأ في تصريحه التالي لمجلة « العالمين » ما يلي « . . . يقال ان بعض انوزراء قد طاب لهم ان يرسلوا الى سوريا موظفين من حشالة المجتمع الفرنسي ، وان الشرق قد اصبح الجنة الموعودة لعناصر لم يتح لها حظ النجاح في بلدها الاصلي . هناك استثناءات ، والله الحمد . كما ان الموظفين ، من جميع الرتب ، هم اكثر عددا مما ينبغي ، وقد تم اختيارهم بصورة سيئة للغاية » (٢٤) .

ومن مذكرات فرنسوا خوري ، ترجمان متصرفية جبل لبنان سابقا والذي عايش الانتداب من الداخل ، نقل هذا المقطع البالغ الدلالة « جاء غورو وادخل معه الى البلاد ضباطا من المستعمرات اشبعوا بروح الفطرسية والاستبداد ، وقد ظنوا ان اللبنانيين لا يختلفون عقلا واستعدادا عن سكان الهند الصينية وافريقيا ، فأرادوا ان يعاملوهم المعاملة نفسها التي اعتادوها في تلك الاصقاع غير حاسبين للكرامة حسابا ، كأنهم بين عبيد لا يحق ان تكون لهم سلطة او امتياز او ارادة حرة . . . » (٢٥) . والرئيس الدائم للانتدابات يصرح بالقول « هناك عدد من الشكاوى المرسله من ضباط اجانب وقناصل ومبشرين يعلنون فيها عن وجود موظفين يمارسون التجارة والمضاربة بشكل مفضوح في سوريا ولبنان وانهم اساءوا استخدام السلطات الموكله اليهم ، مستغلين الحكم العسكري المفروض على بعض المناطق اشع استفلال » (٢٦) .

« لقد افرطت فرنسا في تركيز الادارة في يدها وفي تعيين الفرنسيين في شتى الدوائر . . . » (٢٧) . ولا عجب في ذلك فالاسلوب الاستعماري واحد وان تظهر بأشكال وتسميات مختلفة .

د : مندوبون ومستشارون

خارج المفوضية العليا برزت فئتان من الموظفين الفرنسيين : الاولى هي فئة المندوبين ، وهي جهاز الانتداب الذي يمثل المفوضية العليا في المناطق ، ويرتبط بها مباشرة . وكان موظفو هذه الفئة يتقاضون رواتبهم بادىء الامر من اموال الخزنة الفرنسية ، بموجب الميزانية الخاصة لممارسة الانتداب . وكان ممثل الانتداب او المفوض السامي هو الذي يعين لهم صلاحياتهم ، ووظائفهم ، ومسؤولياتهم . اما

(٢٤) — Raymond Poincaré — Revue des Deux Mondes — 5 Avril 1921.

(٢٥) فرنسوا خوري « ذكريات فرنسوا خوري » ص ٧٧ .

(٢٦) — Rappard — C.P.M. « Procès-verbaux » 8ème Session — Février-Mars 1926.

(٢٧) بشاره الخوري — حقائق لبنانية — الجزء الاول — ص ١١١ .

الفئة الثانية فهي فئة المستشارين في ادارة الانتداب . وهي تضم موظفين فرنسيين معينين كمستشارين فنيين ، او اداريين تقنيين ، او موظفين مراقبين ، الى جانب الموظفين المحليين لا بل على رؤوسهم ، على حد تعبير صديق فرنسا القديم ، عبدالله صفير باشا (٢٨) . وكان موظفو هذه الفئة يتبعون ، من الناحية القانونية ، ادارة الدويلات المحلية . وكانت تلك الدويلات تقوم بأعباء رواتبهم وتدفع لهم مخصصاتهم وتنقلاتهم وتعويضاتهم الباهظة دون ان يكون لها الحق في اختيارهم الذي تقوم به المفوضية العليا بناء على استشارة المندوبين وتوصيتهم .

وكان اختصاص المندوبين عاما ، يساعدهم في عملهم ضباط او موظفون ، وعدد من الفنيين الفرنسيين المعينين لدى الادارات المحلية لمختلف المصالح العامة (٢٩) . وكان دور هؤلاء المندوبين ، وكذلك المستشارين الفرنسيين ، قانونيا ، مساعدة رؤساء المصالح المحليين بأرائهم وخبرتهم الادارية . لذا كان من الضروري ان تعرض عليهم كافة القرارات التي يتخذها هؤلاء ، والتي لا يمكن ان تصبح قابلة للتنفيذ ، الا بعد تأشيرهم عليها بالموافقة . وكان عدد هؤلاء المندوبين والمستشارين يقدر عام ١٩٢١ بحوالي ٣١٦ موظفا فرنسيا ، يرتبط ٩٠ منهم بالمفوضية العليا مباشرة وتدفع الدولة الفرنسية اجورهم وتعويضاتهم . وكان منهم ١١٧ موظفا برتبة مستشار فني تدفع الحكومات المحلية نفقاتهم . اما الباقي ، وعددهم ١٠٩ موظفين فكانوا يتقاضون رواتبهم وتعويضاتهم من مصالح مشتركة بين الدويلات والميزانية العامة لبعض المصالح المستقلة كالجمارك والبريد والمصالح العقارية والامن العام والسكك الحديدية، والشركات ذات الامتيازات، ومصالح الآثار ، والمصلحة الصحية ، وغيرها (٣٠) . . .

وكان عدد هؤلاء المندوبين والمستشارين في ارتفاع مستمر حتى بلغ عام ١٩٢٤ ، وباعتراف الفرنسيين بالذات ، ٣٥٢ (٣١) مندوبا ومستشارا تتركز ١٠٨ منهم في دوائر المفوضية العليا ، و ١٠٢ في الدوائر المشتركة للدويلات الخاضعة للانتداب الفرنسي و ١٤٢ في الوظائف الحساسة لتلك الدويلات .

ان دوائر المفوضية العليا والمندوبين والمستشارين ، بالشكل الذي تنظمت به ، اصبحت تشكل ادارة فوقية ودولة ضمن دولة ، وذلك عن طريق امتدادات المفوضية العليا والمندوبين والمستشارين عبر الدويلات السورية ودولة لبنان الكبير حتى ان بعض المندوبين والمستشارين قد مارسوا نوعا من الاستقلالية الذاتية في مناطقهم دون اللجوء الى قرارات المفوضية العليا والمندوب السامي . ففي عهد الجنرال غورو ،

(٢٨) — Abdallah Sfeir « Le Mandat français et les traditions françaises en Syrie et au Liban » — P. 65.

(٢٩) راجع مسعود ضاهر — الادارة في لبنان زمن الانتداب الفرنسي — دبلوم دراسات عليا في كلية الآداب والعلوم الانسانية — الجامعة اللبنانية ايلول ١٩٧٠ — ص ٨١ — وما بعدها .

(٣٠) — H. C. « Rapport pour l'année 1922 » — P. 46-47.

(٣١) — R. O'Zoux « Etats du Levant... » — P. 70.

وقد علق احد اعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي على هذه الارتفاع بالقول « يوجد في سوريا ولبنان

الكبير ، عام ١٩٢١ ، اكثر من ٥٠٠ موظف لممارسة انتداب لا يتطلب اكثر من ٢٠ او ٣٠ موظفا .

— Bompard — Sénat-Débats-Séance du 6 Avril 1921.

المنسوب السامي العام ، وروبير دو كيه ، السكرتير العام ، وترايو ، حاكم لبنان الكبير ، بدأت دولة السكرتارية . وكانت السكرتارية تضم مستشارين ومستشارين للمستشارين (٣٢) . لقد ظهر واضحا منذ الأيام الأولى للانتداب ، ان فرنسا ، بإدارتها العسكرية ومستشاريها ، كانت تهدف الى تحقيق احتلال دائم ، وحكم مباشر ، وسياسة مخالفة لجميع التعهدات التي ارتبطت بها سابقا .

الادارة اللبنانية بين الموظفين الفرنسيين والعناصر الوطنية :

منذ مجيء الحكام الفرنسيين المنتدبين لادارة سوريا ولبنان، ما فتئوا يرددون على مسامع اللبنانيين ، وفي جميع المناسبات ، انهم ما جاءوا الا لارشادهم وعونهم وان عصبة الامم قد اقرت في مادتها الثانية والعشرين ان اهالي بعض البلدان الذين كانوا تابعين للسلطنة العثمانية (والمقصود هنا سوريا ولبنان) ، قد بلغوا درجة من الرقي يمكن معها الاعتراف مؤقتا بكونهم شعب مستقل شرط ان يكون لهم مندوب يعينهم ويرشدهم في ادارتهم الى ان يصبحوا قادرين على ادارة شؤونهم بأنفسهم . وان الفرنسيين ، ما قبلوا الانتداب ، الا في سبيل الوصول بسوريا ولبنان الى هذه الغاية وان سياسة فرنسا في هذه البلاد ستكون تعزيز جانب التمدن والرقي والحرية . « ففرنسا هي التي حررت اميركا وهي التي دوّخ علمها الامصار الاوروبية داعيا الشعوب الى الحرية » (٣٣) . فغاية الفرنسيين اذاً ، كما صورها المنسوب السامي بيكو هي « ان تستفيد هذه البلاد من مشقات الاختبار التي جزناها والاتعاب التي تكبدناها لادراك الحرية . » (٣٤)

ويوجز روبر دو كيه ، منذ ١٩١٩ ، ما ستكون عليه السياسة الفرنسية في سوريا ولبنان بقوله :

« علينا فقط ان نقدم هيئة اركان المستشارين المصفرة ، والمراقبين الاداريين ، والقضاة ، وضباط الجندرية ، والفنيين الضروريين لتدريب مواطنين شديدي الذكاء وسريعي الاستيعاب » ثم يصف الادارة اللبنانية والسورية بالشلل في ايام العثمانيين ، عندما كانتا تدفعان سنويا اكثر من ثمانين مليوناً من الفرتكات كضرائب ، في حين ان اقل من نصفها فقط كانت تصرف داخل البلاد » (٣٥) .

ويؤكد كليمنصو في رسالته للبطيريك الحويك بتاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٩١٩ « ان رغبة اللبنانيين في الاحتفاظ بحكومة ذاتية وبنظام وطني مستقل يتفق تمام

(٣٢) اسكندر الرياشي - رؤساء لبنان كما عرفتهم - ص ١٢ .

(٣٣) — F. Georges Picot — Discours à Tripoli — P. 2

ويضيف بيكو فيقول « ان قال لكم الحسود والنمام اننا نسعى لاقامة الفرنسيين في الوظائف ، اجيبوه ان في فرنسا من المراكز الشاغرة والدمار الواجب تربيته ، ما يكفي ان يشغل الفرنسيين ذلك عدا عما نعرفه في هذه لبلاد من نخبة من الرجال الرجال الفشيطن المستعدين لتسيير وطنهم في المسالك الجديدة » - المصدر السابق - ص ٣ .

(٣٤) بيكو - المصدر السابق - ص ٣ .

— Voir aussi Van Rens « Les mandats internationaux... » — P. 106.

— Cité par Georges Samné — La Syrie — P. 583. (٣٥)

الاتفاق مع التقاليد الحرة لفرنسا» (٢٦) .

وفي خطاب له في باريس بتاريخ ١٩ ايار ١٩٢٤ امام الجمعية الوطنية للعلوم الاجتماعية والسياسية ، يحدد المفوض السامي ، الجنرال ويفان ، السياسة التي يجب على فرنسا اتباعها فيقول : « هناك مسلكان علينا ان نتجنبهما : بحرية تامة غير مقيدة نترك سوريا ولبنان لفوضى سياسية عارمة في جميع المجالات ، وباعتماد السلطة المركزية الشديدة نحجب عن تلك الشعوب التي انتدبنا من اجل ايصالها الى الحكم الذاتي الطريق الصحيح لذلك الحكم المستقل في المستقبل » (٢٧) .

وبالرغم من وجود العدد الهائل من تصريحات المسؤولين الفرنسيين في هذا المجال ، نكتفي بهذا القدر منها لنستنتج بوضوح ان هؤلاء المسؤولين قد ركزوا جميع اقوالهم حول نقطة واحدة : اخفاء سياستهم الاستعمارية النوي تطبيقها في سوريا ولبنان باسم الانتداب ، والتذرع بأن مبادئ الحكم العامة ستكون تلك التي نصت عليها شرعة حقوق الانسان والتي اخذت بها دساتير الدول العصرية بحيث اوهموا الكثير من السكان ان الانتداب مرحلة انتقالية قصيرة سرعان ما توصل اللبنانيين الى الاستقلال التام وحكم انفسهم بانفسهم .

فهل جاء الفرنسيون الى سوريا ولبنان كماعدين ومستشارين؟ وهل وجودهم فيهما سيقصر - كما يقول بوانكاريه - « على بضعة قطعات عسكرية لحفظ الامن وعدد من القيم بدرجات عالية للاشراف على الادارة ، هذا كل شيء بالنسبة للانتداب الذي سنمارسه » (٢٨) ؟

وهل جاءت تصريحات الفرنسيين مطابقة لافعالهم في سوريا ولبنان ام ان السنوات القليلة التي تلت ميلون كانت كافية لاقناع الكثير من اللبنانيين المتعاونين مع ادارة الانتداب والمؤمنين به كمرحلة انتقالية للاستقلال بضرورة التخلي عن هذا الايمان والعمل على ازالة الانتداب بكل الوسائل الممكنة للوصول فعلا الى الاستقلال الحقيقي المنشود .

في الواقع العملي ، وبمعزل عن عشرات التصريحات الفرنسية ، فان معظم العناصر السورية واللبنانية وضعت خارج الادارة في بلديهما ، تارة بحجة « نقصان الكفاءة » لوضع هؤلاء الوطنيين في « مناصب حساسة » ، وطورا بأن « العناصر الممتازة كانت لا تزال خارج حدود بلادها ، ولما تصل بعد » (٢٩) . . . والخ .

باسم قانون الاحتلال ، قام الفرنسيون بتوزيع ضباطهم وموظفيهم ومندوبيهم ومستشاريهم على جميع المناصب الرئيسية في الدولة من حكام سناجق او متصرفيات الى قائممقامين ومدراء ومستشارين مطلقي الصلاحيات الى ضباط مندوبين عن الادارة المركزية العليا تم تعيينهم كضباط اتصال او ارتباط مع الموظفين

— Cité par N. Dahdah « Evolution historique du Liban » — P. 244. (٢٦)

— R. de Ferriet « L'application d'un mandat » — P. 63. (٢٧)

— D'après A. Sfeir « Le mandat français... » — P. 64. (٢٨)

— R. de Ferriet « L'application » — P. 27. (٢٩)

المحليين واصبحت الادارة فرنسية بمعظم عناصرها وبكامل اعضائها القياديين (٤٠) .
لذلك وجه الكثير من اللبنانيين ، والذين كانوا حتى ذلك الحين من المؤمنين
بفرنسا الحرية والاخاء والمساواة ، او فرنسا الثورة ، الانتقاد لتلك الادارة
التي غلب عليها الطابع العسكري . وتساءلوا لماذا لم يعين رئيس لبناني لدولة لبنان
الكبير ، على غرار ما جرى في سوريا على الاقل ؟ ولماذا هذا العدد الكبير جدا من
المتشارين الفرنسيين ؟ ولماذا تدفع الدولة اللبنانية نفقات باهظة كرواتب لهؤلاء
المتشارين ؟ ولماذا لا يختار قادة الانتداب سوى العناصر السيئة من اللبنانيين ؟
ولماذا اقيمت عناصر سياسية كثيرة ومتخصصة خارج لبنان، ولم يسمح لها بالدخول
اليه (٤١) ؟ تلك الاسئلة والكثير غيرها ستصبح منطلقا رئيسيا لمعارضة لا تلبث ان
تنمو وتشتد . لقد وعد اللبنانيون بالانتداب الموصل الى الاستقلال والحكم الذاتي،
فاذا بهم امام ادارة عسكرية تعمل لاحتلال دائم . وسرعان ما بدأت حركة المعارضة
تنمو وتشتد في صفوف اللبنانيين وتطالب الفرنسيين بإلحاح بضرورة تنفيذ الوعود
التي اعدقوها عليهم اثناء الحرب وبعدها ، وبافساح المجال امام اللبنانيين للتدرب على
ادارة حكم بلادهم بالفعل لا بالقول ؛ مغلفين حركتهم تلك بعبارات منمقة حول فرنسا
الحرية والمساواة والعدالة والصديقة الوفية والام الحنون للبنان واللبنانيين .

وبقي ظهور الفرنسيين في كل زاوية من زوايا الحكومة والادارة العامة امرا
مألوفاً . فالدولة خاضعة للمندوب السامي وسكرتيره العام والحاكم العام وجميعهم
من الفرنسيين ، كما ان المصالح العامة كانت برئاسة فرنسيين وتحت مراقبتهم . ولو
اقتصر وجود الفرنسيين على مناصب معينة لهان الامر ، كما يقول الدكتور ادمون
رباط ، لكن وجود الفرنسيين في المصالح العامة لم يمنع وجود مندوبين فرنسيين
تابعين للمندوب السامي الى جانبهم ايضا ، وبقيت صلاحيات بعض الاداريين اللبنانيين
المحليين مجرد صلاحيات استشارية بسيطة (٤٢) . فهل راعت فرنسا المنتدبة الشرط
الاساسي للانتداب وهو اشراك العناصر المحلية في الادارة لتعويدها والسير بها نحو
الاستقلال الذاتي ؟ وهذا ما كان يتطلب وجود لبنانيين وسوريين في تلك الادارات
لانه من غير الممكن ان تصبح الادارة فرنسية تماما بأجهزتها التنفيذية اذا كانت الدولة
المنتدبة تريد فعلا تدريب السكان المحليين على الحكم الذاتي . ان الموظفين اللبنانيين
والسوريين ، الذين اعتبروا موظفين من الدرجة الثانوية ، فقدوا كل روح للمبادرة
وكل امكانية للتدريب على اسس الادارة الحديثة . ان أشد المنادين سابقا بالانتداب
الفرنسي على لبنان لم يستطع كتمان ثقته على مثل تلك الادارة فيقول عبد الله
صفيح : « حاكم فرنسي ، واداريون فرنسيون ، وعلم فرنسي يرتفع بكل ثقة كما لو

(٤٠) — Berger-Levrault « La Syrie et le Liban sous l'occupation et le Mandat Français » — P. 41.

(٤١) — R. de Ferriet — op. cit. — P. 64 et Dr Eyyoub Tabet « L'Etat du Liban et le Mandat français » — PP. 2 et 3.

ويقدر المؤلفان ان بعض الموظفين كانوا يتقاضون ما بين الفين وثمانين الفاً من

الفرنكات سنويا ، على حساب الخزينة اللبنانية .

(٤٢) ادمون رباط — محاضرات في القانون الدستوري اللبناني — ص ٧٦ .

كان شعارا وطنيا لبنانيا ، وفتش بعد ذلك عن الاستقلال ؟ ماذا اعطانا الفرنسيون من هذا الاستقلال ؟ فحتى في الوقت الذي تفتحت عبقريتهم عن الاتيان بسكرتير عام لبناني ، فان هذا « الموظف » لم تكن له اية صلاحية ، ويفقد كل شيء حيال الحاكم الفرنسي « (٤٢) . » فبدلا من ان يرتفع الفرنسيون فوق حزبياتنا الضيقة ، نزلوا في مضمارها ، ولم يحالفهم التوفيق ، وظلت الادارة تتخبط في ذيول الخيبة « (٤٤) .

النفقات الباهظة للادارة العسكرية

تألفت القوى الفرنسية في المشرق من قناسة شمالي افريقيا وبعض فرق من المستعمرات الفرنسية . ثم سارعت فرنسا الى تشكيل فرق عسكرية من السكان المحليين . وكان تنظيم تلك القوات جميعا يتم طبقا للقوانين والانظمة المعمول بها في الجيش الفرنسي وفي المستعمرات الخاضعة لفرنسا . وبلغ عدد القوات اللبنانية والسورية الماعدة في عام ١٩٢٤ ما مجموعه ٦٢٠٥ افراد منهم ٢٠٥ ضابط و ٦٠٠٠ جندي . ويتوزع الضباط على الوجه الآتي : ١٥٧ ضابطا فرنسيا او من مستعمرات فرنسا و ٤٨ ضابطا محليا من سوريا ولبنان . ويتوزع الجنود بين ٦٤٦ من فرنسا ومستعمراتها والباقي من سوريا ولبنان . وتتوزع هذه القوى المحلية الى ست كتائب وأربع سرايا وفرقتي هجانة (ميهاريت) وفرقة هندسة (٤٥) . ونشير هنا الى ان الجنرال غورو كان اول من حاول انشاء فرق محلية على اساس طائفي . فقد عمد بالقرار رقم ١٣٤ الصادر في ١٣ نيسان ١٩٢٠ - اي قبل معركة ميلون بفترة وجيزة - الى تشكيل فيلق سماه بالفيلق الدرزي (٤٦) . وبعد انتصار الفرنسيين في ميساون، سارع غورو الى الغاء هذا الفيلق بالقرار ٣١٣ الصادر في ٢٧ آب ١٩٢٠ .

وفي عام ١٩٢٥ ، انشئت في سوريا ولبنان قوات لحفظ الأمن سميت بالقوات التابعة وذلك خصيصا لمجابهة تطورات الثورة السورية الكبرى . وقد تشكلت تلك القوات من الفقراء الأرمن والجاليات الشركسية . وفي هذا دلالة واضحة على نوع السياسة العسكرية الفرنسية التي كان يلجأ لها المفوضون السامون اثناء الثورات الوطنية ، وذلك بدفع بعض القوميات العنصرية او الطوائف الدينية الى الاقتتال فيما بينها . وبلغ تعداد القوات المساعدة حوالي ٧ آلاف رجل يتراهم ٧٠ ضابطا من

— A. Sfeir « Le mandat français » — P. 49-50.

(٤٢)

ويؤكد الدكتور عبد الله اليافي ، رئيس وزراء أيام الإنتداب « ان مستشارا فرنسيا كان له

من السلطة التنفيذية في ذلك الحين اضعاف ما كان لرئيس وزراء لبناني » . مقابلة شخصية .

(٤٤) بشاره الخوري - حقائق لبنانية - الجزء الاول - ص ١١٤ .

(٤٥) التقرير السنوي لعام ١٩٢٥ - ص ٤٨ .

(٤٦) يقول بشاره الخوري في مذكراته ان الجنرال غورو ألف حرسا وطنيا لمواكبته على الخيول العربية

في نطفه في اسواق مدينة بيروت « وقد مرض ان يكون جميع افراد الحرس من جبل الدروز »

— حقائق لبنانية - الجزء الاول - ص ٩٩ .

فرنسا ومستعمراتها في عام ١٩٢٧ (٤٧) بينما كانت القوات التابعة في انخفاض مستمر اثر القضاء على الثورة السورية وانحصر تعدادها بحوالي ٢٢ فصيلا صغيرا منها .

لقد وضعت جميع الفرق العسكرية الفرنسية ، والفرق المساعدة والتابعة المحلية ، تحت امرة المندوب السامي الفرنسي مباشرة ، باعتباره القائد العام للقوى الفرنسية في الشرق ، والمسؤول المباشر عن تحركات تلك القوى العسكرية واعمالها. وتضاف الى تلك القوى الاساسية ايضا فرق الضابطة اللبنانية التي نظمتها دولة لبنان الكبير والدويلات السورية منذ عام ١٩٢٠ (٤٨) والتي اشرف على قيادتها وتدريبها وتسلحها قادة فرنسيون . وفي عام ١٩٢٣ بلغ تعداد تلك القوات ٧ ضابطا و ١٣٨٥ جنديا ، واطلق عليها اسم القناصة اللبنانية (٤٩) . وارتفع تعدادها عام ١٩٢٨ الى ٥٠ ضابطا و ٦١٧ خيالا و ٧٠٥ من المشاة (٥٠) .

اول ملاحظة تجدر الاشارة اليها في هذا المجال ان المرحلة الاولى من الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان قد اتسمت بالصيغة العسكرية الصرف مما جعل الادارة فيها باهظة النفقات والتكاليف التي كانت جميعها ، بادئ الامر ، على حساب ميزانية وزارة الحرب الفرنسية ، والتي كانت تتحمل منفردة ، وحتى عام ١٩٢٤ ، كامل نفقات القوات العسكرية والقوى التابعة لها في داخل فرنسا وخارجها مما ارهق الخزانة الفرنسية . وارتفعت العديد من اصوات السياسيين في باريس تطالب بضرورة تحميل الدويلات الخاضعة للانتداب اعباء كبيرة من نفقات الجيوش المحلية والفرق الفرنسية بحجة ان هذه الفرق جاءت «لحماية هذه الدويلات من كل اعتداء» . وقد توزعت النفقات التي تحملتها فرنسا في سوريا ولبنان قبل الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ - ١٩٢٧ ، وذلك حسب تقرير الكونت دو فيلس De Fels على الوجه التالي (٥١)

— R. O'Zoux « Etats du Levant » — P. 214.

(٤٧)

(٤٨) تشكلت فرق الضابطة اللبنانية بموجب القرار ٢٥٧ تاريخ ٢٠ ايلول ١٩٢٠ . وجاء في المادة الاولى من هذا القرار الذي اصدره الجنرال غورو « ان فرق الضابطة الوطنية في اراضي لبنان الكبير واطاضي العلويين وسنجق الاسكندرون هي مستقلة عن بعضها البعض » . عن النشرة الرسمية في المفوضية العليا ١٩٢٠ - ١٩٢١ - القسم الثاني - ص ٢٨ - ٢٩ .

(٤٩) انشأها الجنرال ويغان بموجب القرار ٦٨٢٤ تاريخ ٢٣ آذار ١٩٢٣ - راجع الجريدة الرسمية - العدد ١٦٢٧ تاريخ ١٩٢٣/٣/٢٧ للتفصيل في هذا المجال راجع مسعود ضاهر - الادارة في لبنان زمن الانتداب الفرنسي - ص ١٥٤ - ١٦٦ .
والتقرير السنوي لعام ١٩٢٤ - ص ١٦ .

— R. O'Zoux « Etats du Levant » — P. 213.

(٥٠)

— Comte de Fels — Revue de Paris — Article « Le Mandat Syrien » — du 1er Novembre 1926 — P. 182.

(٥١)

— Voir aussi Dariot « La Syrie aux Syriens » — P. 19.

التكاليف بملايين الفرنكات الفرنسية	العام
١١٨	١٩١٩
٥٦.	١٩٢٠.
٧٤٨	١٩٢١
٣٦٣	١٩٢٢
٢١٨	١٩٢٣
٢١٠.	١٩٢٤
٣٧٨	١٩٢٥

اي ان المبالغ التي صرفت خلال سبعة أعوام بلغت مليارين و ٥٩٥ مليون فرنك ثم ارتفع الرقم الى ٤ مليارات فرنك بعد اندلاع الثورة السورية . يضاف الى ذلك ان النفقات للإدارة المدنية قد قدرت خلال اعوام ١٩١٩ حتى ١٩٢٣ بحوالي ٣٦٥ مليون فرنك فرنسي موزعة ابتداء من عام ١٩١٩ كالاتي : ٥٠ مليون فرنك ثم ١٨٥ ، ١٢٠ ، ٥٠ ، ١٠ ملايين من الفرنكات الفرنسية(٥٢) .

اما موريس ديجاردان فيذكر ارقاما قريبة من الاولى ومطابقة لها في النفقات المدنية ومكاملة لسنوات ما بعد ١٩٢٣ . وتتوزع ارقام النفقات حسب احصائيات ديجاردان هذا كما يلي : (٥٣)

النفقات بملايين الفرنكات		العام
الإدارة المدنية	الإدارة العسكرية	
٥٠.	٧٨	١٩١٩
١٨٥	٥٦٤	١٩٢٠.
١٢٠.	٧٤٠.	١٩٢١
٥٠.	٤٠٠.	١٩٢٢
١٠.	٢١٨	١٩٢٣
٩	٢١١	١٩٢٤
٨	١٩٥	١٩٢٥
٨	٣٨٥	١٩٢٦
٤٤٠.	٢٠٧٩١	المجموع

(٥٢) — الكونت دوفيلس — المصدر السابق ص ١٨٢ — راجع ايضا .

— E. Jung « La Révolte Arabe » — P. 137.

اما V. de Saint-Point فترفع الرقم الى ١٢ مليار فرنك فرنسي خلال ستة اعوام فقط

وتقول بان الرقم قد قدم الى البرلمان الفرنسي بالذات في عام ١٩٢٨ .

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 4.

اما بوكانوفسكي ، مقرر اللجنة المالية في مجلس النواب الفرنسي فيرى « ان فرنسا صرفت في

سوريا ولبنان حتى عام ١٩٢٤ مليارين و ٣١ مليون فرنك » .

— Chambre des Députés — Session de 13 Juin 1924.

(٥٣) — Maurice Desjardins « Le problème syrien au point de vue économique » P. 155. Voir aussi E. Jung « La Révolte Arabe » — P. 137.

اي ما يعادل ٣ مليارات و ٢٣١ مليوناً من الفرنكات الفرنسية للادارتين المدنية والعسكرية في سوريا ولبنان . وفي اعتقادنا ان ارقام ديجاردان هي دون الحقيقة في تقدير النفقات الفرنسية، المدنية منها والعسكرية ، خاصة لعامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ . فالجيش الفرنسي ، الذي انقص تعداده تدريجياً بأعداد كبيرة بعد معركة ميلون ، والذي بلغ عدد أفراده في سوريا ولبنان ١٣٤٧٢٥ جندياً و ٦٧٢ ضابطاً فقط ، قبيل قصف مدينة دمشق ، عاد فعززه الفرنسيون بأعداد كبيرة جداً اثر الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥) بحيث ارتفع تعداده الى ٣٠ ألفاً من الجنود والضباط ، يضاف اليهم رجال القوات اللبنانية والسورية ، المعادة والتابعة ، والتي وصلت عام ١٩٢٥ الى ٦٧٠٠ (٥٤) ضابطاً وجندياً .

اما عدد القتلى من الجنود الفرنسيين وجنود المستعمرات خلال اعوام ١٩٢٠ حتى ١٩٢٦ فقد قدرت بحوالي ٦٩٦٠ (٥٥) قتيلاً . وهو عدد ضخم جداً نظراً للدعاية الفرنسية التي سبقت ورافقت اعلان الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ، والسهولة المنتظرة لتطبيق ذلك الانتداب . وكانت النفقات الباهظة والعدد الكبير للقتلى دافعا قويا لاستنكار الساسة الفرنسيين بالذات ضد الاساليب البشعة التي تطبقها الادارة الفرنسية في هذين البلدين . مما حمل ريمون بوانكاريه على انتقاد هذه الادارة ومهاجمتها في تصريح له لمجلة « العالمين » الواسعة الانتشار فقال : « على جميع المخلصين منا ، والذين يتمنون صادقين بقاء النفوذ الفرنسي ، لا في لبنان الكبير وحده ، بل في سوريا برمتها ، ان يبذلوا كل ما في وسعهم للحيولة دون استمرار هذه الاساليب الادارية السيئة التي تسحق ميزانيتنا وتقلق الرأي العام الفرنسي ، وتثبط من عزيمة فرنسا في اولى مساعيها السياسية في الشرق » (٥٦) .

اما زعيم الكتلة الشيوعية الفرنسية في البرلمان آنذاك ، دوريو (٥٧) ، فكان اكثر حدة في هجومه على السياسة الفرنسية المتبعة في سوريا ولبنان . وقد اتهم صراحة تواطؤ رجال المصارف ورجال النفط انهم هم بالذات وراء المجازر التي ترتكب في هذين

(٥٤) الكونت دوفيلس - المصدر السابق ص ١٨٢ - وجونغ « الثورة العربية » - ص ١٢٧ .
(٥٥) دوريو « سوريا للسوريين » ص ١٩ . واضاف يقول « ٦٩٦٠ قتيلاً منذ ١٩٢٠ ايها الجرمنون ، لقد تخلصتم من ٦٩٦٠ انساناً كان بإمكانكم تغادي القضاء عليهم لو لم تشكروا الى هناك مصالح

بعض رجال المصارف بينكم » - ص ١٩ .
(٥٦) Raymond Poincaré « Déclaration à la Revue des Deux Mondes » - Janvier 1921 - P. 215.

(٥٧) لا بد من الاشارة في هذا المجال الى ان دوريو قد انتقل ضد سياسة الحزب الشيوعي الفرنسي في اواخر الثلاثينات وانشأ تنظيمياً فاشياً في الحرب العالمية الثانية وتعاون مباشرة مع جيش الاحتلال النازي في فرنسا . ثم قام بتشكيل فرقة عسكرية تطوعت للحرب ضد الاتحاد السوفياتي . وكانت نهاية دوريو على ايدي اعضاء في الحزب الشيوعي الفرنسي بالذات . ومهما كان من امر دوريو ، نبيها ان تؤكد هنا على ان خطابه التاريخي هذا كان باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي . وقد لعب هذا الحزب دوراً هاماً في نضج السياسة الاستعمارية في سوريا ولبنان وأزر الحركة الوطنية العربية ودمم نضال الثورة في الريف المراكشي التي قادها عبد الكريم الخطابي ، وشكل لجان الدفاع عن المضطهدين السياسيين العرب في سجون الاستعمار الفرنسي، وارسل المحامين للدفاع عن قيادة الحزب الشيوعي اللبناني التي امنتقت في اوائل ١٩٢٦ .

البلدين باسم الشعب الفرنسي . وقد فضح تلك السياسة في خطاب عنيف في البرلمان الفرنسي وزعته جريدة « الاومانيتيه » الناطقة بلسان الحزب الشيوعي الفرنسي على عشرة آلاف نسخة بين جماهير الشعب الفرنسي . وقد جاء في خطابه ذلك : « نحن في سوريا ، ايها السادة ، للدفاع عن اربع او خمس مجموعات مالية فرنسية فقط . وانا نتساءل ان كان دم شبابنا وعمالنا وفلاحينا لا يهرق دفاعا عن مصالح رجال النفط منكم . ان عمال وفلاحي فرنسا يقفون دوما ، وبحزم ، الى جانب الاستقلال الكامل لسوريا ولبنان وجميع الشعوب التي ادخلتموها تحت استعماركم » (٥٨) الملاحظة الثانية في هذا الباب ، ان دولة لبنان الكبير ، والدويلات السورية ذات الحكم الذاتي ، كانت لا تشارك مباشرة في الفترة الاولى في نفقات الادارة العسكرية . وعندما انشئت القوات الاضافية المحلية او الميليشيا ، بدأ اشتراك تلك الدويلات منذ ١٩٢٣ بأرقام ضئيلة جدا اذا ما قورنت بالنفقات الضخمة التي اوردناها سابقا . ويقدر ديباردان ان تلك الدويلات ولبنان الكبير ، لم يشاركوا سوى بثلاثة ملايين فرنك من تلك النفقات في كل من عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٤ وبمبلغ ٧،٣٣٧،٦٩٠ مليوناً عام ١٩٢٥ . اما في عام ١٩٢٦ فقد قدر اشتراك تلك الدويلات بحوالي ٨،٥٩٧،٤٤٠ (٥٩) مليوناً من الفرنكات ، في حين ان النفقات للقوات الخاصة في سوريا ولبنان لوحدها قد قدرت خلال عام ١٩٢٦ فقط بمبلغ ٤٠ مليون فرنك فرنسي ، وكان على الخزانة الفرنسية ان تتحمل باقي تلك النفقات ، لجنودها ، وجنود مستعمراتها ، والجنود المحليين التابعين لها ايضا . لذلك سارعت الادارة الفرنسية ، لتلاني النعمة التي انفجرت في وجهها داخل فرنسا بالذات ، الى تحميل دولة لبنان الكبير ودويلات سوريا مبلغ ٦٠٩٥ مليون فرنك عامي ١٩٢٦ و ١٩٢٧ كنفقات احتلال . فضلا عن ذلك ، فقد جعلت نفقات القوات التابعة والدرك والشرطة على عاتق كل دويلة تابعة لها دون ان تحسب تلك النفقات مسبقا في الميزانية العامة للبنان الكبير او الدويلات السورية . اما ريمون اوزو O'Zoux فيقدر تكاليف فرنسا في هذا المجال بحوالي ٢٣٣ مليوناً لعام ١٩٢٦ مقابل ١٠ ملايين فرنك دفعتها الدويلات المحلية وبحوالي ٢٨٩ مليوناً لعام ١٩٢٧ مقابل ٩٣ مليوناً على عاتق سوريا ولبنان (٦١) . ومهما كان من امر اختلاف هذه التقديرات فمما لا شك فيه ان ادارة الانتداب بدأت تميل الى تحميل الدويلات المحلية اجزاء كبيرة من نفقات تلك الادارة العسكرية الباهظة .

ملاحظة اساسية في هذا المجال ، هل يصح القول ان ميزانية الحكومة الفرنسية ، وبتعبير ادق ، ميزانية وزارة الحرب فيها ، هي التي كانت تتحمل كامل نفقات الادارة العسكرية في سوريا ولبنان ؟ في الواقع ان مثل هذا القول مجاني للحقيقة . فمن

(٥٨) دوريو — سوريا لسوريين — ص ٢٨ .

(٥٩) ديباردان — المصدر السابق — ص ١٥٥ — وجونغ — الثورة العربية — ص ١٢٧ .

وقد اعطى الدكتور ادمون رباط ارقاما مماثلة اذ قدر بمشاركة تلك الدويلات على التوالي بثلاثة

ملايين فرنك عن عام ١٩٢٤ وبمبلغ ٧٤٥ مليون عام ١٩٢٥ وبملايين عام ١٩٢٦ .

— Rabbath — « L'évolution politique de la Syrie » — P. 28.

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 53.

(٦٠)

— O'Zoux « Etats du Levant » — P. 215.

(٦١)

المؤكد ان تلك الميزانية قد تحملت نفقات باهظة من جراء مساوئ تلك الادارة . غير ان عائدات الجمارك في هذين البلدين ، والتي أنيطت ادارتها مباشرة بالمندوب السامي الفرنسي دون غيره ، قد خصصت لسد نفقات جيش المشرق من جهة ، ولدفع حصة سوريا ولبنان من الدين العمومي العثماني من جهة اخرى . واذا لاحظنا ان الايرادات الجمركية قد قدرت خلال الاعوام ١٩٢٤ - ١٩٢٧ بحوالي ٦٢٤٦٦٩ مليوناً من الفرنكات موزعة كالتالي (١٢) :

العالم	الواردات بملايين الفرنكات
١٩٢٤	١٠٠
١٩٢٥	١٢٠
١٩٢٦	١٨٢
١٩٢٧	٢٢٢٦٦٩

لتبين لنا ان هذه الواردات كانت تسد جانبا كبيرا من النفقات العسكرية للادارة الفرنسية في سوريا ولبنان .

بعض اساليب الادارة العسكرية الفرنسية في سوريا ولبنان

لقد سيطر القادة العسكريون الفرنسيون على ادارة هذين البلدين طيلة الفترة الانتدابية الاولى التي سبقت اعلان الجمهورية في لبنان ، ثم في سوريا في ظل الانتداب . وحتى تعيين الكونت هنري دو جوفنيل ، كمفوض سام لفرنسا في هذه المنطقة اثر اندلاع الثورة السورية الكبرى وقصف مدينة دمشق بالمدفعية والطائرات بأمر من الجنرال ساراي ، تعاقب على حكم ادارة بيروت ثلاثة قادة فرنسيين اولهم الجنرال غورو ثم الجنرال ويفان فالجنرال ساراي الذي عينه في منصبه هذا الكارتل اليساري المتحد الذي حكم فرنسا بعد انتخابات ايار ١٩٢٤ . وكان المندوب السامي العسكري يعتبر في الوقت ذاته قائدا عاما لجيش المشرق الفرنسي . على ان تعيين اول مدني في منصب المندوب السامي بعد هؤلاء العسكريين الثلاثة ، قد اتاح اسناد قيادة القوات العسكرية الى ضابط فرنسي ، هو الجنرال غاملان ، الذي تمتع طيلة حكم هنري دو جوفنيل بمنصب القائد الاعلى لقوات المشرق .

لقد كانت اساليب هؤلاء القادة الثلاثة متشابهة تماما طيلة الفترات التي امضوها

(١٢) — Omar Djabry « La Syrie sous le régime du Mandat » — P. 134.

ونضيف ايضا ان العائدات الجمركية لسنة ١٩٢٢ قدرت بحوالي ٦٢٤٧ مليون فرنك من ميزانية لبنان الكبير البالغة ٧٤٤١ مليوناً لهذا العام ، وان ايراد الجمارك يعتمد كلياً على مرفأ بيروت بشكل خاص .

عن التقرير السنوي لعام ١٩٢٢ - ١٩٢٤ - ص ٤٧ .

— Voir aussi H. C. « La Syrie et le Liban, 1919-1927 » — P. 66.

في سوريا ولبنان . فعلى اثر انتصاره في ميلون ، فرض الجنرال غورو على دمشق وحدها غرامة حربية بلغت ، بعد التخفيض ، ٩٩.٠٠٠ ديناراً ذهبياً وذلك في ١٦ آب ١٩٢٠ (٦٣) .

وفي ٢٢ حزيران ١٩٢١ ، جرت محاولة في القنيطرة لاغتيال الجنرال غورو حيث لقي الضابط المرافق له، الكابتن مورنه Mornet ، مصرعه . ولما عقبه « الجناة » امر الجنرال غورو بعمليات انتقامية واسعة النطاق ، اذاع في نهايتها البلاغ العسكري التالي :

« ان نواحي جباته الخشب ، وجنيفة ، وترنك ، ومهجر ، وشيخان ، التي آوت مجرمي القنيطرة وضلعت بذلك في الجريمة ، قد دمرت بأمر من الجنرال غورو، المندوب السامي » (٦٤) . وجرت اعمال مماثلة في الشوف حيث احرقت قرية « مزرعة الشوف » . وهناك بعض الحوادث المسجلة في البرلمان الفرنسي والتي هي وثائق ثابتة تعود تواريخها لفترة حكم الجنرال ويغان ، وبوجه التخصيص لحكم الكابتن كاريه Carbillet (١٩٢٣ - ١٩٢٥) الذي عاصر ويغان ثم ساراي في ادارة الانتداب في بيروت والذي كانت اعماله اللااخلاقية دافعا هاما من دوافع ثورة الجبل ضد الحكم الفرنسي وامتداد الثورة الى باقي انحاء سوريا وبعض المناطق اللبنانية . نورد من تلك الحوادث الوثائقية بعض الامثلة . « اجبر رجل على النوم خلال عدة اسابيع لانه لم يؤد التحية للريف بونشيل . رجل آخر ضرب ضربا مبرحا لانه رفض اخلاء غرفته الوحيدة لبعض افراد الجيش وظل شهرا كاملا طريح الفراش وهدمت غرفته . لقد فرض الضابط موريل ، وهو المساعد الايمن لكاريه حاكم الجبل ، عشر ليرات ذهبية على مدينة السويداء . والسبب في ذلك ان هرتة قد غادرت المنزل دون ان تعود اليه . مثل آخر ان ضابطا فرنسيا وجد ديكاً له مينا ففرض على مركز القضاء مبلغ خمسين ليرة ذهبية . حادثة اخرى رويت عن الضابط موريل الذي سجن رجلا من الجبل في قبو طويلة خمسة ايام دون طعام في الوقت الذي كان يجبره فيه على تناول ماء قدر وذلك بقصد انتزاع شهادة زور منه » (٦٥) الخ . . .

ومن المفيد ان نتوه هنا ان النقد المحلي الذهبي كان قد استبدل في سوريا ولبنان بالفرنك الفرنسي الورق . وبالرغم من ذلك كانت تلك العقوبات تفرض بالليرات الذهبية مما كان يضطر النساء الى بيع حلاهن ومجوهراتهن لانقاذ عموم سكان البلدة . وقد لعبت هذه العقوبات دوراً بارزاً في تفرغ المناطق السورية واللبنانية من آخر مدخراتها الذهبية .

فبحجة ان رصاصة اطلقت في قرية ما ، او ان قرية قد آوت احد المطلوبين

(٦٣) جريدة الحقيقة البيروتية - السنة الثالثة عشرة - العدد ١٣٢٤ - في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٢٠ .
(٦٤) — André Berthon — Chambre des Députés — Documents — Séance du 21 octobre 1921.
(٦٥) — André Berthon — Chambre des Députés — Documents — Séance du 20 décembre 1925.

للاستزادة من الاطلاع على مساويء الادارة الفرنسية في سوريا ولبنان راجع كتاب حنا خباز « فرنسا وسوريا ، خطيئات الموظفين الفرنسيين » - مطبعة المتكطف والمكظم - القاهرة .
١٩٢٩ . كذلك مدير الرئيس « الكتاب الذهبي » ص ١٥٣ .

من وجه العدالة ، او ان احد الاشقياء قد مر بتلك القرية ، كانت تفرض غرامات تتراوح بين ١٠٠ ليرة ذهبية و ١٥٠ (٦٦) ليرة ذهبية . ويكفي هنا ان نذكر ما قاله السيد اوهري في مناقشات البرلمان الفرنسي عام ١٩٢٥ : « يؤخذ من المرسوم الخاص بمنح المدالية التذكارية لسوريا وكيليكيا ، انه لم يقع في عام ١٩٢٢ اقل من ٣٥ عملية حربية . وفي عام ١٩٢٣ جرت ٤٧ عملية او معركة عسكرية . وفي عام ١٩٢٤ اضطر الجنرال ويفان الى القيام بعمليات عسكرية مستمرة طيلة هذا العام (٦٧) معنى هذا ان تلك العمليات العسكرية كانت توجد دوما « متمردين جددا » و « فارين من وجه العدالة » يتكاثرون باستمرار . بمعنى آخر ان العقوبات الشديدة كانت تزداد بكثرة على القرى التي « تأوي » اولئك الفارين « او يمرون بقرىها » .

لقد اوصى اندريه بارتون مجلس النواب الفرنسي قائلا : « انني اطالبكم بالا تستبقوا في سوريا ولبنان رجالا عسكريين لان اساليبهم هي اساليب حرب . . . لقد اطلقوا طوابير الاحتلال والقمع . . . لقد احرقوا قرى بكاملها واعتبروا وجهاء قرى عديدة مسؤولين عن اعمال لم يرتكبوها . . . لقد فرضوا غرامات باهظة جدا على عدد كبير من القرى . . . ان هذه الاساليب ، كما ترون ، ليست مدعابة فخر واعتزاز لنا على الاطلاق . . . » (٦٨)

على ان تعيين السيد هنري دو جوفنيل كمفوض سام مدني لفرنسا في سوريا ولبنان ، لم يغير من نمط الاساليب الانتدابية فيهما . فقد اوضح السيد دو جوفنيل ، فور وصوله الى بيروت ، الخطة التي سيتمشى عليها في ادارة الانتداب ، وذلك اثناء العرض العسكري الذي جرى في كانون الاول ١٩٢٥ في بيروت بمناسبة تسليم الجنرال غاملان صليب الحرب وقيادة الجيش الفرنسي في الشرق . يقول دو جوفنيل « لكم كنا نفضل السلام على الانتصار ! غير اننا الان نرغم على انتزاع الانتصار العسكري بالهجوم والنهب والتقتيل . لذلك ، فانا اشدد على ضرورة متابعتكم لهذه الاساليب الى اليوم الذي تؤمن فيه سلامة الاشخاص والممتلكات » (٦٩) . تلك هي توصيات المندوب السامي « المدني » للجنود المحتلين في سوريا ولبنان . وبعد كل هذا ، يصف الكتاب الفرنسيون اساليب الحكم التركي في سوريا ولبنان بأنها كانت اساليب وحشية ، فهل كانت اساليب ادارة الانتداب الفرنسي باقل ما نعتوا به ادارة تركيا في هذين البلدين ؟ « لقد تغيرت أسماء الجنرالات الفرنسيين خلال المرحلة الانتدابية لكن طريقتهم البربرية لم تتغير » (٧٠) .

— A. Berthon — Journal officiel des Députés — No. 14 — Février 1925 — (٦٦)
P: 463.

— M. Uhry « Chambre des Députés — Débats — Séance du 19 décembre 1925. (٦٧)

— A. Berthon — Op. Cit. — P. 463. (٦٨)

— Doriot — Chambre des Députés — Débats — Séance du 20 décembre 1925. (٦٩)

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 27. (٧٠)

سياسة التمييز العنصري في الاجور بين عمال وموظفي الادارة الواحدة

نص البند الاول من صك الانتداب على سوريا ولبنان صراحة على ان من واجب السلطة ان تعد نظاما اساسيا لاشراك الوطنيين في ادارة بلادهم ، وذلك خلال موعده اقصاه ثلاث سنوات من بدء تطبيق الانتداب على هذين البلدين . غير ان الادارة العسكرية كانت تعمل لاحتلال طويل الأمد . فلم يظهر في الادارة اللبنانية سوى بعض كبار الموظفين من خريجي كلية الحقوق في جامعة القديس يوسف ، وبعض القضاة والمحامين ، وعدد كبير من صفار الموظفين والحجاب . ولا شك ان تلامذة اليسوعيين قد اشبعوا بعض حاجات الادارة الانتدابية الى كوادر الموظفين . ويؤكد اسكندر رياشي : « ان تسعين بالمائة من السكرتيرية تلامذة الجزويت والعازاريين ومدارس الفرير . وقد ساعد الرهبان الفرنسيون هؤلاء في توظيفهم في مكاتب الحكام والمستشارين عندما كانوا - اي الرهبان - اصحاب الكلمة النافذة عند مواطنيهم المحتلين ... » (٧١) .

اما التنظيم الاداري على مستوى صفار الموظفين هؤلاء ، الذين شملتهم « عناية » الانتداب والجزويت ، فقد حمل في طياته اسلوبا استعماريًا واضحًا . فعلى الصعيد العسكري ، كانت التعويضات السكنية والعائلية لا تمنح الا لافراد القوي العسكرية الفرنسية دون سواهم . اما الضباط اللبنانيون فكانوا يوضعون تحت امره من هم اقل منهم رتبة من الفرنسيين . واستمر الوضع حتى عام ١٩٢٣ . وكان على المقدم اللبناني ان يؤدي التحية العسكرية للملازم الفرنسي الادنى منه رتبة . واذا لم يفعل ذلك ، كان يتعرض للاهانة امام جنوده بالذات . وهذا ما اثار احتجاجا شديدا في صفوف اللبنانيين مما دفع المجلس اللبناني العتيد الى اقتراح تمييز الضابط الفرنسي باللباس عن زملائه من اللبنانيين » (٧٢) .

اما القرار ١٢٣٣ الصادر في ٦ شباط ١٩٢٢ فكان اسوا من سابقه بكثير ، وحمل تمييزا عنصريا واضحا بين العمال الذين يؤدون العمل نفسه . فقد اعتبرت اجور الميكانيكيين والعمال وسائقي السيارات على النحو التالي :

راتب المستخدمين اللبنانيين والسوريين

الدرجة الاولى ٣٠٠ فرنك فرنسي شهريا
الدرجة الثانية ٣٥٠ فرنك فرنسي شهريا
الدرجة الثالثة ٤٠٠ فرنك فرنسي شهريا
الدرجة الرابعة ٧٠٠ فرنك فرنسي شهريا (٧٣)

راتب المستخدمين الفرنسيين

الدرجة الاولى ٥٠٠ فرنك فرنسي شهريا
الدرجة الثانية ٥٥٠ فرنك فرنسي شهريا
الدرجة الثالثة ٦٠٠ فرنك فرنسي شهريا
الدرجة الرابعة ٩٠٠ فرنك فرنسي شهريا

اختلاف ايضا في اجر ساعات العمل الاضافية . فكان الميكانيكيون والعمال

(٧١) اسكندر رياشي « رؤساء لبنان كما عرفتهم » ص ١٥ .

(٧٢) راجع القرار رقم ١٩٦٠ الصادر في ١٩٢٢/٥/٢٥ . واقتراح النائب عبد الله ابو خاطر المنشور في

الجريدة الرسمية للبنان الكبير - ملحق بالعدد ١٧٠٨ الصادر في ٢٦ تشرين الاول ١٩٢٢ .

(٧٣) - Haut-Commissariat - « Recueils des Actes administratifs », volume 3 - P. 38.

الفرنسيون يتقاضون خمس فرنكات فرنسية عن كل ساعة عمل مقابل ثلاثة فرنكات فقط للميكانيكي اللبناني (٧٤) . وأجر العمل الليلي يختلف أيضا بين العامل الفرنسي والعامل اللبناني أو السوري فكان العامل الفرنسي يتقاضى رسماً مرة ونصف المرة أكثر من أجر العامل اللبناني أو السوري . كذلك اختلفت الاجور اليومية لسائقي السيارات الرسمية فكان الفرنسي يتقاضى خمسة فرنكات يوميا عن عمل يتقاضى عنه اللبناني أو السوري ثلاثة فرنكات فقط .

وطبقا للقرار رقم ١٢٦٧ الصادر في ٢٠ شباط ١٩٢٢ تحددت اجور الموظفين في المرافئ السورية ولبنان الكبير . فكان القبطان يتقاضى ستة آلاف قرش سوري - لبناني شهريا في مرفأ بيروت مقابل ألفي قرش لمثله في مرفأ صور وطرابلس وألفي ومئة قرش لمثله في مرفأ اللاذقية وألف وسبعماية قرش في مرفأ الاسكندرون . اما الموظف الذي يقوم بأعباء ضابط مرفأ في جونية فكان يتقاضى ألفا وسبعماية قرش لبناني - سوري شهريا مقابل اربعمائة قرش لزميله في جبيل أو البترون . وفي حين الكاتب في مرفأ بيروت معاشا شهريا قدره ١٢٠٠ قرشا ، كان مثيله في طرابلس يتقاضى ألف قرش فقط . والبحار الذي كان يبلغ أجره الشهري ألف قرش شهريا ، لم يكن مثيله في مرفأ طرابلس ينال أكثر من خمسمائة قرش شهريا فقط» (٧٥) الخ .

وفي فترة حكم الجنرال ساراي كان معاش مندوب المفوضية العليا في بيروت لدى الحكومة اللبنانية يبلغ ٣٦ ألف فرنك سنويا في حين ارتفع في دولة سوريا الى ٥٠ ألف فرنك مقابل ٢٠ ألفا في دولة العلويين لنفس المنصب» (٧٦) .

ان اية قوانين تحدد الاجور وسلم الرواتب حسب مقاييس واضحة ، لم يكن لها وجود فعلي في تلك الفترة الانتدابية الاولى . بل كانت المعاشات والتعويضات تقوم اساسا حسب رغبة المندوبين والمستشارين الفرنسيين وتوصياتهم . فلم يكن هناك أجر متساو لعمل متساو بل كان الفرق كبيرا بين اجور العمال الفرنسيين من جهة ، واجور العمال السوريين واللبنانيين من جهة اخرى . ليس هذا فحسب ، بل كان الفرق كبيرا ايضا بين عاملين فرنسيين يعمل احدهما في بيروت والآخر خارجها ، اذا قاما بالعمل نفسه . كذلك كانت الحال بالنسبة للتعويضات الاخرى المترتبة عن الاعمال الاضافية او الليلية» (٧٧) .

(٧٤) راجع البنود ١٢ و ١٤ و ١٥ من القرار ١٢٢٢ .

(٧٥) للتوسع في اجور وتعويضات الموظفين والعسكريين ، الفرنسيين او اللبنانيين والسوريين ، راجع : مسعود ضاهر - « الادارة في لبنان زمن الانتداب الفرنسي » دبلوم دراسات عليا - ص ١٤٧ - ١٥١ و ١٦٦ - ١٦٧ .

(٧٦) العارص - السنة الثانية - العدد ١٢ - ١٤ الصادر في ١٥ آذار ١٩٢٥ - ص ٦٥٩ .

(٧٧) يمتدح السيد جميل ابو خاطر ، احد اكثر الموالين صراحة لادارة الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان ، في اطروحته التي تقدم بها لجامعة باريس ١٩٢٤ عن وضع الاجانب في هذين البلدين فيقول « ان وضع الاجانب لا زال يتميز كثيرا عن وضع السوريين واللبنانيين لكنه ابعد من ان يذكر بالتفاوت الذي كان سائدا في الماضي » .

— J. Abou Khater « La condition des étrangers en Syrie et au Liban » —
Thèse — P. 157.

فلاستخدام المزدوج لموظفين فرنسيين ولبنانيين او سوريين داخل الادارة الانتدابية لم يخف في الواقع تفضيل الموظفين الفرنسيين وتشجيع التمييز العنصري بين عمال يقومون بعمل واحد . تلك كانت سياسة فرنسا المنتدبة في سوريا ولبنان الكبير في هذه الفترة العسكرية الاولى من انتدابها .

ان اشد الموالين لسياسة الانتداب الفرنسي في هذين البلدين ، لم يستطع اخفاء هذه الحقيقة المرة . اما « رقابة » عصبة الامم فكانت رقابة شكلية ، اذ لم يكن يوسع اللبنانيين اسماع شكاوتهم اليها الا عن طريق التسلسل الاداري اي مرورا بالمفوض السامي الفرنسي بالذات الذي « سجن لبنان الكبير وسوريا في زنايات ضيقة تولى شخصيا حراستها ، حراسة مشددة » (٧٨) ، على حد تعبير دوريو .

ضياع اراض لبنانية في الحولة

« نحن لم نأت الى الشرق لا لضم اراض الينا او مقاطعات ولا لفرض حمايتنا عليه بل لتطبيق اتفاقية فرساي التي القتها عصبة الامم على عاتقنا . . . وقبول الانتداب لا يفرض اية تنازلات فيما يتعلق بسيادة لبنان التامة ووحدة اراضيه » (٧٩) . في الواقع ، لم يلق هذا التصريح الذي ادلى به بوانكاريه الى « مجلة العالمين » اذنا صاغية من الجنرال وبنان وادارته في بيروت . فوعده المحافظة على حدود البلدان الواقعة تحت الانتداب الفرنسي لم ينفذ عمليا بل اقتطعت اراض لبنانية من سهل الحولة وضمت الى الانتداب البريطاني على فلسطين كما سيقتطع لواء الاسكندرون ويضم الى تركيا بمباركة الانتداب الفرنسي بالذات .

ومنطقة الحولة ، كانت تتبع بأغلبية اراضيها آنذاك لقائمقامية مرجعيون حتى عام ١٩٢٣ . وهذا السهل ، او « جورة الذهب » كما يسميه اهالي تلك المنطقة ، عبارة عن اراض زراعية خصبة لكن المياه والمستنقعات كانت تغطي الجزء الاكبر منها . وكان آل سلام يملكون قسما هاما من تلك المنطقة حتى بعد حلول الانتداب البريطاني عليها بزمن طويل . وتبلغ مساحة سهل الحولة ٢٥٠ ألف دونم منها مئة ألف دونم اراض جبلية كانت تمتلكها ادارتا الانتداب الفرنسي والبريطاني على اساس انها املاك عامة او « دومين » . أما مساحة البحيرة فتقدر بحوالي ٥٠ ألف دونم (٨٠) . والقسم الباقي ، اي مئة ألف دونم تقريبا كانت من الاراضي الخصبة الوافرة الانتاج .

وبموجب اتفاق ٢٣ حزيران ١٩٢٣ ، الذي دعي باتفاق « حسن الجوار » والذي تعينت بموجبه الحدود بين فلسطين ، من ناحية ، وسوريا ولبنان الكبير ، من ناحية

— Doriot « La Syrie aux Syriens » — P. 11. (٧٨)

— Raymond Poincaré — Déclaration à la Revue des Deux Mondes — Cité par Najib Dahdah « Évolution historique du Liban » — P. 245. (٧٩)

ونقرأ كذلك « ان انتدابنا على سوريا ولبنان لم يعطنا الحق في تغيير الحدود الجغرافية

لشعب حر ، والتنازل عن اراض هي ملك له وحده » .

— Beauplan « Où va la Syrie ? » — P. 49.

(٨٠) الاحصائيات مأخوذة عن كتاب سلام الراسي « لتلاضع » ص ٦١ و ٦٢ .

أخرى . وقد تنازلت فرنسا المنتدبة بموجب هذا الاتفاق عما يقارب كامل المنطقة اللبنانية من الحولة لصالح الانتداب البريطاني في فلسطين ، وبالتالي لصالح الحركة الصهيونية الناشطة هناك ، وذلك منذ مطلع ١٩٢٤ مقابل منح شركة فرنسية امتياز التجفيف لمناطق المستنقعات (٨١) . وقد أحرز دعاة الوطن القومي اليهودي مكسبا كبيرا لهم بدعم مباشر من الانتداب الفرنكو - انكليزي وانتقلت سبع عشرة قرية وأراضي لبنانية خصبة بين ليلة وضحاها ، فاتمعت بالانتداب البريطاني والحركة الصهيونية . تلك القرى هي : المطلة ، النخيلة ، الصالحية ، الناعمة ، الخالصة ، الزوية ، المنصورة ، الذوق الفوقاني ، الذوق التحتاني ، خان اللوير ، الدوارة ، الخصاص ، العباسية ، دفنه ، اللزازه ، هونين ، آبل القمح (٨٢) .

ويقول الضابط نعمان ابو شقرا ، الذي عاش تلك الفترة الانتدائية الاولى وكان مسؤولا عن الامن في منطقة مرجعيون والحولة ، الى جانب ضابط فرنسي ، بأن هذه المناطق والقرى كانت لبنانية بكاملها . وقد حملت تلك القرى الجنسية اللبنانية في الاحصاء العام لسنة ١٩٢١ (٨٣) . وأضاف يقول بأن الدولة الفرنسية المنتدبة ، والتي مثل هو بالذات سلطتها العسكرية في الحولة آنذاك ، كانت تجبي الضرائب سنويا من تلك المناطق .

وقد اعطاني الملازم ابو شقرا أسماء المخاتير لتلك القرى قبل ترحيلهم عنها وهو لازال يذكرهم جيدا ومنهم : كامل حسين اليوسف مختار الخالصة ، وخلف اليوسف مختار الذوق الفوقاني ، واسماعيل ابو خروب مختار الناعمة ، وكامل المحمد مختار اللزازه ، ومحمود العازوز مختار الدوارة ، وجويد الحاج شحادة مختار القصاص ، وحسين بو عيد مختار المنصورية ، وعبدالله ابراهيم مختار آبل القمح ، وسعيد فرنسيس مختار دفنا (٨٤) . وفي هذا دلالة واضحة على صدق روايته خاصة وان رجال الدرك كانوا يأتون لياليهم عند المخاتير .

ويعطينا الاستاذ سلام الراسي في كتابه «لثلاث تضيع» ارقاما ملموسة عن سندات «الطابو» او الملكية آنذاك للبنانيين الذين ما زالوا يمتلكون اراض لهم في فلسطين المحتلة حتى الآن . وهذه الارقام التي أوردتها تتحدث فقط عن منطقة الحولة . والاستاذ راسي هو من سكان مرجعيون ، ويقول بأنه جمع معلوماته من اصحاب العلاقة بالذات . واستنادا الى ارقام «لثلاث تضيع» نعطي فكرة واضحة عن مساحة الاراضي اللبنانية التي فقدت بموجب اتفاقية حسن الجوار منذ ١٩٢٤ وهي موزعة كما يلي (٨٥) :

(٨١) نعمان ابو شقرا - مقابلة شخصية .

(٨٢) سلام الراسي - المصدر السابق ص ٦٢ .

(٨٣) يضيف الملازم ابو شقرا الى القرى السابقة أسماء قرى جرى احصاؤها هذا العام ومنها قرى : شوكة ، واقرت ، وحانوته ، ومسولة ، ودحرجه ، ومالكه ، وجربيه ، وكتر برعم . وقام أهالي كتر برعم واقرت مؤخرا بمظاهرات صاخبة ضد السلطة الصهيونية في محاولة للرجوع الى اراضيهم التي اجلوا عنها بالقوة .

(٨٤) نعمان ابو شقرا - مقابلة شخصية .

(٨٥) سلام الراسي - المصدر السابق - ص ٦٥

القرية التي ينتسب اليها المالك

المساحة بالدونم

لسكان مرجعيون	١٤٤٢٢١
لسكان كفر كلا	٢٦٠٠٧
لسكان دير ميماس	١٦٠٨٧
لسكان حاصبيا	٤٤٤٤١
لسكان القليعة	٢١٠
لسكان الطيبة	٤١٩
لسكان قرى متفرقة	٢٠٠

ان تلك القرى قد دمرت بكاملها واقامت على اراضيها مستوطنات صهيونية .
 اما سكانها فاستمروا يحملون جنسية « قيد الدرس » حتى عام النكبة ١٩٤٨ عندما
 اعتبروا لاجئين فلسطينيين كغيرهم ممن طردوا من داخل الارض المحتلة ولم يحصل
 على الجنسية اللبنانية سوى سكان قريتي هونين وآبل القمح .

فشل الادارة العسكرية في سوريا ولبنان

لقد اثارت تلك الادارة العسكرية لجنرالات الانتداب الفرنسي الثلاثة في سوريا
 ولبنان ، نقمة شعبية (٨٦) وحركة مطلبية واسعة سرعان ما انفجرت في معظم المناطق
 السورية واللبنانية اثر اندلاع الثورة السورية الكبرى من جبل الدروز ، حين كانت
 المظاهرات الجماهيرية ومهرجان الكريستال في بيروت تعبران عن تشديد النضال ضد
 سياسة الانتداب العسكرية . وكانت الادارة العامة والنفقات الطارئة والامن تمتص
 اكثر من ٧٠٪ من ميزانية لبنان الكبير و ٦٤٪ من ميزانية دويلة دمشق و ٣٨٪ من
 ميزانية دويلة العلويين وذلك باعتراف الفرنسيين بالذات . في حين لم تتجاوز نسبة
 المنافع العامة (قضاء ، اسعاف وتعليم) والزراعة والاشغال اكثر من ٣٠٪ في لبنان
 الكبير و ٣٦٪ في دويلة دمشق و ٦٢٪ في دويلة العلويين . وذلك حسب احصاء
 ١٩٢٧ بالذات (٨٧) .

ووفق تقديرات غونتور بيرون ، توزعت نسب ميزانيات لبنان الكبير ودولة
 سوريا ودولة العلويين لعام ١٩٢٧ كالآتي :

(٨٦) تؤكد ف. دوسان بوان « ان سياسة الجنرالات الثلاثة قد أدت الى تجميع السوريين واللبنانيين
 ضد فرنسا »

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 36.

— René de Gontaut-Biron « Sur les routes de Syrie » — P. 36.

(٨٧) اما ريمون اوزو نيمطي ٢٠٪ من الموازنة لقوى الأمن يضاف اليها ٤٪ للبوليس و ٤٪ للداخلية
 و ٤٪ للادارة المركزية مقابل ٣٪ فقط للزراعة و ٣٪ للمحة والاسعاف العام و ٨٪ للقضاء .
 وتدفع دول سوريا ولبنان ١٠٪ من ميزانيتها ايضا للدين العمومي العشائي .

— R. O'Zoux « Etats du Levant sous mandat français » — P. 155.

نوع النفقات	دولة لبنان الكبير	دولة سوريا	دولة العلويين
(أ) الإدارة العامة	٪٤٨٠٣٨	٪٢٥٤٤٥	٪٢٢٤٧
(ب) الامن	٪١٦٤٠٥	٪٣١٤٣	٪١٣٤٧
(ج) منافع عامة (قضاء - صحة			
واسعاف - تعليم)	٪ ٩٠١٥	٪١٨٤٤٨	٪٢٠
(د) خدمات اقتصادية (زراعة - اشغال			
- بريد وبرق)	٪٢١	٪١٥٠٧	٪٤١٤١٥
(هـ) نفقات طارئة	٪ ٥٤٤٢	٪٩	٪ ٢٤٤٥

فهل كان للرساميل الفرنسية والحكومة باريس مصلحة حيوية في ابقاء هذا الشكل من الإدارة العسكرية ؟ ألم يكن لتلك الرساميل التي سيطرت على نطاق واسع على جميع المجالات الحيوية في البلدين مصلحة في تدشين مرحلة جديدة تنضج ثمرها وتزداد غلالتها دونما حروب باهظة التكاليف ومعيقة لتطور الحركة التجارية نحو الداخل ؟ .

ان سوريا ولبنان بلدان مكملان لفرنسا اقتصاديا(٨٨) ، على حد قول هنري دو جوفنيل ، « مانج » الدستور اللبناني لعام ١٩٢٦ . وهو يضيف في كلمته الختامية التي القاها في « الجمعية الزراعية الإقليمية » لمنطقة كوريز الفرنسية التي كان يمثلها في مجلس الشيوخ : « اذا كانت صناعتنا لا تزال غير مستقرة حتى الآن ، فلأننا نفتقر الى المواد الاولية لصناعات النسيج خاصة . ان صناعتنا هذه ستجد لها في سوريا (ولبنان) لا الصوف والحريز وحدهما ، بل الارض الخصبة التي من شأنها ان تصبح أرض القطن الفرنسي » (٨٩) .

هذا التوجه للسياسة الانتدابية الفرنسية والذي لا يبعد كثيرا عن توجهات بعض جوانب ادارتها في الجزائر وتونس ومراكش وباقى مستعمراتها ، كان واضحا في خطاب المندوب السامي المدني ، الكونت دو جوفنيل بالذات ، بعد ثلاثة اشهر فقط من اعلان الدستور والجمهورية في لبنان .

في نهاية الثلث الاول من عام ١٩٢٦ كانت فرنسا تحتل المركز الاول في حجم وقيمة مبادلاتها التجارية مع سوريا ولبنان(٩٠) . وكانت الثورة السورية الكبرى لعام ١٩٢٥ ايلانا واضحا بأن الإدارة العسكرية الفرنسية فشلت فشلا ذريعا ، وبالتالي فان عهد الجنرالات الثلاثة او « عهد التجارب الفردية » (٩١) قد انتهى واضحت

— Cité par Beauplan « Où va la Syrie ? » — P. 133. (٨٨)

— Beauplan — Op. Cit. — P. 133. (٨٩)

(٩٠) راجع الفصل الخاص بالتعلق بتجارة لبنان الكبير وازدهار مرفأ بيروت .

— Haut-Commissariat « Rapport sur l'année 1925 » — P. 25. (٩١)

حكومة باريس تدرك الاسلوب الواجب عليها اتباعه بعد الآن . لقد أجبرت فرنسا على « تزويد سوريا ولبنان بدساتير وأنظمة عامة من شأنها ان تؤمن مستقبلا مديدا لشعوب هذين البلدين دون حروب أهلية او دينية » (٩٢) . فهل كانت فرنسا المنتدبة تبحث عن مستقبل جديد لشعوب سوريا ولبنان أم لانتدابها عليهما . صحيح ان تلك الدساتير والانظمة العامة كانت ضرورة ملحة لشعوب هذين البلدين ونتيجة طبيعية للثورة السورية ، لكن اجبار فرنسا على تفليف وجه ادارتها العسكرية بثوب مدني دستوري كان مكسبا هاما للحركة الوطنية بعد ان ابرزت الثورة السورية الكبرى الانتداب الفرنسي على حقيقته الاستعمارية البشعة وابانت عجز الارهاب عن قمع ثورة الشعب المطالب بالاستقلال .

البياب المقامح
بيروت نجيب لبنات ووجه
دويلات الانداب الفرنسي

□ الفصل الأول □ تجارة بيروت قلب الانتداب □ المناقشة □

تجارة بيروت قبل الحرب العالمية الأولى

لعب الحصار البحري دورا بارزا في ضرب حركة مرفأ بيروت فأغلق نسبيا في وجه المواصلات البحرية التي كانت شديدة الانتعاش قبيل الحرب . ومنذ تشرين الأول ١٩١٦ ، تمركزت حركة التصدير والاستيراد في بيروت بأيدي الشركات الألمانية (١) دون سواها على حساب المعالج الانكلو - فرنسية في المنطقة . وسبب ذلك الحصار ارتفاعا جنونيا في اسعار معظم السلع . فقد ارتفع الاسعار في نهاية ١٩١٦ بحوالي ٣٠٪ (٢) حتى بلغ ٥٠٠٪ (٣) .

وكانت بريطانيا لا تزال في طليعة المصدرين الى مرفأ بيروت قبل الحرب وذلك بفضل وفرة منسوجاتها القطنية خاصة المصدرة الى سوريا ولبنان ، والتي تراوحت قيمتها بين ٧٠ - ٨٠ مليوناً من الفرنكات (٤) ، وكانت تحتل المركز الأول في التصدير الى هذا المرفأ طيلة الفترة التي سبقت الحرب مباشرة وظلت محتفظة بهذا المركز حتى عام ١٩٢٦ .

وفي حين اقتصرت مصادر الاستيراد لمرفأ بيروت على الدول الأوروبية بشكل عام ، وبريطانيا وفرنسا على الأخص ، فان صادرات هذا المرفأ وجدت مجالا رحبا لها في تركيا ومصر ، وشملت تلك الصادرات القمح والشعير من جهة ، واعادة تصدير المنسوجات الحريرية والقطنية من جهة أخرى .
ومقابل احتكار بريطانيا للقطنيات ، كانت فرنسا تحتكر توريد المنسوجات الحريرية الى بيروت دون منافس جدي في هذا المجال ، نظرا لكون السلع الفرنسية كانت تعتبر الأكثر اناقة وجمالا .

— A. Mandelstam « Le sort de l'Empire Ottoman » — P. 147. (١)

— A. Mandelstam — Ibid — P. 145. (٢)

— A. Yammine « Quatre ans de misère 1914-1918 » — P. 54. (٣)

— Huvelin « Que vaut la Syrie ? » — P. 33. (٤)

وكان مرفأ بيروت خلال تلك الفترة الموزع الرئيسي للسلع الاجنبية في سوريا ، فكان المصدر الاساسي لأسواق دمشق من جهة ، والى حد كبير لأسواق حلب من جهة اخرى . بيد ان قيمة الصادرات لم تصل الى نصف قيمة الواردات في هذا المرفأ طيلة فترة ما قبل الحرب(٥) .

مرفأ بيروت في نهاية الحرب

منذ نهاية الحرب العالمية الاولى وعلان الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ، سارعت المفوضية العليا الى دعم شركة مرفأ بيروت بقرض بلغت قيمته ١٠٠٠٠٠٠٠٠ (١) فرنكا فرنسيا ذهباً لجرف الرمال التي تكدست في المرفأ واعداده لاستقبال السفن . وشركة المرفأ هي الشركة العثمانية للمرفأ التي تأسست عام ١٨٨٣ برأسمال فرنسي قدره ٥ ملايين فرنك سرعان ما ارتفع الى ١١ مليوناً عام ١٩١١ (٧) . ولتمويه جنسية هذه الشركة ، كان امتيازها باسم يوسف المطران وشركاه ، وهو لبناني . وكان يديرها البنك الامبراطوري العثماني ، الذي اسهم بالقسط الاكبر من رأسمالها ، الى جانب الشركة العثمانية لخط حديد بيروت - دمشق ، والكونتوار الباريسي للتصليف ، وبنك باريس والبلدان المنخفضة ، وشركة النقل البحري الفرنسية (٨) . ولم تكتسب هذه الشركة جنسيتها الفرنسية علانية الا في ٢٠ ايار ١٩٢٦ .

لقد هدفت المفوضية العليا اعادة الحياة التجارية بأسرع وقت ممكن . واعادة تلك الحياة ، بنظر الفرنسيين ، لا تعني سوى تنشيط التجارة في مرفأ بيروت ، الطريق الطبيعي الموصل للسلع الفرنسية نحو الداخل ، وللمواد الخام نحو فرنسا ، ذلك ان بيروت كانت قد اضحيت ، منذ القرن التاسع عشر « مدينة الكونتوارات التجارية ، وكونتوارات الكومبرادور والمرابين ، واسبس فيها اول فرع للبنك العثماني في سوريا منذ السنوات الخمسين لهذا القرن » (٩) .

وكانت ادارة الانتداب تبذل كل المساعي ، لسيطرة الرأسمال الفرنسي على كافة المجالات الاقتصادية في سوريا ولبنان . وهذا ما اشار اليه بوضوح جاك دو مونيكو حيث يقول : « ان تجارة بلادنا (فرنسا) ، هي في مركز يؤهلها للهيمنة على هذه الاسواق ، لأن الرأسمال الفرنسي يلعب الدور الاساسي في تطوير سوريا ولبنان » (١٠) .

وهذا ما يفسر دعوة المفوضية العليا الفرنسية ، فور تمركزها في بيروت ، الى انشاء معرض للمنتوجات الفرنسية فيها لا يزال مكانه يحمل اسم المعرض حتى اليوم .

(٥) — Haut-Commissariat « Foire-exposition de Beyrouth en 1921 » — P. 156.

(٦) — M. C. « Rapport sur l'année 1922 » — P. 126.

(٧) — Société du Port de Beyrouth — « Documents » — P. 20.

(٨) — Ibid — P. 84 et J. Ducruet « Les capitaux européens... » — P. 240-243.

(٩) السبامي « اضاء .. » ص ١٩

(١٠) — J. de Monicault « Le port de Beyrouth » — P. 100.

وقد دشن هذا المعرض في ٣٠ نيسان ١٩٢١ (١١) اي بعد أقل من ثمانية اشهر من اعلان دولة لبنان الكبير . وقد حضر المعرض لوسيان ديور Lucien Dior شخصيا بصفته وزيرا للتجارة الفرنسية وممثلا شخصيا لأرستيد بريان Aristide Briand رئيس الوزارة في باريس ، وبحضور الجنرال غورو وأعضاء اللجان المحلية لفرف التجارة في مدن حلب ودمشق وطرابلس واللاذقية وصيدا وبيروت .

اما أبرز الشركات الفرنسية التي ساهمت في عرض منتوجاتها في ذلك المعرض فهي : أنوس Anos للخياطة والمنسوجات ، وبالك Bac للمصنوعات المعدنية الخفيفة ، وبرتران - تاكيه Bertrand-Taquet للأغذية والمجففات ، وكاريير Carrière للمنتوجات الباريسية والعطور ، وكاسار Cassard للأثاث والمفروشات ، وشانيه Chanée للتحف والمفروشات ، وكولنج Collange للأدوات الهندسية والتصوير ، ولوجون Le Jeune للفداء والمشروبات ، وشنيدر Schneider للآلات الزراعية ، وترونان Troncin للعقاقير الطبية (١٢) وغيرها .

ان سوق - معرض بيروت لعام ١٩٢١ ساهمت في عرض منتوجات أكثر من ألف مؤسسة فرنسية شملت جميع فروع الصناعة هناك وتم إبرام صفقات تجارية اثناء العرض بأكثر من عشرين مليون فرنك فرنسي (١٣) . وقد اختصر أحد المسؤولين Gilly - فائدة هذا المعرض بقوله : « بفضل هذا المعرض تعرفنا على حاجات هذه البلاد بصورة أفضل ، ونحن قادرون على اشباعها تماما » (١٤) . وكما يدخل الثقة الى نفوس تلك الشركات الفرنسية ، قام الجنرال غورو بإصدار سلسلة من القرارات أبرزها القرار رقم ٨٦٥ الصادر في ٢٧ ايار سنة ١٩٢١ والقاضي بحماية ماركات الصناعة الفرنسية من المضاربة ، كما ألغى نظام الامتيازات السابق وانشأ محكمة تجارية لجميع قضاتها من الفرنسيين .

ازدهار الحركة التجارية في مرفأ بيروت

سجلت الأرقام الخاصة بحركة هذا المرفأ ازدهارا ملحوظا خلال سنوات ١٩١٩ - ١٩٢٢ . بيد ان تلك الأرقام بقيت أبعد بكثير عن أرقام ما قبل الحرب وبشكل خاص ١٩١٣ .

وقد بلغ الوزن الاجمالي للبضائع الواردة الى مرفأ بيروت في عام ١٩٢٢ اربعة اضعاف ما كان عليه عام ١٩١٩ . وكانت جميع الواردات تنحصر تقريبا بالبلدان الأوروبية . ففي عام ١٩١٩ (١٥) ، كانت بلجيكا تصدر ٨٧٪ من الحديد التجاري والقضبان والصفائح الى مرفأ بيروت ، و ٧٠٪ من حديد الصب الخام ، و ٦٠٪ من

-
- H. C. « Foire-exposition de Beyrouth » — P. 26. (١١)
 — Ibid — P. 26-27. (١٢)
 — Gilly « La Syrie et le Liban en 1921 » — P. 186. (١٣)
 — Ibid — P. 187. (١٤)
 — Huvelin « Que vaut la Syrie ? » — P. 32. (١٥)

الانابيب ، و ٥٠٪ من التنك ، و ٤٠٪ من اسلاك الشبهان ، و ٣٠٪ من التوتيا .
 اما بريطانيا فكانت تهيمن على ٩٥٪ من واردات مرفأ بيروت من القصدير ،
 و ٧٠٪ من محركات البخار ، و ٨٠٪ من النحاس والصفائح ، و ٦٠٪ من المصنوعات
 الحديدية المحفوظة ضد الصدا ، و ٥٠٪ من التنك والشبهان المرقق ، و ٢٦٪ من
 الفولاذ المصنوع بشكل قضبان، و ٢٥٪ من الحديد المصنوع . في حين سيطرت المانيا
 على ٨٠٪ من واردات المرفأ من ماكنات الخياطة والنسيج ، و ٥٥٪ من التوتيا ،
 و ٥٠٪ من الفولاذ على شكل قضبان وخردوات صغيرة ، و ٤٠٪ من الحديد
 المصنوع ، و ٢٠٪ من المحركات .

وكانت فرنسا اقل الدول الاوروبية الصناعية توريدا الى مرفأ بيروت في هذا
 العام ، اذ احتلت ٥٥٪ من نسبة الرصاص الوارد الى المرفأ و ٥٠٪ من المواد المنسوجة
 والملابس الجاهزة ، والبورسلين ، والمنتجات الكيماوية ، والورق ، والمصنوعات
 الزجاجية ، و ٢٣٪ من قضبان الفولاذ ، و ٢٠٪ من حديد الصب المصنوع . اما
 الولايات المتحدة الاميركية فكانت حصتها ٨٠٪ من الدرجات اواردة الى المرفأ ،
 وكذلك السيارات القليلة جدا ، بالإضافة الى ٣٠٪ من الحدائد المطيية ضد الصدا ،
 و ٢٠٪ من ماكنات الخياطة والنسيج . وبالإجمال كان حجم واردات الولايات المتحدة
 الى مرفأ بيروت ضئيلا بالنسبة الى باقي الدول الصناعية الاوروبية وبالنظر الى قدرة
 الولايات المتحدة التجارية آنذاك .

لقد احتلت بريطانيا المركز الاول للتصدير الى مرفأ بيروت عام ١٩١٩ بفضل
 القطنيات خاصة اذ بلغ الحجم الاجمالي لاستيراد مرفأ بيروت هذا العام حوالي
 ١.٥٦١ طنا من المنتجات القطنية بلغت قيمتها ٢٥٠ مليون فرنك ، كان لبريطانيا
 منها ٥٠٪ مقابل ٣٥٪ لاطاليا ، و ٥٪ فقط لفرنسا ، و ١٠٪ لباقي البلدان .
 اما قيمة واردات بريطانيا لمرفأ بيروت فقدت عام ١٩١٩ بحوالي ضعفي
 ونصف قيمة واردات فرنسا بنسبة ٩٦ مليوناً من الفرتكات الفرنسية لصالح فرنسا
 مقابل ٢٥٠ مليوناً لصالح الانكليز (١٧) .

اما من حيث عدد البواخر التي رست في المرفأ خلال ١٩١٩ ، فقد قدر بحوالي
 ٢٧٠ باخرة منها ٦٨ فرنسية (١٨) . لكن تعداد السفن سيتبدل بسرعة خلال ١٩٢٠
 اذ سيرتفع العدد الى ٤٧٢ باخرة دخلت المرفأ خلال هذا العام منها ٩٧ فرنسية و ١٢٥
 انكليزية و ١٢١ ايطالية . بيد ان السفن الفرنسية ، الاقل عددا من مثيلاتها الانكليزية،
 قد أفرغت على ساحل بيروت ما زنته ٢٢٤٠٢٠٩ طنا مقابل ١٢١٦٨٢٠ طنا (١٩)
 افرغتها السفن الانكليزية البالغ عددها ١٢٥ .

وفي حين ازدادت اعداد البواخر الداخلة الى مرفأ بيروت بنسبة ثلاث مرات ما
 بين ١٩١٩ - ١٩٢٢ فان اعداد السفن الشراعية فيه ستحافظ على مستوى واحد

— Huvelin « op. cit. » — P. 32. (١٦)

— L'Asie Française — Février 1923 — P. 42. (١٧)

— J. de Monicault « Le port de Beyrouth » — P. 44. (١٨)

— Gilly « L'évolution économique et commerciale de la Syrie » — P. 187. (١٩)

تقريباً من ٢٠٠٥٦ سفينة شراعية عام ١٩١٩ الى ٢٣٠٠ عام ١٩٢٠ الى ٢٠٠٣ عام ١٩٢٢ (٢٠) .

أما عام ١٩٢١ ، فقد شهد توسعاً هائلاً في عدد البواخر التي دخلت مرفأ بيروت ، إذ ارتفع ذلك العدد من ٤٧٢ باخرة الى ٧٢٦ منها ١٨٩ فرنسية و ١٩٣ انكليزية و ١٦٦ ايطالية ليعود فيرتفع الى ٧٤٢ باخرة خلال عام ١٩٢٢ منها ٢٥٤ باخرة فرنسية أي بنسبة ٣٤،٢٪ مقابل ١٣٥ انكليزية بنسبة ١٨،٢٪ و ١٤٣ ايطالية أي ١٩،٢٪ بالإضافة الى ٦٩ باخرة المانية ، و ٢٦ يونانية و ٢٢ هولندية و ٢٠ بلجيكية و ١٨ اميركية و ١١ سورية و ١٠ مصرية و ٩ رومانية و ٧ روسية و ١٨ من بلدان متفرقة (٢١) .

وهكذا بدأ واضحاً ان الفرنسيين كانوا يسرون بسرعة نحو اجتلال المركز الاول في حجم المبادلات التجارية لمرفأ بيروت إذ زادت حصتهم بنسبة ٢٨٪ عام ١٩١٩ وبنسبة ٣٠٪ عام ١٩٢١ في حين بدأت ارقام الانكليز التجارية تتحدر بسرعة في هذا المرفأ ، وهذا ما جعل المسؤول الفرنسي عن التجارة في دويلات الانتداب يصرح عام ١٩٢١ قائلاً « سنصل بسهولة الى المرتبة التجارية الاولى في سوريا ولبنان » (٢٢) . لقد استطاع مرفأ بيروت ان يركز الطاقة الاقتصادية للبنان والداخل السوري ، وسجلت حركته التجارية ارتفاعاً هائلاً في السنوات الاربع الاولى بعد الحرب . وفي عام ١٩٢٢ ، استعاد مرفأ بيروت مكانته السابقة لعام ١٩١٣ بزيادة بلغت ١٩٪ (٢٣) عن عام ١٩١٩ ، وارتفعت صادرات هذا المرفأ من ٢٦٥ مليون فرنك عام ١٩١٩ ، الى ٥٦٥ مليون عام ١٩٢٠ ، الى ٦ ملايين عام ١٩٢٢ بحجم إجمالي قدر عام ١٩١٣ بحوالي ٩٦٩٧٧ طناً (٢٤) الى ٩٦٢٦٥ طناً صدرها المرفأ عام ١٩٢١ . فقد عادت حركة المرفأ خلال عامين الى النهوض السريع وقاربت ارقام فترة الازدهار ما قبل الحرب وبدأ مرفأ بيروت يدشن عصراً ذهبياً منذ ١٩٢١ في حجم التصدير والاستيراد .

الاختلال الكبير في الميزان التجاري

قدرت الواردات الى مرفأ بيروت خلال عام ١٩١٩ وحده بحوالي ٣٤٨٠٥٧٤ طناً لم تعد حصة فرنسا منها ١١٢٦٩٢٢ طناً ، مقابل ٧٢١٠٢٧٧ طناً لعام ١٩٢٠ ، بلغت حصة فرنسا منها ٢٥٨٠٥٩١ طناً ، وارتفعت تلك الواردات الى ١٤٠٥٤٠٩٧ طناً عام ١٩٢١ ، بلغت حصة فرنسا منها ٣٤١٠٩١٠ طناً مقابل ٢٦١٠٥٠٧ طناً لاطانيا و ٢٢١٠٣٣٢ لبريطانيا ، ثم ارتفعت الى ١٠٢٨٦٤٤٠ طناً لعام ١٩٢٢ (٢٥) .

-
- J. de Monicault « Op. Cit. » — P. 44. (٢٠)
— J. de Monicault « Op. Cit. » — P. 44. (٢١)
— Gilly « La Syrie et le Liban en 1921 » — P. 187. (٢٢)
— J. de Monicault « Op. Cit. » P. 51. (٢٣)
— Achard « Notes sur la Syrie... » — P. 112. (٢٤)
— J. de Monicault « Op. Cit. » — P. 44 et l'Asie Française — No. 208. — Janvier-Février 1923 — P. 42-43 et Maxime Nicolas « Questions monétaires en Syrie » — P. 74. (٢٥)

بيد ان هذه الواردات الى مرفأ بيروت لم تكن تخص تجارة لبنان وحده بل توزعت على دويلات المنطقة الداخلية السورية والعراق . اما الارقام الخاصة بلبنان فلم تتجاوز عام ١٩١٩ حوالي ٦٠ الف طن من المبادلات عام ١٩١٩ منها ٤٢،٢٧٧ طنا من الواردات ، أعيد تصدير ١٦،٤٧٣ طنا منها اي بنسبة ٤٠٪ تقريبا ، مقابل ألفي طنا من الصادرات المحلية خلال نفس العام . اما في عام ١٩٢٠ فقد استورد مرفأ بيروت حوالي ٨٥ الف طنا ، أعيد تصدير ١٧،٢٢٢ طنا منها ، اي ما يقارب ٢٠٪ من الواردات مقابل ٦،٤٧٣ (٢٦) طنا من الصادرات المحلية .

ويشير « أشار » عن عام ١٩١٩ في محاضرة له أقيمت في معرض بيروت عام ١٩٢١ عن نسبة الصادرات والواردات فيقول : « لو أجرينا تمييزا أوليا للسلع المستوردة من سوريا ولبنان ، وصنفناها الى سلع من إنتاج محلي و سلع مستوردة ومعدة لاعادة التصدير ، لتبين لنا ان نسبة الأولى تتراوح بين ٤٤ و ٥٢٪ من الوزن الكلي للصادرات مقابل ٤٨ و ٥٦٪ للسلع المعدة لاعادة التصدير » (٢٧) .

يتبين لنا من ذلك ان نسبة الصادرات من الإنتاج المحلي كانت على التوالي : ألفا طن لعام ١٩١٩ مقابل ٤٢ ألفا من الواردات ، ثم ٦ آلاف طن مقابل ٨٥ لعام ١٩٢٠ ، ثم ١٤ ألفا مقابل ١١٦ ألفا من الواردات لعام ١٩٢٢ . اي بنسب ١ الى ٢١ و ١ الى ١٤ و ١ الى ٨ تقريبا . واذا ترجمنا هذه النسب الى ارقام تبين لنا ان قيمة الصادرات والسلع المعاد تصديرها لم تتجاوز ٦٥ مليوناً من الفرنكات لعام ١٩٢٢ مقابل ٤٧٩ مليوناً (٢٨) قيمة الواردات للبنان وجميع الدويلات السورية . ومن الصعوبة إيجاد ارقام خاصة بكل من هذه الدويلات التي كانت تعتمد جميعا على مرفأ بيروت في التصدير والاستيراد .

ان الاحصائيات لجبل لبنان قبل الحرب تشير الى ان جبل المصرفية كان يشتري سنويا ضعف ما كان يبيع اي بنسبة ١ الى ٢ (٢٩) . الا ان عائدات اموال اللبنانيين الموظفة في الخارج والمبالغ التي كان يرسلها المهاجرون اللبنانيون ، في الاميركيين خاصة ، والتي كانت تقدر بحوالي ٣٠ مليون فرنك (٣٠) سنويا ، كانت تساعد على اعتدال الميزان التجاري .

اما بعد الحرب ، فلم تستمر نسبة العجز ١ الى ٢ بين الصادرات والواردات بل ارتفعت الى أكثر من ذلك بكثير لتستقر على ١ الى ٨ عام ١٩٢٢ (٣١) ، مما يشكل عجزا خطيرا في ميزان المدفوعات ، سيستمر طيلة الفترة اللاحقة . وقد نبه المسؤول التجاري الفرنسي بصدق الى هذا العجز منذ ١٩٢١ حين قال : « ان تجارة سوريا

- J. de Monicault « Op. Cit. » — P. 44-45. (٢٦)
 — Achard « La Syrie pays d'agriculture » — Foire-exposition de Beyrouth — Op. Cit. — P. 156. (٢٧)
 — J. de Monicault « Op. Cit. » — P. 45. (٢٨)
 — Achard « Op. Cit. » — P. 156. (٢٩)
 — Huvelin « Que vaut la Syrie » — P. 41. (٣٠)

(٣١) يعطى جورج حنا رقم ١ الى ٥ نسبة الصادرات الى الواردات وهو رقم تقديري فقط « من الاحتلال الى الاستقلال » ص ٨٠ .

ولبنان تسير نحو الكارثة» (٢٢) .

ولعل الجدول التالي يوضح مداخيل ومصاريف الدولة اللبنانية بشكل بارز وحصتها من الحركة التجارية لمرفاً بيروت عام ١٩٢٠ (٢٣) :

مداخيل بملايين الفرنكات	مصاريف بملايين الفرنكات
تصدير واعدة تصدير	استيراد
٦٠	١٥٥
١٢	—
—	١٥٦٥٠
١٠	—
٣٠	—
١١٢	١٧٠٥٠

اي بمعز يبلغ ٥٧٦٥ مليون فرنك خلال عام واحد بعد اضافة مداخيل الاصطيف والاموال المرسله من المهاجرين الى ذويهم . لقد بدأ الفرنسيون مرحلة افلاس الخزانه اللبنانيه منذ البدايه بتشجيع القطاعات الاقتصادية غير المنتجة لصالح سوقهم الاستهلاكية الواسعة ، مما يفسر ازدهار التجارة في بيروت فقط على حساب خراب الزراعة والحرف المحلية .

مرفاً بيروت يحجب باقي المرافئ اللبنانية والسورية

١ : مرفاً طرابلس

لقد سيطر مرفاً بيروت منذ بداية الانتداب - حسب الخطة التي رسمها له الفرنسيون - على حركة التجارة البحرية في سوريا ولبنان الكبير ، في حين وضعت مرافئ طرابلس وصيدا وصور واللاذقية والاسكندرون في حالة شلل تام وتبعية مطلقة لهذا المرفاً .

فلاسباب مختلفة ، سياسية بصفة خاصة بفعل النشاط المتزايد للحركة الحدودية مع سوريا في مدينة طرابلس ورفض سكانها الاندماج بلبنان الكبير طيلة تلك الفترة ، لم تسع فرنسا جدياً الى تحسين مرفاً طرابلس بالرغم من توفر جميع الشروط الضرورية لازدهاره . وكانت حجم المبادلات في هذا المرفاً قد ارتفعت من ١٤ مليون فرنك عام ١٩٠٥ الى ٣٠ مليوناً عام ١٩١٢ (٢٤) ، « وبرغم هذه المظاهر

— Gilly « Op. Cit. » — P. 30.

(٢٢)

— M. Nicolas « Questions monétaires... » — P. 75.

(٢٣) احصائيات تربية اعتمدها لاطاء صورة لقط عن العجز الناتج في الميزان التجاري اللبناني والذي

لم تستطع الضرائب والاصطيف واموال المهاجرين ان تسد من نسبه المرتفعة جدا .

— Huvelin « Que vaut la Syrie ? » — P. 45.

(٢٤)

المشجعة جدا - يقول السيد هوفلان - فاني لا اثق بمستقبل مرفأ طرابلس ، لأن موقعه لا يستجيب الا زبائن من جلب وحمص ، وليس لتلك الاسواق سوى دائرة محدودة جدا (٣٥) .

لقد حكم الفرنسيون حكما مبرما على آفاق تطور هذا المرفأ منذ ١٩١٩ ، اي قبل نيلهم الانتداب بالذات ، ولم يطوروا هذا المرفأ بحيث يستطيع استقبال السفن البخارية بل جعلوه مقتصرًا على بعض السفن الشراعية ، مما حد اكثر فاكثر من طاقته التجارية ، ولم يلق هذا المرفأ اية مساعدة فعلية من جانب ادارة الانتداب الا بعد ١٩٢١ ، عندما بدأت فيه اعمال التوسيع لاقامة ارسفة جديدة بعد ان وقع اختيار شركة نفط العراق على مدينة طرابلس كمصب لبترونها على البحر ، واضحى بمقدور هذا المرفأ استقبال السفن التي تقوم بالملاحة الساحلية المتوسطة الاوزان . كذلك سعت شركة خط حديد دمشق - حماه وتمديداتها لاستغلال مرفأ طرابلس كي تنقل معداتها عن طريقه (٣٦) .

وبقيت واردات طرابلس مرتبطة وثيقا بمرفأ بيروت واقتصرت ، بصورة رئيسية ، على استيراد الخشب والاسفلت والفحم والاسمنت والدقيق والحديد والسكر والبنزين ، في حين كانت صادراتها تشمل الحبوب والخضار والفواكه ، الجافة والطازجة ، والزيت ، والصابون ، والحيوانات الحية (٣٧) .

لقد جعل الفرنسيون مرفأ بيروت نقطة الوصل مع الخارج في الاستيراد والتراخيص والتصدير ، في حين اقتصرت حركة مرفأ طرابلس ، بصورة خاصة ، على الداخل السوري - العراقي جزئيا ، وبنسبة ضئيلة جدا مع الخارج . وكانت واردات هذا المرفأ وثيقة الارتباط بمرفأ بيروت مما حرم تجار طرابلس من الاستقلالية تجاه تجار بيروت ، ومن جني ارباح كبيرة ، بل على العكس من ذلك كانوا في حالة تبعية شبه تامة لتجار بيروت . هذه التبعية ستتم طيلة الانتداب الفرنسي وتجعل تجار طرابلس يظهرون وكأنهم جزء من فروع تجارة بيروت ، لا بل احد فروعها الرئيسية في لبنان الكبير .

وتبعًا لذلك بقيت تجارة مرفأ طرابلس ضئيلة جدا بالقياس الى تجارة بيروت . فمقابل ١٤٠٥٤ الف طن من الواردات لمرفأ بيروت عام ١٩٢١ ، لم تتجاوز واردات طرابلس ٣٧٠٢٣٠ طنا لنفس العام . وفي حين ارتفعت واردات بيروت الى ١٤٢٨٦ الف طن لعام ١٩٢٢ ، انخفضت واردات طرابلس الى ٣٤٤٨٠١ طنا (٣٨) .

لقد ركزت فرنسا وارداتها على مرفأ بيروت بشكل خاص . فقد ارتفعت قيمة وارداتها الى هذا المرفأ من ٢١٤٣ مليون قرشا سوريا - لبنانيا عام ١٩٢٣ الى ٣١٤٢ مليونًا عام ١٩٢٤ ، الى ٤٠٣ مليونًا عام ١٩٢٥ ، بقيت وارداتها الى مرفأ طرابلس

— Ibid. — P. 45.

(٣٥)

— L'Asie Française — No. 190 — Mars 1921 — P. 114.

(٣٦)

— J. de Monicault — « Op. Cit. » — P. 68.

(٣٧)

— Ibid — P. 51 et Achard « Op. Cit. » — P. 112.

(٣٨)

بمعدل ٣٠.٢ من الملايين لعام ١٩٢٣ . و٣٠٤ لعام ١٩٢٤ و٣٠.٢١ لعام ١٩٢٥ (٣٩) .
كذلك ارتفعت قيمة صادرات مرفأ بيروت الى فرنسا خلال تلك الفترة من ١٦٤٤٨٥٥
قرشا سوريا عام ١٩٢٣ الى ٦٠٧٤١.٦٩٥٠٠٠ عام ١٩٢٤ الى ١٢٠١٣٥٠٨٨١ عام ١٩٢٥ .
في حين انخفضت صادرات مرفأ طرابلس الى فرنسا خلال نفس الفترة من
٥٠١٢٢٦٤٠٢ قرشا سوريا عام ١٩٢٣ ، الى ٢٠٤٦٢٠٢٣٩ عام ١٩٢٤ ، الى
٢٩٦٦٨٢١ عام ١٩٢٥ (٤٠) . وكان انخفاض قيمة المبادلات التجارية بين مرفأ طرابلس
وفرنسا دافعا قويا للولايات المتحدة الاميركية التي عززت موقعها التجاري مع هذا
المرفأ فاحتلت المرتبة الثانية في حجم المبادلات التجارية معه منذ ١٩٢٢ بعد مصر .
ولعل المقارنة التالية بين واردات وصادرات المرفأين توضح تركيز السياسة
الفرنسية على مرفأ بيروت بحيث اصبحت واردات بيروت عام ١٩٢٦ (٤١) تسعة
اضعاف واردات طرابلس ، وصادراتها ١١ ضعفا عن صادرات طرابلس .

مرفأ طرابلس		مرفأ بيروت		
الواردات	الصادرات	الواردات	الصادرات	
بملايين القروش السورية		بملايين القروش السورية		
٣٠٠٩٩٧	١٠٦٣٨	١٥٨٠٨٢	٢٥٠٠١٧	١٩٢٣
٤٨٠٣٦١	٩٠٨٧٤	١٦٣٠٤٨	٩٩٠٤٠٧	١٩٢٤
٣٧٠٨٢٤	٨٠٥٦١	٢٣٨٠١٧	٤٦٠٨٠	١٩٢٥
٣٢٠١٨٧	٥٠٦٦٧	٢٨١٠٤٤	٥٥٠٧٢	١٩٢٦

وتبين الارقام ان واردات وصادرات مرفأ بيروت تضاعفت تقريبا خلال هذه
السنوات الاربع في حين شهد مرفأ طرابلس فترة ازدهار نسبي خلال سنتي ١٩٢٤
و ١٩٢٥ فقط ليعود بعدهما الى التدهور .

ب : مرفأ صور وصيدا واللاذقية والاسكندرون

ظل مرفأ صور فريسة للرمال طيلة الفترة الانتدائية تقريبا ، ولم يكن بمقدوره
استقبال السفن ، حتى الشرعية منها ، بل اقتصر حركته على المراكب الصغيرة
جدا (٤٢) . ففي عام ١٩٢٢ ، كانت اعماق هذا المرفأ التاريخي المشهور ، لا
تتجاوز المتر ونصف المتر (٤٣) . وقد اورد تقرير الانتداب عن عام ١٩٢٢ والمرسل
لعصبة الامم « ان مرفأ صور لا يصلح لشيء البتة » . و اضاف يقول « ان مرفأي

- Bulletin trimestriel du C.I.F.L. — Années 1924, 1925, 1926 et 1927 — Index. (٣٩)
— Bulletin de C.I.F.L. « Op. Cit. » — Index. (٤٠)
— Bulletin de C.I.F.L. — Ibid — Index. (٤١)
— Haut-Commissariat « Rapport sur l'année 1922 » — P. 141. (٤٢)
— Ibid — P. 141. (٤٣)

صور وصيدا يصلحان فقط لنقل المحاصيل الزراعية من الحبوب والفواكه(٤٤) .
 لقد كان بمقدور المراكب التي لا يزيد عمق القسم الفاطس منها في الماء على ١٤٢
 مترا(٤٥) فقط الدخول الى مرفأ صيدا . وبقي هذان المرفآن خارج النشاط التجاري .
 في الواقع ، فان المرافيء اللبنانية ، طرابلس وصور وصيدا ، ومرفأ
 الاسكندرون السوري ، لم يكن بإمكانها ان تشكل منافسا جديا لمرفأ بيروت ، فهي
 واقعة بأجمعها تحت مراقبة سياسة الانتداب الفرنسي القائمة على تشجيع مرفأ
 بيروت دون سواه . ان منافسة حقيقية في هذه الفترة ، برزت في فلسطين ، وفي
 مرفأ حيفا بالذات ، بتشجيع من الانتداب البريطاني ، لانتزاع أهمية مركز بيروت
 التجاري في التصدير وإعادة التصدير ، وتمرير البضائع الاجنبية الى الدول
 الشرق - اوسطية الداخلية . وهذا ما فسر بوضوح انخفاض واردات مرفأ بيروت
 من السلع البريطانية في الفترة اللاحقة ، والنهوض العارم لمرفأ بيروت، وتوسيعه ،
 وتنشيطه ، بعد ان اضحى مركزا للمنافسة بين طبقتين من الوسطاء ، كبار التجار
 اللبنانيين والفلسطينيين من جهة ، وبين راسمالين استعماريين وانتدابين ، فرنسي
 وانكليزي من جهة اخرى . تلك المنافسة الشديدة كانت في اساس تطوير وتوسيع
 مرفأي بيروت وحيفا ومنطقتيهما الحرتين في التجارة .

اما على الصعيد المحلي فلم تتجاوز الحركة الاجمالية لمرفأي الاسكندرون
 وطرابلس واللاذقية في عام ١٩٢٧ ، حوالي ١٦٧ الف طن مقابل ٢٣ الف لمرفأ بيروت
 اي بنسبة ٣٩،٤٪ لمجموع تلك المرافيء بالمقارنة مع مرفأ بيروت(٤٦) . لقد هيمن مرفأ
 بيروت على مجمل الحركة التجارية في سوريا ولبنان دون اي منافس جدي في
 الداخل السوري على عكس توقعات « آشار » و « هوفلان » السابقة للذين تشاءما
 حول مصير مرفأ بيروت فرجح الاول انتعاش مرفأ الاسكندرون لقربه من اسواق
 حلب والثاني مرفأ حيفا(٤٧) .

نماذج من انواع السلع المستوردة والمصدرة ١٩٢٣ - ١٩٢٤

لقد توزعت قيمة بعض الواردات في مرفأ بيروت في عام ١٩٢٣ والبالغة ٥٦٠
 مليوناً من الفرنكات الفرنسية على الشكل التالي(٤٨) : ١٨٣ مليوناً للأقمشة القطنية،
 و ٤٤ لمحاصيل المستعمرات الفرنسية ، و ٣٦ للزيوت والشحوم ، و ٢٨ للفواكه
 والخضار ، و ٢٢ للأصواف ، و ١٩ للحرائر ، و ١٩ للمصنوعات الزجاجية ، و ٢٥
 للحدائد المصنعة ، و ١٦ للأصباغ ، و ١٥ للأخشاب .

وفي عام ١٩٢٤ ، بلغت قيمة الواردات لمرفأ بيروت ٧٩٦،٦ مليون فرنك.

— Ibid — P. 187. (٤٤)

— Ibid — P. 139. (٤٥)

— J. de Monicault « Op. Cit. » — P. 66. (٤٦)

— Voir Achard « Notes sur la Syrie... » — P. 90 et Huvelin « Que vaut la Sy-
 rie ? » — P. 52. (٤٧)

— H. C. « Rapport sur l'année 1925 » — Annexes 8 et 9. (٤٨)

منها: ٢١٣ مليوناً للقطن والمنسوجات القطنية ، و ٦٦ للجبوب ، و ٦٥ لمحاصيل المستعمرات ، و ٥٩ للزيوت ، و ٣٣ للأصواف ، و ٣٣ للحدائد المصنعة ، و ٢٩ للحرائر ، و ٢٧ للحيوانات الحية ، و ٢٢ للأخشاب .

أما صادرات مرفأ بيروت فقد بلغت قيمتها ٢٤٦،٨ مليوناً من الفرنكات لعام ١٩٢٤ و ٣٣٩،٤٣ مليوناً لعام ١٩٢٤ منها: إبقار بثلاثة ملايين ، أغنام ٨ ، سمن ٧ ، فواكه وخضار ٧ ، حبوب ٦ ، قمح ٥ ، مربى ٥ ، أوراق تبغ ٤ ، ساع ثمينة واثريّة ٣ ، قطن خام ٤٩ ، قنب ١٨ ، شرائق ١٢ ، خيوط حرير ١٢٦ ، انسجة صوفية ١٠ ، صوف خام ١٩ ، سجاد ٦ ، صابون ٢ ، معادن ٣ ملايين فرنك .

ربط الزراعة المطية بالسوق العالمية

كانت فرنسا ، منذ القرن التاسع عشر ، تسيطر على محصول الحرير في سوريا ولبنان . وسرعان ما عادت فرنسا الى تشييط هذه الزراعة الفائقة الارباح منذ عام ١٩٢١ . وبلغت قيمة محصول الحرير في عام ١٩٢٢ بحوالي ٣٩ مليون فرنك فرنسي حسب احصاء الفرنسيين . ويبدو ان هذا التقدير اقل من الحقيقة . فقد بلغ محصول الحرير اللبناي والسوري في عام ١٩٢٢ بحوالي ٢٠٦،٥٦٠ كيلوغرام من الفيالغ الجافة و ١٢٠،٤١٥٠ كلغ من الوسط للصنع المحلي ، و ٦٠،٣٠٧ كلغ من الشرائق الفاسدة . وقد قدر الفرنسيون انفسهم قيمة الشرائق المصدرة بحوالي ٤٠،٥١٨،٥٠٠ (٤٩) فرنك ، في حين ان الحرير المفزول محلياً لم يدخل في تقديرات الفرنسيين لكامل المحصول . وحسب ما اورده مجلة « الحارث » البيروتية، كانت مساحة الارض المزروعة بالتوت عام ١٩٢٣ ، تقدر بمئة الف فدان . وكان عدد علب دود الحرير يقدر بحوالي ٦٠ الف علبة . كما قدرت عدد المشتغلين بالحرير بحوالي ٦٠ الف عامل ، بين رجل وامرأة وولد . وقد بيع المحصول لعام ١٩٢٣ بحوالي ٧٠ مليون قرشاً سوريا الى الخارج ، اي ما يعادل ١٤ مليون فرنك فرنسي تقريباً . وبلغ تعداد المعامل هذه السنة ١٥٤ معملاً ، كانت المعامل التي تستخدم منها ٩٩ مقابل ٥٥ (٥٠) متوقفة .

وتدل هذه الارقام بوضوح على ارتفاع نسبة الانتاج والمداخيل عام ١٩٢٤ . مما دفع المفوضية العليا الى القيام بحملة واسعة النطاق شملت جميع اراضي لبنان وبعض المناطق السورية ، لزرع اشجار التوت وتنشيط صناعة الحرير . وقامت الشركات الفرنسية تسلف الفلاحين والمزارعين بالقروض من أجل تلك الحملة ، حتى قدر عدد الاشجار المفروسة في عام ١٩٢٥ بحوالي ٩٣٨،٩٣١ (٥١) شجرة اضيف اليها ٧٥ الف (٥٢) نسبة توت وزعت خلال أعوام ١٩٢٤ - ١٩٢٨ ، في جميع الدويلات

(٢٩) — Gilly « La situation Commerciale... » — Correspondance d'Orient — No. 318 — Juin 1924 — P. 351.

(٥٠) الارقام السابقة مأخوذة من مجلة « الحارث » — العدد الثاني — ١٩٢٢ — ص ٥٠ — ٥٦ .

(٥١) عن « خطط الشام » — باشراف محمد كرد علي — الجزء الرابع — ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

(٥٢) — R. O'Zoux « Etats du Levant » — P. 257.

السورية ولبنان . وقدر انتاج لبنان الكبير لعام ١٩٢٥ من الحرير بحوالي ١٦٤٧.٦٢٦ كلف ، وقدر عدد العامل لحل الحرير في هذا العام ٨٩ معملا ضمت ٣٠٤٥٥ (٥٢) حوزا ، في حين تقدر مجلة الحارث محصول الحرير في لبنان الكبير لوحده عام ١٩٢٤ بحوالي مليوني كيلوغرام من الحرير الخام من مجموع ٣٠٤٢ (٥٤) مليون كيلوغرام في لبنان والاسكندرون والعلويين .

ومهما تكن نسبة الصحة في هذه الارقام ، فلا ريب ان زراعة التوت وتنشيط انتاج الحرير قد ضرب رقما قياسيا خلال هذه الفترة . ويستغرب الباحث هذه الفيرة العظيمة من جانب الفرنسيين لتنشيط انتاج الحرير ، وتسليف المزارعين ، وتوزيع نصوب التوت وغيرها . غير ان دهشته تزول عندما يدرك ان عملية احياء موسم الحرير « الى سابق مجدها » في لبنان ، وتوسيعها نحو سوريا ، كانت وثيقة الارتباط بالسوق الفرنسية التي جنت ارباحا اسطورية من الحرير اللبناني . فقد اوردت مجلة آسيا الفرنسية هذه الارقام البالغة الدلالة « كان كيلو الحرير الخام يتراوح ثمنه في سوريا ولبنان ، عام ١٩٢١ ، ما بين ٧ و ٩ فرنكات فرنسية ليرتفع الى ١٠ فرنكات في المتوسط عام ١٩٢٢ . وفي نفس الفترة ، كان كيلو الحرير الخام من الانتاج الفرنسي يباع في مرسيليا ما بين ٤١٦٥ و ٤٣ فرنك فرنسي ، بينما يباع كيلو الشرائق اللبنانية هناك ما بين ١٦٥ و ١٩٥ من الفرنكات الفرنسية » (٥٥) . صحيح ان انتاج الحرير عاد على المزارعين اللبنانيين بفوائد ملموسة دون شك ، غير ان الارباح الحقيقية كانت تذهب لجيوب التجار الفرنسيين الذين جنوا ثروات طائلة من الاتجار بالحرير اللبناني . يضاف الى ذلك ، ان الشركة الفرنسية لتربية وتسويق دود القز ، ومؤسسة فيدوبان Vidauben لتربية دود القز ، كانتا سيدة السوق اللبنانية في بيع بذور القز وكانتا تسيطران على اكثر من ثلاثة ارباع (٥٦) علب الحرير المباعة في هذه السوق .

فمن اصل ١٠٣٦٠٠٠ علبة دود القز التي بيعت خلال عام ١٩٢٤ في لبنان ، كان ٩٠٦٠٠٠ علبة من انتاج فرنسي ، و ٣ آلاف فقط من انتاج ايطالي والباقي ، اي ١٠ آلاف علبة من الانتاج المحلي (٥٧) .

لقد ارتفع انتاج الحرير اللبناني بشكل عمودي خلال سنوات ١٩٢٠ - ١٩٢٥ (٥٨) ، وبخطوات متسارعة جدا . فمن ٨٠٠ الف كلف عام ١٩٢٠ الى ١٦١٠٠٠٠٠ كلف عام ١٩٢١ ، الى ١٦٩٠٠٠٠٠٠ كلف عام ١٩٢٢ ، الى ٢٦٢٥٠٠٠٠٠ كلف عام ١٩٢٣ ، الى ٢٦٨٥٠٠٠٠٠ كلف عام ١٩٢٤ ، ثم انخفض الى ٢٦٧٠٠٠٠٠٠ كلف عام ١٩٢٥ ، ثم يستمر بالانخفاض بعد هذا التاريخ بسبب منافسة الحرير الياباني (٥٩) .

(٥٢) خطط الشام - المصدر السابق - ص ٢٩٢ و P. 257 - R. O'Zoux « Etats du Levant »

(٥٤) العدد ١٥ - ١٦ - نيسان ١٩٢٥ - ص ٧٥٠ .

(٥٥) « L'Asie Française » - Octobre 1922 - P. 357.

(٥٦) « R. O'Zoux « Op. Cit. » - P. 257.

(٥٧) « Bürckard « Le Mandat français... » - P. 166.

(٥٨) « H. C. « Rapports sur les années 1924 (P. 56) et 1925 (P. 32). »

(٥٩) « H. C. « La Syrie et le Liban 1919-1927 » - P. 252-253.

بيد ان بيع الانتاج عن طريق المهامسة الوسطاء في الريف ، كان يقضي على ارباح المزارعين عن طريق التسليف المسبق على الانتاج بفوائد مرتفعة . إذ ان هؤلاء الوسطاء ، الذين استقروا في الجبل منذ امد بعيد ، جنوا فوائد كبيرة من التوسع في انتاج الحرير . وفي حين اقتصر وجودهم سابقا على مناطق الجبل اللبناني ، وسّعوا دائرة نشاطهم الآن لتشمل كافة أرجاء لبنان الكبير ومناطق أخرى من سوريا وأصبحوا يطوفون جميع المناطق اللبنانية والسورية المنتجة للحرير مقدمين القروض بفوائد فاحشة ومشتريين المحاصيل بأسعار بخسة . وقد اتسعت رقعة استثمارهم بدعم مباشر من سلطات الانتداب وبورجوازية بيروت التجارية ، وشكل هؤلاء الوسطاء اساسا لشريحة من التجار الوسطاء في الريف ، بتبعية تامة لتجار بيروت ، الاجانب والمحليين . ان هذه الشريحة كانت ابرز ادوات استغلال الريف اللبناني بيد سلطة الانتداب . فقد جرى امتصاص ارباح المزارعين عن طريقها ، كما ساعدت على افراغ الريف من مدخراته الذهبية ايضا وكانت حلقة الوصل المتينة لنقل انتاج الريف الى مرفأ بيروت . وقد عرفت هذه الشريحة ان تستغل بدهاء حاجة التجارة الفرنسية الماسة للحرير فجنّت ارباحا طائلة من جراء ذلك ، وأضحت احدى فصائل البورجوازية اللبنانية الحالية في الريف اللبناني بواستطة الاموال التي كدستها والعقارات التي استولت عليها .

تجارة الترانزيت واعادة التصدير

لم تكن تجارة الترانزيت معروفة بشكل واسع ، قبل الحرب العالمية الاولى ، في سوريا ولبنان ، بل بقيت محدودة كذلك حتى عام ١٩٢٠ وتمركزت اساسا في مرفأ بيروت دون سواه .

بيد ان ادارة الانتداب الفرنسي وضعت نصب عينها تحقيق الهدف التالي : « تحويل التجارة الداخلية في سوريا ولبنان الى تجارة ترانزيت ، تلك ستكون الافاق البعيدة لتطور التجارة فيهما » (١٠) . لذا اتسعت هذه التجارة ، في الفترة اللاحقة لتمتد حتى حلب ، وتصبح هناك ابرز اوجه التجارة فيها . فموقع حلب الجغرافي الهام يجعل منها منفذا لاعادة تصدير البضائع الواردة اليها من مرفأ بيروت نحو بلاد فارس والعراق واجزاء من سوريا والجزيرة العربية وتركيا . وهذا ما يفسر ان تجارة حلب من الترانزيت واعادة تصدير السلع المستوردة تجاوزت ضعفي حجم تجارة بيروت من هذا النوع . وتدل الاحصائيات لعامي ١٩٢٢ و ١٩٢٣ على ما يلي (١١) :

— H. C. « Ce que tout français doit savoir de la Syrie et du Liban » — P. 42. (٦٠)

— Gilly « La situation Commerciale... » — P. 347. (٦١)

القيمة بملايين الفرنكات الفرنسية		مكان الترانزيت واعادة التصدير
١٩٢٣	١٩٢٢	
٢١٦٦٣.	١٤٤٠٥.	بيروت
١٦٧٠.	٠٠١٨.	طرابلس
٦٦٩٨.	٠٠٥٠.	اسكندرون
٣٩٦٤٥.	١١٦٢٧.	حلب
٩٠٠٧.	٠٠٢٥.	دمشق
٧٨٠٨٣.	٢٦٦٢٥.	المجموع

اما ابرز أنواع السلع المعاد تصديرها او المارة بالترانزيت ، فكانت بمعظمها آلات
صناعية ، واسمدة كيميائية وكماليات ومعادن مصنعة(٦٢) .

السياسة الجمركية للانتداب الفرنسي

١ - المعاهدات التجارية :

سارع الفرنسيون ، منذ البداية ، لعقد اتفاقيات جمركية مع البلدان القريبة
من سوريا ولبنان لضمان النفاذ الاعتيادية للسلع القديمة في تجارتها مع الداخل ،
ولتشبيث لبنان الكبير كموزع للمستوردات الاجنبية على المناطق المجاورة .
فباسم البلدان الواقعة تحت الانتداب الفرنسي عقدت فرنسا المعاهدات التجارية
مع الدول غير الاعضاء في عصبة الامم المتحدة ، وذلك على اساس من المصالح المتبادلة
والمنفعة المشتركة ، ما عدا الولايات المتحدة الاميركية التي نالت معاملة خاصة دون
شرط التبادل في السلع ، « وذلك بإرادة خاصة من الدولة المنتدبة وحدها » (٦٣) .
وكانت اولى المعاهدات الجمركية بين سوريا ولبنان من جهة ، وفلسطين من جهة
اخرى ، هي اتفاقية ١٩ آب ١٩٢١ ، والتي استكملت شروطها في توقيع نهائي بتاريخ
٢٢ شباط ١٩٢٢ (٦٤) .

والواضح في هذه المعاهدة ومثيلاتها لتلك الفترة ، ان سوريا ولبنان اعتبرت
دولة واحدة من الناحية الاقتصادية ، واستمرت كذلك طبقا للقرار رقم ١٤٣٩ المكرر
والصادر في ٢١ حزيران ١٩٢٣ . وقد نصت المادة الاولى من هذا القرار على « ان
الدول الموضوعة تحت الانتداب ، متحدة كانت ام لا ، تشكل اقليما موحدًا من وجهة
النظر الجمركية . ولا يمكن احداث فصل جمركي او غير جمركي داخل هذه
البلدان » (٦٥) . وقد اكد روبير دو كيه هذه الفكرة بالقول : « في ظل الانتداب

— Saïd Chéhab-ed-Dine « La géographie humaine de Beyrouth » — P. 134. (٦٢)
— Mourad Kazen « L'union douanière libano-syrienne » — P. 121. (٦٣)
— Ibid — P. 122. (٦٤)
— Robert de Caix « Histoire des Colonies françaises : La Syrie » — T. III
P. 508 et Berger-Levrault « La Syrie et le Liban sous l'occupation et le
mandat français » — P. 201. (٦٥)

الفرنسي ، لم تطرح قط مسألة انشاء حدود جمركية بين دولتي المشرق ، بل كانا تتمتعان بنظام جمركي واحد ، وعملة واحدة » . فهل بقي « الاستقلال » اللبناني آنذاك مجرد شعار فوقه لا يطال الاقتصاد بل يقتصر على الخطب والتصريحات السياسية في المناسبات ؟ .

وأبرز بنود المعاهدة السورية اللبنانية - الفلسطينية ، اعتماد نظام التبادل التجاري الحر بينهما بالنسبة للمنتوجات المحلية ، والغاء الرسوم الجمركية المباشرة والاستعاضة عنها « بتسديد حسابات من خزينة الى خزينة » بمعنى ان البضائع الاجنبية المعدة لاعادة تصديرها ، والتي كانت تدفع سابقا الرسوم الجمركية لدى مرورها في احدي البلدان المتعاقدة ، استفادت من هذه الاتفاقية واعفيت تلك البضائع من دفع رسم الدخول الى البلد المرسله اليه ، واستعاض عن هذه الرسوم بتبادل في الحسابات بين جمارك البلدين المتعاقدين تسدد بفواتير سنوية عن دخول البضائع اليهما . واضحت ميزانيات سوريا ولبنان من جهة ، وفلسطين من جهة اخرى ، هي التي تتحمل نفقات تلك الجمارك ، في حين اخذت السلع الاجنبية تتجول في تلك المناطق دون رسوم جمركية (٦٦) .

اما المعاهدة الثانية فقد وقعت باسم سوريا ولبنان مع شرقي الاردن في ١٠ ايار ١٩٢٣ بنفس الشروط التي عقدت بها مع فلسطين .

وفي ٣١ كانون الثاني ١٩٢٥ ، عقدت المفوضية العليا اتفقا ثالثا ينظم تجارة الترانزيت بين العراق من جهة وسوريا ولبنان الكبير . وقد وسع هذا الاتفاق تجارة الترانزيت نحو الداخل واتاح للسلع الاوروبية الوصول بسرعة الى الاسواق العراقية وكذلك للأسواق الايرانية ، وبالعكس ، كما اسهمت السفريات المنظمة بين بيروت وبغداد وطهران بالسيارات في نقل السلع بين تلك البلدان .

وفي ٢٦ تموز ١٩٢٥ ، تم توقيع الاتفاق الجمركي بين سوريا ولبنان وتركيا (٦٧) لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد ، وتبعه اتفاق آخر في ٢٣ كانون الاول ١٩٢٦ يفرض تسهيل المعاملات الجمركية على الخط الحديدي الممتد من كيليكيا الى سوريا . وقد استفادت تركيا بموجب الاتفاقيين السابقين من التعرف العادي او الدنيا في الرسوم الجمركية وقدرها ١٥٪ ، على ان يقابلها فرض ضرائب طفيفة من الجانب التركي على السلع المصدرة من انتاج سوريا ولبنان المحلي ، وقد استفادت الحرائر بشكل خاص من تخفيض كبير في الرسوم .

اما الاتفاقي التجاري مع نجد (٦٨) فقد ارتدى اهمية خاصة في تلك الفترة . اذ ان الحصار البحري الذي فرض على سواحل المتوسط الشرقية ابان الحرب العالمية الاولى ، اجبر التجار اللبنانيين والسوريين على اقامة علاقات تجارية واسعة مع بلاد

(٦٦) — Mourad Kazem « Op. Cit » — P. 122-127 — et H.C. « Les actes diplomatiques 1920-1930 » — P. 90 et SS — et S. Essaley « L'état actuel de l'économie syrienne » — P. 221 et SS.

(٦٧) — H.C. « Rapport sur l'année 1926 » — P. 147.

(٦٨) استندنا في هذا المقطع على مقالة السيد لطفي الحفار ، رئيس تجار دمشق آنذاك ، المنشور في كتاب « خلد الشام » الجزء الرابع ، بعنوان « التجارة والاقتصاد في العصر الحديث » ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

تجد التي استمرت تتاجر بحرية كبيرة مع الهند والمانيا والنمسا دون أن تتضرر من الخصار . لذا نشطت حركة تجارية واسعة بين سوريا ولبنان ونجد خلال تلك الفترة وغادت بثروات طائلة على بعض التجار والوسطاء وحتى الضباط في سوريا ولبنان : « كما ان تلك البضائع التي تم تبادلها بالعملة الذهبية قد استمطرت سبيلا من الذهب اتي سوريا ولبنان في ذلك العهد ، فأصبحت سوريا ، وخاصة دمشق ، خزانا من الذهب ، عند انتهاء الحرب » . لذا كان من مصلحة الانتداب الفرنسي تشجيع هذا التجري التجاري الحيوي الى داخل الجزيرة العربية ، واستفادت امارة نجد من الثغرة الدنيا في الرسوم الجمركية .

اما المعاهدات الجمركية بين سوريا ولبنان وكل من مصر وايران ، فقد استمرت على ما كانت عليه قبل الحرب العالمية الاولى . وأول اتفاق تجاري رسمي عقده ادارة الانتداب الفرنسي مع مصر يعود تاريخه الى ١٣ حزيران ١٩٢٨ ، في حين ان الاتفاقية الجمركية مع ايران تأخرت حتى ١٧ آب ١٩٣٥ .

ب - الرسوم الجمركية :

ان تلك الاتفاقيات الجمركية ساهمت كثيرا في تخريك النشاط التجاري في مرفأ بيروت وفي ازدياد ايرادات الجمارك فيه . ففي حين كانت الرسوم المفروضة سابقا لا تتعدى التعرفة الجمركية المطبقة في سوريا ولبنان بنسبة ٨٪ من قيمة البضائع ، اذ أصر الاوروبيون آنذاك على ابقائها فترة زمنية طويلة تسهلا لمروور سلعمهم دون جمارك مرتفعة . غير ان تسلم ادارة الدين العثماني ، وهي مؤسسة فرنكو - انكليزية بشكل خاص ، سارعت الى رفع الرسوم الى ١١٪ عند الدخول مقابل ١٪ عند الخروج او اعادة التصدير . وجاء الانتداب الفرنسي يثبت هذه التعرفة قانونيا بقرار صادر عن الجنرال غورو يحمل الرقم ٤٦٧ بتاريخ ٦ تشرين الثاني ١٩٢٠ . وقسم القرار المذكور الفائدات الجمركية بنسبة ٨٪ للمفوضية العليا مقابل ٣٪ لادارة الدين العمومي العثماني .

واستمر العمل بهذه التعرفة حتى عام ١٩٢٤ عندما رفعت الى ١٥٪ بموجب قرار صادر عن المفوضية العليا في اول ايار من هذا العام (٦٩) . وقد رفعت رسوم الدخول على ساع الدول غير المنتمة الى عصبة الامم الى ٣٠٪ مقابل ١٥٪ (٧٠) لسلع البلدان الداخلة في العصبة والولايات المتحدة الاميركية بشكل استثنائي . لقد حد هذا القرار كثيرا من نشاط التجارة الداخلية لسوريا ولبنان مع اغلب الدول (٧١) . ونظرا للخسارة التي تكبدتها فرنسا بسبب اندلاع الثورة السورية الكبرى ، سارعت الى رفع التعرفة الجمركية الى ٢٥٪ بالنسبة لبلدان العصبة والولايات المتحدة والى ٥٠٪ للبلدان الاخرى . هذه الزيادة التي تمت « كاجراء مؤقت » لسد العجز

(٦٩) — R. Colona de Lega « La zone franche du port de Beyrouth » thèse — P. 12-13 et René de Gontaut-Biron « Sur les routes de Syrie » — P. 169.

(٧٠) — Longrigg « Syria and Lebanon under the french mandate » — P. 134.

(٧١) — Doriot « La Syrie aux Syriens » — P. 14.

الناتج في الميزان الاقتصادي عن ثورة ١٩٢٥ - ١٩٢٦ ، بقيت مستمرة ، واخذت في الازدياد اكثر فأكثر . حتى ان الاصناف التي اعتبرت سلعا ضرورية في عام ١٩٢٦ واستمر العمل بها على اساس التعرفة الجمركية العادية اي ١١٪ فقط من قيمتها ، اخذت التعرفة الجمركية عليها ترتفع بشكل هائل حتى بلغت ٢٠٪ عام ١٩٣٠ مقابل ٢٥٪ لتعرفة القصوى . ثم ارتفعتنا ايضا الى ٣٠٪ و ٣٥٪ في تموز ١٩٣٠ . وفي كانون الاول من العام نفسه ارتفعتا التعرفتان الجمركيتان ، العادية و القصوى اي ٣٠٪ و ٦٠٪ ، وفي نيسان ١٩٣١ الى ٤٠٪ و ٨٠٪ . وفي تموز من العام نفسه الى ٥٠٪ و ١٠٠٪ (٧٢) باعتراف الفرنسيين انفسهم ، على اثر الازمة العامة للرابسمالية التي بدأت عام ١٩٢٩ .

وهكذا اخذت الادارة الانتدابية تفرض رسوما جمركية هائلة دونما تمييز على المواد الضرورية كالقمح والدقيق والسكر ، والمواد الخام للصناعة المحلية . وكانت الطبقات الفقيرة اكثر المتضررين من تلك السياسة اذ دفعت الجزء الاكبر منها بشكل ضرائب مباشرة وغير مباشرة ، حتى ان ادمون رباط قدر نسبة الضرائب التي دفعها لفلاحون السوريون والبنانيون بأكثر من ٧٥٪ من مجموع الضرائب (٧٣) . اما عمر الجابري فقد اعطى نسبة الضرائب المباشرة للضرائب غير المباشرة بحوالي ٣٣٪ للاولى مقابل ٦٦٪ للثانية (٧٤) .

ان نسبة قليلة من التجار فقط استفادت من سياسة فرنسا الجمركية في حين وقع وزر تلك السياسة على كاهل الشعبين اللبناني والسوري حيث نسبة الفقراء تتجاوز ٩٥٪ على الاقل من مجموع السكان (٧٥) .

لماذا فرضت الولايات المتحدة سياسة « الباب المفتوح » في صكوك الانتداب ؟

نص البند ١١ من صك الانتداب على سوريا ولبنان ما يلي : « على الدولة المنتدبة الا تتخذ اجراء من شأنه ان يضع ، في سوريا ولبنان ، رعايا اية دولة عضو في عصبة الامم ، بمن فيهم الشركات والجمعيات والافراد ، في مرتبة ادنى ، ان بالنسبة لرعاياها بالذات ، ومن ضمنهم الشركات والجمعيات والافراد ، او بالنسبة لرعايا اية دولة اجنبية اخرى . ولا يجوز اجراء اي تمييز بين رعايا تلك الدول والرعايا التابعين لدولة الانتداب لا في مجال الضرائب او التجارة ، ولا في مجال الصناعة والمهن الحرة والملاحة وغيرها . وبناء عليه ، ينبغي الا يفرض ، في سوريا ولبنان ، اي تمييز بين البضائع الواردة الى احدي دول الانتداب المارة بها . يجب ان تقام هناك ظروف متساوية لحرية النقل عبر الاراضي المذكورة » .

— L'Asie Française — No. 312 — P. 228 et R. O'Zoux « Etats du Levant... » (٧٢) P. 162-165.

— E. Rabbath « Unité syrienne et devenir arabe » — P. 292. (٧٣)

— O. Djabry « La Syrie sous le régime du mandat » — P. 135. (٧٤)

(٧٥) تسميها : « افواء على الراسمال الاجنبي .. » ص ٥ .

ثم يضيف هذا البند « ان المنتدب (بفتح الدال) يبقى حراً في فرض ، او في حمل الحكومات المحلية على فرض الضرائب والرسوم الجمركية التي يراها ضرورية ، واتخاذ الاجراءات الكفيلة بتأمين زيادة الموارد الطبيعية للبلدان المذكورة ، وحماية مصالح السكان المحليين ، وعقد اتفاقيات جمركية خاصة مع البلدان المتاخمة لأسباب تعود الى الجوار ... » .

لقد حرص الاميركيون بعناية على ادخال سياسة « الباب المفتوح » في التجارة مع سوريا ولبنان ، وعلى اعطائهم الافضية في التسهيلات الجمركية بالرغم من عدم اعترافهم بالانتداب الفرنسي على هذين البلدين . ولم يتم اعترافهم بالانتداب الا بعد توقيع اتفاقية مع الفرنسيين في نيسان ١٩٢٤ تضمنت لهم امتيازات واسعة وحرية العمل التبشيري والثقفي ومعاملتهم كبلد عضو في عصبة الامم المتحدة بالرغم من عدم انتسابهم لها .

لقد كانت سياسة « الباب المفتوح » تعني ، بنظر الاميركيين ، حماية تجارتهم القوية من اية قيود تحد من اقتحامها للأسواق الدولية في فترة ما بعد الحرب وذلك انسجاماً مع مؤتمر برلين ١٨٨٥ وبروكسل ١٨٩٠ ، لان سياسة الباب المفتوح هي استمرار للفكرة القائلة بأن على المستعمر الا يفرض سياسة ضيقة تنسجم مع مصالحه الآنية فحسب بل مع مصالح التجارة العالمية والنظام الرأسمالي برمته (٧٦) .

ونظراً لحاجة فرنسا الماسة الى القروض الاميركية ، قامت بتقديم تنازلات كبيرة لها بالاتفاق مع البريطانيين ، منها حصة هامة في بترول الموصل ، وحماية الجامعة الاميركية ، وسياسة الباب المفتوح . وظهرت فرنسا حرصاً كبيراً على مراعاة سياسة الباب المفتوح الى اقصى حد في الفترة الاولى . ولعل السبب في ذلك يعود اصلاً الى كثرة الانتفاضات الفلاحية والعصابات الوطنية في الداخل بحيث كانت تلك الفترة الاولى بالنسبة للرساميل الاجنبية ، فترة ترقب وحذر ، في حين كان لبنان وسوريا بحاجة ماسة الى رأسمال ضخم للتعويض عن خسائر الحرب وترميم ما سببته من اضرار . وبالرغم من توجه مندوبيين السامين الفرنسيين نحو جميع الرساميل للعمل في هذين البلدين فقد كان واضحاً من تصريحاتهم ان الافضية ستكون للرساميل الفرنسية بشكل اساسي . لذا يلخص نجيب الارمنازي دور المفوضين السامين في هذا المجال فيقول : « اذا كانت وثيقة الانتداب قد ضمنت سياسة الباب المفتوح امام التجارة في البند الحادي عشر لتلاني هيمنة فرنسا على البلدان الموضوعة تحت الانتداب ، فان السلطة التنفيذية الممنوحة للمفوضين السامين كانت كفيلة بتحقيق السيطرة التامة للشركات الفرنسية على الاقتصاد السوري » (٧٧) .

لقد انتعش الوجود الاقتصادي التجاري لجميع البلدان الاوروبية الصناعية وللولايات المتحدة الاميركية وكذلك لتركيا ومصر في الاسواق السورية واللبنانية ، وهذا ما يفره بوضوح تام الواردات التجارية الى مرفأ بيروت ، غير ان الفرنسيين

(٧٦) — A. Millot « Contribution à l'étude des mandats internationaux » — P. 2
et Georges Hardy « La politique coloniale et le partage de la terre aux 19ème
et 20ème siècles » — P. 15.

(٧٧) نجيب الارمنازي « سوريا من الاحتلال الى الجلاء » ص ٢٣ .

عرفوا كيف يضمنوا لرؤسائهم الدور الأهم في البلدان الواقعة تحت انتدابهم . وبالرغم من الانفتاح التجاري أمام جميع السلع ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية كانت المستفيد الأكبر من تلك السياسة ، فسارعت إلى الاستفادة من رحيل سلع الإنكليز الذين تخلوا عن أسواق بيروت باتجاه مرفأ حيفا وأضحى للأميركيين مرتبة بارزة في حجم المبادلات مع مرفأ بيروت في نهاية هذه الفترة بعد أن كان وجودهم التجاري شبه معدوم قبيل الحرب العالمية الأولى على هذه الأسواق اللبنانية - السورية .

هيمنة الرساميل والشركات الفرنسية

سجلت أعوام ١٩١٩ - ١٩٢٢ بداية تحسن ملحوظ في عودة الحياة التجارية إلى مرفأ بيروت . وفي عام ١٩٢٣ ارتفع حجم المبادلات التجارية في المرفأ إلى ما كانت عليه عام ١٩١٣ ، مع ارتفاع في نسبة الصادرات إلى الواردات مما كان يبشر بمرحلة هامة من البجوحة والازدهار كثيراً ما تفتنى بها الفرنسيون . ان مرحلة الانتعاش التجاري هذه بدأت منذ ١٩٢٣ بالذات واستمرت حتى ١٩٢٥ . وقد عرف المفوضون السامون كيف يحولون هذا الانتعاش لصالح الرساميل والشركات الفرنسية خاصة . فعلى اثر معاهدة لوزان لعام ١٩٢٣ ، تحولت شركة مرفأ وأرصفة ومستودعات بيروت ، والتي تأسست منذ ٢٠ حزيران ١٨٨٨ باسم الشركة العثمانية لمرفأ بيروت ، إلى شركة فرنسية بصورة كلية (٧٨) .

ومنذ ٨ آب ١٩٢١ ، وضع خط حديد الحجاز المار في سوريا ولبنان تحت إشراف الوقف الإسلامي . وكان الوقف قد أصبح مؤسسة حكومية فرنسية تتبع المفوض السامي مباشرة . ثم ضم هذا الفرع من خط الحجاز إلى الشركة الفرنسية المسماة خطوط حديد دمشق - حماه وتمديداتها ، في ٢٠ شباط ١٩٢٤ (٧٩) وتحول الخط برمته إلى ملكية الفرنسيين .

ومنذ نهاية ١٩٢٣ أيضاً قامت شركة حصر التبغ والتبناك باسم المونوبول ، تبسط سيطرتها على كافة أراضي لبنان الكبير بأمر من الجنرال ويفان ، بينما كان جبل المتصرفية مستثنى من نفوذ هذه الشركة حتى هذا العام . فلجنة الدين العمومي العثماني ، وشركة الخطوط الحديدية لدمشق - حماه وتمديداتها ، وشركة مرفأ بيروت ، وشركة التبغ والتبناك ، والمصارف الفرنسية خاصة الشركة الفرنسية لبنك سوريا ولبنان ، وبنك سوريا العقاري ، وبنك التسليف الليوني ، والبنك العقاري للجزائر وتونس ، وشركات النقل البحري ، وامتيازات التنقيب عن الآبار ، وغيرها كانت تأخذ بزمام جميع اقتصاديات سوريا ولبنان وتحول سياسة الباب المفتوح إلى احتكار مكشوف لصالح الرساميل والشركات الفرنسية في المقام الأول .

— Saïd Chéhab-ed-Dine « La géographie humaine de Beyrouth » — P. 78. (٧٨)

(٧٩) المنار - الجزء ٢٥ - المجلد ٢ - أيار ١٩٢٤ - مقالة « سكة حديد الحجاز » .

تغير جذري في مواقع الدول المصدرة الى مرفأ بيروت

احتفظت بريطانيا فترة طويلة قبل الحرب وبعدها بالمركز الاول في صادراتها الى مرفأ بيروت (٨٠) . وحتى عام ١٩٢١ ، بلغت قيمة صادراتها الى هذا المرفأ ١٣١٦٥ مليون فرنكا فرنسيا ، بينما احتلت مصر ، الخاضعة للحماية البريطانية آنذاك ، المركز الاول في صادراتها الى مرفأ طرابلس في نفس العام بقيمة ٣٢ مليون فرنك ، في حين احتلت مصر المركز الثاني في صادراتها الى مرفأ بيروت بقيمة ٩٦ مليونا ، واحتلت المرتبة الثالثة لعام ١٩٢٢ في توريداتها لهذا المرفأ بمبلغ ٢٩ مليونا مقابل احتفاظها بالمرتبة الاولى في صادراتها لطرابلس بقيمة ١٤ مليونا من الفرتكات . اما فرنسا فقد احتلت المرتبة الثالثة بقيمة صادراتها الى بيروت عام ١٩٢١ وبلغت قيمتها ٩٥ مليون فرنك ، ثم احتلت المرتبة الثانية هناك عام ١٩٢٢ بقيمة ٣٤ مليونا ، في حين لم تحتل سوى المرتبة السادسة في صادراتها الى طرابلس في عامي ١٩٢١ و ١٩٢٢ .

والحدث البالغ الاهمية ، هو دخول الولايات المتحدة بقوة الى اسواق سوريا ولبنان بعد الحرب العالمية الاولى . فاذا اخذنا الترتيب العام لحجم الصادرات والواردات لسوريا ولبنان عام ١٩١٠ ، تبين لنا ان حصة انكلترا كانت ٢٥٤٧٪ اي المرتبة الاولى ، وتلتها تركيا بحصة ١٨٦٥٪ ، ثم ١٧٦٨٪ لفرنسا ، ثم ١٠٪ لمصر ، ثم ٦٪ للنمسا ، ثم ٥٤٦٪ لاطاليا ، ثم ٤٤٤٪ لالمانيا ، ثم ١٢٪ لروسيا وبلجيكا وغيرهما من الدول الاوروبية ، ولم يلحظ اي وجود فعلي ، على الصعيد التجاري ، للولايات المتحدة الاميركية آنذاك .

هذا الوضع ، سيشهد تغيرا جذريا منذ مطلع الانتداب ، اذ احتلت الولايات المتحدة المرتبة الرابعة بقيمة وارداتها الى مرفأ بيروت والتي بلغت ٢٢ مليون فرنك ، والمركز الخامس عام ١٩٢٢ ، بعد انكلترا وفرنسا واطاليا والمانيا ، كما احتلت المرتبة الثانية في وارداتها الى طرابلس عام ١٩٢١ بعد مصر مباشرة . على صعيد الصادرات من مرفأ بيروت كانت مصر في طليعة الدول التي صدر عنها هذا المرفأ عام ١٩٢١ بمبلغ ٤٩٤٢ مليون فرنك ، تلتها فرنسا بمبلغ ١٣ مليونا ، ثم تركيا بمبلغ ٤٦٩ مليونا ، ثم الولايات المتحدة بمبلغ ١٤٩٨ من الملايين .

اما في عام ١٩٢٢ ، فقد احتلت الولايات المتحدة المرتبة الاولى في استيرادها من مرفأ بيروت بمبلغ ٥٤٩٨٥ مليونا ، وجاءت فرنسا ثانية بمبلغ ٥٤٥ مليون ثم مصر فتركيا ، في حين احتلت تركيا المرتبة الاولى في قيمة استيرادها من مرفأ طرابلس عام ١٩٢١ بمبلغ ٣٤١ مليون وتلتها مصر بمبلغ ١٦٣ مليون ، ثم فرنسا ، قالولايات المتحدة وظلت تركيا تحتفظ بالمرتبة الاولى ايضا في استيرادها من طرابلس لعام ١٩٢٢ بمبلغ ١٦٧ مليونا ، وتلتها مصر وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية (٨١) .

— Huvelin « Que vaut la Syrie ? » — P. 41.

(٨٠)

(٨١) لطفي الحنار « التجارة السورية » . من « مخطط الشام » لحد كرد على الجزء الرابع — ص ٢٨٤

لقد تثبت فعليا مركز الولايات المتحدة الممتاز في حجم مبادلاتها مع مرفأى بيروت وطرابلس ، هذا المركز سيتعزز أكثر فأكثر في الاعوام اللاحقة . فقد استورد مرفأ بيروت من الولايات المتحدة بضائع بقيمة ١١٠٣٢٣٠٤٥٠ (٨٢) قرشا سوريا عام ١٩٢٣ ، و ١٤٠١٦٦٠٤١٣ قرشا عام ١٩٢٤ ، و ٢٢٠٩١٩٠٥٦٨ عام ١٩٢٥ (٨٣) . كما استورد مرفأ طرابلس منها بقيمة ٣٠٢٧٠٢ قرشا لعام ١٩٢٣ وبقيمة ٣٠٢٢٣٠٢٤٣ لعام ١٩٢٤ ، وبقيمة ١٠٨٠٠٠٢٠١ لعام ١٩٢٥ ، في حين بقيت صادرات مرفأ طرابلس الى الولايات المتحدة ضعيفة جدا بقيمة ٧١٠٣٠٠ قرشا سوريا لعام ١٩٢٣ ، وبمبلغ ٣١٠٢٠٩ قروش سورية فقط لعام ١٩٢٥ .

لقد استطاعت تجارة الولايات المتحدة القوية ان تغزو اسواق سوريا ولبنان بفضل سياسة الباب المفتوح التي فرضوها على الفرنسيين ، وبفضل قوة اقتصادهم والنشاط الهائل لتجارهم آنذاك .

وبصورة عامة ، يمكن القول ان بريطانيا بقيت تسيطر على المرتبة الاولى في صادراتها الى مرفأ بيروت عام ١٩٢٣ بقيمة ٩٣ مليون فرنك ، في حين احتلت فرنسا المرتبة الثانية بقيمة ٦٦ مليونا ، ومصر المرتبة الثالثة بمبلغ ٥٤ مليونا ، وايطاليا بمبلغ ٤٦ مليونا ، فالولايات المتحدة بمبلغ ٢٨ مليونا ، فبلجيكا بمبلغ ٢٦ مليونا ، فالماتيا بمبلغ ٢٥ مليونا من الفرناكات (٨٤) .

وفي مرفأ طرابلس ، بقيت مصر تحتل باستمرار المرتبة الاولى في صادراتها اليه عام ١٩٢٣ بمبلغ ٢٠ مليون فرنك ، تلتها بريطانيا بمبلغ ١٨ مليونا فايطاليا بسبعة ملايين ، وفرنسا بمبلغ ٦٤٤ مليونا ، فالولايات المتحدة بمبلغ ٦٠٢ مليونا (٨٥) من الفرناكات .

وبقيت مصر تحتفظ بالمرتبة الاولى في استيرادها من مرفأ طرابلس بقيمة ٥٠٢ مليون فرنك مقابل ٥٤١ مليون لفرنسا ، و ٤ ملايين للولايات المتحدة ، و ٣٠٥ لايطاليا . في حين نالت فرنسا ، ولأول مرة ، المرتبة الاولى بقيمة استيرادها من مرفأ بيروت والتي بلغت ٢٩ مليونا من الفرناكات ، تاركة وراءها مصر بمبلغ ١١ مليونا والبلدان المجاورة بمبلغ ٨ ملايين وتركيا بمبلغ سبعة ملايين والولايات المتحدة بمبلغ ٤ ملايين . كما احتلت فرنسا المقدمة ايضا خلال هذا العام ١٩٢٣ في استيرادها من مرفأ طرابلس .

اما على صعيد الترتيب الاجمالي للتصدير والاستيراد في مرفأى بيروت وطرابلس ، فقد استمرت بريطانيا في الطليعة عام ١٩٢٣ تاركة وراءها فرنسا (٨٦) ، التي تسمى حثيثا للوصول الى المرتبة الاولى بعد ان اصدرت اوامرها لجميع السفن

-
- Bulletin du C.I.F.L. de 1924-1927 — Index. (٨٢)
 — H. C. «Rapports sur les années 1925 et 1926 » — Annexes 8 et 9. (٨٣)
 (٨٤) ايلي وجرجي جدعون « الطليل السوري لسنة ١٩٢٤ » ص ٢٥ .
 — L'Asie Française — No. 224 — Juillet-Août 1924 — Index. (٨٥)
 — L'Asie Française — No. 223 — Juin 1924 — P. 253 — Article « Mouvement commercial du port de Beyrouth en 1923-1924 » . (٨٦)

الفرنسية التي تعمل على خطوط الملاحة الفرنسية والاجنبية بالتوقف في بيروت (٨٧) ،
ثم مصر التي احتلت المرتبة الثالثة فايطاليا والولايات المتحدة ، وبلجيكا ، والمانيا ،
وتركيا .

واستمرت بريطانيا تحتل المرتبة الاولى في صادراتها الى مرفأ بيروت خلال عام
١٩٢٤ ايضا بقيمة ٥١.٠٤٥ مليوناً (٨٨) من القروش السورية مقابل ٥.٧٤٥ مليوناً لعام
١٩٢٥ . واحتلت فرنسا المرتبة الثانية في هذا المجال بقيمة ٤٥٦،٧ لعام ١٩٢٤ والاولى
عام ١٩٢٥ بقيمة ٥٣٨،٥٩ مليوناً من القروش السورية . وبالترتيب العام بقيت
انكلترا في المرتبة الاولى تليها فرنسا فايطاليا فالولايات المتحدة فبلجيكا فتركيا .

اما في طرابلس فقد تسلمت الولايات المتحدة المرتبة الاولى في الصادرات الى
هذا المرفأ عام ١٩٢٥ . وبقيت الولايات المتحدة تحتل المرتبة الاولى كذلك لعام ١٩٢٦
في صادراتها الى هذا المرفأ وتلتها انكلترا ، فالهند ، فايطاليا ، فمصر ، فتركيا (٨٩) .
لقد كان على فرنسا انتظار الاشهر الثلاثة الاولى من عام ١٩٢٦ كي تحتل المركز
الاول في حجم سلعها التجارية مع مرفأ بيروت اذ صدرت اليه ٣٧،٠٧٦ طناً من
البضائع بلغت قيمتها ٥٨٨،٤٤ مليون قرشاً سوريا مخلفة وراءها انكلترا فايطاليا
فالولايات المتحدة الاميركية . فليس من قبيل الصدفة على الاطلاق ان يرافق احتلال
فرنسا للمرتبة التجارية الاولى في مرفأ بيروت اعلان بداية المرحلة الدستورية في
لبنان ثم في سوريا باعلان الجمهورية فيهما بعد ذلك بقليل . لقد باتت المرحلة
الدستورية ضرورة حيوية للرسميل الفرنسية التي هيمنت في ظل الحكم العسكري
المباشر ، كي تنمو وتثمر في ظل الهدوء والاستقرار .

ضرب الاقتصاد اللبناني لصالح القطاع التجاري

وصلت فرنسا الى المرتبة الاولى في صادراتها الى سوريا ولبنان عن طريق مرفأ
بيروت بعد ان اوصلت اقتصاد هذين البلدين الى عجز رهيب في الميزان التجاري فيهما
قدر بمبلغ ٧٤٥ مليوناً من الفرنكات خلال الفترة الممتدة من ١٩٢٠ الى ١٩٢٦ ، حسب
اعتراف الفرنسيين انفسهم . وقد اورد روبر دوويه ، مندوب فرنسا الدائم في
لجنة الانتداب ، بنفسه هذا الرقم (٩٠) .

وسجل ميزان التجارة مع سوريا ولبنان عجزاً متواصلاً خلال السنوات العشر
ما بين ١٩٢٣ - ١٩٣٢ ، وبلغ هذا العجز حوالي ٧،٦٦٦ (٩١) مليون فرنك فرنسي .
لقد كان العجز مرعباً اذ بلغ سنوياً حوالي ٦٧٥،٦ مليون فرنك تقريباً ، في حين كانت
ميزانية مجموع الدويلات السورية ولبنان تبلغ في المتوسط ٣٨٠ مليوناً ، بمعنى

— J. de Monicault « Op. Cit. » — P. 66. (٨٧)

— Bulletin de C. I. F. L. — Janvier 1926 — P. 4. (٨٨)

— Bulletin de C.I.F.L. — Ibid — Juin-Juillet 1926 — P. 63. (٨٩)

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 63. (٩٠)

— Omar Djabry « La Syrie sous le régime du mandat » — P. 39. (٩١)

ان العجز في ميزان المدفوعات تجاوز ضعف الميزانية تقريبا . واذا اضفنا الى هذا العجز حصة الدين العمومي العثماني البالغة ١١٤٣٤٪ من الميزانية تقريبا، التي كان لبنان وسوريا يدفعانها سنويا، تبين لنا مقدار العجز الاجمالي الذي اوصلتنا اليه فرنسا.

لقد بالغ الفرنسيون كثيرا في دعم القطاعات غير المنتجة على حساب القطاعات المنتجة . فالعطورات مثلا ستحتل مركزا بالغ الاهمية باعتبارها من المنتوجات الفرنسية . ويكفي ان نلاحظ ان تجار مستحضرات التجميل في دمشق قد زاد عددهم اربعة اضعاف ما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٠ في حين ان استيراد الآلات الميكانيكية الضرورية لتنشيط الاقتصاد لم تزد الا بنسبة ٣٪ (٩٢) للفترة ذاتها .

ان نسبة ١ الى ٢ التي كانت تربط بين الصادرات والواردات في المصرفية تغيرت تماما بعد الحرب . فمن ١ الى ٦ عام ١٩٢٠ حتى ١ الى ١١ عام ١٩٢٤ حتى ١ الى ١٦ عام ١٩٢٦ . هذا العجز استد اموال المهاجرين اللبنانيين جزءا هاما منه بحيث يلب الانتداب خيرات اللبنانيين في الداخل والخارج . وبالرغم من ذلك فان ادارة الانتداب اعترفت صراحة عام ١٩٢٦ « ان الخسائر المخيفة الناشئة عن اختلال الميزان التجاري لسوريا ولبنان لن يكون بالامكان التعويض عنها بأموال المهاجرين المرسله الى ذويهم ، ولا بمصاريف المصطافين ولا بالصادرات الى الداخل (٩٣) . لقد دشّن الفرنسيون عهد استغلال جميع فئات الشعب لمصالح تجارهم والقلة من الوسطاء المرتبطين بهم تجاريا .

نشوء بورجوازية تجارية بيروتية « اهمية » السمسرة والوساطة

في عام ١٩٢٦ ، كان لبنان يشترى من جميع الدول الاوروبية والولايات المتحدة بشكل خاص . ومنذ ذلك التاريخ ، تبوات فرنسا المرتبة الاولى من حيث قيمة وارداتها الاجمالية الى مرفأ بيروت ، في حين بقي ترتيبها يتغير بين المرتبة الثالثة والمرتبة السادسة بالنسبة لوزن البضائع .

وكانت بريطانيا تتبعها مباشرة ثم تليهما الولايات المتحدة ، التي لم يكن لها وجود يذكر قبل الحرب ، فايطاليا وتركيا .

وبصورة عامة كانت الكماليات وادوات الزينة والمنسوجات الفاخرة من صنع فرنسي وانكليزي في المقام الثاني. وكانت البضائع اليابانية تحاول اكتساح الاسواق اللبنانية بأسعار زهيدة لهذه الاصناف . اما السيارات فكانت تستورد من الولايات المتحدة بشكل خاص . وكانت مواد البترول والبنزين والزيوت من انتاج شركات «شل» و « ستاندارد اويل » و «فاكوم اويل» والتي كانت اغلبية رساميلها امريكية . في مجال الاجهزة الكهربائية ، كانت فرنسا وبلجيكا والمانيا تقاسمها فيما

— Richard Thoumin « Géographie humaine... » — P. 195.

(٩٢)

— Bulletin économique du H. C. — Février 1926 — P. 7.

(٩٣)

بينها . اما الحبوب والدقيق فكانت تستورد من الولايات المتحدة واورشاليا ، في حين استوردت الاخشاب من رومانيا وتركيا واسكندنافيا . البيوتات الانكليزية والاطالية تتصارع لاحتكار الجوخ . اما الماركات الالمانية والفرنسية والانكليزية فكانت تقاسم سوق الادوية والعقاقير . في حين تحتكر المانيا الاجهزة وادوات التصوير الفوتوغرافي وكذلك اللعب الميكانيكية الصغيرة . وكانت تشيكوسلوفاكيا تزاخم سوق الجلود البنانية بانتاج صناعي متفوق . وكانت النمسا وفنلندا تصدران الورق للصحف والمنشورات في لبنان ، وتقسم فرنسا واطاليا تقديم معلبات الخضار ، وتصدر فرنسا وهولندا والمانيا وبلجيكا له انواعا جيدة من البيرة والمشروبات . فهل بقيت دولة صناعية عالية خارج الهيمنة على مجال من مجالات التجارة في لبنان ؟

كما ان توسع التجارة دفع الى توسع في اعمال الوكالات لمختلف السلع وتوسعت معها بيوتات الوساطة وشركات التوزيع بصورة خاصة . وكان اغلبية اعضائها من اللبنانيين .

وهكذا اخذت مراكب الشحن تفرغ حمولاتها على ارضفة بيروت ، وتحول العديد من اللبنانيين الى سمسرة او وسطاء او مروجين او باعة لتلك الحمولات .

لقد نجح الانتداب الفرنسي في تحريك تجارة واسعة في بيروت ، انعشت معها فئة كبيرة من الوسطاء وتجار الترانزيت و باعة الجملة . و جنت تلك الفئة فوائد جمة ، ليس من الرساميل الفرنسية فحسب ، بل ومن جميع الرساميل المتواجدة على ارض بيروت .

واضحت بيروت منذ بداية الانتداب ، عاصمة كبيرة للبنان اداريا ، لكنها عاصمة فعلية لجميع الدولات السورية ايضا من جميع النواحي الادارية والعسكرية والثقافية والاقتصادية .

ان تجارة بيروت وجدت متسعا لها نحو حلب ودمشق والعراق وغيرها . وكان تجار بيروت يشرفون على مرور بضائع بملايين الفرنكات المحمولة الى تركيا وايران وفلسطين ومصر . وقد خلف هؤلاء التجار ثروات طائلة جدا وشكلوا القاعدة الاساسية للبورجوازية التجارية في لبنان المستقل . ويكفي ان نذكر هنا مثلا للدلالة على غنى هؤلاء التجار ما ورد في جريدة « النهار » البيروتية في عددها رقم ١٢٠٥٢ الصادر في ٧ آذار ١٩٧٤ وعلى صدر صفحتها الاولى من ان التاجر والشاعر المشهور في تلك الفترة ، شارل قرم ، ترك ثروة كبيرة جدا وان ورثته باعوا قطعة واحدة من الاراضي التي خلفها وراءه ، بمبلغ ٦٠ مليون ليرة لبنانية . وشارل قرم هذا كان وكيل العديد من الشركات الامريكية والفرنسية في لبنان .

ان تجار بيروت الوسطاء عرفوا كيف يتوزعون على كافة الوكالات لمختلف رؤوس الاموال الاجنبية العاملة في لبنان . هؤلاء التجار لم يرتدوا اي لون طائفي او قومي سوى التزامهم بمصالحهم التي تتبع اصلا من مصالح الراسمال الذي يعملون اخدمته .

هذه الفئة التجارية الوسيطة كانت موالية للانتداب وداعمة له طيلة تلك الفترة .
ان التقدم التجاري الواسع الذي تحقق في بيروت زمن الانتداب الفرنسي ،
كان لصالح الانتدابين ؛ لصالح هذه الفئة الوسيطة البيروتية التي تنعمت وحدها
بخيرات الوجود الانتدابي على لبنان فجعلت من قطاع التجارة ، المرتبط تبعيا
ومصلحيا بالرأسمال الاجنبي، العمود الفقري لتطور الرأسمالية في لبنان المستقل .
لقد ترسخ مع ازدهار التجارة في بيروت اتجاه تطور الرأسمالية اللبنانية الوحيد
الجانب والشديد التبعية للاحتكارات الاجنبية .

□ الفصل الثالث □ ربط الاقتصاد اللبناني بعملة الفرنك الفرنسي والشركات الفرنسية في بيروت

الحرب العالمية الاولى تغير الموازين المالية السابقة

كان مخزون النقد الذهبي في تركيا قبل الحرب العالمية الاولى يقدر بأربعين مليون (١) ليرة تركية ذهبية يضاف اليها حوالي ثلاثين مليوناً اخرى من الليرات الذهبية موزعة للتداول واختفى القسم الاكبر منها بسبب النفقات الباهظة للجيش ، والعجز المالي في ميزان مدفوعات الاتراك ، وبسبب بعض التنازلات الاقليمية المختلفة التي اجبرت تركيا عليها منذ مطلع القرن العشرين . ويؤخذ من الاحصائيات الرسمية ان تلك النقود الذهبية قد سكت خلال الفترة الممتدة بين اعوام ١٨٤٤ و ١٩١٤ ، وبلغ مجموعها ٦٩٦٢٨٦٠٠٠ ليرة تركية ذهبية . وقد اورد فيرجو (٢) تواريخ تلك الاصدارات كما يلي : ١٤ مليوناً و ٤٨٠ ألفاً سكت عام ١٨٤٤ في عهد السلطان عبدالمجيد ، و ١٤ مليوناً و ٩٧٠ ألفاً في عام ١٨٧٧ في عهد السلطان عبدالعزيز ، و ١٦ مليوناً و ٣٦ ألفاً من الليرات الذهبية ضربت ايام السلطان عبدالحميد الثاني حتى ١٩٠٩ ثم ٢٣ مليوناً و ٨٠٠ ألف ليرة ذهبية ضربت زمن السلطان محمد رشاد عام ١٩١٤ .

غير ان دخول تركيا الحرب في عام ١٩١٥ قلب الوضع المالي لذهب تركيا رأساً على عقب مما اضطرها الى اصدار النقد الورقي وجعلت الليرة التركية الورقية مرتبطة بأسعار الليرة الذهبية بمعدل مئة قرش ذهب لليرة الورقية اسماً واستمرت الليرة الذهبية اساس النقد المتداول وقامت تركيا منذ هذا العام تحاول فرض الليرة الورقية كأساس للتداول النقدي . لكن العجز المستمر في ميزانية الدولة العثمانية اضطرها الى اعلان سلسلة من الاصدارات الورقية ما بين ٣ آذار ١٩١٥ و ٢٨ آذار ١٩١٧ ، اي في مدى ٢٤ شهراً . وقد مجموع تلك الاستصدارات خلال تلك الفترة

(١) — Ahmad Sammân « Le régime monétaire de la Syrie » — Thèse. P. 12.

(٢) — Vergeot « Revue d'économie politique » — Année 1919. P. 280.

— Voir Jean Ducruet « Les capitaux européens au Proche-Orient. P. 94.

بأكثر من ١٢٨ (٢) مليون ليرة تركية ورقية توزعت اصداواتها كالتالي : ١٤٧،٩١٩،٥٠٠ ليرة في ٣ أيار ١٩١٥ ، ثم ٥٤،٦٧،٦٠٠ في ١٨ آب من العام نفسه ، ثم ٨،١٣١،٠٠٠ في ١٨ تشرين الاول ١٩١٥ ، ثم ٧٣،٩٥٥،٨٢٠ ليرة ورقية تركية في ٢٢ كانون الاول من العام نفسه ، ثم ٣٥،٤٩٦،٠٧٥ ليرة حتى آذار ١٩١٧ . وهكذا اصدرت الدولة العثمانية اكثر من ٩٢ مليون ليرة ورقية في عام واحد ، مما أوجد الرعب في نفوس المتعاملين بهذه الاوراق .

وزاد في خطورة الوضع ، لجوء تركيا الى القوة الجبرية لفرض ليرتها الورقية . فأصدر جمال باشا ، قائد الفيلق الامبراطوري الرابع ووزير بحرية تركيا ، انذارا دعا فيه السكان الى ضرورة استخدام النقد الورقي التركي . وقد أنهى جمال باشا انذاره ذلك بالتهديد التالي : « اذا لم تتحقق رغبتى قبل ١٥ آذار ١٩١٧ ، اي اذا لم تقبل الليرة الورقية بسعر معادل العملة الذهبية ، فسأنفي الى الاناضول والروملي ، عشرة من الاغنياء والشخصيات البارزة والتجار والصناعيين يختارون بالقرعة . وألفت الانتباه هنا الى ان اسمي المديرين للبنك العثماني وللبنك الالماني سيكونان في عداد الاسماء التي ستلقى في صندوق القرعة » . ثم يضيف التهديد التركي انه : « بعد ستة اسابيع من نفي الدفعة الاولى ، ستأخذ دفعة ثانية نفس الطريق الى الاناضول والروملي ، ثم دفعة ثالثة ، وهكذا بانتظام حسابي ، الى ان تصبح الليرة الورقية عملة التداول الطبيعية في المنطقة » (٤) .

يستنتج من هذا الانذار ان التجار والصناعيين والاثرياء والوجهاء في سوريا ولبنان قد رفضوا التداول بالنقد الورقي التركي كما ان هناك اعترافا صريحا من مسؤول تركي كبير عن لموقف العدائي لأكبر مؤسستين ماليتين في الامبراطورية العثمانية بينهما البنك الامبراطوري العثماني بالذات حيال هذا النقد الذي اصدرته تركيا في الحرب مما زاد في صعوبة وضع الليرة التركية الورقية وأضعف من قيمتها التداولية .

لذا سادت اوضاع سوريا ولبنان والمنطقة العربية الخاضعة لتركيا برمتها ثلاثة اعتبارات أساسية (٥) في المداوات المالية من جراء سياسة تركيا تلك في القطاع النقدي : اولى تلك الاعتبارات ان الامبراطورية العثمانية لم تسع الى جذب الذهب الى صناديقها خلال الحرب ، كما فعلت دول اوروبا والولايات المتحدة بشكل خاص ، بل لم تسع الى المحافظة على ما لديها من النقد المعدني على الاقل . وثاني تلك الاعتبارات ان سياسة تركيا في استصدار الاوراق المالية قد دفعت السكان الى ادخار ما لديهم من نقود ذهبية وفضية مما زاد في مخزون الذهب في

(٢) سعيد حمادة - « النظام النقدي والعراقي في سوريا ١٩٠٠ » ص ٢٦ .

(٤) نشرت جريدة Le Temps الباريسية هذا الانذار في عددها الصادر في ٦ تموز ١٩١٧ وذكره ايضا .

— André Mandelstan « Le sort de l'Empire Ottoman ». P. 341.

— Voir aussi Georges Samné « La Syrie ». P. 461-462.

— Maxime Nicolas « Questions monétaires en Syrie... » — Thèse. P. 42. (٥)

سوريا ولبنان بعد رفض السكان التداول بالعملة الورقية والاعتماد على المقايضة في تبادل السلع .

اما الاعتبار الثالث والاهم ، فان تضررا ملموسا قد حصل على توزيع الذهب في العالم عما كان عليه قبل الحرب العالمية الاولى بالذات . فقد سجلت تلك الحرب عموفا يكاد يكون تاما في نشاط اوروبا الاقتصادي والمالي والتي منيت بخسائر مالية وبشرية ضخمة جدا . لكن الحرب عينها قد اتاحت لاقتصاد الولايات المتحدة الاميركية المنظم ، ان يؤمن لها تقدما هائلا على اوروبا بالذات . فانقلبت الى دائنة بعد ان كانت مدينة لها حتى الامس القريب . واضحت الولايات المتحدة الاميركية تشكل خزانة لا ينضب من رؤوس الاموال ، بعد الحرب مباشرة . فقد زاد دخلها الاجمالي ثلاثة اضعاف ما كان عليه عام ١٩١٠ وذلك في عام ١٩٢٨ . وجاء الاستقرار المستمر لمعملتها ، الدولار، الذي أصبح وسيلة التداول النقدي الاولى في العالم، ليجعل منها اغنى بلد على الكرة الارضية . كما اتاحت لها وفرة مواردها المادية الاستغناء التام عن عدد كبير من المستوردات الاوروبية ، قبل الحرب وبعدها . كما ان اختلال التوازن المالي في الامبراطوريات القديمة اتاح لها ايضا اجتذاب الذهب الاوروبي الذي جاء ليزيد من حجم مدخراتها المصرفية وموجوداتها الذهبية(٦) .

فبينما كان على اوروبا ما بعد الحرب ان تعالج بليلة نقدية شديدة الخطورة ، يضاف اليها مصاعب اقتصادية وبشرية جسيمة ، سببت لها اضطرابات نسياسية واسعة وقلقا اجتماعيا مرعبا ، كان الاقتصاد الاميركي يقوى وينتفش ويرتفع الى اضعاف ما كان عليه قبل الحرب . وهكذا برز انقلاب خطير في الاسواق المالية العالمية احل الاميركيين محل الاوروبيين في تقديم القروض والمعونات المالية ، لا الى البلدان الفلتية فحسب ، بل الى اوروبا بالذات .

لقد بدأ النظام المالي الاوروبي يعاني أزمة مستمرة قاسية في مواجهة الازدهار الاقتصادي المتنامي للولايات المتحدة الاميركية منذ مطلع الحرب العالمية الاولى، وبدأ الارتفاع الجنوني للأسعار يشل القوة الاستهلاكية للمواطن الاوروبي . وهبطت الليرة الانكليزية الاسترلينية بمقدار الخمس عن سعرها السابق بالنسبة للدولار ، في حين هبط الفرنك الفرنسي بمقدار النصف(٧) ، وادى التضخم النقدي الاوروبي الى عدم استقرار لا مثيل له من قبل في اوروبا في حين تعززت مكانة الدولار كأول عملة عالمية مستقرة وثابتة على اساس مبادلتها بالذهب .

الفوضى المالية في سوريا ولبنان

يؤخذ من معلومات ادارة النقد العثماني ان الذهب كان موجودا بوفرة في سوريا ولبنان قبل الحرب العالمية الاولى(٨) . وبالرغم من تهديدات جمال باشا ، فان السكان

— Voir Maurice Baumont « La Faillite de la Paix » — Tome I. PP. 291-295. (٦)

— Baumont — Op. Cit. P. 12. (٧)

— Voir M. Nicolas « Questions monétaires... » . P. 12. (٨)

الريفيين في هذين البلدين ، وعلى الاخص سكان المناطق الزراعية الفنية بالقمح في حوران وعكار والبقاع ، قد رفضوا تداول النقد الورقي التركي ولم يجر تطبيق انذار جمال باشا الا في بيروت وطرابلس وجبل لبنان ، حيث كان واسع الانتشار على سواحل سوريا ولبنان . وكانت النتيجة الطبيعية لرفض التعامل بالنقد الورقي في الداخل ، ولا سيما ايام الحرب ، ورفض تقديم السلع الزراعية ، خاصة الحبوب ، الا بالنقود الذهبية ، ان تكدست كميات كبيرة من الذهب في الداخل السوري واللبناني (٩) .

ويقول سعيد حماده في كتابه « النظام النقدي والمصرفي في سوريا » . . . « والذي يدعو الى الدهشة هو وفرة التداول من القطع الذهبية التركية في كل مكان، وعلى الخصوص في الداخل ، حيث تجمع لدى الاهالي مبالغ كبيرة من بيع الحبوب» (١٠) . وقد قدر غابرييل منسى المدخر الذهبي بسبعة ملايين ليرة تركية ذهبية عام ١٩١٤ و ١٥ - ١٨ مليوناً عام ١٩١٨ . اما جورج عشي فقدر الاحتياط الذهبي لسوريا ولبنان ما بين ١١ - ١٢ مليوناً عام ١٩٢٠ - ١٩٢٢ (١١) .

ونتيجة لرفض السكان تداول الورقة التركية ، هبطت قيمتها الفعلية بشكل عمودي مما أدى الى تأزم الوضع الاقتصادي تأزماً خطيراً . فقد انخفضت قيمة الليرة التركية ما بين عامي ١٩١٥ و ١٩١٧ من مئة قرش ذهبي يوم صدورها عام ١٩١٥ الى ٩٩،٧٥ عام ١٩١٦ الى تسعة قروش فقط في كانون الاول ١٩١٨ (١٢) أي بعد شهرين فقط من دخول الحملة الانكلو - فرنسية الى سوريا ولبنان ، في حين بقيت الليرة التركية الذهبية قاعدة للتداول النقدي في هذين البلدين وانتشرت اجزاؤها بكثرة فيهما . وكانت اكثر تلك الاجزاء استعمالاً : البشلك ونصف البشلك ، والقرش الذهبي ونصف القرش ، والمتليك ونصف المتليك ، وكلها من الذهب والفضة او المزيج المعدني معهما ، ثم الباره ، والخمسة اي خمس بارات ، والنحاسة ونصف النحاسة ، وكلها من المعدن النحاسي والمزيج يدخل فيه النحاس (١٣) .

وبالاضافة الى الليرة التركية الذهبية ، كان قيد التداول ايضا في سوريا ولبنان، النابوليونيات التي تركتها الحملة الفرنسية عام ١٨٦٠ في لبنان، واللوسيات من فئة العشرين فرنكا ، وروبلات الذهب الروسية ، والدولارات الذهبية التي كان يرسلها المقربون خاصة ، والليرات الاسترلينية الذهبية ، وقطع الخمس ليرات.

(٩) بدر الدين السباعي - « اضواء على الراسمال الاجنبي في سوريا » - ص ١٠٨ .

(١٠) سعيد حماده - المصدر المذكور - ص ٥٤ .

(١١) ذكرها بدر الدين السباعي - المصدر السابق - ص ١٠٨ .

(١٢) سعيد حماده - المصدر السابق ص ٤٥ . وقد جاء في « قرارات المالية العامة لدولة دمشق » من سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ ما يلي : « لمن ٩٩ قرشاً ذهباً في مطلع كانون الثاني ١٩١٦ ستخلص الليرة التركية الورق الى ٦٦ قرشاً في تموز ١٩١٦ ثم الى ٤٢ ق.ذ. في تشرين الاول ١٩١٦ ، ثم الى ٢٢ ق.ذ. في آذار ١٩١٧ ، ثم الى ٢٠ ق.ذ. في آذار ١٩١٨ ، ثم الى ١٠ قروش ذهبية في تشرين الاول ١٩١٨ » . ص ١٢ .

(١٣) راجع حماده - المصدر السابق ص ٢٥ والسلمان - المصدر السابق ص ١٣ - ١٤ .

الاسترلينية من الفضة ، والليرة الانكليزية « ام حسان » أو « ليرة مار جرجس » كما كان يسميها السكان المحليون (١٤) .

لقد بقي الذهب أساس التعامل النقدي في سوريا ولبنان طيلة فترة الحرب العالمية الاولى . وبالرغم من كل التدابير التي اتخذتها الادارة التركية فيهما ، فقد فشلت تلك الادارة في اقناع السكان بضرورة الاعتراف بقيمة الورق التركي معادلا لأساس ذهبي . لقد كانت الليرة التركية الورقية عديمة الفائدة في مجرى التداول النقدي ولم تكن مستقرة الى سعر واحد عند دخول القوات الحليفة ارض البلدين . فكان سعرها يتراوح بين ستة قروش ذهبية و ٢٥ قرشا من أصل قيمة اسمية لها تبلغ مئة قرش ذهبي . وكان الصيارفة يرفضون رفضا باتا ابدال هذه الليرة بأية قطع نقدية اخرى (١٥) . لذا كان من السهل على الادارة الحليفة ، بقيادة الجنرال اللنبي ، تصفية الورق التركي وجعل استعماله غير قانوني بعد فترة وجيزة جدا من الزمن ، تلك الفترة التي تلت الحرب مباشرة . فقد ترك اللنبي تداول الليرة التركية الورقية كما هو من اجل تمكين السكان من شراء اغذيتهم بعد فترة المجاعة التي مروا بها ، غير ان اللنبي لم يحدد قيمة تلك الورقة التركية بل قام باصدار ورقة النقد المصرية او الليرة المصرية في سوريا ولبنان الى جانب الورق التركي . فأدرك الاهالي ان استخدام الاوراق التركية غير مضمون النتائج ولا تكفله الادارة الحليفة فامتنعوا عن التعامل به . وبين عشية وضحاها ، وجد حاملو الليرات الورقية التركية أنفسهم ، وقد خسروا الجزء الاكبر من ثرواتهم ، ومنيت تلك الليرة بانخفاض متسارع في المبادلات الحرة غير الرسمية بينها وبين الذهب . وبيعت تلك الليرة مقابل ١٨ قرشا ذهبيا لدى وصول الحلفاء الى سوريا ولبنان ، وسرعان ما هبطت قيمتها بعد شهر فقط الى ٩ ق. ذ ثم الى ٦ ق. ذ اي ما يعادل ٤٥ فرنكات فرنسية بينما هي تعادل اصلا ٨٠ (١٦) فرنكا فرنسيا . واختفت الليرة التركية الورق من التداول نهائيا مع مطامع عام ١٩١٩ .

لقد زاد قرار الجنرال اللنبي ، الصادر في ٢ تشرين الثاني ١٩١٨ (١٧) ، من تفاقم الوضع الاقتصادي ، والبلبلة على صعيد التعامل النقدي . ففضى هذا القرار على حصر التعامل النقدي بالقطع الذهبية لجميع الدول وبالقطع الفضية الانكليزية والمصرية والهندية وكذلك التركية ، وبالنقد الورقي المصري فقط . وجعل هذا القرار التداول بالعملة الورقية ممكنا عن طريق البنك الاهلي المصري بمفرده . وخص القرار كذلك هذا النقد الورقي المصري بامتياز السعر القانوني على اساس معادلته بالذهب . وتلت هذا القرار عدة قرارات اخرى حددت الضرائب والالتزامات ورواتب الموظفين على اساس

(١٤) — Voir André Latron « La vie rurale en Syrie et au Liban » . P. 32.

(١٥) يقول ماكسيم نقولا « كانت الاسعار تتراوح بين ٤٥٠ و ٥٠٠ قرشا ورقيا لليرة الذهبية الواحدة عندما كانت جيوش الحلفاء تقترب من بيروت لتدخلها في ٢٢ تشرين الاول ١٩١٨ » المصدر السابق — ص ٤٦ .

— Voir aussi A. Yammine « Quatre ans de misère 1914-1918 » . P. 49.

(١٦) س. حباه — النظام النقدي — ص ٥٢ .

(١٧) راجع القرارين ١١ و ٢١ لعام ١٩١٨ .

القرار السابق اي الذهب والفضة والنقد الورقي المصري دون غيره .
لقد جاء ادخال الورق المصري معادلا للذهب والذي يتبع تقلب الليرة الاسترلينية
آنذاك ، واتخاذها نقدا رسميا بصورة اجبارية ليس للسكان المحليين فحسب بل
وللقوات الفرنسية المرابطة على ساحل سوريا ولبنان كذلك ، مما سبب استياء عاما في
الداخل والخارج . فقد رفض السكان ابدال الورق بالذهب ، كما رفضوا من قبل
الليرة التركية الورقية ، وكانت كارثة تلك الليرة لا تزال تعيش في واقعهم اليومي ،
كما احتج الفرنسيون بشدة على تلك التدابير التي اصدرها الجنرال اللبي . وقام
كليمنصو بوجه نقدا قارس اللهجة للجنرال اللبي في رسالة بعث بها لرئيس الوزارة
البريطانية لويد جورج بتاريخ ١٠ تموز ١٩١٩ ، ونعت اللبي بالتحيز والرعونة وانه
يتصرف كمجرد جنرال انكليزي لا كقائد عام للجيش المتحالفة .

والدافع الاساسي للنقمة الفرنسية آنذاك يجد تفسيره في الحجم الهائل للنققات
العسكرية والمدنية للفرنسيين في سوريا ولبنان بالاضافة الى ضرب نفوذهم المعنوي
لدى السكان المحليين . ومن الصعب فهم قرارات الجنرال اللبي ورد الفعل العنيف
من قبل الفرنسيين الا في اطار التناقض الاستعماري المتجدد بين فرنسا وبريطانيا .
فقد عادت الدولتان المتحالفتان في الحرب الى عداوتهما التقليدية تتنافسان على
اقتسام المنطقة . غير ان هذا التناقض سرعان ما سوي باتفاقية ١٥ ايلول ١٩١٩
تحت ضغط الخطر الداهم للاميركيين من جهة ، ولازدياد نفوذ حركة التحرر الوطني
العربية من جهة اخرى .

ان سوريا ولبنان قد عرفتا ، ما بين اعوام ١٩١٥ و ١٩٢٠ ثلاثة انواع من العملة
الورقية : الليرة التركية الورق التي اغاها الجنرال اللبي في ٢ تشرين الثاني ١٩١٨ ،
والليرة المصرية الورق التي سيلفيها الجنرال غورو في عام ١٩٢١ ، والفرنك الفرنسي
الورق ، الذي سيفرضه غورو في سوريا ولبنان بعد هزيمة ميلسون . بيد ان السلطة
التركية وقرارات جمال باشا ، والسلطة الانكليزية وقرارات اللبي ، فشلت في
فرض الورق النقدي عليهما (١٨) . وحدها قرارات غورو سيكون بإمكانها تثبيت
الورق الفرنسي بالقوة وربط اقتصاد سوريا ولبنان بمجلة النقد الفرنسي .

التكالب على الذهب المدخر في سوريا ولبنان

كان من نتيجة اوضاع ما بعد الحرب العالمية الاولى وحاجة اوروبا الملحة الى
المعدن الاصفر ، ان بدأت حملة واسعة لجمع مدخرات الذهب في سوريا ولبنان
والمناطق المجاورة لهما . تلك الحملة التي بداها الجنرال اللبي عام ١٩١٨ وتمت
فصولا متلاحقة مع الجنرال غورو وويغان وسراي .

(١٨) يقول جورج عشي في اطروحتة « الانتقال من التجارة الحرة الى الانتصاد الموجه » « منذ تشرين
الثاني ١٩١٨ حتى نيسان ١٩٢٠ ، كانت الليرة المصرية والليرة التركية الذهب المملكتين المتداولتين
رسميا في سوريا ولبنان . الاولى في مدن الساحل والثانية في الداخل بصورة عامة » .
— G. Achi « Le passage de la liberté au contrôle... » — Thèse. P. 18.

فبينما كان الجنرال غورو يحاول فرض الفرنك الفرنسي الورقي كعمادل للذهب في بيروت وجبل لبنان وتعميمه على المنطقة الساحلية كلها ، المسماة بالمنطقة الغربية (١٩) ، تمهيدا لاختصاص باقي سوريا لهذا النظام المالي الجديد ، كانت المملكة العربية في دمشق تستحدث نقدا وطنيا بموجب قانون صادر عن الملك فيصل في ١٢ نيسان ١٩٢٠ . وقد حدد هذا القانون الذهب (٢١) كقاعدة وحيدة للنقد السوري الذي جهات وحدته الدينار السوري المساوي ١٠٠ قرشا ذهبيا والذي قسم الى اعشار . كما استحدث ذلك القانون ايضا عملة فضية سورية سميت بالريال . الا ان الاحتلال الفرنسي لسوريا لم يمكن دولة دمشق العربية من وضع ذلك القانون موضع التنفيذ بل زالت تلك الدولة قبل تنفيذه بالذات .

وكان لمعركة ميلون الاثر البارز في ترسيخ النفوذ الفرنسي في هذين البلدين . وفي رأينا ، لا يجوز التسليم بأن انذار غورو ، المعان في ١٤ تموز ١٩٢٠ ، يمكن فصله عن الرغبة الفرنسية الاستعمارية للسيطرة على سوريا وعلى الذهب المتجمع فيها ايام الحرب دون ان تكون لفرنسا هناك أية مزاعم عن علاقات تاريخية او روابط صداقة او اقلية تريد ان تحميها .

فالبنء الخامس من هذا الانذار القاضي بالاعتراف بالعملة السورية اللبنانية التي اصدرها بنك سوريا ثم بنك سوريا ولبنان الكبير فيما بعد ، والتي كانت - حسب نص الانذار - متدولة في المنطقة الغربية ، كان من الاهمية السياسية بحيث يعادل الاعتراف بالانتداب الفرنسي على سوريا بالذات . وفي رأينا ، ان الخسائر التي لحقت بالسكان من جراء ابدال النقد الذهبي بالاوراق التركية ثم المصرية ثم الفرنسية تركت تصليا لدى قطاع واسع جدا من السكان بحيث اضطر الفرنسيون فيما بعد الى اعتماد اساليب اكثر مرونة للوصول الى أهدافهم خاصة وان التقلب المستمر والانخفاض العمودي للفرنك الفرنسي ولليرة السورية - اللبنانية التي ارتبطت به ، جعلت السكان يمتنعون عن الاقبال على تلك الليرة كما امتنعوا من قبل عن الليرة التركية الورقية والليرة المصرية .

فقد تذرعت فرنسا المنتدبة بتطبيق البنود العامة للانتدابات الدولية التي تفرض « على السلطة المنتدبة واجب ايجاد اتصال البلد الموضوع تحت سلطانها الى الاستقلال المالي » (٢١) . لذلك سارعت فورا الى انشاء مصرف دعي بالمصرف السوري ، والذي لم يكن في الواقع سوى البنك الامبراطوري العثماني القديم (٢٢) ، الذي منح الجنرال

(١٩) راجع القرار رقم ١٩٥ المؤرخ في ٢٦ نيسان ١٩٢٠ والقرار رقم ٢٦٤ الصادر في ١٢ تموز من العام نفسه .

(٢٠) — Voir Youssef Khoury « Prix et monnaie en Syrie » — Thèse. P. 48.

(٢١) — M. Stoyanovsky « La théorie générale des mandats internationaux » — Thèse. P. 196.

(٢٢) « لقد دعيت الليرة السورية ، لكنها خصمت لسوريا ولبنان الكبير . اما ما دعي ببنك سوريا ثم ولبنان الكبير ، ثم ببنك سوريا ولبنان ، فليس في الواقع سوى تعبير عن الشركة الفرنسية المسماة سابقا البنك الامبراطوري العثماني . »

جورج عني - المصدر السابق - ص ١٨ .

غورو ، حق اصدار النقود والاشراف على ميزانتي سوريا ولبنان ، والذي سمي منذ البداية الى اخضاع ثروة سوريا ولبنان لنظام البلاد المغلوبة . ولم يكن لليرة السورية - اللبنانية من التسمية سوى الاسم ، لأن هذه اليرة الورقية بقيت مضمونة بفضاء ضعيف جدا من الذهب وكانت فعليا « عملة فرنسية ذات وجه عربي » على حد قول بدر الدين السباعي (٢٢) .

سياسة الانتداب ، في الحقل المالي

ان المتبع لتطور السياسة الفرنسية الانتدابية في سوريا ولبنان يدرك بوضوح ان هذه السياسة دارت ، خلال الفترة الانتدابية الاولى على الأقل ، حول محورين رئيسيين :

أ - اعتماد سياسة الباب المفتوح في التجارة بقصد تمكين الشركات الفرنسية، المدعومة من المفوض السامي الفرنسي مباشرة ، من السيطرة على السوق الداخلية، وارضاء الولايات المتحدة الاميركية طبقا للبند الحادي عشر من صك الانتداب على سوريا ولبنان ، والقصد من هذا التودد ايجاد دعم اميركي وقروض طويلة الأمد لمركز الفرنك الفرنسي المنهار .

ب - تأمين فترة بحبوحة وازدهار اقتصادي في الداخل بقصد اعادة الثقة المالية الى نفوس المواطنين بعد الخسائر الجسيمة التي اصابتهم من جراء التفسير المستمر للعملة . وكان هدف فرنسا الانتدابية في هذا المضمار مزدوجا : الافراج عن الذهب المدخر في الداخل ، واجتذاب اموال المفترين اللبنانيين و اموال بعض اللبنانيين المودعة في الخارج ، خاصة في مصر ، لتوظيفها في لبنان .

ان تلك الاهداف التي اختطتها سياسة الانتداب لنفسها تبرز بوضوح حرص حكومة باريس على عقد اتفاقات تجارية واسعة مع الولايات المتحدة ، وحرصها كذلك على ضرورة اعتراف الولايات المتحدة بانتدابها على سوريا ولبنان (٢٤) . كذلك قامت حكومة باريس بعدة اتفاقيات ثنائية مع حكومات بريطانيا واطاليا وتركيا وغيرها لتشجيع التجارة وزيادة حجم المبادلات مع مرفأ بيروت .

اما على صعيد الداخل ، فكان لا بد من توطيد الأمن ، واعادة الثقة بالاقتصاد اللبناني - السوري . فبدأت ادارة الانتداب تدرس بدكاء كيفية اخراج الذهب المدخر في هذه المنطقة بعدما قضت على المعارضة الوحشية الجديدة في ميلون وقامت بنفي المعارضين خارج اراضي سوريا ولبنان .

وقام الجيش الفرنسي بضرب بعنف كل محاولة للتمرد او العصيان ، ويقضي على العصابات الوطنية الواحدة تلو الاخرى ، ويهدم قرى بكاملها بتهم صغيرة أحيانا، وكان الهدف واضحا : تأمين خطوط المواصلات والطرق التجارية بين الساحل

(٢٢) السباعي - « أضواء » - ص ١٠١ .

(٢٤) تمت التصديقات النهائية على اعتراف الولايات المتحدة بالانتداب بعد اتفاق باريس الموقع بتاريخ ١٣

توز ١٩٢٢ .

والداخل . لقد توطد الأمن فعلا ، خاصة في المناطق الساحلية ، وراح اللبنانيون الموجودون في اميركا وغيرها ، يرسلون الى أسرهم مبالغ كبيرة من المساعدات بالعملة الذهبية والدولارات والليرات الاسترلينية ، بعد ان تمكنوا من استئناف صلاتهم بأقاربهم في الوطن الأم . وكانت نفقات الحملة الفرنسية والانكليزية كبيرة في السنوات الاولى بعد الحرب . كما ان الحرب من جهتها ساعدت على غنى العديد من اللبنانيين والسوريين ، وانتصت من تعداد السكان ، خاصة في الجبل ، الذي خسر ثلث سكانه تقريبا . يضاف الى ذلك ان الحدود الجمركية بين لبنان والداخل كانت مفقودة . كل ذلك ساعد على ايجاد نشاط محلي وأجنبي واسع النطاق . وبرزت مرحلة من الازدهار الاقتصادي في مجالات مختلفة . وتحررت كميات كبيرة من النقد الذهبي المتآخر التي نزلت الى الاسواق كي تشر وتدخل في تحريك التجارة . « وهطلت الليرات على سوريا ولبنان - كما جاء في مناقشات عصبة الأمم - على شكل قطع ذهبية وفضية وورقية » (٢٥) . وكان المستفيد الأكبر من هذه البحبوحة ادارة الانتداب الفرنسي في بيروت التي كانت تصر على فرض الضرائب والميرة والعشور كلها بالذهب . وبدا واضحا ان فائدة ذلك الازدهار تمركزت في ايدي حفنة من المرابين وبعض التجار الوسطاء وجنود الاحتلال (٢٦) . وبدا الاهتمام الفرنسي جدياً باخراج الذهب الى فرنسا عن طريق المؤسسات المالية الفرنسية وحدها المتمركزة في بيروت ، خاصة بنك سوريا ولبنان ، واخراجها من هناك نحو مراكزها في باريس . فجاءت فترة الازدهار تلك ، والتي لم تتجاوز السنتين ، لتساعد عمليا على ابدال الذهب المتآخر بالفرنك الفرنسي الورقي .

لقد قدم الذهب السوري واللبناني ، الذي نقل الى فرنسا خلال فترة هبوط قاسية للفرنك فيها ، فائدة كبرى للراسمال الفرنسي ، اذ ساعد على دعمه دون ان يتمكن من تقديم علاج شاف له . غير ان هبوط الفرنك المستمر وكذلك الليرة الاسترلينية ، كان يفرض العودة الى استخدام الذهب كأساس للتداول النقدي في أوروبا . تلك العودة التي بدأت منذ ١٩٢٢ والتي شملت أوروبا بأسرها ، لم تغير من سياسة فرنسا الانتدابية في سوريا ولبنان اذ استمرت في فرض فرنكها الورقي كعملة معادلة للذهب . وكان لهبوط هذا الفرنك (٢٧) آثار اقتصادية خطيرة على مجمل

(٢٥) — S.D.N. « Procès Verbaux de la C.P.M. ». 1926. P. 116.

(٢٦) يؤكد الضابط نعمان ابو شقرا ، ان العديد من الجنود ، فرنسيين ومحليين ، في منطقة الحولة وصور ومرجعيون ، كانوا يجبرون السكان على دفع العشور والضرائب الاخرى بالذهب . ثم يستبدلون الذهب بفرنكات ورقية من معاشاتهم ويحتفظون بالذهب لانفسهم ويقدمون للحكومة الفرنكات الورقية على اساس انها العملة الوحيدة التي تمكنوا من العثور عليها لدى السكان . (مقابلة خاصة) . ويؤيد هذا القول السيد رابار ، رئيس لجنة الانتدابات في الجمعية الدائمة للانتدابات « ان يوجد في سوريا ولبنان موظفون مارسوا التجارة والمضاربات .. » .

— M. Rappard « Procès Verbaux » — 8ème Session. Février-Mars 1926.

(٢٧) اذا اخذنا شهر حزيران كقاعدة نجد ان سعر الدولار بالفرنك اللبنانية - السورية قد تغير كما يلي « ٦٢٤٩ عام ١٩٢٠ ، و ٦١٤٧ عام ١٩٢١ ، و ٥٧٤٥ عام ١٩٢٢ ، و ٧٩ عام ١٩٢٣ ، و ٩٥٤٤ عام ١٩٢٤ ، و ١٠٤٤٣ عام ١٩٢٥ ، و ١٦٧٠٢ عام ١٩٢٦ .. » يعتبر الفرنك الفرنسي « قروش » . س. حماده - النظام النقدي - ص ٧١ .

الاضاع الاجتماعية في فرنسا بالذات (٢٨) اذ تسبب ذلك الهبوط بارتفاع جنوبي في الاسعار ، مما كان يثل القدرة الاستهلاكية للطبقات الفقيرة . وكان ذلك الهبوط للفرنك من الاسباب التي ادت الى انتصار الكارتيل الذي اطلق عليه اسم كارتيل اليسار في فرنسا في انتخابات ١٩٢٤ بقيادة ادوار هيريو . غير ان هذا الكارتيل ، الذي عرفه كيف يستغل السخط الشعبي في فرنسا للوصول الى حكمها ، لم يحدث أي تغيير جدي في سياسة فرنسا نحو مستعمراتها ، ولم يستطع التخلص من سيطرة البنوك الفرنسية في الداخل .

فالجنرال ساراي ، ممثل هذا الكارتيل في المفوضية العليا في بيروت ، لم يكن أقل حماسا من سابقه في العمل على توسيع نفوذ الرساميل الفرنسية في سوريا ولبنان . وجر باقي مدخراتها الذهبية نحو بنوك باريس . لذا يمكن القول ان سياسة الجنرالات الثلاثة لهذه الفترة كانت تتم بعضها البعض في هذا المجال وكانت تصب في اتجاه واحد : دعم الرساميل الفرنسية على حساب افقار شعوب هذين البلدين . ان كمية المدخرات الذهبية في سوريا ولبنان ، والتي قدرت في عام ١٩١٩ ، غداة دخول القوات الحليفة الى هذين البلدين بحوالي ١١ مليون ليرة (٢٩) تركية ذهبية ، بدأت تتناقص تدريجيا وتختفي بصورة مستمرة ، منذ بدء تطبيق الانتداب الفرنسي عليهما .

فليس من المستغرب بعد ذلك ان يقال « ان سوريا ولبنان قد افرغتا تماما من آخر ليراتهما الجيدة في عام ١٩٣٠ » (٣٠) وان معظم كميات ذلك الذهب قد انتقلت الى فرنسا عبر مؤسساتها المصرفية المتمركزة في بيروت . ذلك ان تصدير الذهب كان محظورا ، من حيث المبدأ ، طبقا للقرار الصادر في ١٠ ايار ١٩٢١ . ولم يسمح باخراج الذهب الا بترخيص من المفوضية العليا ، في حين بقي الفرنك اساس التداول النقدي في سوريا ولبنان . والواقع ان الاذن الخاص من المفوضية العليا كان يهدف اساسا الى القضاء على المضاربة بالذهب وحصر تصديره بالمؤسسات الفرنسية وبالاخص بنك سوريا ولبنان دون سواه .

لقد ادت تقلبات الفرنك الى تفاقم الوضع في السوق السورية ، وخاصة في سوق بيروت . وبالرغم من وجود ما يسمى بالليرة السورية على أساس الفرنك الفرنسي ، فان جميع المعاملات التجارية كانت تجري على أساس الذهب في الداخل والفرنك في الخارج . مما جر الليرة السورية الى انخفاض مستمر بالنسبة لأسعار الذهب (٢١) . وانخفضت قيمة الليرة السورية المساوية لعشرين فرنك فرنسي اساسا من ٦٤٤٥ قرشا ذهبيا او ١٠٣٧ دولارا او ٧٩ ، من الليرة الاسترلينية عام ١٩٢٠ الى ١٦٣١ ق.ذ او ٧٨ ، من الدولار او ١٦ ، من الاسترلينية عام ١٩٢٨ ، الى ٤٦ ،

(٢٨) بر الفرنك الفرنسي بأزمتين حادثتين بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٦ اذ اصيب في الاسواق العالمية بهبوط عمودي واصبح الفرنك معرضا لمضاربات مالية عنيفة .

— Commission des Mandats — Rapport sur l'année 1928. P. 162.

(٢٩) احمد السمان — المصدر السابق — ص ١٠١ .

— A. Latron « La vie rurale... » P. 38.

(٣٠)

— Voir Bulletin des commerçants et industriels français du Levant.
(C.I.F.L.) No. 1 — Janvier 1923. P. 3.

(٣١)

ق. ذ او ٤٥٠٠. من الدولار الاميركي او ١٦١١ من الاسترلينية عام ١٩٤٠ (٣٢). ان عدم استقرار الفرنك الفرنسي خلال الفترة الانتدابية الاولى ، جر الليرة السورية - اللبنانية المرتبطة به الى خسائر اقتصادية باهظة على سوريا ولبنان لان ٩٤٠٣٪ (٣٣) من الاوراق المالية التي كانت مطروحة للتداول في هذين البلدين ، اضحت مرهونة كسندات على الدولة الفرنسية .

المؤسسات المالية والمصارف الفرنسية في بيروت

تميزت فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى في سوريا ولبنان بخلوهما تماما من المصارف الاجنبية باستثناء بعض الفروع للبنك الامبراطوري العثماني العامل برساميل فرنسية وانكليزية . واولى تلك الفروع كان فرع بيروت الذي انشئ عام ١٨٦٣ ثم فرع دمشق ١٨٧٥ ثم فرع حلب ١٨٩٣ ثم فرع طرابلس ١٩٠٤ ، ففرع حمص ١٩٠٨ ففرع صيدا ١٩١١ ففرع زحلة ١٩١٤ (٣٤) .

وقد رافق دخول جيوش الحلفاء في تشرين الاول ١٩١٨ ازدهار واسع في القطاع المصرفي في هذين البلدين . فبعد شهرين فقط على دخول تلك القوات ، وفي ظل حكم الجنرال اللنبي بالذات ، يبادر الفرنسيون في كانون الاول ١٩١٨ الى انشاء اول مصرف لهم في سوريا ولبنان عرف باسم البنك الفرنسي لسوريا (٣٥) . وكانت ابرز الشركات الفرنسية المساهمة في انشاء هذا البنك : « الشركة العامة » و « المصرف العقاري الفرنسي » ، و « المصرف العقاري الجزائري - التونسي » .

غير ان اتفاق ١٥ ايلول ١٩١٩ سرعان ما اطلق ايدي الفرنسيين في السيطرة على جميع النواحي العسكرية والادارية والمالية والاقتصادية في سوريا ولبنان . لذا سارع الفرنسيون الى انشاء بنك سوريا الذي سيتحول الى بنك سوريا ولبنان الكبير ، اثر انتصار الفرنسيين واعلان تجزئة سوريا الى دويلات . وسارع هذا البنك الى التخطيط الشامل لوضع الاقتصادين السوري واللبناني تحت امرته . وفي الواقع ، فان بنك سوريا لم يكن سوى امتداد للبنك الامبراطوري العثماني ، الذي انشئ عام ١٨٦٣ برساميل فرنسية وانكليزية ، وكان الجزء الاكبر من رأسماله فرنسيا . اذ قدر عام ١٨٧٠ بمئة وخمس وعشرين مليون فرنك فرنسي بلغ نصيب الفرنسيين منها ٧٥ مليون مقابل ٥٠ مليون للانكليز (٣٦) . اما مجلس ادارة البنك الامبراطوري العثماني ومقره فكانا في القسطنطينية ويدير من هناك جميع الفروع المنتشرة في أرجاء السلطنة . ويضاف الى مجلس الادارة ايضا لجنة ادارة مركزهما باريس ولندن .

(٣٢) — J. Achi « Le passage de la liberté... » — Thèse Citée. P. 137.

(٣٣) راجع سعيد حماده - النظام النقدي ... ، من ٢٨٨ .

— Voir aussi Louis Cardon « Le régime de la propriété foncière en Syrie » P. 285.

(٣٤) — Boissière « Importance actuelle des intérêts français en Syrie » P. 24.

(٣٥) بدر الدين السباعي - «اضواء» ص ٨٨ .

— L'Asie Française — No. 175 — Juillet 1919. P. 18. (٣٦)

وكان للبنك الامبراطوري امتياز اصدار الاوراق النقدية في تركيا وله امتياز احتكار الذهب ايضا «(٢٧) .

وبنك سوريا الجديد ورث عن البنك الامبراطوري العثماني جميع فروعه في سوريا ولبنان ، واصبح مركزه الرئيسي في باريس ويتبع مباشرة المؤسسات المالية الفرنسية التي ساهمت بانشائه . لذا تميز هذا البنك عن سابقه بعدم مشاركة الانكليز فعليا في رساميله ومجلس ادارته بل اصبح بنكا فرنسيا صرفا مارس الدور السابق للبنك الامبراطوري العثماني بجميع تفاصيله .

وكان لفرنسا غداة الحرب العالمية الاولى ، ٧٩٪ من المصالح المادية والمعنوية في سوريا ولبنان . لذا كانت سياستها تتجه ، بعد الحرب مباشرة ، الى مركزة ما تبقى من المصالح جميعا بين ايدي رساميلها المتغلغلة هناك . « ان المنتجات الفرنسية ، لتحظى بعد الآن ، بالافضية المطلقة على باقي السلع ، شأنها في ذلك شأن المواهب الفرنسية ايضا »(٢٨) .

ان هزيمة ميلون (١٩٢٠) كانت بداية التفضل المصرفي الهائل في سوريا ولبنان . ففي حين كان هذا البلدان يفتقران تماما الى مصارف قبل الحرب ، سوى فروع البنك الامبراطوري العثماني الضعيفة الرساميل ، فان المصارف وبنوك التسليف العقارية سارعت فورا لاستثمار رؤوس اموالها فيهما وقامت بعض المصارف الاجنبية تفتح فروعها لها في بيروت ، كما بدأت تظهر على الساحة بعض المؤسسات المحلية للتسليف العقاري والقروض القصيرة الاجل في نهاية هذه المرحلة بالذات . وحسب احصائيات ١٩٢٢ ، اي بعد سنتين فقط من ميلون ، ارتفع عدد البنوك الفرنسية الى خمسة ، وافتتح مصرفان اجنبيان هما « بنكو دو روما » و « الانكلو بالستين بنك » (البنك الانكليزي - الفلسطيني) فرعين لهما في بيروت منذ ١٩٢١ وبدأت خمس عشرة مؤسسة محلية للتسليف العقاري تنفذ بعض العمليات المالية الصغيرة في بيروت وضواحيها(٢٩) .

لقد بدأت عملية تتمر رؤوس الاموال الفرنسية التي صدرت الى سوريا ولبنان قبل الحرب ، وبدأت معها ، مباشرة بعد نهاية الحرب ، السيطرة التامة على اقتصاد سوريا ولبنان واستغلالهما استغلالا واسعا بالطرق الاستعمارية المعروفة . وبدأت تلك البنوك تسيطر تماما على خطوط السكك الحديدية اللبنانية والسورية والمرافئ وشركة التزام والكهرباء والشركات القطنية والمطاحن والتبغ وكافة الفروع الاقتصادية التي اخضعت تباعا لجبروت الراسمال الفرنسي . غير ان البنك الفرنسي ، الملقب بالبنك السوري ، او بنك سوريا ولبنان ، كان اغنى تلك المؤسسات المالية الفرنسية واشدها نفوذا .

— M. Nicolás « Questions monétaires en Syrie... » P. 21.

(٢٧)

— L. C. Catroux « Le Mandat français en Syrie » P. 30.

(٢٨)

(٢٩) ايلي وجرجي جدمون — الدليل السوري لعام ١٩٢٢ — ص ٤٩ .

١ - بنك سوريا ولبنان الكبير :

عندما خلف هذا البنك الامبراطوري العثماني عام ١٩١٩ ، لم يكن لديه رصيد مالي سوى ١٠ ملايين فرنك كراسمال اساسي(٤٠) . وكانت السنوات الاولى ، قبل ميلون ، سنوات انتظار ودرس لامكانيات تحقيق مختلف العمليات المالية ، لذا اقتصر عمل المؤسسات المصرفية بادية الامر على تليف قصير الامد والقيام باعمال انودائع البنكية . وكانت تلك المؤسسات تحرص ، في البدء ، على عدم توظيف رساميلها الا في الاعمال العامة التي تضمنها الدولة والبلديات الكبيرة التي تتعهدا الدولة رسميا بكفالة مباشرة . وتشجيعا لاعمال الشركات في تلك الفترة ، سارعت الادارة العسكرية الى اعفاء مواد الشركات المستوردة من الضرائب على ان تخضع تلك الشركات في رقابتها الفنية والمالية الى المفوضية العليا . ولكي تضمن البلديات للرساميل الفرنسية تسديد العجز عند وقوعه ، كانت ترهن حصتها التي تدفعها الدولة لها من رسوم المسقفات والتمتع وتجعلها تحت تصرف تلك الرساميل والشركات الفرنسية . وكان المندوب السامي شخصا كليل تلك الدويلات والبلديات(٤١) . الا ان انتصار الفرنسيين في ميلون ، فك الرساميل من عقالها فبدات تتوسع في جميع المجالات الحيوية في سوريا ولبنان وارتفعت رساميل بنك سوريا ولبنان الكبير من ١٠ ملايين عام ١٩١٩ الى ٢٥ مليوناً في كانون الاول ١٩٢٠ و ١١٩ مليوناً عام ١٩٢٨ وذلك بالفرنكات الفرنسية(٤٢) .

وبدا بنك سوريا ولبنان يتحول ، منذ ١٩٢٠ ، الى اكبر مؤسسة مالية في سوريا ولبنان ، في حين بقي مركزه دوما في باريس ، كشركة فرنسية خاصة . فالزبائن الذين كانوا يتجهون سابقا الى البنك الامبراطوري العثماني ، كانوا يسلكون نفس الطريق الى بنك سوريا ولبنان الكبير الذي حل محله «(٤٣)» . لذا فدور هذا البنك لم يتغير فعليا عن دور سابقه اذ ظل يمارس توزيع القروض على الافراد والشركات ، واقراض الدولة التي قدمت له كل حماية رسمية . هذا المصرف لم يكن مصرف دولة يركز بين يديه الاعتمادات ويحدد قيمة الحجم في الاسواق ، كما هو الحال بالنسبة للمصارف المركزية بصورة عامة ، لكن هذا البنك كان الوحيد الذي منح حق الاصدار النقدي في الدول المسماة «الدول المستقلة تحت الانتداب الفرنسي» فاحل مكان الذهب ، وهو عملة البلاد الاصلية ، الفرنك الورقي عن طريق عملة محلية سميت بالليرة السورية - اللبنانية التي رافقت الفرنك في هبوطه المستمر . وقام هذا البنك باصدار كميات هائلة من تلك الليرات بدات فقط بقيمة ١٧٩,٥٥٧ فرنكا في كانون الاول عام ١٩٢٠ لترتفع الى ٢١٥ مليون فرنك عام ١٩٢٢ . في حين ارتفعت موجوداته من الذهب من قيمة ٣٩ مليون فرنك عام ١٩٢٥ الى ما قيمته ٥٠٠ مليوناً

— G. Achi « Le passage de la liberté » . P. 21.

(٤٠)

(٤١) السباعي اضاء - ص ١٦٥ .

(٤٢) سعيد حماده - النظام النقدي - ص ٦٥ . والسباعي المصدر السابق - ص ١٢٠ .

— G. Achi — Op .Cit. P. 21.

(٤٣)

عام ١٩٣٠ (٤٤) . وكتبت صحيفة « البرق » البيروتية في عددها الصادر في ٣١ كانون الاول عام ١٩٢٣ تقول : « منذ بدء التداول بالليرات السورية (في اول ايار ١٩٢٠) حتى ٣١ تشرين الاول ١٩٢٣ ، قدم قسم الاصدار بنك سوريا ولبنان الكبير الى الموازنة الفرنسية عن حساب المفوضية العليا في بيروت مبلغ ٦٤٠٦٨٦٠٠٠ ليرة لبنانية - سورية مقابل نقود معدنية (اغلبها من الذهب) وظفت باسم هذا المصرف في باريس . وخلال هذه المرحلة ذاتها لم يتعد المبلغ الاجمالي المقدر لحصة سوريا ولبنان من التجارة الخارجية اكثر من ٣ ملايين ليرة . . . » (٤٥)

بهذا المقطع يتكشف دور البنك في عملية اخراج الذهب من سوريا ولبنان الى فرنسا عن طريق تغطية ورقية تمنح للمفوضية العليا في بيروت مقابل قيمتها بالذهب تدفع لدى المركز الرئيسي للبنك في باريس . وهذا ما يفسر عودة فرنسا المستمرة الى فرض العملة الذهبية كعملة اساسية للتداول في سوريا ولبنان خلال ١٩٢٢ و ١٩٢٤ و ١٩٢٦ مع مراقبة اي تصدير للذهب او اية مضاربة فيه بفعل الضغط العالمي على الذهب في ذلك الحين . ويتبين بوضوح ان المستفيد الاكبر ، ان لم نقل الوحيد ، كان بنك سوريا ولبنان الكبير الذي استطاع مركزه آخر الليرات الذهبية المدخرة في سوريا ولبنان بين يديه . فليس من الصدفة بشيء ان يلجأ المفوضون السامون ، بعد ست سنوات من فرض استعمال الفرنك الفرنسي الورق ، الى اجبار الاهالي على دفع الفرامات بالذهب دون سواه . لقد كانت خطة الفرنسيين في هذا المجال ذكية ومدروسة ، نفذت بمرونة فائقة من قبل بنك سوريا ولبنان الكبير . فتمكن هذا البنك من تحويل قسم كبير من نقوده المالية الورقية هنا الى نقود ذهبية احبابه في باريس كما قام التجار الفرنسيون بعمل مماثل . وكانت المؤسسات المالية الفرنسية هي الوحيدة التي يحق لها اصدار سندات مالية قابلة للتحويل الى ذهب . وبنك سوريا ولبنان الكبير لم يعلن عن ربحه الصافي الحقيقي ، والارقام التي تقدم بها غير صحيحة اطلاقا اذ قدرت ارباحه فقط لعام ١٩٢٥ بحوالي ٢٤٩٠٨٠٧٨٥ مليوناً من الفرنكات مقابل ٢٤٩٧٥٠٦٢٤ عام ١٩٢٦ و ١١٦٠١٧٦٠٤٦٠ (٤٦) مليوناً لعام ١٩٢٨ حسب التصريح الرسمي لادارة هذا البنك . والارباح ، في اعتقادنا ، اعلى من ذلك بكثير .

فالربح يحول الى ذهب لصالح الراسمال الفرنسي في باريس ، اما الخسارة فيتحملها السكان المحليون . لذا كان لاببدال الذهب بالورق النقدي المستمر في الهبوط آثار مرعبة في سوريا ولبنان كما في باقي المستعمرات الفرنسية . وكان نتيجة ذلك ان اضطر السكان الى استخدام العملة الورقية الفرنسية وحدها ، بعد غياب النقد الذهبي خاصة والمعدني عامة من التداول (٤٧) .

(٤٤) — Voir A. Sammân — Op. Cit. P. 101 et H.C. Rapport sur l'année 1922. P. 105.

(٤٥) البرق — ص ٢ .

(٤٦) س. حماده — النظام النقدي — ص ١١٥ . مأخوذ عن التقرير السنوي لبنك سوريا ولبنان الكبير — السنوات المذكورة .

(٤٧) السباعي — انواء — ص ١١٦ .

وقد تركزت الخسائر التي تكبدها الاقتصادان اللبناني والسوري من جراء تحويل الذهب إلى أوراق نقدية ، خلال الفترة بين أعوام ١٩١٩ و ١٩٢٦ بمبلغ عشرة ملايين ليرة (٤٨) تركية ذهباً من جراء الهبوط المستمر لسعر الفرنك الفرنسي . وارتفعت الفوائد العادية على القروض التي تمنحها البنوك الفرنسية العاملة في بيروت إلى ١٥٪ على الرهونات وتجاوزت ٦٠٪ على الفوائد الربوية وأحياناً ٧٥٪ (٤٩) في بعض أرجاء سوريا .

إن هزيمة الحركة الوطنية السورية أزالت العراقيل من أمام الفرنسيين للانتقال من تداول النقد الذهبي إلى تداول الفرنك الفرنسي الورقي . وقامت المؤسسات المالية الفرنسية ، وبشكل خاص بنك سوريا ولبنان الكبير ، باستدراج الذهب من جيوب السكان إلى البنوك الباريسية . وقامت تلك المؤسسات طيلة العهد الانتدابي ، باستغلال الأغلبية الساحقة من سكان البلاد على نطاق واسع . كما نشأ على هامش تلك المؤسسات ، وبارتباط وثيق معها ، مؤسسات مالية محلية ومرابون انتشروا ، كونه الطاعون ، في القرى اللبنانية والسورية ، يبحثون عن الذهب . فلعبوا بذلك دوراً بشعاً في استغلال الفلاحين وإفراغ الأرياف من المدخرات الذهبية الكثيرة التي كانت فيه قبل الحرب واثرائها . أما الليرة السورية - اللبنانية التي أصدرها بنك سوريا ولبنان الكبير منذ ١٩٢٠ فقد ولدت في حالة من التبعية التامة له وبالتالي للفرنك الفرنسي استمرت فيها حتى نهاية الانتداب .

لقد عبّر هنري دو جوفنيل بالذات عن أهداف بنك سوريا ولبنان الكبير بقوله : « أن البنك السوري يعتبر سوريا ملكاً له » (٥٠) . وبالرغم من صدور التشريعات القاضية باستخدام باقي العملات المضمونة بالذهب ، كان هذا البنك يجبر المتعاملين بالنقد السوري على إجراء تسديداتهم بالذهب وحده (٥١) ، رغم وجود قرارات المفوضين السامين . لقد كان هذا البنك بالفعل دولة مستقلة ، لا عن شعوب المنطقة فحسب ، بل عن قرارات المفوضين السامين الفرنسيين بالذات وكانت البنوك الفرنسية تدير سياسة باريس بالذات .

ب - المؤسسات المالية الفرنسية الأخرى :

صحيح أن بنك سوريا ولبنان الكبير شكل أكبر تروست مالي استفل واستثمر اقتصاديات سوريا ولبنان لمصلحته الخاصة واستطاع نقل كميات كبيرة من ذهب البلاد إلى فرنسا، غير أن هذا البنك لم يكن وحده في الساحة المالية في هذين البلدين، بل كان إلى جانبه مؤسسات مالية فرنسية أخرى ، أصغر منه شأنًا دون شك وأقل أهمية ، لكنها لعبت دوراً أساسياً في مخططات الرساميل الفرنسية العاملة هنا .

(٤٨) س. حماده - المصدر السابق - ص ٢٨٨ .

(٤٩) - A. Sammân - Op. Cit. P. 123.

(٥٠) أورد هذا القول - السباعي - « أضواء » - ص ٩٥ .

(٥١) - R. de Gontaut-Biron « Sur les routes de Syrie ». P. 171-172.

فقد استقر بنك التسليف العقاري السوري ، وهو فرع لبنك الشركة العامة الباريسية المشهورة ، في بيروت منذ أواخر ١٩١٩ ، برأسمال قدره ستة ملايين فرنك فرنسي (٥٢) . وسرعان ما توسع في أرجاء سوريا فأقام له فروعاً او وكالات في حلب منذ آب ١٩٣٠ ، ودمشق منذ حزيران ١٩٣١ ، وطرابلس منذ حزيران ١٩٣٣ .
والشركة العقارية لسوريا ، التي أسسها الكونت كريستاتي في بيروت منذ عام ١٩٢٢ ، بلغت رساميلها ١٠ ملايين (٥٢) فرنك فرنسي في تلك السنة .
وانشئ بنك التسليف العقاري للجزائر وتونس في بيروت خلال عام ١٩٢١ برأسمال قدره ٧ ملايين فرنك (٥٤) .

ولعب بنك التسليف الليوني دوراً اقل من دور الشركة الام في الدول الواقعة تحت الانتداب الفرنسي . اذ يعود تاريخ هذه الشركة في البلاد الى زمن طويل وكانت تشرف فعلياً ، منذ القرن التاسع عشر على صناعة الحرير في لبنان .
وبصورة عامة ، يمكن القول ان هذه المؤسسات المصرفية الفرنسية قد اتجهت ، بشكل خاص ، نحو التسليفات المالية القصيرة الاجل ، ونحو مشاريع المواصلات والسياسة والمرافئ وشركات التأمين والسكك الحديدية والكهرباء وكانت قروضها محصورة في بيروت خاصة ولم تشكل اية مزاحمة جدية للبنك التروست .

يضاف الى هذه المؤسسات المالية بنك التسليف الزراعي ، الذي خلف المصرف الزراعي العثماني ، واوقف الحلفاء نشاطه عام ١٩١٩ . هذا البنك كان يعمل برساميل فرنسية منذ تأسيسه عام ١٨٩٨ في القسطنطينية . وكانت له فروع متعددة في مراكز الولايات ما عدا جبل لبنان المصرفية . « غير ان فائدته اقتصرت على عدد ضئيل من الوجهاء وكبار الملاك الاقطاعيين الذين استطاعوا ، بفضل نفوذهم السياسي ، الاستفادة من بعض تليفاته (٥٥) . لذلك سارع الفرنسيون مجدداً الى اعادة هذا البنك منذ ١٩٢٤ تحت اسم البنك الزراعي لدولة لبنان الكبير ، والذي لم يختلف عن سابقه سوى بالتسمية . الا ان هذا البنك ، نظراً لضآلة الرساميل الموظفة فيه ، لم يبدأ اعماله الا في بداية عام ١٩٢٦ . وللدلالة على « ضخامة » القروض التي كان يمنحها هذا البنك نورد هذا المقطع من كتاب « برجيه - ليفرو » حيث يقولون : « واقق (اي البنك الزراعي) عام ١٩٢٦ ، على منح مزارعي بعلبك والبقاع قروضا وصلت في مجموعها الى ١٦٧٠٥٨٣ ليرة لبنانية - سورية ورقاً . وقد استفادت ١٢٥ قرية من هذه التليفات » (٥٦) . اما رأسمال هذا البنك فبلغ ٢٦٩٠٠٠ ليرة سورية ورق في عام ١٩٢٦ ولم يقدم اية فوائد للمزارعين الفلاحين لأن البنك لا يعطي قروضا الا مقابل رهن على الارض على الا يتجاوز المبلغ الالف ليرة سورية تدفع على مدى

(٥٢) السباعي - اضواء - ص ٨٨ .

(٥٣) السباعي - اضواء - ص ١٢١ .

(٥٤) السباعي - اضواء - ص ١٢٠ .

(٥٥) - Louis Cardon « Le régime de la propriété foncière en Syrie ». P. 256.

(٥٦) - Berger-Levrault « La Syrie et le Liban sous l'occupation et le Mandat français... ». P. 248.

اما اوزو فيرفع الرقم الى ١٦٩٠٥٠٠ ليرة سورية موزعة على ١٢٥ قرية .

- R. O'Zoux « Etats du Levant... ». P. 271.

خمس سنوات وتكون الغاية من القرض « استصلاح مساحة كبيرة من الاراضي » (٥٧) .
فتمشيا مع سياسة الفرنسيين في الريف اللبناني - السوري شكل هذا البنك أداة هامة لدعم الاقطاعيين الموالين للانتداب . ولم يرق هذا البنك بأي دور ايجابي في سبيل تطوير الريف او القيام بمشاريع زراعية وسدود ، حتى ان معظم المصادر والمراجع لتلك الفترة تتجاهل او تجهل وجود هذا البنك بالذات .

المكانة الاولى للشركات والمؤسسات المالية الفرنسية

صرح الجنرال غورو لمرافقه الكولونيل كاترو بقوله : « فتحنا الطريق امام رساميلنا . فينبغي ان يكون للبضائع الفرنسية المقام الاول » (٥٨) . بهذا الوضوح ، اتسمت السياسة الفرنسية منذ ١٩٢١ . وبالرغم من ان بنكو دو روما ، اقام له فرعا في بيروت الى جانب فرع البنك البريطاني الفلسطيني منذ ١٩٢١ ، فان هذين المصرفين لم يكن بإمكانهما الاستفادة من وجود الفرنسيين في ادارة الانتداب في بيروت ، بل على العكس من ذلك ، فرض المندوبون السامون الفرنسيون تدابير صارمة ضد البنوك الاجنبية الاخرى طوال فترة الانتداب ، والقوا كل اشكال المضاربة معها واخضعوا هذه البنوك لاشرافهم المباشر والمستمر .

من هذا المنطلق بالذات يمكن فهم الدور الضئيل لتلك المؤسسات المصرفية والشركات الاجنبية غير الفرنسية في سوريا ولبنان . فهناك ٧٠ ألفا من الجنود الفرنسيين مستعدون لحماية المصالح المشتركة للرساميل الفرنسية دون سواها ، وقرارات الجنرال غورو ، خاصة القرار ٨٦٥ الصادر في ٢٧ ايار ١٩٢١ (٥٩) جاءت تحمي الماركات الصناعية الفرنسية من مضاربة الماركات الاخرى ، ومحكمة التجارة في بيروت ، جعل جميع قضاتها من الفرنسيين دون سواهم .

صحيح ان القرار ١٣٢٩ الصادر في ٣٠ آذار ١٩٢٢ ، اباح التسليف مقابل رهن عقاري ، الا ان هذا القرار بالذات ينوه صراحة الى انه « لا يزال محظورا على الادارات والمصارف والشركات التجارية وشركات التسليف المضمون برهن او التسليف العقاري او الزراعي ، ان تقوم ، دون تصريح خاص ، بعمليات تسليف عقاري تزيد مدتها على عامين اثنين » (٦٠) . وكتب عمر الجابري معلقا على هذا القرار بقوله : « في الواقع ان التصاريح الخاصة لا يمنحها المندوب السامي الا لعدد ضئيل من المؤسسات الفرنسية البحتة وهي : بنك سوريا ولبنان الكبير ، وبنك التسليف العقاري للجزائر وتونس ، وبنك التسليف العقاري لسوريا » (٦١) . واستمرت هذه الشدة في التشريعات ضد المصارف الاجنبية حتى ١٩٢٤ بسبب الازمات المتلاحقة والانخفاض

— R. O'Zoux — Ibid. P. 268.

(٥٧)

— L. C. Catroux « Le Mandat français en Syrie... » P. 30.

(٥٨)

— Boissière « La Syrie : importance des intérêts français... » P. 5.

(٥٩)

— O. Djabry « La Syrie sous le régime du Mandat... » P. 125.

(٦٠)

— O. Djabry — Op. Cit. P. 125.

(٦١)

المستمر لفرنك الفرنسي . ومنذ مطلع هذا العام اقتضت مصلحة الفرنسيين - كما يقول غونتو - بيروت - « التخفيف من قسوة التشريع النقدي في سوريا ولبنان والسماح بأن تحرر العقود بين الافراد بكل انواع العملات المضمونة بالذهب وليس بالفرنك وحده » (٦٢) .

فبدأت الشركات والمؤسسات المالية الفرنسية المدخومة مباشرة من المفوضية العليا ، حملة مركزية للسيطرة على جميع القطاعات المنتجة في سوريا ولبنان وانتزاع الامتيازات التي نالتها شركات اوربية سابقا من الدولة العثمانية . فالشركة العثمانية لخطوط سكة حديد دمشق - حماه (٦٣) وتمديداتها ، التي انشئت عام ١٨٩١ براسمال قدره ١٥ مليون فرنك بأغلبية ساحقة للفرنسيين ، أصبحت منذ ١٩٢٤ شركة فرنسية مغلقة . يضاف ايضا ان الشركة العثمانية لترام بيروت - المعاملتين ، والتي تأسست عام ١٨٩٢ براسمال اغليته الساحقة للبلجيكيين ، تحولت برمتها الى شركة فرنسية مغلقة ابتداء من ١٩٢٣ . اما شركة حصر التبغ والتبناك ، وهي شركة عثمانية انشئت منذ ١٨٨٣ برساميل فرنسية في الغالب ، والتي حصلت على امتياز زراعة وتصنيع التبغ في كافة انحاء الامبراطورية العثمانية باستثناء متصرفية جبل لبنان ، قام الجنرال ويغان بمنح هذه الشركة امتياز زراعة التبغ والاتجار به في جبل لبنان ايضا منذ اول آذار ١٩٢٣ باسم « منوبول التبغ » على ان تدفع للمفوضية العليا مبلغا قدره عشرون مليون فرنك فرنسي (٦٤) عن المدة الواقعة بين اعوام ١٩١٨ و ١٩٢٣ لقاء منحها حصر التبغ والتبناك في كافة أرجاء سوريا ولبنان .

ودفعت هذه الشركة مبلغ ثلاثة ملايين فرنك عن عام ١٩٢٤ عن دولة لبنان الكبير بمفردها ، ثم قامت بدفع مبلغ ٢٤ مليوناً في عام ١٩٢٦ ، ودفعت ١٥ مليوناً عام ١٩٢٧ و ٢٢ مليوناً عام ١٩٢٨ و ٢٠ مليوناً عام ١٩٢٩ عن جميع الدولات السورية ولبنان الكبير (٦٥) . ودفعت جميع المبالغ منذ عام ١٩٢٦ بالفرنك الورقي للمفوضية العليا مباشرة بعد ان أعفيت من الدفع لصندوق الدين العام (٦٦) .

لقد اوضحت مدفوعات الريجي جزءا كبيرا من ميزانية الدولات ولبنان الكبير (ولا تزال حتى اليوم في لبنان) على حساب خراب الفلاحين في البلدين لا سيما في لبنان المتصرفية او الجبل حيث كان السكان يعتمدون كثيرا على زراعة التبغ وتصنيعه والاتجار به . غير ان ادارة الحصر الفرنسية ركزت بين يديها كل زراعة التبغ في سوريا ولبنان منذ اول آذار ١٩٢٣ . فمنعت الاتجار بها خارج نطاقها بالذات ،

(٦٢) — R. de Gontaut-Biron « Sur les routes de Syrie ». P. 171-172.

(٦٣) تعرف هذه الشركة D.H.P. أي Damas-Hama et Prolongements.

وقدر الربح الصافي لهذه الشركة بمليونين فرنك عام ١٩٢٥ وباربعة ملايين عام ١٩٢٦ .

راجع - السباعي - اضواء - ص ١٤٨ .

— Voir aussi J. Ducruet « Les Capitaux européens... » P. 236-239.

(٦٤) السباعي - المصدر السابق - ص ١٨٢ .

(٦٥) السباعي - المصدر السابق - ص ١٨٢ .

(٦٦) بموجب اتفاقية اول آذار ١٩٢٣ كانت الريجي توزع الارباح كما يلي ٢٠ - ٤٠٪ للحكومات و ٢٠ -

٢٥٪ لمندوق الدين و ٢٠ - ٣٥٪ للشركة بحسب ارباح الشركة - راجع السباعي - المصدر

السابق ص ١٨٢ .

« ومنحتها السلطة المنتدبة كل تأييد لأن الشركة تعود لمالكين فرنسيين » (٦٧) .

ومن المفيد هنا ان نشير الى شركة فرنسية من نوع خاص ، شركة لم تقم بأي عمل في سوريا ولبنان ، وبالرغم من ذلك فقد اجبرت السكان فيهما على دفع مبالغ طائلة لخزانتها ، تمويضا لها عن « خدماتها » في الامبراطورية العثمانية التي كانت تشكل سوريا ولبنان « جزءا » من وحدة اراضيها . تلك الشركة هي ادارة الدين العثماني العام المسماة D.P.O. (٦٨) . هذه الشركة في الواقع لها صفة مزدوجة فرنسية - انكليزية ، غير ان معظم المساهمين فيها كانوا من الفرنسيين اذ كانت حصة فرنسا من الدين العمومي العثماني ٦٠٪ من مجموع الدين العثماني العام في حين قدر الراسمال الفرنسي العامل في سوريا ولبنان قبل الحرب بحوالي ٢٠٠ (٦٩) مليون فرنك فرنسي .

لقد سارعت هذه الشركة الى الاستفادة من الوجود العسكري الفرنسي لسيطرتها على امتيازات واسعة في سوريا ولبنان ، كما حصلت على امتيازات سابقة في داخل السلطنة بالذات منذ ١٨٨٣ ، وهو عام انشائها ، اذ سيطرت على امتياز الملح ورسوم المشروبات الروحية ورسوم الطوابع ، وعشر الشرائق وضريبة التمتع في كافة أرجاء السلطنة قديما . وبعد هزيمة تركيا في الحرب ، قام مجلس ادارة الدين العمومي العثماني بنقل « باقي » متوجبات السلطنة على الدولات التي نشأت منها ، ومنها سوريا ولبنان ، منذ ٦ تشرين الثاني ١٩٢٤ بعد ان وزعت معاهدة لوزان ، المعقودة في ٢٤ تموز ١٩٢٣ ، حصة سوريا ولبنان من هذا الدين كالاتي :

« على مجمل البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسي ان تحمّل ، خلال اعوام ١٩٢٥ و ١٩٢٦ و ١٩٢٧ ، عبئا ماليا سنويا مقداره ٧٩٨ الف ليرة تركية ذهبية ، يخفض الى ٦١٢ الف ليرة لعام ١٩٢٨ والى ٥٩٤ الف ليرة لعام ١٩٣٠ . هذه المدفوعات ستستمر في الانخفاض التدريجي حتى الايفاء الكامل لمختلف الاستدانات والتسليفات التي شكلت الدين العمومي العثماني » (٧٠) . و « توزعت الحصة المترتبة على لبنان الكبير بنسبة ٤٧٪ من الدين العام المتوجب على سوريا ولبنان مقابل ٣٦٪ على دولة سوريا و ٨٪ على دويلة العلويين ، و ٧٪ على لواء الاسكندرون و ٢٪ على دويلة جبل الدروز » (٧١) .

اما اشتراك سوريا ولبنان الكبير في الديون العثمانية السابقة لتاريخ ١٧ تشرين الاول ١٩١٢ فقد تحددت بنسبة ٨٠٣٧٨٪ من مجموع الدين العمومي العثماني وبنسبة ١٠٪ عن الفترة التي تلت هذا التاريخ حتى اول تشرين الثاني عام ١٩١٤ (٧٢) .

— E. Jung « La révolte arabe » P. 160. (٦٧)

— Dette Publique Ottomane. (٦٨)

(٦٩) دوريو - المصدر السابق - ص ٨ .

(٧٠) القسم الثاني من هذه الاتفاقية . البند ٤٦ .

(٧١) القسم الثاني من اتفاقية لوزان - البند ٤٧ .

— Voir M. Desjardins « Le problème syrien... » P. 152 et Charles Ayyoub « Les Mandats A... » P. 144.

— Burckard « Le Mandat français en Syrie et au Liban » P. 145. (٧٢)

وتجدر الإشارة هنا الى ان مجموع الدين العثماني العام قدر عام ١٩١٨ بمبلغ ٤٦٢ مليون ليرة تركية ذهبية قدم الى تركيا منها فقط ١٤٤ مليوناً من الليرات الذهبية ، اما الباقي والبالغ قيمته ٣١٨ مليوناً فقد قدم بالعملات الورقية . بيد ان المجلس العام للدين العثماني فرض كامل المبالغ بالليرات التركية الذهبية ، مضيفاً اليها الفوائد القانونية على هذا الاساس ، ثم جرى تقسيمه على السكان الذين كانوا يخضعون سابقاً للامبراطورية العثمانية ويشكلون جزءاً منها . وقد قدر النائب كاستيلاني حصة فرنسا من هذا الدين بأكثر من ٦٠٪ من اصل ١٦٠ مليون ليرة تركية ذهبية تعادل آنذاك ٣ مليارات و ٧٥٠ مليوناً من الفرنكات الذهبية ، تخص دائنين فرنسيين دون غيرهم . وبلغت تقديرات كاستيلاني للفائدة السنوية عن تلك الحصة بحوالي ٣٨ مليوناً من الفرنكات الذهبية الفرنسية (٧٣) .

ان ادارة الدين العمومي العثماني والتي ليست في النهاية سوى مصلحة الراسمالين الفرنسي والبريطاني بشكل خاص ، قامت بأساليب تجاوزت كل أشكال الاستعمار السابقة في سوريا ولبنان الكبير وبقيت فترة طويلة من الزمن تقطع ١٠٪ (٧٤) من ميزانية هذين البلدين .

أسس دولة راسمالية في لبنان المعاصر

لقد كان تركز الشركات والمؤسسات المالية في ايد فرنسية احدى السمات المميزة ولا شك لنمو الراسمال المصرفي في لبنان في ظل الانتداب الفرنسي . غير ان هذا التركز الذي تحقق لصالح الفرنسيين انعش على جنباته بورجوازية لبنانية (٧٥) محلية سرعان ما تعززت مكانتها في الفترة الانتدابية اللاحقة . وتشكلت تلك البورجوازية بشكل خاص من المرابين والمصرفيين المحليين وبعض كبار التجار واغنياء الحرب . وكانت هذه البورجوازية تتوزع على وكالات الشركات الاجنبية ، خاصة الفرنسية منها ، وترتبط بها مباشرة . وبالإضافة الى الوكالات التي حصلت عليها ، كانت تمارس ايضاً اعمال الاقراض والتسليف لاماد قصيرة . وقد استفادت من الوجود العسكري - الفرنسي لتوسع رقعة استقلالها من بيروت ، حيث كانت تتركز

(٧٣) — L'Asie Française. Supplément du No. 225. Septembre-Octobre 1924.

(٧٤) — R. O'Zoux « Etats du Levant... ». P. 155.

(٧٥) تكلم دومنيك شفاليه على بورجوازية مسيحية في جبل لبنان منذ القرن التاسع عشر — تلك البورجوازية التي شكلت الوسيط المفضل للتجار الأوروبيين .

— D. Chevallier « La Société du Mont-Liban... ». P. 209.

كذلك يوضح « يساري لبناني » العوامل التي جعلت من قطاع التجارة العنصر المحدد الاساسي لتطور الراسمالية في لبنان منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر واهية اعمال الواسطة والوكالات في الاثراء السريع لكبار التجار والمتفذين والتي دعت الاقتصاد اللبناني نحو التبعية للاحتكارات الاجنبية .

راجع « يستاري لبناني » « اليسار الحقيقي واليسار المغامر » . المقطع التحليلي البالغ الدقة « لحة تاريخية لتشكل البنية الاقتصادية في لبنان » ص ١٢٤ وما يليها .

بشكل رئيسي ، الى الداخل اللبناني والسوري . كما قامت بتجارة الترانزيت ايضا ، في حين كان بعض افرادها يفرضون أنفسهم على تجار المدن الاخرى في سوريا ولبنان كوسطاء بينهم وبين الرساميل الاجنبية التي احتكروا وكالاتها . وقد استفلت هذه الفئة النشطة فترة افراغ النقود الذهبية من الداخل الى فرنسا عبر بيروت لتجمع ثروت طائلة ، اذ قامت بأعمال الصيرفة وصناعة الحلى والمجوهرات . وقامت بفتح بعض « المصارف المحلية » الخاصة بها ، والتي اعتمدت على التليف بشكل خاص وتقديم القروض على سندات او بضائع ، وتليفات مقابل رهن . ومن أبرز تلك المؤسسات التي كانت على الساحة اللبنانية آنذاك : مؤسسة فرعون وشيخا ، مؤسسة طراد وشركاه ، مؤسسة صباغ واولاده ، مؤسسة جبيلي واولاده وشركاهم ، مؤسسة قصعة ، مؤسسة صفر وطراد ، مؤسسة فرحي وطراد ، مؤسسة سليم خياط ، مؤسسة باسيل ريس ، مؤسسة داغر وبطرس ، مؤسسة هوتر ، مؤسسة زلوم ، مؤسسة بدوي ، مؤسسة دبس وفياتي ، مؤسسة ا. حداد ، مؤسسة شارل قرم (٧٦) . وأياً كان دور تلك المؤسسات المالية المحلية خلال تلك الحقبة ، فقد بدأت تبرز كقوة اقتصادية هامة ، وتدعم أسس بورجوازية لبنانية كانت في أساس حركة سياسية كبيرة ، بدأت موالية للانتداب ومعارضة لكل حركة وحدوية، لتبدأ معارضتها له بعد اشتداد عودها في المرحلة التالية للانتداب .

ان عهد المصرفية قد سهل دخول الراسمال الاجنبي الى جبل لبنان ، وفي استيراد الرساميل ، التي سيطرت على الحرير والطرق والمراقيء والكهرباء والمياه والسكك الحديدية وغيرها ، وجرى استيراد نماذج ادارية ومالية من الغرب الراسمالي خاصة من فرنسا . الا ان السياسة الانتدابية لفرنسا سعت مباشرة الى نقل أسس تلك الادارة الراسمالية الفرنسية بمرتها الى سوريا ولبنان . فنقلت اليهما الدستور ونظام التعليم وتنظيم الجيش وتنظيم الإدارة ، والنظام النقدي وغيرها على نفس النظم التي كانت مطبقة في فرنسا سابقا . ان انشاء الجمهورية اللبنانية في ظل الانتداب الفرنسي عقب اعلان الدستور عام ١٩٢٦ ، قد رسخت السيطرة الفرنسية على جميع اقتصاديات سوريا ولبنان وربطتها تبعيا باقتصاد فرنسا كما رسخت في الوقت نفسه بذور الدولة الراسمالية اللاحقة في لبنان المعاصر وبذور بورجوازية لبنانية محلية عرفت كيف تتوزع على الرساميل الاجنبية المتوافرة في بيروت وتنتعش على هامش علاقاتها التبعية معها .

بعض الملاحظات

شهد لبنان وسوريا تنافسا استعماريًا وتكالبًا على مدخراتهما الذهبية منذ دخول القوات التركية الى لبنان ، وانتهى التنافس بانتصار الفرنسيين الذين فرضوا عملتهم الورقية على أساس معادل للذهب واجبروا السكان على التعامل بها بعد ان اجبروا سابقا على التعامل بالليرة التركية الورق والليرة المصرية الورق . وكانت خسائر

(٧٦) ايلي وجرجي جدمون - الدليل السوري لعام ١٩٢٢ - ص ٤٩ .

السوريين والبنانيين كبيرة جدا من جراء تلك العملات الورقية التي لم تكن تتمتع بالتغطية الذهبية والاستقرار في اسعارها . لذا اظهرت سياسة الفرنسيين مرونة كبيرة لادخال الثقة الى نفوس السكان بقصد الافراج عن مدخراتهم الذهبية بعد المحاولات المستمرة والفاشلة لارغامهم على التعامل بالنقد الورقي المساوي للذهب . ولجأوا خلال هذه الفترة الى فرض الذهب كعملة اساسية في دفع الضرائب والعشور مما اجبر السكان على تقديم ما لديهم تباعا للفرنسيين حتى فرغ الريف تماما من آخر نقوده الذهبية بعد عشر سنوات فقط على بدء الانتداب . وقام المفوضون السامون الفرنسيون ، من الموالين لليمين او الموالين للكارتيل اليساري ، بتدعيم سيطرة الراسمال الفرنسي على جميع المرافق الحيوية في سوريا ولبنان .

واوكلت ادارة الانتداب امر اصدار النقود الى بنك سوريا ولبنان الكبير الذي احتكر معظم خيرات الانتداب عن طريق سيطرته المباشرة على اقتصاديات سوريا ولبنان . هذا البنك لم يكن بنك الدولة ، وبالرغم من ذلك اعطته سلطات الانتداب جميع صلاحيات بنك الدولة . فكانت الارباح تذهب الى صناديقه الخاصة بمبادلات ذهبية على مقره في باريس ، اما الخائر فيتحملها سكان سوريا ولبنان . ان مثل هذا البنك كان الشكل المشوه للبنك المركزي الذي بقي لبنان يفتقر الى وجوده حتى الستينات ، اي بعد الاستقلال بزمان طويل . غير ان الاعمال المصرفية التي قام بها هذا البنك ساهمت الى حد كبير في ادخال العديد من التشريعات المالية على اسر رأسمالية حديثة تبنتها لاحقا دولة الاستقلال . ولم تستفد جميع البنوك والمؤسسات المالية الفرنسية بنفس القدر من وجود الانتداب بل على العكس من ذلك، فقد انحصرت منافع الانتداب بينك سوريا ولبنان الكبير الذي أصبح أكبر تروست مالي في البلدين في حين اقتصر دور باقي البنوك الفرنسية على تسليفات وقروض قصيرة الامد ولم تلقب دورا هاما في اية مجالات اقتصادية في دويلات الانتداب . ان بنك سوريا ولبنان حد بالفعل من تطور جميع البنوك الاخرى من مختلف الجنسيات بما فيها الفرنسية ولعب دور السمكة الكبيرة التي ابتلعت باقي المؤسسات والشركات العاملة في الحقل المالي في سوريا ولبنان .

اما آفاق تطور المؤسسات الاجنبية غير الفرنسية فكانت ضيقة جدا حيث ان الفرنسيين فرضوا عليها قيودا صارمة واجبروها على الخضوع مباشرة لاشراف بنك سوريا ولبنان ، مما جعل تلك المؤسسات المالية تفقد قدرتها على المزاحمة والتوسع فبقي دورها هامشيا طيلة الفترة الانتدابية الاولى ، ولم يظهر لها اثر ملموس في مجالات الاقتصاد اللبناني آنذاك .

لقد اقتصر التوظيفات المالية ، فرنسية كانت ام غير فرنسية ، على القروض وتسليف التجار ، وتمركزت اساسا في بيروت، في حين افتقرت جميع القطاعات الاقتصادية المنتجة الى الدعم المالي الضروري لتنشيطها . فخارج بيروت ، وخارج مرفأها وما يتعلق به بشكل خاص ، انعدمت توظيفات البنوك والمؤسسات المالية الاجنبية . فدعم قطاع التجارة كان الهدف الرئيسي لتلك البنوك العاملة في بيروت ، في حين اضحت باقي القطاعات ، خاصة الصناعة والزراعة ، في ركود قاتل بعد ان

سدت المزاحمة وقلة الرساميل آفاق تطورها .

اما المؤسسات المالية المحلية فقد نشأت على هامش المؤسسات المالية الاجنبية بالذات وفي قطاع التجارة والتليفات دون سواها ، وولدت في حالة من التبعية المطلقة لتلك المؤسسات الاجنبية . فهي ليست شريكا لها ولا مزاحما بل مجموعات صغرة من التجار والمرايين والصاغة والمهاجرين الاغنياء حاولوا ترسيخ اقدامهم على الساحة المالية البيروتية برساميل قليلة سرعان ما بدأت تزداد تباعا بفضل ارتباطاتها لتجارية المتعددة الجوانب والربا الفاحش الذي كانت توظف فيه أموالها بشكل نسليقات قصيرة الامد . فالراسمال المحلي كانت له مصلحة مزدوجة : فهو من جهة يريد التملص من سيطرة الرساميل الاجنبية القوية والتي لا يستطيع مزاحمتها ، ومن جهة أخرى كان بحاجة ماسة للوجود الانتدائي العسكري كي ينمو ويتوسع . لذا كان اصحاب هذه الرساميل من اشد المناصرين للانتداب في مرحلته الاولى فقط وسينقلب العديد منهم ضد الانتداب لاحقا الى منادين بالاستقلال وضرب تبعية لبنان الوحيدة الجانب للفرنسيين .

ان الليرة السورية - اللبنانية كانت تابعا امينا للفرنك الفرنسي ووثيقة الارتباط بتقليباته . فهي لم تستفد قط من فترات نهوضه التي لم تظهر خلال تلك الفترة بل رافقت هذا الفرنك في جميع مراحل هبوطه التي تجاوزت نصف قيمته احيانا . ان فرض تلك الليرة على اساس معادل للذهب لم يكن فعليا الا على اساس معادل للفرنك الفرنسي غير المضمون بتغطية ذهبية كافية . لذا كان على دولة الاستقلال ان تفصم هذه التبعية المطلقة للفرنك الفرنسي وتعيد لليرة ضمانة ذهبية جديدة ومعادلات مستقلة عن التبعية الوحيدة الجانب للفرنك .

ان هذه البنوك والمؤسسات المالية الفرنسية والاجنبية والمحلية اُرسيت بالفعل اسس دولة رأسمالية حديثة في لبنان استمدت تشريعاتها في الحقل المالي من آخر تطورات الرأسمالية الحاكمة في باريس ، وستسهم لاحقا في تنشيط القطاع المالي في لبنان بعد الاستقلال ودخول الرساميل العربية بوفرة الى مؤسساته المالية الضخمة المتمركزة في بيروت دون سواها والتي كانت المستفيد الاكبر من خيارات الانتداب .

□ الفصل الثالث □

ولادة قطاع جديد: الاصطيفاف

□ في جوار بيروت □

بيروت قاعدة بحرية للملاحة الدولية

لا ريب ان الجبال اللبنانية من اجمل مناطق شرقي البحر الابيض المتوسط مناخا ومناظر طبيعية خلابة . وكانت هذه الجبال ملتقى الاغنياء من المصريين والسوريين والعراقيين والفلسطينيين . فقد اعتاد هؤلاء تمضية الصيف بكامله في ربوع الجبال اللبنانية منذ ما قبل الحرب العالمية الاولى . وسارعت فرنسا المنتدبة الى استغلال هؤلاء « الزبائن » الدائمين كي تشر اقامتهم في لبنان لصالح خزائنه وبالتالي الخزانة الفرنسية . لذا سعى الجنرال غورو ، فور اعلانه عن ولادة دولة لبنان الكبير ، الى توطيد الامن بحزم ، ومد شبكة واسعة من الطرق الحديدية والمواصلات ، وشجع البعثات الاثرية على التنقيب في لبنان الذي يشكل تاريخه مصدرا هاما لوجود اكتشافات اثرية كبيرة على مر العصور ، وقامت المفوضية العليا باستصدار مراسيم متعاقبة اعفت بموجبها الفنادق والفيلات ورؤوس الاموال العاملة في الصناعة الفندقية والسياحة من الضرائب ، كل تلك الخطوات دفعت هذا القطاع الى النمو والانتشار بشكل متسارع .

ولجأ الجنرال غورو كذلك الى عقد اتفاقيات سياحية مع شركات النقل والملاحة البحرية ، الفرنسية وغير الفرنسية العاملة في المنطقة كي تفتح لها فروعها في بيروت . وبلغ تعداد تلك الشركات اربع عشرة شركة عام ١٩٢١ منها سبع شركات فرنسية الجنسية هي : شركة النقل البحري ، والشركة الفرنسية للملاحة التجارية ، والشركة البحرية في القرب ، وشركة تجمع ممتاجري السفن ، والشركة البحرية للتفريغ والشحن ، والشركة البحرية الوطنية ، وشركة جيه GILLET وأولاده (١) .

اما الشركات السبع الاخرى المتعددة الجنسيات فكانت « الشركة الخديوية » و « برنس لاين » و « موسى لاين » و « لويد تريستينو » و « الشركة البحرية

(١) — H. C. « Ce que tout Français doit savoir de la Syrie et du Liban... » P. 3-5.

الايطالية» و « الشركة الايطالية للمواصلات البحرية » و « شركة الملاحة الايونية » (٢) .
وبدأت تلك الشركات تعمل على نقل المسافرين بانتظام على خطوط بيروت وتؤمن
مواصلات دائمة من حوض المتوسط اليها ، وبدأ عدد السواح يتكاثر اسبوعيا منذ
ذلك التاريخ .

الخطوط الحديدية تربط بيروت بالداخل

وسارعت المفوضية العليا بفترة وجيزة جدا الى ترميم جميع خطوط المواصلات
التي اصبحت خلال الحرب في سوريا ولبنان . وما ان انتصف شهر تموز ١٩٢١ حتى
اعيد السير على خطوط بيروت - دمشق ، ورياق - حمص ، وحمص - طرابلس .
وقامت بأعمال الترميم تلك « الشركة العامة لخطوط السكك الحديدية » وقدرت
تكاليف الاصلاحات بحوالي ٢١ مليون فرنك فرنسي (٣) . لقد كانت المفوضية العليا
تخطط بجديّة لتوسيع تجارتها وربط المناطق بعضها ببعض ، وهذا ما يفسر صرف
مبلغ ٢١ مليون فرنك فرنسي بعد عام واحد فقط من معركة ميسلون ، على خطوط
المواصلات وحدها . واجريت الدراسات ايضا لمد خط حديدي بين بيروت وطرابلس ،
ينتهي العمل فيه عام ١٩٢٤ ويمدد ايضا فيوصل بيروت بالناقورة . وأعدت الدراسات
كذلك لمشروع انشاء خط حديدي منن يصل بيروت بـبرمانا، لكن المشروع لم ينفذ (٤) .
وارتفعت زنة البضائع المنقولة على تلك الخطوط الحديدية بشكل متصاعد اذ بلغت
الصادرات عليها الى الخارج ١٧٧ طنا عام ١٩٢٣ مقابل ٦٨٢ طنا عام ١٩٢٤ اي
زيادة ٦٠٪ تقريبا خلال عام واحد مقابل واردات عليها قدرت بحوالي ٣٣٩ طنا
عام ١٩٢٣ و ٤٠٩١ طنا عام ١٩٢٤ (٥) .

وقامت لجنة شبكة الخطوط الحديدية التابعة لجيش المشرق كذلك بترميم
واستغلال خطوط الترام اللبنانية التابعة للشركة العامة البلجيكية والتي سرعان ما
أفلست فنالت امتيازاتها شركة الخطوط الحديدية الفرنسية منذ ١٩٢٤ . وقد
وضعت اللجنة قيد الاستخدام خط بيروت - المعاملتين منذ ١٩٢٢ بطول ١٩ كيلومترا
فقط ، وبقي الترام اللبناني محصورا في مدينة بيروت دون ان يتعداها الى المناطق
المجاورة .

غير ان قلة موارد الخطوط الحديدية ، وبطء سير القطارات بسبب صعوبة
التيال اللبنانية ، وعدم انتظام السير عليها خاصة في فصل الشتاء بعد تراكم
الثلوج وكثرة الانهيارات ، حد موضوعيا من امكانية استخدام القطارات لنقل
المسافرين والسواح . ورغم الجهود التي بذلتها ادارة المفوضية العليا وشركة الخطوط
العامة لسكك الحديد ، فان شبكة الخطوط الحديدية في لبنان لم يطرأ عليها تغيير
جدي منذ ذلك التاريخ . والخطوط الحديدية التي أقامها الفرنسيون في لبنان بقيت

— H.C. « Ce que tout Français... » . P. 7-10. (٢)

— H.C. « La Syrie et le Liban en 1922 » . P. 144. (٣)

— H.C. « Rapport sur l'année 1923-1924 » . P. 40. (٤)

— Bulletin de C.I.F.L. No. 1 de 1923 P. 19 et No. 9 de 1924 P. 19. (٥)

دون زيادة بسبب طبيعة لبنان الجبلية بالذات والتي لم يستخدم التكنيك الحديث حتى اليوم لتجاوز وعورتها .

النقل بالسيارات يختصر المسافات

بيد ان تلك الصعوبات الجدية لتطوير النقل بالقطار والترام تفسر جزئيا تنامي دور النقل بالسيارات . فرعة الانتقال بها وسهولته ، وراحة المسافر ، جعلت الناس يفضلون السيارة للتنقل ولحمل السلع والبضائع القليلة الوزن وغير المربكة في الحمل . فانتع استخدام السيارات بوتائر عالية منذ الحرب العالمية الاولى وبدأ ينتظم بشكل نقلات وكاراجات لها سفريات منظمة في الداخل والخارج(٦) . وشجعت المفوضية العليا عملية شق الطرق نحو القرى وذلك باستخدام اليد العاملة المحلية والسخرة العينية واستخدام سجناء الحق العام ، وذلك باشراف الجهاز الفني في ادارة الانتداب(٧) .

وتعددت الطرق المحلية والرئيسية بشكل هائل في تلك الفترة . فباستثناء الطرق ذات الاهمية المحلية القروية في جبل لبنان ، لم يكن في لبنان قبل عام ١٩١٤ سوى طريقين رئيسيتين للمواصلات الطويلة في لبنان هما : طريق بيروت - صور التي فتحتها الشركة الفرنسية العامة لشق الطرقات في الامبراطورية العثمانية ، وطريق بيروت - دمشق ، التي نفذتها كذلك شركة فرنسية وبدأ استخدامها منذ ١٨٦٥(٨) يضاف اليهما ايضا حوالي ٥٠٠ كلم(٩) حتى عام ١٩١٢ ، من الطرقات الضيقة والجبلية السيئة الصيانة في جبل المتصرفية .

وباعتراف المعمرين الذين عايشوا تلك الفترة ، وتقارير المفوضية العليا وبعض المختصين ، فان السيارة ، في عام ١٩١٨ ، كانت تحتاج الى يومين(١٠) لقطع مسافة المئة كيلومتر تقريبا التي تفصل بيروت عن طرابلس .

لقد قامت المفوضية العليا بتأمين حركة مواصلات واسعة جدا منذ ١٩٢٠ . وغدت طرق بيروت - صور ، وبيروت - طرابلس ، وصور - الناقورة ، وبيروت - دمشق ، وطرابلس - حمص ، تعمل بانتظام في عام ١٩٢٢ . وحتى عام ١٩٢٦ ، كان قد تم تنفيذ واصلاح الطرق التالية : الطريق الساحلية الناقورة - اسكندرونه ٥٧ كلم ، والطريق البقاعية حاصبيا - زحلة - بعلبك - حمص (٢٦٠ كلم) ، وطريق صيدا - مرجعيون - حاصبيا - القنيطرة - عزرا - السويداء (١٧٠ كلم) ، كان قد اكمل منها ٥٠ كلم فقط منذ عام ١٩١٩) ، وطريق بيروت - شتورة - دمشق (١٢٠ كلم) وفرع

— H.C. « Rapport sur l'année 1922 ». P. 149. (٦)

— H.C. « Rapport sur l'année 1923-1924 ». P. 39. (٧)

— H.C. « La Syrie et le Liban 1919-1927 ». P. 170. (٨)

— Correspondance d'Orient — No. 219. P. 531. (٩)

— H.C. « Rapport sur l'année 1922 ». P. 147. (١٠)

يتجه الى حمص عن طريق بعلبك ، وطريق طرابلس - حمص (١٢٠ كلم) (١١) .
وينوه تقرير ١٩٢٣ - ١٩٢٤ الى عصبة الامم انه بانشاء طريقين جديدين في
منطقة عكار هما طريق العبد - حلبا ، وطريق حلبا - القبيات ، أصبحت دولة لبنان
الكبير تشتمل في عام ١٩٢٤ على ١٥٠٠ كلم من شبكة المواصلات الداخلية (١٢) .
نضيف الى ذلك ، ان المفوضية العليا قامت بعقد اتفاقيات سياحية مع بغداد
وطهران بدأت بموجبها رحلات اسبوعية منتظمة من بيروت الى بغداد ، على ان تعبرها
ممرتين في الشهر فتصل حتى طهران (١٣) .

الازدياد الهائل في عدد السيارات

لا ريب ان توسيع الطرقات القديمة واصلاحها ، وشق طرق جديدة الى معظم
القرى دفع اعداد السيارات العاملة في لبنان بشكل خاص الى ارتفاع عمودي وفي
منتهى السرعة . ففي حين كان تعداد السيارات في لبنان وسوريا لا يتجاوز عدد
اصابع اليد الواحدة في عام ١٩١٤ (١٤) تتركز في مدينة بيروت دون سواها ، فان
العدد سيرتفع الى مئة سيارة في مطلع ١٩١٩ والى الف سيارة في دولة لبنان الكبير
وحدها في عام ١٩٢١ والى ١٢٠٠ سيارة ايضا في لبنان بمفرده عام ١٩٢٣ . ثم
قفز الرقم الى ٣٧٠٠ عام ١٩٢٦ ثم الى ٦٠٠٠ سيارة عام ١٩٢٨ مع اضافة ٢٥٠
شاحنة كبيرة للنقل البري ، وذلك ايضا في لبنان وحده (١٥) .

وقد قدر سليمان الجميل تعداد السيارات في لبنان الكبير بحوالي ٣٧٦ سيارة
عام ١٩٢١ و ٥٢٩١ سيارة عام ١٩٢٨ (١٦) . في حين قدر مورغان جونز مجموع
السيارات التي وصلت الى مرفأ بيروت حتى عام ١٩٣١ بحوالي ١٨٢١١ سيارة
مشيرا الى ان اكثر من نصف هذا العدد بقي في لبنان وحده (١٧) .

صحيح ان التقديرات في هذا المجال ليست بالغة الدقة ، لكن جميع الاحصائيات
مقاربة في تحديد العدد الضئيل للسيارات في سوريا ولبنان بعيد الحرب العالمية
الاولى والاشارة الواضحة الى الارتفاع الهائل في ازدياد تلك الارقام . لذا لن نتوقف
على تعداد تلك الاحصائيات بقدر ما يهنا الخط العام لتطور مبيع السيارات واسباب
هذا التطور والقوانين الاجتماعية التي دفعت اليه .

ففي اواسط عام ١٩١٨ كان في بيروت ١٤ سيارة فقط غير محددة الماركات .
اما في عام ١٩٢٣ فكان فيها ١٢٧٥ (١٨) سيارة ما بين سيارات نقل صغيرة وكبيرة ،

-
- M. Desjardins « Le problème syrien au point de vue économique » . P. 143. (١١)
— H.C. « Rapport sur 1923-1924 » . P. 39. (١٢)
— Richard Thourmin « La géographie humaine de la Syrie Centrale » . P. 203. (١٣)
— S. Himady « Economic Organization of Syria » . P. 9. (١٤)
— L'Asie Française — Janvier 1932. P. 35. (١٥)
— Souleiman Gemayel « L'évolution du budget libanais » . P. 15. (١٦)
— J. Morgan-Jones « La fin du Mandat français en Syrie et au Liban » . P. 25. (١٧)
— Bulletin de C.I.F.L. — No. 2 de 1923 — P. 21-23. (١٨)

وسيارات لنقل الركاب عرفنا منها ٩٤٩ سيارة أميركية الصنع و ١٤٦ فرنسية و ١١٢ ايطالية و ٢٩ انكليزية و ٢٩ المانية ، ٨ سيارات نمساوية الماركة ، وواحدة فقط من صنع سويسري وأخرى من صنع بلجيكي .

وقد قدر استيراد السيارات التي مرت بمرفأ بيروت في الأشهر الثلاثة لعام ١٩٢٧ بحوالي خمسمئة سيارة منها ٣٠٠ ذات صنع اميركي ومئة فرنسية و ٢٠ ايطالية(١٩) . وكانت أكثر أنواع السيارات الفرنسية شيوعاً من ماركات رينو ، ستروين ، برليه . ومن صنع ايطالي كانت ماركات فيات ، وانسلدو ولانسيا . أما السيارات الاميركية الرائجة فكانت ماركات بويك ، هيدسون ، اسكس ، كرايزلر ، شفروليه ، فورد ، وناش ، ودودج .

أما على صعيد الآليات ذات المحرك ، سواء الثقيلة منها أم الخفيفة ، الفخمة أم العادية ، فكان عددها يتزايد أيضاً باستمرار من اسبوع لآخر . ولم يكف مرفأ بيروت عن استقبال العديد منها . وحتى نهاية هذه الفترة ١٩٢٦ ، كانت الولايات المتحدة الاميركية ذات الامتياز الاوسع انتشاراً في تصدير هذه الاصناف الى سوريا ولبنان .

لقد كان للاميركيين اليد الطولى في اغراق الاسواق اللبنانية بجميع أنواع المحركات دون مزاحم جدي سوى عدد قليل من المحركات الطليانية التي تمركزت بنجاح في هذه الاسواق .

أما المحركات الفرنسية فكانت قليلة الانتشار خارج دوائر المفوضية العليا والجيش . وكان عدد قليل من الناس يقطنون سيارات فرنسية الصنع ولا تتجاوز نسبتهم ٥٪ فقط على حد تقدير الفرنسيين انفسهم . ويقول غونتو - بيرون الذي اورد هذا الرقم : « ان ايأ من الفرنسيين لا يمكنه ايراد هذه النسبة دون مرارة قاتلة »(٢٠) . ويشير استاذ الحقوق في جامعة القديس يوسف الى هذه المرارة بحسرة اكبر فيقول : « ماذا فعلنا ؟ لقد نظمنا حركة السير ، فوقف شرطي مدرب بعناية يوجه ما لا يحصى من سيارات البويك والكاديلاك والفراهام والدودج التي تسير في خطوط مدهشة عبر شوارع بيروت(٢١) .

أما عن قطع الغيار لتلك السيارات فتقول « دو سان بوان » ، الفرنسية ايضاً ، « ان قطع غيار السيارات وكذلك الوقود ، حتى عام ١٩٢٧ ، كانت تجلب جميعها من الخارج . ومن اين ؟ من الولايات المتحدة الاميركية لا من فرنسا »(٢٢) .

لقد عرف الاميركيون كيف يتمركزون بثبات في هذه التصديرات الى مرفأ بيروت وبالمقابل ، رافق استيراد السيارات ، الاميركية منها وغير الاميركية ، استيراد للمحروقات التي يحتل البنزين المقام الاول فيها ، وهذا الاستيراد يكاد يكون حكراً على الاميركيين . وبدأ استهلاك المحروقات يتزايد بسرعة . فمن اقل من ٩٥ ألف طن

— Bulletin de C.I.F.L. — No. I de 1927. P. 142. (١٩)

— R. de Gontaut-Biron « Sur les routes de Syrie ». P. 7. (٢٠)

— Louis Jalabert « La Syrie et le Liban: Réussite française ? ». P. 162. (٢١)

— V. de Saint Point « La vérité sur la Syrie ». P. 62. (٢٢)

عام ١٩٢٧ ، ارتفعت الكمية الى ١٢٠ الف طن عام ١٩٢٩ نتصل الى ١٥٠ الف طن عام ١٩٣٠ (٢٢) ، استهلكت بكاملها في سوريا ولبنان . ولم يكن ينافس الاميركيين في هذا المجال سوى كميات قليلة من بترول رومانيا الذي كان للاميركيين نصيب وافر في انتاجه وتسويقه . لقد عرف الاميركيون كيف يتغلبون في الاسواق التجارية اللبنانية ، بفعل قوة رساميلهم الهائلة من جهة ، وسياسة الباب المفتوح التي فرضوها على الفرنسيين من جهة اخرى . وكان واضحا منذ البداية ان الاميركيين في هذا الميدان كانوا اكثر المستفيدين على الاطلاق دون ان يهتموا ماديا او معنويا في نفقات الانتداب وادارته واحتفظوا لأنفسهم بأفضلية تامة في مجال بيع السيارات والمحركات والوقود في الاسواق اللبنانية طيلة عهد الانتداب .

وقد قدرت جمعية التجار والصناعيين الفرنسيين في اشرق ن مبيعات البترول بلغت عن شهر آب ١٩٢٥ لوحده مبلغ ٦٨٥،٦٠٨،٩٤٦ (٢٤) قرشا سوريا - لبنانيا اذ بيع برميل البترول المؤلف من صفيحتين سعة كل منهما ١٨ ليتر ، بسعر ٤٤ قرشا سوريا - لبنانيا بالمفرق .

اما على صعيد اسعار تلك السيارات فكانت سيارات ذات التنوع الاميركي الاكثر مبيعا والاسهل في الدفع على اقساط . وقدرت اسعار تلك السيارات كالآتي: (٢٥)

السعر بالليرات المصرية	الماركة
٥١٠	بويك
٤٤٠	هيدسون
٢٤٠	اسكيس
٢٣٥	كرايزلر
٢١٠	شيفروليه
١٥٥ ليرة تركية ذهبية	فيورد
٤٨٠ ليرة تركية ذهبية	ناش

من هذا الجدول يتبين لنا ان سيارات شفروليه كانت الاكثر مبيعا لأنها الاقل ثمنا ، كذلك سيارات فورد ، في حين كانت البويك والهيدسون حكرا على الاغنياء دون غيرهم . ومما لا شك فيه ان عدد السيارات المياعة في لبنان لم يكن ينجم اطلاقا لا مع ثروة البلاد ولا مع الخدمات الاجتماعية المطلوبة من تلك السلع بل عززت قطاع النقل الخاص على حساب انعدام النقل العام تماما واضحت هذه السمة من ابرز خصائص قطاع النقل في لبنان طيلة فترة الانتداب وبعدها . ان وسائل النقل تلك قد لعبت دورا بارزا في نقل السواح والحجاج ، كما

— R. Thoumin « La géographie humaine... ». P. 95. (٢٢)

— Bulletin de C.I.F.L. du Août-Septembre 1925. P. 32. (٢٤)

— Bulletin de C.I.F.L. — No. I de 1927. P. 142. (٢٥)

ان التأثير الاجتماعي لزيادة عدد تلك السيارات المستخدمة لنقل الركاب كان ذا دلالة هامة . فقد ترك بعض صفار التجار والعمال والحرفيين اعمالهم السابقة ، خاصة في المدن ، لينخرطوا كسائقين او باعة في محطات البنزين او عمال ميكانيك سيارات دون اختصاص مسبق . ومهما قيل في الثروات التي كان يمتلكها بعض هؤلاء الناس والتي سمحت لهم بشراء سيارة كي يعمروا عليها ، فان الاغلبية الساحقة منهم قد ارتبطت بشركات بيع السيارات عن طريق التسهيلات الكبرى بالدفع التي قدمها ممثلو الشركات الاميركية خاصة لزبائنهم اذ كانت سندات الدفع تقسط المبالغ وفوائدها الى اثني عشر شهرا او ثمانية عشر شهرا او اربعة وعشرين شهرا (٢٦) مما ضاعف عدد المبيعات من جهة ، وعدد العاملين في قطاع النقلات من جهة اخرى ، الذين ارتبطوا بحالة التبعية المطلقة لأصحاب تلك الشركات ، اذ ان عددا قليلا جدا منهم استطاع وفاء ديونه وفوائده تلك الديون وارتهن السائق للسيارة التي يعمل عليها دون ان تكون له ملكية فعالية لها بل على امل ان تصبح له في المستقبل . بيد ان اسعار المحروقات المرتفعة جدا ، وقلة عدد الركاب ، والمزاحمة بين العاملين في هذا القطاع ، والاقساط المترتبة عليه وفوائدها ، والضرائب المباشرة وغير المباشرة التي كان يدفعها ، جعلت احلام الاغلبية الساحقة من هؤلاء السائقين تبقى حلما بعيد التحقيق . هذا الشكل من الاستغلال الذي قامت به الشركات الاميركية ، تحت انظار وسمع الادارة الانتدابية الفرنسية ، سيبقى طيلة عهد الانتداب ويزداد شراسة بعد مطلع الاستقلال حتى اليوم .

اثر المواصلات في نمو قطاع الاصطيف

ان تطور وسائل النقل ، البحري منه والبري ، السكك الحديدية والطرق المعبدة ، قد ادى دورا رئيسيا في التوسع التجاري والمالي لفرنسا بشكل خاص . فبفضل البواخر والقطارات والسيارات كانت البضائع الفرنسية والاوربية والاميركية تدخل على نطاق واسع ، لا للبنان الكبير فحسب ، بل وايضا الى سوريا والعراق وايران وداخل الجزيرة العربية . وبالمقابل ، تهلت عملية نقل المنتوجات الزراعية والمواد الخام من الداخل الى فرنسا وكنكترا والولايات المتحدة وايطاليا والمانيا وغيرها . كما ان تلك المواصلات لم تقتصر فائدتها على النواحي الاقتصادية وتبادل البضائع ونقل الافراد فحسب بل تعدتها ايضا الى الاحتكاك المباشر بالصناعات الاوروبية الحديثة والتعامل معها فكريا وعمليا بحيث ان المواصلات « ساعدت على تحرير اللبناني من الارتباطات القاسية التي فرضتها عليه بيئته الطبيعية القاسية » (٢٧) كما جعلته ينتظر فصل الصيف ويرصد مجيء المصطافين العرب والسواح الاجانب كي يجذبهم الى المقهى الذي اقامه لهم او الكاراج الذي فتحه لاصلاح سياراتهم ، او المطاعم التي تقدم لهم اشهى المازات والمأكولات . لقد جعل الاحتكاك المتواصل بهؤلاء

— R. Thoumin « La géographie humaine... » P. 94.

(٢٦)

— R. Thoumin « La géographie humaine... » P. 203.

(٢٧)

المصطافين من ساكن تلك المناطق تاجرا من نوع جديد . تاجر يفتش عن الربح في كل شيء : في ايجار المنزل ، في المطاعم والملاهي ، في الخضراوات ، في حفلات الطرب والكيف ... الخ . وقامت السيارات السياحية ترصد هذا الموسم كذلك ، فتؤمن حركة مواصلات دائمة ليلا ونهارا تربط بيروت بمراكز الاصطياف القريبة منها . وتشير مجلة « آسيا الفرنسية » : « ان الف سيارة سياحية قد بيعت في بيروت وحدها حتى اوائل عام ١٩٢٢ » (٢٨) .

وبالفعل ، كانت أغلبية السيارات التي بيعت في لبنان الكبير خلال الفترة الزمنية الممتدة ما بين ١٩٢٠ و ١٩٢٦ سيارات سياحية خاصة لنقل الركاب . وحسب احصائيات صلاح علي « فان مجموع السيارات التي بيعت في لبنان وحده بلغت حتى ١٩٣٥ حوالي ١١٧١٦ سيارة منها ٩٨٩٥ سيارة نقل ركاب (تاكسي) مقابل ١٨٢١ سيارة خصوصية فقط . اما باقي الدويلات السورية فلم يتجاوز عدد السيارات فيها جميعا خلال تلك الفترة ٧٧١٦ سيارة فقط » (٢٩) .

يضاف الى ذلك ان « الشركة الشرقية للنقل » عندما قررت منذ ١٩٢٣ تنظيم رحلات اسبوعية بالسيارة بين بيروت وبغداد بطريق دمشق - تدمر ، جعلت من بيروت محطة صيفية بحرية لموظفيها في بغداد . وارسلت الشركة لموظفي الادارة البريطانية في الانتداب على العراق تقول ان باستطاعتهم « التمتع مع أسرهم بهواء جبل لبنان ومناظره الخلابة بأقل من مسافة يومين بالسيارة » (٣٠) . المفوضية العليا الفرنسية من جانبها قامت بدعوة المصطافين العرب الاغنياء الى « قضاء فصل الصيف في بلدهم الثاني لبنان » . وساهمت بمبلغ ١٠٠ الف فرنك (٣١) من ميزانية دولة لبنان الكبير لعام ١٩٢٣ لاحداث نهضة كبيرة في الصناعة الفندقية . والفت لجنة سياحية لدراسة وتقديم الاقتراحات التي من شأنها ان تجتذب اكبر عدد ممكن من المصطافين خلال فصل الصيف الى جبل لبنان، ولتحسين طرق المواصلات الى مصايف الجبل، ولمراقبة تعريفات الفنادق والسيارات كذلك . واقترح ادمون بلبيل جائزة لمن يكتب مقالا عن « تعميم الاصطياف في لبنان وتحسينه تحسينا حيا ظاهرا » وجعل للفائز هدية هي « قام حبر مذهب » (٣٢) فانبرت اقلام عدة « غير مذهبة » تدبج المقالات الطوال عن مناخ لبنان وعذوبة مياهه وكرم اهاليه وحسن ضيافتهم العربية . وقامت مناطق الاصطياف تبني فنادق فخمة لا تيمنا « بالفينيقية والفينيقيين » بل بأسماء عربية واضحة ، خاصة المصرية منها ، حين كان المصريون يفتدون بالقطار الى خيفات ثم ينتقلون بالسيارات الى لبنان صيفا . فارتفعت فنادق بأسماء الاهرام والجيزة ومصر والكرنك والنيل وغيرها في جزين وبحمدون وعاليه وصوفر وباقي مناطق الاصطياف . لقد

— L'Asie Française — No. 201 — Avril 1922. P. 178.

(٢٨)

— Salah Essaley « L'état actuel de l'économie syrienne » — Thèse. P. 204.

(٢٩)

— H.C. « Rapport sur 1923-1924 » . P. 36.

(٣٠)

— H.C. « Rapport sur 1923-1924 » . P. 36.

(٣١)

(٣٢) راجع : الشرق — الجزء ٢٥ لسنة ١٩٢٧ — مقالة الاب لويس شيخو « تعميم الاصطياف في لبنان » .

ص ٢٨٩ — ٢٩٥ .

كان لاغنياء المصريين خاصة والعرب عامة دور أساسي ومحدد في ولادة قطاع الاصطيف في لبنان وتنميته .

دور بيروت في امتصاص خيرات الاصطيف

ادركت ادارة الانتداب منذ البداية اهمية هذا القطاع فعملت على دعمه ورفعت موازنات الاشغال العامة في دولة لبنان الكبير تباعا من ١٨٠.٤٩٤.٥ فرنك عام ١٩٢٤ الى ٩٦.٤٦٠.٧٨٧ عام ١٩٢٥ ، الى ١٦٤٢١٩٠٩٤ فرنك عام ١٩٢٦ (٣٢) ، وصرف القسم الاكبر منها على شق الطرقات وتعبيدها . ودفعت بلدية بيروت الى القيام بأعمال موزية لأعمال ادارة الانتداب فأعدت ترميم الاحياء الوسطى من المدينة التي خربتها الحرب ، وشجعت الفنادق والمطاعم باعفائها من ضريبة المستقفات وأعدت تنظيم شركتي الغاز والترام القديمتين ، وأمنت الكهرباء ليلا ونهارا وسواها من الخدمات البلدية . فبيروت في هذا المجال هي العاصمة ايضا وهي التي كانت مركز حركة الاصطيف بالذات ، كما هي مركز الادارة والتجارة والثقافة والمصارف للبنان وجميع الدويلات السورية . صحيح ان جبل لبنان كان ملتقى المصطافين العرب اكثر من اي منطقة لبنانية اخرى ، غير ان اولئك المصطافين كانوا ينزلون بيروت باديء الامر ثم ينتقلون الى المنحدرات المحيطة بها . لذا فالمنطقة المجاورة لبيروت، والتي لم تكن افضل من المناطق الاخرى من الناحية المناخية ، هي التي اجتذبت غالبية المصطافين آنذاك .

فتارة تتسع قرى زراعية صغيرة في تلك المنحدرات القريبة من بيروت كعاليه وبيت مري ، لاستقبال المصطافين ، وتارة اخرى تنشأ فنادق في بقاع لا شيء فيها يساعد على سكنى الانسان كضهور الشوير وصوفر . كما ان عددا من الاسواق المحلية التقليدية القريبة من بيروت بدا يتحول الى مراكز للاصطيف كسوق الغرب مثلا .

فالقرب من بيروت كان شرطا أساسيا لاستثمار البيئة الطبيعية تجاريا بمعنى ان الاهتمام كان ينصرف الى اختيار ارض جبلية ذات مناخ معتدل وعلى مقربة من بيروت ، تشرف على البحر ، فيبنى فيها فندق وعدد من المنازل الريفية . ثم يأتي بائع خضار وبقال وخباز ليقيموا قرب الفندق . وسرعان ما تأتي شركة امريكية فتبني محطة لبيع البنزين ، وينقل ميكانيكي من بيروت فيفتح كاراجا هناك لتصليح السيارات ، ويلاحظ قروي ان من يستأنه يشهد المرء منظرا رائعا لصنين والبحر معا ، فيحول قسما منه الى مقهى على الطريق . وهكذا . . . تبدأ المنطقة بالحياة منذ منتصف حزيران لتنتهي في اوائل تشرين الاول .

ان قطاع الاصطيف قد تحدد آنذاك في جوار بيروت فقط ، في خط بيروت - برمانا ، او بيروت - عاليه - بجمدون - صوفر - سوق الغرب . وكان المصطافون العرب عماد ذلك الموسم ومصدر خيرات واسعة لسكان قرى المنطقة الجبلية المجاورة لبيروت دون سواها . كما ان الاسر البيروتية الغنية والذين كانوا على شيء من الجبوحه ، بداوا بدورهم ينتقلون الى مراكز الاصطيف ، كي يقضوا فيها فصل

— M. Desjardins — op. cit. P. 183.

الصيف من جهة ، ويتعرفوا على اثرياء العرب فيعرضوا عليهم صفقاتهم التجارية من جهة اخرى . بيد ان انتقالهم للاصطياف كان يمتاز بفارق كبير عن المصطافين العرب اذ كانوا ينتقلون الى تلك المراكز كمالكين لفيلات جميلة وليس كمستأجرين . وكانت هذه الفئة البيروتية الغنية تبالغ في احترامها لتقاليد البذخ والترف (٣٤) . ان في بناء عماراتها وفيلاتها ، ام في حياتها اليومية .

وبالمقابل ، أصبح الجبليون ، الذين يحيون بين المصطافين وتجار بيروت المالكين طيلة نصف عام تقريبا ، والذين شاهدوا ما هم عليه من غنى وبحبوحة ، يتوقون هم ايضا الى تجربة حظهم في المهاجر او بالهبوط الى بيروت يفتشون عن مهنة ، او قصدا لتعليم ابنائهم فيها ، او هربا من البقاء في الجبل البارد المقفر شتاء ، وبدات تنزايد في نفوسهم رغبة الانفصال عن الحياة التقليدية والاتحاق بوكالات سياحية او وظائف صغيرة او اعمال حرفية وغيرها . حتى ان هجرات جماعية بدأت تنتقل من الريف الى المدينة شتاء ، خاصة الى بيروت . وبدا الجبل يخلو شيئا فشيئا من حيويته في الشتاء ليقصر على بعض الكهول في حين تغادره عناصره النشيطة الى بيروت او الخارج .

الهجرة اللبنانية تدعم قطاع الاصطياف وتنمية

ان توسيع رقعة جبل لبنان المتصرفية نحو « حدوده التاريخية والطبيعية » ، لم تدفع الجبليين من اللبنانيين الى استصلاح اراضي البقاع الخصبة - كما ادعى الفرنسيون وبعض سكان المتصرفية قبل الحرب (٣٥) - كما لم تحمل الفئات المسورة الحال منهم على امتهان الزراعة ، بل هيا الاحتلال الفرنسي والادارة الانتدابية المعكرة لسكان المناطق التي التحقت بمتصرفية جبل لبنان ، فرصة مساواتهم باخوانهم في الجبل وذلك بفتح طريق المهاجرة امامهم والتي كانت تقتصر حتى ذلك الحين على الجبليين دون سواهم . فهاجر سكان بعض القرى ، جلهم او جميعهم احيانا ، الى اميركا ، خاصة الجنوبية منها . وتدل الاحصائيات على ان ٥٠٪ من المهاجرين اللبنانيين في تلك الفترة ، بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ، قد توجهوا نحو اميركا الجنوبية و ١٥٪ منهم نحو افريقيا ، و ١٠٪ نحو مصر ، و ١٠٪ نحو اميركا الشمالية ، و ١٥٪ نحو بلدان مختلفة اخرى (٣٦) .

ان فقر البلاد كان السبب الاول والاساسي لتلك الهجرة . فتوزيع الملكية في الداخل ، خاصة الزراعية منها ، والذي جاء الانتداب الفرنسي يزيد في ازمته ويعطي صفة شرعية للتجاوزات والنهب الاقطاعي التركي القديم ، وطريقة الاستغلال التقليدية للأرض ، وهيمنة الاقطاعيين على كامل المردود ، واعمال السخرة التي قام بها الفرنسيون بالذات ، وضعف الصناعات والحرف وعجزها عن استيعاب اليد العاملة

— R. Thoumin — op. cit. P. 93.

(٣٤)

— Capdejelle-Hachem « La question syrienne », P. 35.

(٣٥)

— R. Thoumin — op. cit. P. 336.

(٣٦)

التي تدخل تباعا في عملية الانتاج ، يضاف الى ذلك الربا والضرائب والآفات التي تلحق بالزروعات ، كذلك دعوة المهاجرين لذويهم والتشبه بمن اغتنوا في المهاجر ، وغيرها ، كانت من الاسباب الرئيسية للهجرة اللبنانية (٢٧) .

وكون هؤلاء المهاجرون جاليات لبنانية في ما وراء البحار ، عمادها التجار . وبعض الحرفيين دون أن تتخلى عن الروابط التي تشدها الى أسرها المتبقية في لبنان . ويقول ايلي صفا : « ان الرعيل الاول من المهاجرين اللبنانيين ، الذين كانوا في الغالب فلاحين اقوياء ، نشيطين ومقتصدين ، قد مارس تجارة متعبة جدا وبسيطة في نفس الوقت ، اعتمدت على البيع « بالكثة » اي نقل بعض البضائع خاصة الالبسة على الظهر وبيعها في القرى . ذلك ان هذا النوع من التجارة كان في متناول ايدي المهاجرين الذين لا يمتلكون رأسمالا كبيرا ولا يفترض اي تدريب مهني للبيع . ليس هذا فحسب - برأي صفا - بل وكذلك لانها لا تربط المهاجر بالارض . وهذا هو السبب الاهم . فهي تناسب اشخاصا مثلهم يريدون العودة الى الوطن بأسرع ما يمكن ، بقدر ان يجمعوا ثروة صغيرة . ان ما يفسر وضعهم المتقلقل في الخارج هو هذا السبب بالذات » (٢٨) .

ومهما تكن انتقاداتنا على هذه الفكرة ، فمما لا شك فيه ان الهجرات الاولى كانت ترتبط على الغالب بالعودة السريعة او بارسال كميات وافرة من الاموال الى الاهل . لقد احدثت حركة العودة الواسعة الى الوطن الام اثرا كبيرا في لبنان . ذاك ان المهاجر كان يرسل اموالا طائلة الى اهله حالما يستطيع ذلك ، كما يرسل هبات للجماعة التي ينسب اليها او الى الكنيسة وغيرها . وكان يرسل ايضا اموالا كي يشتروا له اراض في قريته . ولدى عودته لم يكن يقصر في عرض ثروته الجديدة ، اما بشراء بعض قصور الاقطاعيين السابقين ، او بناء منازل واسعة على قسط وافر من الراحة والفخامة . فرغم العادات التجارية التي يقتضيها العمل بالتجارة بالذات اي توظيف الرساميل وفائض الانتاج في مشاريع مربحة او في البنوك لقاء فوائد مصرفية ، فان الكثير من المهاجرين ظلوا يوظفون اموالهم في عقارات او منازل عديمة الفائدة ماليا بل تعتبر مشاريع مجمدة . انه لأمر يصعب تفسيره - كما يقول الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك - ما لم تؤخذ بالحسبان الناحية النفسية لذلك المهاجر ، وهي التعويض عن الحرمان والبؤس والفاقة التي عاشها في قريته قبل الهجرة (٢٩) .

لقد عاد قسم من المهاجرين مؤقنا الى قراهم ، فابتنوا لانفسهم منازل جميلة ، واشتروا عقارات واسعة ، وتزوجوا من لبنانيات ، وجددوا الفرع المغترب بدم لبناني جديد عن طريق الاستمرار في استدعاء الاخوة والاقرباء ، فراح دفع مستمر

— Voir R. Thoumin — op. cit. PP. 331-340 et Elie Safa « L'émigration libanaise », PP. 160-178 et Briot et Dresch « La Méditerranée et le Moyen-Orient » T. II. PP 417-419.

راجع ايضا « مجلة المنتظف » - نيليبحتي « السوريون في الولايات المتحدة » خمس مقالات

عام ١٩٦٠ - الاعداد ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - .

— E. Safa « L'émigration libanaise ». P. 206.

(٢٨)

(٢٩) يزبك - مقابلة خاصة .

من المال يرد الى لبنان الكبير معيلا قطاعا واسعا من الامل العاجزين عن العمل ، ومدخلا خيرات واسعة الى ميزانية الدولة .

وقد قدر عدد المهاجرين في تلك الفترة بحوالي ٦٥٣٨ لعام ١٩٢١ ، و ٧٧٧٩ لعام ١٩٢٢ و ٨٦١٤ لعام ١٩٢٣ ، و ٦٣٧١ لعام ١٩٢٤ ، و ٧٦٥٠ لعام ١٩٢٥ ، و ٨٤٨٧ لعام ١٩٢٦ (٤٠) . اما ارقام المفوضية العليا فتشير الى ٨٦١٤ مهاجرا لعام ١٩٢٣ مقابل ٦٣٧١ لعام ١٩٢٤ ، و ١١١٠٠ لعام ١٩٢٥ ، و ١٥٨٥٦ لعام ١٩٢٦ (٤١) ، فلا ريب ان بعض هذه الارقام تشمل سوريا ولبنان معا .

وقدرت المبالغ التي ارسلها المهاجرون حتى عام ١٩٢٢ ما بين ٨٠٠ الف ومليون ليرة استرلينية اي حوالي ٥٠ مليون فرنك فرنسي . اما توظيفات المهاجرين ، المنقولة والثابتة في الخارج فقد قدرت ايراداتها بعشرين مليون فرنك فرنسي (٤٢) . ويقدر بنوا ابو صوان ايرادات المهاجرين التي يرسلونها سنويا الى لبنان بين ١٩٢٠ و ١٩٢٦ بثلاثين مليوناً من الفرنكات ، كما ان مجموع ما ارسله المهاجرون اللبنانيون في اميركا فقط حتى ١٩٣١ قد بلغ ١٢٥ مليون فرنك (٤٣) . ويقدر ابو صوان كذلك ثروة اللبنانيين المقيمين في مصر عام ١٩٠٧ بحوالي مليار ونصف المليار من الفرنكات الفرنسية والتي كانت تمثل جزءا من عشرة أجزاء من الثروة المصرية بكاملها (٤٤) .

وبعد قيام دولة لبنان الكبير عمد بعض اغنياء اللبنانيين في مصر واميركا الى تصفية جزء او كامل ثرواتهم الثابتة هناك ووظفوا القسم الاكبر من اموالهم في قطاع الاصطيف في لبنان ، فابتنوا الفيلات والفنادق والمطاعم والمقاهي ، بعد ان اعفت ادارة الانتداب جميع الابنية المقامة لأغراض سياحية ، والفنادق العشرة الاولى التي ارتفعت في بيروت من ضريبة « الويركو » او ضريبة الاملاك المبنية لمدة خمس سنوات (٤٥) . وهكذا بدأ جبل لبنان يفتني تباعا بالفيلات الجميلة التي يبنها المهاجرون والاغنياء المحليون ، واتعشت بيروت بعدد وافر من الفنادق المعدة لاستقبال السواح . لقد قدم المهاجرون اللبنانيون الى سلطة الانتداب مساعدات قيّمة في هذا المجال اذ امدوها باموال طائلة بفعل ارتباط المهاجر باهله وبوطنه الام ، مما سهّل لادارة الانتداب ان تشارك المهاجرين اللبنانيين في أجزاء عريضة من الاموال التي جنوها في الخارج .

وكان من مصلحة الانتداب بالذات توثيق الروابط بين اللبنانيين في الوطن والمهجر . لذا عمدت الى سد عجز الميزان التجاري الناتج عن سياستها بالذات على حساب قسم من ثروات المهاجرين اللبنانيين . فمن المتصرفية الى لبنان الكبير ، استمر المهاجرون اللبنانيون عرضة لاستغلال الاجانب الميطرين على بلادهم وشارك الفرنسيون بذلك في نهب اللبنانيين ، لا المقيمين منهم فحسب بل في جميع المهاجر .

(٤٠) — E. Safa — op- cit. P. 195. Voir aussi Beauplan « Où va la Syrie ? » P. 137.

(٤١) — H.C. « La Syrie et le Liban 1919-1927 » P. 278.

(٤٢) ايلي وجرجي جدعون — الدليل السوري لعام ١٩٢٢ — ص ٤٥ .

(٤٣) — B. Aboussouan — op. cit. P. 29.

(٤٤) — B. Aboussouan — Ibidem. P. 29.

(٤٥) مجلة الحارس — السنة الثانية — عدد ١٥ — ١٦ — تاريخ ١ — ١٥ نيسان ١٩٢٥ . ص ٧٥٥ .

الاصطيف قطاع وافر الأرباح

لقد سعت إدارة الانتداب منذ البداية الى تنشيط قطاع الاصطيف الوافر الأرباح لما يقدمه من أموال لبنانية وعربية . وقد استطاعت جذب اغنياء العرب الى مراكز الاصطيف اللبنانية حيث صرفوا بسخاء أموالا طائلة ، كما سهلوا اتصال المتربين بذويهم عن طريق شبكة واسعة من البريد عممها على معظم المناطق اللبنانية ويسروا لهؤلاء المهاجرين توظيف قسم كبير من ثرواتهم في الوطن الام ، في مصارف الفرنسيين بالذات . فقد أدرك الفرنسيون ان خيرات هذا القطاع ستعود لمصلحتهم بالدرجة الاولى طالما سيطرتهم مستمرة على سوريا ولبنان .

ومنذ ١٩٢٤ قام جيلي ، مدير المكتب التجاري في المفوضية العليا ، بحدد الاطار العام لسياسة الانتداب في هذا المجال فكتب في { حزيران يقول : « ان في وسع لبنان ان يجد في توسيع الاصطيف والسياحة موارد بالغة الاهمية . ان جبال لبنان مركز ممتاز للاصطيف وبنطوي على جميع المزايا المطلوبة من اغنياء المصريين الذين يؤمنونه بالفعل ، كذلك بالنسبة للموظفين الاتكليز واغنياء بلاد ما بين النهرين ، اللذين أصبح بإمكانهم المجيء بسياراتهم من هناك في مدى ست وثلاثين ساعة لا غير ... » (٤٦) .

وفي هذا القول اعتراف واضح ان المصطافين كانوا يأتون ، في معظمهم ، من مصر والعراق ، كذلك من سوريا وفلسطين وغيرها ، كما تدل احصائيات تلك الفترة . فقد امّ لبنان في عام ١٩٢٣ حوالي ٤٥٠٠ مصطافا مقابل ٨٠٠٠ في عام ١٩٢٤ (٤٦) . وقدرت مصروفاتهم لعام ١٩٢٣ بـ ١٩٢٣ مليون ليرة لبنانية - سورية (٤٧) اي ٢٠ مليون فرنك مقابل ٢٤٥ مليون ليرة لبنانية - سورية لعام ١٩٢٤ اي ٥٠ مليون فرنك (٤٨) ، في حين لم تتجاوز موارد الاصطيف والسياحة والمؤسسات التعليمية في لبنان لعام ١٩٢٢ ما قيمته ١٥ مليون فرنك فرنسي (٤٩) .

وهكذا نشط هذا القطاع منذ المرحلة الاولى من الانتداب وما برح يعد بين القطاعات الاكثر تطورا في لبنان المستقل . وارتفع عدد المصطافين من ٤٥٠٠ الى ٨٠٠٠ في عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٤ الى ١٢ الف عام ١٩٢٧ (٥٠) . وبقيت جنسياتهم دوما ذات صفة عربية واضحة . فحتى عام ١٩٣٨ ومن اصل ١٨٦٠٠ مصطافا (٥١) اموا لبنان ، كان بينهم ٨٢٦٤ مصريا و ٥٢٧٤ فلسطينيا و ٣٧٩٧ عراقيا و ٢٣٠ ايرانيا و ١٠٤٥ من جنسيات مختلفة .

وجرت هذا القطاع معه تقديما هائلا في قطاع البناء ، خاصة الفنادق والفيلات

(٤٦) — H.C. « Rapport sur l'année 1923 », P. 36.

(٤٧) مجلة الحارس — السنة الاولى — عدد ٢٢ الصادر في ١٥ ايار ١٩٢٤ — ص ٤٠ .

(٤٨) مجلة الحارس — السنة الثانية — عدد ١٥ — الصادر في نيسان ١٩٢٥ — ص ٧٥٠ .

(٤٩) ابني ورجري جدعون — الدليل السوري لعام ١٩٢٢ — ص ٤٥ .

(٥٠) — Bulletin annuel de Banque de la Syrie et du Liban — Année 1939. P. 34.

(٥١) — Bulletin annuel de Banque de la Syrie et du Liban — Ibid. P. 34.

التي تطورت بشكل هائل بعد ان أصبح هذا القطاع يفل سنويا ، باعتراف الفرنسيين انفسهم ، أكثر من مئة مليون فرنك فرنسي(٥٢) سنويا ، في حين ان قطاع الحرير الذي كان أنشط القطاعات انتاجا حتى تلك الفترة لم يرتفع مردوده الى ٥٠ مليون فرنك، فرنسي عام ١٩٢٧ . كما جر هذا القطاع معه ارتفاعا كبيرا في اسعار الاراضي في مناطق الاصطياف بالذات . وكانت نسبة ذلك الارتفاع كبيرة جدا في بعض المناطق . ويؤخذ من التقديرات المحلية ان سعر الفدان من الارض كان في صوفر قبل حرب ١٩١٤ مباشرة ، حوالى ألف قرش(٥٢) ، فأصبح يباع عام ١٩٢٦ بألف ليرة لبنانية - سورية . وبانت بلدة صوفر ، التي لم يكن فيها سوى خان واحد قبل الحرب ، تضم عدة فنادق كبيرة وبضع فيلات مخصصة لاصطياف الاغنياء العرب وكبار التجار البيروتيين .

ان تنشيط الاصطياف ساهم فعليا في استرداد اموال وفيرة لصالح الانتداب من جهة ، ولصالح الجبلين المجاورين لبيروت على محور الاصطياف من جهة أخرى وادى الى ارتفاع اسعار الاراضي فيها بشكل عمودي في معظم المناطق الاصطيافية كما دفع ادارة الانتداب الى توسيع شبكة الطرقات والكهرباء والمياه في تلك المناطق قبل سواها بزمن طويل .

بعض الاستنتاجات

ان الخيرات الاصطيافية لم تعم كل لبنان بل تركزت فقط في المناطق المحيطة ببيروت والقريبة منها وكانت تدور في محاور الطرقات الممتدة بين بيروت - عاليه - بحدون - صوفر ، وبيروت - بيت مري - برمانا - زهور الشوير او بكفيا دون أن تتعداهما في تلك الفترة . حتى ان الازدهار الاكثر بروزا كان باتجاه الطريق الاولى التي كانت طريق البقاع ودمشق في الوقت نفسه . وكان من الطبيعي انتشار وسائل الترفيه والتسلية والانارة ومياه الشفة وغيرها في تلك المناطق الاصطيافية وحدها ، وبقيت حكرًا عليها زمنا طويلا أيام الانتداب وبعده .

والانتعاش الكبير في هذا القطاع امد قسما كبيرا من سكان الجبل اللبناني ، في المناطق القريبة من بيروت وحدها ، بأموال وفيرة اضحت منذ ذلك التاريخ دخلا ثابتا لهم ، مما دفع العديد من القرى المجاورة لمحور الاصطياف الى شق طرقات على نفقاتها الخاصة بقصد الاتصال بالخط الرئيسي للاصطياف واجتذاب عدد من المصطافين نحو قراهم . وبالرغم من فشلهم في اجتذاب المصطافين الاغنياء العرب فقد مهدوا الطريق امام مصطافين محليين ، من بيروت بشكل خاص . ولعبت تبرعات المهاجرين الاغنياء ، ابناء تلك القرى ، دورا بارزا في مد الطرقات وانارة قراهم بالكهرباء ، وجر المياه اليها ، وهذا ما يفسر كيف كانت تلك الطرقات تشق

— H.C. « La Syrie et le Liban de 1919-1927 » . P. 281.

(٥٢)

(٥٣) ابراهيم خيرالله « صرغر قبل خط الحديد وبعده » - مجلة الحارس - العدد التاسع - حزيران

١٩٢٦ - ص ٧٨١ .

دون تخطيط هندسي بل تأخذ بالاعتبار ما كان يحمله اولئك القرويون من نظرة خاصة لوجهائهم ومهاجريهم المتبرعين . فالطريق تنعطف معظم الاحيان لتمر امام داره هذا الوجه وذلك المقرب السخي وتخرج دون اي تخطيط لترتبط بفيلادقها حديثا مهاجر تبرع بمباغ كبير للقريه . . . الخ . لقد عرف اولئك الجليلون كيف يجعلوا من قراهم مناطق اصطيافية ، وان بدرجه ثانية ، بعد ان اهتمت ادارة الانتداب الفرنسي من حساباتها ، وهذه الظاهرة ستستمر طيلة عهد الانتداب وعهد الاستقلال ، بحيث القيت اعباء تشجيع الاصطياف محليا على كاهل العاملين فيه دون مساعدة فعلية من جانب الدولة .

بيروت ، التي انتعشت برساميل اجنبية ضخمة ومؤسسات مالية متزايدة النمو ، والتي ما انفك مرفأها يفرغ ويصدر ما تجلبه اليه السفن التجارية الاجنبية ، انتعشت بجوارها قطاعا اصطيافيا بالغ الاهمية ما زال يتنامى بسرعة حتى اليوم . هذا لقطاع اعتمد منذ البداية ، على الاغنياء العرب . مما جعل هذا القطاع المزدهر يفرض على الاقتصاد اللبناني ارتباطا وثيقا بالعالم العربي في الداخل سيتعزز باغنياء انبتروا العرب الذين حلوا محل المصريين والفلسطينيين والسوريين بعد الاستقلال . ان هذا القطاع الاصطيافي الذي دعمته اموال المهاجرين اللبنانيين بشكل خاص ، والايدي العاملة اللبنانية ، بشكل عام ، ساهم في نشوء قطاع جديد مرتبط به هو قطاع البناء . هذا القطاع الذي بدأ بالفنادق في بيروت والفيلات في مناطق الاصطياف ، والمعدة اصلا لراحة السواح والمصطافين ، سيتوسع فيما بعد ليصبح اوسع القطاعات ازدهارا في بيروت التي أصبحت مركز الادارة والتعليم والتطبيب والتجارة والمصارف والمواصلات وغيرها . ويتعزز كذلك بحركة الهجرة الريفية الى بيروت فيرفع اسعار الاراضي فيها ويزيد من حركة البناء المعد للايجار في بيروت ومناطق الاصطياف المجاورة لها .

ان قطاع الاصطياف في لبنان ، الذي استند منذ البداية على الرأسماليين العرب دون سواهم ، لم يتوسع ويزدهر بفضل دعم الانتداب الفرنسي له بل قام على اكتاف اللبنانيين في الوطن والمهجر في حين نال الفرنسيون القسم الاكبر من ارباح هذا القطاع الذي ساهم ، الى جانب اموال المهاجرين اللبنانيين المرسله الى ذويهم ، بدور اساسي في تعديل كفة الميزان التجاري اللبناني الشديد الاختلال لصالح الشركات الفرنسية والتجار الوسطاء في بيروت .

فأميرال المهاجرين اللبنانيين وخيرات الاصطياف الوفيرة لم تعط ثمارها الحقيقية الا بعد الاستقلال حيث تمزقت مكانة هذا القطاع كثيرا بفضل دعم الساطة الاستقلالية له . الا ان هذا الدعم لم يتغير من الانتداب الى الاستقلال بل كان هدفه استدرار اموال الاثرياء العرب لسد جزء من العجز في الميزان التجاري اللبناني ، ذلك العجز الناتج اصلا عن تدعيم أسس الاقتصاد الوحيد الجانب القائم على التجارة والخدمات على حساب القطاعات الاخرى المنتجة . ان السياسة المشوهة التي اعتمدها الفرنسيون لدعم قطاع الاصطياف استمرت طيلة ايام الانتداب وما بعد الاستقلال .

□ الفصل الرابع □ التعليم الخاص يُهيئ على التعليم الرسمي □

التعليم في سوريا وجبل لبنان حتى الحرب العالمية الاولى

أ - التعليم العالي :

لا شك ان مدارس جبل لبنان في القرن التاسع عشر كادت ان تكون جميعها في ايدي الرهبان والمبشرين وبعض المثقفين المحليين الذين تربوا على ايادهم .
والرهبان والمبشرون ، من فرنسيين واميركيين ، بشكل خاص ، قد زاولوا مهنة الطب هناك لأن الجبل كان آنذاك ، كسائر انحاء المشرق ، بحاجة ماسة الى اطباء مختصين . وقد اهتم المرسلون الاجانب اهتماما بالغا بالطب كوسيلة للتاثير في الناس وجذبهم نحوهم . لذا يصح القول « ان المبشرين الاميركيين كانوا اول من ادخل النشاط الطبي في العمل التربوي الاجنبي الى سوريا ولبنان » (١) . في حين ركزت الجزويت خاصة ، والمبشرون الفرنسيون عامة على ارسال منح للتخصص العالي في فرنسا . وكان هدفهم من ذلك « صنع قادة انسانيين مستنيرين » (٢) . لذا كانت المنح مخصصة ، بصفة رئيسية ، لابناء المشايخ والامراء الموارنة . « وكان من اوائل المستفيدين منها اولاد المشايخ من آل شهاب والخازن وحبيش والدحداح وخوري وتابت ... » (٣) .

وجامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين ، التي نقلت الى بيروت منذ ١٨٨١ ، لم تكن تضم في ذلك الحين سوى كليتين دينيتين هما كلية اللاهوت وكلية الفلسفة . وكان عمل هاتين الكليتين ينصب على تخريج دفعات واسعة من رجال الدين المسيحيين على مختلف الدرجات والرتب . ويكفي ان نذكر هنا ان البطريرك الماروني الياس يزبك ، وبتربيرك الكلدان عمانوئيل توماس ، وبتربيرك الاقباط في القاهرة سيريل ماکير

-
- Benoît Aboussouan « Le problème politique syrien ». Thèse. P. 40. (١)
— D. Chevallier « La Société du Mont-Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe ». P. 259. (٢)
— D. Chevallier — Ibidem — P. 265. (٣)

وغيرهم ، كانوا من تلامذة المعهد الديني الشرقي سان فرانسوا كزافيه التابع لكلية اللاهوت بجامعة القديس يوسف بيروت(٤) .

فكانت الغلبة المطلقة للسوعيين في هذا المجال بين رجال الدين المسيحيين من جميع الطوائف الخاضعة للبابوية في روما . الا ان اقتصار جامعة القديس يوسف على مثل تلك الفروع اللاهوتية كان ضارا بأفاق تطورها امام حفظ الكلية السورية في بيروت (الجامعة الاميركية لاحقا) التي كانت تتعزز فيها تباعا الكليات العلمية والادبية . لذا سارعت جامعة القديس يوسف منذ ١٨٨٣ الى انشاء كليتين جديدتين للطب والصيدلة . وساعد فتح هاتين الكليتين على تخريج دفعات واسعة من الاطباء والصيدلة بلغ تعدادهم حتى بداية الحرب العالمية الاولى ٥٧٨ متخرجا . والملاحظ ان هؤلاء المتخرجين الاول حتى عام ١٨٩٨ لم يكن يسمح لهم بمزاولة الطب والصيدلة الا في المستعمرات الفرنسية(٥) . ثم انفي هذا القرار بعد ذلك التاريخ ولم يعد هناك اي فرق بين خريجي الجامعات الفرنسية وخريجي كلية الطب الفرنسية في جامعة القديس يوسف بيروت .

وقبل الحرب مباشرة ، وفي عام ١٩١٢ بالضبط ، تالفت في مدينة ليون لجنة ضمت بعض اساتذة الجامعة فيها وأعضاء في غرفة تجارتها وانشأت جمعية هناك سميت « بالجمعية الليونية لنشر التعليم العالي والفني في الخارج » . واخذت تلك الجمعية على عاتقها مهمة تأسيس كلية للحقوق في بيروت فتحت منذ اواسط ١٩١٣ وكلية للهندسة المدنية تأخر فتحها حتى عام ١٩٢١ ، في مدينة بيروت ايضا ، كجزء من جامعة القديس يوسف .

بالمقابل ، كانت الكلية البروتستانتية السورية تضم عثة الحرب العالمية الاولى ٢٦ فرعا ثقافيا(٦) باعتراف الجزويت أنفسهم منها كلية للطب واخرى للصيدلة ومدرسة اعدادية للمعلمين ومدرسة للتجارة وكلية لطب الاسنان ومدرسة زراعية ومدارس ثانوية وتحضيرية تابعة لها .

وكانت الكلية السورية تتلقى اعتماداتها من الحكومة الاميركية وبعض الافراد هناك ، كذلك من هبات قدمها لها بعض المغتربين اللبنانيين . وكانت الولايات المتحدة الاميركية تشرف ، منذ البداية ، على مناهجها وجهازها التعليمي ، ونظام الدروس فيها .

اما جامعة القديس يوسف بيروت فكانت محرومة ، حتى الحرب العالمية الاولى ، من اية مساعدة رسمية من قبل الحكومة الفرنسية ، كما ان هذه الجامعة لم تتوسع بكليات جديدة الا بمعونة الجمعية الليونية التي اغنت الجامعة بكليتي الحقوق والهندسة(٧) .

-
- L'Asie Française — No. 154 — Janvier 1914 — P. 21. (٤)
Saint-François Xavier
- U.S.J. « L'Assemblée Générale au Liban » — UNESCO 1948 — P. 24. (٥)
- U.S.J. « Beyrouth et le Grand-Liban » — P. 1. (٦)
- Livre d'Or de Saint Joseph : Les Jésuites en Syrie 1831-1931 — voir article de Louis Jalabert sur la Faculté Française de Médecine - F.F.M. ». P. 16. (٧)

على الصعيد المحلي ، لم تكن جامعة دمشق العربية تضم في تلك الفترة سوى كلية للطب وأخرى للحقوق (٨) . وكانت الدروس فيهما تعطى باللغتين التركية والعربية على أيدي اساتذة نالوا شهاداتهم من القسطنطينية . وكان عدد طلابها ضئيلا . وعندما دخلت تركيا الحرب رسميا الى جانب ألمانيا ، اضطرت البعثات الفرنسية والانكليزية الى مفادرة البلاد ، فاحتلت اماكنها واستقرت كلية الطب العثماني في دمشق مكان كلية الطب الفرنسية في بيروت طوال فترة الحرب .

كان التعليم العالي قبل الحرب العالمية الاولى محدودا جدا ويتركز بشكل رئيسي في سوريا ولبنان على مدينتي دمشق وبيروت . وكانت الجامعتان الرائدتان في هذا المجال : جامعة القديس يوسف للسويين والكلية السورية البروتستانتية للاميركيين ، وكتاهما اجنبيتان ولا تخضعان لأي اشراف مباشر من قبل السلطات المحلية في حين كانت جامعة دمشق تمولها الدولة العثمانية وتشرف على ادارتها ونظام التدريس فيها . وكان للاستقلالية الواسعة التي نالتها كل من الجامعتين الاجنبيتين تأثير واضح في تطوير مناهجها ونظام الدراسة فيهما على أحدث ما توصلت اليه أوروبا الليبرالية في مطلع القرن العشرين والولايات المتحدة الاميركية . وكانت نسبة الطلاب فيهما تتجاوز ، مجتمعتين او منفردتين ، عدة اضعاف تعداد طلاب الجامعة العربية في دمشق ، التي وقعت اسيرة الجمود والانحطاط الفكري العام اللذين سيطرا على جميع سراقق الدولة العثمانية آنذاك . وكان اثر التقدم العلمي والتكنولوجي لأوروبا واميركا في هذه الفترة ، والذي دفع بوضوح تطور البيوعية والاميركية في مناهجها وجهازها التعليمي ، يكاد يتعدى تماما في جامعة دمشق .

ب - التعليم الثانوي والابتدائي :

لم تكن غالبية التعليم في جبل لبنان سوى مدارس خاصة فتحها ونظمها وادارها بحرية رؤساء دينيون من ابناء البلاد او افراد مدنيون او بعثات اجنبية . فالتعليم الابتدائي والثانوي في الجبل كان بكليته تقريبا تعليما خاصا عشية الحرب العالمية الاولى وتقع اعباؤه على عاتق الاهالي دون اية مساعدة فعلية من قبل الدولة (٩) ، فتحمل سكان الجبل مسؤولية اعالة تلك المؤسسات التعليمية وامتدوها بالاراضي والاموال والخدمات وقسم من الجهاز التعليمي والاداري . بمعنى آخر ، ان تلك المؤسسات ، بالرغم من دورها الثقافي الذي قامت به ، كانت عبئا ثقيلا على كاهل اللبنانيين قبل الحرب وبعدها حتى اليوم .

وكان الوجود الفرنسي مهيمنا داخل تلك المؤسسات التعليمية الخاصة في الجبل . وكان الاباء اليسوعيون يحتلون المركز الممتاز في هذا المجال . فقد امتلك التعليم باللغة الفرنسية في سوريا وفلسطين وجبل لبنان حتى اوائل شباط ١٩١٤

(٨) — L. C. Catroux « Deux missions au Moyen-Orient » — P. 59.

(٩) محمد رفيع — ولاية بيروت — ص ٢٩٢ .

حوالي ٥٠١ مدرسة (١٠) . ضمت أكثر من ٥٠ ألف تلميذ من الجنسين مقابل ١٠٠ مدرسة انكليزية ضمت ٧ آلاف تلميذ وتلميذة تضاف إليها ٨٨ مدرسة أميركية ضمت ٥ آلاف تلميذ وتلميذة يضاف إليها الكلية السورية التي ضمت بمفردها ٨٧٤ طالبا وطالبة في تلك الفترة . والوجود الألماني اقتصر على أربع مدارس ضمت ١٩٢٥ تلميذا وتلميذة ، بينما كان للروس ١٠٥ مدارس ضمت ١١٥٠٠ تلميذ من الجنسين .

وقدر عدد تلاميذ المدارس الأوروبية والأميركية العاملة في سوريا ولبنان قبيل الحرب العالمية الأولى بحوالي ٢٥ ألفا مقابل ٤٠ ألفا للمدارس الفرنسية يضاف إليها ١٠ آلاف تلميذ وتلميذة يذهبون إلى المدارس المحلية التي يتم التعليم فيها باللغة الفرنسية بحيث اتفقت معظم الإحصائيات آنذاك على تقدير تلامذة المدارس التي تدرس اللغة الفرنسية من أجنبية ومحلية بحوالي ٥٠ ألف تلميذ وتلميذة مقابل ٢٥ ألفا للمدارس الأجنبية الأخرى مضافا إليها ١٢ ألفا من التلاميذ الذين كانوا يؤمون المدارس الرسمية المحلية خارج جبل لبنان . فقدر بذلك عدد التلاميذ في سوريا ولبنان بحوالي ٩٠ ألفا (١١) (٨٧ ألفا بالضبط) . ويشير جونغ في هذا المجال ان « من بين هؤلاء التلاميذ الذين يدرسون باللغة الفرنسية في سوريا ولبنان ، والذين بلغ تعدادهم ٥٠ ألفا قبيل الحرب العالمية الأولى ، كان ٢٥ ألفا منهم في مدارس جبل لبنان وحدها » (١٢) . « فكانت هذه المؤسسات التعليمية الفرنسية الرائدة الحقيقية للنفوذ الفرنسي في سوريا ولبنان . فجميع المتعلمين في هذين البلدين تقريبا ، كانوا يتكلمون اللغة الفرنسية » (١٣) . لقد عرف الفرنسيون كيف يمهدون لانتهابهم اللاحق بسيطرة مالية واسعة وهيمنة على جميع القطاعات الاقتصادية في هذين البلدين ، بعد ان أضافوا إلى سيطرتهم تلك عنصرا هاما هو اللغة الفرنسية في بلد يقول عنه ميشال شيحا « ان المدرسة والتعليم بالنسبة إلى لبنان ، هما أكثر أهمية منهما في أي بلد آخر . فهما ركيزة أساسية ، وهما ضمانة للمستقبل » (١٤) . ان تركيز الفرنسيين على الثقافة الفرنسية في لبنان وتقريب الطالب اللبناني عن محيطه الطبيعي الذي يعيش فيه كطالب عربي له حضارته وتراثه كانت لهما أسوأ الآثار على مستقبل طلاب لبنان الذين تلقوا علومهم في تلك المدارس . وقد أبرز الياس أبو شبكة هذا الأثر بقوله : « أول ما فكرت فيه الرسائل (الإرساليات - م. ض) الفرنسية عندما امت هذه البلاد هو بثها الفضائل التي تحلى بها ملوكها وأدباؤها ورجالها العسكريون والبحريون ، وقد كان لهذه الدعوة أثرها العميق في المسيحيين على الخصوص ، فراححت الناشئة تعرف من معين تلك الفضائل غداء لتفكيرها ، واذا هي تعرف عن كلوفيس وشرلمان وفرنسيس الأول ولويس الرابع عشر وجان دارك وزابله وديكارت

- E. Jung « La Révolte arabe » — T.I. — P. 93. (١٠)
 Voir aussi John Morgan Jones « La fin du Mandat français en Syrie et au Liban ». Thèse. P. 20, et Correspondance d'Orient — No. 130 — Février 1914 — P. 177.
 — Cressaty — Bulletin trimestriel de C.I.F.L. — No. 1 de 1927, article « La Syrie Française » — P. 58. (١١)
 — E. Jung — Op. Cit. — P. 93. (١٢)
 — B. Aboussouan — Op. Cit. — P. 41 — et J. Achkar — Op. Cit. — P. 19. (١٣)
 — Michel Chiha — politique intérieure — P. 108. (١٤)

وكورنيل ورأسين ولافونتين وبوالو اكثر بكثير مما تعرف عن ابطالها وأدبائها
وملوكتها ... « (١٥) .

أما التعليم الرسمي قبل الحرب العالمية الاولى فكان مقتصرًا على المدارس
الابتدائية دون غيرها ، وهي مدارس قليلة العدد ومبعثرة في مختلف المناطق السورية
واللبنانية ولا يؤمها إلا أولاد الفقراء خاصة ، والذين كانوا في غالبتهم من المسلمين .
وقد فر الامام رشيد رضا تلك الظاهرة بالقول : « ... فالمسلمون في سوريا ولبنان
تأخروا عن اخوانهم النصارى واليهود والدروز في طلب العلم لأن القلاء من اكارهم
وأغنيائهم كانوا يعتقدون ان طلب العلم انما يراد لطلب الرزق . والوجه الكبير المتوافر
رزقه كان يعد من العار على ابنائه ان يطلبوا العلم للارتزاق « من شق القصة » .
وضاعف في ذلك ان المدارس كانت كلها نصرانية ، اما للأجانب واما للمسيحيين الذين
تأدبوا بأداب الاوروبيين فحدوا حدوهم وساروا في العلم سررتهم . وقد لقيت هذه
الفكرة تشجيعا من الحكومة (التركية) بل ربما غرست الحكومة نفسها هذه الفكرة
في الصدور حتى يظل المسلمون على حالهم فلا يطلبون اصلاحا ولا يطالبون بحق .
وليس للمسيحيين وسواهم ممن يتعلمون تأثير او نفوذ لانهم الاقلية ، ولهذا السبب
لم يتمتع احد من ابناء سوريا بذلك الانعام الذي انعم به ابراهيم بن محمد علي
ياشا على لبنان وسوريا بأن يعلم طائفة منهم في مدارس مصر العالية وانحصرت تلك
النعمة حتى عهد الاحتلال (الانتداب الفرنسي) بأبناء المسيحيين السوريين وحدهم ،
وظلت الحال على هذا المنوال ولا مدارس ولا مكاتب للمسلمين في سوريا ، حتى ان
دخل أوقاف المدارس والمكاتب (الكتابيب) فيها كان يجبي للأستانة « (١٦) .

والمدرسة الرسمية التي كان يتلقى فيها هؤلاء الفقراء العلم « كانت تتألف من
غرفة واحدة تضم أكثر من ٥٠ ولدا يتولى تعليمهم فيها شيخ يجلس وبجانبه عصا
طويلة يملأ منظرها قلوب الاطفال الابرياء رعبا ويقمع صدورهم حزنا وغما . وكم كان
هؤلاء الاطفال يتعلمون الذل والخنوع ، هذا اذا لم يصابوا بالبله وركود الذهن « (١٧) .
لقد كان التعليم الرسمي ممزا بوضوح عن التعليم الخاص ولا نحتاج للكثير من
الثناء في سبيل الوصول الى ابراز هذه الحقيقة التاريخية . فالمدرستان تختلفان كليا
من حيث جهازهما التعليمي وأماكن تواجد الطلاب فيهما ، وتجهيزاتهما المدرسية ،
ولغة التدريس فيهما ، ومستوى المعلمين الثقافي ، وطرائق التدريس والمناهج .
وبكلمة مختصرة لم تكن سوى التسمية فقط تجمع بين تلك المدارس الرسمية
والخاصة . الاولى شديدة الانحطاط في مستوى تدريسها وبرامجها واساتذتها
وأمكنيتها ونسبة المساعدات الحكومية لها ، والثانية حسنة التنظيم عموما وبعضها
يضاهي مستويات راقية ومتطورة ، وتنحصر في جبل لبنان وبيروت دون أن تتعداهما

(١٥) الياس ابو شبكه « روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب » ص ٥٧ .

(١٦) رشيد رضا - المنار ، المجلد ١٩ - الجزء الثالث - مقالة « المشائق في سوريا » - ص ١٨٢ -
١٨٤ .

(١٧) مقبولة شلق - « المرأة العربية قبل الحرب السابعة وبعدها » - مجلة الطريق البيروتية -
المجلد الاول - الجزء الرابع - ص ١٠ - ١١ .

الى باقي المناطق اللبنانية خاصة تلك التي الحققت بالجبل منذ ١٩٢٠ والتي كانت لا تزال تشكل جزءا من الدولة العربية في دمشق فكانت حتى مدارسها الرسمية نادرة كل الندرة وتبع فيها طريقة في التعليم لم تتغير منذ عهد بعيد . وكانت الدروس فيها تعطى باللغتين العربية والتركية . واقتصرت تلك المدارس على عدد ضئيل من المؤسسات الملحقة بالاقواف الاسلامية التي كانت ترسل فئة صغيرة جدا من خريجيها الى الجامع الازهر في مصر كما كان الشيعة يقومون بارسال بعض ابنائهم الى النجف في العراق لاستكمال علوم الدين وتخريج الشيوخ . اما المدارس الفرنسية والطائفية المسيحية التي تتبعها فكانت تقوم بتدريس اللغة الفرنسية وتعني بها اكثر من تدريسها اللغة العربية بالذات . ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى عدد قليل جدا من مدارس اشرف عليها بعض المحليين الضليعين باللغة العربية فاتقنوا تدريسها ونخص بالذكر من بين تلك المدارس مدرسة عين ورقة ومدرسة الثلاثة اقمار ثم فيما بعد مدرسة الحكمة بشكل خاص . وهكذا اوضحت اللغة العربية ضيقة الآفاق في مدارس لبنان في حين كانت واسعة الانتشار في سوريا التي غدت « مركز الدراسات العربية في الشرق كله » (١٨) .

لقد لعبت المدارس الخاصة ، الاجنبية منها والمحلية ، دورا كبيرا ولا شك في توسيع رقعة التعليم في جبل لبنان . الا ان تلك المدارس ، والتي اتخذت اللغة الفرنسية لفتها الام بشكل خاص ، هيأت بين الشبيبة اللبنانية ارضا خصبة استفلتها السلطة المنتدبة على اكمل وجه ، لترسخ انتدابها في سوريا ولبنان . لذا كان تقدير دور تلك المدارس يتسم بالعاطفة والتسرع . فمن ممجد ومبخر لدور تلك المدارس في « النهضة اللبنانية وافتتاح لبنان على الغرب ونقل حضارته اليها بحيث اضحى لبنان نوسيط الطبيعي بين الشرق والغرب في هذا المجال » ، الى القول ان « بواسطة المدارس ، توصلت اوربا ، خاصة فرنسا الى تحويل قسم كبير من المسيحيين واليهود عن العروبة ، بعد ان اوجدت لها بين هؤلاء اتباعا مخلصين ذوي فعاليات كبيرة » (١٩) . حتى ان تلك المدارس غدت عقبة كداء في طريق توحيد الآراء والعمل السياسي المشترك في سوريا بعد الحرب (٢٠) . وذهب بعض الكتاب السوريين ابعد من ذلك في تعميم دور تلك المدارس فالقوا عليها تبعه اثاره الطائفية وتشبث نفوذها في لبنان بشكل خاص لأن هذه المدارس « لا تبذر بذور التعصب الديني فحسب في نفوس الناشئة ، بل كذلك تنتزع منهم فكرة التآزر والاخاء القومي . حتى ان تلك الشبيبة التي تربت فيها فقدت كل مظاهر الوطنية والولاء القومي . يقولون بأن هذه الشبيبة كانت تتجه الى فرنسا فقط ؟ هذا سخف وهراء ! ان تلك الشبيبة اللبنانية والسورية التي تربت في تلك المدارس ، لا تتفرد في الولاء لاية دولة ، بل هي مستعدة لخدمة اول دولة اجنبية تعرض عليها العمل لديها » (٢١) (كذا) .

- Haut-Commissariat « La Syrie et le Liban de 1919-1927 » — P. 96. (١٨)
 — E. Rabbath « L'évolution politique de la Syrie sous mandat » — P. 25. (١٩)
 — E. Rabbath — Ibidem — P. 25. (٢٠)
 — Omar Djabry « Le rôle des écoles françaises en Syrie et au Liban ». P. 16. (٢١)

ان تلك المدارس لعبت ولا شك دورا هاما في التمهيد للانتداب الفرنسي على لبنان بشكل خاص ، غير ان تحميل تلك المدارس تبعة « الطائفية واثارة التعصب القومي والتفرقة العنصرية وضرب الولاء الوطني ومسخ شخصية الشباب اللبناني » ، لا يمكن ان يتوافق مع حجم الدور الذي بإمكان المدرسة ان تقوم به اصلا ، ونحن ننوه الى ان عددا كبيرا من قادة حركة التحرر الوطني في سوريا ولبنان ، تربوا بالذات في تلك المدارس الاجنبية . صحيح ان هيمنة الفرنسيين على التعليم في سوريا ولبنان قبل الحرب ، كانت من الاسباب التي ساعدت فرنسا على تبرير انتدابها عليهما ، غير ان التفتيش عن المفتاح الاساسي لفهم كيفية فرض ذلك الانتداب يلقى وجوده حتما في تغفل الرساميل الفرنسية فيهما قبل الحرب العالمية الاولى . وقد عبر دوريو عن ذلك بضدق حين قال : « اتم هناك لتشير رؤوس الاموال الفرنسية التي صدرت اليهما قبل الحرب . اتم هناك للسيطرة التامة على سوريا ولبنان واستفلالهما استفلالا كاملا بالطرق الاستعمارية المعروفة » (٢٢) .

« معاداة الاكليروس ليست سلعة قابلة للتصدير » الى لبنان

تلك الكلمة قالها غامبيتا ، رئيس وزراء فرنسا سابقا ومن اشد خصوم الاكليروس . غير ان غامبيتا او ايا من خصوم الاكليروس في فرنسا لم يتوانوا فيما بعد عن دعم اليسوعيين في المناطق التي سيطروا عليها خاصة في سوريا ولبنان لان اننفوذ المعنوي لفرنسا في الشرق انما قام على اكتاف هؤلاء المرسلين الذين نشطوا في نشر العلم في الجبل منذ زمن بعيد على اسس مطابقة للتي كانت تدرّس في فرنسا بالذات . لذا فمعاداة الاكليروس في سوريا ولبنان لن تكون لصالح الفرنسيين على الاطلاق . ومهما تكن السياسة التي انتهجها الفرنسيون ضد اليسوعيين ورجال الدين عامة بعد الثورة الفرنسية الكبرى ، كان وجودهم هنا ، قبيل الحرب وبعدها ، ضرورة مطلقة وحيوية بالنسبة لمخططات السياسة الفرنسية في الشرق الاوسط ، وبالتالي كان هذا الوجود لليسوعيين مكسبا كبيرا على فرنسا ان تقوم بدعمه . فلم يعتبر الفرنسيون جامعة القديس يوسف في بيروت جامعة للآباء اليسوعيين فحسب ، بل جامعة فرنسية تعمل من اجل فرنسا . وقد عبّر عن هذا الواقع الاب شانتور ، رئيس جامعة القديس يوسف آنذاك ، في افتتاح العام الدراسي في الكليات الفرنسية يوم ٣ تشرين الثاني ١٩٢١ ، وبحضور الجنرال غورو شخصا . قال الاب شانتور في خطابه ذلك : « ان هذه الجامعة هي جامعة فرنسية ، في نشأتها وتطورها ، في لغة تدريسها وفي نظام تعليمها العالي » (٢٣) .

لقد تلاقت مصلحة الانتداب الفرنسي ومصالح الآباء اليسوعيين خلال هذه الفترة بالذات . فقامت الحكومة الفرنسية بتقديم العون الواسع لجامعة القديس يوسف منذ اليوم الاول لتمركز الجنرال غورو في منصب المفوضية العليا . فالفرنسيون

— Doriot « La Syrie aux Syriens » — P. 25.

(٢٢)

— U.S.J. « L'université Saint-Joseph en 1922 » — P. 34.

(٢٣)

بأمن الحاجة الى كادرات من الموظفين المحليين الذين سيقومون بأعباء الوظائف الدنيا، كما كانوا يساندون تعميم نشر اللغة الفرنسية في البلدين الواقعين تحت انتدابهما ، وبشكل خاص في سوريا . امّا الآباء اليسوعيون ، فكان من مصلحتهم بالذات ، دعم الحكومة الفرنسية لجامعتهم كي يستطيعوا الوقوف بوجه تطور الجامعة الاميركية في بيروت التي تساندها الولايات المتحدة الاميركية بشتى أشكال الدعم وبوجه جامعة دمشق العربية التي كان الوجدويون السوريون ، خلال حكمهم القصر لدمشق ، قد خططوا لها مستقبلا زاهرا .

الا ان تلك المصلحة المشتركة لم تنف وجود اختلاف واضح في خطة العمل بينهما . ففي حين كانت فرنسا ترغب في الوقوف الى جانب اليسوعيين وتحاول دعمهم ، كانت اساليب اليسوعيين تخيف الحكومة الفرنسية التي تحرص على اقامة علاقة طيبة مع السكان ، خاصة السوريين منهم . وكانت ادارة الانتداب تخشى اصطدام اليسوعيين بالتيار العربي في الداخل ، وجل دعواته من المسلمين المعارضين لفرنسا ، بحيث ان ذلك الاصطدام سيؤدي الى ازدياد نفوذ الجامعة الاميركية في اوساط هؤلاء بالذات ومن ورائها نفوذ الولايات المتحدة الاميركية . وكانت اولى الاصطدامات حول اغلاق جامعة دمشق .

فكلية الطب العثمانية بدمشق حلت محل كلية الطب الفرنسية في بيروت طيلة ايام الحرب . وبما ان الحكومة العربية بدمشق قد حاولت خلال مدة حكمها القصر ، تطبيق نظام للتعليم الابتدائي الالزامي في منطقة دمشق كخطوة اولى نحو تعميم هذا النظام الى كافة المناطق السورية ، بما فيها المناطق اللبنانية التي الحقت بالجيل (٢٤) ، عمد اليسوعيون الى تقديم اقتراح لادارة الانتداب الفرنسي اثر معركة ميلون مباشرة ، وتضمن الاقتراح دعوة صريحة الى اغلاق كلية الطب العثمانية بدمشق « بحجة ان التلاميذ هناك سيتلقون في بؤرة العروبة - اي كلية الطب بدمشق - مشاعر الغداء للفرنسيين . وطلب اليسوعيون من الجنرال غورو ، كاجراء سريع لا يحتمل التأجيل ، ويتعلق مباشرة بالسيادة الفرنسية ، ان يعلن اغلاق جامعة دمشق نهائيا ، او بالاحرى كليتي الطب والحقوق ... » وقد تلقيت توجيهها رسميا - يقول الليوتنان كولونيل كاترو - باغلاق هاتين الكليتين فعلا ... » (٢٥) وينتهي كاترو الى القول انه استطاع اقناع الجنرال غورو بالحفاظ على بقاء جامعة دمشق « من اجل مصلحة الانتداب الفرنسي بالذات » (٢٦) كي لا يثير مشاعر السكان ضد فرنسا .

ولما اصر اليسوعيون ، برئاسة الاب شاتور بالذات ، على اغلاق جامعة دمشق ، سارع الجنرال غورو الى شرح وجهة نظره « بان مصالح الرهبانية اليسوعية في المشرق عزيزة جدا على قلبه ، بيد انه لا يستطيع تجاهل مصلحة فرنسا العليا في

(٢٤) جريدة الحقيقة البيروتية - السنة ١١ - العدد رقم ٩٩٨ - الصادر في ١١ كانون الاول ١٩١٨ - ص ٢ . راجع القسم المتعلق بالتعليم الابتدائي في الصفحات التالية من هذا الفصل .

(٢٥) - L. C. Catroux « Deux missions au Moyen-Orient » - P. 61-62.

(٢٦) - L. C. Catroux - Ibidem - P. 63.

المنطقة» (٢٧) . ولما يس شانتور من امكانية حمل غورو على ما يرغب ، قام باتهام كاترو بتفصيل مشروعه ذلك . ويقول كاترو « ان رئيس جامعة القديس يوسف أصدر جرماء على الجنرال غورو وعلي انا » (٢٨) .

وهكذا اصطدمت رغبة اليسوعيين بالتفرد في التعليم العالي في سوريا ولبنان بمصالح فرنسا العليا فيهما . وكانت نيتهم تتجه الى خنق الجامعة العربية في دمشق كخطوة اولى يتسنى لهم بعدها خنق الجامعة الاميركية في بيروت بالرغم من تعهد الفرنسيين بحرية المؤسسات التبشيرية الاميركية في دولتي الانتداب . غير ان ارتباط الفرنسيين بمعاهدة واضحة بهذا الخصوص مع الاميركيين ومعرفتهم المسبقة بعجزهم على القيام بما فعلوه في الجزائر في هذا الخصوص من ضرب للغة العربية والثقافة العربية ، اجبرتهم على الإبقاء على الجامعة العربية في دمشق . اما ذلك الإبقاء فلم يكن يعني تشجيعا لها او تنفيذا للدور الذي رسمه لها الملك فيصل الاول خلال حكمه القصر وبهدف سياسي واضح هو تحويلها الى جامعة عربية تضم جميع الكليات وتؤدي دورها الثقافي كاملا . « وكان هدفه من ذلك - كما يقول كاترو - تحويل العاصمة السورية الى عاصمة ثقافية لجميع البلدان الناطقة باللغة العربية » (٢٩) . فالخطة الفرنسية تهدف الى الإبقاء على الجامعة العربية في دمشق مقتصرة على كليتي الطب والحقوق . وضفت اليسوعيين المتواصل سيضرب التطور اللاحق لهذه الجامعة . وبالرغم من استمرارها في الوجود فقد الحقت بها هيئة تعليمية كانت اغلبية افرادها من الفرنسيين . وبقيت كليتا الطب والحقوق وحدهما جنيبا لتلك الجامعة التي لم تم قط خلال الفترة الانتدابية الاولى . وهذا ما يفسر تعداد الطلاب فيها عام ١٩٢٤ حيث قدر عدد الطلبة في كلية الطب ١٤١ طالبا وفي كلية الحقوق ١١١ طالبا اي ما مجموعه ٢٥٢ طالبا مقابل ١١٥٣ طالبا في جامعة القديس يوسف و ١١٢ طالبا في جامعة بيروت الاميركية والمدارس الملحقة بهما في العام نفسه (٣٠) . ان اليسوعيين ، وان لم يتمكنوا من اغلاق جامعة دمشق نهائيا ، استطاعوا الحد من تطورها واصابوا بذلك نجاحا كبيرا دون شك . لكن هذا النجاح لم يثمر لصالح الجامعة اليسوعية في بيروت وحدها بل جاء يدعم الجامعة الاميركية فيها فاضحت تشكل منافسا خطيرا لها ، فاستفادت كثيرا من كبح تطور جامعة دمشق بحيث توجه قسم كبير من الطلبة السوريين اليها ، خاصة من الطوائف الاسلامية ، في حين احتفظت جامعة القديس يوسف بوجه طائفي مسيحي ماروني لم تستطع التخلص منه طيلة عهد الانتداب . وباعتراف السكرتير العام للانتداب ، روبرت دو كيه ، « فان تفلقل التعليم الفرنسي اقتصر فعلا على العنصر المسيحي في سوريا ولبنان » (٣١) . حتى ان المدارس الملحقة بجامعة القديس يوسف والبالغ عددها اثنتي عشرة مدرسة ، سبع مدارس منها

— L. C. Catroux « Op. Cit. » — P. 64. (٢٧)

— L. C. Catroux « Op. Cit. » — P. 63. (٢٨)

— L. C. Catroux « Op. Cit. » — P. 59 (٢٩)

— Haut-Commissariat « Rapport sur l'année 1925 » — P. 95. (٣٠)

— R. de Caix — Histoire des colonies françaises — La Syrie — T. 3. P. 485. (٣١)

للكور ، وخمس مدارس للاناك ، لم تضم ، في الغالب ، سوى تلاميذ من الموارنة والكاثوليك بلغ تعدادهم ٨٨٩ تلميذا و ٦٧٢ تلميذة في عام ١٩٢١ . ويقول الدكتور عبدالله اليافي : « كنا قليلي العدد الى اقصى الحدود في الجامعة اليسوعية ، لكن الآباء اليسوعيين كانوا يحترمونا كل الاحترام ... » (٢٢) .

« في الحقيقة - يقول الجنرال كاترو (١٩٢٢) - كان عدد الطلاب المسلمين قليلا جدا في مدارس الآباء اليسوعيين ، غير ان الغالبية منهم ، وعموم الذين كانوا من الجنسية السورية ، كانوا يواصلون تعليمهم في الجامعة الاميركية البروتستانتية ببيروت » (٢٣) . ان تشدد اليسوعيين في ضرب الجامعة العربية بدمشق في ظروف توسع الجامعة الاميركية المدعومة من حكومة الولايات المتحدة الاميركية والمساعدات الفردية ، وفي ظروف النكسة التي اصيبت بها حركة التحرر الوطني السورية واللبنانية اثر ميلتون ونقمة الوطنيين على الفرنسيين والانكليز ، وفي ظروف الطابع الطائفي المحض الذي تميز به تعليم اليسوعيين آنذاك وغيرها عززت مواقع الجامعة الاميركية ، فأضحت ، بالرغم من وجود الانتداب الفرنسي على رأس السلطات في بيروت ، منافسا خطيرا لجامعة القديس يوسف وملتقى ابناء الاغنياء العرب الناقمين على الياسة الفرنسية في سوريا ولبنان .

التنافس الحاد بين جامعة القديس يوسف والجامعة الاميركية

ان جامعة القديس يوسف ، بمحافظتها على وجهها الطائفي الماروني - الكاثوليكي آنذاك ، احتفظت ايضا بوجه لبناني وان وحيد الجانب نبيا ، في حين اصبحت الجامعة الاميركية في بيروت ذات لغلبية طلابية عربية ، خاصة من الدول الواقعة تحت الانتداب البريطاني ، وبعض دول الكومنولث . يضاف الى ذلك ان الجامعتين ضمنا اعدادا قليلة من الطلاب الاوروبيين والاميركيين ومختلف الجنسيات . ومما لا ريب فيه ان التوجه الاساسي لهاتين الجامعتين لم يكن معزولا عن الاستراتيجية العامة للانتدابين الانكليزي والفرنسي من جهة ، وللمخططات الاميركية في المنطقة من جهة اخرى . ولم يكف الآباء اليسوعيون يوما عن اعلان تأييدهم التام للانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ، كي لا تتوقف المساعدة الحكومية الفرنسية لجامعة القديس يوسف عن الازدياد باضطراد (٢٤) . فأضحت هذه الجامعة فرنسية الصبغة تماما واصبحت تخضع مباشرة لرقابة واشراف المفوضية العليا . وكان المندوب السامي يحضر شخصا حفلة افتتاح العام الدراسي فيها وحفلة توزيع الشهادات لطلابها بحيث أضحت جامعة الحكومة الفرنسية فعلا . في حين تبنت الولايات المتحدة الاميركية جامعتها وامتدتها بكل مقومات الدعم منذ البداية .

(٢٢) مقابلة خاصة .

— L. C. Catroux — Op. Cit. — P. 63.

(٢٣)

— L'Asie Française — No. 208 — Janvier-Février 1923 — P. 44.

(٢٤)

أ - في مجال الطب والصيدلة :

كان على الطلبة الذين يودون الانتساب الى كلية الطب الفرنسية التابعة لجامعة القديس يوسف ، ان يخضعوا لامتحان عام أمام لجنة يعينها المندوب السامي شخصيا ويرئسها من ينوب عنه من قبل المفوضية العليا . ولم يكن يستطيع التقدم بطلبات انتساب الى هذه الكلية سوى المرشحين الحائزين على شهادة البكالوريا الفرنسية والبكالوريا اللبنانية التي تعطيها ادارة المعارف الفرنسية في بيروت والشهادة السورية للتعليم الثانوي الصادرة عن الادارة الفرنسية في دمشق . واذا كان لا بد من المباراة ، يعفى حملة البكالوريا الفرنسية من هذا الامتحان (٢٥) .

اما لفة التدريس في هذه الكلية فكانت الفرنسية في جميع المواد . وتدل أرقام خريجيتها ان عددا كبيرا من حملة شهاداتها ينتمون الى بلدان مجاورة للبنان وعربية الجنسية . وبنفت تلك الشهادات المنوحة من كليتي الطب والصيدلة حتى عام ١٩٢٢ ما مجموعه ٧٠٠ (٢٦) متخرجا ومتخرجة موزعين على جنسيات في الشرق الاوسط والشرق الاقصى وافريقيا واميركا . وكان عدد خريجي الطب من اللبنانيين يكاد ان يكون مرة ونصف المرة في كلية الطب الفرنسية عنها في كلية الطب في الجامعة الاميركية خلال اعوام ١٩٢٠ - ١٩٢٦ وتوزعوا على الشكل التالي :

كلية الطب في جامعة القديس يوسف (٢٧)

العام	لبنانيون	سوريون	مصريون	جنسيات مختلفة	المجموع
١٩٢٠	٣	١	١	١	٦
١٩٢١	٩	٤	٢	٥	٢٠
١٩٢٢	١٠	٣	٣	٥	٢١
١٩٢٣	٩	٤	٨	٨	٢٩
١٩٢٤	١١	٥	٨	٣	٢٧
١٩٢٥	٥	١	٤	٩	١٩
١٩٢٦	٤	٢	٣	٢	١١

— U.S.J. « L'Assemblée générale de l'UNESCO — 1948 » — P. 115. (٢٥)

— U.S.J. « L'Université Saint-Joseph en 1922 » — P. 9. (٢٦)

— U.S.J. « Distribution des Prix 1919-1930 » . (٢٧)

كلية الطب في الجامعة الاميركية (٢٨).

المجموع	جنسيات مختلفة	مصريون	لبنانيون	العام
٢٤	١٤	٣	٧	١٩٢٠
٢٤	١٣	٦	٥	١٩٢١
١٨	٦	٤	٨	١٩٢٢
٢٦	١٦	٦	٤	١٩٢٣
٢٤	١٠	١١	٣	١٩٢٤
٢٤	١١	٩	٤	١٩٢٥
٤٦	٢٩	١٤	٣	١٩٢٦

عدة ملاحظات يمكن استخلاصها من الجدولين المتقدمين :

١ - ان عدد اللبنانيين لم يصل الى السدس من المجموع العام في الجامعة الاميركية في حين تجاوزت نسبة اللبنانيين هذه النسبة بكثير في المجموع العام لخريجي كلية الطب الفرنسية . فبين ١٣٣ طيبا تخرجوا من اليسوعية بلغ عدد اللبنانيين بينهم ٥١ طيبا مقابل ٢٤ لبنانيا من اصل ١٨٨ متخرجا من الجامعة الاميركية .

٢ - ان عدد الخريجين قد هبط باستمرار وبحدة بعد عام ١٩٢٢ في كلية الطب الفرنسية في حين ان احصاء ١٩٢٦ قد ضاعف عدد خريجي كلية الطب في الجامعة الاميركية وبدأت المنافسة تسير لصالح الاخيرة بالذات في هذا المجال الهام .

٣ - ان عدد المتخرجين اللبنانيين كان يتناقص باستمرار في كليتي الطب الاميركية واليسوعية .

٤ - ان عدد الطلبة المصريين في الكليتين كان كبيرا بالنسبة لمجموع عدد الطلاب وكان بنسبة ١ الى ٢ بين اليسوعية والاميركية لصالح الاخيرة .

٥ - ان عدد الطلبة اللبنانيين بقي ضئيلا جدا بالنظر الى كثافة السكان في لبنان ، وكان بالتالي حكرا على عدد قليل جدا من اولاد الاغنياء اللبنانيين والعرب . ولا بد من التنويه هنا ، وعلى عكس التوقعات السابقة للكولونيل كاترو من ان « عموم الطلبة السوريين سيتوجهون الى الجامعة الاميركية في بيروت » ، فاننا لم نعد في دليل الخريجين لكلية الطب في الجامعة الاميركية سوى على ثلاثة اسماء فقط لأطباء سوريين نالوا شهاداتهم من تلك الكلية . اثنان منهم تخرجوا عام ١٩٢٣ والثالث في عام ١٩٢٦ ، في حين ان وجود الاطباء السوريين بين خريجي الكلية الفرنسية واضح من الاحصاء المذكور وبلغت نسبتهم ٢٠ متخرجا مقابل ٥١ لبنانيا تخرجوا خلال الفترة المذكورة . ولعل كلية الطب بجامعة دمشق ، بجهازها التعليمي من الفرنسيين ، كذلك التعليم العام باللغة الفرنسية ، اجبرا الطلاب على التوجه خارج دمشق الى كلية الطب الفرنسية دون غيرها .

ب - تدريس الحقوق في لبنان حكر على اليسوعية

إذا كان امتياز كلية الطب قد حصر بالاغنياء من بلدان متفرقة بينها لبنان ، فان امتياز الدخول الى كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية بقي حكرأ على اولاد الاغنياء او « ابناء العائلات » كما يطلق عليهم ، ولم يتجاوزهم سوى لعدد قليل جدا من السوريين والمصريين والفرنسيين ، والاحصاء التالي يبين لنا عدد الخريجين من كلية الحقوق اليسوعية خلال اعوام ١٩٢٠ - ١٩٢٦ (٢٩) .

اتعام	لبنانيون	سوريون	مصريون	فرنسيون	المجموع
١٩٢٠	١١	-	-	١	١٢
١٩٢١	١٥	١	-	١	١٧
١٩٢٢	١٦	٢	-	١	١٩
١٩٢٣	١٣	٣	-	٣	١٩
١٩٢٤	١٧	٢	٢	-	٢١
١٩٢٥	١٣	٣	-	١	١٧
١٩٢٦	١٥	١	٢	٥	٢٣

يستنتج من هذا الجدول ان وجود اللبنانيين كان ساحقا في هذه الكلية اذ بلغ ١٠٠ طالبا من اصل ١٢٨ طالبا كما ان هذا العدد قد تجاوز الوجود اللبناني في كليتي الطب في الجامعة الاميركية والجامعة اليسوعية معا والذي لم يتجاوز ٨٥ طالبا خلال الفترة عينها . مما يدل بوضوح ان الفرنسيين كانوا بحاجة الى بعض الكادرات المحلية اللازمة لانتدابهم في سوريا ولبنان، ولتكريس تعليم مشوه يعتمد على تشجيع القطاعات غير التطبيقية والتقنية على حساب الفروع التطبيقية الضرورية لتطوير المجتمع المتخلف في لبنان .

اما كلية الحقوق بجامعة القديس يوسف ، والتي قامت بانشائها الجمعية الليونية منذ عام ١٩١٢ دون ان تمارس نشاطها فعليا الا بعد اعادة افتتاحها عام ١٩١٩ ، سدت جزئيا حاجة الانتداب الفرنسي الى الاداريين في الوظائف المتوسطة والكبيرة ايضا ومهدت الطريق امام المتخرجين فيها ، على نفس الانظمة والبرامج المطبقة في كليات الحقوق الفرنسية ، الى تولي مناصب كبرى في ظل الانتداب الفرنسي . وبذلك استطاع هذا الانتداب ، في محاولة لامتصاص نقمة السكان ، ملء وظائف كثيرة بواسطة خريجي هذه الكليات بالذات ، واضفاء الطابع الوطني المحلي على ادارته في المرحلة الانتدابية الدستورية . ويكفي ان نشير في هذا المجال ان جميع الذين شغلوا منصب رئاسة الجمهورية اللبنانية ، قبل الانتداب وبعده،

هم من خريجي المدارس اليسوعية بشكل عام ، وكلية الحقوق فيها بشكل خاص . وحتى الستينات من هذا القرن ، كانت الاغلبية الساحقة من الوزراء والمدراء العاميين وكبار موظفي لادارة ، والنواب المثقفين ، من بين خريجي هذه الكلية دون سواها .

ومتخرجو هذه الكلية كانوا من ابناء اليسورين واغنياء اللبنانيين والسوريين بشكل خاص . لذا حافظت هذه الكلية على وجهها الطبقي الواضح منذ نشأتها بالذات ، كما حافظت الجامعتان الاجنبيتان في بيروت على هذا الوجه طيلة ايام الانتداب وبعد الاستقلال . اما ما اعتبر فارقا بينهما فينبع من واقع ان اليسوعية كانت حكراً على ابناء اغنياء اللبنانيين والسوريين وبعض المصريين في الغالب ، في حين فتحت الجامعة الاميركية ابوابها امام ابناء الاغنياء من العرب وبعض دول الكومنولث من جنسيات مختلفة . فبالرغم من تعدد القوميات والجنسيات هذه فان الوجه الطبقي كان واحدا في الجامعتين .

لقد تخرج من كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية ٦٥٢ (٤٠) طالبا حتى عام ١٩٤٧ ، منهم ٣٩٠ لبنانيا و١١٦ سوريا و٢١ فرنسا و١٢٥ طالبا من سبع جنسيات اخرى . وقد شغل هؤلاء المتخرجون ابرز مناصب الادارة الاستقلالية في لبنان ، في حين بقيت الجامعة الاميركية دون كلية للحقوق فيها حتى اليوم . ويعمل الدكتور رباط (٤١) ذلك بأن تعليم القانون الفرنسي وحده في لبنان الكبير وطيلة الفترة الانتدابية وحتى لبنان المستقل كان ابرز الاسباب التي جعلت الاميركيين يحجمون عن فتح مثل تلك الكلية نظرا لرفضهم تدريس تلك القوانين الفرنسية من جهة ، ولفقدان الجهاز التعليمي القادر على تدريس تلك القوانين في كليتهم في بيروت من جهة اخرى . اما الدكتور نقولا زياده (٤٢) ، فأضاف سببا سياسيا هو خشية الاميركيين من اقدام الفرنسيين على اغلاق جامعتهم ان هي تدخلت في الشؤون الخاصة لفرنسا المنتدبة .

« ان المؤسسات التعليمية الفرنسية في الشرق هيأت لنا عناصر ممتازة للماء وظائف ثانوية في ادارتنا (٤٣) ، يقول بوربون ، الا ان كلية الحقوق في جامعة القديس يوسف هيأت عناصر الادارة اللبنانية ، لا في ظل الانتداب فحسب ، بل في الفترة الاستقلالية التي تلتها ايضا . ان حرمان الجامعة الاميركية من كلية للحقوق في ذلك الحين ، حرماها ايضا من المشاركة في مغانم الادارة اللبنانية فترة طويلة من الزمن . وما نشهده اليوم من صراع على تلك الادارة ليس الا محاولة حثيثة من جانب الاميركيين للتعويض عما فاتهم من حرمان ولعدم توافق مشاركتهم في الادارة بنسبة سيطرتهم على الاقتصاد اللبناني في الوقت الراهن .

— U.S.J. « L'Assemblée générale de l'UNESCO 1948 » — P. 181. (٤٠)

(٤١) مقابلة خاصة .

(٤٢) مقابلة خاصة .

— Bourbon « La Syrie et la France » — P. 27. (٤٣)

ج - في الهندسة وطب الاسنان وباقي المجالات

كي تحافظ جامعة القديس يوسف على «امتياز الفنى» كشرط اساسي للدخول لى حرم كلياتها ، انشأت منذ ١٩١٩ مدرسة تحضيرية مهمتها « اعداد التلاميذ لامتحانات القبول في كليات الطب والحقوق والهندسة(٤٤) . وكان جميع تلامذتها خارجيين يداومون باستمرار طيلة العام الدراسي ، ولغة التدريس الوحيدة فيها هي الفرنسية .

هذه المدرسة أعدت مباشرة الطلاب للدخول في الكليات اليسوعية . ومما يلفت النظر ان كلية الهندسة التي انشئت عام ١٩٢٢ ، وكانت مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، لم تخرج في اعوام ١٩٢٥ و ١٩٢٦ و ١٩٢٧ سوى ٢٠ طالبا فقط توزعوا على السنوات المذكورة كما يلي : ٧ ، ٧ ، ٦ . وكان عدد اللبنانيين بينهم كما يلي : ٤ ، ٢ ، ٤ ، وعدد السوريين ١ ، ٣ ، ٢ ، وعدد المصريين ١ ، لعام ١٩٢٥(٤٥) فقط . اما كلية الصيدلة ، القديمة العهد في لبنان ، فكانت دفعت خريجيها على التوالي(٤٦) :

العام	لبنانيون	سوريون	مصريون	جنسيات اخرى	المجموع العام
١٩٢٠	١	٤	—	٢	٧
١٩٢١	١	١	١	١	٤
١٩٢٢	٣	٢	٢	٣	١٠
١٩٢٣	٢	—	—	٤	٦
١٩٢٤	٢	—	—	١	٣
١٩٢٥	١	١	١	٢	٥
١٩٢٦	٢	٢	١	—	٥

يتبين من هذا الجدول ان عدد الخريجين كان قليلا جدا! خلال سبع سنوات اذ لم يتجاوز ١٢ متخرجا من لبنان مقابل ٩ متخرجين سوريين و ٥ متخرجين مصريين و ١٣ متخرجا من جنسيات اخرى .

وفي كلية طب الاسنان بجامعة القديس يوسف ، التي انشئت منذ ١٩٢٠ ، كان الطلاب فيها من الجنسيين اللبنانية والمصرية بشكل خاص وبعض السوريين . وتوزع خريجوها كما يلي : (٤٧)

(٤٤) U.S.J. « Beyrouth et le Grand-Liban » — P. 18.
 (٤٥) U.S.J. — Ibidem — P. 18.
 (٤٦) U.S.J. « Distribution des Prix », 1919-1930.
 (٤٧) U.S.J. — Distribution des Prix, 1919-1930

العام	لبنانيون	مصريون	سوريون	جنسيات اخرى	المجموع العام
١٩٢٣	٢	٥	٢	-	٩
١٩٢٤	-	٤	-	٢	٦
١٩٢٥	٤	٢	-	١	٧
١٩٢٦	٨	٣	-	-	١١
١٩٢٧	٨	٣	١	٤	١٦

ولم نستطع الحصول على ارقام تفصيلية لخريجي الجامعة الاميركية في تلك الفترات . لكننا وجدنا مقارنة بين طلاب الجامعتين لعامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ وردت في النشرة الاقتصادية لجمعية التجار والصناعيين الفرنسيين في الشرق (٤٨) .

	طب	صيدلة	طب اسنان	توليد	هندسة	حقوق
١٩٢٥						
القديس يوسف	١٨٢	١٠	٣٧	-	٣٣	١٤٦
الجامعة الاميركية	٩٢	٤٤	٥٢	-	-	-
١٩٢٦						
القديس يوسف	١٣٩	٢١	٤٣	٢٢	٤٣	١٤٢
الاميركية	٩٩	٣٤	٣٩	٣٤	-	-

يتبين من هذين الجدولين ان نسبة النجاح ضئيلة جدا في جامعة القديس يوسف بالرغم من كل التضييقات السابقة والمدرسة التحضيرية . فمقابل ٣٧ طالبا في كلية طب الاسنان فيها لم يتخرج سوى ٧ طلاب فقط عام ١٩٢٥ ، ومقابل ٤٣ طالبا لم يتخرج سوى ١٣ طالبا عام ١٩٢٦ ؛ و ١٦ طالبا عام ١٩٢٧ . وبالرغم من عدم توفر الاحصاءات الدقيقة لدينا ، نستطيع القول ان نسبة النجاح فيها لم تبلغ ٤٠٪ بعد كل العراقيل السابقة . اما في كلية الهندسة فكانت النسبة ادنى من ذلك بكثير . فقد تخرج ٧ طلاب فقط عام ١٩٢٥ مقابل ٣٣ طالبا مسجلين فيها و ٧ طلاب ايضا عام ١٩٢٦ مقابل ٤٣ طالبا . كذلك الحال بالنسبة لكلية الحقوق التي تخرج منها عام ١٩٢٥ فقط ١٧ طالبا مقابل ١٤٦ طالبا مسجلا و ٢٣ طالبا تخرجوا عام ١٩٢٦ مقابل ١٤٢ طالبا مسجلا . وفي كلية الطب الفرنسية تخرج ٢٧ طالبا فقط للعام الدراسي ١٩٢٧ - ١٩٢٨ مقابل ١١١ طالبا مسجلا ، و ٣ طلاب تخرجوا من كلية الصيدلة مقابل ١٨ مسجلين ، و ٩ خريجين في معهد طب الاسنان فيها مقابل ٤٢ مسجلين (٤٩) .

ان صعوبة الامتحانات ، اذا ما اضيفت الى العراقيل العديدة التي فرضها اليسوعيون امام الدخول الى كلياتهم ، كانت من الاسباب الهامة التي دفعت اعدادا

— Bulletin Trimestriel du C.I.F.L., No. 1 — 1927 — P. 69.

(٤٨)

— R. O'Zoux « Etats du Levant... » — P. 184.
et H. C. « Rapport sur 1925 » — P. 95.

(٤٩)

كبيرة من الطلاب وجهة الجامعة الاميركية ، فاغتنبت اكثر من منافستها بعدد الطلاب وابدات مؤشرات التطور تعمل لصالح الاميركية على حساب تدهور اليسوعية منذ الفترة الانتدابية الاولى . ولم يحفظ لجامعة القديس يوسف نفوذها في لبنان الا قرارات المندوبين السامين المستمرة ، وكلية الحقوق فيها التي عملت باستمرار على ابراز اليسوعية في الصف الاول للتعليم العالي في لبنان آنذاك ، وبسبب الدعم المباشر الذي قدمه لها خريجوها المنتشرون في دوائر دولة الانتداب بالذات دون وجود أقران لهم من الاميركية .

د - آفاق تطور الجامعات :

اعتباراً من ١٩٢٤ بدأت جامعة بيروت الاميركية تحرز تفوقاً ملحوظاً على جامعة القديس يوسف . فقد ارتفع عدد طلابها من ٤٤٩ طالباً عام ١٩٢٣ الى ٥٩٣ عام ١٩٢٤ اي بزيادة ١٤٤ طالباً مقابل زيادة ٢٩ طالباً فقط في اليسوعية التي ارتفع عدد طلابها من ٣٧٢ عام ١٩٢٣ الى ٤٠١ عام ١٩٢٤ .

وفي كلية الطب بالجامعة الاميركية ارتفع عدد الطلاب من ١٦٤ طالباً الى ١٨٥ خلال تلك الفترة في حين انخفض عدد طلاب كلية الطب في اليسوعية من ١٧٧ طالباً الى ١٧٤ خلال ١٩٢٣ - ١٩٢٤ ، الى ١١١ طالباً فقط لعام ١٩٢٧ - ١٩٢٨ (٥٠) زيادة على ذلك ، تعززت كليات الفنون والعلوم والتجارة في الجامعة الاميركية بأعداد كبيرة من الطلاب . ففي كلية الفنون والعلوم ارتفع عدد الطلاب من ١٣٧ طالباً عام ١٩٢٣ الى ٢٣٧ طالباً عام ١٩٢٤ . في حين ضمت كلية التجارة فيها ٧٨ طالباً عام ١٩٢٤ مقابل ٦٨ طالباً عام ١٩٢٣ (٥١) .

صحيح ان كلية الحقوق بجامعة القديس يوسف بقي بمقدورها دوماً تفسير ميزان الأعداد الطلابية لصالح الجامعة اليسوعية ، غير ان المساعدات المستمرة من جانب حكومة الولايات المتحدة والمفتربين اللبنانيين للجامعة الاميركية والتي تجاوزت بكثير نسب مساعدات الحكومة الفرنسية لجامعة القديس يوسف ، أوجدت قلقاً جدياً وهلعاً في نفوس الجزويت عن الأفق القاتم لتطور جامعتهم . وقد عبرت مجلة « آسيا الفرنسية » الوثيقة الاتصال بدوائر الانتداب وخفايا باريس ، عن هذا القلق منذ ١٩٢٩ فكتبت تقول : « ان عدد اليسوعيين الفرنسيين في لبنان يتناقص باستمرار . فقد انخفض ما بين ١٩٠٥ و ١٩٢٨ من ٨٥ الى ٥٤ يسوعياً . زد على ذلك ان ميزانية الكلية الفرنسية بيروت (جامعة القديس يوسف) تبلغ ٤ ملايين فرنك تقدم منها حكومة باريس مليوناً و ٨٠٠ الفاً فقط ، في حين ان ميزانية الجامعة الاميركية في بيروت تزيد على ١١ مليون فرنك تدفعها حكومة الولايات المتحدة بكاملها ، ويضاف اليها العديد من الهبات » (٥٢) .

- H. C. « La Syrie et le Liban, 1919-1927 » — P. 129. (٥٠)
 — H. C. — Rapport sur l'année 1925 — P. 95. (٥١)
 — L'Asie Française — L'union économique de la Syrie — article « pour le maintien de l'influence française dans le Levant » — No. 267, Février 1929. (٥٢)
 P. 66.

هذا الدعم الخارجي الهام ، مضافا الى سياسة اليسوعيين السيئة والضيقة الأفق على الصعيد المحلي ، والتي اعتمدت على ابقاء الوجه الطائفي لجامعتهم بأن جعلوها تقتصر على المنصر المسيحي بشكل عام والماروني - الكاثوليكي بشكل خاص، دفعت باقي الطوائف الى تثقيف ابنائها في الجامعة الاميركية بيروت .

ونعترف هنا اننا لم نستطع الحصول على احصائيات دقيقة للتوزيع الطائفي في الجامعتين بالنسبة للطلاب غير ان احصاء علميا اورده هاني فياض عن عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٤ يدعم وجهة نظرنا السابقة مع اعتقادنا الاكيد ان النسبة كانت اسوأ من ذلك حتما في الفترة التي درسناها . وقد جاء في احصائيات هاني فياض (٥٢) .

ارثوذكس سنة دروز شيعة موارنة بروتستانت كاثوليك						
						١٩٥٢
	٢	٩	٣	٣	٧	٢٤
الاميركية						٢٠
اليسوعية	١٧	١	٣٢	٤	٢	٥
						١٤
						١٩٢٦
	١	٨	٢	٥	٦	١٢
الاميركية						٢٦
اليسوعية	١٢	٢	٤٦	٥	١	١٣
						٩

هذه الاحصائيات تثبت توجه الاورثوذكس والدروز والبروتستانت بكثافة نحو الاميركية مقابل توجه الموارنة والكاثوليك بأغلبية ساحقة نحو اليسوعية وتوزع السنة والشيعة بين الجامعتين مع اعتقادنا الصريح ان توجه هؤلاء كان في الغالب نحو الاميركية خلال الفترة الاولى للانتداب .

لقد كان وجود الانتداب الفرنسي دعما قويا للجامعة اليسوعية كي تنمو وتزدهر خلال فترة الانتداب بكاملها الا ان وجود الجامعة الاميركية في بيروت ، وضعف المساعدات الفرنسية لجامعة القديس يوسف اذا ما قورنت بحجم مساعدات الحكومة الاميركية لجامعتها ، والوجه الطائفي لجامعة الجزويت ، كانت من الاسباب الهامة التي كانت تعيق تطور جامعة القديس يوسف في بيروت .

التعليم الثانوي في ظل الفرنسيين

ان المنافسة العنيفة التي وجدها اليسوعيون في مجال التعليم العالي والتي تمثلت بالجامعة الاميركية في بيروت كانت معدومة الأثر على مستوى التعليم الثانوي والابتدائي ، فكانت هيمنتهم شبه مطلقة في هذين المجالين . وقد أصر اليسوعيون منذ البداية على ضرورة تشجيع المدارس الخاصة دون غيرها على هذا الصعيد ، خاصة تلك التي تدرس اللغة الفرنسية ، اجنبية كانت ام خاصة .

— Hani Fayyad « The effects of sectarianism on the Lebanese administration » — thesis — P. 33. (٥٢)

فخلال الحرب العالمية الاولى اصيب التعليم في لبنان بكارثة ، خاصة المدارس التي تغطي دروسها باللغة الفرنسية او الانكليزية واغلقت جميعها ولم تبق سوى واحدة فقط هي مدرسة الأليانس الاسرائيلية ببيروت ، التي استمرت بتدريس الفرنسية واستحقت شكر فرنسا فيما بعد ، على لسان المسؤول الفرنسي عن التعليم في ادارة الانتداب سوريا ولبنان ، السيد شغالي الذي ارسل الى حكومته يقول بهذا الخصوص « علينا الا ننسى وفاء الأليانس الاسرائيلية ، وأن نقدم لها كل دعم (٥٤) » ، في حين استمرت المدارس الالمانية القليلة العدد تعمل بانتظام ، كذلك مدارس البعثات الاميركية التي قامت بدور هام في توزيع الأغذية والملابس وبناء الملاجئ والميامن .

وحسب احصائيات بنك سوريا ولبنان ، كان في سوريا ولبنان الكبير عام ١٩٢٢ بالذات ١٦ مدرسة (٥٥) ثانوية للذكور تضم ٦٤٦٦٣ تلميذا و ٧ مدارس للإناث تشتمل على ٣١٨ تلميذة و ٣ مدارس تعليمية او فنية ثانوية تضم ٦٤ تلميذا وتلميذة . ومن بين طلاب هذه المدارس الثانوية يوجد ٦٦٨ تلميذا من سوريا و ١٨٨٥ تلميذا من بلدان اوروبية او اميركية مختلفة ، خاصة اولاد المهاجرين اللبنانيين . وهكذا يتبين ان عدد الطلاب اللبنانيين في تلك المدارس الثانوية والفنية حوالي ٤ آلاف تلميذ وتلميذة فقط توزعوا على مدارس خاصة محلية واجنبية ، وكانت الغلبة الساحقة فيها للمدارس الاجنبية التي يشرف عليها اليسوعيون والفرنسيون والفرير او اخوة المدارس المسيحية والأخوة الريميون ، والأليانس الاسرائيلية ، وراهبات المحبة التابعات لرهبانية القديس فنسان دو بول ، وراهبات الناصرة ، وراهبات العائلة المقدسة ، وراهبات القديس يوسف المتجلي ، وراهبات بيزنسون ، وراهبات الراعي الصالح ، وراهبات زيارة العذراء ، وراهبات القلب الاقدس وغيرها . وكانت هذه المدارس تتوزع على معظم مناطق الجبل اللبناني خاصة جونه وبعيدا وبكفيا وحمانا وعينطورة بالإضافة الى بيروت وطرابلس . أما أهم المدارس الثانوية المحلية أو الأهلية ، وكلها مدارس خاصة ، فكانت الحكمة المارونية الثانوية ، والثانوية البطريركية في بيروت ، وثانوية الأب لطفى ، ومدرسة الثلاثة اعمار الاورثوذكسية ، وثانوية زهرة الاحسان ، وثانوية تهذيب الفتاة ، وثانوية المقاصد الخيرية الاسلامية ، والكلية الوطنية بعاليه ، والثانوية الوطنية اللبنانية .

« وفي مرجعيون ، كانت مدرستان خاصتان تمنحان تلامذتهما شهادة تخولهم الدخول مباشرة الى المؤسسات التعليمية العالية في بيروت » (٥٦) . أما المدارس الثانوية الرسمية فكان عددها ثلاثة مدارس (٥٧) حتى عام ١٩٢٦ يضاف اليها مدرسة للصنائع والفنون في بيروت ، التي انشئت فيها قبل عام ١٩١٤ « لكنها لم تعرف الانتظام قط في عملها » (٥٨) . وكانت هذه المدرسة للصنائع تنتقي طلابها بين سن

— Chevalley « L'enseignement en Syrie pendant la période d'Organisation 1919-1921, foire-exposition de Beyrouth — P. 105. (٥٤)

— Bulletin annuel de la Banque de Syrie et du Liban — Année 1929. P. 38. (٥٥)

(٥٦) مجلة الحارس البيروتية — السنة الاولى — المجلد الرابع — تموز ١٩٢٢ — ص ١٧٦ .

— H. C. « Rapport sur l'année 1925 » — P. 95. (٥٧)

— Huvelin « Que vaut la Syrie ? » — P. 24. (٥٨)

الثالثة عشرة والثامنة عشرة . وكانوا قسمين : طلاب ينائون منحة من الدولة وطلاب يدفعون مصاريف نفقاتهم . وكانت مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات وفي السنة الرابعة يحضر الطالب دبلوما للدراسات العليا في فرع تخصصه . وبلغ تعداد طلابها ٧٠ طالبا عام ١٩٢٧ (٥٩) في السنوات الاربع .

اما مواد تلك الدراسة فكانت تقتصر على الميكانيك والكهرباء وتصليح السيارات وسبك المعادن والحداة والرسم الصناعي والمساحة (٦٠) . كذلك كانت هناك مدرستان لإعداد المعلمين والمعلمات في بيروت انشئت الاولى منذ ١٩٢٥ والثانية في عام ١٩٢٦ تعملان تحت اشراف المسؤول التربوي في ادارة الانتداب مباشرة والذي عاد فجمعها في مدرسة واحدة منذ ١٩٢٧ ، وبلغ تعداد طلابها عام ١٩٢٨ (٦١) اربعة عشر طالبا وطالبة منهم ثمانية طلاب وستة طالبات فقط وبقي تأثيرها ضئيلا جدا طيلة الفترة الانتدابية بكاملها . وحتى المرحلة الانتدابية الاولى ، كانت الدراسة الثانوية ، التعليمية والتقنية ودور المعلمين ، مقصورة تقريبا على المدارس الخاصة ، الاجنبية واللبنانية . ومن اصل ٣٨ مدرسة ثانوية كانت هناك ٣٤ ثانوية خاصة وثلاث ثانويات رسمية ومدرسة للصنائع والفنون . ومن بين تلك الثانويات الخاصة ال ٣٤ ، والبالغ عدد تلامذتها ٧٦٤٧ تلميذا وتلميذة عام ١٩٢٦ (٦٢) ، كانت هناك ١١ مدرسة خاصة لبنانية فقط تضم ١٤٧٧ تلميذا وتلميذة ، أي بزيادة ثانويتين على عام ١٩٢٤ و ٤ ثانويات لبنانية محلية على عام ١٩٢٣ (٦٣) . ومقابل هذه الثانويات اللبنانية الخاصة كانت هناك ٢٣ ثانوية اجنبية تضم ٦٠١٧ تلميذا وتلميذة وبينها عشرون ثانوية تدرّس باللغة الفرنسية .

اما المناصب الاجتماعية لتلامذة هذه الثانويات ، فاعتراف الفرنسيين انفسهم ان تلك الثانويات « لم تكن تستقبل سوى ابناء الاسر الغنية » (٦٤) في حين ان الثانويات الخاصة المحلية « تستقبل ابناء الاسر المسورة فتوصلهم الى الشهادة الابتدائية العالية (البريفه) ونادرا الى البكالوريا » (٦٥) .

وهكذا يبدو واضحا تماما ان السياسة الفرنسية التعليمية في هذا المجال كانت تهدف منذ البداية الى دعم قطاع التعليم الثانوي الخاص بشكل عام ، والثانويات التي تدرّس باللغة الفرنسية بشكل خاص ، وجعل الثانويات الخاصة المحلية تعجز عن اتمام دراسة تلامذتها ، في الوقت الذي اهتمت فيه اهمالا تاما الثانويات الرسمية للدولة والتي لم تتطور قط خلال تلك الفترة الانتدابية الاولى . فانفرد اليسوعيون في الهيمنة على التعليم الثانوي في لبنان دون ان يجدوا لهم منافسا جديا كما جرى

-
- R. O'Zoux « Les Etats du Levant... » — P. 200. (٥٩)
— H. C. « Rapport sur l'année 1925 » — P. 95. (٦٠)
— R. O'Zoux « Etats du Levant... » — P. 196. (٦١)
— Bulletin de C.I.F.L. — No. 1 de 1927 — P. 154. (٦٢)
— Rapport sur l'année 1925 — Index No. 4. (٦٣)
— Chevalley — Op. Cit. — P. 115. (٦٤)
— Chevalley — Op. Cit. — P. 116. (٦٥)

على صعيد التعليم العالي ، بل كانت الثانويات الأخرى ، رسمية وخاصة محلية ، في حالة تبعية تامة لبرامجهم وأنظمة امتحاناتهم التي فرضوها رسميا على الجهاز التربوي برمته في لبنان الكبير والذي كان فعلا منهم ولهم .

ان هيمنة اليسوعيين على التعليم الثانوي في جميع مدارسه بقي دون منافس جدي طيلة عهد الانتداب . وكانت برامجهم تعتمد أساسا اللغة الفرنسية والتراث الفرنسي في محاولة لاقتلاع الطالب اللبناني من جذوره التاريخية وجعله أسير الثقافة الفرنسية حتى النافه منها . لقد عانى اليسوعيون كثيرا في محاولتهم مسح شخصية الطالب اللبناني وعزله عن محيطه الطبيعي الذي يعيش فيه .

التعليم الابتدائي أيام الانتداب

منذ دخول فرنسا المنتدبة ، وحتى قبيل اعلان انتدابها ، الى سوريا ولبنان، سعت بإلحاح الى اعادة تشجيع التعليم الابتدائي الخاص كي يحتل المركز الممتاز الذي كان له قبل الحرب العالمية الاولى .

فمنذ كانون الثاني ١٩١٩ ، اي بعد ثلاثة اشهر فقط من دخول الجيوش الحليفة الى لبنان ، دعا المفوض السامي الاول ، فرنسوا جورج بيكو ، الى محاضرة تكلم فيها عن ضرورة تعزيز التعليم في لبنان. ولبى دعوته تلك جميع الزعماء الدينيين ورؤساء الرهبانيات والعديد من رجال الدين المسيحيين واصحاب المدارس الخاصة الطائفية المسيحية . واعلن بيكو في الخطاب الذي القاه في هذه المناسبة قراره على دعوة كل طائفة الى فتح مدارسها التي كانت تعمل قبل الحرب ، ودعا الى فتح مدرسة في كل قرية ، كما اعلان ان المفوضية العليا ستخصص لتلك المدارس ما بين ١٦٠٠ و ١٩٠٠ فرنك فرنسي سنويا عن كل معلم فيها ، بالاضافة الى معونات استثنائية لنفقات البناء الاولى . وقد خصصت الحكومة الفرنسية بالفعل مبلغ مليون ونصف المليون من الفرنكات الفرنسية الذهبية كرسيد لتلك النفقات الاولى . وبفضل هذه الاجراءات المشجعة فتحت ٦٦٨ مدرسة في لبنان منذ اواخر ١٩١٩ ، وارتفع الرقم الى ٨٢٠ مدرسة عام ١٩٢٠ والى ٩٩٣ عام ١٩٢١ (٦٦) .

لقد كان التوجه لادارة الانتداب غاية في الوضوح ، فادت تلك الاجراءات الى تطوير المدارس الخاصة بسرعة . وجوابا عن تطور التعليم الرسمي يقول التقرير السنوي لعصبة الامم عنه حرفيا « اما التعليم العام (الرسمي) فحسب ما تسمح به مداخيل دولة لبنان الكبير من اعتمادات خاصة في هذا المجال » (٦٧) (كدا) .

وعبارة « حسب ما تسمح به مداخيل دولة لبنان الكبير » كانت تعني انخفاضا مستمرا على موازنات التعليم الرسمي . فقد هبطت ميزانية هذا القطاع من ٢٠٠ الف ليرة سورية (مقابل مليون ونصف المليون من الفرنكات الذهبية كهبات لسد النفقات الاولى للمدارس الخاصة !!!) عام ١٩١٩ الى ١٥٢٦٠٥٦ ليرة سورية لعام

— Voir: Bulletin économique de C.I.F.L. — No. 1 de 1927 — P. 58.

(٦٦)

— Rapport sur l'année 1925 — P. 24.

(٦٧)

١٩٢٣ الى ١٢٤٠٧١٢ ليرة سورية لعام ١٩٢٤ الى ١٣٨٠٨٠١ ليرة سورية لعام ١٩٢٥ (٦٨) . وأشار تقرير عام ١٩٢٥ بصراحة الى « ان عملية الاقتصاد تلك هي بالغة الأهمية ومقصودة وتجد تبريرها في العدد الكبير للمدارس الخاصة المتواجدة في لبنان الكبير » (٦٩) . فالهدف واضح : جعل التعليم الرسمي في حالة تبعية تامة للتعليم الخاص ، وكلما تطور هذا الاخير كان من الضروري - برأي ادارة الانتداب - تقليص عدد المدارس الرسمية .

وبالرغم من ان وجود التعليم الرسمي كان مقتضرا فعليا على شكله الابتدائي ، فان تلك السياسة الانتدابية قد جمته في مكانه وحدت من آفاق تطوره اللاحق . فلم تكن هناك أية ميزانية جديدة للتعليم الرسمي . فمن اصل ميزانية عامة بلغت ارقامها ٢٤٠١٩٩٤٠٠ ليرة سورية عام ١٩٢٤ كانت حصة التعليم فيها ١٢٤٠٧١٢ ل.س . ومن اصل ميزانية عامة ٢٤٠١٥٠١٣٢ ل.س. لعام ١٩٢٥ ، كانت ميزانية التعليم فيها ١٣٨٠٨٠١ ، أي بنسبة ٦٪ (٧٠) تقريبا في الحالتين .

ومن اصل ٩٨٥ مدرسة ابتدائية عاملة في لبنان الكبير عام ١٩٢٤ ، لم يكن عدد المدارس الرسمية يتعدى ١١٥ مدرسة تضم حوالي ٨٠٠٠ تلميذ وتلميذة مقابل ٨٧٠ مدرسة خاصة ، محلية وأجنبية تضم ٨٠ ألف تلميذ وتلميذة ، ويتدني عدد تلامذة المدارس الرسمية من ٨٦١١ تلميذ وتلميذة عام ١٩٢٣ الى ٨٠٦٤ عام ١٩٢٤ (٧١) . لذا كان الوضع العام للتعليم الرسمي يزداد سوءا عاما بعد عام . فانخفض عدد المدارس ايضا عام ١٩٢٥ حتى وصل الى ١١٣ (٧٢) مدرسة . وبالرغم من ان هذا التعليم سيسجل تقدما ملحوظا مع مجيء الجنرال ساراي ودعوته للعنانية اذ ارتفع عدد المدارس الرسمية فجأة الى ١٤٤ مدرسة عام ١٩٢٦ ، منها ١١٤ مدرسة للذكور و ٣٠ مدرسة للإناث فان عدد تلاميذ تلك المدارس لم يتجاوز ٩٤٤٣٢ منهم ٦٤١٧٣ تلميذا و ٣٢٥٩ (٧٣) تلميذة .

وتلعل الجدول التالي يوضح نسبة التلاميذ في المدارس الخاصة والرسمية منذ ١٩١٩ حتى ١٩٢٦ (٧٤) في دويلات سوريا ولبنان الكبير .

-
- H. C. « Rapport sur l'année 1924 » — P. 24. (٦٨)
 — H. C. — Ibidem — P. 24. (٦٩)
 — (٧٠) — أيلبي وجرجي جدمون — الدليل السوري لعام ١٩٢٤ ص ١٥ ولعام ١٩٢٥ ص ١٥٢ .
 — Rapport sur l'année 1925 — Index 4 — P. 95. (٧١)
 — L'Asie Française — No. 225 — Décembre 1927 — P. 394. (٧٢)
 — M. Desjardins « Le problème syrien... » — thèse — P. 83. (٧٣)
 — M. Desjardins — Ibidem — P. 84. (٧٤)
 et Bulletin de C.I.F.L. No. 1 — 1927 — P. 59. (٧٥)

التعليم الخاص عدد التلاميذ	التعليم الرسمي عدد التلاميذ	العام
٣٩٠٠٠	لا احصاء	١٩١٩
٧٥٠٦٧٩	لا احصاء	١٩٢٠
٧٢٠١٤١	١٦٠٨٩٧	١٩٢١
٧٥٠٢٤٢	٣٠٠١٤٥	١٩٢٢
٧٩٠٨٣٤	٣٣٠٥٠٥	١٩٢٣
٨١٠١٠٣	٣٥٠٨٦١	١٩٢٤
٧٣٠٥٦٧	٣٥٠١٥٥	١٩٢٥
٩٢٠٤٨٧	٣٨٠٨٧٣	١٩٢٦
(٧٥) ٨٠٠٠٠	٤٠٠٠٠	١٩٢٧

ان عدد التلاميذ هنا يشمل جميع المدارس الرسمية في دويلات الانتداب الفرنسي . وقد اشرنا منذ قليل الى تعداد المدارس والطلاب في دولة لبنان الكبير بمفردها . و اشرنا كذلك لتلامذة المدارس الخاصة حيث ان الاغلبية الساحقة من تلك المدارس وتلامذتها كانت تتمركز في دولة لبنان الكبير بالذات . ومن الثابت القول ان نسبة التعليم الرسمي لم تتعد واحد الى عشرة (٧١) بالنسبة الى التعليم الخاص الاجنبي والمحلي ، ان بعدد المدارس او بعدد التلاميذ ، وذلك باعتراف المسؤول الفرنسي عن التعليم في دول الانتداب الفرنسي بالذات .

ويبلغ تعداد المدارس الخاصة الاجنبية عام ١٩٢١ ، حسب احصائيات شفالي تفه ، ٣٦٠ (٧٧) مدرسة ، منها ٩١ مدرسة لليسوعيين و ٤٧ للمعازرين و ٣٥ لراهبات المحبة ، و ٣٤ لآخوات القلب الاقدس ، و ٢٤ للكوشيين و ١٦ لآخوات القديس يوسف ، و ١٦ لآخوات الوردية ، و ١٢ لراهبات الناصرة ، ومدرسة الاليانس الاسرائيلية ، و ٩ مدارس لآخوة المدارس المسيحية (الفرير) ، و ٩ للعائلة المقدسة اللبنانية و ٩ للمريميين وغيرها . اما عدد المدارس الطائفية المحلية وشبه الطائفية المجانية ، وتلك التي يديرها مواطنون محليون ، فبلغت ٨٠٣ مدارس عام ١٩٢١ كما يلي : ٢٥٨ مدرسة مارونية ، و ٢١٦ مدرسة للروم الكاثوليك و ١٥٤ للروم الاورثوذكس و ١٥٣ للسنة والشيعه والدروز و ٢٢ (٧٨) لطوائف اخرى .

تضاف الى هذه المدارس الخاصة ايضا ، مدارس انكليزية بلغ تعدادها ٢٢ مدرسة لهذا العام و ٥٧ (٧٩) مدرسة اميركية .

(٧٥) هذا الاحماء للسنة الاخيرة هو احصاء تقريبي ورد في

— R' O'Zoux « Etats du Levant sous mandat français » — P. 193.

— Chevalley — Foire-exposition de Beyrouth « L'enseignement en Syrie et au Liban » — P. 114. (٧٦)

— Chevalley — Op. Cit. — P. 115-116. (٧٧)

— Chevalley — Op. Cit. — P. 144. (٧٨)

— H. C. « Rapport sur l'année 1925 » — P. 95. (٧٩)

وفي رأينا ان هذه الاحصائيات ليست دقيقة . كما ان النشرة الاقتصادية التي تصدر كل ثلاثة اشهر عن جمعية التجار والصناعيين الفرنسيين في الشرق قد اعطت ارقاما مختلفة عن عام ١٩٢١ اذ قدرت عدد المدارس الخاصة في لبنان ١٩٩٣ (٨٠) مدرسة في حين ان احصائيات شفالي ترفع هذا الرقم الى ١٢٤٢ مدرسة موزعة كما يلي : ٣٦٠ مدرسة خاصة اجنبية فرنسية ، ٢٢ مدرسة انكليزية ، ٥٧ مدرسة اميركية ، ٨٠٣ مدارس طائفية ومحلية ، ولعله يشير الى جميع المدارس الخاصة في سوريا ولبنان معا .

ومهما يكن من امر تلك الاحصائيات فان نسبة التعليم الرسمي لم تتعد فيها جميعا واحد الى عشرة كما الحنا سابقا . كما ان هناك بعض المدارس في المناطق، خاصة المدارس الخاصة منها التي جرى احصاؤها من قبل الفرنسيين دون ان تذكر في جداول جمعية التجار والصناعيين . وعلى سبيل المثال ، فان جديدة مرجعيون وحدها كانت تحوي ٨ (٨١) مدارس للبنين والبنات تجمع بين جدرانها نحو ٧٠٠ تلميذ وتلميذة خلال تلك الفترة .

بيد ان ما هو ثابت من تلك الاحصائيات ان اليسوعيين خاصة والتعليم الخاص باللغة الفرنسية عامة ، كانا على رأس المدارس في لبنان الكبير ، ان من حيث عدد المدارس أو عدد التلاميذ ولم يكن امامهم من منافس جدي في هذا المجال . وبالرغم من بروز « الجمعية الطليانية للأعمال الخيرية والتثقيفية » في لبنان الكبير منذ ١٩٢٢ فان تلك الجمعية مرت بمرحلة ازدهار عابرة فقط . فقد كانت المدارس الإيطالية في لبنان قليلة العدد قبل الحرب العالمية الاولى وتوقفت عن العمل اثنان الحرب التركية - الإيطالية . ثم عادت الى الازدهار بعد الحرب منذ ١٩٢٢ - ١٩٢٣ بعد ان قامت بفتح مدارس جديدة لها في لبنان بفضل المساعدات السخية التي قدمتها « الرابطة الوطنية للبعثات الإيطالية في الشرق » . فأنشأت لها مدرسة للبنين في طرابلس باشراف الآباء الكرمليين ، تلتها اخرى للبنات باشراف الأخوات الكرمليات ثم ثلاث مدارس دفعة واحدة للآباء مقابل ثلاث مدارس للأخوات اتباع القديس كارم توزعت على بشري والقيبات واهدن خلال عامي ١٩٢٢ - ١٩٢٣ (٨٢) وحدهما . كما قام الآباء الدومنيكان بفتح ثانوية للبنين في بيروت . واهتمت مستشفى اتبعت بها مدرسة للتمريض في طرابلس للأخوات الكرمليات . وجرى فتح عدة مدارس للبنات في بيروت والمناطق باشراف اخوات الجبل بلا دنس . وهكذا توسع الوجود التعليمي للمدارس الإيطالية بسرعة خلال تلك الفترة بعد بروز الفاشيين على سدة الحكم في ايطاليا . الا ان تلك المدارس لن يصبح بمقدورها ان تنافس جديا مدارس الجزويت التي ارسست قواعدها هنا منذ زمن بعيد ، ولم يتجاوز عدد المدارس الإيطالية في عام ١٩٢٤ اكثر من ١٤ مدرسة بلغ تعداد تلامذتها ١١١ (٨٣) تلاميذ فقط .

— Bulletin de C.I.F.L. — No. 1 — 1927 — P. 58.

(٨٠)

(٨١) مجلة الحارس البيروتية — السنة الاولى — العدد ٤ — تموز ١٩٢٣ — ص ١٧٦ .

— H. C. « Rapport sur l'année 1925 » — P. 95.

(٨٢)

— H. C. « Rapport sur l'année 1925 » — P. 95.

(٨٣)

بيد ان جميع الاحصائيات تشير الى ان التعليم سيتقلص منذ ١٩٢٣ ، ان في عدد المدارس او في عدد التلاميذ . فقد انخفض عدد المدارس الخاصة المحلية من طائفية وغيرها الى ٧٢٨ مدرسة عام ١٩٢٤ . مقابل ٧٨٥ . عام ١٩٢٣ (٨٤) . اما المدارس الخاصة عامة فقد انخفض تعدادها ، حسب احصائيات جمعية الصناعيين من ٩٩٣ مدرسة عام ١٩٢١ الى ٩٩٠ عام ١٩٢٢ الى ٩٣٥ عام ١٩٢٣ ، الى ٩٨٥ عام ١٩٢٤ ، الى ٨٩٥ عام ١٩٢٥ . ثم ارتفع الى ٩٨٠ مدرسة في عام ١٩٢٧ (٨٥) في لبنان وحده . مقابل ٦٣٧ مدرسة خاصة في جميع الدويلات السورية .

والمدارس الرسمية انخفض تعدادها كذلك من ١١٦ (٨٦) مدرسة عام ١٩٢٣ الى ١١٥ مدرسة عام ١٩٢٤ الى ١١٣ مدرسة عام ١٩٢٥ ثم ارتفع الى ١٤٤ مدرسة حتى عام ١٩٢٧ مقابل ٤٣٥ مدرسة رسمية في الدويلات السورية .

هذا الانخفاض المستمر في تعداد المدارس كان يرافقه هبوط عمودي في تعداد التلاميذ في القطاعين الخاص والعام . فقد هبط عدد التلاميذ في المدارس الخاصة عامة من ٥٥٤١٨٢ عام ١٩٢٣ الى ٥١٦٥٥٣ عام ١٩٢٤ في المدارس التي تستخدم اللغة الفرنسية . ويشير تقرير المفوضية العليا الى ان المدارس التي كانت تدرس باللغات الاخرى ظلت محتفظة بتعداد مدارسها لكن دون زيادة بين اعوام ١٩٢١ الى ١٩٢٥ . فكانت المدارس التي تعلم الانكليزية ٧٩ مدرسة ، منها ٢٢ انكليزية و ٥٧ اميركية بلغ تعداد تلاميذها ١٦١٥٢ للمدارس الانكليزية مقابل ٣٤١٣٢ تلميذا وتلميذة للاميركية منها بالاضافة الى المدارس الايطالية الاربعة عشر التي بلغ تعداد تلاميذها ١١١ (٨٧) تلاميذ .

معركة العلمانية نصر آخر لليسوعيين

ان معركة العلمانية التي بداها الجنرال ساراي ، ساعدت على ارتفاع عدد المدارس الرسمية عام ١٩٢٦ الى ١٤٤ مدرسة أي بزيادة ٣١ مدرسة في عام واحد . ونسبة تجاوزت ٢٠٪ دفعة واحدة . وقام كايلا ، حاكم لبنان الكبير عام ١٩٢٥ ، يعلن في خطاب له في ١٦ آذار في مدينة زحلة ، عن ضرورة العلمانية في التعليم . وجاء في خطابه « انني اثني على المدرسة العلمانية لانها تخرج شبانا ليس فيهم تلك الروح المعروفة بل يعملون بروح المدرسة وبتعاليمها التي لا تفضل فريقا من ابناء الوطن على آخر ، فهي اذا روح المدرسة الوطنية . انا سنوجد هذه المدرسة لاننا لا نشتغل في الظلام بل على ملاء الناس لكي يتحرر التعليم من كل القيود التي عاقت

— H. C. — Ibidem.

(٨٤)

— Bulletin de C.I.F.L. — Op. Cit. — P. 58.

(٨٥)

— H. C. — Rapport sur 1925 — Index 4, et R. O'Zoux « Etats du Levant sous mandat français... » — P. 195.

(٨٦)

— Rapport sur 1925 — Op. Cit. — Index 4.

(٨٧)

(اعاقت - م.ض) لبنان الكبير حتى الآن .. « (٨٨)

وكان رد الجزويت عنيفا جدا ضد هذه العلمانية التي ستهدد وجودهم بالذات في هذه المنطقة وانبرت جريدتهم « البشير » تصدر سلسلة مقالات ضد العلمانية . وكانت ابرز عناوينها « العلمانيون ليس لهم رب ولا دين ولا خلق » . « يحرضون على الفتنة » ، و « محاربة الدين باسم العلمانية » ، « المدارس العلمانية اللادينية هل تحترم الأديان ؟ » ، « حكومة الولايات المتحدة ما أبعدها عن العلمانية » ، « فرنسا هل تؤيد كايلا ؟ » (٨٩) الخ ...

ومن جملة ما كتبت « البشير » في تلك المقالات ردا على كايلا « - أولا ان المدارس العلمانية هي منافية لكل الأديان . ثانيا : انها منافية للأداب ورجالها للولايات والبلايا على المجتمع الانساني . ولا نشك أبدا ان اللبنانيين يضمون كتلة واحدة بعد نشر هذا المقال لمقاومة المدارس العلمانية التي لا إله لها دفاعا عن دينهم وآدابهم » (٩٠) . لقد عرف الجزويت كيف يقودون المعركة ضد العلمانية ، والتي لم تكن تنفصل آنذاك وحتى اليوم ، عن تشجيع المدارس الخاصة على حساب المدارس الرسمية في حقل التعليم ، وذلك باسم الدين ، في زمن كان التعصب الديني فيه يبلغ اقصى مداه . وقام اليمين الفرنسي بجميع أجنحته يضغط على حكومة باريس لإجبار الجنرال ساراي على مصالحة الأبناء اليسوعيين الذين كانوا اكبر قوة تدعم النفوذ الفرنسي في هذا المجال .

وقد مهد اليسوعيون لحملة تلك منذ معرفتهم الاولى بتعيين الجنرال ساراي في المفوضية العليا ببيروت . ويقول لامازير ، معبرا بصدق عن تلك الفترة « عندما انتشر خبر استدعاء ويغان الى باريس وعرف اسم خلفه ساراي في اوساط المسيحيين ، خاصة اليسوعيين في لبنان الكبير ، اعتبر تعيينه تحدا لهم . وانطلقت صحف اليسوعيين خاصة ، والوارنة عامة ، تكتب المقالات وتنشر الأنباء ذات الطابع العدائي الواضح ضد ساراي . ووجهت الرسائل والعرائض والبرقيات الى كل من رئيس مجلس الوزراء ، ورئيس الجمهورية ، في فرنسا ، كذلك الى الوزراء والنواب والشخصيات البارزة ، مطالبين بتعديل المفوض السامي الجديد قبل ان تطأ قدمه ارض لبنان » (٩١) .

ان الهجوم العنيف على الجنرال ساراي ومن ثم على العلمانية فيما بعد لم يكن يهدف الا وضع العراقيل امام فك الارتباط بين اليسوعيين في لبنان والسياسة الفرنسية فيه ، أيا كان الحاكم في باريس . فالمعركة هناك ارتدت طبعا واضح

— Correspondance d'Orient — No. 329 — Mai 1925 — P.2 05.

(٨٨)

وقد نقلت الخطاب ايضا جريدة « الاحرار » البيروتية في عددها ٢٩٣ الصادر في ١٧ آذار

. ١٩٢٥

(٨٩) بدأت حملة « البشير » ضد العلمانية منذ العدد ٢٣١٥ الصادر في ١٨ نيسان ١٩٢٥ ، وفي الاعداد اللاحقة .

(٩٠) « البشير » - العدد ٢٣١٥ - تاريخ ١٨ نيسان ١٩٢٥ .

— La Mazière « Partant pour la Syrie » — P. 107.

(٩١)

العالم بين اليمين وكارتيل اليسار بينما معركة اليسوعيين هنا ارتدت طابعا طائفيا واضحا وجعلت حكومة الكارتيل أمام خطر فقدان ركيزة أساسية من ركائز فرنسا في الشرق الأوسط ان استمر ساراي في عدائه للجزويت وفي معركة العلمانية . لقد كان لفرنسا المنتدبة ، فرنسا اليمين وفرنسا الكارتيل ، فائدة كبرى من تأييد الآباء اليسوعيين في لبنان . ولم يكن من مصلحتها قط تقويض احدى خواص وجوده في المنطقة لرضاء العلمانية الجنرال ساراي التي وجهها ضد رجال الدين ، خاصة الموارنة منهم ، في بلد متعدد الأديان وسريع الانفعالات الطائفية . ولقد عرف اليسوعيون نقطة الضعف تلك في جبهة العلمانية ، فأثروا بصورون العلمانية على انها حرب حقيقية ضد الدين في لبنان الكبير بشكل عام ، وضد الموارنة والكاثوليك بشكل خاص ، واستطاعوا بذلك ان يؤلبوا السكان ضد ساراي . وتضافرت كل القوى ، الداخلية والخارجية ضد المفوض السامي العلماني ، ولم يسانده سوى عدد قليل من اللبنانيين والسوريين ، وكانت النتيجة الحتمية لذلك تراجع الجنرال ساراي ، وذهابه الى بكركي معتذرا يوم اطلق عبارته المشهورة « ان باريس تتاهل قديما » . الا ان تراجع الجنرال « اليساري » كان يعني الكثير على الصعيد الداخلي ، اذ ثبتت هيمنة الآباء اليسوعيين على التعليم في لبنان ، فاستمروا الأكثر عددا في المدارس ونسبة التلاميذ ، وفرضوا هيمنتهم المطلقة على الجهاز التربوي اللبناني برمته خارج أسوار الجامعة الأميركية فقط ، وأشرفوا على مناهج التدريس ، ونظام الامتحانات ، ونوعية الشهادات ، ووضعوا التعليم الرسمي بحالة تبعية مطلقة للتعليم الخاص . هذه التبعية ستستمر طيلة أيام الانتداب الفرنسي ، ومرحلة واسعة من الاستقلال حتى يومنا هذا .

وهكذا سيطر الآباء اليسوعيون ، حملة لواء التعليم الخاص باللغة الفرنسية على جهاز التعليم الابتدائي والثانوي في لبنان الكبير . وبالرغم من وجود بعض المؤسسات الاجنبية والخاصة المحلية على جناباتهم ، فقد هيمنوا ، دون منافس جدي في هذا المجال ، على التعليم الخاص والعام هنا ، وسدوا آفاق التطور بوجه التعليم الرسمي طيلة عهد الانتداب .

النتائج الاجتماعية لهيمنة التعليم الخاص في لبنان

ان تبعية التعليم الرسمي للتعليم الخاص طوال مرحلة الانتداب الفرنسي ، جعلت تعليم الدولة في حالة من الركود والانحطاط المستمر . فالمدرسة الرسمية في القرى ، خاصة في المناطق التي التحقت بحيل لبنان منذ ١٩٢٠ ، لم تختلف بشيء عن مدارس الاتراك السابقة (٩٢) ، لا في طريقة تدريسها ولا في جهازها التعليمي ولا في منابت التلاميذ الذين كانوا يؤمنونها . وبقي الشكل الأكثر انتشارا : معلم واحد لاكثر من خمسين تلميذا . والطريقة المتبعة : العصا الطويلة والتكرار

(٩٢) مقبولة شلق « التعليم في لبنان قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها » - مجلة الطريق - المجلد

الرتيب للدروس ، والحفظ عن ظهر قلب ، بالإضافة الى بعض مبادئ علم الحساب . وقد اعترف تقرير فرنسا المنتدبة لعام ١٩٢٤ ، المرسل الى عصبة الامم ، بهذه الحقيقة صراحة اذ قال « ان المدارس الرسمية في لبنان الكبير لم تتغلب بعد على مناهجها القديمة وأوضاعها المتردية وطرائق تدريسها السيئة الناتجة عن فقدان معلمين مختصين » (٩٣) .

وجاء فرض اللغة الفرنسية في المدارس الرسمية ، مكان اللغة التركية السابقة ، يضيف عاملا معيقا آخر في وجه تطور هذه المدارس ، بسبب فقدان الجهاز التعليمي بصورة تكاد تكون تامة لتدريس هذه اللغة من جهة ، وبسبب العقبات التي فرضتها هذه اللغة في وجه طلاب المدارس الرسمية . صحيح ان اللغتين ، العربية والفرنسية (٩٤) ، اعتبرت رسميتين في المدارس الرسمية واجباريتين ، فان الفرنسية كانت لغة تدريس معظم المواد تقريبا في تلك المدارس ، بالإضافة الى كونها لغة التدريس الوحيدة في المدارس الخاصة التي تدرس بالفرنسية . وكانت الامتحانات الرسمية تجري طبقا لمناهج المدارس الخاصة بالذات . لهذا فرضت مواد اللغة الفرنسية والرياضيات والعلوم وأحيانا التاريخ والجغرافيا والحساب في المدارس الرسمية باللغة الفرنسية ، في حين كانت اللغة العربية تدرّس « كلفة حية أولى » (٩٥) في المدارس الخاصة ، الاجنبية والطائفية ، كما قامت المدارس الانكليزية والاطالنية والالمانية وغيرها في لبنان باستخدام لغاتها أولا في تعليم تلامذتها ، وتدرّس اللغة العربية والفرنسية كلغتين حيتين . وهذا ما جعل « العروبة اللغوية » تقتصر على بعض المدارس الرسمية السيئة التعليم وعدد قليل جدا من المدارس الخاصة المحلية التي اهتمت بتدريس تلك اللغة . فحلت اللغات الاجنبية ، وخاصة الفرنسية والانكليزية ، وهما حكر على أبناء الطبقات الفنية والميسورة أساسا ، محل اللغة العربية الام التي أصبحت تدرّس « كلفة حية » فقط في المدارس الخاصة ، ونشأ عن ذلك تبعية مطلقة للثقافات الاجنبية التي تدرسها تلك اللغات مع احتقار تام للغة العربية ولكل التراث المكتوب فيها .

والنتيجة الثانية ، ان التعليم الرسمي انتشر ببطء في المناطق الفقيرة فقط ، وكان جميع الذين اقبلوا عليه من أبناء الطبقات الكادحة عامة ، والمسلمين منهم بشكل خاص . فمن اصل ٥٤٩٩ تلميذا عام ١٩٢٤ ، موزعين على ٩١ مدرسة ابتدائية رسمية ، وباعتراف تقارير المفوضية العليا بالذات ، كان عدد المسلمين منهم ٤٤١٦ تلميذا مقابل ١٠٨٣ تلميذا مسيحيا . ومن اصل ٢٥٧٩ بنتا في العام نفسه كانت نسبة المسلمات منهن ٢٣٢٣ تلميذة مقابل ٢٥٦ تلميذة مسيحية فقط . في حين ان النسبة ستكون معكوسة تماما في المدارس الخاصة . فمن اصل عدد التلاميذ لعام

(٩٣) — H. C. « Rapport sur l'année 1924 » — P. 19.

(٩٤) راجع القطع الهام جدا الذي كتبه الدكتور جورج حنا في « من الاختلال الى الاستقلال » حول دور اللغة الاجنبية في منح العناية الوطنية والشعور القومي في لبنان — ص ٢٤ — ٢٥ .

(٩٥) — H.C. « Rapport sur 1924 » — P. 12.

١٩٢٤ والبالح ٥٥٣٥٨ تلميذا وتلميذة (٩٦) ، ينتشرون في ٧٢٢ مدرسة تدرّس باللغة الفرنسية ، لم يكن بينهم سوى ٧٨٣٩ تلميذا وتلميذة من السنة و ١٠١٥ من الدروز و ٩٦ من الشيعة مقابل ٤٦٤٠٨ من المسيحيين وعدد ضئيل من اليهود . يضاف الى ذلك ، ان تلامذة المدارس الاجنبية ، غير الفرنسية ، كانوا يبلغون ٦١٧٣ تلميذا وتلميذة عام ١٩٢٤ ، ويتوزعون على ٨٨ مدرسة . وكانت نسبة السنة فيهم ٨١٦ و ٤١٣ درزيا ودرزية ، و ٦٤ من الشيعة مقابل ٤٨٦٠ من الطوائف المسيحية وبعض اليهود .

ومن اصل ٢٥٧٤٥ بنتا موزعة على ٢٦٣ مدرسة فرنسية ومحلية تدرّس الفرنسية عام ١٩٢٤ ، كانت نسبة المسيحيات منهن ٢٣٦٨٢ مقابل ٢٠٦٣ مسلمة موزعات كما يلي : ١٦٩١ سنية ، و ٣٠٩ درزية ، و ٦٣ شيعية (٩٧) . وهكذا يتبدى لنا ان التعليم الخاص قد اوجد اتساعا في شقة التحصيل الثقافي بين الطوائف اللبنانية بالذات ، و اضحى اداة للتصفيه الطبقيه لصالح المسيحيين دون المسلمين . فالتعليم الخاص في لبنان بقي محصورا ضمن الطوائف المسيحية بشكل عام ، والاغنياء منهم بشكل خاص . ودلت احصائيات رسمية اجريت عام ١٩٠٣ ، ان نسبة الاميين في البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسي كانت تبلغ ٤٠٪ في لبنان ، و ٧٧٪ في سوريا ، و ٨٥٪ في بلاد العلويين ، و ٩٣٪ في جبل الدروز (٩٨) . فالتعليم الخاص جعل لبنان يتبوا المركز الاول بين تلك الدويلات ، الا ان نسبة الامية ظلت مرتفعة جدا فيه ، خاصة في صفوف الطبقات الفقيرة .

وتوزعت تلك النسب على الطوائف في عام ١٩٣٥ كما يلي : ٨٣٪ بين الشيعة ، و ٦٦٪ بين السنة ، و ٥٣٪ بين الدروز ، و ٥٣٪ بين الارثوذكس ، و ٤٨٪ بين الموارنة ، و ٣٨٪ بين الكاثوليك (٩٩) . وحسب احصاء رسمي للاميين في لبنان الكبير والذي يرقى الى عام ١٩٢٢ ، توزعت نسبة الاميين فيه حسب المناطق اللبنانية على الشكل التالي :

المحافظة	عدد الاميين	النسبة المئوية من السكان
بيروت	٤٢٠٦٨٢	٣٧،٦٢٪
جبل لبنان	٩١٠٦٤٤	٤٠،٦٣٪
لبنان الشمالي	٨٩٠٩٣٤	٥١،٤٤٪
لبنان الجنوبي	٨١٠٢٩٤	٤٨٪
البقاع	٦٣٠٤٣٣	٥٣،٧٤٪ (١٠٠)

— H.C. « Rapport sur 1925 » — Index 4. (٩٦)

— H.C. « Raport sur 1925 » — Index 4. (٩٧)

(٩٨) جريدة « صوت العمال » — العدد الاول — الصادر في ٧ آذار ١٩٣٠ — الصفحة الرابعة .

— L'Orient (Journal) — 24 Janvier 1935 — Voir aussi : Hani Fayad. (٩٩)

« The effects of sectarianism... » — Thesis — P. 33.

(١٠٠) سعيد حماده — « النظام النقدي .. » ص ١١ .

نتيجة أخرى نشر إليها هنا ، ان فرنسا المتدبة ، بتأييدها لقطاع التعليم الخاص دون سواه ، خاصة ما يعود منه للأبناء اليسوعيين ، شجعت المؤسسات التعليمية ، الاجنبية منها والخاصة المحلية ، المدنية والدينية ، كي تلعب دور صاحب المؤسسة في معاملته لعماله . فقد عمدت تلك المؤسسات التعليمية الى استفلال اساتذتها بصورة مباشرة ، وهو استفلال لم يتوقف عن الاتساع . ففي غياب أي تشريع قانوني يضمن عمل أولئك الاساتذة ، وفي غياب أية رقابة فعلية من جانب الدولة على تلك المدارس ، كانت اجور الاساتذة متدنية جدا ، كما كانوا عرضة للتسريح الكيفي والطردي .

وباعتراف الفرنسيين انفسهم ، فان المدرّس في تلك المؤسسات الخاصة لم يكن يتقاضى اجراً يساوي الاجر الذي تقدمه له الدولة نفسها لقاء عمل مساوٍ لعمل زميله في مدارس الدولة ، ان لم يكن اكثر ارهاقاً في معظم الحالات . وقد اورد هذه الحقيقة ، السيد شفالي ، المسؤول العام عن التعليم في لبنان الكبير حين قال : « ان مهلمي المدارس الخاصة يتقاضون اجوراً اقل من اجور مهلمي المدارس الرسمية . فمقرباتهم الشهرية تتراوح ما بين ٣ و ١٠ ليرات لبنانية - سورية ، بينما يتراوح مرتب المعلم في المدارس الرسمية ما بين ٧ و ٢٠ ليرة » (١٠١) . هذا الوضع الهابط والبالغ السوء ، الذي ارسيت قواعده الادارة الفرنسية في لبنان الكبير ، والذي يطال مجموعة كبيرة من العاملين في حقل التعليم الخاص ، يستمر طيلة فترة الانتداب وبعده . لقد مارس اصحاب تلك المدارس ، مدنيون ودينيون ، دور اصحاب المصانع وارباب الاعمال ، فقدت المدرسة مع هذا الدور البشع لأصحابها ، طابعها التثقيفي الحضاري ، لتنزوي في الجانب التجاري القائم على الاستغلال وامتصاص خيرات القوى المنتجة الحقيقية في المجتمع .

بعض الاستنتاجات

لا ريب ان التعليم الخاص ادى خدمات كبيرة في مجال التثقيف في لبنان ووضع الشبيبة اللبنانية وسط حركة ثقافية واسعة بالنسبة لسكان المنطقة بأسرها . بيد ان هذا التعليم بالذات كان اداة للتمييز السياسي والثقافي بين أبناء البلد الواحد . « فالتربية في لبنان - كما يستنتج بنوا ابو صوان منذ ١٩٢٤ - كادت ان تكون فرنسية تماما . واذا كانت اللغة العربية هي اللغة الاساسية للبنان ، فان اللغة الفرنسية كانت تفوقها انتشاراً في دوائر المثقفين . تلك الدوائر بالذات التي ستقود الشعب اللبناني بأسره ، مدعومة بدوائر الانتداب الفرنسي » (١٠٢) .

والجامعتان الكبيرتان في بيروت اليسوعية والاميركية ، لم تعودا بأية فائدة على صعيد الطبقات الفقيرة وابنائها ، بل على العكس من ذلك ، كرستا وجودهما لخدمة

— Chevalley « L'enseignement en Syrie... » Op. Cit. — P. 114.

(١٠١)

— B. Aboussouan « Le problème syrien ... » P. 173-174

(١٠٢)

ابناء الاغنياء من اللبنانيين خاصة ، والعرب عامة . ولقمت جامعة القديس يوسف بدعم ادارة الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان بالعديد من الموظفين على مختلف المستويات ، وبعض اطباء والمهندسين من ابناء البورجوازية اللبنانية والعائلات الاقطاعية . اما الجامعة الاميركية فاهتمت بقسط كبير في الدور المعادل بالنسبة للعراق وفلسطين وشرقي الاردن وحتى مصر . وتتل احصائيات ١٩٢٧ - ١٩٢٨ ان تعداد الاساتذة في الجامعة الاميركية قد بلغ ٢١٤ استاذاً بينهم ٨٤ استاذاً مشرقياً فقط . وبلغ تعداد الطلاب فيها ، لنفس العام ، ١١١٧ طالباً (١٠٣) بينهم ٣٩٩ فقط من جميع الدول الواقعة تحت الانتداب الفرنسي او قسطنطينيا و ١٤١ ارمينيا و ١٤٢ عراقياً و ٨٥ مصرياً و ٤٥ فارسياً و ٢٨ يونانياً و ٦٤ طالباً من جنسيات متفرقة . اما الجامعة السورية فقد اقتصر عدد طلابها ذلك العام ، بسبب الخطة الفرنسية الرامية الى ابقائها ضمن جدران كليتي الحقوق والطب، على ٣٩٤ طالباً (١٠٤) منهم ٢٤٦ في كلية الحقوق و ١٠٠ طالب في كلية الطب و ١٦ طالباً في فرع الصيدلة و ٩ طلاب فقط في فرع طب الاسنان ، و ٢٣ فتاة في مدرسة التمريض .

اما التعليم الرسمي فاستمر على ضعفه ولم يتجاوز عدد المدارس الرسمية عام ١٩٢٧ اكثر من ٥٧٩ مدرسة في جميع الدويلات السورية ولبنان مقابل ١٥١٧ مدرسة خاصة فيها ، يتمركز منها ٩٨٠ مدرسة في لبنان وحده ولم يقبل على هذه المدارس الرسمية سوى ابناء الطبقات الاكثر فقراً وحرماناً . وقد ائتم التعليم الرسمي بالعجز الدائم في ميزانيته وملاكه التعليمي وابنته وادواته التربوية الضرورية .

فحتى عام ١٩٢٧ لم تتجاوز حصة التعليم ٨٪ (١٠٥) فقط من الميزانية العامة للدول الواقعة تحت الانتداب الفرنسي . وهذه الحصة تتوزع بين التعليم الخاص والتعليم الرسمي في حين استمرت ميزانية قوى الامن والبوليس والامن العام تتجاوز ثلاثة اضعاف ميزانية التعليم في سوريا ولبنان . وكانت النتائج الملموسة لهذه السياسة تنعكس بارتفاع نسبة الجهل والامية فيهما والتي بقيت ، حسب اعتراف الفرنسيين أنفسهم ، تتجاوز نسبة ٨٥٪ (١٠٦) من سكان البلدين . والاميون هنا ليسوا ابناء الاغنياء والميسورين على كل حال . فقد كان التعليم الخاص ، المدعوم من ادارة الانتداب الفرنسي او حكومة الولايات المتحدة الاميركية ، او الواقع على كاهل الميسورين المحليين ، يستأثر بالغالبية الساحقة من تعداد الطلاب والتلاميذ من هذه الطبقة . لقد عرفت الفئات الفنية والميسورة في لبنان خاصة ، وفي الوطن والمهجر ، كيف تستفيد من جميع ابواب التعليم التي فتحت امام ابنائها . فالاسر الفنية تلك ، مهما كانت ميولها وآراؤها ، ولفتها ، كانت تجد على الدوام المؤسسة التعليمية التي تروق لها ، وباللغة التي ترغب تعليمها لابنائها . فامامها الاختيار بين التعليم بالفرنسية والانكليزية والالمانية والايطالية وغيرها . وامامها الاختيار الواسع بين مدارس الاباء

— R. O'Zoux « Etats du Levant sous mandat Français » P. 188. (١٠٣)

— Ibid. P. 191. (١٠٤)

— R. O'Zoux « Etats du Levant... » — P. 154. (١٠٥)

— V. de Saint-Point « La vérité sur la Syrie » — P. 5. (١٠٦)

اليسوعيين ، ومدارس البعثات العلمانية الفرنسية ، ومدارس الفرير ، والاليانس اليهودية ، ومدارس راهبات الناصرة ، والمدارس البروتستانتية ، والمدارس الامريكية والايطالية والانكليزية والالمانية . . الخ ، فهل كان غريبا بعد هذا ، ان تجد معظم الدول الاجنبية من يتقن لغاتها في لبنان ؟

✦ ان سياسة الادارة الانتدابية، بتشجيع القطاع التعليمي الخاص (١٠٧) على حساب التعليم الرسمي اعطت للتعليم في لبنان ، ومنذ ذلك التاريخ ، وجهها طبقيا واضحا . فاضحت المدرسة اللبنانية اداة تمييز طائفي ، وظيفي ، اجتماعي ، اقليمي وطبقي . ومهما قيل في محاسن ذلك التعليم الخاص ، فان دورا مشوها اعطي للمدرسة اللبنانية منذ ذلك التاريخ واستمر طيلة عهد الانتداب وفي ما بعد الاستقلال .

(١٠٧) يشير تقرير ١٩٢٥ صراحة الى ان ادارة الانتداب كانت تمويل مدرسة خاصة في حول الانتداب الفرنسي .

الإدارة العامة
الريفية اللبنانية
مطلع عهد الانتداب

□ الفصل الأول □ سياسة الانتداب تدعيم مركز كبار الاقطاعيين في التريف اللبناني □

النظام العقاري التركي المطبق في لبنان

كانت القوانين العقارية المطبقة في جميع المناطق اللبنانية حتى الحرب العالمية الاولى تجد نصوصها في الشرع الاسلامي الذي بقي ساري المفعول حتى ذلك الحين وفي فرمانات او الارادات السلطانية التي كانت تصدر تباعا وبرزها « قانون الاراضي » الصادر في ٢١ نيسان ١٨٥٨ والمعروف « بالمجلة العثمانية لعام ١٢٧٤ هجرية » . وبموجب هذا القانون، اعتبرت الارض ملكا كليا او جزئيا للدولة ، وحق السيادة عليها يرجع للسلطان دون سواه . واشتمل القانون على سبع فئات من الاراضي ، مقسمة بدورها الى فروع او فئات فرعية :

١ - الاراضي الملك وهي مقسمة الى ثلاث فئات فرعية : أ - ملكية تامة (داخل المدن والقرى) . ب - ملكية عشرية اي خاضعة للعشر . ج - ملكية خراجية اي خاضعة للخراج .

٢ - الاراضي الوقف او الممتلكات الموقوفة . وقد فرض عليها عدم التصرف بها كليا او جزئيا الا بأمر من السلطان او من ينوب عنه .

٣ - الاراضي الاميرية : اي التي تخص الدولة بدون مشاركة فيها .

٤ - الاراضي المتروكة والاراضي المحمية واعتبرت ايضا من الاملاك العامة .

٥ - الاراضي المرفقة او ذات الملكية المشتركة والجماعية .

٦ - الاراضي الميتة او الموات اي تلك التي لم يعرف قط انها امتلكت في السابق .

٧ - الاراضي المباحة اي التي وضعت خارج نطاق الاتجار بها (١) .

وكانت تحديدات هذه الانواع غامضة ومشوشة بحيث لم يكن بالإمكان تحديد الملكية بشكل ثابت ودقيق . وعلى سبيل المثال ، فقد جاء في المادة ١٠٦ من « المجلة العثمانية » تعريف الاراضي الموات كما يلي : « الاراضي الموات هي الاراضي الموحشة

— Louis Cardon « Le régime de la propriété foncière en Syrie » — Thèse (١)
P. 148.

والاماكن الحجرية الوعرة المسالك ، والمراعي التي تنبت فيها الحشائش قصيرة جدا ، والتي ليست ملكا لأحد يستخدمها سكان النواحي والقرى المجاورة ، والتي هي بعيدة عن تلك الاماكن بحيث لا يمكن سماع رجل ذي صوت جهوري من اطراف الاماكن المسكونة ... » (٢) .

الملكية العقارية في لبنان حتى الحرب العالمية الاولى

أ - في الجبل

كان جبل لبنان استثناء فريدا في شكل الملكية الذي كان سائدا فيه حيث كانت معظم الاراضي تقريبا تعتبر ملكا خاصا ولأصحابها حق الاستغلال والتصرف والبيع والرهن . وقد تميزت هذه الملكية في الجبل بوضوح كلي عن سائر المناطق اللبنانية خاصة بعد ثورة الفلاحين هناك .

فالمحاصيل الزراعية الضئيلة في الجبل كانت من الشح بحيث لم تكن الارض تحتل العباء المزدوج للمالك من جهة وللفلاح المربع او المخصص او المغارس من جهة ثانية . فالارض الزراعية في الجبل هي من صنع الفلاح « ان ارض الجبل جذباء لكن فلاحها يتمتع بقسط كبير من الحرية عليها ، هذا الفلاح منح فقره الاستقلال في جبله » (٣) . لكنه بقي في الواقع خاضعا لاستغلال بشع من جانب المقاطعية المسيطرين وراثيا على اراضي الجبل وذلك على حساب فقر الفلاحين . وكانت الهوة تزداد عمقا بينهم وبين اسباب الاراضي (٤) .

غير ان الفئات الفلاحية الأنفة الذكر كانت تنتشر في الجبل اللبناني بدرجات متفاوتة وكانت تنحصر في خمس فئات فقط من الناحية القانونية : الاراضي الاميرية ، الاراضي الملك ، املاك الدولة أو الدومين كما سماها الفرنسيون ، والاراضي الميتة او المباحة ، وارضى الوقف . اما الاراضي المشاعية فكانت اقل انتشارا منها في سائر المناطق اللبنانية .

وكانت الملكية الزراعية الصغيرة اكثر الانواع انتشارا نظرا لوضع الجبل الجغرافي الذي يجعل معظم اراضيه غير صالحة للزراعة او للاستصلاح الزراعي بالنسبة لأدوات ذلك العصر ، وقد لعبت ثورة طانيوس شاهين دورا أساسيا في تفتيت سيطرة المقاطعية في الجبل والفاء ما كان يدعى « بحقوق المقاطعية » ، كما لعبت الهجرة الكثيفة الى بيروت والخارج دورا هاما بانتقال قسم من المقاطعية الى بيروت لتعاطي الوساطة التجارية مما اضطرهم الى تاجرهم او بيع املاكهم في الجبل . ونظرا للهبوط المستمر في اعداد الفلاحين المقيمين هناك ، أصبح بمقدور هؤلاء الاستفادة من الوضع الناتج عن الثورة الفلاحية من جهة ، وقلة الايدي العاملة

— Cité par Joseph Chaoui « Le régime foncier en Syrie » — Thèse. P. 76. (٢)

— J. Weulerss « Les pays des Allaouites » — P. 21. (٣)

— Elie Sifa « L'émigration libanaise » — P. 170. (٤)

في الزراعة بسبب الهجرة من جهة اخرى ، وحاجة المقاطعية الى الاموال لتعاطي التجارة وغيرها كي يحسنوا من ظروفهم المادية ويقتنوا اجزاء واسعة من اراضي الملاكين المقاطعية القدامى .

غير ان القدر اليسير من الملكية التي جمعها الفلاحون الصغار في الجبل لم يكن بالامكان مقارنتها مع ما جمعه الكنيسة المارونية لنفس الاسباب السابقة وغيرها . « فمئذ منتصف القرن التاسع عشر تحولت الكنيسة المارونية الى اكبر قوة عقارية في الجبل » (٥) . فكانت دافعا اساسيا من دوافع الثورة الفلاحية ضد تسلط المقاطعية وكانت المستفيد الاكبر من تفجير تلك الثورة بعد ان حولتها لصالح ملكيتها الكبيرة . فقد استغلت تلك الكنيسة ظروف الثورة وما تبعها ، استفلا واسعا بفية السيطرة على الجزء الكبير من الاراضي المسماة بالخالية او الموات والتي كانت تزداد باستمرار بسبب الهجرة والوفاة والنزوح والضرائب حتى ان الارض الموقوفة في مطلع القرن العشرين اصبحت تحجب أكثر من ثلث (٦) الاراضي الزراعية والقابلة للزراعة في الجبل . هذه الارض التي حرمت ملكيتها على الفلاحين كانت ممنوعة ايضا على التجارة بحجة الوقف .

ان الاراضي الموقوفة او الوقف كانت في اساس الملكية العقارية الكبيرة للكنيسة المارونية في جبل لبنان (٧) . تلك الملكية التي ما فتئت تزداد تباعا بفضل «الهبات» التي كان يقدمها الفلاحون لها تهربا من دفع الضرائب . غير ان تلك «الهبات» حملت معها اسلوبا استفاليا بشعا لا يعادله الا اساليب رجال الاقطاع في باقي المناطق . فقد قامت الكنيسة باستغلال هؤلاء الفلاحين مباشرة كمالك فعلي لتلك الاراضي . وساهم هذا الشكل من الملكية والاستغلال في تدهور وضع الفلاحين المادي والاقتصادي وترسخت دعائم الملكية العقارية الدينية في الجبل ولا زالت مستمرة حتى اليوم بعد ان حرمت آلاف الفلاحين من الملكية الخاصة والعمل الحر . فالكنيسة المارونية لم تفتن ملكيتها الزراعية على حساب الاراضي الموات والهبات الفلاحية الصغيرة بل وايضا على حساب اسر المقاطعية ، اسياد الجبل السابقين ، والسيطرة على اجزاء كبيرة من ملكياتهم . وحتى اليوم لا تزال جميع الملكيات الموقوفة ، كالاديرة والكنائس وما جاورها ، تقوم على اراض كانت ملكا لتلك الاسر القديمة . ويكفي ان نذكر كمثال خلاصة الدعوى الشهيرة التي تقدم بها آل صفير ضد بكركي . فتحت عنوان « الاعتراف بملكية دير روميه للبطريركية المارونية » كتبت صحيفة «الاوربان - لوجور» تقول « اصدرت محكمة الاستئناف في بيروت ، برئاسة السيد ف. حداد ، حكمها في الدعوى العقارية التي تتنازع عليها اسرة صفير مع البطريركية المارونية حول ملكية اراض في كسروان تفوق قيمتها ٢٠ مليون ليرة لبنانية . ان هذه القضية التي تستمر منذ عام ١٩٥٩ ، هي كمثيلاتها ، معقدة الى اقصى حد .

— D. Chevallier « La société du Mont-Liban... » — P. 256. (٥)

et T. Touma « Paysans et institutions féodales » — P. 528 et s.

— Jouplain « La question du Liban » — P. 564. (٦)

— T. Touma « Paysans et institutions féodales... » — T. II — P. 538 et s. (٧)

وقد أقرت المحكمة حق الملكية ، المسجلة في المساحة كهبات لمدرسة دير روميه من آل صير ، الى الطائفة المارونية وبالتالي الى البطيريركية المارونية بصفة وقف خيري . وقد رد طلب اسرة آل صير القاضي بالاعتراف لهم بملكية الارض مع الاعتراف بحق الانتفاع بها للأكليروس الماروني «(٨)» .

ب - في المناطق اللبنانية الأخرى

ان كانت « الهبات » و « الاراضي الخالية » هي الاساس في توسيع دائرة الملكية العقارية الكبيرة للكنيسة المارونية في الجبل ، على حساب ضرب امتيازات المقاطعية القدامى وخراب الفلاحين ، ففي لبنان المضموم ، كانت أساليب امتلاك الاراضي الواسعة متنوعة جدا : فمنها ما كان على شكل هبات سلطانية تمنح لكبار الموظفين وارياب الحظوة والاقطاعيين المحليين ، ومنها ما تم الاستيلاء عليه بالقوة وبحروب بين الاقطاعيين بالذات ، ومنها ما تم برشوة الموظفين الاتراك واستصدار فرمانات بتملك اراضي الدولة . الخ. لكن السمة البارزة لتلك المناطق ان نظام الملكية العقارية فيها كان يتركز اساسا على سيطرة الملكية الكبيرة لا بل الكبيرة جدا خاصة في سهول عكار والبقاع والبقية ونشأت عن ذلك ملكية فردية او عائلية تضم الواحدة منها عشرات القرى قد تبلغ الثلاثين (٩) احيانا . فقد حصل آل مرعب في عكار ، منذ القرن الثامن عشر ، على الجزء الأكبر من سهل عكار . وظل عيود عبد الرزاق ، ابني ينتمي الى هذه الاسرة ، يمتلك أكثر من ٢٧ قرية ، كليا او مشاركة ، بعضها في لبنان والبعض الآخر في سوريا ، واستمرت ملكيته تلك حتى اواسط القرن العشرين بالذات . واستمرت تلك الملكية الكبيرة لا تتجزأ بين المالكين خوفا من دفع رسوم التسجيل . وكانت البنات من تلك الاسر الاقطاعية يزوجن الى ابناء اعمامهن داخل تلك الاسر . واذا صادف ان سمح لفتاة منهن بالزواج من خارج العائلة كان عليها ان تنازل عن ملكيتها العقارية وتعطى مبلغا معيناً من المال وتبقى الملكية الكبيرة غير مجزأة يتقاسمها الاخوة بالتراضي (١٠) .

ان قانون الاراضي العثماني لعام ١٨٥٨ وما سمي بالاصلاحات الزراعية لأعوام ١٨٨٠ و ١٩١٣ جاءت تدعم ركائز هذه الملكية العقارية الكبيرة . ففي العديد من المناطق ، كان الفلاحون يرفضون التصريح عن اراضيهم او يتعمدون اعطاء تصريحات كاذبة بعد ان عودتهم الدولة العثمانية فرض ضرائب جديدة عقب كل «اصلاح» . وزاد في فداحة النتائج التي ترتبت على تلك الاصلاحات ان عمليات التسجيل كانت تقوم على اساس شهود فقط ودون الكشف على الاراضي وتحديداتها فعليا في معظم

— L'Orient-Le Jour — No. 501 du 31 Octobre 1972.

(٨)

(٩) راغب الاسمر « الارض والفلاح » ص ١٢ .

(١٠) اخبرني الاستاذ اكرم الرافي عن زواج شقيقه النائب السابق في عكار بشير العثمان والقصة تنطبق تماما مع هذا الوضع . وهناك امثلة عديدة على ذلك تنطبق على الطوائف المسيحية والاسلامية في عكار

الاحيان . فلا تعيين حدود ولا مسح دقيق ولا حتى رسم تخطيطي للقطعة المسوحة بل مجرد اعطاء « سند طابو » أو « حجة » . وكان كبار المتنفذين يستصدرون تلك السندات بأسمائهم ويجردوا الفلاحين (١١) بذلك من البقية المتبقية لهم من الملكية الصغيرة، واعطت تلك « الاصلاحات » الطابع القانوني والشعري للنهب العقاري الذي قام به اولئك الاقطاعيون . اما في المناطق العشائرية كالهرميل واكروم فلم تصلها سندات الطابو واستمرت ملكيتها جماعية الى جانب الملكية المشاعية الكبيرة هناك . لقد ادت تلك التنظيمات العثمانية الى حالة من البلبلة في كل مكان ورسخت دعائم الملكية العقارية الواسعة على حساب تفهقر الملكية الصغيرة في تلك المناطق .

وهكذا اتخذت الملكية العقارية الكبيرة في الريف اللبناني « صفة قانونية » بعد تلك الاصلاحات العثمانية ووضحت الواقع المعاش الذي تحددت عليه جميع جوانب الحياة الاجتماعية في عكار والبقاع والبقعة وغيرها . وكانت سمتها الاساسية ان تظل عائلية مشتركة لا تنقسم ولا تتجزأ رسمياً في كافة هذه المناطق . لقد استطاعت تلك الملكية العقارية الريفية الواسعة في لبنان المدمج ، بفضل تفاديها للتقسيمات بين الورثة ، وبفضل اساليب القمع والنهب لانتاج الفلاحين واستغلالهم كعبيد من القرون الوسطى ، ان تتمتع بثبات يمكنها من الاستمرار كما كانت منذ مطلع العهد العثماني لكن بصورة قانونية حتى الحرب العالمية الاولى . وبقي الملاكون الكبار في تلك المناطق يعجزون عن اعطاء المساحة الحقيقية لممتلكاتهم .

غير ان ذلك الشكل من الملكية لم يكن وحيد الجانب في تلك المناطق بل كانت هناك ممتلكات عامة واسعة بقيت ملكاً للدولة او الاراضي الاميرية . ففي ظل الحكم العثماني بقيت الدولة المالك الوحيد للأرض في تلك المناطق ولاصحابها حق الاستغلال او التصرف بموجب « حجة » مدونة في السجل الخاص او « الدفترخانة » . وكان امتلاك الاراضي الزراعية بموجب القوانين العثمانية المرتكزة على الشرع الاسلامي خاضعا لشروط معينة منها شرط الزراعة وذلك وفق قانون « الارض الموات » الاسلامي ، « من احيا ارضا مواتا فهي له ، شرط ان يقوم بحراستها والا يتركها دون زرع ثلاث سنوات متتالية ، فتعود ملكيتها عندئذ الى الدولة » . غير ان المتبع لنظام الدورة الزراعية المعتمد في تلك المناطق آنذاك يجد ان الارض كانت تزرع سنة وتترك بوراً سنة اخرى وذلك بصفة دورية واحيانا كثيرة تزرع قمحاً في السنة الاولى وتترك للمرعى سنة اخرى ثم بوراً سنة تالفة ، مما ابقى هذا الشكل من الملكية او التصرف عملياً خارج دائرة الانتاج الفعلي في تلك المناطق . وقد حرم الفلاحون بذلك من استصلاح تلك الاراضي مع اجبارهم على البقاء مرابحين عند اسيادهم الاقطاعيين .

شكل آخر للملكية في تلك المناطق هي الملكية المشاع وكانت نسبتها كبيرة جدا . والارض المشاع هي تلك التي يعود حق الانتفاع بها في قرية واحدة أو عدة قرى ، الى جميع السكان بصورة جماعية . فالفلاح هنا لا يملك ارضا خاصة به ،

(١١) راغب الاسمر « الارض للفلاح » مجلة « كيفية استيلاء الاقطاعيين على الارض في لبنان وسوريا »

بل يملك حق التصرف على جزء من مجمل تلك الاراضي . وبقيت قرى بكاملها في البقاع مشتركة الملكية حتى وقت متأخر . فقرية بر الياس مثلا استمرت حتى عام ١٩٣٤ على هذا الشكل المشاعي . كذلك قرية يونين التي استمرت ملكيتها مشاعية بصورة جزئية حتى عام ١٩٣٦ . وقد اشارت تقارير المفوضية العليا تباعا الى هذه الملكية منها ما جاء في تقرير ١٩٢٦ : « يمكن للمرء ان يلاحظ في السهول الواقعة في الشرق او الشمال الشرقي من لبنان أي في مناطق الهرمل وأكروم وعكار وبعبك ، ممتلكات واسعة ذات ملكية جماعية لأسرة واحدة او لقرية واحدة » (١٢) . فالاراضي المشاع انتشرت في لبنان المضموم الى جانب الاراضي ذات الملكية العقارية الكبيرة ، واراضي الدولة ، واراضي الاوقاف ، خاصة الاسلامية منها ، كذلك الاراضي العشائرية ذات الملكية الجماعية .

اما الاراضي الملك المفروزة التي تكون تحت تصرف المالك بصفة كلية والتي تنقل عن طريق الإرث بموجب قوانين الاراضي المنقولة ويمكن اخضاعها للضمان والرهن والهبة ، فلم يكن لها وجود فعلي في لبنان المضموم خارج نطاق المدن . هذه الملكية ، على العكس من جميع سابقاتها ، كانت صغيرة . ومن الناحية الجغرافية لم تتجذر في الارض بمعنى انها كانت غير واضحة ودون ان تكون لها حدود جلية وملكية ثابتة بل كانت تنتقل وتتبدل ملكيتها باستمرار ، وكانت السيطرة فيها لصالح العائلات المحلية وللمرابين والتجار ولم تشمل مساحة واسعة من الاراضي . اما فلاحو تلك المناطق فكانوا محرومين تماما من الملكية الفعلية . وحتى الأجزاء الصغيرة التي استطاع البعض انتزاعها عن طريق المفارسة وغيرها كانت عرضة للنهب الاقطاعي في كل حين .

يتبين من ذلك ان نظام الملكية العقارية في لبنان قبل الحرب العالمية الاولى كان يتسم بطابعين متناقضين : ملكية صغيرة ومتناهية في الصغر وفلاح فقير واوقاف كنيسية واسعة الاراضي في الجبل ، يقابلها ملكية كبيرة ومتناهية في الكبر وغير معرضة للتجزئة وملكية مشاعية واسعة واراضي للدولة وفيرة وملكية صغيرة جدا وغير مستقرة بجوار المدن وسيطرة اقطاعية يرافقها استغلال رهيب لفلاحين محرومين من جميع الحقوق الاساسية ، في المناطق التي ضمت لاحقا لجبل لبنان . فماذا فعل الانتداب الفرنسي للتقليل من ويلات هذا الواقع البالغ السوء للملكية العقارية في لبنان ؟

الحرب العالمية الاولى تؤزم وضع الفلاحين في الجبل

ان تكون الملكية الصغيرة في الجبل ايام التصرفية وانتعاش اعداد كبيرة من الفلاحين الصغار لم تقدم حماية رسمية لهؤلاء تجاه المقاطعجية القدامى وتوسع نفوذ ملكية الوقف ، كما لم تستطع حمايتهم من السنين المجاف فلم يكن بمقدور الفلاح

— Haut-Commissariat « La Syrie et le Liban de 1919-1927 » — P. 243.

(١٢)

الجبلي ، المحاصص والمفازس والمالك الصغير ، ان يواجه منفردا تقنيات المزدود الزراعي الضئيل . لذا كان يلجأ دوما في حالة الافلاس والعوز الى المرايين ليستلف منهم الاموال بفوائد مرتفعة جدا . فبالرغم من استمرار الملكية الصغيرة في الجبل كآكثر اشكال الملكية انتشارا فيه فان الوجود الحر لتلك الملكية وللفلاحين الصغار كان عرضة لتقلبات وازمات شديدة الأخطار في اثناء الكوارث الطبيعية . وكان قسم منهم يهجر اراضيه بوراً ويفادرها الى المدينة يعمل هناك في التجارة او في الوكالات الاجنبية او في مناصب الفئات الدنيا ، وقسم آخر « يهب » املاكه للكنيسة التي غدت المالكة العقارية الكبرى منذ زمن بعيد . وجاءت الحرب العالمية الاولى تقضي على العديد من الفلاحين الصغار والمتوسطين من سكان الجبل ، و « باع » قسم كبير منهم املاكه ، بشروط باعثة الاجحاف ، الى راساليي بيروت وطرابلس وحلب (١٢) لقاء مبالغ من المال لا تتعدى عشر قيمتها الحقيقية . ففي مثل تلك الظروف القاسية « اشترى » هؤلاء الراساليون اجزاء واسعة من الاراضي في المتن والشوف وكسروان وبيروت . وقام الاهالي يطالبون ، بعد الحرب ، بالفاء تلك البيوع ، وقامت مظاهرات عنيفة طيلة عام ١٩٢١ (١٤) حتى اضطرت المفوضية العليا لتعديل بعض تلك البيوع والغاء البعض الآخر بالقرار رقم ٧٩٧ تاريخ ٢١ آذار ١٩٢١ .

مراسيم الانتداب تعطي الواقع السيء صفة حقوقية

١ - توسيع ملكية الدولة

لقد رسمت قرارات المفوضية العليا في بيروت اهداف الانتداب الفرنسي في الريف اللبناني بوضوح وبرزت تلك القرارات ما صدر في ٢١ كانون الثاني ١٩٢١ برقم ٦٥٥ والقرار رقم ٧٩٧ الصادر في ٢١ آذار ١٩٢١ ايضا . وقد تناول هذان القراران النقاط الأساسية التالية : (١٥) .

- ١ - وضع قوانين لصيانة ونقل حقوق الملكية وما يتفرع عنها ، والعمل قانونيا على تجزئة الملكيات المتوارثة دون تقسيم ، كذلك الملكيات المشاعية .
- ٢ - تحسين الوضع الاقتصادي في الريف اللبناني بتجزئة الملكيات الكبيرة وفرز اراضي الدولة وخلق الملكية الزراعية الصغيرة .
- ٣ - تهيل التسليف العقاري عن طريق تسويق الارض وذلك بجعلها سلعة تجارية حقيقية تباع وتشترى بموجب سندات رسمية .
- ٤ - السماح للأفراد وللشركات الاجنبية بالاتجار بالارض دونما ازعاج من احد . فاذا كانت الملكية العقارية الكبيرة في لبنان المضموم قد نشأت عن طريق الهبات

(١٢) — J. Luquet « Le Mandat A... » — P. 158-159.

(١٤) لسان الحال — العدد ٨٢٧ تاريخ ٢١ شباط ١٩٢١

(١٥) — Louis Cardon « Le régime de la propriété foncière en Syrie et au Liban » Thèse — P. 118.

السلطانية والمنازعات الاقطاعية والقوة والصف ضد الفلاحين ، وترسخت عن طريق « الطابو العثماني » ، واذا كانت الكنيسة المارونية قد استفلت الاراضي الموات أو الخالية و « الهبات » لتوسع ملكيتها الوقفية بشكل هائل في جبل لبنان ، فكيف سيفر عمليا الهدف الاول من الانتداب « وضع قوانين لصيانة ونقل حقوق الملكية وما يتفرع عنها » سوى تعزيز وضع تلك الملكيات الكبيرة واضفاء الطابع القانوني الحقوقي على ما اخذ بالقوة والنهب واستغلال الظروف الحرجة التي مر بها الفلاحون قبل الحرب وبعدها .؟.

فالقراوات ١٣٧٨ الصادرة في ٢٠ نيسان ١٩٢٢ ، و ٢٠٠٠ الصادر في ٢٣ حزيران ١٩٢٣ ، و ١٤٤/س الصادر في ١٠ حزيران ١٩٢٥ ، و ٢٧٥ الصادر في ٥ ايار ١٩٢٦ وغيرها ، تحت شعار « تنظيم الاملاك في دولة لبنان الكبير وذلك انسجاما مع المصلحة العامة في تكوين الملكية الريفية الصغيرة » (١٦) ، شملت العقارات المبنية وغير المبنية ، وتوزعت الملكيات بموجبها على الشكل التالي (١٧) :

- ١ - الاراضي الاميرية ويعود القسم الأكبر منها للدولة .
 - ٢ - الاراضي المتروكة المرفقة ، وهي الاراضي الموضوعة تحت تصرف الجماعات .
 - ٣ - الاراضي الخالية كالأحراش والغابات والجبال غير المزروعة وغير القابلة للاستصلاح الزراعي ، أي بصورة عامة ، جميع الاراضي التي جعلها القانون العثماني ضمن باب الاراضي الموات ، مع الاحتفاظ بالحقوق العينية أو حق الانتفاع المكتسب طبقا للقوانين والنظم التي كانت سارية أيام الاتراك .
 - ٤ - الاراضي المسجلة حتى في ذلك الحين في السجلات بإسم الاراضي المخلوطة التي لا مالك لها أو التي مر الزمن على ملكيتها فأضحت دون مالك شرعي .
 - ٥ - العقارات أو الاراضي المدورة أي المحجوزة بشكل دوري متتابع لصالح الخزينة .
 - ٦ - الاراضي المسجلة في سجلات دوائر الملكية المبنية .
 - ٧ - الاراضي التي تثبت المساحة والتحديد أنها من ضمن املاك الدولة .
 - ٨ - الاراضي الموات التي تعود ملكيتها للدولة والتي لا تدخل في باب الاملاك العامة أو الدومين .
 - ٩ - الاراضي الخالية من الاملاك الخاصة أي التي كانت مملوكة وفقدت مالكيها لسبب أو لآخر .
 - ١٠ - الاراضي المسجلة على اسم الخزينة في سجلات الإدارات العامة .
 - ١١ - الاراضي الناشئة عن اهمال الزراعة والتركات الشاغرة أو الساقطة الاجل والتي اثبت القانون اهمالها أو انتهاء اجلها .
- ملاحظة نقدية لهذه البنود نرى ان التركيز الاساسي فيها باتجاه توسيع ملكية الدولة أو الخزينة أو الاملاك العامة دونما ذكر للملكية الصغيرة وسواها . فقدرت

— Achard « Notes sur la Syrie » — P. 80. (١٦)

— L. Cardon « Op. Cit. » — P. 208-209 et Haut-Commissariat « La Syrie et le Liban de 1919-1927 » — P. 43 et ss. (١٧)

أملاك الدولة رسمياً عام ١٩٢٢ في سوريا ولبنان بحوالي مليون ونصف المليون (١٨) من الهكتارات . أما في لبنان، ففي عام ١٩٢٥ كانت أملاك الدولة أو الممتلكات الأميرية تشمل ٥٠٠ هكتاراً في منطقة رأس العين وحدها في قضاء صور ، و ١٢٠ هكتاراً في مفرد في البقاع ، و ٨٠٠ (١٩) هكتاراً في جرد الميري في البقاع أيضاً أي « الاغلبية الساحقة من مساحة تلك النواحي تقريباً » (٢٠) وذلك باعتراف كتاب فرنسيين بالذات .

فالدولة في أيام الانتداب الفرنسي ، أصبحت المالك الفعلي لمساحات واسعة من الأراضي في سوريا ولبنان بعد ان كان لها طابع الملكية الشكلية أيام الأتراك ، وان هذه الدولة بالذات قامت بسن القوانين واصدار المراسيم التي جعلت منها ، وبصفة قانونية ، اكبر مالك عقاري في البلدين على الإطلاق .

ان قرارات المفوضية العليا في بيروت ، والتي صدرت تحت شعار « تكوين الملكية الريفية الصغيرة في لبنان الكبير » لم تكن تهدف في الواقع الا لإضفاء الصفة الشرعية على ما كان سارياً أيام الأتراك ، وجعلت من تلك الاملاك التي عادت ملكيتها قانونياً للدولة سلعة تجارية حقيقية تباع وتشترى بموجب سندات رسمية تباع لصالح الخزينة أي لصالح ادارة الانتداب بالذات في حين استمر نهب الفلاحين كالمسابق واستمر جرماتهم من الملكية الزراعية . ان ادخال الدولة كشريك أساسي حقوقي في ملكية الارض اللبنانية كان خطوة هامة على طريق بناء الدولة الرأسمالية في لبنان التي عمل الفرنسيون باصرار وتصميم على ارساء قواعدها منذ الأيام الأولى لانديابهم عليه . وكان الفرنسيون بذلك اول من جعل الارض اللبنانية سلعة تجارية، لا في الجبل وحده حيث كان هذا الشكل منتشراً منذ أيام المتصرفية ، بل في جميع الأراضي اللبنانية .

ب - المساحة والتحديد يشتان قانونياً النهب السابق

كانت سجلات الطابو القديمة بالغة التشويش وتحديداتها من أشد الامور إبهاماً ، وكانت الاغتصابات سهلة جداً ، وحقوق الملكية تبدلها القوة باستمرار ، والحجج أو سندات الطابو لا تزال دوماً في حوزة الأقطاعيين دون سواهم مما كان يزيد في سهولة التزوير . لذا فالمساحة التي قامت بها دولة لبنان الكبير واستندت أساساً على التجاوزات السابقة سهلت انتقال تلك التجاوزات الى الشرعية والقانونية . وأبرز القرارات التي صدرت حول المساحة والتحديد كانت في عام ١٩٢١ وحملت أرقام ٦١٥ الصادر في ٢١ كانون الثاني و ٧٩٧ الصادر في ٢١ آذار و ٨٢٤ الصادر في ١٣ ايار وكذلك القرارات رقم ١٨٦ و ١٨٧ و ١٨٨ و ١٨٩ الصادرة في ١٥ آذار ١٩٢٦ وغيرها . وقد نظمت تلك القرارات وضع نقاط التثليث وتحديد قواعد

— L. C. Catroux « Le mandat français en Syrie » — P. 31.

(١٨)

— L. Cardon « Op. Cit. » — P. 211.

(١٩)

— L. Cardon — Ibid — P. 211.

(٢٠)

وزوايا الحدود وتوضيح المناطق المسوَّحة وعلامات المساحة ، ولوائح الاحصاء ،
والجداول الابجدية لذلك ، وطبيعة التربة للارض المسوَّحة ، وتوزيع المياه لها ،
ومواقع القرى المسوَّحة واسماءها الدقيقة ، والطبيعة القانونية للملكية (امرية ،
وقف ، مخلوطة ، الخ . .) (٢١) وغيرها .

وحسب النظام الجديد للمساحة والتحديد قمت القرى الى مناطق، والمناطق
الى اجزاء صغيرة بحيث ان الاسرة لم تلجأ الى تصفية تركات اعضائها بعد وفاتهم
خشية تفتيت الملكية بشكل متناه بل اُبقت على تلك التركات كأرض مخلوطة تجاوزت
حدود احيال من المالكين أحيانا .

وقد اعطى اندريه لاترون مثالا على النتيجة التي ترتبت على تلك المساحة في
قرية « المرج » في البقاع وذلك عام ١٩٣٦ ، ونحن نُنقل حرفيا هذا المقطع البالغ
اليدلالة . يقول لاترون « كانت اربع أسر كبيرة تمتلك قرية المرج هي : أسرة كعك واسرة
صالح واسرة شاهين واسرة جراح . وقدرت مساحة الاراضي المروية في تلك القرية
بأربعين فدانا ، مقسمة الى ٣٣ منطقة حسب النظام الجديد للمساحة . وقمت
تلك المناطق الى ١٣١ قطعة اتقسمت بدورها ، على اثر التقسيمات المتلاحقة الناشئة
عن الموارث وعمليات البيع للغير ، الى ٢٣،٦٩٦ جزءا في عام ١٩٣٦ لمساحة ارضية
لا تتجاوز ٨٢٠ هكتارا مما جعل متوسط مساحة الجزء الواحد ٣٢٩ مترا مربعا .
وباجراء التقسيم للقطع اخيرا ، وهو تقسيم يجري باتجاه الطول ، ادى ذلك التقسيم
في النهاية الى حصص تبلغ مساحتها بضع مئات من الأمتار المربعة بطول يزيد أحيانا
على كيلومتر واحد ، في حين لا يتعدى العرض بضعة أمتار وأحيانا بضعة اثلثام .
ونتيجة ذلك التقسيم الذي تعاقب على « المرج » حتى عام ١٩٣٦ ، فان حمد الجراح
كان يمتلك قطعة ارض مساحتها ٢٥٢م . بقيمة لا تزيد على ٢١٠. قرشا ذهبيا ،
وسمير الطرزي شاهين ، كان يملك ٢٧١م . بقيمة ٣١٨. قرشا ذهبيا . عندها
تنازل كل من الفلاحين عن « ملكيته » للعائلة التي ينتمي اليها ، فزاد نظام المساحة
ذاك بحرمانه من الارض التي يعمل عليها ووسَّع من الملكية المخلوطة على تلك
الشاكلة » (٢٢) .

فنظام المساحة هذا لم يجزء الملكية الاقطاعية الكبيرة ، بل على العكس من ذلك ،
ثبتت الملكية الكبيرة المشتركة . وبدلا من ان يعيد نظام المساحة الفرنسي في لبنان
الكبير تنظيم الملكية فعليا بحيث يستفيد منها في الدرجة الاولى الفلاحون العاملون
في الزراعة ، لم يفعل ذلك النظام سوى تثبيت المفاسد القديمة التي قام بها الاقطاعيون
ايام الاتراك مع استحداث تجاوزات جديدة لصالح ملكية الدولة او الاملاك العقارية .
وقد عقب لويس كاردون على هذا النظام الجديد للمساحة بقوله « بالاختصار ،
كان نظام المساحة المتبع في لبنان الكبير كأسوا ما يمكن تصويره ، اذ بنى حق الملكية ،
لا على اساس تقسيم العمل ، بل على اساس المفاسد التركية السابقة » (٢٣) .

— H. C. « La Syrie et le Liban de 1919-1927 » — P. 43 et ss. (٢١)

— A. Latron « La vie rurale en Syrie et au Liban » — P. 62-64. (٢٢)

— L. Cardon « Op. Cit » — P. 97. (٢٣)

ج - حق الشفعة يرشح الملكية العقارية الكبيرة غير المجزأة .

امعانا في ابقاء الملكية العقارية المشتركة دون تجزئة ، وفي سبيل حماية الملكيات الكبيرة والوقفية أيضا ، عمدت ادارة الانتداب الى القبول بقانون « حق الشفعة التركي » الذي نصت عليه المادة ٩٥ من « المجلة العثمانية » الصادرة عام ١٢٧٤ هجرية . واستمر هذا الحق طيلة عهد الانتداب وبعد الاستقلال . ويتلخص هذا الحق بإمكانية استرداد الارض الملك المباعه الى شار جديد حتى بعد دفع ثمنها واعادتها الى أحد أفراد المالكين بالشراكة لتلك الارض . وقد حدد جوزف شاوي الاشخاص الذين يملكون حق الشفعة هذا وهم : (٢٤)

١ - الشركاء في عقار له صفة ارض الملك المشترك ، فيما يتعلق بحصة شائعة من الشراكة .

٢ - الشركاء في حق قانوني شائع مثبت ايضا لحساب الملك المشترك المباع .

٣ - الجيران المالكون للعقارات الملاصقة للارض المباعه » .

لقد ضمن حق الشفعة هذا الملكية المشتركة في لبنان الكبير من المضاربة والانتقال للمالكين جدد وحرم بالتالي الفلاحين من امتلاك اراض جديدة بسبب هذا الحق الذي كرس اعادة الارض الى أحد الاشخاص الذين اعطتهم الشفعة حق استردادها ولو بعد زمن .

الملكية العقارية الكبيرة حماها نظام المساحة الجديد ، والملكية الوقفية اتخذت طابعا قانونيا ثابتا بعد تلك المساحة ، وحق الشفعة حمى الملكية المشتركة من التجزئة وامتلاك الغير لها ، فهل جاءت مراسيم الانتداب الفرنسي الا لتدعم سيطرة كبار الاقطاعيين في المناطق المضمومة وسيطرة الكنيسة المارونية في الجبل ؟

ان تلك الملكيات العقارية الواسعة اصبحت « مصنونة وفي حمى القانون » بواسطة جهاز رسمي تحميه جيوش الانتداب والقوى المحلية المساعدة ، في حين يؤخذ من التقرير الرسمي المرسل الى عصبة الامم لعام ١٩٢٢ ان عدد الفلاحين الذين لا يملكون ارضا والذين ادرجهم التقرير تحت اسم « العمال الزراعيين » تجاوز تعدادهم ٧٩ الف عامل زراعي (٢٥) في لبنان الكبير وحده يضاف اليهم ٢٢ الف خادم في المدن ، واغليبتهم الساحقة من منابت ريفية دون شك ، اي ما مجموعه مائة الف عامل زراعي وخادم على مجموع سكاني لا يتجاوز ٥٧٩،٧٧٨ الف لبناني خلال تلك الفترة . فبلعتراف الفرنسيين انفسهم كان خمس السكان محرومين من اية ملكية زراعية وغير زراعية ، ليس هذا فحسب بل حرم العاملون فعلا في الزراعة من اية ملكية او حتى امل في ملكية الاراضي التي يفتنون عليها ايامهم من المهد الى اللحد . فهل تفسر القانون التركي المشهور « من يعمل لا يزرع ومن يزرع لا يعمل » مع مجيء رسل الحرية والاخاء والماواة الى لبنان ؟

— J. Chaoui « Le régime foncier en Syrie » — Thèse — P. 100-101.

(٢٤)

— H. C. « Rapport sur l'année 1922 » — P. 290-292.

(٢٥)

د - السخرة ترتدي طابعا قانونيا

بالإضافة الى الإعدام والشنق والنفي الى الأناضول والرومللي ، كان من مآثر أعمال العثمانيين في لبنان القانون الصادر في ٢٤ تموز ١٩١٦ (٢٦) والذي خول الحكومة التركية سلطة مصادرة الرعايا العثمانيين وغير العثمانيين في السلطنة الذين لم يؤدوا الخدمة العسكرية ، رجالا كانوا ام نساء ، وذلك للقيام بالأعمال الزراعية في مدة زمنية تحددها وزارة الزراعة العثمانية . هذه المصادرة لم تكن جديدة على اللبنانيين .

فقد شهد فلاحو لبنان عسورا واسعة من السخرة والمصادرة أيام السيطرة المقاطعجية وأبان الحكم المصري في القرن التاسع عشر ، بيد ان ثورة الفلاحين في كسروان جعلت هذه المصادرة نوعيا من الذكرى المريرة القابضة في وعي الجماهير الفلاحية كإرث ثقيل ومقيت من تركة السيطرة المقاطعجية على الجبل . غير ان الأذرة الانتدابية في لبنان ، وجدت في الأعمال السابقة للاتراك مثالا يحتذى به وأخذت تستخدم قوانين المصادرة والسخرة حسب الظروف ، وعلى نطاق واسع ، خاصة في المناطق المضمومة الى الجبل . واتخذت تلك السخرة أشكالا مختلفة حتى ان البعض منها يثير الضحك والاستغراب . ففي طرابلس مثلا كان الجنود يقفون في ساحة التل ، وهي الساحة الرئيسية في المدينة ، والى جانبهم حجر ثقيل الوزن ، ويجبرون كل مار من هناك على نقله من مكان الى آخر ، والقصد من ذلك اذلال السكان . وفي عكار كان الكابتن ميك MIC وكتبه « يحكمان المنطقة » (٢٧) حسب التعبير الشائع فيها حتى اليوم ، فكان الكابتن ينتقي وجهاء المنطقة وفلاحيا ويجبرهم على العمل أياما في شق الطرقات ونقل الحجارة على ظهورهم . لكن الاخطر من ذلك ان فرنسا الانتداب قد اعترفت بتلك السخرة رسميا في تقريرها لسنة ١٩٢٤ المرسل الى عصبة الأمم حيث يقول : « عندما يطالب المكلفون في منطقة ما ، بشق طريق ذات فائدة محلية ، يحدد الوجهاء عدد أيام العمل التي ينبغي على البالغين القيام بها . والبالغون هم الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والستين . ومن لا يستطيع القيام بالعمل شخصا ، عليه ان يستأجر من يتوب عنه لذلك . اما العامل فعليه دفع حصته عملا عينا » (٢٨) . هذا الاعتراف الواضح مترجم عمليا الى اتخاذ السخرة شكلا رسميا وقانونيا في شق الطرقات . ومن يتخلف عن ذلك ، كانت السلطة العسكرية هناك لاجباره على ذلك .

في الواقع ، كان هذا الشكل من السخرة ستارا لاستغلال العمال والفلاحين دون سواهم . ان العمال والفلاحين كانوا يدفعون العمل اليدوي العيني ، وهم الذين يدفعوا الضرائب لشق الطرقات ، وهم الذين قدموا العمل « المستأجر » من قبل الوجهاء والتنفيذيين المحليين ، وبالإضافة الى كل ذلك ، كان على المارة ان يدفعوا ضريبة الطرق التي كانت تظال أيضا الفئات الفقيرة دون سواها .

— A. Mandelstam « Le sort de l'Empire ottoman » — P. 148.

(٢٦)

(٢٧) جميع المتابلات الشخصية في ترمي المنطقة تؤيد هذه الفكرة .

— H.C. « Rapport sur l'année 1924 » — P. 46-47.

(٢٨)

« ان نظام العمل غير الماجور القائم على التبرع يشتمل ، بصفة خاصة ، العمل المجاني في الطرقات وأعمال الري وغيرها » (٢٩) ، كان خطة واضحة من خطط الفرنسيين « لانعاش الريف بسواعد ابناءه بالذات » (كذا !) .

لقد اتخذت السخرة طابع اذلال الفلاحين والعمال الفقراء ومدت الاقطاعيين بزخم جديد لاستغلالهم في اقطاعياتهم بمكار والجنوب والبقاع ، حيث ساعدت تدابير السلطة الانتدابية بالذات ، على تحويل القروي - الفلاح الى شبه عبد ياتمر بقضاء سيد يستأثر بكافة الحقوق ، بما فيها حق اقامة العدالة في قراه ، وبمراسيم سلطة انتدابية تقيم للسخرة شكلا قانونيا رسميا معترفا به على صعيد سياسة الدولة العليا . وكانت النتيجة الحتمية لذلك زيادة اذلال الفلاحين يقابلها زيادة نفوذ مذهبهم ، اقطاعيين كانوا ام سلطة انتدابية .

استمرار الوجود الإقطاعي والسيطرة الإقطاعية في الريف اللبناني

يختلف الباحثون في الملكية العقارية لجبل لبنان حول ما اذا كانت التسمية بالاقطاعية تصح هناك ام لا ، ويقترح دومنيك شفاليه ابدال الاقطاعية في الجبل بالمقاطعجية كونها تعبر بعلمية ودقة عن واقع تلك السيطرة فيه . بيد ان ما يهنا التأكيد عليه هو ان هذا الشكل من استغلال الفلاحين والضرائب الباهظة المفروضة عليهم والتي تسمى بالحقوق الاقطاعية او المقاطعجية كان واسع الانتشار في الجبل حتى الثورة الفلاحية الكبرى فيه لعام ١٨٥٨ التي ساهمت في رفع نير الاضطهاد عن اعناق الفلاحين دون ان تزيل هذا النير تماما بل كانت بداية مرحلة جديدة في تاريخ جبل لبنان . وحتى الوقت الحاضر لا تزال كلمات الاقطاعية وشبه الاقطاعية والحقوق الاقطاعية واسعة الانتشار . ففي رأي ادمون رباط « ان النظام شبه الاقطاعي كان مسيطرا في لبنان ويستغرق وقتا طويلا كي يزول من المناطق الملحقة بالجبل . هذا النظام ، لم يعد في الجبل اللبناني سوى ذكرى انقضى اجلها منذ عام ١٨٦٠ ، اما في المناطق الملحقة فقد تحول نظام الملكية الواسعة جدا الى استغلال اقتصادي للفلاح من قبل كبار الملاكين » (٢٠) .

وفي رأي ميشال شيحا « ان الاقطاعية هي ذلك الشكل من التبعية الذي يستند الى الجهل المطبق بحقائق الحياة السياسية الحديثة ، والذي ينزع عن المرء شخصيته البشرية بالذات » (٣١) .

ويربط الدكتور بشاره الدهان بين الاقطاعية والهجرة فيقول : « ان الاقطاعية ما زالت قائمة في بعض المناطق اللبنانية بمختلف مظاهرها المادية والطائفية والعائلية

— H. C. — Ibid — P. 46.

(٢٩)

— E. Rabbath « L'évolution politique de la Syrie sous mandat... » — P. 231.

(٣٠)

— Michel Chiha « Politique intérieure » — P. 181.

(٣١)

والسياسية . لقد كانت دوما وما برحت ، سببا لهجرة السكان الريفيين الجماعية الى المدن « (٢٢) .

اما هاني بزي فيرى « ان السمة المميزة للبنان هي تركيبه الاقطاعي بالذات » (٢٣) . وعنوان كتاب توفيق توما « الريفيون والمؤسسات الاقطاعية عند الدروز والموارنة في لبنان من القرن السابع عشر حتى ١٩٢٤ » ، كذلك كتاب ميشال غريب « الطائفية والاقطاعية في لبنان » يؤكدان دلالة الاقطاعية كنظام سائد في الريف اللبناني ، ان لم يكن في لبنان كله حيث ميزوا بين اقطاعية ومقاطعية ، فالاتفاق تام حول طبيعة هذا النظام في الارياف المحقة بجبل المتصرفية (٢٤) عام ١٩٢٠ .

في الواقع ان استعمال كلمة اقطاعي او شبه اقطاعي ، واقطاعية ، وفيودالية ، وحقوق اقطاعية ، بحاجة الى الكثير من الدقة في الاستعمال المعاصر ، وهي تستخدم في شتى المناسبات ، وفي الصحافة بدون تحديد دقيق وتشير دوما الى البكوات ، والزعماء بالوراثة ، والنظام المتعفن ، والعقلية المتحجرة ، الخ . ويشير جاك بيرك الى « ان تعبيرى الاقطاعية والامبريالية ، يقترنان دوما عند العرب ، بتعبير ثالث هو الانسحاق او الحرمان في كافة المجالات الجنسية والحياتية والروحية » (٢٥) .

- غير ان هذه الكلمات تهمنا بقدر ما تدمغ نمط الاستقلال اللانثاني الذي كان مسيطرا على فلاحى لبنان في تلك الفترة وحتى اليوم . بتعبير آخر ، نردد ما قاله البر سوبول عن استعماله لكلمة فيودالية في فرنسا ، خلال القرنين الثامن والتاسع عشر فيقول « انا استخدم الفيودالية والحقوق الفيودالية لا بالمعنى الذي يقصده رجال القانون او الحقوقيون ، بل بالمعنى الذي يعاينه الفلاحون بالذات » (٢٦) .

فالاقطاعية ، براينا ، هي ذلك النمط من الاستغلال الذي يعني في نظر الفلاحين ، المحرومين من الملكية ، عبودية الارض التي تثقلها الضرائب الاقطاعية العقارية التي لا يمكن التهرب منها ، وتعني ايضا تلك المساحات الشاسعة من الاراضي التي يستخدم عليها اسلوب زراعي موغل في القدم والضرائب المستمرة والاعشار واعمال السخرة التي ترهق كاهل الفلاحين ، كما تعني بالنسبة للفلاحين ، تدخل السلطة لحماية مركز الاقطاعي وتأييد « العصاة » من الفلاحين الذين ينتفضون في وجهه مطالبين بحقوقهم . فالاقطاعية « الحديثة » هي الواقع المعاش الذي ما زال مسيطرا في كثير من المناطق اللبنانية ، والذي قام وما زال على العنف والعبودية وما برح يحمل آثار استرقاق الجماهير الفلاحية بالسخرة والمشور والحقوق الاقطاعية

-
- Béchara Dahan « L'exode rural » — Semaines Sociales 1962 — P. 13. (٢٢)
— H. Bazzi « The Lebanese executive between 1943 and 1963 » — P. I. (٢٣)
— Voir aussi: D. Chevallier « La Société du Mont-Liban... » et Jouplain « La question du Liban » et Elie Safa « L'émigration libanaise... » (٢٤)
— Jacques Berque « Leçon inaugurale au Collège de France » décembre 1956 — P. 19. (٢٥)
— Albert Soboul « La féodalité et la Révolution Française ». La Pensée — No. 149 — P. 59. Voir aussi Boutruche « Seigneurie et féodalité » — T. I. P. 18. (٢٦)

ومختلف انواع الاذلال و سلب الحريات الاساسية واستخدام الدولة لمختلف اجهزتها القمعية لصالح الاقطاعيين والتنفيذيين في سبيل ابقاء الفلاحين والمزارعين على تخلفهم وجاهلهم وحرمانهم وتبعيتهم المطلقة لابناء الاقطاع القديم واحفاده .

البنك الزراعي يدعم كبار الاقطاعيين والضرائب ترهق الفلاحين

بدأ البنك الزراعي للبنان الكبير ، وهو استمرار للبنك الزراعي العثماني الذي اوقفه الحلفاء منذ ١٩١٩ ، يعطي التسليفات الزراعية منذ مطلع ١٩٢٦ . وكانت قروض هذا البنك حكرا على كبار الاقطاعيين فقط ، وهم بدورهم يقروضون الفلاحين بفوائد مرتفعة جدا ارتفعت في شمال سوريا الى ٧٥٪ (٢٧) من رأس المال لأن الاقطاعيين هناك لم يدفعوا حتى رؤوس الاموال المستلفة من البنك . والبنك لا يعطي قروضا الا لقاء رهونات على العقارات بفوائد اسمية تتراوح بين ٩ و ١٠٪ مما يعني عمليا حرمان جميع الفلاحين ، المحرومين اصلا من الملكية القابلة للرهن ، من اية قروض زراعية ، فبحاجت قروض البنك الزراعي - الذي لم يكن له من الزراعة سوى الاسم - يعمل لمصلحة الاقطاعيين المالكين دون سواهم وذلك بسبب طبيعة قروضه بالذات .

وبالمقابل ، كانت الضرائب تعدد على كل مظاهر الحياة الاجتماعية لكن ابرزها الوركو ، او ضريبة الاملاك المبنية وهي ٤٪ ، وضريبة الانتقال ٥٪ ، والعشر وتراوح بالزغم من تسفيثها ، من ١٠ - ٢٠٪ ، وضريبة الاغنام ١٠٪ ، وضريبة بدل الطريق وهي ١٠٠ قرش في السنة عن كل شخص بالغ (٢٨) ، وغيرها . وكانت الضريبة العقارية في سوريا ولبنان اهم مورد مباشر للخزينة . ومنذ عام ١٩٢٥ ابدلت ضريبة العشر بضريبة اخرى اسمها « الترييح » (٢٩) بعد ان زيدت بنسبة ٩٧٪ (٤٠) ، وقيل عند وضع هذه الضريبة ، انها مؤقتة بسبب الجفاف والقحط وبسبب العجز الذي احدثته الثورة السورية الكبرى في ميزانية الادارة الانتدائية ، لكن الفرنسيين استمروا في جبايتها حتى عام ١٩٣٣ يوم اعيدت الى اسمها الاصلي . اما في جبل لبنان ، فكانت السلطة الانتدائية « وفية » لتقاليده هناك فأبقت الضرائب فيه على ما كانت عليه ايام المتصرفية والتي لم تتغير منذ ايام العثمانيين لابل الممالك بحكم العرف والعادة اذ ان الضرائب كانت المصدر الرئيسي لخزينة الجبل وكانت ابرزها : الفردية والشويصة والتوت او الحرير والزيتون والكرمة والعشور والطواحين والافنام والميزان (٤١) وغيرها . وبما ان اعوام ١٩٢٤ و ١٩٢٥ و ١٩٢٦ كانت اعوام جفاف وقحط ، وكان اجتياح الجراد يتكرر سنويا تقريبا منذ الحرب العالمية الاولى ، فقد قدرت الخسائر من جراء موجات الجراد فقط في عام ١٩٢٤ - ١٩٢٥ في سوريا ولبنان بحوالي ٧٠

- L. Cardon « Op. Cit » — P. 264. (٢٧)
— M. Mounayer « Le régime de la terre en Syrie » — P. 220-222. (٢٨)
— Arrêté No. 123 de 1925. (٢٩)
— M. Sarrage « La nécessité d'une réforme agraire en Syrie » — P. 127. (٤٠)
— T. Touma « Paysans et institutions féodales » — T. II — PP. 647-649. (٤١)

مليون ليرة لبنانية - سورية (٤٢) ، مما جعل جميع الفلاحين والمالكين الصغار مدينتين لضرائب الدولة ولسادتهم الأقطاعيين وللمرابين . فنشطت هجرة كثيفة (٤٣) في صفوفهم تخلصاً من الارض والضرائب ، واصبحت مناطق واسعة في عكار والبقاع والجنوب يوارا او تعطي مردوداً ضئيلاً جداً .

وبدلاً من أن تلجأ الدولة الى مساعدة الفلاحين المنكوبين ، شددت قبضتها لتحصيل الضرائب المتراكمة ، واستخدمت اساليب بربرية في جبايتها . فقد وضعت يدها على املاكهم الضعيفة ، وصادرت ماشيتهم ومحاصيلهم ، وعرضت للبيع بالمزاد العلني بعض حاجياتهم القليلة . ويقول شهود عيان ، ان مئات الفلاحين كانوا يغادرون قراهم جماعات جماعات ، هرباً من الجباة الفرنسيين ، الذين ، زيادة في اذلال الفلاحين ، كانوا يفرضون تحصيل الضرائب ، خاصة العشر منها ، بالعملات الذهبية او الفضية وليس الورقية .

ونروي حادثة طريفة في هذا المجال ، ان مزارعاً من احدى قرى عكار يدعى حنا جرجس ، تنازل عن ارضه للدولة هرباً من دفع الضريبة في عام ١٩٢٥ ، وسار الى ساحة القرية ، مرفوع الرأس ، مفتول الشاربين واخذ يتمختر هناك كأنه قام بعمل بطولي . مما اوحى لأحد الزجالين الشعبيين بهذا البيت :

حنا جرجس نبالو شال العشر عن حالو

وانشرت هذه « الردة الزجالية » في معظم قرى المنطقة ، حتى ان الدولة باتت ترفض تسليم الارض من « واهبيها » وتصر على دفع الضريبة والمصادرة لابسطة موجودات الفلاحين المنزلية .

النتائج الاجتماعية لسياسة الانتداب في الريف اللبناني

١ - ترسيخ الملكية العقارية الكبيرة

لقد اتسعت الملكيات الكبيرة رسمياً بعد اجراء المسح في سوريا ولبنان ، وذلك على حساب صغار الملاكين وتوسعت ايضا الملكيات الاميرية للدولة . وخير نموذج على ذلك ، احصائيات قام بها محمد مراد في قرى بقاعية لعام ١٩٤٩ ، اي بعد المساحة بفترة طويلة جداً وتدل الارقام (٤٤) :

- ان في قرية حشمش (قرب ريباق) ، حيث الاراضي خصبة جداً لا بل من

— L. Cardon « Op. Cit. » — P. 264.

(٤٢)

(٤٣) ارتفعت الهجرة تبعاً في سوريا ولبنان من ٨ الاف ١٩٢٢ الى ١١ الفاً ١٩٢٥ الى ١٥،٨٥٦ عام ١٩٢٦ ، وكانت اغليبتها الساحقة من اللبنانيين ، في حين انخفضت في صفوفهم من خمسة الاف لبناني

١٩٢٩ الى ٢ الاف ١٩٣٠ الى ١٣٠٠ عام ١٩٣١ و ١١٠٠ عام ١٩٣٢ .

Voir E. Rabbath « Evolution politique... » P. 277 et Beauplan « Où va la Syrie ? » P. 137 et M. Sarrage « La nécessité d'une réforme agraire en Syrie » P. 74 et Safa « L'émigration libanaise » P. 195 et R. Thoumin « La géographie humaine de la Syrie centrale... » P. 335-336.

(٤٤) محمد مراد « المسألة الزراعية في لبنان » ص ٥٦ - ٥٧ .

اكثر اراضي البقاع خصوبة ، كانت تلك الاراضي برمتها حكرا لثلاثة اقطاعيين فقط امتلكوا الى جانبها بيوت الفلاحين ايضا .

— وفي قرية رباق نفسها كان ٩٢٪ من الاراضي المروية ملكا لثلاثة من كبار الملاك ايضا .

— وفي قرية « علي النهري » كان ٥٠٪ من الاراضي المروية تخص مالكا واحدا فقط .

— كذلك امتلك اقطاعي واحد ثلثي قرية « الناصرية » .

— وامتلك اقطاعيان ٤٠٪ من اراضي قرية « مسا » .

— اما في قرية « رعيت » ، حيث الارض صخرية مجدبة ، فكان مالك واحد يمتلك ٢٠٪ منها .

وتدل النسبة بالاجمال ان ٦٠٪ من الاراضي المروية في تلك القرى كانت حكرا على عشرة ملاك كبار فقط .

ان نظام المساحة الذي اجراه الفرنسيون لم يقلق الاقطاعيين في سوريا ولبنان ، بل على العكس من ذلك . كان مدعاة اطمئنان لهم اذا استمروا في سكتاهم في المدن واستفلوا نظام المساحة ذاك ليوسموا من حدود اراضيهم . وباعتراف الفرنسيين انفسهم « فان الغالبية الساحقة من كبار الملاكين في سوريا ولبنان ، بقيت تجهل مساحة ممتلكاتها كما كانوا ايام الاتراك . واذا سئل احدهم عن عدد الدونمات او الفدادين التي يمتلكها ، اجاب عن عدد الساعات التي يحتاج اليها الحصان او سيرا على الاقدام لاجتياز تلك الاراضي . واذا سئل احدهم عن مساحة اراضيه بقي يجيب على الفور بتعداد القرى القائمة على سطح تلك الاراضي » (٤٥) .

وتعترف مجلة الانتداب ، مجلة « آسيا الفرنسية » بهذه الحقائق فتقول : « لقد اصبحت مناطق غنية جدا ، والى حد غير مألوف ، لا تقدم سوى انتاج ضئيل لا يل تافه ، اذا ما قيس بالانتاج الذي تستطيع ان تطله » (٤٦) .

اضف الى ذلك ان الادارة الانتدابية سارعت الى استفلال ظروف الثورة السورية الكبرى لتدعم مراكز الاقطاعيين الموالين لها على حساب الزعماء الوطنيين . فقد اعلن القراران ١٧١ و ١٨٦ الصادران في ١٠ و ١٥ آذار ١٩٢٦ ، عن قسمة الملكية المشاعية بين اصحاب الحقوق فيها . وجاء تقسيم هذين القرارين « وسيلة لاستلاب اراضي الفلاحين وتملكها من قبل اصحاب النفوذ . . . وتسجيلها باسم احد الوجاه من المقربين او من الزعماء اصحاب الجاه عند المستعمر . . . » (٤٧) .

فبظروف الاوضاع السائدة من العهد العثماني ، وبقاء قوانين المساحة والتسجيل تستند الى الغش الموروث ، وتثبيت الملكية الكبيرة القائمة على الاستثمار البشع للفلاحين ، يقول اشار — مخطط السياسة الانتدابية في الريف اللبناني — السوري في ملاحظاته — « ماذا ستكون نتيجة التوسع في انشاء الطرقات والقنوات الا الزيادة

— Achard « Notes sur la Syrie » — P. 80. (٤٥)

— L'Asie Française — No. 309 — Avril 1933 — P. 136. (٤٦)

(٤٧) منير الشريف « قضية الارمن في سوريا » ص ٦٨ عن السيامي « اضاء » ص ١٢٤ — ١٢٦

المادية في قيمة بعض الأراضي وتضخيم ثروة عدد ضئيل جدا من كبار الملاكين ؟ » (٤٨)
لقد اعترف الفرنسيون صراحة ان نظام « الطابو » العثماني كان بالغ السوء اذ جعل
أراضي الدولة او الدومين والملكيات الصغيرة (٤٩) عرضة لنهب الاقطاعيين وسيطرتهم ،
لكن نظام المباحة هذا ، وبالشكل الذي طبق فيه ، اعطى هؤلاء الاقطاعيين السندات
القانونية للملكيتهم ووضع عساكر الانتداب ، الاجنبية منها والمحلية ، في خدمة
الاقطاعيين ولتثبيت « ملكياتهم القانونية » التي اكتسبوها حديثا .

ب - اعطاء الاقطاعيين السلطة التنفيذية المطلقة في مقاطعاتهم

كان الاقطاعي يمتلك مساحات واسعة من الارض التي تعمل عليها مجموعة كبيرة
من الفلاحين على اساس نظام المربعة او المحاصصة . وكان الاقطاعي يجبي شخصا
ضرائب لحسابه الى جانب الضرائب التي تفرضها الدولة وتجمعها تحت اشرافه . وقد
ترسخت تلك الضرائب ، خاصة العشر ، في جميع انحاء الريف اللبناني ، وترسخت
معها الحقوق الاقطاعية التي مثلت مظهرا من اسوأ مظاهر الحياة الريفية ابان العهدين
التركي والفرنسي . فقصمت ظهور الفلاحين بكثرتها . واتخذت تلك الحقوق طابعها
القانوني الشرعي خلال فترة الانتداب اذ مارستها السلطة المنتدبة ايضا على شكل
سخرة وضرائب عينية لانجاز الطرقات وأعمال الري وغيرها ، مما شجع الاقطاعيين
على استغلال فلاحهم اكثر فأكثر ، فكان له حق القضاء ولجاء العدالة في منطقته
دونما اي تدخل من الدولة . واتخذ الاقطاعي ، في هذه الحالة زعامة مزدوجة : فهو
زعيم المنطقة التي يسيطر عليها ، كونه يمتلك مساحات شاسعة من الارض ويسيطر
على الفلاحين العاميين عليها ، وهو من جهة اخرى ، زعيم سياسي يمثل منطقته في
الادارة المركزية في بيروت ، كونه وزيرا او نائبا عن منطقته او موظفا كبيرا فيها .
لقد حولته تلك الزعامة المزدوجة رئاسة السلطة التنفيذية برمتها في منطقته .
تلك السلطة بالذات وضعت تحت امرته لا جموع الفلاحين والقاطنين في منطقته
فحسب بل وجموع القوى العسكرية المرابطة فيها ايضا . ولم يحدث قط ان خالف
ضابط او مسؤول عن الامن اوامر الاقطاعي في مقاطعته بل مثل هؤلاء دوما الاداة
الطبعة بيده والا كان مصيرهم العزل او النقل . لقد اصبحت السلطة المركزية بالذات
بحاجة الى هؤلاء الاقطاعيين الموالين لها كي تضرب اية معارضة لها في الريف الذي
سيطرت عليه عنوة . وقد استغل الاقطاعيون هذا الوضع اوسع استغلال ، اذ اصبح
الاقطاعي سيد اقتصاد المنطقة برمتها وسيد السلطة التنفيذية فيها ، كما يمثل تلك
المنطقة في الادارة المركزية العليا ، وكان الوحيد الذي وضعت الدولة بنكها الزراعي
لتسليفه كي يقرض الفلاحين بدوره لقاء حرماتهم حتى من حرية الانتقال احيانا .
وادي هؤلاء الاقطاعيون بالمقابل ، خدمات جلي للسلطة المنتدبة . فقد كانوا
ادواتها التي توصلتها للسيطرة على جميع المناطق اللبنانية بعد ان استعانوا لهذا الهدف

— Achard — « Notes... » — P. 80.

(٤٨)

— R. O'Zoux « Etats du Levant sous mandat français » — P. 175.

(٤٩)

بالرشوة وتوزيع الاراضي على الموالين واطلاق حرية التصرف لهم . وللتأكد من ولائهم التام والمستمر لجأت ادارة الانتداب كذلك الى توظيف ابناء الاقطاعيين واعوانهم في مختلف مراكز الدولة الهامة (٥٠) .

فالاقطاعي اذا استطاع ايجاد مكان ربح له ولاعوانه في جهاز الدولة الانتدابية . فالاغلبية الساحقة من الضباط ، والجنود الفقراء وصفار الموظفين ، ورجال الدرك والشرطة، كانوا ريفيين في الغالب . هؤلاء، وان تحرروا ظاهريا من سلطة الاقطاعيين، فان قسما كبيرا منهم كان صنعة هؤلاء الاقطاعيين بالذات واستمرارهم في وظائفهم رهن بارادة الاقطاعيين ايضا ، في حين بقي اهلهم تحت سيطرة الاقطاعيين المباشرة . وبرأينا ، ان هؤلاء الموظفين والعسكريين لم يشكلوا اداة ضغط في جهاز الدولة لضرب نفوذ الاقطاعيين في مناطقهم ، بل على العكس من ذلك ، كانوا اداة توسيع نفوذ هؤلاء الاقطاعيين خارج مناطقهم وفي مختلف ادارات الدولة .

لقد تمثلت الارياف البنانية بأسوأ رجالاتها الاقطاعيين . ويكفي القول ان ممثلي الدولة في الريف ما كانوا الا الطبقة المستغلة له اي الاقطاعيين انفسهم . فالاراضي كانت تحت سيطرتهم او سيطرة الدولة التي كانوا هم ممثليها . فهل تغير وضع الفلاح من العهد التركي الى العهد الفرنسي ؟

ان فائض انتاج الريف كان يجري لصالح الاقطاعيين وضرائب الدولة ، وحرم الريف ، المنتج لتلك الخيرات ، من جميع فوائدها . ولما كان الاقطاعيون واجهزة الدولة ، المدنية والعسكرية ، تتمركز في بيروت خاصة وباقي المدن ، فان فائض انتاج الريف لم يتحول الى مشاريع تعود بالفائدة على المكان الذي أنتج فيه بل كانت المدن ، وخاصة بيروت ، المستفيد الاول من ذلك الفائض ، مما شكل احد الاسباب الرئيسية للركود الاقتصادي المستمر في الريف اللبناني . وفي الوقت الذي ارتفعت فيه اسعار كافة السلع ثلاثة اضعاف ما كانت عليه قبل الحرب العالمية الاولى ، فان اسعار المنتجات الزراعية احتفظت بأسعار مبيعها القديمة تقريبا في الريف طيلة عهد الانتداب (٥١) .

اما رجال الاقطاع المتوسطو الحال والصفار ، فكانوا هم ايضا مضطرين للسكنى في المدينة حيث تتمركز ادارات الدولة والمؤسسات التعليمية ووسائل الترفيه وغيرها . ولم يكن بمقدورهم استيراد وشراء الادوات الزراعية الحديثة ، لذا استمروا على الانماط البدائية للانتاج والتي لا تعطي سوى مردود ضئيل ، في حين كان سكنهم في المدينة يضطرهم الى تكبد النفقات الكبيرة والاستدانة بفوائد فاحشة . فيعودون عندها الى مزارعيهم وفلاحهم ، وتزداد اساليب استغلالهم شراسة يوما بعد يوم . ويلجأون الى جميع الانماط التي توفر لهم مداخيل اكثر من المحاصصة والمراعاة والعقود الفصلية والشهرية واليومية . ولما لم يكن العقد المكتوب مالوفا ، ولا توجد قوانين عمل في الريف اللبناني ، كانت اليد العاملة تشغل افراديا وشفهيا حسب

(٥٠) السباعي . اضواء . ص ٢٢٠

— Omar Djabry « La Syrie sous le mandat » — P. 124.

(٥١)

العادات المحلية التي كرسها العرف (٥٢) . وسرعان ما كان هؤلاء الاقطاعيون يتملصون من « عقودهم » ايسام الحصاد ويستغلون فلاحهم دونما رحمة او رادع ، مما اجبر هؤلاء على ترك الريف والنزوح الى المدن او الهجرة الى الخارج التي توسعت بشكل كثيف خلال تلك الفترة لتشمل لبنان بأسره بعد ان كانت حكرا على جبل المتصرفية قبل الانتداب .

اما التقنية الزراعية فلم تشق طريقها نحو الريف اللبناني وتنعدم هناك بصورة تكاد تكون تامة خلال الفترة الاولى من الانتداب . فالقطاعي هنا، اما متعاطي السياسة ويهمل املاكه الواسعة او يعطيها الى وكلاء ، واما غير قادر على شراء المعدات الحديثة . لذا كان ابقاء الفلاحين القسري هو السبيل الوحيد الذي يضمن استمرار اساليب واشكال الاستغلال القديم . بيد ان الهجرة والنزوح حررا اعدادا كبيرة من الفلاحين واجبرا الاقطاعيين الصغار على بيع قسم من املاكهم ، في حين استمر الاقطاعيون الكبار المتنفذون يحافظون على اراضيهم الواسعة ويزيدون في انتشارها وبدا الانقسام الطبقي في الريف اللبناني يزداد وضوحا واتساعا على اساس طبقتين رئيسيتين : كبار الملاكين الاقطاعيين والفلاحين المعدمين . ففي حين كانت الطبقة الاولى تتع ملكيتها ويقل عدد افرادها ، كانت الثانية تزداد عددا وتتقلص نسبة ملكيتها باستمرار .

ج - دور نظام المفارسة في ابراز الملكية المقاربية الصغيرة في الريف اللبنانية

في مثل تلك الاوضاع من الانعدام شبه الكامل للتقنية الزراعية الحديثة في لبنان ، ولازدياد موجة النزوح والهجرة نحو المدينة والخارج ، ولاضطرار قسم من الاقطاعيين الصغار الى بيع اجزاء من ممتلكاتهم ، ولفقدان اية مساعدة من جانب الادارة الانتدابية للفلاحين الصغار ومساعدتها ودعمها لكبار الاقطاعيين في الريف ، لعب نظام المفارسة دورا هاما في تحرير الفلاحين نسبيا من اسلوب الاستغلال القطاعي البشع . ونظام المفارسة (٥٣) اساسا لا يتناول سوى زراعة الاشجار . لذا فهو عقد طويل الامد . وطبقا لهذا النظام ، يعهد المالك بأرض الى احد الفلاحين او المزارعين كيما يقوم بالفرس والزرع والتطعيم وبذل كل ما ينبغي من العناية بالاشجار . وبعد ثلاث الى خمس سنوات على زراعة التوت، واربع الى ست سنوات على زراعة الكرمة ، وسبع الى ثماني سنوات على زراعة اشجار التين ، وعشر الى اثني عشرة سنة على زراعة اشجار الزيتون ، يتم تقاسم الارض المفروسة بالثلث او بالنصف . ولا يحق للمزارع الشريك ان يطلب اجراء القسمة خلال سريان العقد الشفهي .

اما محاصيل الثمار الناتجة عن الشراكة ، وكذلك محاصيل الزروع الاخرى

— H. C. « La Syrie et le Liban de 1919-1927 » — P. 307. (٥٢)

— A. Latron « La vie rurale en Syrie et au Liban » — P. 66-67. Voir aussi (٥٣)
M. Sarrage « La nécessité d'une réforme agraire en Syrie » — P. 30-33.

فتقسم بينهما مناصفة .

لقد ثبت هذا الشكل من الزراعة حق الفلاح كشريك ، لا كعبد للاقطاعي . ومن هذا المنطلق بالذات جاء نظام المفارسة ليعطي الفلاح حق التملك لثلث أو نصف الأرض المفروسة بالكروم والأشجار المثمرة ، ومن هنا أيضا تبرز أهميته كنواة أساسية لبروز الملكية الريفية الصغيرة في المناطق اللبنانية خارج الجبل . فقد أدت المفارسة فعلا إلى تجزئة الأرض (٥٤) ، وترسيخ حق المزارع من هذا النوع بحصة منها .

بيد أن الاقطاعي كان يجبي الضريبة والاتاوات العينية قبل اقتسام المحصول ، كما كان يجبر المزارع على حراثة الأرض وعدم تركها بورا ، وعلى ربط المزارع بأرض سيده دون السماح له بمفادرتها (٥٥) . ولم يكن المالك الاقطاعي يلجأ إلى المفارسة إلا إذا كانت مداخله وفيرة بحيث يستغني عن مردود بعض الأراضي التي يخضعها لهذا النظام ، شرط ألا تكلفه شيئا ، على أمل أن يكون مردودها من الأشجار المثمرة أكثر بكثير من مواردها الزراعية .

وعندما يحين موعد اقتسام الأرض ، لا يعترف الاقطاعي للمزارع إلا بحصة صغيرة جدا بعد أن يسدد الديون والضرائب والاتاوات التي يفرضها عليه . لذا ، فغالبا ما يكون الدفع مجرد استيفاء الدين إذا ما أراد المزارع الاستقلال عن الاقطاعي ، إذ أن هذا المزارع مدين باستمرار للمالك الكبير . وإذا رفض المزارع القسمة يقوم الاقطاعي باحتجاز الأرض بالقوة وتلقين المزارع درسا تأديبيا صارما بواسطة أزماله . أما إذا قبل القسمة فيعطيه الاقطاعي أرضا جديدة لفرسها لقاء تنازل المزارع عن حصته في الأرض المفروسة سابقا ، وتبقى ملكية الأرض الجديدة باسم الاقطاعي رسميا ، والهبة تبقى شفها فقط بحيث أنه في نهاية مدة الزراعة ، وعندما تبدأ الأشجار المثمرة بالانتاج يتم طرد المزارع منها بالقوة أو لقاء أرض جديدة لفرسها . . .

أما إذا كانت الأرض موقوفة أي تابعة لاحدى المؤسسات الدينية فيحظر على المزارع طلب القسمة الرسمية « لأن هذه الأرض ، بطبيعتها ، غير قابلة للتقسيم » ، وبالتالي ، فإن الخيار الوحيد أمام هذا المزارع هو الاستمرار بالعمل عليها ، والا فهو « حر في التنازل عن حصته أو نقل ملكيتها للوقف » (٥٦) .

غير أن الهجرة الكثيفة نحو الخارج والنزوح إلى المدن ، بالإضافة إلى أن عددا من تجار وأغنياء المدن ، وحتى الحرفيين الميسورين فيها ، بدأوا يتطلعون نحو الريف لامتلاك بساتين لهم هناك أملا في توظيف رساميلهم فيه نظرا لتحسن أسعار الأراضي الريفية القريبة من المدن . كما أن قسما كبيرا من المرابين أخذ يضع يده على أملاك تابعة لصغار الاقطاعيين الذين رهنوها دون أن يستطيعوا إيفاء ديونهم وفوائدها الباهظة . وسرعان ما عمد هؤلاء إلى بيع تلك الأراضي بأسعار مغرية نظرا للسعر المتدني الذي سيطروا به عليها ، مما ساعد عددا من الفلاحين الميسورين ، ومن العمال الزراعيين الذين كانوا يحصلون على أجورهم بالنقد ، على تملك قطع صغيرة

— A. Latron — op. cit. — P. 70.

(٥٤)

— M. Mounayyer « Le régime de la terre en Syrie... » — P. 74.

(٥٥)

— A. Latron « op. cit. » — P. 71.

(٥٦)

من الاراضي في الريف . كل تلك الاسباب وغيرها اجبرت الاقطاعيين على تخفيف حدة اساليب استثمارهم للفلاحين والمزارعين الذين اضحى بمقدورهم العمل عند اغنياء او تجار المدن الذين امتلكوا ارضا في الريف ، مما جعل عقد المفارسة اكثر تاهلا من السابق وذلك لصالح المزارعين بالذات .

وعلى هذا النحو بدأ ازدياد الملكية العقارية الصغيرة في جوار المدن ، قرب بيروت وطرابلس وصيدا وصور وبعبك ومرجعيون . ومن حالة العبودية للاقطاعي ، من حالة الالتصاق بالارض التي ليست له والتي لا يطمح ان يصبح مالكا لها بل من عبد مقيد بها عن طريق الصرف المتوارث عن الاسلاف (٥٧) ، انتقل عدد من الفلاحين والمزارعين اللبنانيين - وان كان محدودا في الفترة الاولى - ليصبحوا عمالا زراعيين ، وحتى مالكين صفار . وهكذا اصبحوا اكثر تحررا من ضغط البكوات والاغوات والمشايخ ورجال الدين . لقد سار فلاحو المناطق المضمومة الى المتصرفية على طريق رفاقهم فلاحي الجبل في امتلاك اراض كانت حكرا على الاقطاعيين المسيطرين عليهم « تلك كانت قديما قصة قرية الدامور ، التي استبعد المزارعون فيها ، عن طريق المفارسة ، مالكي القرية من أسرة آل شهاب » (٥٨) . وعلى غرارها حديثا بدأ انتقال اراضي العديد من القرى في الريف اللبناني الى فلاحين متوسطين و صفار .

ومهما كانت الضغوط المستمرة التي مارسها الاقطاعيون على المزارعين بموجب نظام المفارسة ، فقد لعب هذا النظام دورا بالغ الاهمية في المناطق المضمومة الى الجبل ، نظرا للحقوق التي رسخها للمزارعين وبرزها حق المزارع في التملك . لقد كان من شأن هذه المفارسة ان تساعد على انتشار الملكية الصغيرة وتوسيع المزارع القليلة المساحة ، خاصة تلك التي تشمل حصة المفارسة فيها الارض والاشجار . ففي هذه الحالة ، اكثر من سواها ، أخذ المالك الصغير يفتني الى الحد الذي يستطيع معه حيازة قسم من اراضي الاقطاعي المسيطر عليه سابقا .

د - بداية ظهور البروليتاريا الزراعية

بالاضافة الى المفارسة ، كانت حاجة المفوضية العليا الفرنسية ماسة الى اليد العاملة الزراعية في لبنان وسوريا لتنشيط مواسم انتاج الحرير . فقد وزعت خلال عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ فقط اكثر من ٩٠٠ (٥٩) الف نصبة توت ، وسارعت بيوت المال الفرنسية تقدم السلف الواسعة على كميات الحرير التي ستنتج . وجاءت حملة المفوضية العليا هذه لزيادة انتاج الحرير تخدم ، الى حد بعيد ، تجزئة الاراضي الكبيرة في الريف اللبناني . فهي بحاجة الى اليد العاملة بقدر حاجتها ، ان لم نقل اكثر ، الى الارض . لذا كان تشجيع المزارعين الصفار اساسيا في برنامج تلك

(٥٧) — J. Luquet « Le Mandat A et l'Organisation française en Syrie et au Liban » P. 158.

(٥٨) — A. Latron « Op. Cit. » — P. 72.

(٥٩) السباعي « احوال .. » ص ١٩٦

الحملة ، خاصة وان قلة عدد هؤلاء ، والمتناقص باستمرار بسبب النزوح والهجرة ، عزز وضعهم الاقتصادي . فبين حاجة المفوضية العليا لهم لانجاح حملتها « الحريرية » ، وحاجة الاقطاعيين وتجار المدن وغيرهم من المالكين ، لتلك اليد العاملة في الزراعة خشية ان تصاب اشجارهم باليباس وارضيتهم الزراعية بالبوار ، فاندفع العديد من المزارعين والفلاحين الى هجر العمل القديم كمحاصص او مرايع ، والعمل بأجر يومي تقدي . وبرزت مجموعة واسعة من العمال الزراعيين ، والاجراء ، والبروليتاريا الزراعية ، وأنصاف البروليتاريا ، والاجراء الفصليين او الموسمين وغيرهم . واتاحت النقود ، التي اصيحت بحوزة هؤلاء العمال ، شراء اجزاء جديدة من اراضي الاقطاعيين الصغار او اراضي الدولة وغيرها . فقد قدر عدد العمال الزراعيين في عام ١٩٢٢ بحوالي ٧٩ الف عامل (٦٠) ، متوسط الاجر اليومي للرجل منهم ٦٠ قرشا سوريا - لبنانيا ، مقابل ٣٠ ق.س.ل للمرأة و ٢٠ ق.س.ل للولد .

بيد انه يمكن القول ان الملكية الاقطاعية الكبيرة لم تلق منافسة جديدة من جراء المفارسة والعمل المأجور ، بل كان التنافس فقط في جوار المدن وفي المناطق الزراعية الكثيفة بالسكان ، حيث استطاع دخل المزارع امتلاك قطع صغيرة من الارض . وجاء انتشار العمل اليومي المدفوع نقدا يساعدا على تحرر الفلاحين من الارض التي ليست ملكا لهم كي ينتقلوا الى انواع جديدة من الاعمال في المدينة والريف ، خاصة في صناعة التبغ والحريير وكانوا ابدانوا بولادة نواة البروليتاريا اللبنانية التي وجدت اولى تنظيماتها السياسية والنقابية في الريف مع حزب الشعب اللبناني عام ١٩٢٤ .

ه - بين الملكيات الكبيرة جدا والمتناهية في الصغر

اخذت ملكيات صغار الاقطاعيين غير المدعومين من الادارة الانتدابية بالتقلص تدريجيا لصالح الملكية العقارية الكبيرة ، والملكيات الفلاحية الصغيرة وشكلت نواة الملكية العقارية المتوسطة . هذه الملكية التي انبسطت في لبنان بين الملكية الكبيرة والبالغة الكبر من جهة ، والملكية الصغيرة والمتناهية في الصغر من جهة اخرى ، لم تتمتع بطابع الاستقرار في مجتمع شرقي يقول عنه جاك ويلرس انه « مشطور الى شطرين حادين بحيث لا توجد بينهما فئات متوسطة ولا طبقة وسطى . فالملكية الوسطى كانت حكرًا على اغنياء المدن ووجهاء الريف دون سواهم » (٦١) .

أضف الى ذلك ان اصحاب الاملاك الواسعة ، من الاقطاعيين الكبار والاغوات والبكوات ، لم يمازسوا العمل ولا السكن في الريف . وكان الميسورون منهم يعينون من قبلهم « خوليا » او « وكيلا » او « شوباصيا » مخلصا وذا خبرة للاشراف على املاكهم . هذا الوكيل ، كان في الغالب مزارعا ناجحا او وجيها محليا او شيخا من الاسرة الاقطاعية نفسها . وكان هذا الوكيل يستغل اراض لحسابه الخاص ، لقاء مبلغ من المال او جزء معين من المحصول يؤديه للاقطاعي المالك . وسرعان ما اغتنى هؤلاء

— H. C. « Rapport sur l'année 1922 » — P. 294.

(٦٠)

— Jacques Weulersse « Les paysans de la Syrie et du Proche-Orient » P. 120. (٦١)

الوكلاء ووسعوا ثرواتهم الشخصية بعد ان اصبحوا ملتزمين لمناطق واسعة، ومدعومين مباشرة بسلطة الاقطاع المتنفذ على صعيد الدولة ، مما سهل لهم عملية استفلال الفلاحين الى اقصى حد ، والى امتلاك اراض واسعة على حساب بعض الاقطاعيين الاضعف نفوذا وعلى حساب املاك الدولة ايضا . وعن هذين الطريقتين تكونت الملكية العقارية المتوسطة ، والتي انتشرت بشكل خاص في المناطق الملحقة من لبنان . وبقيت تلك الاراضي عديعة الاستقرار وتبدل ملكيتها دوما ، خاصة ما قام منها على دعم الاقطاعي المتنفذ للمالك العقاري المتوسط .

لقد بقيت الملكية الاقطاعية الكبيرة السمة المميزة للملكية في الريف اللبناني . اما الملكية المتوسطة فكانت سريعة التبدل ، في حين بقيت الملكية الصغيرة ، الحديثة العهد هناك ، غير ذي أهمية كبرى . يضاف الى تلك الملكية الاقطاعية الواسعة ، ملكيات من نفس النوع باسم الملكية المشاعية الواسعة الانتشار ، واملاك الوقف ، والملكيات الكبيرة المشتركة غير المجزأة .

استثمار تعاون جبل لبنان عن سائر الارياف اللبنانية

لا شك ان العلاقات الرأسمالية التي دخلت جبل لبنان منذ بداية القرن التاسع عشر وارتباط السوق التجارية في الجبل مباشرة مع القرب الرأسمالي (١٢) ، خاصة فرنسا وبريطانيا ، وضرب المقاطعية فيه بعد ثورة الفلاحين عام ١٨٥٨ وغيرها قد حدثت من سيطرة كبار الملاكين والمقاطعية على مستقبل فلاحي جبل لبنان وبدأ نفوذهم بالانحدار تدريجيا منذ قيام نظام المصرفية هناك .

ومع مطلع القرن العشرين ، كان نظام المفارسة ونظام العمل المأجور والمدفوع نقدا ، ونظام استئجار الاراضي ، وهجرة العديد من المقاطعية السابقين الى المدينة والعمل هناك كوسطاء تجاريين ، والهجرة المتواصلة من الجبل نحو بيروت والخرج ، فرضت شروطا اكثر ملاءمة لصالح الفلاحين وعلى حساب امتيازات المقاطعية السابقة . وجاءت الحرب العالمية الاولى والتي تسببت بوفاة اكثر من ثلث سكان الجبل اللبناني لتعزز من وضع المتبقين فيه والعاملين في قطاع الزراعة اذ اضطر المقاطعية والكنيسة المارونية المالكة لعقارات كثيرة الى عقود اكثر انفتاحا خشية بوار اراضيهم .

اما حملة تشجيع المفوضية العليا لتربية دود الحرير فكانت بحاجة ماسة الى اليد العاملة اكثر من حاجتها للاراضي ، فجميع المناطق صالحة لزراعة التوت . لذا ساهمت المفوضية العليا مساهمة ناشطة في اعادة لنتاج الحرير الى سابق عهده وامدت المؤسسات المالية الفرنسية الفلاحين بالقروض والتسليفات والاعانات بسبب الارباح الطائلة التي جنوها من اتجارهم بالحرير اللبناني . وتنشيط الحرير ادى دورا هاما في ابراز دور الفلاح المنتج للخيرات لا الارض

— D. Chevallier « De la production lente à l'économie dynamique en Syrie ». (١٢) Annales 1966 — P. 65.

للمجرداء القاحلة في الجبل مما زاد في أهمية هذا الفلاح وجعله يعي موقعه الطبقي من تقسيم العمل أكثر فأكثر ومن توزيع الأرباح والملكية فكان يطالب بشروط أفضل ويعمل على التحرر نهائياً من سيطرة المقاطعية ويسعى إلى شراء العديد من مقاطعاتهم . إن هذا الوضع المميز لفلاح الجبل ساعده على سد العديد من حاجاته الضرورية والاحتفاظ بملكية خاصة لقطع من الأراضي وشراء قطع جديدة على حساب تفنخ ملكية المقاطعية . وتعززت بذلك مواقع الملكية العقارية الصغيرة كطابع مميز للملكية في جبل لبنان ، وانتشر فيه العمال الزراعيون لإجراء بفضل زراعة التبغ والحريز أكثر من باقي المناطق . وكان ظهور هؤلاء المياومين الزراعيين ، ولأول مرة في لبنان ، ايداناً ببداية مرحلة جديدة لتحرر الفلاحين من سيطرة المقاطعية والكنيسة المارونية . وساهم الأجر النقدي والمنتجات الزراعية المرتفعة الأسعار كالحريز والتبغ ، في تحسين وضع الفلاح الفقير في الجبل وفي توسيع ملكية الفلاحين المتوسطين والميسورين .

إن المرحلة الابتدائية الأولى ، بفعل ما رافقها من تنشيط لإنتاج الحريز خاصة في جبل لبنان ، لعبت دوراً هاماً في تحسين وضع العمال الزراعيين والفلاحين هناك . فبقدر ما كانت المزرعات التجارية مصدراً لغنى المتاجرين بها ، بقدر ما كان التجار أكثر عدداً وأشد تنافساً على امتلاك المحصول ، فيصبح المزارع والاجر والفلاح أكثر انفلاتاً من الضغوطات السابقة ويتحسن بالتالي مستوى معيشته ويتاح له شيء من الجبوحه في السكن والأكل والملبس وفي ادخار جزء من دخله يشتري به أرضاً صغيرة يمتلكها أو يضيفها إلى ملكية صغيرة سابقة .

إن تحرر العمال الزراعيين والفلاحين من سيطرة المقاطعية حررهم أيضاً من ارتباطهم بالأرض التي ليست ملكاً لهم ، أو أرضهم التي لا تكفيهم مؤونة العيش . لذا بدأوا يفادرون مناطقهم بعد انتهاء مواسم الحصاد والحريز والتبغ ويتوجهون إلى المناطق الأخرى والمدينة طلباً للعمل وهروباً من البطالة القسرية التي تفرضها عليهم مواسم العمل بالمدن . ومن هنا بدأ نشوء فئة واسعة من العمال الموسمين غير المستقرين الذين يرتحلون إلى المدينة ثم يعودون إلى أريافهم في مواسم الزراعة والحصاد . هذه الظاهرة بدأت في جوار بيروت ثم أخذت تتوسع فشملت معظم الأرياف اللبنانية القريبة من المدن وساهمت إلى حد بعيد في تأمين دخل للمزارع والفلاح طيلة أيام السنة ، وحدث بالتالي من بطائه المستمرة خارج أوقات العمل الزراعي (٦٣) .

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن تشجيع المفوضية العليا للاصطياف أمداً جوار بيروت بمداخيل ثابتة ووفيرة ودفع أعداداً كبيرة من الفلاحين والإجراء للعمل بهذا القطاع الصيفي . فبدأوا بتسويق منتجاتهم الزراعية دونما حاجة إلى سمسرة المدينة وجنوا أرباحاً لا بأس بها من اختلاطهم بالمصطافين ، الأجانب والمحليين ، الذين يتسمون جميعاً بطابع الغنى الفاحش . وقد استطاع هؤلاء الريفيون بفضل تأجير

قسم من مساكنهم ، ويبيع محاصيلهم دونما سمرة ، وتقديم الخدمات للمصطافين ، والعمل اليومي بأجور نقدية ، والانتقال الى المدينة للعمل فيها فترة من السنة ، كل هذه السمات وغيرها جعلت من جبل لبنان منطقة مميزة ، كما في السابق ، عن سائر الارياف اللبنانية .

ففي حين استمرت سائر الارياف على ما كانت عليه ايام الاتراك تقريبا ، استفاد جبل لبنان من سياسة الانتداب ليتعزز اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا ويتميز بوضوح تام عن سائر المناطق اللبنانية .

بعض سمات الريف اللبناني في نهاية المرحلة الانتدابية الاولى

لم تنجح الادارة الانتدابية ، لابل لم ترغب في خلق الملكية الصغيرة في الريف ، كما وضعت في برامجها وقراراتها ، واستمر النظام الاقطاعي هناك الشكل البارز لسيطرة الملكية العقارية الكبيرة على الارض . و بقيت ٧٨٪ (٦٤) من ملكيات سهل البقاع ، حتى عام ١٩٢٥ ، ذات طابع مشترك بين افراد من اسر واحدة دون ان تجزأ تلك الملكيات الكبيرة ، وذلك باعتراف الفرنسيين انفسهم . اما في الهرمل مثلا ، فقد بقي ٩٣٪ من اراضيه غير مستثمر حتى ١٩٧٢ بالذات . ومن أصل ٦٣،١٨٣ هكتارا هناك ، تقول الاوربان - لوجور ، لم يوجد سوى ٤٧٩٨ هكتارا من الاراضي المزروعة « (٦٥) » .

ان الفرنسيين انفسهم حكموا على سياستهم الانتدابية في الريف اللبناني بما يلي : « ان نظام الملكية العقارية البالغة الكبر ، والملكية الواسعة غير المجزأة ، واملالك الوقف ، وطريقة الاستثمار المتبعة منذ زمن بعيد والتي لا تبقى للفلاح سوى الحد الأدنى للمعيشة ، والانعدام الكامل للتعليم المهني والزراعي ، وللتشريع العقاري ، ولعقود العمل ، والطرق البدائية في الزراعة ، والهجرة الكثيفة الى المدن والخارج ، والعشور والضرائب واساليب جبايتها ، والانعدام التام للتسليف الزراعي للفلاحين ، وقلة طرق المواصلات ، كانت من ابرز الصعوبات امام تطور الريف اللبناني » (٦٦) . ونضيف في هذا المجال ، ان دعم كبار الاقطاعيين ، واعطاء نظام السخرة طابعا قانونيا ، والابقاء على الملكيات الكبيرة دون تجزئة ، وبقاء شعار « من يزرع لا يملك » ، ومن يملك لا يزرع » الذي كان سائدا في العهد التركي ، ساري المفعول ايام الانتداب ، وغيرها ايضا ، كانت ابرز السمات للريف اللبناني في نهاية هذه المرحلة من الانتداب .

لقد خضع سكان الريف اللبناني لنوعين متلازمين من الاستغلال يكمل احدهما الآخر : استغلال مباشر من قبل كبار التنفيذيين والبكوات والاعوات والسياد والمشايخ الاقطاعيين عامة من جهة ، واستغلال من الدولة الانتدابية التي قدمت لأولئك المستغلين

(٦٥) — Charles Burckard « Le Mandat Français en Syrie et au Liban » — P. 15.

(٦٥) — L'Orient-Le Jour — No. 421 du 12 Août 1972.

(٦٦) — Achard « Notes sur la Syrie » — P. 80.

كل دعم ورفعتهم الى مراكز السلطتين التشريعية والتنفيذية .
لقد ربط المستفلون الخارجيون ، بشكل طبيعي وحتمي ، علاقاتهم السياسية والاجتماعية والادارية والفكرية ، بالمستفلين في الداخل ، وشكلوا وايامهم حلقا واحدا لاستغلال الفلاحين والمزارعين ونهب خيرات الريف ومدخراته النقدية والانتاجية .
ان السياسة الانتدابية الفرنسية في هذه المرحلة ، لم تجزء الملكية العقارية الكبيرة في الريف اللبناني ، كما وعدت هي باللدات ، بل قامت بترسيخ النهب الذي تم في العهد التركي السابق واعطائه صفة قانونية لم تكن له في الماضي .

□ الفصل الثاني □
ملاع من الحياة الاجتماعية
□ اللبنانية □
□ البيت □ العاعة □ العمل □

١ - المسكن اللبناني

التجمعات السكنية

ان احدى السمات المميزة للحياة القروية في لبنان آنذاك ، ان القرى السهلية فيه كانت خالية تماما من وسائل الدفاع المادية كالحصون والقلاع وغيرها . فالقرية المحصنة كانت امرا غير مألوف تماما . والسكن القروي في السهل كان يعتمد على الامان من الخارج اكثر من داخل القرية المفتوحة على جميع الجهات . والتحصين المنظم والواعي لم يكن يظهر اطلاقا في جميع قرى لبنان ، الجبلية منها والقائمة في السهل . والقرية لم تتخذ طابع الجسم السياسي الموحد ولم تكن تطمح قط للاستقلال عما جاورها والاكتفاء الذاتي بمنتجاتها ، كما لم تكن تنعزل عن جيرانها حتى في اشد الظروف الطائفية العصبية التي كانت تمر بها بل كانت بيوت المسيحيين تفتح امام الاقليات المسلمة اثنان الحوادث كذلك الحال بالنسبة لبيوت المسلمين . فالقرية اذا ، لم تكن جسما مستقلا عما يجاورها من القرى بل كانت خاضعة ، اداريا وسياسيا ، لاسياد البلاد ، اترانكا كانوا ام اقطاعيين محليين . والاختلاف للوحيد بين القرية الجبلية والقرية السهلية هو اختلاف في البناء والموقع والحماية الطبيعية وكان الجبل يرمته يعتبر حصنا يحمي قراه بوعورة مسالكة وضعوبة محاربة اهاليه ، مما اكسب الجبلين تاريخا من الحرية عبر العصور .

ان فهم التكوين العائلي والسلطة العائلية في القرية (١) ، امر في غاية الاهمية لمعرفة القرية الجماعية البنائية وخصائصها ، في السهل والجبل على السواء . فالقروي لا يترك قريته وعائلته الا في ظروف العمر المتناهي ، وهو مرتبط بوجودان الجماعة التي ينتمي اليها حيث يتقلب لديه الشعور الجماعي اكثر من الشعور الفردي .

— A. LATRON « Sn Syrie et au Liban : village communautaire et structure Sociale » — P. 233. (١)

فأفكار الفلاح وعواطفه وردود فعله لا تفهم تاريخيا الا بربطها بتلك الروح الجماعية التي سيطرت عليه(٢) داخل نظام انتاجي اقتصادي شبه مطلق .
 ان بنية العائلة اللبنانية تكاد تتشابه في السهول والجبال . غير ان القرى السهلية ، بحكم السيطرة الاقطاعية المزمنة عليها ، كانت مجموعة من البيوت والاكوخ غير المبنية على الارض بناء راسخا . فالارض التي شيدت عليها تلك القرى والمزارع لم تكن ملكا للفلاحين بل للاقطاع ، والفلاح المعدم مربوط بهذه الارض بحكم العادة والاعراف وابشع مظاهر الاستغلال والسيطرة . لذا بقيت بيوتها من الطين واللبن وجذوع الاشجار . فهي مأوى للعمل الاجباري وليست منزلا للفلاح الحر ، في حين كانت قرى المنحدرات والجبال ذات رسوخ على الارض التي كانت في الغالب من صنع الفلاحين الفقراء الذين بدأوا يوسعون ملكياتهم وبيوتهم منذ بداية تحررهم من سيطرة المقاطعية في منتصف القرن التاسع عشر مع ثورة طانيوس شاهين .

دلالة البيت اللبناني في الريف

وعلى العموم ، كانت مساكن اللبنانيين تنقسم الى فئتين كبيرتين : البيت اللبناني القديم ذي السطحة او « المصطبة » ، وهو واسع الانتشار في جميع المناطق اللبنانية . والبيت « البروتي » او على الطراز الغربي ذي السقف القرميدي(٣) . فالاول يذكر بأبنية الداخل العربي واسط نموذج له ذلك الذي يشتمل على حجرتين وليوان او رواق او ردهة . ولما كانت الامطار الشتوية غزيرة التهطل في لبنان ، فقد كان اللبناني مضطرا الى بناء منزل يمكن الانتقال فيه من حجرة الى اخرى دون المرور خارج الفناء او الرواق المسقوف . لذا كانت الحجرتان تفصلان برواق مسقوف يمتد مركزا للالتقاء بين افراد العائلة وقاطعا بين الذكور والاناث لدى بعض الطوائف او حتى بين الزوجات في حال تعددهن .

اما النموذج الثاني فدليل على الفنى والجاه وبيرو نشوؤه اصلا بتأثير العمارة الغربية . فحيازة بيت ذي سقف احمر من القرميد ، خارج بيروت ، كانت تدل على الرفعة والجاه ، وعلى ان صاحبه من الاعيان او مهاجر ثري . ومع ازدياد اقبال المصطافين أصبح يرجى منه جذب هؤلاء للاقامة فيه صيفا .

والبيت اللبناني ، في المدينة والريف ، كان دليلا حسيا ملموسا على وضع صاحبه الاجتماعي من حيث الفنى والفقير . فبيت الفقراء كان يتألف من غرفة واحدة او كوخ للعائلة والحيوانات والمؤن والمطبخ وهو مائل الى السواد بفعل الدخان المتصاعد من « مطبخه » . هذه الحجرة لا يدخلها الهواء النقي ولا النور وليس امامها اية فسحة ولا تدخلها الكهرباء ولا المياه .

واذا ما ارتفع دخل الفلاح او العامل أصبح المسكن غرفتين اي استطاع اخراج الحيوانات والمؤن والمطبخ من تعداد « سكن العائلة » .

— J. Weulersse « Les paysans de Syrie et du Proche-Orient... » — P. 240. (٢)

— R. Thoumin « La géographie humaine de la Syrie centrale » — P. 294. (٣)

وبيت الوجهاء واعيان الريف يحتفظ بطابع الحجرة الواحدة بعد ان تصبح أرحب مدى وأكثر انارة وتهوية ، ثم تضاف اليها غرفة ثانية للنساء وثالثة لاستقبال الضيوف التي تؤثث على الطراز المحلي فتوضع الدواوين على جوانبها ليتذوق عليها الزائرون قهوة الترحيب(٤) .

اما الاثاث الريفي فكان متشابها تقريبا . فهو من البساطة في كل مكان بحيث كانت متطلبات الحياة اليومية كالاكل والاستراحة والنوم تجري كلها على الارض . فلم يكن هناك أسرة للنوم ، حتى عند اليسورين من سكان الريف . والسرير هناك ، اذا ما وجد ، كان خشبيا وليس معدنيا طيلة تلك الفترة .

مسكن فقراء الريف والمدينة

بيت الفلاح الريفي المعدم هو مكان العيش ومكان العمل في الوقت ذاته . وبهذا تتحدد البنية الاجتماعية لهذا البيت . فداخله تمر حياة الفلاح الاجتماعية والاقتصادية من المهد الى اللحد . هذا الفلاح ، لم يكن يشتري ، مبدنيا ، شيئا من الخارج . فقد كان عليه ان يعيش فقط من محضوله الخاص ، او بعبارة ادق ، مما تتركه له الدولة والاقطاعي والمرابي من المحصول . فلا شراء من الخارج ، و احيانا لا اتصال مع هذا الخارج . هذا هو الاطار الاجتماعي للاقتصاد المغلق ، لاقتصاد البؤس والجهل والعبودية للأرض التي عاشها الفلاح الفقير في الريف اللبناني . لا تعليم ، ولا وقاية صحية ، ولا كهرباء ، ولا مياه ، ولا امتلاك للأرض التي يفني عليها حياته ، ولا حتى للكوخ الذي يقيم فيه مع افراد عائلته ، ولا الامل في التحرز من تلك القيود الثقيلة(٥) . فبيته ، والارض التي يعمل عليها ، وقوة عمله ، وفائض الانتاج ، قد امتلكها الاقطاعي دون سواه وأضاف اليها « تمثيله الحر » لهذا الفلاح في المجالس المحلية والعامه اذا وجدت .

ومسكن هذا الفلاح ، كمسكن الفقير المعدم في المدينة ، عبارة عن كوخ حقير في زحام من الاكواخ المشابهة . والكوخ عبارة عن فسحة محدودة الابعاد ومسقوفة بجلدوع الشجر والاتربة ولها من الارتفاع بمقدار ما يلامس راس الواقف سقف ذلك الكوخ فيضطر للانحناء كما تعود الفلاح في حضرة سيده الاقطاعي .

وتختلف مواد البناء في هذا الكوخ ، من منطقة الى اخرى . فهي من الحجر تارة ومن الطين المشوي تارة اخرى .

وكوخ المدينة يسقف بقطع من الصفيح القديمة والاخشاب التي توزع كيفما اتفق(٦) . وتتم « التهوية » عبر فتحتين تؤدي احدهما دور الباب والاخرى دور النافذة . و « المطبخ » في كوخ المدينة يقوم على جانب الشارع ، كذلك المراحيض ،

— J. Weuleresse « Les paysans de Syrie... » — P. 236. (٤)

(٥) كان من مطالب الحركة الفلاحية التي اندلعت في عكار ١٩٦٩ ان يسمح للفلاح بدفن موتاه في الارض وليس على جوار النهر .

— S. Chehab-ed-Dine « La géographie humaine... » — P. 333. (٦)

اما في القرية فالمطبخ هو جانب الجدار الالامي للكوخ ، اذا كان من الحجر ، او كومة من الحجارة القريبة ، اذا كان الكوخ غير حجري البناء . والمرحاض يحتل مساحة واسعة من الاراضي المجاورة للكوخ .

هذا الكوخ يفتقر الى المياه والكهرباء سواء في المدينة او الريف . والبحر قرب المدينة يقوم مقام الحمام صيفا(٧)، كذلك النهر او الساقية يلعبان الدور نفسه للقرية . وتفصل الملابس وتنشر على ضفاف النهر او الساقية او البحر او البركة للمياه الراكدة التي تتجمع من امطار الشتاء وتلعب دور المشرب للانسان والحيوان .

اما اثاث الكوخ فلا يختلف كثيرا بين الريف والمدينة . فهو عادة فراشان قدران مصنوعان من الخرق البالية ويبسطان على الارض او على دكة خشبية يطلق عليها اسم « الديوان » او « الطزر » او « الدشك » وذلك حسب المناطق .

والكوخ دوما مرتع للجرذان والفئران بسبب الحبوب والاجبان ، مما يضطر سكان الكوخ الى تعليق الخبز و « الجبنة » و « الشنكليشة » وبقايا الزاد اليومي ، على عمود الكوخ والا فقدوا غذاءهم لليوم التالي .

ان قرية الفلاحين المعدمين ليست سوى مجموعة من هذه الاكواخ تتشابه مع مثيلاتها في المدن وتختلف عنها فقط بوجود منزل البيك او الاغا او الاقطاعي في الريف . فبالرغم من ان هؤلاء الاقطاعيين هم من سكان المدن ويحتقرون حياة الريف والبؤس العميق المتوارث فيه ، فان هذا الاقطاعي كان يبني لنفسه بيتا حجرياً لتمضية بضعة ايام هناك اثناء مواسم الحصاد . لذا تميزت قرى الفلاحين المعدمين بنمط شبه موحد في معظم المناطق المضمومة الى جبل لبنان عام ١٩٢٠ : ففي وسط اراضي الاقطاع الواسعة تقوم مزارع صغيرة هي عبارة عن بعض الاكواخ المتراصة جنبا الى جنب ، والقليلة العدد جدا . وعلى مكان قريب منها ، لكنه معزول عنها ، وقرب النبع او البئر باللدات ، يقوم منزل وحيد ، مريح وحجري ، ينزل فيه الاقطاعي عند مروره بالمزرعة(٨) . والاشجار الوحيدة في الجوار هي اشجار البساتين التي تحيط بذيالك المنزل وتمتد خلفها مساحات شاسعة من الاراضي البور . وقرب ذلك المنزل يبادر الحصاد التي تصب غلالها في منزل الاقطاعي دون سواه . ومنه باللدات تجري عملية اعادة توزيع لبعض الانتاج على شكل قروض بفوائد فاحشة او تسليفات تعطي للفلاح لقمة العيش وتستلبه كل نفحة من حرية او استقلالية عن البيك وازلامه ووارثيه .

مسكن الفلاح المتوسط والعامل الميسور

هذه الفئات الاجتماعية هي كبيرة العدد نسبيا . ففي الريف(٩) ، كان الفلاح المالك الصغير يعيش في بيت واحد مع جميع افراد أسرته مهما بلغ عددهم . وكان هذا البيت ملكا له وتم بناؤه بمساعدة افراد الاسرة انفسهم والاقارب والجيران .

— S. Chehab-ed-Dine — op. cit. P. 333.

(٧)

— J. Weuleresse « Les pays des Allaouites » — P. 364.

(٨)

— A. Latron « La vie rurale... » — P. 113.

(٩)

وكان الابن المتزوج ، في اغلب الاحيان ، يبقى في البيت مع والديه واخوانه وأخواته ويضيف اليهم الزوجة الجديدة كذلك الاولاد فيما بعد ، أو ينون له غرفة ملاصقة للبيت الأبوي يسكن فيها مع زوجته وأولاده . وإذا كانت العائلة على شيء من اليسر ، ابتنت لها غرفة أخرى للمؤونة واسطبلًا للحيوانات . وغرفة المؤونة عادة حجرة واسعة لتخزين الحبوب وصنع الخبز وطهي الطعام . فهي مطبخ ومستودع في الوقت نفسه . وبيت هذه الاسرة عادة من الحجر المسقوف بجذوع الأشجار ، لكنه في بعض المناطق ، من اللبن والطين . اما اثاثه فيعتمد على بعض الكراسي من القش وطاولة للطعام أحيانا وحصر وطاقس أو طراريح . والمنامة تبقى دوما على الأرض . فالفراس من الصوف واللحاف من القطن ، وفي بعض الاحيان تضاف اليها اسرة من الخشب ، خاصة في الصيف ، على سطح المنزل ، كذلك سرير خشبي أو مرجوحة للطفل الصغير . ونادرا ما عرفت هذه الفئة في الريف ، المراحيض ، بل بقيت تعتمد على البرية في قضاء حاجاتها أو « بيت الخلاء » حسب التعبير المستخدم حتى اليوم .

اما في المدينة (١٠) ، فعائلة العامل الميسور تعيش عادة في بيت حجري مبني قبيل الحرب ومؤلف من حجرة واحدة فقط ومن مطبخ ومرحاض تفصلهما عن حجرة السكن حديقة صغيرة هي كناية عن أرض زراعية خصبة يقوم العامل نفسه بزراعتها ببعض الخضار كالبصل والثوم والبقدونس والخس والفجل وغيرها . ومطبخ هذه العائلة عادة من الخشب القديم المشقق مع بعض ألواح التوتياء . هذا المنزل هو ملك للعائلة أو مستأجر . اما اثاث حجرة السكن فعبارة عن سرير للزوجين تم شراؤه قبل الزواج ، ومن فراشين اثنين ، وسرير خشبي ان كان هناك من اطفال ، مع خزانة خشبية وعدة كراسي . والبيت مزود كذلك بالكهرباء والماء وله باب واحد يفتح على الحديقة .

مسكن تجار المدن واعيان الريف

يتكون مسكن التاجر الصغير في بيروت عادة من بيت حجري مؤلف من غرفتين ودردهة وشرفة وحمام عربي ومرحاض . ويرقى الى هذا المنزل بلم خشبية خطيرة أحيانا . ويكون المنزل مجهزا بالكهرباء ومزودا بمياه الشرب . وتزين كل حجرة بسريرين وخزانة للملابس وتستخدم الردهة كقاعة للاستقبال ومنامة للأولاد عند مجيء الضيوف (١١) . وجميع الغرف مضاءة بالكهرباء ، والمسكن مزود دوما بمياه الشرب النقية . اما المطبخ ففيه اثاث حديث وعلاقات للصحن ، وطاقر ودزينات من الملاعق والسكاكين والشوك ، كما يضم أيضا طاولة خشبية للطعام مع عدة كراسي .

وكلما ازداد اللبناني غنى ، ازداد مسكنه اتساعا واثاثه فخامة واناقة . لذا كان منزل كبار التجار والنواب والوزراء ، خاصة في بيروت ، ملكا لهم والقليل منهم يسكن بالايجار ويتكون من ثلاث غرف للنوم أو أكثر ، وقاعة أو اثنتين للاستقبال ، ودرهتين ،

— S. Chehab-ed-Dine — op. cit. — P. 335.

(١٠)

— S. Chehab-ed-Dine — op. cit — P. 338.

(١١)

وغرفة للطعام ، ومطبخين وحمامين . وكان البناء بالغ الاناقة ، و احيانا لا يشاركه في سكنه احد بل عبارة عن فيلا ضخمة مستقلة بنيت على طراز العمارة الفرنسية او الايطالية ، زينت جدرانها بالنقوش والرسوم الجميلة ، كذلك شبائكه بالزجاج الملون . وعلى مدخله اقيمت بركة للمياه ، وعلى جانبيه اشجار وارفة الظلال تحضن منزلا للخدم و كاراتا للسيارة . هذه الفئة الفنية كانت تسكن في احياء خاصة بها أبرزها حي السراسقة في بيروت ، على مقربة من منزل المفوض السامي الفرنسي وكبار موظفي الادارة . اما اثاث المنزل فمن الخشب المطعم بالذهب او العاج ، ومعظمه من صنع أشهر صالات العرض في ايطاليا وفرنسا .

اما مسكن اعيان الريف واقطاعيه فكان مزدوجا : مسكن اساسي لهم في المدينة ولا يختلف بشيء عن منازل الميسورين فيها وليس الاغنياء . ومسكن آخر في الريف ، وهو عبارة عن بيت حجري كبير يشتمل داخله على « مضافة » . وكان للعديد من اعيان الريف منازل شبه مهجورة في مناطقهم ، اذا كان سكنهم الاساسي في المدينة ، ومنازل بسيطة الاثاث والبناء اذا كان التوجه متوسط الحال .

كانت الهوة عميقة جدا بين منازل اغنياء المدن ، خاصة كبار التجار منهم ، ومنازل اعيان الريف الساكنين فيه وحتى المقيمين في المدن . ففي حين جلبت التجارة واردات ضخمة لأولئك التجار بحيث اغتنت جيوبهم « وابتدراهمهم الا ان ترفع اعناقها » فكانت قصورهم الفخمة وكان اثاثها الفاخر ، بقي المردود الزراعي الضئيل لا يكفي لاعالة الاقطاعي وسد نفقاته المدنية ناهيك باعاشة الفلاحين وعوائلهم . لقد بدأ بعض الاقطاعيين منذ ذلك التاريخ يسعون جديا لاحتلال مركز تجاري او منصب في ادارة الدولة يدر عليهم ارباحا وجاها وعمارة وثروة بحيث تصبح موارد الريف احتياطا لمداخيلهم لا مصدرا اساسيا لمعيشتهم وترفهم .

٢ - العائلة اللبنانية

بنية العائلة اللبنانية

كانت العائلية تلعب دورا في المقام الاول في حياة اللبناني ، سواء كان في المدينة او الريف . فالعائلة بالنسبة للفلاح خاصة ، هي الدات والوطن (١٢) . وفي تشبه بها ، كان الشعور العائلي لديه يتحول الى شغف بها وخضوع تام لها يستولي على جميع ملكاته الفكرية . فالقانون الاوحد الذي يخضع له طوعيا ، انه ما دام قد تلقى الحياة في عائلة محددة فعليه ان يهبها بدوره كل طاقاته الجسدية والفكرية دون تدمير . فالعائلة هي الاسرة في المقام الاول ثم تمتد احيانا فتصل الى الدرجة البعيدة من القرابة . لذا تتحدد علاقة الفلاح ابتداء من الاقرب بالدم ويتجدد المثل القائل « انا وخيي عا ابن عمي ، وانا وابن عمي عالفريب » بمؤازرة الاكثر قرابة في النسب .

— J. Weulersse « Les paysans de Syrie et du Proche-Orient » — P. 216.

هذه البنية العائلية شديدة الانطباق على عائلات لبنان بجميع طوائفه الدينية (١٣)، كما هي ايضا بالنسبة للعائلة الشرق - اوسطية عامة . صحيح ان للعائلة اللبنانية استقلاليتها النسبية ، غير ان تلك العائلة تقوم ايضا على صلة الدم والقرابة وتقوم على الارتباط الوثيق بالارض كما هو الحال في الاطار الاجتماعي للعائلة في الشرق الاوسط . فالبيت ليس بناء ماديا فحسب بل وروحي كذلك . والافراد - كما يقول د. شفالیه - في جبل لبنان ، لم يحققوا ذاتهم الا ازواجا بالنسبة للآخرين . ذلك ان وجودهم الاجتماعي لم يتم تعريفه الا داخل جماعات مغلقة ، والا بنسبة لجميع هذه الاسر بعضها الى بعض (١٤) . فوجود العائلة كان ضرورة اجتماعية آنذاك وله مبرره التاريخي خاصة في الجبل اللبناني ، اذ ان العائلات الفلاحية فيه كان عليها ان تتجمع وتتعاقد للحصول على انتاج جيد وتسهيل عملية استثمار الارض الصخرية . اما الاسر الاقطاعية او المقاطعية فكان عليها ايضا الاحتفاظ بتجمعاتها وبالتالي إمكاناتها الاجتماعية التي تركز على وجودها كمائلات مقاطعية بالدرجة الاولى ، ومائلات تحافظ على وحدة اراضيها غير مجزأة بالدرجة الثانية . ذلك ان قسمة الاراضي لا تخدم المقاطعي ، ولا تخدم عائلته كذلك ، كما هو الحال بالنسبة للفلاح والمالك الصغير . وتقسيم الاراضي كثيرا ما كان يقود الى تاخر العائلات المقاطعية السياسي بالنسبة لها وللجماعات الفلاحية المرتبطة بها . فالعائلة اذا تكون قوية بقدر ما تسيطر على اراضي غير مجزأة يعمل عليها فلاحون محاصون او اتباع لها ، اي بقدر ما كانت تشكل حولها مجتمعا يقوم على الملكية غير المقسمة للارض . وبالحرص على هذا الشكل من الملكية يمكن تفسير الزواج اللحمي او الزواج من أبناء العم ، لا في جبل لبنان وحده بل في جميع المناطق اللبنانية ولدى جميع الطوائف، وان بدرجات متفاوتة . ان مجتمع العائلات ذوات الملكية غير المجزأة والقائمة على افضلية الزواج اللحمي هي احدى السمات الرئيسية للعائلة اللبنانية آنذاك .

الزواج المبكر

والعائلة ، في نظر اللبناني، لا تنفصل عن الزواج . فالزوجان يشكلان « عيلة » . والفردية لا وجود لها . فالفرد « المعزول » ، الفرد العازب في سن الرشد ، ظاهرة غريبة وشاذة . « فليس للفرد وجود الا بعائلته ومن اجل عائلته » (١٥) . لذا فالزواج يتم دوما في سن مبكرة . وبصورة عامة ، كان من النادر ان يبقى الشاب ، من اية طائفة كان ، عازبا بعد سن العشرين . ويعتبر الزواج في الريف كما في المدينة اسعد حدث في حياة الانسان . لذا فأكبر سعادة يحلم بها الآباء هي تزويج ابنائهم وبناتهم قبل الشيخوخة والوفاة . وهذا ما يفسره الدعاء او الامنية التي تتردد في جميع المناسبات السعيدة « ان شاء الله بتزوج الكل عاياتك » . فاستمرار الشاب عازبا

— M. Feghali « La famille maronite » — P. 7.

(١٣)

— D. Chevallier « La Société du Mont-Liban... » — P. 73.

(١٤)

— J. Weuleresse — op. cit. — P. 216.

(١٥)

بعد سن العشرين ، خاصة في الريف ، كان عارا مذلا على نفسه وعلى عائلته . ونادرا
 جدا كانت هذه الظاهرة واسعة الانتشار الا في حالات الامراض المتعصية . لذا
 فنسبة الزواج تبلغ حدها الاقصى في الارياف حتى ينعدم وجود العازبين والعازبات
 تقريبا . وفي الواقع ، فلما كانت توجد عوانس في لبنان آنذاك إلا لأسباب قاهرة . فابنت
 العوانس مذلة بل عار لعائلاتهم (١٦) . وهذا ما يفر التشاؤم المبكر على مصيرهن
 منذ الولادة . ويشهد على ذلك المثل القائل : « خير للبننت ان تزوج خشبة من ان
 تبقى عانسا في بيت ابيها » .

والتفاوت في سن الزوجين كان نتيجة ملازمة للزواج المبكر . فالذكور عادة
 يتزوجون بين الخامسة عشرة والعشرين ، والفتيات في سن الرابعة عشرة احيانا . واذا
 زاد هذا التفاوت اصبح ملفتا للنظر في بعض الاحيان ولو ان اقتران رجل في سن
 الثلاثين من صببة في الخامسة عشرة كان كثير الحدوث في المدن خاصة . وكان الإباء
 يترددون في تزويج بنت في الرابعة عشرة الى رجل من بعد الاربعين . بيد ان
 الزواج يتوقف بالدرجة الاولى على مشيئة الاب . وكان مثل هذا الزواج المبكر يؤدي
 الى اوخم العواقب . فقد كانت نسبة الوفيات في الولادات الاولى مرتفعة الى اقصى
 حد . كما كانت نسبة الوفيات بين الامهات خلال اول وضع كبيرة جدا ، كذلك الحال
 بالنسبة للأطفال دون السنة . ويفسر ذلك انعدام الوقاية الصحية التام ، خاصة
 في المناطق ، وجهل القرويات المطبق لأبسط قواعد الوقاية ، كذلك الحر الشديد
 اثناء الصيف والبرد القارس في الشتاء . يضاف الى ذلك ان هذا الزواج المبكر وقبل
 النضج احيانا ، كان بالغ الضرر على الام وطفلها حيث ان الامهات الصغيرات السن ،
 كن ما زلن قريبات المهمل بالطفولة ولم تكن لديهن الدراية الكافية والصبر على
 تربية اطفالهن .

الزواج من بنت العم

في معظم أسر العائلات الشرق - اوسطية ، سواء البدوية منها ام الحضرية ،
 كانت هناك افضلية مطلقة للاقتران ببنت العم (١٧) . لذا تميزت العلاقات الاجتماعية
 داخل القرية اللبنانية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، بصرف النظر
 عن الطائفة التي ينتمي اليها سكان تلك القرية ، باضفاء صفة الافضلية تلك على
 الزواج من ابنة العم (١٨) . وعلى العموم ، كان لابن العم ، عند جميع اللبنانيين ، حق
 الاولوية في خطبة ابنة عمه ، على ان يكون هذا الحق متدرجا من ابن العم الاقرب الى
 الابعد . وكان هذا الحق محترما الى حد بعيد عند جميع القرويين اللبنانيين ، وان
 كان تطبيقه اقل نسبة بكثير عند سكان المدن .

هذه القاعدة ، المحض شرقية ، نشأت لدى الطوائف المسيحية قديما عن تأثير

— M. Feghali — op. cit — P. 7. (١٦)

— J. Berque « Normes et valeurs dans l'Islam contemporain : deux cas de compromis entre droit universaliste et réalités locales » — P. 137. (١٧)

— D. Chevallier « La Société du Mont-Liban... » — P. 66. (١٨)

الكنيسة المسيحية نفسها(١٩) - كما يقول المونسييور ميشال فغالي - وبالتالي عن حاجة المسيحيين الماسة الى الانضواء في عائلات متماسكة ومتراصة ، كما هو الحال بالنسبة للعائلات الاسلامية ، خاصة تلك الواقفة منها على رأس السلطة .

بيد ان هذا الوضع بدأ يتغير مع بداية القرن العشرين . وبدأ التغير شديد الوضوح لدى الطوائف المسيحية في لبنان ، مع عدة قرارات أصدرتها الكنائس فيه وتناولت حالات عدة تمنع الزواج : بين ذوي القربى الدموية ، وبين الاقارب الذين تجمع بينهم صلة النسب او المصاهرة او يجمع بينهم العماد . فالعراب مثلا لا يجوز له الاقتران بابنته في المعمودية . وتشددت بعض الطوائف المسيحية فمنعت زواج ابن العراب كذلك من تلك البنت وحتى الزواج من ابنة العممة والخالة .

لقد ظهر نموذجان اثنان في لبنان ايام الانتداب للزواج من ابنة العم : الاول مسيحي يحرم الزواج منها شرعيا ، والثاني مسلم يندرج مع الاغلبية الساحقة لشعوب سكان المنطقة ويعطي الافضلية بدرجات متفاوتة بين الطوائف لهذا القران . وهكذا بدأ المسيحيون ينفصلون تدريجيا ، خاصة في جبل لبنان ، عن قواعد ارتباطهم الوثيقة بالشرع الاسلامي عبر مئات السنين ، فأخذوا يشكلون حالة متميزة وجديدة حتى ان جاك بيرك يصف هذا الوضع بالقول : « لم يعد هناك خلاف بين حق واحد وعادة واحدة فقط بل بين حقين وعادتين »(٢٠) . لقد بدأ المسيحيون يتوجهون شطر القرب في تشريعات الزواج والطلاق والارث ، هذا التوجه ، وان كان عميق الجذور ويعود الى القرن التاسع عشر ، لم يكن يجرؤ على الظهور بوجهه المستقل الا في ايام الانتداب بالذات وبتشجيع من الفرنسيين انفسهم .

كثرة الاولاد

لم يكن هناك اي تحديد ارادي للنسل . فالدين يعتبر ذلك جريمة لا تغتفر . كذلك القانون . كما ان مصلحة العائلة ، ومصلحة الاهل تقضيان بانجاب اكبر عدد ممكن من الاولاد . لذا كانت نسبة المواليد مرتفعة جدا . والعائلة العديدة الاولاد هي القاعدة لجميع الطوائف اللبنانية في تلك الفترة في مجتمع تحتل الزراعة فيه المكان الاكبر في الاقتصاد(٢١) . والناس يأملون بدرجة تخلفهم وتساعدهم في الحقول . فالتضامن في العمل والحاجة الماسة للأيدي العاملة كانا في أساس الدعوة الى الاكثار من الاولاد حسب نظام القرابة السائد لأن حراثة الارض القروية تعتمد على القطع الصغيرة في الجبل والتي تكيف حسب شكل وأساليب الجهد الانساني المبذول لحياتها . وقطعة الارض تلك ، التي يزرعها الفلاح اللبناني ، خاصة في الجبل ، سواء كان مالكا لها أو محاصصا فيها ، تخضع دوما لجهد العائلة بأسرها . ان ممارسة التضامن الجماعي والذي فرضته أساليب التقسيم الاجتماعي للعمل بالذات ،

— M. Feghali — op. cit. — P. 11.

(١٩)

— J. Berque — op. cit. — P. 132.

(٢٠)

— E. Safa « L'émigration libanaise » — P. 167.

(٢١)

فرضت كثرة الاولاد عند جميع الطوائف اللبنانية .

وعندما يقولون « ولد » كانوا يعنون الصبي وليس البنت ، « اذ لا حساب للبنات . فيما يتعلق بتعداد العائلة » (٢٢) . والبيت الذي يخلو من الصبيان بيت نزلت عليه اللعنة الالهية . ويقول المثل الشائع « البيت اللي ما في ولاد الله ما يباركه » كذلك « من ختف مامات » .

والآباء كانوا يرون بكثرة الاولاد مصدرا للجاء وطاقات هائلة للعمل ، وقوة يواجهون بها الآخرين ، وكانوا يحرصون على اختيار فتيات لابنائهم متينة البنيان ، تامة الصحة ، وينتمين الى عائلات تمتاز ايضا بكثرة انجاب الاولاد . وكانت الاسئلة الخفية تدور حول « ماضي » ام العروس وسلوكها وشخصيتها فمثل الدارج « طب الجرة عاتما (فمها) البنت بتطلع ل اما (امها) » يلخص ذلك الحرص على تلك الاسئلة . ولدى جميع الطبقات والفئات الاجتماعية في لبنان ، كان مولد الذكر اشبه بعيد يملا البيت فرحة وجورا . ففي الاوساط اليمسورة والفنية ، تسرع القابلة الى الوالد الجالس في قاعة مجاورة بين الاهل والاصدقاء ، تزف اليه البشري السعيدة وتنال « حلويتها » بالليرات الذهبية . عندها تنطلق مظاهر الفرحة الصاخبة من عقالها ، خاصة في الريف ، ويسارع الحضور الى تقبيل الوالد السعيد ، ويعتلي الشبان المتحمسون سطح المنزل او السطحة التي امامه ويبدأون باطلاق رصاص البهجة . ويبدأ الجميع بالرقص والفاء ، وشرب العرق والنيبذ عند المسيحيين ، وتدور الحلويات والسكاكر مرات ومرات على الحاضرين (٢٣) . واذا كان الوالد وجيهاً وزعيماً سياسياً ، يرتدي الحدث طابعا سياسياً واضحاً ، وتبدأ الوفود تتألي من القرية والقرى المجاورة لتهنئة الزعيم وكأنهم بذلك يعلنون ولاءهم المبكر للسيد ابن السيد ، زعيم المنطقة في المستقبل . ويظهر الزعيم سخاء منقطع النظر ، وتنهال هدايا الفلاحين على البيك من خراف وماعز ودجاج والبان وسمن وارز وسكر وغيرها . فولادة الذكر لدى السياسيين خاصة كانت تتسم بفرحة شاملة عند جميع مناصريه ، وكان العناية الالهية شاءت الا « يفرغ العرين من الاشبال » ، والويل كل الويل لمن يتقاعس في تهنئة البيك ، فلديه سجلات وازلام يرصدون ، في الافراح والمآتم ، المتقاعسين المعارضين لسطوته . لقد كان الوجهاء والسياسيون يبالغون عمداً في اضفاء طابع سياسي بارز على جميع حفلاتهم الاجتماعية ويعتبرون ذلك مقياساً لشعبيتهم ونفوذهم .

كذلك كانت ولادة الذكر مصدر بهجة عند الفقراء والفلاحين . فالذكر يعني يداً عاملة قوية تساند الاسرة وتساعد في اعالنتها وتمدها بالانجاب الضروري لبقائها . اما ولادة البنت ، فكانت ، لدى جميع الطبقات ، مصدر اسى وحررة ، خاصة بين النساء الكبريات في السن واللواتي يرددن : « عندما تولد البنت تحمل عتبة البيت . الحداد اربعين يوماً » او « خبروا السلطان الرصين فأصبح معتلاً حزينا » ، وغير ذلك من الامثال التي تحط من قيمة البنت . وتلبث القابلة صامته دون ان تنال الحلوية .

— M. Feghali — op. cit. — P. 7.

(٢٢)

— M. Feghali — op. cit. — P. 8.

(٢٣)

اما الاهل والاقرباء فينسحبون صامتين ويتوجهون الى منازلهم دون تهنئة لاحد . فعندما تولد الانثى ، لا يزعم الرجال ، حتى من الاقرباء ، خاطرهم بزيارة والد والدة البنت بل تأتي النساء فقط لزيارة الام . فالبنت تعني عارا للعائلة لا يمكن تجنبه الا بوفااتها . وطالما هي على قيد الحياة ، وحتى بعد زواجها ، كانت مسؤولة اعمالها تعتبر اصلا على عاتق اسرتها التي ولدت فيها وعلى كاهل والدتها بالذات . فالفتاة ينظر اليها ، لا كمضو ثابت، من أعضاء العائلة بل كجزء منفصل عنها تقريبا . وبالتالي واجب العائلة فقط اعالة الفتاة حتى تحظى بعريس يزوجونها اياه في اقرب وقت ممكن .

ان ما يلفت النظر في هذا المجال ان القدرية وجدت طريقا واسعا لها في صفوف سكان الريف اللبناني ، ذكورا واناثا . فنظرا لكثرة الولادات والانجاب المستمر ، كانت وفاة الوليد تعتبر حادثا عاديا في كل مكان ، ولا تثير الكثير من الحزن والاسى . ان امورا اسوأ من ذلك كانت تحدث في حالة وفاة البنت في سنيها الاولى ، حتى ان بعض النسوة ما كن يخفين شعور الفرحة في بعض المناطق اثر وفاة مبكرة للبنت . وكثيرا ما كانت تتردد عبارة « يا الله ! ارتاحت وريحت اما » (ارتاحت وجلبت الارتفاع لامها) .

لقد كانت نسبة الوفيات مرتفعة في الريف بحيث تجاوزت ٢٧ بالالف مقابل ٤٧ بالالف هي نسبة الولادات . وبهذا بقيت الزيادة السنوية في السكان لا تتعدى ٢٠ بالالف (٢٤) من تعداد السكان . وبالرغم من فقدان الاحصائيات التفصيلية في هذا المجال فان معظم العائلات اللبنانية كانت تفقد حوالي نصف تعداد اطفالها في السنين الاولى للولادات وترتفع النسبة الى اكثر من ذلك في بعض الارياف اللبنانية . لقد كانت كثرة الانجاب امرا طبيعيا مرده الجهل والفقر من جهة ، والتعويض عن ازدياد الوفيات من جهة اخرى . وكانت السمة الرئيسية لكثرة الانجاب تأمين استمرار نفوذ العائلية وتوزيع العمل الزراعي وبسبب فقدان الارشادات الطبية وسيطرة النظريات الدينية خاصة في مجال الاجهاض ومنع الحمل وغيرها . وكان للزواج المبكر القائم على الجهل المطبق جنسيا تأثير كبير على العائلة اللبنانية وازدياد عدد الانجاب فيها ، كما جاءت النظرة الاجتماعية الى الفتاة والقائلة باسقاط البنت من تعداد افراد العائلة حيث اعتبر وجودها فيها لا وجودا دائما بل عرضيا ، لتهم هي الاخرى بدورها في الاكثار من عدد الاولاد اعتمادا على ارقام الذكور فقط .

الاسرة اللبنانية بين العائلية والزواج الحر

كانت الاسرة اللبنانية (٢٥) تتميز بمظهرين واضحين في المدينة والريف على السواء : الاول منهما يتمثل بسيطرة الاب او الرجل ، والثاني بالزواج الحر او محاولة التحلل من تلك السيطرة . فسيطرة الرجل او الاب تتصل جذورها تاريخيا بالنظام

— J. Weuleresse — op. cit. — P. 248.

(٢٤)

— S. Chehab-ed-Dine « La géographie humaine de Beyrouth » — P. 291.

(٢٥)

الاقطاعي السائد منذ زمن قديم والذي جعل الرجل المحارب صاحب السلطة العليا في بيته وعلى أرضه ، واستمرت تلك السيطرة عبر العادات والاعراف ، وعبر الملكية غير المجزأة ونظام تقسيم العمل الاجتماعي بالذات . أما الزواج الحر فيستمد وجوده من التطور الاجتماعي وعبر الاحتكاك بالقرب والاقتراب عنه . والزواج الحر لم يكن يعني تحرر المرأة فقط بل والابن ايضا من سيطرة ابيه . لقد بدأ هذان المظهران يتصارعان بوضوح مع بداية دخول الرأسمالية الى لبنان منذ القرن التاسع عشر واتخذا شكل الصراع المكشوف في مطلع القرن العشرين ، خاصة في مدينة بيروت بالذات . فمن الناحية الاولى ، كان الاب يحاول الاستمرار في تقرير مصير اولاده ونمط حياتهم وثقافتهم وتوجههم المستقبلي ، ومن ناحية اخرى كان الشاب يسعى الى التملص من تلك السيطرة وتكوين البيت المستقل القائم على حرية الاختيار للزوجة والمهنة وتربية الاولاد .

كما ساعدت الهجرة مع العودة الى الوطن بعد تجميع ثروة وبناء بيت حديث في الجبل او الريف على تسيخ نظام الاستثمار الاقطاعي القديم حيث افقدته تلك الهجرة اعدادا كبيرة من الشباب الذين تحرروا من ذلك النمط الانتاجي من جهة ومن سيطرة الاب في الوقت نفسه من جهة اخرى . صحيح ان الاهل استمروا يختارون للابن الزوجة حسب العادات القديمة بشكل عام ، بيد ان ذلك الاختيار سرعان ما كان يتبعه هجرة المرأة مع زوجها او بقاؤها في البيت الذي بناه زوجها خلال اقامته بعد العودة . ان هذه الإقامة الجديدة ستفرض على الزوج ارسال الاموال اللازمة لاعالة زوجته واولاده ورفضه اشراكها في اعمال الحقول لأسباب تتعلق « بكرامته » و « سمعته » في القرية والمنطقة . وكأنا ما كانت النسبة ضئيلة في هذا المجال ، فقد اعطت نموذجا صالحا للشباب والفتاة بإمكانية التحرر من نمط الحياة الروتيني في القرية ، ونمط الانتاج الزراعي القاسي ، وإمكانية التحرر من سيطرة الوالد وبناء بيت زوجي مستقل ، ولو ادى ذلك الى ترك منزل ابيه وترك العمل الزراعي والفرار الى المدينة او الخارج . لقد ارتبطت استقلالية الزواج مع استقلالية العمل وسارتا جنبا الى جنب . فانفصال الشاب عن النظام الانتاجي المفلق الجماعي جر معه انفصال هذا الشاب واستقلالته عن منزله الابوي وادى به الى تشكيل البيت الحر .

كما ان الاحتكاك بالاوروبيين ، خاصة في بيروت ، ساعد على نقل الطراز الاوروبي الداعي الى استقلالية الزوجين عن الاهل بصورة تكاد تكون تامة . وكان طلاب الجامعتين الاجنبيتين في بيروت ، والذين تابعوا ثقافتهم العليا في الخارج ، السابقين الى بناء هذا البيت المستقل . كذلك بدأ العمال القادمون من الريف الى المدينة ينقلون نساءهم معهم اليها ويستأجرون لهم منازل خاصة بهن تاركن آباءهم في الريف .

بيد ان ظاهرة تحلل الابناء من سيطرة الآباء وارتباطهم الاقتصادي والاجتماعي بهم بقيت ضئيلة النسبة في ذلك الحين ولم تشهد هذه الفترة من الانتداب سوى بداية تلك الظاهرة فقط . وكان الابناء العازبون ، على العموم ، وحتى المتزوجون منهم ، يظلون منضمين الى البيت الابوي في المدينة والريف . وفي القرى بشكل خاص ،

بقيت السلطة الأبوية شديدة التماسك خاصة إذا كانت الاستثمارات الزراعية لا يمكن تجزئتها دون تعريض كيان الأسرة والعائلة لضرر بالغ . واستمر الأبناء المسنون يعيشون مع هذا الولد أو ذلك ، وعلى هذا النحو كان البيت يضم بين جدرانها ثلاثة أجيال وأحيانا أربعة تحت سقف واحد .

وحتى في الحالة التي يتمتع بها الأبناء المتزوجون بحرية إقامة منازل خاصة بهم ، استمروا يخضعون معنويا لسلطة الأب ، وكانت الأسرة تتجمع حول « عميدها » خاصة أيام الأعياد والمناسبات ، وبقي الجد الأكبر السيد المطلق الحرية والممثل الوحيد للجماعة والحكم الوحيد في خلافاتها والناطق الرسمي باسمها والمتفاوض باسم عدد البالغين ، ذكورا وإناثا ، في أيام الانتخابات المحلية والعامية .

لقد كان السيد هو الجد الأكبر الذي لم يدركه سن العجز بعد والانتقلت السلطة للأب ، وفي حال عدم وجوده ، كان الابن الأكبر ، أو حتى الابن الأكبر شجاعة وجراة ، هو الذي يمثل الزعامة العائلية وينطق باسم أخوته وأخواته والموالين له (٢٦) . ورئيس العائلة هذا أو عميدها ، يفرض سيطرته على جميع أملاك العائلة غير الجزأة ويشرف على شؤون العائلة . فهو الذي يدير عملية الاستثمار والمحاصصة ، ويدافع عن ممتلكات العائلة ، ويوزع العائدات على أفراد العائلة بنسب متفاوتة حسب حصصهم في الملكية . وكان تاجر الملك أو استثماره بالمحاصصة والمفارسة ، كذلك بيع المحصول قبل جنيه ، يزيدان في مركز عميد الأسرة وفي طابع الملكية غير المقسمة ويجعلان من التكوين العائلي السائد أكثر صلابة ورسوخا . فقد كان عميد الأسرة المالك الفعلي للأراضي والبيت طيلة أيام حياته . وفي الإرياف كان لهذا العميد حق فرض العقوبات على المخالفين ، وحق إقامة العدالة بين أفراد استثمارته جميعا . والعدالة العائلية هي باستمرار المظهر الوحيد للعدالة في الريف . وكان فرض العدالة يختلف تبعا للمناطق ولشخصية عميد العائلة ، لكن النتيجة تنسجم تماما عندما تمس كرامة العائلة أو شرفها ، كما في حالة التفرير بأحدى بناتها أو خيانة زوجية ، ففي هذه الحالة تطبق العادات القديمة بكل صرامتها مع تأييد عام وعلمي لجميع أفراد العائلة والموالين لها ، ومع اغضاء السلطات العليا عن الاقتصار من مرتكبي « جرائم الشرف وغسل العار » التي ما زالت مستمرة حتى اليوم .

ونظرا لتعدد الزوجات عند أعيان الريف ، ولكون عمادة العائلة تنتقل إلى أحد الأولاد فقط ، وهو الأكبر سنا في العادة ، كان العديد من هؤلاء الأعيان ، ومن أجل حماية زوجاتهم من المضايقات المحتملة بعد وفاتهم ، يلجأون إلى إجراء عقود بيع لهن على جزء من ممتلكاتهم المنقولة والثابتة . وخوفا من أن تنتقل هذه الممتلكات التي أجريت عليها عقود البيع فعليا إلى هذه الزوجات وبالتالي إلى أقربائهن بعد الوفاة ، كان الأعيان يقومون بإجراء عقود بيع مضادة ، أو يجبرون الزوجات على تحرير اعتراف بدين في ذمتهم لصالح الأزواج أو ورثتهم . وبذلك تبقى الملكية الكبيرة للعائلة متحدة ولا تمسها أية تجزئة .

ومن أجل تفادي وقوع خلافات بين الورثة ، كان بعض الشيوخ والأعيان يعمدون

الى تقسيم ممتلكاتهم ، كليا او جزئيا ، بين اولادهم وزوجاتهم ، كاجراء احترازي . فكانوا عادة ، يخصصون ثلث ثروتهم لتغطية النفقات اللازمة لجنائزاتهم ولأعمال يرصدونها من أجل راحة نفوسهم ، او لوفاء ديونهم ، او لتوزيع الصدقات على المعوزين (٢٧) .

لقد لعبت العائلة وتنظيم الاسرة المتند اساسا على سيطرة الاب على الارض ومن يعمل عليها دورا أساسيا في استمرار النمط الاقطاعي القديم المتمثل بالملكية العقارية الكبيرة غير المجزأة طيلة ايام الانتداب ، دون ان يترسخ وجود الزواج الحر الا في المدينة وبشكل محدود جدا .

ابرز سمات الزواج في لبنان

١ - الوجه الطبقي

كان الزواج بين العائلات الفنية والاقطاعية ، في المدينة والريف ، من ابرز سمات التزاوج بين اللبنانيين . وكان الدافع لهذا الحصر في الزواج بين العائلات يحدوه الشعور الطبقي بالمركز الاجتماعي المميز لتلك العائلات ، وهاجس المحافظة على الثروات الموروثة والمتزايدة في الاتساع . لذا كان الزواج لا يتعدى العائلات بل يتم غالبا بين ابناء تلك العائلات حسب مستواها المادي والسياسي . وهكذا ظل هذا البناء الطبقي متماسكا اقتصاديا عبر الاجيال ، وتكدست تلك الثروات التي كانت تضاف الى بعضها بالزواج ، لتجعل من بعض الأسر اللبنانية ، في المدينة والريف ، عائلات ذات ملكيات عقارية كبيرة وأموال وافرة ، حافظت عليها طيلة ايام الانتداب ولا زالت حتى اليوم . ومن الملاحظ ان ايا من العائلات الفنية في لبنان لم تفقد ثرواتها بسبب المصاهرة .

اما الفئات المتوسطة والفنية والمكونة في الغالب من تجار ومثقفين وموظفين ، فكانت تتزاوج فيما بينها بالدرجة الاولى ، لكنها تنفتح على المثقفين والاعنياء الجدد من الطبقة الفقيرة او ذوي الاصول الوضيعة خاصة المهاجرين منهم . لذا لم يبق التزاوج في هذه الطبقة محصورا على افرادها بالذات بل تعداها الى الطبقات الاخرى ، في حين اقتصر الزواج بين الطبقات الفقيرة المؤلفة من العمال وصغار المستخدمين والفلاحين ، على التزاوج بين افراد من نفس الطبقات او الفئات الاجتماعية . وكثيرا ما كان الزواج يتم بين رجل وامرأة من نفس الفئة او المهنة الاجتماعية ويبقى محصورا داخل العائلة الواحدة ولا يتعدى حدود القرية الواحدة الا نادرا (٢٨) .

— T. Touma « Les paysans et les institutions féodales chez les Druzes et les Maronites... » — P. 581. (٢٧)

— Saïd Chehab-ed-Dine « La géographie humaine de Beyrouth » — P. 291 (٢٨) et s., et Khalid Chatila « Le mariage chez les musulmans en Syrie et au Liban » — P. 90-98.

ب - الوجه الاقليمي

ان سلطة الانتداب كانت سلطة مدينية بالدرجة الاولى وتتمركز في بيروت . لذا ، فالريف اللبناني لم يشعر بأي تبدل عميق في حياته ، لاقتصادية والاجتماعية خلال هذه الفترة . ولما كانت الاستثمارات الفلاحية تقوم أساسا على العمل المشترك بين أفراد القرية وخاصة بين افراد العائلة الواحدة ، فان أي نقص في تعداد افراد تلك العائلة ، أي الافراد الذكور ، سيؤدي الى خلل في تركيبها الاقتصادي ويضعف بالتالي مركزها الاجتماعي بالذات .

هذا الاقتصاد الفلاحي شبه المفلق، بسبب اهمال الفرنسيين للريف وللمواصلات فيه ، فان الزواج في القرى بقي محصورا داخل افراد العائلة الواحدة . وكانت عقود الزواج تشمل عائلات القرية بكاملها اذا كانت هذه العائلات ذات صلات قرى او اذا لم يحدث اصطدام وقتلى بين عائلاتها يؤدي الى اغلاق ابواب الزواج تماما بين تلك العائلات . غير ان تزواج عائلات القرية الواحدة لم يكن يتعدى تلك القرية الى جوارها الا بشكل نادر وشبه استثنائي .

اما خارج حدود القرية والجوار ، فكان الزواج معدوما تماما . وحتى في الحالات التي كان فيها العمال ينتقلون الى المدن ، خاصة العمال الموسميون منهم ، كان الحرص الشديد عند الاهل ينصب على تزويج اولادهم في سن مبكرة خشية ان ينزوج فتاة من المدينة . وقد أحاطوا هذه الفتاة بأساطير متعددة وواهية تنال من « شرفها » و « عرضها » وتحدث عن « اباحتها » وانفلاتها من جميع التقاليد والاخلاق . فالآباء يحرصون على بقاء اولادهم تحت سيطرتهم حفاظا على وحدة التقسيم الاجتماعي للعمل الريفي من جهة ، وعلى عدم انتقال ابنائهم للسكن في المدن التي نشرت فيها الكهرباء والماء والمسيارات وغيرها بحيث اضحى من الصعب جدا على فتاة المدينة سكنى الارياف المحرومة من ابسط مقومات المدينة والمدارس ونوادي التلية وغيرها . لقد ارتدى الزواج وجها اقليميا واضحا بقي مسيطرا طيلة ايام الانتداب بحيث كانت الافضية للزواج داخل القرية دون ان يتعداها الا الى الجوار الريفية . وكل زواج يتم مع الخارج ، خاصة مع المدن ، كان قائما على محاولة التحلل من سيطرة العائلية والعمل الزراعي الريفي ، ونادرا جدا ما كان يحظى بموافقة لاهل الا مرغمين .

ج - الوجه الديني الطائفي

رغم ان الدين الاسلامي لم يمنع زواج المسلم من المسيحية او اليهودية ، فان هذا الزواج بين الطوائف كان شبه معدوم ان لم نقل معدوما تماما في جميع أنحاء لبنان . اما للحالات الخاصة فكانت تقوم على زواج مسلم ، عادة من المثقفين الذين يتابعون دراستهم في الجامعات الاجنبية في لبنان او الخارج ، من امرأة مسيحية ، اوروبية كانت ام من جنسيات اخرى .

يبد ان هذا الحظر لزواج مسلم من غير مسلمة ، لم يقف عند حدود المنع للتزاوج بين المسلمين والطوائف الاخرى ، بل كذلك لكل طائفة من طوائف لبنان ، مسيحية كانت ام مسلمة ، من الطوائف الاخرى . وكان من النادر جدا زواج سنية من شيعي او درزي كذلك زواج مارونية من ارثوذكسي او بروتستاني او غير ذلك . لقد حاول الاغنياء والمتنفذون ، من جميع الطوائف اللبنانية ، مدعومين بسلطة رجال الدين وعساكر الانتداب ، ان يبقوا من تلك الطوائف قلاعا مغلقة على بعضها اجتماعيا بحيث لا تنفتح الا اقتصاديا وفي سبيل دعم مصالحهم المادية بالذات . ان التستر بالدين لمنع التزاوج بين الطوائف ، حتى داخل الديانة الواحدة ، لم يكن يهدف الا تكريس السيطرة الاقطاعية والسياسية للتجمعات العائلية التي كانت تدعي النطق بتقليديا باسم تلك الطوائف . وكان الحظر الاسلامي السني اشد بكثير من حظر باقي الطوائف الاسلامية ، كذلك الحال مع الحظر الماروني بالنسبة لباقي الطوائف المسيحية ، ولعل هذا ينبع من شعور الطائفتين ، الاكثر قوة ونفوذا في لبنان .

« ان العدد الضئيل جدا من المسيحيين الذين تزوجوا ، في المدن فقط ، نساء مسلمات — يقول كاظم الداغستاني — قد واجهوا اكبر المصاعب في سبيل حمل القضاة الشرعيين على جعل زواجهم شرعيا ، الى درجة ان البعض منهم قد اضطر الى اعلان اسلامه من اجل تحقيق ذلك » (٢٩) . اما العائلات الدرزية ، فلم تكتف بالحظر على زواج بناتها لطوائف اخرى ، مسيحية كانت ام مسلمة ، فقد ضيقت دائرة الزواج بحيث انحصرت داخل حدود ابناء العمومة ضمن العائلة الدرزية الواحدة . فالانفلاق الاجتماعي بين الطوائف المتمثل بالزواج ساهم في ترسيخ الملكيات العقارية العائلية الواسعة من جهة ، وفي سيطرة الاسر التقليدية اللبنانية في المدينة وفي الريف بشكل خاص على مقدرات لبنان بحيث عادت تحكم بمصره بعد جلاء القوات الفرنسية عن اراضيه وتتقاسم الحكم مع البورجوازية التجارية الوسيطة في بيروت .

الفتاة اللبنانية ضحية الشرع والتربية والتقاليد

كان الدور الرئيسي مسندا الى الرجل الاب . اما الزوجة فكانت نظرة المجتمع السائدة آنذاك انها ما خلقت الا لانجاب الاطفال وتربيتهم ، حتى ان بعض العائلات اللبنانية كانت تتشدد في اغلاق ابواب الحياة امام المرأة بحيث لا تفادبر بيتها الا الى القبر . وهذا ما يفسره القول الشائع « المرأة لا تخرج من الخدر الا الى القبر » . فالرجل عمليا ، عند المسلمين والمسيحيين على السواء ، هو الاله . فهي تسمع يوم زفافها بالذات « الرجل هو رأس المرأة كما ان المسيح هو رأس الكنيسة » و « ايتها النساء اطيعوا رجالكن ، وايها الرجال احبوا نساءكم كما احب المسيح الكنيسة ... » او بالكلام الموجه للرجال « فانكحوا من النساء ما طاب لكم ، مثني وثلاث ورباع ... » و « للرجل حظ الانثيين » ... الخ . وكان الزواج يعني للفتاة الانفصال التام عن

— Kazem Daghestani « La famille musulmane contemporaine en Syrie » — (٢٩) thèse — P. 22.

العائلة التي ولدت فيها . فهي لا تسمع الا نصائح عن « طاعة زوجها طاعة عمياء » ،
وانها . « اذا ما خرجت من عتبة الدار يجب ألا تعود اليها » . واذا ما تجرات
فأحبت من لم يتلاءم مع مزاج أخيها او احد أبناء عمومتها فيجب ان تقطع علاقتها
به فورا ، واذا تزوجته اعتبروا عملها هذا فعلا شنيعا تستحق عليه الموت ذبحا ،
غسلا للعار وانقاذا للشرف الرفيع الذي يجب ان يراق على جوانبه دم الفتاة .

ان تلك النظرة قد ساهمت فعلا في احتقار دور الفتاة وبالتالي الام ، وجعلت
منها انسانا ضعيفا ذا مكانة اجتماعية من الدرجة الدنيا . وقد انعكس ذلك مباشرة
على سلوك الفتاة والام . فهي تشعر انها غريبة عن العائلة التي ولدت فيها كما تشعر
ايضا انها غريبة عن العائلة التي انتقلت اليها بعد الزواج . لقد جعلت تلك التقاليد
والعادات البشعة من المرأة اللبنانية ، خاصة الفقيرة ، كومة من الرواسب النفسية
المعقدة . فهي لا تجرؤ على الافصاح عن شخصيتها وما يجول في ذهنها ، ولا تعي
ايأ من حقوقها الاساسية . فقد حرمت من العلم والعمل ، ووضعت تحت سيطرة
الرجل من جهة ، وسيطرة الاعراف والتقاليد من جهة اخرى . ان القانون الاخلاقي
الوحيد الذي كانت العائلة تلقنها اياه ان الفتاة مصدر عار دائم على نفسها وزوجها
وجميع افراد عائلتها وان « شرفها » و « عرضها » ، اي عمليا ارتباطها جنسيا وعاطفيا
بأي انسان قبل الزواج ، وارتباطها الوحيد بزوجها بعده ، هما الشرعة الاخلاقية
الوحيدة التي يجب ان تحافظ عليها والا فالعاقبة وخيمة وقصص القتل وجرائم غسل
العار تعدد وتكرر يوميا بحيث تصبح هاجسا فكريا يرافقها منذ تفتح وعيها
حتى اللحد .

فالفتاة اللبنانية آنذاك لم تكن تعلم ان لها حقوقا كي تطالب بها ، بل كل حياتها
واجبات مستمرة تجاه عائلتها وزوجها واولادها . وكل ما تعطاه تلك الفتاة كانت
تعتبره « احسانا » و « عطايا » من الاهل والايحوان . لقد انسيبت حقها بالزواج ،
وحقها بالتعليم والثقافة ، وحقها بالعمل خارج البيت الا برضى العائلة ، وحقها
بالطلاق اذا كانت حياتها جحيما بالفعل ، وحقها بالانتخاب والتمثيل ، وحتى حقها
بالحياة اذا ما خالفت التقاليد والقانون الاخلاقي الوحيد الذي لقنوها اياه . حتى
في حالة الزنى ، يحق للرجل ما لا يحق للمرأة ، لا لشيء الا لكونه رجلا في مجتمع
تعطى الافضلية فيه للرجل :

تسقط الانثى ويحمى الرجل (٢٠)

وسرير واحد ضمهما

استغلال للرجل والمرأة لا استغلال الرجل للمرأة

في المدينة ، يقتصر عمل المرأة داخل المنزل فقط دون ان يتعداه . فهي تدبر
المنزل وتهتم بتربية الاولاد . وكانت المرأة المدنية السيدة الحقيقية لمنزلها ، خاصة
في البيئات الغنية : ولم يكن الزوج من هذه الفئة يهتم بأمور المنزل الا من الناحية
المالية فقط . لذا تمتعت المرأة الغنية بحرية نسبية بحيث كان لها صديقاتها الحميمات

(٢٠) نزار قباني - من تصبده « البني » .

وكانت تقيم لهن حفلات الرقص والمسهرات الممتعة بين الحين والحين ، داخل منزلها الزوجي بالذات ، وكن يتكلمن اللغة الفرنسية في الغالب ويتحدثن عن آخر الازياء الباريسية(٢١) .

بيد ان نسبة هؤلاء النسوة كانت ضئيلة جدا وتتوافق مع تعداد الفئة الارستقراطية المتمركزة في بيروت بشكل خاص ولم يكن دورهن الاجتماعي يتعدى تلك الحفلات اطلاقا . اما النساء الفقيرات ، وهن الاغلبية الساحقة من نساء لبنان في المدينة والريف فكن يقمن بأعمال تساوي ما يقوم به الرجل و أحيانا أكثر خاصة في الارياف . فالمرأة هناك لم تكن تتولى شؤون المنزل فقط . فهو أقل تجهيزاً عند القرويين منه عند سكان المدن ، بل كانت كذلك تقاسم زوجها كثيرا من أعمال الحقول . فالفلاحة كانت تتحمل بالفعل حياة شاقة خاصة في مناطق الهرمل و عكار بحيث يبدو عليها الهرم وهي في سن الأربعين .

ولعل السبب في ذلك ان الزواج الفلاحي ليس في الواقع عقداً دينياً او سياسياً بل عقداً اجتماعياً بالدرجة الاولى . فهو عقد له صفة خاصة الى اقصى الحدود . فما هو ربط بين عائلتين بل ربط بين شخصين على مصير معروف لا يحتمل التغير والتبديل ويستند بالدرجة الاولى على انجاب فلاحين جدد . فالمرأة الفلاحة ، المحرومة من كل ثقافة ، والمرتبطة تبعياً واقتصادياً بمصير زوجها الفلاح ، والمنفصلة تماما عن عائلتها القديمة ، فقدت كل امل بالتححرر من وضعها الشاق وأضحت اداة للاستغلال من زوجها ومن النظام الاقطاعي المسيطر في نفس الوقت . فالعادات والتقاليد اعطت الفلاح سوطاً يلهب به ظهر المرأة الفلاحة في حين كان السوط الاشد والذي يلهب ظهر الاثنيين معاً، هو سوط الاقطاع والسلطة الانتدابية والتقاليد البالية . ان الكلام عن استغلال الرجل للمرأة في الريف ليس في الواقع سوى الوجه الظاهري لعملية الاستغلال الحقيقية للاقطاعيين ضد مجموع سكان الريف رجالاً ونساءً واولاداً . اما المرأة المدنية المتوسطة ، خاصة عند الطوائف الاسلامية ، فلا تعمل خارج منزلها الا في النادر . وعدد قليل جداً منهن كن يعملن كمعلمات في مدارس البنات خاصة ، او كقابلات قانونيات . ونادراً ما دخلت المرأة المسلمة دوائر الدولة في لبنان الكبير كموظفة او سكرتيرة او غير ذلك .

اما المرأة في جبل لبنان فكانت ، على العموم ، تعمل في الزراعة ، وخاصة انتاج الحرير وتصنيعه عملاً يكاد ينحصر في نساء الجبل ، وكانت معظم معامل تكرير الحرير تشرف عليها النساء(٢٢) . وفي التقرير المقدم لعصبة الامم عام ١٩٢٢ ، قدر عدد العمال الزراعيين بحوالي ٧٩ الفا منهم ١٧ الف امرأة و ١٣ الف ولد ، في حين كان تعداد النساء العاملات في الصناعة حوالي ٤،٢٠٠ امرأة و ٢،٤٠٠ ولد مقابل ٢ الف عامل(٢٣) .

ان الامتياز الذي اعطي للرجل او الذكر في الولادة والعمل والاجور والتعليم

— K. Daghestani « étude sociologique sur la famille musulmane » — P. 79. (٢١)

— Ducouso « L'industrie de la Soie en Syrie » — P. 89. (٢٢)

— H. C. « Rapport sur l'année 1922 » — P. 290. (٢٣)

والزواج والطلاق والارث والوظائف والسياسة وغيرها لم يكن وليد سيطرة الرجل على المرأة بقدر ما كان طابعا مميزاً للنظام الاقتصادي المتخلف في لبنان والمنتقل من التبعية للأتراك الى التبعية للفرنسيين دون ان تكون له امكانية التحرر من تلك التبعية وبالتالي تحرير القوى المنتجة الحقيقية فيه ، رجالا ونساء ، وعلى جميع الاصعدة ، الاقتصادية منها والسياسية والثقافية والاجتماعية .

تعليم الفتاة وأثره على تطور الحركة النسائية في لبنان

كان تعليم الفتاة اللبنانية قبل الحرب تحت رحمة الادارة التركية المحتلة في بيروت وسائر المناطق المحتلة ، وحكراً على بعض المؤسسات القليلة في جبل لبنان واللواتي كانت كلها تقريبا بادارة بعثات تبشيرية وراهبات . وكانت خدمات هذه المؤسسات تقتصر على عدد ضئيل من البنات المسورات ، خاصة من اوساط مسيحية .

بالاضافة الى اعداد كبيرة من الراهبات ذوات المنابت الاجتماعية الفقيرة . لذا بقي عدد المتعلمات قليلا جدا اذا ما قيس بعدد السكان آنذاك . ويكفي ان نذكر ان ذلك العدد كان يتناقص ايضا باستمرار . ففي عام ١٩٢٨ كان عدد مؤسسات التعليم الثانوي ١٦ مؤسسة للذكور تضم ٦٢٦٣ تلميذا مقابل سبع مؤسسات للبنات تضم ١٤٠٠٢ تلميذة (٢٤) .

وفي عام ١٩٢٩ (٢٥) اصبح في لبنان ١٨ مؤسسة للذكور تضم ٦٠٧٣ تلميذا مقابل ١٠ مؤسسات للاناث تضم ٩٠٨ تلميذات انخفض عددهن الى ٧٧٠ عام ١٩٣٠ (٢٦) والى ٧٣٨ في عام ١٩٣١ في ١١ مؤسسة الى ٧١٠ تلميذات في ١٥ مؤسسة لتعليم البنات في المرحلة الثانوية عام ١٩٣٢ مقابل ٥٤١٠ تلاميذ في ٣٧ (٢٧) مؤسسة ثانوية للصبيان .

ان مؤسسات التعليم الثانوي ، واغلبيتها الساحقة مؤسسات خاصة ، قد ارتفع عددها من ١٦ الى ٣٧ مؤسسة للذكور بين اعوام ١٩٢٨ و ١٩٣٢ في حين انخفض عدد طلابها من ٦٢٦٣ تلميذا الى ٥١٨٧ خلال الفترة نفسها ، مقابل ارتفاع عدد مؤسسات البنات من ٧ الى ١٥ مؤسسة تدنى عدد تلميذاتها من ١٤٠٠٢ الى ٧١٠ تلميذات على مجموع سكاني قارب ٨٠٠ الف نسمة .

ان سياسة الانتداب التي توسعت نسبيا في فصح المجال امام بعض الشبان من اللبنانيين لملء الكادر الاداري للانتداب في سوريا ولبنان ، كانت تتشدد كثيرا في تعليم البنات ، وقلما تجاوزن المرحلة الثانوية . ولم يلاحظ قط وجود اية طيبة او مهندسة او محامية خلال تلك الفترة بكاملها .

فليس غريبا الملاحظة ان نسبة الامية تكاد تكون تامة بين النساء الفقيرات في

— Bulletin annuel de la Banque de Syrie et du Liban » - Année 1929 - P. 38. (٢٤)

— Ibid — Année 1930. Index (٢٥)

— Ibid — Année 1931. Index (٢٦)

— Ibid — Année 1932. Index (٢٧)

جميع أنحاء لبنان ، حتى ان النساء اللواتي حصلن على نسبة ضئيلة من الثقافة الثانوية كن نادرات ولم يقمن بأي دور بارز على الاطلاق للمساهمة في تطوير المجتمع اللبناني ودفعه الى الامام .

وأبرز الحركات النسائية التي ظهرت في لبنان آنذاك كانت بين الطوائف الاسلامية ، وتعود الى ايام عزمي بك ، والي بيروت ، الذي بادر ، منذ ١٨٨٠ ، الى ارسال بعض الفتيات الملمات لتابعة تحصيلهن في الخارج ، كما ساهم في انشاء « نادي الثابات الملمات » (٢٨) الذي اعتبر اول مكان عام تلقي فيه البنات والنساء الملمات ، حيث يرفعن الحجاب عن وجوههن ، ويساهمن في بعض النشاطات الاجتماعية . وأبرز أسماء تلك الفترة فتيات من عائلات بيهم وقدورة وخالدي وغيرها . و « الحركة النسائية » تلك كانت مجرد ظاهرة ارسنقراطية بحتة . فلم يكن لها برنامج ولا اية فكرة اصلاحية طيلة فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى ، بل كانت بعض النسوة يصاحبن زوجات البشوات وكبار الموظفين الاتراك ويتكلمن التركية بطلاقة . « فكن يجهلن تاريخ البلاد العربية بشكل يكاد يكون تاما ، ويحفظن تاريخ الامبراطورية العثمانية عن ظهر قلب . سياسيا ، لم يكن يعرفن سوى الدعاء الى الله ان يحفظ السلطان ابن السلطان ، ويجعل عهد الباشا التركي الحاكم في سوريا ولبنان مليئا بالازدهار » (٢٩) .

اما في اوساط الارستقراطيات المسيحيات ، فكانت نسبة التعليم اعلى ولا شك بسبب الوجود الكثيف للمؤسسات التعليمية الاجنبية . بيد ان ظهورهن اجتماعيا قد اقتصر على اقامة حفلات الكوكتيل واستعراض آخر ازياء باريس ومنتوجاتها الحريرية والعطرية ولم يكن لهن وجود فعلي على الصعيدين السياسي والفكري داخل المجتمع اللبناني .

كذلك فان اي ظهور لبوادر حركة نسائية لبنانية في الريف كان معدوما خلال تلك الفترة . فالحركة النسائية اللبنانية لم تتسع الا مع انتشار التعليم . وفي الريف بشكل خاص ، ارتبطت الحركة النسائية بتطور التعليم الرسمي الى حد بعيد . بيد ان تلك الحركة النسائية بدأت تنشط في فترة ما بعد الحرب ، وان على نطاق ضيق (٤٠) . فقد لوحظ وجود مظاهرات نسائية في لبنان وسوريا بين اعوام ١٩٢٠ - ١٩٢٥ ، واشترك بعض النساء السوريات في معركة ميلون ، وضد مرور بلفور في دمشق ، والمناداة بالاستقلال ومن اجل الدستور . وكانت هذه المظاهرات اولى التحركات السياسية للمرأة بعد الحرب في هذه المنطقة . وقد نادى هذه المظاهرات بالغاء الحجاب ، وبحقوق الفتاة في اختيار الزوج ، وبحقها في التعليم ، وبضرورة ادخال التاريخ العربي وتعزيز اللغة العربية في المدارس الاجنبية والخاصة ، كذلك بمقاطعة المنسوجات الاجنبية كاجراء لتشجيع الصناعة الوطنية . . . ان تلك

— Paul Achkar « Le Féminisme au Liban... » - Supplément l'Orient-Le Jour (٢٨) No. 74 du 28 octobre 1972 — P. II.

(٢٩) مقبولة شلق « المرأة العربية قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها » الطريق — المجلد الاول — العدد الرابع — شباط ١٩٢٢ — ص ١٠ .

— Correspondante d'Orient — No. 293-294 — septembre 1922 — P. 62 — (٤٠) et Achkar — op. cit. — P. I.

المظاهرات التي شهدتها دمشق خلال تلك الفترة كانت ذات انعكاس مباشر على وضع المرأة اللبنانية . وقد شهدت سوريا ولبنان عشرات المنظمات والمجلات النسائية خلال فترة الانتداب . وكانت تلك المنظمات تركز نضالها المباشر على متطلبات الحياة اليومية للمرأة ، أما النضالات السياسية فكانت غير واضحة ومبهمة الى درجة كبيرة . فقد طالبت تلك المنظمات بضرورة التقاء الشاب والفتاة قبل الزواج ، وتحديد الحد الأدنى لسن الزواج عند البنت بالخامسة عشرة وعند الشاب بسن الثامنة عشرة . كذلك طالبت بالتطبيق الصحيح للشرع القاضي باستشارة البنت قبل موافقة الاهل على زواجها وبحقها في اختيار الزوج المناسب ، وطالبت ايضا بحماية الاطفال من الامراض وبمكافحة البغاء وادمان المسكرات والقمار .

لقد تأثرت الحركة النسائية خلال تلك المرحلة بثلاثة عوامل : الاول غربي يعتمد على الثقافة الاجنبية وحمل لواءه النساء اللواتي عشن في الخارج خاصة في أوروبا واميركا او تابعن دراستهن العليا في مدارس البعثات التبشيرية في بيروت(٤١) .

اما العامل الثاني فذو ارتباط بالحركة النسائية في مصر وتركيا وهو اسلامي بحث . ويؤكد دعاة هذا الاتجاه ان الاسلام لا يقف حجر عثرة في طريق ادخال اصلاحات على التشريعات الخاصة بالمرأة . فقد ازال مصطفى كمال الحجاب عن المرأة التركية ومنع استخدامه ، كذلك منع تعدد الزوجات وافر الزواج المدني على اساس القانون المدني السويسري فيما يتعلق بالاحوال الشخصية . فالهم ، برأي دعاة هذا الاتجاه ، وجود مصلحين اجتماعيين بالدرجة الاولى .

ثما العامل الثالث فعلى صعيد التجربة السوفياتية التي حررت المرأة من قيودها السابقة ومنحتها حق التعليم والعمل والزواج والطلاق والارث والانتخاب وساوتها بالرجل ، نظريا وعمليا . وبالرغم من ان مجلة « فتاة الشرق » تمت ثورة اكتوبر « بالفوضى المفعمة بالوحشية » فقد اهتمت بوضع المرأة المسلمة في مناطق آسيا السوفياتية الاشتراكية وقبّمت جهود السوفيات في الانجازات التي حققوها على صعيد مساواة المرأة بالرجل ووصفت تلك الانجازات بالايجابية وبأنها حررت المرأة المسلمة(٤٢) .

ان الحركة النسائية في لبنان بقيت حركة فوقية معزولة عن جماهير النساء طيلة أيام الانتداب الاولى . وجاء دستور ١٩٢٦ ضمن مساواة الرجل بالمرأة في مادته الثانية عشرة . لذا فتحت تلك المادة الباب امام الحركة النسائية للمطالبة بحق الحصول على اجر متساو عن عمل مساو للذي يقوم به الرجل ، ويفتح دور للحضانة ، وبمطاعم شعبية وغيرها . وبقيت تلك الحركة أسيرة مجموعة صغيرة من الارستقراطيات دون ان يظهر لها دور فعلي قبل معركة الاستقلال ١٩٤٣ .

— P. Achkar — op. cit. — P. II — et correspondance d'Orient — No. 239 — (٤١)
Juin 1920 — P. 506.

— Achkar — cité — P. II. (٤٢)

٣ - نظام العمل في الريف اللبناني

المحاصصة او المزارعة

كان نظام العمل الاكثر انتشارا في لبنان خلال تلك الفترة ، سواء في المناطق المضمومة الى الجبل ام في جبل لبنان نفسه ، هو نظام المزارعة او المحاصصة . فكانت اغلبية الاراضي الزراعية تستثمر حسب هذا النظام . والمزارعة او المحاصصة نظام قديم جاء تعريفه في قانون الاراضي العثماني القديم او « المجلة » الصادرة في نيسان ١٨٥٨ ، واستمر تطبيقه طيلة ايام الانتداب . وقد عرفت « المجلة » المزارعة بأنها « نوع من الشركة يقدم فيه اجدد الشريكين أرضا ويقدم الثاني عملا ، على ان تقسم ارباح الانتاج بين الشريكين » (المادة ١٤٣١) .

يد ان هذا التعريف الغامض لهذه « الشركة » و « القسمة بين « الشريكين » كان باستمرار لمصلحة كبار الملاك العقاريين . ذلك ان المزارعة لا تتناول سوى الاراضي المخصصة لزراعة الحبوب والخضار . وتتراوح حصة المزارعي بين الخمس والربع والثلث والنصف وتصل الى ٧٠ بالمئة وحتى ٨٠ بالمئة (٤٢) في الاراضي الجردية القاحلة كما يستطيع الفلاح تأمين لقمة العيش من ارض مجدبة غير مروية لقاء تعهده بالاستمرار في زراعتها وانقاذها من العودة الى حالة الموت او البوار وفقدانها قيمتها الاقتصادية . فالمالك هنا يتنازل عن قسم من الانتاج الضئيل مفسحا المجال امام ربط هذا المزارعي بأرض مروية تابعة له ووافرة الانتاج ، عندها يفرض شروطا قاسية على مزارعه بعد ايهامه بعدالة قسمته في الارض الصخرية . وتقسم المحاصصة الى اربعة أنظمة فرعية (٤٤) :

أ - نظام المزارعة

يقدم مالك الارض الى المزارع ، بموجب هذا النظام ، السكن ونفقات الزراعة والبذار على ان يتكفل صاحب الارض بدفع الضريبة التي لم يكن يدفعها فعلا بل يحسبها عند اقتسام الانتاج او المحصول بمعدل ثلاثة ارباع للمالك والربع للفلاح . لذا فالمزارعة تعتمد على اقتسام عيني للمحصول وحصة المزارع لا تكفي لتأمين معيشته مع عائلته بل تبقى دائما تحت رحمة المالك . فقد تميز هذا النظام بالاستمرارية طالما ان الفلاح لم يكن بمقدوره التخلص من الاستلاف والاقتراض من المالك بفوائد مرتفعة .

ب - نظام الشركة الجموية

كان المحصول يقسم مناصفة بين المالك والمزارع بعد اقتطاع الضرائب وكافة النفقات الاخرى . والفلاح لا يقدم سوى قوة عمله وعمل ثوربه طيلة ايام السنة .

— L. Cardon « Le régime de la propriété foncière en Syrie » — P. 54. (٤٣)

— Latron « La vie rurale... » — P. 85 et Achard « Notes sur la propriété foncière en Syrie » — L'Asie Française — No. 309 — Avril 1933 — P. 135. (٤٤)

ج - نظام الشركة الحلية

على الفلاح بموجب هذا النظام ان يقدم قسما من نفقات الزراعة والعمل اللازم لها . فالنفقات وحتى الخسائر يتحملها الفريقان مناصفة كذلك الاعشار . وكان هذا النظام واسع الانتشار في سهلي عكار والبقية .

د - نظام الخمس

يقضي هذا النظام بأن يقدم الفلاح العمل ونفقات الزرع وكذلك البذار . اما المالك فيقدم الارض فقط وسكن الفلاح ويتمهد بدفع الضريبة التي كانت تسمى بالمشر لكنها تجبى فعليا بنسبة ١٢,٥ الى ١٥ بالمائة (٥٥) . فكان المحصول يقسم على الوجه التالي : يقطع المالك المشر قيل كل شيء ثم يأخذ الخمس والباقي للمزارع . هذا النوع من المحاصصة كان كثير الانتشار في عكار وجزين وجرمون وغيرها . وبمقتضى نظامي « الشركة الحلية » و « الخمس » كان للمزارع حرية العمل خارج ارضي المالك . لذا كان الفلاح يستأجر ارضا يعمل عليها لنفسه دون محاصصة لقاء مال سنوي معين يؤديه لصاحب الارض . فالمزارع لا تشفله الارض طيلة ايام السنة . وطمعاً في زيادة دخله كان يؤجر قوة عمله اليومي ، او قوة عمله وعمل ثوريه ، لقاء اجر يومي معين يناله نقدا او عينا . وكان يوم العمل هذا يمتد من « الفجر الى النحر » ، حسب التعبير الشائع ، اي من طلوع الفجر حتى غتمة الماء . كذلك كان يتفق احيانا مع مالك الارض على حراثة مساحة معينة او عمل معين اذا ما قام به باليد ، وهذا النوع يسمى « بالمقاطعة » اي « اجر مقطوع لقاء عمل محدود » (٤٦) .

نظام الالتزام الدائم او العمل القسري مدى الحياة

انتشر هذا النظام منذ زمن طويل في مناطق عكار خاصة منطقة « الدريب » ، وفي اكروم والهرمل وجوار مرجعيون وراشيا وحاصبيا وبعلبك والضنية وفي المزارع المجاورة لمشفرة وغيرها .

وتبعاً لهذا النظام ، استمر الاقطاعيون بالسيطرة على الفلاحين المعدمين العاملين في مزارعهم وارضيتهم . فالمالك العقاري الكبير او الاقطاعي كان يقدم « المسكن » اي الكوخ الخشبي او مساحة البيت الذي يقيمه الفلاح على « ارض سيده » بجهد الخاخص ، على ان تبقى ملكية الارض والبيت للمالك لا للفلاح . ولا يقدم المالك للفلاح اية مساعدة في الزراعة بل يؤمن له الحماية من اعتداء الآخرين عليه ، كذلك

(٤٥) يعترف التقرير الفرنسي لعام ١٩٢٥ المرسل الى عصبة الامم ان ضريبة المشر كانت تجبى بمعدل

— H. C. « Syrie et Liban en 1925 » — P. 49.

٥ / ١٢٤٥

— H. C. « Rapport sur l'année 1922 » — P. 290.

(٤٦)

يتعهد بدفع الضريبة عن المحصول . ولقاء تلك الحماية الوهمية كان المالك يمتص القسم الأكبر من المحصول ان لم نقل المحصول بكامله . اما القسم المتبقي للفلاح فلا يكفي الا لفترة قصيرة جدا من ايام السنة . والمالك يتعهد كذلك « بتقديم » السلفة للفلاح في ايام الشدة وسني القحط والزواج على ان يسدها الفلاح بكاملها مع فوائدها ، التي تفوق عادة اضعاف ما اقترضه ذلك الفلاح(٤٧) . وبمقتضى العرف والعادة والتقاليد كان الفلاح يمد المالك بكميات معينة من الحليب والسمن والماعز والدجاج والحبوب . وهو يشرك المالك باقتسام جميع مواشيه وطيوره وغلاله مناصفة .

ويروى عن الاقطاعي الشهير عبود عبدالرزاق المرعبي ، نائب عكار سابقا ، والذي كان يمتلك عشرات القرى في لبنان وسوريا ، انه عثر على عجلة (أنثى عجل) اثناء مروره في إحدى القرى فأعطاهها لفلاح يعمل لديه . وبعد ثماني سنوات كان تعداد البقر من تلك العجلة وذريتها يتجاوز ١٧ راسا . وطلب الفلاح اقتسام الماشية من « البيك » . وبعد القيام بالحساب وما يتوجب على الفلاح دفعه للمالك كل سنة من أرطال السمن والحليب وغيرها عاد الفلاح لقريته برأسين من البقر واحتفظ « البيك » بخمسة عشر راسا . والحادثة معروفة جيدا لدى جميع اوساط الفلاحين في عكار .

لقد ارتهن الفلاح قرراً في مسكن مشاد على ارض سيده ، محروما من المدرسة والطرق والمياه وجميع مظاهر الحياة المعاصرة . واذا ما باع المالك الارض ، كان الفلاح ينتقل معها الى المالك الجديد دون علم منه ودون ان تكون لديه أية فكرة عن كيفية انتقاله ، وحتى دون رؤية سيده الجديد ، بل فرضت عليه ظروف عمل وعيش قاسية جدا بموجب هذا النظام الشديد التعفن والذي لقبه احد الاجانب بنظام « العبودية السائدة في القرون الوسطى »(٤٨) .

الالتزام السنوي

يقضي هذا النظام باستئجار الفلاح وثيرانه طيلة سنة زراعية قابلة للتجديد . والعقد دوما شفهي كما في باقي الحالات . وبموجب هذا النظام يتقاضى المحاصص نصف او ثلث المحصول عينا بعد اقتطاع الضريبة وذلك تبعا لما تم الاتفاق عليه عند قيام العقد من مشاركة الفلاح في تقديم البذار او قسم منه او عدم تقديمه ذلك . ويفرض هذا الالتزام ايضا الا يدفع المالك الاجر اليومي لكل عمل يقوم به الفلاح ، مفردا او مع ثوربه ، في ارض المالك او خارجها شرط ان يتعهد المالك بدفع نقد عيني متفق عليه عن كل عمل يقوم به الفلاح خارج ارض المالك . ويتنوع الالتزام السنوي وفقا لحاجة المالك الى عمل الفلاح طيلة ايام السنة او لفترات متقطعة منها . وكثيرا ما كان المالك الكبير يمتلك اراض في عدة مناطق ، فيشتري ثوري

— L. Cardon — op. cit. — P. 54.

عند

(٤٧)

— J. Luquet « Le mandat A... » — P. 158.

(٤٨)

البقر لحسابه الخاص ويلتزم فلاحا عليهما طيلة أيام السنة لقاء اجر معين ،
عينا ونقدا .

الاجير السنوي

يمتاز هذا النظام عن سابقه بعدم وجود ثيران الحراثة . فالاجير هنا خادم
فرد لا يمتلك سوى قوة عمله ، ولا يشتري له المالك اية حيوانات للعمل الزراعي .
وهناك عدة انواع من الاجراء السنويين منهم رعاة البقر او الماعز او الغنم ، ومنهم
الاجراء الذين يخدمون في البيوت ، ذكورا ام اناثا . والاجير يعتاش دوما على حساب
مخدومه او المالك الذي يؤمن له ايضا السكن والملبس واجرا عينيا او نقديا مقطوعا
في كل عام . وكان بعض المالكين يلجأون الى منح الاجير قطعة ارض يعود كامل
محصولها له بعد اقتطاع العشر لقاء عمله السنوي لديه .

وعقاب الاجير الذي يسرق بيت سيده الطرد ، لا من خدمة سيده فحسب
بل ومن القرية ايضا بعد ضربه ضربا اليما . واذا صفح عنه « البيك » - وهي الحالة
الغالبية - كان الاجير يجبر على العمل خلال سنة او اكثر دون اي اجر بعد ان يجبر
كذلك على المبيت في اسطبل سيده . وكان هؤلاء الاجراء محرومين من اية حماية
من جانب السلطة بل ارادة « البيك » هي القانون المنفذ في منطقته ولا مرد لاحكامه ،
لذا كان الاجراء عرضة ، وباستمرار ، للسخرى والاهانة والاذلال .

الاجير الموسمي

طبق هذا النظام بوجه خاص في مناطق الزيتون والتين . فعند قطف الزيتون ،
يلجأ المالك في الكورة والزاوية والشويفات والشوف الى استخدام الاجير لمدة محددة
زمنيا تنتهي غداة القطف وجني المحصول . لذا كانت هناك امكانية انتقال الاجير
ايضا من منطقة لأخرى عند انتهاء العمل ومن مالك صفيح الى متوسط الى كبير ،
حيث كان قطف الزيتون في عكار يجري عادة في شهري تشرين الثاني وكانون الاول
بينما يتأخر في الكورة وحاصبيا والشوف حتى كانون الثاني وشباط ، وفي هذه
الحالة ينتقل الاجير من منطقة الى أخرى طمعا في استكمال مؤونته من زيت الزيتون
وهربا من البطالة بعد انتهاء الموسم .

واطعام الاجير الموسمي يجري على حساب المالك ويعطى جزءا معينيا من المحصول
الذي يقوم بحراسته او بقطفه ، كما يتقاضى جزءا آخر منه بالنقود . وتتراوح حصة
هذا الاجير تبعا للمناطق ما بين ١ على ١٢ و ١ على ٦ من كميات المحصول التي يجمعها
بنفسه . اما الاجير الموسمي العامل في تربية دود الحرير فكانت حصته تصل الى
ربع المحصول وأحيانا الى نصفه اذا كان الموسم رديئا (١٩) .

الأجير الشهري

كان هذا النظام مقتصرًا على العمال المختصين في الحدادة والنجارة وقيادة الآليات . وكان الأجير يدفع في نهاية كل شهر كما هو الحال بالنسبة لموظفي الدولة . ويتراوح الأجير تبعاً لنوعية العمل ومكانه ، وهو في جميع الحالات لا يتجاوز معدل حاجات الأجير فيضطر دوماً إلى الاقتراض من رب العمل . ويكون الاتفاق أيضاً شفهيًا (٥٠) دون أن يكون هناك أي اجترار من الدولة لصاحب العمل من أجل تأمين حياة عماله ضد طوارئ العمل أو ضمان الشيكوخة . كما كان العامل عرضة دوماً لطرده من العمل دون أي عذر مشروع . ولم تَسع سلطة الانتداب ، طيلة حكمها ، لاستصدار تشريعات للعمل على غرار تلك التي استحصل عليها العمال الفرنسيون ، بل كان هناك اختلاف واضح وتمييز عنصري بين العمال الفرنسيين أو عمال المتروبول الفرنسي والعمال المحليين (٥١) ، ان في الاجوز ام في العمل الاضافي ام في التعويضات .

الأجير اليومي

كان العمال المياومون خاضعين لقوانين العرض والطلب وتغير اجورهم حسب الفصول والمناطق . ففي الشتاء وأوائل الربيع يكون الأجير منخفضاً جداً نظراً لقلة الاعمال وكثرة اليد العاملة . أما في فصلي الصيف والخريف، فكان الأجير يبلغ أقصى مداه ، خاصة في الجبل والباتين القريبة من المدن ، وغالباً ما كان الأجير الصيفي اليومي يصل إلى ضعفي الأجر الشتوي . وميزة اختلاف الأجر حسب المناطق بقيت واضحة المعالم بعد الاستقلال . فقد نوه بهيج طيارة عام ١٩٦٠ إلى أن الأجر اليومي للعامل في الهرمل يتراوح بين ليرتين وثلاث ليرات ، بينما كان عامل جبل لبنان والمناطق الساحلية يتقاضى أجراً يومياً يتراوح بين ٥ و ٧ ليرات لبنانية (٥٢) .

وقد سجل تقرير ١٩٢٢ الأجر اليومي للعمال الزراعي بمعدل ٦٠ قرشاً لبنانياً - سورياً للرجل و ٣٠ قرشاً للمرأة و ٢٠ قرشاً للولد . أما متوسط أجر العامل الصناعي اليومي في نفس الفترة فكان ٧٥ قرشاً للرجل و ٤٠ قرشاً للمرأة و ٢٥ قرشاً للولد في حين كان العامل في التجارة ينال أجراً يومياً يبلغ ١٠٠ قرشاً للرجل و ٨٣ قرشاً للمرأة و ٣٠ للولد (٥٣) .

أما يوم العمل فكان يتراوح بين ١٠ - ١٤ ساعة في اليوم . ولم تعتمد سلطات الانتداب إلى تحديد ساعات العمل طيلة الحكم الانتدابي على لبنان . وأول محاولة للمطالبة بيوم العمل من ثماني ساعات كانت تلك التي تقدم بها حزب الشعب اللبناني عقب مظاهرات الاختقال بأول أيار ١٩٢٥ .

— H. C. « La Syrie et le Liban 1919-1927 » — P. 308. (٥٠)

(٥١) راجع فصل « تطبيق الانتداب » : مقطع « اجر غير متساو لعمال واحد » .

— Bahige Tabbarah « Procédés juridiques pour la mise en valeur de l'exploitation » — semaines sociales — P. 90. (٥٢)

— H. C. « Rapport pour l'année 1922 » — P. 294. (٥٣)

أدوات الزراعة والري

كانت التقنية الزراعية معدومة تماما في جميع الأرياف اللبنانية . وكانت السكة الخشبية الأداة الزراعية الأولى لقلب التربة . والسكة ، سواء بسبب خفتها وطريقة استخدامها ، أو بسبب ضعف حيوانات الجر السيئة التغذية ، لم تكن تشق الأرض الا على عمق ضئيل جدا . وقد نتج عن تكرار هذه العملية في الأراضي الزراعية ان تكونت تحت سطح تربتها ، وعلى قليل من العمق ، طبقة صلبة يصعب على مياه الأمطار اختراقها وعلى جذور النباتات التغذية منها ، لذا كان المردود عادة بالغ الهزال .

اما في المزروعات الصغيرة كالبقول والخضار فكان المول ذو اليد الطويلة والحديد المثلثة الشكل المسماة « مجرفة » والرفش ، أدوات الزراعة الرئيسية وان اختلفت تسمياتها حسب المناطق .

ويتم الحصاد غالبا بالمنجل . وفي المناطق الحجرية كان الحصاد يتم « بالقالوش » ، وهي عبارة عن منجل صغير . ويتم الدراس بواسطة النورج ، وهو لوح خشبي مستطيل الشكل فيه ثقب أفقية متعددة مملوءة بقطع الحجارة الصلبة التي تطحن القش .

وري المزروعات ذو سمة مميزة في جميع المناطق . فنوات الري من عمل المزارع الفرد او الجماعة العائلية المحدودة بنطاق القرية الواحدة . والري من الانهار يقوم في الغالب على الحق المكتسب بالعرف والعادة لجميع الأراضي الواقعة على ضفاف النهر او تلك التي تصلها مياه النهر حسب فترات زمنية منظمة سابقا . فالماء ، بالمفهوم الشائع لاستعماله آنذاك ، ملك خاص لمفجره اذا كان بئرا ، وللأراضي الواقعة على ضفافه اذا كان نبعاً او نهراً (٥٤) . والقاعدة المتبعة منذ أيام الاتراك ان الاستعمال يخلق الحق . لذا بقي الاستعمال حكرا على أراضي الاقطاعيين والاغنياء والموالين لهم . بمعنى ان القوة الاقطاعية هي التي فرضت قانون توزيع المياه . وعن طريق خدمة هؤلاء الاقطاعيين وممالاتهم اكتسب بعض المزارعين حقوقا ثابتة في الري سرعان ما تمسكوا بها ودافعوا عنها بقوة وثبتوها عن طريق المساحة . اما استخدام التكيك في جر المياه واكتشافها فلم يكن له اي وجود . لذا ظلت معظم الينابيع خارج الاستخدام الزراعي وبقيت الانهار تحمل مياهها للبحر دون ان يستفاد من الطاقات الهائلة التي تحملها للري . وبالمقابل استمرت معظم الأراضي اللبنانية الصالحة للزراعة تعطي مردودا ضئيلا جدا وتعتمد في انتاجها على الأمطار . أما السدود فلم يظهر لها اي اثر طوال فترة الانتداب ، كذلك مشاريع تربية الحيوانات المائية كالاسماك وغيرها ، وظل الري في جميع المناطق اللبنانية يعتمد مباشرة على مزارعين ، أفراد وجماعات ، يتشبثون بالتقاليد والعرف والعادة (٥٥) .

— J. Weuleresse « Les paysans de Syrie... » — P. 43.

(٥٤)

— J. Weuleresse — op. cit. — P. 43.

(٥٥)

ان اغفال تنظيم الري عمداً ، لعب دورا اساسيا في زيادة افقار وخراب الفلاحين لصالح كبار الملاكين الاقطاعيين وهيمنتهم على الارياف اللبنانية . فالري هو العصب الرئيسي للزراعة . وسيطرة الاقطاعيين عليه ، بدعم مباشر من حراب عاكر الانتداب ، اخرج مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية من دائرة الانتاج ورمها في البوار والمردود التافه بحيث اضطرت اعداد كبيرة من السكان الى الهجرة من الارياف الى المدن والخارج .

اصلحة من اختلاف المكايل والمقاييس والاوزان ؟

كانت المكايل الزراعية وثيقة الاتصال بأدوات العمل والنقل ونوعيتها لدى الانسان والحيوان ، كما ترتبط اسماؤها بالحبوب والحيوانات المستخدمة في الزراعة وتكيف طبقا لطبيعة المنتوجات الزراعية وللضغوط الاقتصادية والاجتماعية . ففي مجتمع كان القمح اساس الاقتصاد فيه ، كانت « القمحة » تعتبر الوحدة الصغرى في الاوزان الزراعية وترتبط بها الاوزان التالية (٥٦) :

الحبة او القمحة	وحدة الوزن الاساسية	وتساوي	٦٠٥ . غراما
القيراط	٤ حبات	وتساوي	٢٠٠ . غ .
الدرهم	١٦ قيراطا	»	٣٢٠ . غ .
المنقال	١٥٥ درهما	»	٤٦٨٠ . غ .
الأوقية	»	»	٢١٥ . غ .
الأفة	»	»	١٠١٨٢ كلف
الرطل	»	»	٢٠٥٦٤ كلف
القنطار القديم	»	»	٣٢٠ كلف
القنطار الجديد	»	»	٢٥٦ كلف

وتباع الحبوب بالكيل . والوحدة الشائعة للمكايل هي « المد » في معظم المناطق اللبنانية ، و « الطبة » او « المسحة » في مناطق عكار بشكل خاص . واهم متفرعات المد هي (٥٧) :

- التمنية او التمنية وتساوي ثمن من المد او ٢٠٢٥ كلف .
- الربعية وتساوي ربع من المد او ٤٠٥٠ كلف .
- المد ويساوي ١٨ كلف من القمح .
- الكيلة وتساوي مدين او ٣٦ كلف من القمح .
- الشنبل ويساوي ٣ كيلات او ١٠٨ كلف من القمح .
- الشراره وتساوي ١٢ كيلة او ١٨٢ كلف من القمح .

— Latron « La vie rurale » P. 7; et E. G. Gédéon « L'indicateur syrien de 1922 » P. 48 et N. Maestracci « La Syrie contemporaine » P. 94. (٥٦)

— Latron « op- cit » P. 8, et Gédéon « op. cit. » P. 49, et Maestracci « op. cit. » — P. 95. (٥٧)

أما السوائل فكانت تباع على أساس الرطل بالنسبة للزيت أو الحليب أو الدبس وغيرها . وكان الرطل الشامي أو الاسطمبولي هو الرطل الرسمي الذي فرضته الحكومة العثمانية وينقسم الى ايتين بالضبط ، وتنقسم كل منهما الى ست أوقيات بحيث يبلغ وزن الرطل تقريبا ٢٦٦ كلف على أساس ان الكيلو الواحد يساوي ٥ أوقيات والاقية ٢١٥ غ وليس ٢٠٠ غ كما هي حاليا .

أما في التطبيق العملي فكان الرطل في صيدا يساوي ١٥ اوقية بدلا من ١٢ ، وفي جزين ١٨٦٥ اوقية ، وفي الشويفات ١٣٦٥ اوقية ، وفي عكار ١٢٦٥ اوقية (٥٨) . كذلك تختلف الاوزان حسب المناطق والمنتجات وتختلف معها الاجور العينية . « فالطبة » او « المسحة » كانت تزن ١٤ كلف من القمح في مناطق عكار وطرابلس والزاوية . لكنها تزن ١١ كلف من الشعير في سهل عكار مقابل ١٠ كلف من نفس المادة في الدريب في المنطقة ذاتها . وتزن كذلك ١٣ كلف من « السورغو » او الذرة البيضاء علف الدجاج وتزن ٨ كلف من الشوفان و ١١ كلف من السمسم و ١٢٦٥ كلف من العدس والحمص وغيرها من البقول في مناطق الدريب بعكار . فالطبة اذا لم تكن موحدة الوزن بل تختلف حتى داخل المنطقة الواحدة وباختلاف المادة الزراعية . لذا كان التجار يقتنون نوعين من « الطبات » : واحدة للمبيع وهي صغيرة ، واخرى للشراء وهي كبيرة . ويكون الاختلاف بينهما واضحا ويتجاوز الكيلو الواحد في جميع الحالات . كذلك كان الاختلاف واضحا في ادوات بيع التبن وارطال الزيت والحليب وغيرها بحيث كان التاجر يستخدم دوما اداتين لا واحدة .

ويتغير وزن المد حسب المواد الزراعية وحسب المناطق . فهو يزن اساسا ١٨ كلف من القمح لكنه يرتفع الى ١٩ كلف قمحا في مناطق العاقورة وكسروان وعاليه وينخفض الى ١٧٦٥ كلف قمحا في المتن والشوف والى ١٣٦٥ كلف قمحا في صور والنبطية والى ١٢٦٥ كلف قمحا في صيدا ويحافظ على نسبة ١٨ كلف من القمح في البقاع الشمالي والجنوبي وفي حاصبيا وراشيا ومرجعيون (٥٩) .

ومد الشعير يختلف ايضا تبعا للمناطق فهو ١٢٦٥ كلف في المتن مقابل ١٥ كلف في الشوف والبقاع الشمالي و ١٤ كلف في البقاع الجنوبي و ١١ كلف في عكار و ١٠ كلف في الدريب من نفس المنطقة ، و ١٠ كلف في صور و ٩ كلف في صيدا . اما مد الفرة فيعادل ١٣ كلف في عكار و ١٤ كلف في الزاوية و ١١ كلف في صيدا ، و ١١٦٥ كلف في النبطية و ١٧ كلف في البقاع الشمالي و ١٨ كلف في البقاع الجنوبي .

ويزن شنبل الحنطة ١٤ كلف في عكار والدريب ، وشنبل الشعير ١١ كلف في عكار مقابل ١٠ كلف في الدريب (٦٠) .

لقد كان الاختلاف في المكايل والاوزان يتم لصالح التجار وعلى حساب المنتجين الزراعيين . وكان هذا النوع من الغبن والنهب واسع الانتشار في جميع الارياض

— A. Latron « op. cit. » — P. 8.

(٥٨)

— Latron « op. cit. » — annexe I.

(٥٩)

— Latron « op. cit. » — annexe I.

(٦٠)

الليمانية . ولم تدخل السلطة المنتدبة خلال الفترة الانتدابية الاولى لوضع اوزان موحدة وفرضها في جميع المناطق بل لجأت فقط الى اعتماد المتر في الاسواق المدنية واليارد بالنسبة للبضائع الانكليزية . وبالرغم من اعتماد الكيلوغرام في الاوزان فكان هذه الوحدة لم تعد نطاق المدن ولم تسع سلطات الانتداب لفرضها رسميا في جميع المناطق .

اما مقاييس الطول فكانت وحدتها « الدراع » أو « الذراع » لا المتر المربع . وكان « الدراع المعماري » الوحدة الاساسية في قياس الاراضي ويتفرع عنه الباع المساوي لاربعة اذرع ، والميل المساوي لالف ذراع . ويعتبر الذراع المعماري ٧٥ سم والباع ٢٢٧١ م والميل ٧٥٠ م (٦١) .

ووحدة مقاييس المساحة هي « الدونم » عادة بالنسبة لقياس الملكيات ، كذلك « الفدان » اي يوم الفلاحة الذي باستطاعة الفدان ان يقوم به . وترتبط بالدونم التقسيمات التالية (٦٢) :

الدراع المربع ويساوي ٤٥٩ . ٠٠٠ م . ٢م .

الذراع المعماري ويساوي ٧٥ . ٠٠٠ م . ٢م .

الفدان ويساوي ٧٥٤ م . ٢م .

الدونم ويساوي ٨٠٠ م بدلا من ١٠٠٠ م كما هو حاليا .

ولا بد من التنويه في هذا المجال ان قياسات المسافة كانت وحدتها الاساسية بالكيلومتر لكنها حصرت في نطاق الخطوط الحديدية والطرق ، في حين استمر قياس المسافات ، طيلة ايام الانتداب ، بساعات السير على الاقدام ، وبالفرسخ التركي الذي يبلغ في المتوسط خمسة كيلومترات ويعبر عنه بالمسافة التي يقطعها حصان محمل في مدى ساعة واحدة . لكن الفرسخ التركي كان يختلف ايضا بالنسبة للمناطق فيصل احيانا الى ٣ اميال او ٨٠٣ كلم . وبقي استخدام الميل الهاشمي المساوي ١٠٠ باج او ٢٦٧٠ كلم (٦٣) شائع الاستعمال .

من المؤكد ان الارياف الليمانية عامة ، والارياف الواقعة خارج جبل لبنان خاصة ، ومناطقها البالغة الخصوبة زراعيًا على الاخص ، كانت عرضة لاستغلال مباشر لصالح تجار المدن وسامرة الحبوب . فهذه المناطق بالذات كانت بمثابة مركز لتموين سكان المدن بالحبوب . وقد لعبت المقاييس والاوزان والمكاييل دورا هاما في نهب الفلاحين والمزارعين تحت ابصار ادارة الانتداب بالذات . تلك الادارة كانت مدنيّة الطابع والمكان بحيث اعتبرت بيروت المركز الاساسي لادارتها وعسكرها وسياستها وتجارها وتوجيهها الثقافي وغيره . ويقدر ما كان يزداد نهب تجارها وموظفيها لبيروت وباقي المدن الليمانية والسورية ، بقدر ما كانت تفسح المجال امام تجار وسامرة المدن لنهب الارياف وتجميع خيراتها في مصارف ومؤسسات الفرنسيين .

— H. C. « Ce que tout Français doit savoir de la Syrie et du Liban » — P. 51. (٦١)

— Latron « op. cit. » — Annexe I — et Gédéon « op. cit. » — P. 49 — et (٦٢)

Maestracci « op. cit. » — P. 95.

— Latron « op. cit. » — P. 201. (٦٣)

فالادارة الانتدابية لم تسع الى تنظيم الريف الا بمقدار ما ينسجم ذلك التنظيم مع مصلحة الاقطاعيين والساسة المحليين العاملين على تأييد سياستها .

سمسار المدينة يشارك ايضا في نهب الفلاحين

بين بداية مواسم الحصاد والاشهر القليلة التي تليه ، كان يلاحظ انخفاض عمودي في اسعار الحبوب بحيث تنحدر الى ٣٠ و ٤٠ و ٥٠ بالمئة عما كانت عليه قبل ذلك التاريخ . وفي حين تحافظ الحبوب على اسعار متدنية طيلة فترة جني المحصول ، ترتفع فوراً الى ضعفين او ثلاثة اضعاف عند شراء البذار ثم تزداد ارتفاعاً في الشتاء وتبقى مستمرة الارتفاع حتى بداية الموسم الجديد . وعلى هذا الاساس يضطر الفلاح الى شراء ما باعه بأسعار مرتفعة جداً . والفلاح دوماً مضطر لبيع محصوله عند الحصاد بسبب استدانته المسبقة من المرابي او مالك الارض او تاجر المدينة ، وعليه ان يسدد ما استدانه مع الفوائد الباهظة . اذا كان تاجر المدينة او السمسار يلعب دور المرابي لهؤلاء الفلاحين ويستغل حاجتهم الماسة الى القوت فيمددهم بالحبوب او النقود لقاء التفهد بارسال محصولهم اليه ، وهو الذي يبيع المحصول كما يشاء ويقطع نفوده وفوائدها كما يشاء ايضا ، ونادراً ما يتبقى للفلاح الا مؤونة اشهر قلائل يعود بعدها الى الاستدانة من جديد .

ان سمسار المدينة لعب دور البائع والشاري لمحاصيل الفلاحين . وكان يستغل هذا الوضع الى اقصى حد فيشتري المحصول في بداية الموسم بأسعار زهيدة ، ثم يخزنه ويعود فيبيعه الى الفلاح نفسه بأسعار جد مرتفعة .

ان محتكري الحبوب في المدينة لعبوا دوراً قذراً في افقار وخراب المزارعين ولفلاحين . فبتقديم المال والبذار لهم ، على حساب الموسم القادم ، كان الساسة يسيطرون على انتاج هؤلاء . ففي حين احتجز الاقطاعي حرية الفلاح المعدم ومنعه بالقوة من مفادرة الارض التي يعمل عليها ، كان سمسار المدينة يحتجز فعلياً محصول الفلاح المتوسط والفقير والميسور وحتى الاقطاعي الصغير ويجبره على تقديم كامل محاصيله لهذا السمسار . اما المحصول ، فجيداً كان أم رديئاً ، لم يكن من نصيب الايدي التي عملت على انتاجه ، ولا من نصيب المنطقة التي انتج فيها بل يذهب الى جيوب تجار المدن واقطاعبي الريف الساكنين فيها ايضا .

ان ساسة المدن جمعوا ثروات طائلة على حساب خراب الفلاحين في الريف واستصاح خيراتهم لصالح حفنة صغيرة من تجار الحبوب المرابين .

سوء نظام التغذية

ان استغلال الفلاحين ونهبهم من قبل الدولة وساداتهم الاقطاعيين والمرابين ، مضافاً الى الكوارث الطبيعية والامراض التي كانت تفتك بهم وبماشيتهم ومزروعاتهم ، قد كشفت عن نتائج مذهلة من البؤس الرهيب في حياة الفلاحين والريفين في

لبنان بشكل عام . فالفلاح ، المعدم والفقير والمتوسط ، يعيش دوما على حدود المجاعة . فهو فريسة لسوء تغذية مزمنة وليس لديه سوى الخبز والبرغل واللبن الرائب . كما ان المحاصصة لا تترك له سوى الحد الأدنى من القوت الضروري لاستمرارية الحياة مع افتقار تام للنقد الذي يستطيع بواسطته شراء حاجيات من خارج الانتاج الزراعي الذي يتم تبادله بالمقايضة . فالادخار ، مهما كان شكله ومهما كان نوعه ، كان حلما نادرا التحقيق لذا كان الموسم الرديء يعني دمار الفلاح او موته جوعا او الاستلاف بفوائد فاحشة يدفعها احيانا ... } بالمئة(١٤) .

والخبز اساس التغذية الريفية في جميع الاحوال . واستقبال الضيوف واحتفالات الاعياد كانت المناسبات الوحيدة التي يتغير فيها نوع الغذاء تقليديا عن مشتقات انبرغل والحبوب ومشتقات الحليب . ففي هذه المناسبات كان يتم ادخال اللحم على الطعام كذلك الدجاج الذي تربيته العائلة بالذات والذي ينجو من اتياب الاقطاعي ورجال الدرك .

وفي السهول الكبيرة ، كان نظام التغذية يقوم اساسا على الحبوب ، من قمح وذرة وشعير والتي يصنع منها الخبز والحلوى والبرغل وغيرها . والشعير غذاء الفلاح الفقير الذي لا يستطيع شراء القمح لأن الشعير عادة هو علف الحيوانات ، خاصة الحمير . أما الذرة فكانت على نوعين : الذرة الصفراء وتكثر في مناطق عكار والبقية والبقاع وتستخدم كذلك في صنع الخبز ، والذرة البيضاء ، وتسمى السورغو ، وهي غذاء الدجاج عادة . لكن نظام الاستثمار ذاك دفع اعدادا كثيرة من السكان لمشاركة الدجاج في اكل السورغو ، كما دفعوا قسما آخر من السكان لمشاركة الحمير في غذائها من الشعير .

تضاف الى هذه الحبوب مادة دهنية ، هي زيت الزيتون على السواحل وفي مناطق انتاج الزيتون ، او سمن الغنم والبقر في السهول والجبال ، ثم الزيتون المكبوس ، مع بعض الخضار والبيض والفاكهة الطازجة والاجبان .

أما اللحم فلم يكن يحتل سوى مكانة ضيقة جدا في تغذية الفلاحين . وفي الصيف خاصة ، كان اللحم وجبة غير عادية في جميع أرجاء الريف اللبناني ، فهو لا يظهر الا في الاحاد وأيام الجمعة والاعياد . وفي الشتاء يستعاض عن اللحم « بالقاورمة »(١٥) او اللحم المدهن المحفوظ .

وكانت الخضار تستهلك بكميات كبيرة في الجبل والسواحل . وفي جميع المناطق كان يجري تحضير أنواع من المربيات لفصل الشتاء خاصة الدبس ومربى العنب والسفرجل والمشمش والزبيب وغيرها(١٦) .

وفقر المدن لم يكن طعامه بأفضل من طعام فلاح الريف بل كان يتفدى بالخضار والفواكه الرخيصة ويقطع الخبز مع الحلاوة او الجبنة . فقد كانت حياة الاثنيين متشابهة في المأكل والسكن والملبس . فقير الريف يعتمد على ما يقيه له

— Latron « La vie rurale » — P. 117.

(١٤)

— J. Weuleresse « Les paysans de Syrie... » — P. 232.

(١٥)

— Latron « op. cit. » — P. 120.

(١٦)

المالك من انتاجه هو من الارض ، أي يعيش على حساب نفسه دون اي اتصال بالخارج ويعتاش المالك من استغلال فلاحه بالذات وعلى حساب خرابه، كذلك فقير المدينة الذي يعيش على جزء ضئيل من قوة عمله في حين يفتني التاجر او صاحب المصنع على حساب دماره ايضا(١٧) . لقد كان الاثنان خاضعين لاستغلال رهيب ولا يستطيعان مفادرة عملهما الا اذا اختارا الموت جوعا او هاجرا تاركين وراءها عيالا متعددة الاطفال .

اما الشراب فكان يختلف حسب المناطق والطوائف . وعلى العموم كان الريفيون مقلين في تناول المشروبات الروحية ما عدا جبل لبنان حيث كان النبيذ يستهلك بكثرة خاصة النبيذ المعتق في فصل الشتاء ، كما كان العرق الملقب « بحليب السباع » متروك لاعراس عند المسيحيين واثناء ولانهم واعيادهم الكبرى دون ان تكون له صفة الاستهلاك اليومي . والنبيذ والعرق محرمان شرعيا لدى جميع الطوائف الاسلامية .

ان شراب الفلاح الاساسي هو الماء الذي يفضله من البنوع مباشرة ويشربه حتى الارتواء ، بيديه او بالابريق الفخاري . وفي المنازل كانت القهوة شراب الضيافة ويستعاض عنها بالشاي في بعض المناطق و « بالمتة » عند الدرروز بشكل خاص .

سوء العناية الصحية

ان نقص التغذية ، والسكن الرديء ، والجهل بالوقاية الصحية ، وغياب الثقافة والتعليم ، وحياة البؤس المستمرة للأغلبية الساحقة من اللبنانيين ، والربا الفاحش ، وضرائب الدولة المتزايدة ، والسيطرة الاقطاعية ، وغيرها ، ساهمت الى حد كبير الى جانب موجات الجراد والطاعون والكوليرا والتيفويد والامراض الوبائية باعتلال صحة اللبنانيين ، خاصة الفقراء منهم في المدينة والريف ، كما يعترف بذلك صراحة تقرير المفوضية العليا لعام ١٩٢٤ . حتى في جبل لبنان ، حيث المناخ أكثر ملاءمة من باقي المناطق وحيث مستوى الفلاح فيه مرتفع أكثر بما لا يقاس من اقربانه في باقي المناطق ، فان تقرير هذا العام يسجل ٣٤٤ اصابة بالحمى التيفويدية هناك ، و ٨٣ اصابة بالجذري ، و ١٢٤٣ اصابة بالحصبة ، و ٢٠٤ اصابات بالدفتيريا او الخانوق ، و ١٣٤ اصابة بالتراخوما ، و ٩٢ اصابة بالسعال الديكي ، و ١٦٥ اصابة بأمراض الدماغ والجهاز العصبي ، و ٩٤٥ اصابة بأمراض جهاز الدورة الدموية ، و ١٤٧١ اصابة بأمراض الجهاز التنفسي ، و ٩٤٣ اصابة بأمراض الجهاز الهضمي ، و ٢٧٥ حالة وفاة بأمراض خطيرة ، و ١٩ اصابة بالطاعون ، وغيرها(١٨) . وتسجل تقارير الفرنسيين ان سوريا ولبنان كانتا عرضة باستمرار لموجات من الجذري والطاعون والكوليرا والتيفوس التي كانت تجتاح السكان والحيوانات دون ان تكون هناك اجهزة صحية قادرة على مكافحة تلك الاوبئة والامراض سوى المحجر الصحي في الكرتينا في بيروت الضعيف التجهيز، وبعض المؤسسات الصحية الخاصة التي

— Noël Maestracci « La Syrie contemporaine » — P. 207.

— H. C. « Rapport sur l'année 1924 » — Annexes 6 et 7 — P. 98-99, et R.

— O'Zoux « Les Etats du Levant... » — P. 204-205.

(١٧)

(١٨)

تتطلب المعالجة فيها نفقات باهظة وتفتقر ايضا الى معظم الادوات الصحية اللازمة والتجهيزات .

ان السنوات الاولى التي تلت الحرب العالمية الاولى تميزت بالقسوة الهائلة على مجموع السكان في سوريا ولبنان بسبب موجات الجراد المتتالية التي كانت تجتاح اراضيها وتاكل الاخضر واليابس تاركة وراءها كميات كبيرة من البيوض على اراض قاحلة مما اضطر الاهلين الى تنظيم حملات جماعية مستمرة لمكافحة الجراد وبيوضه دون ان تكون هناك وسائل فعالة لمكافحة والقضاء عليه من الجو . وقد تسبب الجراد والجوع والابوثة بالعديد من الاصابات المميتة بين اللبنانيين والمهاجرين الارمن .

بعض الملاحظات

بقي الريف اللبناني خلال الفترة الانتدابية الاولى متروكا لشأنه دون اي تدخل فعلي من جانب سلطات الانتداب لتطويره وتنشيط الموارد الطبيعية فيه . فطبيعة الانتداب بالذات كانت ترتدي طابعا مدينيا واضحا وتتمركز في بيروت بشكل خاص حيث تجمعت فيها ادارات الدولة ومؤسساتها المالية والتجارية والعسكرية والتعليمية وغيرها . لكن لا بد من الاشارة الى ان الانتداب الفرنسي لم يكن يهمل الريف اللبناني في حملاته المتكررة لجمع مدخراته الذهبية وفرض الضرائب الباهظة على سكانه . تلك الضرائب دفعت العديد من الريفيين ، بفعل سنوات الجفاف المتكررة خلال تلك الفترة ونهب الاقطاعيين والاقواف الدينية المتزايد للنتاج الفلاحي الضئيل الى هجرة قراهم والتمركز في المدن او الانتقال الى الخارج مما أدى الى افراغ قرى بكاملها من سكانها وازدياد سكان المدن خاصة بيروت بشكل عامودي .

لقد لعب النزوح والهجرة دورا بارزا في ضرب اسس الاقتصاد الفلاحي ومؤسساته الاجتماعية في الريف خاصة المسكن والعائلة والعمل . فقد انتقل هؤلاء المهاجرون من العمل القسري او الاجار السنوي والموسمي الى العمل اليومي المدفوع الاجر نقدا فشكّلوا نواة اخرى من الطبقة العاملة اللبنانية المتفاوتة الاستقرار بين البروليتاريا الصرف وانصاف البروليتاريا وبقيت السمة المميزة لهم ، خلال تلك الفترة ، ارتباطهم الفعلي في الريف بحيث شاركوا في العمل اليدوي فيه خاصة في مواسم الحصاد والقطاف وغيرها كما شارك المهاجرون في اعالة أعداد كبيرة من الاهل والاولاد المقيمين فيه .

ان تطوير الريف اللبناني وشق الطرقات هناك ، على قلتها ، لم تكن فعليا من عمل ادارة الانتداب ، بل اعتمدت في الغالب على هبات الكرماء من أبناء القرى الذين هاجروا واثروا ، كما اعتمدت على فرض السخرة في شق طرقات الريف واعمال الري فيه .

كذلك فتطوير المنازل السكنية في الريف لم يتم ايضا بفضل انعاش الريف بالمشاريع الاقتصادية التي تدر الخيرات الوفيرة على سكانه بل بفعل الهجرة في المقام الاول وبفعل النزوح الى المدن ، هذا النزوح المرتبط بوثاق متين مع الريف في المقام

الثاني . اما حياة الريف الاقتصادية بقيت كما كانت عليه ايام الاتراك دون اي تغيير جدي وظاهر في جميع المستويات ، ان على صعيد نظام الملكية العقارية الكبيرة او على صعيد الري والطرق وادوات الزرع والحصاد وغيرها . واذا استثنينا فقط حملة تشجيع زراعة التوت لانتاج الحرير والتي تمركزت اساسا في جبل لبنان وانعشت مكانه لسنوات قليلة جدا بكميات وفيرة من النقود ، فان اي مشروع اقتصادي او سد مائي لم يظهر في ارياف لبنان طيلة العهد الاول من الانتداب .

هذا الاهمال التام للريف ابقى حياته الاجتماعية على حالها دون تغيير جذري خلال هذه الفترة . فقد استمرت سيطرة الاب على عائلته ، كما استمرت سيطرة الذكر ، المنتج زراعي في اقتصاد يقوم اساسا على الزراعة البسيطة والتبادل البضاعي ، سمة بارزة من سمات الريف ، واستمر معها حق الاب او الوصي في اجراء العقاب الفوري حتى الموت في بعض الحالات ، خاصة في « جرائم الشرف وغسل العار » دون تدخل مباشر من جانب السلطة المركزية .

ان قوانين العرف والعادة المتوارثة عبر مئات السنين بقيت سارية المفعول وسيفا ملطا فوق رؤوس الريفيين بحيث كان واضحا ان سيطرة الذكر او الاب ليست الا مظهرا من مظاهر سيطرة الاقطاعي ، المثل للسلطة الانتدابية في الريف ، على الرجل والمرأة معا في حالة من نظام العبودية الموغل في القدم .

وسيطرة الاقطاعيين على الريف لم تكن تحجب في الواقع دعم الفرنسيين لهؤلاء الاقطاعيين وتسخير عاكر ادارة الانتداب لخدمتهم بحيث أصبح الاقطاعي سيد الريف وممثلا في ادارة الدولة الانتدابية الموالي لها . فتعززت بالتالي سيطرته العقارية والتنفيذية في منطقته دون ان تتعزز معها امكانياته المادية التي يستطيع معها شراء الادوات الزراعية الحديثة وتنشيط زراعته في الريف . فهو مضطر لبراز زعامته الريفية ، وتحمل اعباء السكن في المدن وما يقتضيه من نفقات باهظة . ولما كانت موارده الزراعية محدودة ، نتيجة نظام الاستثمار وادوات الزراعة والري ، كانت شراسته تزداد لنهب فلاحيه اكثر فاكثر ، بينما كان هؤلاء يلجأون الى النزوح والهجرة او يفرضون العمل اليومي المأجور نقدا ، مما زاد بشكل ملحوظ في أزمة الاقطاعيين المادية وفي ارتفاع نسبة الاراضي البور في جميع الارياف اللبنانية خاصة اراضي الاقطاعيين وابقى اسعارها دون زيادة تذكر في حين كانت نسبة تكاليف المعيشة ترتفع باضطراد . هذا الواقع الجديد دفع العديد من الاقطاعيين ، كما دفع العديد من المقاطعية سابقا في جبل لبنان ، الى تعاطي التجارة وأعمال الوكالات ، حيث الربح السريع ، وابتياح اراض لهم في المدن حيث امكانية ارتفاع الاسعار كبيرة ، وبدأ بعضهم بترسيخ اقدامه في أجهزة الدولة سياسيا وماليا .

ان ابقاء الريف اللبناني يواجه قدره بنفسه دون مساعدة من دولة الانتداب او من الاقطاعيين المسيطرين عليه ، حرم هذا الريف كما حرم لبنان من خيرات اقتصادية وفيرة تحتزنها اراضيه وبقيت مساكنه على حالها ، ما خلا بعض مناطق الاصطياف انقريبة من بيروت كما بقي التعليم فيه شبه معدوم بين الذكور والاناث ، واستمر نظام

العمل يقوم على العرف والعادة دون اية تشريعات او قوانين تضمن للفلاح الحد الادنى من امكانية العيش والضمان من الموت جوعا، كما استمرت الملكيات العقارية الكبيرة غير المجزأة سمة بارزة من سمات المجتمع الريفي في لبنان ، خارج اسوار قلعة جبل لبنان الصخرية . فالجهل والفقر والمرض والهجرة كانت الصفات الملازمة لحياة الريفيين في لبنان في اوائل عهد الانتداب .

الكتاب الرابع :
الحركة السياسية في لبنان:
من الحكم العسكري المباشر
إلى الديمقراطية الشكلية
١٩١٨ - ١٩٢٦

□ الفصل الأول □
بين الترفض المطلق والتبعية
الكاملة للانتداب □
١٩٢٠ - ١٩٢٤ □

تيار القومية العربية العثمانية

أدت الحرب العالمية الأولى الى نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للعرب منها اعلان الثورة العربية عام ١٩١٦ للتخلص من النير التركي ، وهزيمة الامبراطورية العثمانية واقتسام تركتها بين الحلفاء المنتصرين .

وبالرغم من ان نهاية هذه الحرب لم تحمل آمالا زاهرة للعرب ، فقد حملت الثورة العربية الكبرى احلاما كبيرة للوطنيين . فكتب الشاعر اللبناني بشارة عبدالله الخوري ، الاخطل الصغير ، يقول « ان الفكرة السائدة آنذاك ان الحلفاء سيبعثون الامبراطورية العربية وعلى رأسها الحسين بن علي . وكانت الحاجة ماسة الى اثاره الخواطر في البلاد تعجلا ليوم الخلاص وهو أمنية كل البلاد العربية في ذلك العهد » (١) بيد ان سياسة جمال باشا القمعية ، وشنق الاحرار ، والنفي الى الاناضول والروملي ، انتهت بمقتل او ترحيل قسم كبير من المثقفين الوطنيين في سوريا ولبنان ، وقمع كل تعاطف مع الفرنسيين والانكليز بشدة بالغة ، وتناول الاضطهاد المسلمين والمسيحيين على السواء ، ودونما تمييز .

وقدم قنصل فرنسا ، فرنسوا جورج بيكو ، من حيث لا يدري ، اسماء جميع المتعاونين معه من المثقفين الوطنيين . ومن كتاب الشهيد فيليب قعدان الخازن نقرأ الفقرة التالية : « أعلنت الحرب العالمية الأولى في صيف ١٩١٤ وبدأ الانتقام الطوراني من العرب الذين عملوا لحرية قومهم ولا سيما في لبنان وسوريا وفلسطين . فكان من سبل الشر دعونة قنصل فرنسا في بيروت ، ف. جورج بيكو ، اذ سافر الى بلاده تاركا اوراقه وتقاريره السرية في خزائن القنصلية واوكل امر حمايتها الى قنصل

(١) « جريدة البرق - لماذا تسميت بالاخطل الصغير ؟ » السنة ٢٣ - العدد ٣٢٨٦ الصادر في ١٥ كانون الاول ١٩٢٠ . حول الحياة السياسية في لبنان المصرفية راجع مقالة الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك « المقدمات التي مهدت للحياة النيابية في لبنان » المنشور في مجلة «الحياة النيابية» المجلد الثالث - تشرين الاول ١٩٧٢ .

الولايات المتحدة الاميركية . ولم يكن القنصل الاميركي حازما في ما كلف له ، والحكومة العثمانية لم تبال بامتيازاته القنصلية فاستولت على اضرار القنصلية الفرنسية ، ومن هذه الاضرار عرفت جميع النشاطات التي بذلها القوميون العرب والاحرار والناقمون على سياسة الاستانة . فراحت تبطش بهم افرادا وجماعات «(٢)»
 يتبين لنا من هذا المقطع ان الدعوة كانت قومية عربية وليست اقليمية حتى بين صفوف المسيحيين في لبنان . ويؤكد الكثير ممن كتب حول هذه الفترة ان بعث الفكرة والشعور العربيين قد ساهم فيه بنشاط المسيحيون اللبنانيون ، حتى ان الدكتور ادمون رباط ينسب الى هؤلاء ، تاريخيا ، « بعث هذه الفكرة ثم حذا حذوهم كتاب مسلمون من سوريا لجأوا جميعا الى مصر هربا من استبداد السلطان عبدالحميد الثاني »(٣) . « ففكرة القومية العربية تحركت اساسا من منطلقات ديمقراطية علمانية »(٤) ، كما يقول رثيف خوري . ويؤكد هذا القول البرت حوراني « بأن القومية العربية ، في تعبيرها عن نفسها ، كانت حركة علمانية »(٥) . فقد كان الزعماء يرغبون في تجريد فرنسا من سلاحها الاقوى وهو وجود الاقليات المسيحية التي كانت تتطلع الى فرنسا لحمايتها .

لذا يمكن القول ان الشعارات التي رفعها دعاة القومية هؤلاء ، انطلقت اساسا من الالتفاف حول العروبة لا الدين . وكان الهدف واضحا : تجميع العرب حول شعار وحدوي قومي للعمل ضد الاتراك وضد الانجرار وراء مخططات الاوروبيين ، فرنسيين كانوا ام انكليز .

وهذا ما يفسر الى حد كبير ، مغزى الدعوة التي اطلقتها جريدة « الحقيقة » البيروتية منذ دخول الحلفاء الى سوريا ولبنان . « فالحقيقة » التي كانت تنطق آنذاك بلسان الوحدويين العرب ، رفعت شعار « تأليف حزب سياسي يضم المسيحيين والمسلمين في سبيل قيام وحدة وطنية على اساس مكين »(٦) .

ان الجو العام الذي اعقب الحرب العالمية الاولى ، والذي كثرت فيه شعارات « حق تقرير المصير » و « حق الامم الصغيرة في ادارة نفسها بنفسها » و « نيل الطرق الاستعمارية القديمة » وغيرها ، دفعت العديد من المثقفين الى اقتباس شعارات الثورات التحريرية في العالم وخاصة الثورة الفرنسية بالذات . ويقول الياس ابو شبكة في تقييمه لهذه الفترة « ما كادت الحرب الكبرى (١٩١٤ - ١٩١٨) تضع أوزارها ، حتى ارتفعت اصوات الشرقيين ، على اختلاف اجناسهم واديانهم ، داعية

(٢) كتاب الشهيد مليلب تمدان الخازن - نشر يوسف ابراهيم يزبك - ص ٦٩ . وسيدح الزين « ٦ أيار » ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) — P. 22. « L'évolution politique de la Syrie sous Mandat » — E. Rabbath .

(٤) رثيف خوري . « عبد الغني العريسي » . الطريق - السنة ١٨ - كانون الاول ١٩٥٩ - ص ١٢ .

(٥) البرت حوراني « الفكر العربي في عصر النهضة » - ترجمة كريم عزقول - ص ٢٥٢ . وتقول زيادة « ابعاد التطريح اللبنتي الحديث » ص ٢٤٢ .

(٦) كمال عباس . « الحقيقة » - السنة ١١ - العدد ٩٨٤ الصادر في ٥ كانون الاول ١٩١٨ .

الى الاخاء ، والمحبة ، والحرية ، والمساواة ... » (٧)

لقد تميزت السنوات الاولى من نهاية الحرب بمدعروبي واسع في سوريا ولبنان ، وكان على الحلفاء خاصة الفرنسيين منهم ، العمل بصبر وناة لتفتيت وحدة هذا التيار ، وتآليب العديد من المحليين ضده باسم « الدين » و « الاستقلال التام » و « المساعدة » للوصول الى مدارج الحضارة . ان فكرة القومية العربية العلمانية وجدت صدى واسعا لها بين صفوف الكتاب والمثقفين اللبنانيين في الداخل والخارج ، فانبروا للدفاع عنها ومناصرتها كحركة قومية جامعة لشمل العرب وتتجاوز الاطر اللدنية التي كانت أسيرتها آنذاك . والقومية العربية العلمانية كانت في الواقع تجسيدا واستمرارا للدعوات السابقة التي نادى بها بطرس البستاني وابراهيم اليازجي والعديد من الكتاب اللبنانيين في مصر منذ القرن التاسع عشر ، لذا لاقت ارضا خصبة واذانا صاغية لها في لبنان قبيل الحرب العالمية الاولى واثناءها ، ولعبت الاحزاب السياسية والجمعيات السرية والمؤتمرات السابقة دورا كبيرا في التمهيد لها .

**اصواء على مواقف اللبنانيين من الاتحاد ،
والانفصال ، والانتداب (١٩١٨ - ١٩٢٠)**

١ - في الداخل :

تميز الاحتلال الانكلو - فرنسي للبنان في نهاية ١٩١٨ بالفياب الكامل للحياة السياسية فيه ، والتي كانت بالغة النشاط قبيل الحرب .
اما الوجود الفرنسي العسكري الضئيل والبالغ الذي رجل فقط عند نهاية الحرب ، فقد اجبر ساسة الفرنسيين على التركيز مباشرة على اصدقائهم التقليديين اي الموارنة بشكل خاص . وكانت أبرز التيارات في صفوف هؤلاء تلك التي تنادي بتوسيع حدود لبنان نحو مواقعه الطبيعية والتاريخية (٨) . وكان دعاء هذا التيار يطمحون الى الاستقلال الذاتي وتحقيق الانفصال عن سوريا .
لذا كانت مطالب الاستقلال التام والعلاقات الاقتصادية المتينة مع الداخل وتوسيع حدود الجبل نحو المدن والسهول أبرز اهداف الحركة السياسية داخل جبل لبنان خلال عامي ١٩١٩ - ١٩٢٠ . ولتحقيق هذه الاهداف كان البعض يطالب بالمساعدة الفرنسية ، دون ان تؤثر هذه المساعدة على الاستقلال التام الذي حدده اللبنانيون كهدف لهم . وتمثلت تلك الاهداف في مذكرات ثلاث تقدم بها مجلس ادارة جبل لبنان السابق والتي تم على اساسها ارسال ثلاثة وفود الى مؤتمر الصلح في باريس . وكان داخل اعضاء هذا المجلس تمايز في مستوى التصور السياسي للبنان المستقل . فمنهم من ابد الانفصال التام عن سوريا ومنهم من دعا الى تأييد مقررات المؤتمر السوري لعام ١٩١٩ والرامية الى اعطاء لبنان استقلالية نسبية

(٧) الباس ابو شبكة « روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب » ص ٥٨ .

— A. Sfeir « Le mandat français... » — P. 44.

(٨)

داخل الاتحاد السوري شريطة ابعاد كل يد اجنبية عن التلاعب في مصر سكانه .
وسرعان ما قامت ادارة غورو باعتقال دعاة هذا الاتجاه وعلى رأسهم سعدالله الحويك ،
شقيق البطريك بالذات ، عندما قرروا الذهاب الى دمشق لمبايعة الملك فيصل والسفر
من هناك الى حيفا فأوروبا لتوضيح وجهة نظرهم امام الراي العام هناك . وقامت
ادارة الانتداب بنفي سعدالله الحويك وخليل عقل ومحمد محسن وسليمان كنعان
وفؤاد عبدالملك والياس الشويري الى كورسيكا(٩) . اما دعاة الاتحاد مع سوريا
فكانوا الاغلبية الساحقة من سكان المناطق التي ضمت الى جبل لبنان المتصرفية .
وقد عبرت مقررات المؤتمر السوري ، الذي شاركوا فيه عبر مندوبيهم ، عن
تصوراتهم السياسية حول مستقبل لبنان .

ففي اعوام ١٩١٨ - ١٩٢٠ كانت هناك فكرتان رئيسيتان لحل القضية اللبنانية
- كما يقول جورج حنا - الفكرة الاولى : استقلال لبنان وانفصاله عن سوريا ، والفكرة
الثانية : استقلال لبنان واتحاده مع سوريا في الامور الخارجية والاقتصادية (١٠) .
اما القول بأن اللبنانيين قد رحبوا بالفرنسيين وايدوا فكرة اقامة دولة لبنانية
مستقلة عن سوريا وباقي اجزاء العالم العربي ، وبأن اللبنانيين دعوا الى الانتداب
الفرنسي وعملوا له فقول يرفضه الواقع التاريخي وترفضه الوثائق التاريخية بالذات .
فالذين رحبوا بالانتداب من اللبنانيين لم يمثلوا كل اللبنانيين من جهة ولا طائفة واحدة
حتى من جهة ثانية . فالطائفة المارونية ، وهي المعنية دوما بالقول انها ايدت الانتداب
وعملت له ، لم تكن موحدة الآراء اطلاقا في هذا المجال . فمجلس الادارة السابق
لجبل لبنان ، والذي كان لا يزال يعتبر شرعيا قبل ان يقدم الجنرال غورو على حله ،
قد اجتمع وقرر في ٩ تشرين الاول ١٩١٨ ما يأتي(١١) :

« ١ - توسيع نطاق جبل لبنان كما كان معروفا فيه تاريخيا وجغرافيا وما
تقتضيه منافعه الاقتصادية بحيث يكون بلادا قادرة على القيام بحياة شعوبها
ومنافعهم وثروتهم وبحكومة راقية منظمة .
٢ - تأيد استقلال حكومة منظمة بادارة شؤونها الادارية والقضائية بواسطة
رجال من اهلها .
٣ - يكون لهذه الحكومة مجلس نيابي يؤلف على مبدأ التمثيل النسبي حفظا
لحقوق الاقلية وينتخب من الشعب ويكون لهذا المجلس حق التشريع ووضع
القوانين المناسبة للبلاد وسائر ما للمجالس النيابية في البلدان الديمقراطية .
٤ - مساعدة دولة فرنسا للحصول على الاماني المتقدم ذكرها ومعاونتها
الادارة المحلية في تسهيل نشر العلوم والمعارف وتقديم البلاد وازالة اسباب التفرقة
والخلاف وتطبيق الاعمال على محور العدالة والحرية والمساواة وضمنان الدولة

(٩) يوسف مزهر - « تاريخ لبنان العام » ص ٩٢٢ .

(١٠) جورج حنا « من الاحتلال الى الاستقلال » ص ٢٣ - ٢٤ .

(١١) المقتطف - السنة ٥٤ - الجزء الاول - كانون الثاني ١٩١٩ - مقالة « مشروع لبنان » - ص

٩٧ - راجع ايضا جورج حنا « من الاحتلال الى الاستقلال » ص ٢٤ - ٢٥ - ويوسف مزهر

« تاريخ لبنان العام » الجزء الثاني - ص ٨٧٤ - ٨٧٥ .

« المشار إليها للاستقلال المذكور منعا لكل مساس به . وقد فوض المجلس المندوبين
« الآتية أسماؤهم لعرضه على أصحاب الامر :

داود عمون — اميل اده — محمود جنبلاط — عبدالله الخوري — ابراهيم ابو خاطر —
حليم الحجار — تامر حماده » .

فمجلس الادارة ، وفيه من الموارنة ما فيه ، لم يناد بالانتداب بل بالاستقلال .
وقد أوضح المقصود بهذا الاستقلال اديب باشا في كتابه « لبنان بعد الحرب » حيث
يقول : « استقلال لبنان في حدوده التاريخية ، على ان يكون هذا الاستقلال مضمونا
من الدول الكبرى . تلك هي اماني اللبنانيين ، فلا حكام اجانب على رؤوسهم بل
حكومة وطنية شرعية ينتخبها الشعب اللبناني وحده » (١٢) .

ثم عاد مجلس ادارة جبل لبنان للاجتماع في ٢٠ ايار ١٩١٩ واصدر قراره
الثاني الآتي (١٣) :

« ١ — المناذاة باستقلال لبنان السياسي والاداري بحدوده التاريخية والجغرافية
واعتبار البلاد المفصولة منه بلادا لبنانية كما كانت قبل سلخها عنه .

« ٢ — جعل حكومة لبنان هذه ديمقراطية مؤسسة على الحرية والاخاء
والمساواة مع حفظ حقوق الاقليات وحرية الاديان .

« ٣ — تقرر الحكومة اللبنانية علائقها الاقتصادية بين لبنان والحكومات المجاورة .

« ٤ — مباشرة درس وتنظيم القانون الاساسي بطرقه الاصولية .

« ٥ — تقديم هذا القرار الى مؤتمر الصلح .

« ٦ — اعلان هذا القرار في الجريدة الرسمية وفي غيرها من الجرائد الوطنية

تطمينا لافكار اللبنانيين وبيانا للمحافظة على حقوقهم » .

وكان رد البطريرك الحويك على جواب لجنة كينغ — كراين بالغ الوضوح

« استقلال لبنان المطلق . وان كان لا بد من مساعدة فلتكن من جانب فرنسا » (١٤) .

ثم يعود البطريرك الحويك فيؤكد هذه الفكرة بالذات في ٢٣ ايلول ١٩٢١ في
مصيفه في جديدة قنوبين وامام الجنرال غورو هذه المرة . قال البطريرك « ان لبنان

لم يحكمه قط اجنبي . فاجدادنا لجأوا الى هذه الجبال الجرداء ليدافعوا عن حريتهم
من الغزاة . وان فرنسا نفسها ارادت سنة ١٨٦١ ان تضمن لنا استقلالا تاما مع

حاكم وطني » (١٥) . كذلك كان الاعتراف باستقلال لبنان استنادا الى المذكرة الثانية
لمجلس الادارة الصادرة في ٢٠ ايار ١٩١٩ ، اولى البنود التي طالب بها البطريرك

الماروني في مذكرته الشهيرة التي تقدم بها الى مؤتمر الصلح في ٢٥ تشرين الاول ١٩١٩ .
ومن البند الرابع في هذه المذكرة يتبين لنا ان اللبنانيين ما كانوا على علم

(١٢) — Adib Pacha « Le Liban après la Guerre ». Cité par E. Jung « La Révolte
arabe » — P. 115.

(١٣) يوسف مزهر — المرجع السابق ص ٨٧٩ .

(١٤) مزهر — المرجع السابق — ص ٨٨٢ وعادت لسان الحال في عددها ٨٤٩٢ تاريخ ١٠ كانون الاول

١٩٢١ تؤكد نفس الفكرة وتضيف على لسان البطريرك « انا ناطق بلسان اللبنانيين على بكرة

ابيهم فانقول : ان اللبنانيين لا تشد تشبثا اليوم بالاستقلال منهم في اي وقت مضى . . . »

(١٥) راجع نص المذكرة البالغة ١٥ صفحة في مزهر — المرجع السابق — ص ٨٨٨ وما يليها .

بالانتداب قبل اقراره في مؤتمر سان ريمو . وقد ورد في هذا البند « ولما كان مبدا الانتداب قد تقرر في معاهدة الصلح المبرمة في فرساي يوم ٢٨ حزيران ١٩١٩ دون ان يؤثر ذلك على حقوق لبنان بالسيادة ، فيلتمس ايضا ان يعهد بهذا الانتداب الى حكومة الجمهورية الفرنسية التي تتعطف بناء على البند ٢٢ من عهد جمعية الامم بايلاء لبنان معونتها وارشادها . . . » (١٦) .

اما فكرة الاستقلال التام المطلق التي تردد صداها في بنود مجلس ادارة جبل لبنان وتصريحات البطريك الحويك وسائر الموفدين اللبنانيين الى مؤتمر الصلح فكانت تعني ايضا وبوضوح « استقلال لبنان التام تجاه كل ولاية عربية قد تقام في سوريا لان اللبنانيين كانوا على الدوام وحدة قومية متميزة عن كل جماعة من اهل جوارهم باللفة والاخلاق والميول والآداب الغربية التي عندهم . وان ايسر مبادئ العدل الاولية تفرض ان يحترم استقلال لبنان التام تجاه سوريا حيث لا شيء يجمع بين هذين البلدين لا في الماضي ولا في الاماني ولا في الرقي العقلي او السياسي » (١٧) . وراي هؤلاء في الانتداب « اذا كان مبدا الانتداب يرمي الى معاضدة الشعوب التي يطبق عليها والاسراع في ايصالها الى السعادة القومية المطلقة ، فلبنان الموضوع منذ ستين سنة تحت ادارة انتداب دولي يستحق الآن ان يكون بلادا ذات سيادة . ومع هذا فلبنان يخضع بكل طيبة خاطر لتقرير مؤتمر الصلح بشأن الادارة بمقتضى الانتداب مع حفظ حقوقه في السيادة وذلك من قبل العواطف والتهذيب لان اللبنانيين لا يمكنهم ان ينسوا الحنات التي خصتهم بها فرنسا منذ القدم كذلك العلاقات السياسية والتجارية العريقة في القدم بين البلدين . . . فاللبنانيون ، بطلبهم انتداب فرنسا ، مقتنعون كل الاقتناع ان فرنسا ستحترم استقلالهم وتعضده وتدافع عنه وتزيد رسوخا ، وانها ستاتي الى لبنان بصفة مشر نصوح وصادق ، وانها في مدة الانتداب الذي سيعد لبنان الى السيادة ستعمل على تدريب الطاقات الوطنية بتركها التنظيم والادارة والعدلية في لبنان بأيدي اللبنانيين بالذات . . . » (١٨) تلك كانت آمال البطريك الحويك في الانتداب الفرنسي وفي رغبة الكثير من اللبنانيين ، خاصة الموارنة منهم الذين كانوا يسيرون بهدي البطريك ، في الاستفادة من خبرات الفرنسيين . وقد علق الدكتور يوسف مزهر على المذكرة بقوله « ان الفرنسيين بعدما استقروا في البلاد لم ينفذوا طلبا واحدا من مطالب البطريك ولا وفوا بعهودهم له بل ضربوا بتمنياته عرض الحائط وعملوا بعكسها فمات وهو ناقم عليهم . اما النصارى ، وبالاخص الموارنة ، فلم يكونوا سببا في مجيء الافرنسيين الى هذه البلاد كما يزعم بعض المؤرخين فالفرنسيون انتدبوا على لبنان وسوريا بناء على قرار مؤتمر فرساييل ومذكرة البطريك بالغة الوضوح . . . » (١٩) .

ونحن اذ نؤيد ما جاء في كلام الدكتور مزهر نود تأكيد الامور التالية :

(١٦) مزهر - المرجع السابق - ص ٨٨٨ .

(١٧) راجع مذكرة الحويك الى مؤتمر الصلح .

(١٨) المذكرة السابقة .

(١٩) مزهر - المرجع السابق - ص ٨٩٨ - حاشية .

أولاً : ان اللبنانيين ، على اختلاف طوائفهم ، لم ينادوا بالانتداب كاستعمار او احتلال ولم يعملوا له على الاطلاق بل فرض عليهم فرضاً .

ثانياً : ان اي استفتاء لم يجر في هذا الخصوص بين اللبنانيين . والاستفتاء الوحيد الذي قامت به لجنة كينغ - كراين الاميركية اظهر نتيجتين متلازمتي الاهداف : الاولى على لسان البطريرك والقائلة باستقلال لبنان المطلق وان كان لا بد من مساعدة فلتكن من جانب فرنسا . والثانية على لسان أعضاء المؤتمر السوري الذي تمثل فيه العديد من الشخصيات اللبنانية والقائلة بالاستقلال التام وقيام مملكة سورية تضم لبنان وفلسطين وعلى رأسها الامير فيصل ، وعدم قبول اية وصاية او اي انتداب ، وعدم الاعتراف بأي حق تدعيه فرنسا في اية بقعة من المناطق السورية ورفض مساعدتها بأي حال من الاحوال ، اما اذا كان لا بد من دولة مرشدة تقدم مساعدتها الفنية للبلاد السورية فلتكن هذه الدولة اميركا . وان هذه رفضت فلتكن بريطانيا العظمى على ان هذه المساعدة لا تمس استقلال البلاد التام ووحدتها وعلى الا تزيد عن ٢٠ سنة ... » (٢٠) .

ثالثاً : ان استقلال لبنان كان يعني في نظر البطريرك الحويك والمؤيدين له انفصالاً عن سوريا كما جاء في مذكرته ، في حين كان الفرنسيون يحاولون دوما ابقاء لبنان جزءاً لا يتجزأ من سوريا الاشكليا . فأبقوا ادارة بيروت مركز جميع الدويلات السورية ولبنان ، كذلك في الاتفاقيات الاقتصادية والجمركية والخارجية . كما حاول دو جوفنيل عام ١٩٢٦ اعادة الاقضية الاربعة الى سوريا عن طريق استفتاء شعبي كان يعني بالضرورة - لو حصل - اعادة ضمها اليها بسبب ازدياد نفوذ الحركة الوحودية في تلك المناطق الراقضة أساساً لفكرة الانتداب والموالين له .

رابعاً : ان التستر بالطائفية كان وراءه الفرنسيون من جهة ورجال الدين الموارنة من جهة ثانية . فالفرنسيون كانوا يخططون لبقاء لبنان قاعدة اساسية لتوسيعهم الاقتصادي والثقافي والسياسي نحو الداخل السوري والعراقي ، والاكليروس الماروني خاصة كان يخطط لتوجيه السياسة اللبنانية وجهة انشاء وطن قومي مسيحي مستقل عن سوريا وباقي المناطق العربية ومدعوم من جانب الفرنسيين ، ويكون هذا الوطن استمراراً تاريخياً لنظام المتصرفية بالذات الذي اقر لرجال الدين هؤلاء بدور بارز في مجرى السياسة اللبنانية لم يكن لهم حتى ذلك التاريخ . ان تصور لبنان المستقل في رأي دعاة هذا التيار لم يكن سوى متصرفية جديدة . « فلبنان - يقول البطريرك الحويك - كان وسيبقى وطناً مسيحياً ، فليس لهم الاه وطن في جميع الدول الشرقية » (٢١) . وقيام لبنان الكبير استند الى حد بعيد على تقاليد فرنسا الشرقية في ظهورها بمظهر المدافع عن المسيحيين (٢٢) .

(٢٠) راجع هذه القرارات للجنة كينغ - كراين في مزمهر - المرجع السابق - ٨٨١ - ٨٨٢ .

(٢١) - Cité par E. Rabbath « Unité Syrienne et devenir arabe » - P. 168.

(٢٢) Voir : E. Rabbath - Op. Cit. - P. 187.

ب - في الخارج :

نشطت خارج لبنان حركة سياسية واسعة في صفوف المهاجرين اللبنانيين ، خاصة في مصر والاميركيتين حيث ائتف السوريون واللبنانيون عدة احزاب وجمعيات سياسية تراوحت برامجها بين المطالبة بالاستقلال التام لسورية الموحدة والتي تشمل على فلسطين ولبنان ، وبين المطالبة باستقلال جبل لبنان وضم ولاية بيروت اليه وبعض الاقضية التابعة لولايتي دمشق وبيروت .
ومن ابرز الاحزاب التي نشأت خارج لبنان خلال تلك الفترة :

١ - حزب سوريا الفتاة (٢٢)

نشأ هذا الحزب في نيويورك في أواخر ١٨٩٨ . وتعارف مؤسسه الاربعة : شبل دموس (زحلة) ، ويوسف شديد ابي اللمع (فالوغا) وجميل العلوف (زحلة) وعيسى مخائيل الخوري (بحدون) - عن طريق الصحافة . وكانوا يبشرون باستقلال سوريا استقلالا تاما وتحريرها من نير الاتراك . وكانت أفكارهم جميعا مستوحاة من مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى لعام ١٧٨٩ ويتنادون فيما بينهم باسم « أخوان الجهاد » ومن شعاراتهم « اما الحرية واما الموت » و « انا نجاهد في سبيل تحرير الوطن من نير عبودية السلطان السفاح » و « أبناء العرب يريدون ان يعيشوا احرارا في وطنهم لينعموا بالعدل والثقافة والخير ... » .
اما القانون الاساسي لهذا الحزب فقد تحدد بالنقاط التالية (٢٤) :

١ - السعي لاستقلال سوريا بحدودها الطبيعية اي من راس العقبة الى عريش مصر .

ب - التفاهم مع باقي الاقطار العربية لايجاد الاتحاد العربي .

ج - فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية فضلا تاما .

د - ضبط جميع املاك رجال الدين وتميين معاش يقوم باحتياجاتهم والانتفاع بما تبقى من ثروة المؤسسات الدينية الطائفة لانشاء المشاريع العامة كالمدارس الوطنية ودور الكتب والمستشفيات ودور المعزة .

هـ - توحيد طريقة التعليم في الانحاء السورية كافة .

و - جعل الخدمة العسكرية اجبارية لان الشعب الذي لا جندي له لا وطنية له .

يتبين من هذه المبادئ ان الحركة السياسية للبنانيين في المهجر الاميركي ، والتي دارت بمعظمها في الفلك الوحدوي بين سوريا ولبنان ، ستستمد برامجها من الاسس التي ارتكز عليها « حزب سوريا الفتاة » الذي لم يعمر طويلا . لذا اعتبرنا

(٢٢) يوسف يزبك « اول حزب عربي قال « اما الحرية واما الموت » - الطريق - المجلد الاول - الجزء الرابع الصادر في ٢٠ شباط ١٩٤٢ - ص ٣ .

(٢٤) يزبك - المصدر السابق - الطريق - المجلد الاول - الجزء العادي عشر - حزيران ١٩٤٢ - ص ٧ - ٨ .

هذا الحزب مقدمة ضرورية لفهم الحركة السياسية اللاحقة للمفكرين اللبنانيين في المهجر الاميركي .

وبالرغم من الطابع الاصلاحى الواضح لهذا الحزب فقد كان الاتراك ينظرون اليه بحذر خاصة وان دعوته الاستقلالية الرامية الى انفصال اجزاء عن الدولة العثمانية كانت تتعارض واهداف « تركيا الفتاة » لذا حاربوه منذ البداية . لكن وجود الحزب في الديار الاميركية ابقاه بمعزل عن اضطهاد عبدالحميد واعوانه ولم يجد الحزب صدى حقيقيا له الا في مصر وبشكل سري . وكان اكثر المتحمسين له المفكرون السوريون العاملون في حقل الفكرة العربية العلمانية وبرزهم آنذاك سليم سرکيس (٢٥) صاحب جريدة « المشرق » الواسعة الانتشار . فاذاغ بيانا بتوقيع « حزب سوريا الفتاة » بالقاهرة عام ١٨٩٩ صدّره بالرأية السورية المرسومة في نيويورك والمشكلة من الالوان الثلاثة : الاحمر فالابيض فالبنفسجى في خطوط مربعة وفي وسطها نجمة بيضاء اعتبروها « نجمة بيت لحم » تيمنا بالنجمة التي اهدت الجوس الى المغارة . لكن الدعوة لم تعمّر طويلا في مصر وسرعان ها هرب سليم سرکيس الى باريس في صيف ١٨٩٩ . اما في نيويورك فقد بقي الحزب سريا ايضا . وكان لدعوته الى العلمانية ما اثب عليه رجال الدين الذين ناهضوا مبادئه من على المذابح وفي المجتمعات والمعابد ولم يعمر الحزب سوى سنة وبعض الثانية (٢٦) وتفرق مؤسسوه الاربعة .

٢ - الحزب الوطنى العربى :

كان يطالب بالاستقلال التام لكل الاقطار العربية على طريقة اللامركزية لتؤلف الولايات المتحدة العربية . وكان يقف ضد كل حماية او وصاية او رقابة او انتداب . وبلغ عدد المشتركين فيه بنحو ٦٠ الفا (٢٧) . كان مركزه بيونس ايرس في الارجنتين وله فروع كثيرة في معظم انحاء القارة الاميركية . وكان بين اعضائه العديد من اللبنانيين ومن كافة الطوائف السورية واللبنانية .

ان القول بان عدد المشتركين فيه قد ناهز ٦٠ الفا قول مبالغ فيه جدا . بيد ان هذا الحزب كان له وجود فعلى بين المهاجرين العرب في اميركا وشارك في المؤتمر السوري العام الذي عقد في جنيف عام ١٩٢٢ عن طريق ممثله طعان العماد ، وكان الحزب رافضا لفكرة الانتداب الفرنسى على سوريا ولبنان .

٢٥١) يزبك - المصدر السابق - الطريق - المجلد الاول - الجزء الخامس - الصادر في ٦ شباط ١٩٤٢ - ص ٤

٢٦) يزبك - المصدر السابق - الطريق - المجلد الاول - الجزء ١١ - حزيران ١٩٤٢ - ص ٨ .

٢٧) جريدة الحقيقة البيروتية - العدد ١٢٦٢ الصادر في ٦ آذار ١٩٢٠ .

٣ - الجمعيات السياسية في المهجر الاميركي (٢٨) :

ابرزها : جمعية الاتحاد اللبناني التي طالبت باستقلال لبنان الكبير استقلالا مطلقا مضمونا من الدول الاربعة : فرنسا وانكلترا واميركا وايطاليا . وكانت تقف ضد كل حماية ووصاية وتعارض السياسة الفرنسية وترفض كذلك الوحدة السياسية والاقتصادية مع سوريا .

« الحزب الديمقراطي » وهو جمعية تقول عنها « الحقيقة » اسم بلا حجم . رئيسه وامين سره وامين صندوقه الدكتور خليل سعاده . والحزب يطالب باستقلال سوريا استقلالا تاما والمحافظة على وحدتها الطبيعية ورفض الانتداب او الوصاية عليها .
« التحالف اللبناني » جمعية سياسية اسسها افراد لبنانيون انشقوا عن جمعية الاتحاد اللبناني ووالوا السياسة الفرنسية وروجوا لها في المهجر . وقد حصرت الوكالة الفرنسية في هذه الجمعية وفي « الجامعة السورية » الموالية ايضا للفرنسيين و « للجمعية السورية المركزية » في باريس التي يرئسها شكري غانم ، امر اعطاء شهادات الهوية للبنانيين والسوريين الذين يريدون العودة الى بلادهم او السفر الى اوروبا لقضاء مصالحهم التجارية .

« جمعية النهضة اللبنانية » طالبت بتوسيع حدود لبنان وتدعيم استقلاله وجعله امانة ذات علم خاص وجعل اميره اوروبيا كما كان ايام المتصرفية .
ان هذه الجمعيات في المهاجر تأثرت دون شك بفكرة استقلال الاقطار العربية عن الدولة العثمانية بالدرجة الاولى . وكانت تتفاوت اهدافها بين الاستقلال المطلق لسورية الموحدة او الولايات العربية على اساس اللامركزية ، وبين استقلال لبنان وانفصاله التام عن سوريا . اما بالنسبة للانتداب فكان هناك رفض صريح للانتداب الفرنسي لدى غالبية المهاجرين اللبنانيين والسوريين ما عدا اقلية ضئيلة منهم عملت لذلك الانتداب وايدته . اما الانتداب الاميركي على سوريا ولبنان او المعونة الاميركية فكان من الطبيعي ان يلاقي رواجا كبيرا بين هؤلاء المهاجرين بسبب وجودهم هناك والضغط الاميركي لايجاد سند له من المحليين المناادين بضرورة هذا الانتداب وبأن الولايات المتحدة هي افضل الدول على الاطلاق للقيام بهذه المهمة .

٤ - في مصر (٢٩) :

كان « حزب الاتحاد السوري » من ابرز الاحزاب التي اسسها المهاجرون

(٢٨) الحقيقة - العدد ١٢٦٢ الصادر في ٦ آذار ١٩٢٠ و المنار - المجلد ٢١ - الجزء الرابع - مقالة « المسألة السورية والاحزاب » ص ٢٠٥ .

(٢٩) المنار - المجلد ٢١ - الجزء الرابع - مقالة « المسألة السورية والاحزاب » - ص ٢٠٢ وما يليها .

ورشيد رضا « الثورة السورية والحكومة الفرنسية والتنازع بين الشرق والغرب » - المنار - مجلد ٢٦ - الجزء ٨ - شباط ١٩٢٦ - ص ٥٨٩ وما يليها .

اللبنانيون والسوريون في مصر . وكان هذا الحزب يضم في صفوفه المسلمين والمسيحيين دونما تمييز . وارتكز برنامج الحزب السياسي على الاستقلال التام لسورية الموحدة ورفض اية وصاية او حماية او انتداب . ولعب الحزب ، عن طريق اعضائه الكثر داخل سوريا ولبنان ، دورا بارزا في المؤتمر السوري المنعقد في دمشق عام ١٩١٩ .

ثم « الحزب الوطني اللبناني » : كان يقول بوحدة سوريا ولبنان وفلسطين وبمساعدة الولايات المتحدة الاميركية لهذه الوحدة . أرسل برقية للجنة الاميركية للاستفتاء في ١٩ تموز ١٩١٩ يقول فيها « الانفصال عن سوريا في السلم فقر وشقاء ، وفي الحرب موت وفناء » (٢٠) .

اما « الحزب اللبناني » او « الحزب السوري - الفرنسي في مصر » فهو الحزب الذي أسسه عبدالله صفر ، والذي اطلق عليه الوجدويون لقب « الحزب الفرنسي » وعلى صاحبه « صديق الفرنسيين » . كان الحزب يطالب بجعل سوريا ولبنان وفلسطين مملكة مستقلة واحدة تحت ادارة فرنسا ووصايتها . اقتصر الحزب على اللبنانيين لمسيحيين . وتقول المنار ان هذا الحزب « لم يكن يضم في صفوف مؤسسيه سوى حتى اعظم ومختار الجزائري من المسلمين » .

« الحزب الحر المعتدل » كان يطالب بوحدة سوريا تحت وصاية الولايات المتحدة الاميركية ايضا وكان على ارتباط وثيق بالحزب الوطني اللبناني .

اما ابرز الجمعيات السياسية هناك فكانت « جمعية الاتحاد اللبناني » التي طالبت الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى بحقوق لبنان المتصرفية، ثم تحولت بعد الحرب لمطالبة الحلفاء باستقلال الجبل وتوسيع حدوده وجعله تحت حماية الدول الكبرى ، كما كان عليه قبل المتصرفية ، مع تعيين حاكم وطني عليه .

يتبين لنا ان الاحزاب والجمعيات السياسية خارج لبنان كانت تعمل باتجاهين: الاول وحدوي عربي وهو الخط المستمر لجماعة القومية العربية على اساس علماني والذي عبرت عنه جريدة الحقيقة بالقول : « يجب ان تكون احزابنا من الان فصاعدا من ابناء الوطن بصرف النظر عن الدين . فيكون الحزب مؤلفا من مسلمين ومسيحيين معا حتى تتوثق بهذا التماس والاجتماع عرى الروابط الوطنية والقومية العربية » (٢١) . وكانت هذه الاحزاب تسمى باستمرار للوحدة السورية والاستقلال التام دون اية وصاية او انتداب . وقد وجد هذا التيار انعكاسا شعبيا له في الداخل تجسد بالمؤتمر السوري العام . وكان هذا التيار بالغ القوة طيلة السنوات الثلاث ١٩١٨ - ١٩٢٠ التي تلت نهاية الحرب العالمية الاولى وسبقت معركة ميسلون . وكان دعاة هذا التيار من جميع الطوائف والوجه الأكثر بروزا للحركة السياسية في سوريا ولبنان وفلسطين . وبالمقابل كانت الجمعيات ولاحزاب السياسية التي تناصر الفرنسيين وتؤيد انتدابهم ، ضعيفة النفوذ جماهيريا ويقتصر نشاطها على المسيحيين عامة والوارثة بشكل خاص . وقام الفرنسيون بدعم هذا التيار بجميع الوسائل . وكان دعائه

(٢٠) الحقيقة - السنة ١١ - العدد ١١٢٥ الصادر في ١٩ تموز ١٩١٩ - ص ٢ .
(٢١) الحقيقة - السنة ١١ العدد ٩٨٢ الصادر في ٥ كانون الاول ١٩١٨ - الصفحة الاولى .

ينقسمون بين الدعوة للاستقلال التام للبنان ومساعدة فرنسا وحمايتها لهذا الاستقلال، وبين الدعوة للانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان وفلسطين . ومهما يكن من امر هذه الحركة السياسية خارج الدول العربية فإن تأثيرها بقي ضعيف النفوذ . وجاء الوجود العسكري الفرنسي المكثف بعد الاتفاق الانكليزي - فرنسي لعام ١٩١٩ بطلب ابادي الفرنسيين لضرب الحركة الوحدوية السورية من جهة ودعاة الاستقلال اللبناني « التام المطلق » من جهة اخرى واضحت الحركة السياسية في الخارج اسيرة الرفض المطلق للانتداب ، ذلك الرفض الذي تجسد بمؤتمر جنيف ١٩٢٢ والذي سرعان ما تلاشى بعد ان قام الفرنسيون بترسيخ اقدامهم عسكريا واقتصاديا وسياسيا على سوريا ولبنان ، وبعد ان تنكر الانكليزي والاميركيون للحركة الوحدوية السورية لصالح الانتداب الفرنسي والتضييق على دعاة هذه الوحدة داخل مناطق نفوذهم .

غورو يحسم الموقف لصالح دعاة الانفصال ومؤيدي الانتداب

ان اتفاق ايلول ١٩١٩ ، وتمييز غورو مفوضا ساميا في سوريا ، ومؤتمر سان ريمو ، ومعركة ميلون واضعاف الحركة الوطنية الوحدوية عسكريا ، والوجود العسكري الفرنسي الكثيف وغيرها، مهدت الطريق للفرنسيين واصدقائهم كي يفرضوا انتدابهم على مجمل الحركة السياسية في سوريا ولبنان . وانقسم السكان الى فئتين كبيرتين : الاولى ترفض الانتداب والتجزئة وتنادي بالوحدة والاستقلال . هذه الفئة وقفت منذ البداية ضد الفرنسيين وضد اي شكل من اشكال التعاون معهم ، وتمثلت بالمقاومة العسكرية الملحة ، والعصابات الوطنية ، والمقاطعة السياسية ، وارتدت احيانا طابعا طائفا اسلاميا واضحا . وكان الوجود المسيحي فيها ضعيفا ويكاد يكون نادرا في صفوف الموازنة بشكل خاص .

اما الفئة الثانية ، فهي التي قبلت بالانتداب وعملت من اجله ، ودعمته في الداخل والخارج . وقد تمثلت باليسوعيين ، وذوي الثقافة الفرنسية ، ودعاة الانفصال اللبناني عن سوريا . هذه الفئة ارتدت ايضا طابعا طائفا مسيحيا مارونيا في معظم الاحيان . وهذا التيار ينقسم بدوره الى عدة فروع : فمنهم من ينادي بالاستقلال للبنان ومساعدة فرنسا فقط وبحاكم وطني لبناني مع مساعدة فرنسية ، ومنهم من دعا الى تأييد خطوات الانتداب مهما كانت ، ومنهم من نادى باستقلال لبنان سياسيا عن سوريا مع الترحيب الكامل بالتعاون الاقتصادي معها الى ابعد الحدود (٢٢) .

وحدهم الفرنسيون كانوا يعرفون ما يريدون: فهم يريدون لبنان كبيرا لا صغيرا، لكنهم يريدون اتحادا سوريا اقتصاديا لا ينفصل عنه لبنان بل يشكل واجهته التجارية نحو الخارج . وهذا ما اكده غورو بقوله : « انكم ، ايها اللبنانيون ، متمسكون باستقلالكم ومناكدون ان لا شيء يقدر ان يهدده . لكنكم اذكي من ان تنكروا حاجتكم الى سوريا وحاجة سوريا اليكم ، وان الاتحاد الاقتصادي هو ضرورة حيوية لاجل البلدين ... »

(٢٢) جورج حنا - « من الاختلال الى الاستقلال » ص ٢٢ .

وانني آمل بزوال المنافسة بين الطوائف لأن بقاءها يضعف لبنان الكبير . . . » (٢٣)

ثم يصرح بعد شهرين من ذلك في دمشق « انني لا اذكر من ضمن دول الاتحاد، لبنان الذي جعلته تقاليدته الخاصة يتطور خارج الاتحاد السوري، وبمشاركة اقتصادية فقط معه ، حتى يأتي اليوم الذي يقرر فيه بنفسه الانضمام الى هذا الاتحاد » (٢٤) .

ان فكرة انضمام لبنان الى الاتحاد السوري بقيت تتكرر في تصريحات الفرنسيين طيلة المرحلة الانتدابية . لاولي ، حتى ان دو جوفيل اضطر في عام ١٩٢٦ للاعتراف باستفتاء عام يجري في الأفضية الاربعة التي الحقت بلبنان عام ١٩٢٠ والسماح لها بتقرير مصيرها في الوحدة او الانفصال عن سوريا (٢٥) . وجاء ضغط الأكلروس الماروني خاصة ليجبر دو جوفيل على التراجع عن هذا الاستفتاء ، الذي لو تم لكان اعيد جميع المناطق الاسلامية التي الحقت بالتصرفية الى سابق وجودها داخل الوحدة السورية .

وبرأي رباط « ان فرنسا كانت تحاول خلال تلك المرحلة اقناع الموارنة بفائدة الاتحاد الكامل مع سوريا وبأن الجنرال غورو حاول اقامة نوع من « التوازن الدائم انتوتر » (٢٦) بين الطوائف الدينية اللبنانية . فتلخصت سياسة الفرنسيين باتجاهين رئيسيين : الأول ضرب التيار الوحدوي العربي عن طريق النفي والحكم الغيابي . وكان ابرزهم في لبنان رياض الصلح الذي حكم غيايبا بالسجن خمس سنوات وتفرغ به بمليون واربعمائة الف فرنك فرنسي مع نفقات المحاكمة ، وذلك لقيامه برشوة اعضاء مجلس ادارة لبنان في حادثتهم المشهورة » (٢٧) .

اما الاتجاه الثاني فاعتمد على ضرب دعاة الاستقلال التام للبنان . حتى ان عبدالله صفيح ، مؤسس « الحزب السوري - الفرنسي في مصر » والذي كان يطلق عليه الوحدويون اسم « الحزب الفرنسي » ، طاله انتقام غورو ، فوصف عهده بالقول « جميع الذين ضحوا بحياتهم من اجل لبنان يوم كانت فرنسا بعيدة جدا عنه ، كان الجنرال غورو يحتقرهم ويحقتهم » (٢٨) . وقد اتضحت سياسة الفرنسيين تماما مع محاولة اليسوعيين اغلاق جامعة دمشق العربية ، ووقوف غورو وادارته في وجه تلك المحاولات آخذا بعين الاعتبار لا مصلحة اليسوعيين فحسب ، بل مصلحة السياسة الفرنسية عامة والتي كانت تسعى لكسب ود السكان المحليين خاصة بين اوساط الزعماء المسلمين الرافضين لانتدابها ولقيام دولة لبنان الكبير بالذات .

H. C. « La Syrie et le Liban en 1921 » — P. 19.

(٢٣)

راجع ايضا لسان الحال العدد ٨٣٠٢ تاريخ ٢ ايار ١٩٢١ .

— Gouraud — Discours-programme à Damas. Le 20 Juin 1921.

(٢٤)

(٢٥) عادل اسماعيل « السياسة الدولية في الشرق العربي » الجزء الخامس ص ١١١ — راجع ايضا ابراهيم حرفوش « دلائل العناية الصيدانية » ص ٦٦١ .

(٢٦) رباط — مقابلة خاصة .

(٢٧) لسان الحال — عدد ٨١٩٥ — تاريخ ٨ كانون الاول ١٩٢٠ — كذلك اسكندر رياشي « رؤساء لبنان

كما عرفتهم » ص ٥٤ .

— A. Sfeir « Le mandat français... » — P. 49.

(٢٨)

النضال ضد الانتداب يوحد بين الوطنيين من جميع الطوائف

اقصت ادارة المفوضية العليا الفرنسية جميع العناصر الوطنية الداعية الى الاستقلال التام عن الادارة بحجة عدم الكفاءة والاختصاص وابتقت العديد منهم خارج حدود لبنان (٢٩) ، فحددت سياستها بين فريقين التطرف : فهي ضد دعاة الاستقلال التام والانفصال عن سوريا وضد دعاة الوحدة الشاملة والاندماج في سوريا . هكذا وجه الفرنسيون سياستهم الانتدابية بوضوح ومنذ البداية . فهم يريدون لبنان الكبير مستقلا سياسيا عن سوريا لكنه مرتبط معها اشد الارتباط اقتصاديا . هم يريدونه منطلقا لرساميلهم وتجارتهم نحو الداخل السوري - العراقي وليس معزولا عن هذا الداخل بالذات . لقد اصيب دعاة الاستقلال التام في لبنان بخيبة امل مريرة ، وتحددت آفاق العمل السياسي ، كما رسمها الفرنسيون بالذات ، بتيارين لا ثالث لهما : موالٍ للانتداب ويرهن مصيره به ، او معارض له ويسعى الى ازالته . وفي هذا المجرى بالذات تحددت وتطورت آفاق الحركة السياسية في لبنان في ظل الادارة العسكرية لفرنسا المنتدبة . اما «استقلال لبنان» الذي كان يحلم به العديد من اللبنانيين ، في الوطن والمهجر ، فقد عبر عنه الشيخ ابراهيم المنذر بصدق في عام ١٩٢٢ حين قال قصيدته الشهيرة بعنوان « استقلال بيطنه انتداب » جاء في خاتمتها :

« قد كان لي وطن أزهو به شرفا واحرّ قلبي على فقدان اوطاني
قالوا : استقل بنا لبنان ، قلت لهم : بالوهم ادركتم استقلال لبنان » (٤٠)

ان سياسة الانتداب تلك كانت تخطط الى البقاء في لبنان وسوريا بقدر ما تسمح الظروف بذلك . اما ما قيل عن مرحلة الانتداب واعطاء المكان المحليين استقلالهم التام فكانت وعودا غير قابلة التنفيذ . هذه المنطلقات السياسية للانتداب دفعت المعارضين الوطنيين من جميع الطوائف الى الاصطدام المباشر بها وتعريضها وكشف الوجه الاستعماري لها . وبقدر ما كانت تشتد الازمة الاقتصادية والسياسية في لبنان وسوريا وخارجهما بقدر ما كانت ادارة الفرنسيين تسفر عن وجهها الحقيقي وتكشف زيف الادعاءات والوعود التي نادت بها ، وسرعان ما تنخرط في النضال ضدها اعداد جديدة من اللبنانيين والسوريين . وبقيت الازمات تشتد حتى انفجرت في معركة الاستقلال حين كانت الظروف الدولية مؤاتية تماما لهؤلاء المعارضين للانتداب كي ينفذوا الى السلطة في لبنان لتبدأ معركة جديدة من النضال الاجتماعي الديمقراطي العام ، وتبدأ معها بداية النهاية للانقسام الطائفي السابق .

— G. Samné « La Syrie » — P. 585.

(٢٩)

(٤٠) عن كتاب جورج حنا « من الاحتلال الى الاستقلال » ص ٢٠ .

١ - التيار الطائفي الرفض لعروبة لبنان

كانت أولى المحاولات لتأليف حزب سياسي داخل لبنان أيام الانتداب تلك التي انبثقت عنها « حزب الترقى اللبناني » (٤١) الذي تأسس في بيروت في كانون الأول ١٩٢٠ . وقد رفع الحزب شعارا واحدا « صداقة دائمة بين لبنان وفرنسا » . أما برنامجها السياسي فقد انطوى على ثلاث نقاط :

١ - حماية الاستقلال السياسي للبنان بمساعدة الانتداب الفرنسي .

٢ - الدفاع عن حرية الأديان في لبنان .

٣ - تحديد النسبة التمثيلية في الانتخابات النيابية حسب المرسوم الذي يصدر عن ادارة الانتداب . وتشكلت اللجنة التنفيذية لهذا الحزب في بيروت من ١٥ عضوا بينهم الماركيز جان دو فريج رئيسا ، ونعوم باخوس نائبا للرئيس ، واميل اده امينا للسر ، واميل قشوع مدير بنك سوريا ولبنان امينا للصندوق .

أما أبرز أعضاء الحزب الآخرين فمنهم : المصرفي ميشال شبحا ، والمحامي بشاره خليل الخوري ، والمحامي الفرد نقاش ، والتاجر - الشاعر شارل قرم ، والدكتور شكري قرداحي ، واميل عرب ، والفونس زينيه وغيرهم . وسيلعب أعضاء هذا الحزب دورا بارزا في السياسة المحلية طيلة أيام الانتداب ويكفي ان تؤكد في هذا المجال ان اميل اده ، وبشاره خليل الخوري ، والفرد نقاش سيتولون زمام رئاسة الجمهورية في ظل الانتداب وبعده .

لقد ارتدى هذا الحزب وجها مسيحيا مارونيا بشكل خاص ، ولم يبرز اي وجود اسلامي بين اعضائه (٤٢) . وكان وجود اميل اده في امانة سر هذا الحزب يعبر بوضوح عن دعم الفرنسيين له ، كما يقول اسكندر رياشي . « فاميل اده كان يمثل بنظر الفرنسيين ، وظل كذلك حتى وفاته ، فرنسا المشرق ، فرنسا مع تقاليدها وعلاقاتها وحماتها للنصارى وعلى الأخص للموارنة في لبنان » (٤٣) .

أما اليسوعيون فساندوا الحزب بشدة في صحافتهم ولدى أبناء بلدهم المنتدبين ، لأن حزب الترقى في نظرهم « سيكون صلة الوصل بين الحكومة والامة (اللبنانية) وكذلك بين جميع الطوائف الدينية » (٤٤) .

ان حزب الترقى اللبناني ، نظرا للأهداف التي وضعها في برنامجها ، كان حزبا

(٤١) « لسان الحال » - العدد ٨٢١٠ الصادر في ٢٠ كانون الأول ١٩٢٠ - و « البشير » - العدد ٢٦٦٣ ، الصادر في ٤ كانون الثاني ١٩٢١ .

(٤٢) اسكندر رياشي - « رؤساء لبنان كما عرفتهم » ص ٦٧ .

(٤٣) الرياشي - مصدر سابق - ص ٦٨ .

(٤٤) البشير - العدد ٢٦٨٣ الصادر في ٢٤ شباط ١٩٢١ .

اصلاحيا يعتمد في سياسته ووجوده على دعم الائتداب الفرنسي .
 ثم قام اللبنانيون في دمشق بتأسيس ناد لهم هناك أسموه « النادي العربي
 الماروني في دمشق » برئاسة الدكتور مرشد خاطر ، والأمير نسيب شهاب في
 نيابة الرئاسة ، وميشال سعد في امانة السر . وكان من اعضائه البارزين : حبيب
 برهوم ، يوسف الجميّل ، ميشال صادر ، داود الشمالي ، بطرس مسابكي ، جميل
 لحدود ، يوسف بيروتي ، ميشال ابو راشد . وقد اتخذ هذا النادي دمشق مركزا له
 منذ ١٩٢٢ ، وكان ذا صبغة مارونية واضحة كما تدل تسميته ، ورفع شعارا واحدا
 « من اجل الائتداب الفرنسي على سوريا ولبنان » .

كان دعاة هذا التيار يؤكّدون على فصل لبنان سياسيا عن محيطه العربي .
 ونشطت اقلّام العديد منهم بالدعوة الى أمجاد فينيقيا وإبراز محاسن الحروب
 الصليبية التي أظهرت استقلالية المسيحيين في لبنان . وكانت الفكرة التي تتكرر
 في جميع كتاباتهم ان لبنان كان مستقلا عن العرب عامة وسوريا خاصة عبر جميع
 العصور التاريخية ، وان اللبنانيين ليسوا عربيا بل فينيقيون . كما رفض الاعتراف
 بعروبة الفينيقين كذلك . ولم يخف هؤلاء عداؤهم الصريح لعروبة لبنان ووحدته
 مع سوريا بل تهافتوا حول فكرة الاستقلال التاريخي للبنان المسيحي تجاه العالم
 العربي المسلم . وبراي هؤلاء ، ان لبنان لم يكن عربيا في الماضي ، كما لم تكن لغته
 عربية بل فينيقية . ومنذ تشرين الاول ١٩٢٠ نظم متري المر نشيدا فينيقيا (٤٦) ،
 الذي أطلق عليه آنذاك لقب النشيد الوطني اللبناني . في الوقت الذي كان فيه
 الشاعر شارل قرم يكرس قسا كبيرا من ديوانه « الجبل الملم » للأشادة بالجنرال
 غورو ، وبفرنسا ، وبفينيقيا ، والذي نال على أساسه ، ديوانه ذلك ، جائزة ادغار
 آلن بو للأدب . فاللغة اللبنانية عنده هي لغة الفينيقين « لغة الفينيقين يا لفتي
 اللبنانية » (٤٧) . . و « لو ذكّرت أهلي بأجدادنا الفينيقين » (٤٨) . . و « هذه
 فينوس ميلو ! هذا نصر ساموتراس ! هذا هو الجنرال غورو » (٤٩) !

ان هذا التيار لم يلاق رواجا الا في صفوف الموارنة دون سواهم ، وبقيت هذه
 الدعوة محصورة داخل أسوار المدارس اليسوعية حيث « حملت الناشئة المسيحية
 — كما يقول الياس ابو شبكة — على الاعتقاد ، من جراء حصر الدعوة في ما انطوى
 عليه التاريخ الفرنسي من الفضائل ، بأن تاريخها لا يرتبط بتاريخ العرب ، جاهلة
 انه من خطل الرأي القول بأن تاريخ العرب هو تاريخ الأمة الاسلامية دون سواها » (٥٠) .

(٤٥) لم يكن هناك فارق كبير بين الحزب والنادي والجمعية وغيرها من التسميات حتى ان القانون
 العثماني الصادر ١٩٠٨ ، والذي ما زال ماري المفعول حتى اليوم ، يرخص للأحزاب السياسية
 باسم جمعيات .

(٤٦) نشرته « لسان الحال » في عددها ٨١٦٢ الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٣ .
 (٤٧) — Charles Corm « La Montagne inspirée » — P. 41.
 (٤٨) — Ibid — P. 53.
 (٤٩) — Ibid — P. 20.

(٥٠) الياس ابو شبكة « روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب » ص ٥٧ .

وهكذا كان دعاة الفينيقية في ذلك العهد ، بمساندة الفرنسيين ، يعملون على اظهار لبنان وكأنه غريب عن البلاد العربية الاخرى سواء في السياسة الداخلية ام الخارجية . وبدا لبنان في نظر دعاة العروبة والعلمانية وكأنه لطائفة دون اخرى (٥١) ، بالرغم من جميع التصريحات والبيانات الفرنسية التي كانت تصر ، وفي جميع المناسبات ، على ضرورة ربط لبنان اقتصاديا بسوريا والعالم العربي الشرقي .

٢ - في النقابات :

١ - بين عمال الصناعات والمهن

منذ بداية الانتداب ، انشئ في لبنان « حزب العمل العام في لبنان الكبير » . ويسمى ايضا « بحزب العمال العام » وهو الذي خلف « اتحاد العمال العام » وحدد برنامجه كما يلي « تحسين ظروف الحياة للعمال » (٥٢) .

وقد توسل هذا الحزب طريق التعاون بين العمال وأرباب العمل ، بين الحزب والحكومة . كما كانت خطته تنطوي على عرض مطالب العمال على الحكومة « بالطرق الشرعية » . وتتلخص سياسة هذا الحزب ان « على أرباب العمل والعمال ان يؤلفوا طرفا واحدا في الحزب لان لهم مصلحة واحدة » . اما في التطبيق العملي ، فكانت الهيئة الادارية التنفيذية لهذا الحزب تقتصر فعليا على غير العمال وذلك بسبب قيمة الاشتراكات الباهظة التي حددها نظام الحزب الداخلي اذ نص على ان من يدفع خمس ليرات لبنانية - سورية يصبح عضوا عاملا ، ومن يدفع خمس عشرة ليرة يصبح عضوا مؤسسا له الحق في الانضمام الى لجنة الحزب التنفيذية . وبهذا الشكل ابعد العمال عن قيادة الحزب ولم يكن لهم وجود فعلي فيه ، ولم يكن للحزب من الحركة العمالية سوى التسمية فقط في حين اطلق عليه العمال التقدميون لقب « حزب الصيفي » (٥٣) ، نظرا لموقعه في تلك المنطقة البيروتية .

ويصر ابراهيم بك الاسود (!) على اعتبار نفسه الرئيس العامل لهذا الحزب . و ابراهيم الاسود كان عضوا في مجلس الادارة السابق لجبل لبنان ونائبا عن مدير المصارف في لبنان الكبير . وكتب يقول « ... من جملة اعماله بعد الاحتلال انني خدمت حزب العمال في بيروت بضع سنوات بصفتي رئيسا عاملا له ، وكان رئيسه الفخري حضرة انيس بك الهاني . وقد اسسنا له فروعاً عديدة ، ولاقي في عهدنا ازدهارا كبيرا » (٥٤) .

لقد تراس هذا الحزب سعادة انيس بك الهاني (!) عام ١٩٢٠ ، وشارل بك سرسق (!) في عام ١٩٢١ ، في حين كان سكرتيره العام الدكتور الياس بمقليني (!)

(٥١) محمد جميل بيهب « لبنان بين مشرق ومغرب » ص ١٧ .

(٥٢) ابراهيم الاسود « تنوير الازهان » المجلد الثاني - ص ٢٤٥ - وما يليها .
et Jacques Couland « Le mouvement syndical du Liban... » - P. 83-86.

(٥٣) يوسف ابراهيم يزبك - مقابلة خاصة . راجع نواد الشمالي « نقابات العمال » - ص ٤٢ .

(٥٤) تنوير الازهان - المصدر السابق - ص ٢٤٥ .

ومن اعضاءه البارزين الدكتور حبيب ثابت (١) والوجهاء : سليم باز ، ومحمود حماده و ابراهيم الاسود وميشال شدياق ، واسعد الدقوني ، و خليل باخوس ، والياس الخنيكاني وغيرهم (٥٥) .

وكان شعار حزب العمل العام والذي يسمى كذلك بحزب الشفيلة للبنان الكبير « الله والانسانية » واشتمل برنامجه على النقاط التالية (٥٦) :

« ١ - الدفاع عن علم لبنان المؤلف من الالوان الفرنسية مع الازرة اللبنانية .

٢ - الدفاع عن السيادة الفرنسية على سوريا .

٣ - اقامة علاقات اقتصادية وتجارية وعلاقات صداقة بين دولة لبنان الكبير

وسائر اجزاء سوريا وفرنسا .

٤ - مساعدة الصناعة ، وتأييد العمال ، وتنظيم ظروف العمل ، واقامة العمل على اسس اخلاقية ، والوحدة بين العمال والراسماليين .

٥ - العمل المشترك مع الحكومة والسعي السلمي لتحقيق رغبات البروليتاريا

وتحسين شروط الحياة الاخلاقية والاقتصادية للبروليتاريا .

٦ - الاهتمام باللغتين العربية والفرنسية » .

وبموجب المادة الثانية من دستور الحزب ، فان لكل عامل او راسمالي ،

سوري او لبناني او فرنسي ، حق الانتخاب لحزب الشفيلة هذا . لذا فان مجلس

الحزب المنتخب في اوائل ١٩٢٥ ضم خمسة من كبار ملاك الاراضي ، وخمسة من

التجار الاغنياء ، وخمسة من اصحاب دور النشر ، وبعض مالكي ورشات التجارة ،

وبعض الصناعيين والمحامين والاطباء . وبلغ عدد الاعضاء المؤسسين لهذا الحزب

خمسين عضوا . وارتفع تعداد اعضاء الحزب في نيسان ١٩٢٥ الى ٢١٠٠ عضو (٥٧) .

وقد علقت جريدة « الاممية النقابية الحمراء » على نشاط هذا الحزب بالقول :

« ادرك العمال ان الحكومة كانت مع الاغنياء ضد الفقراء . هكذا كان حالها في عهد

الاستبداد التركي وهي كذلك الآن (١٩٢٥) في عهد الاستعمار الفرنسي ... » (٥٨) .

ان دعم هذا الحزب لسياسة الانتداب واضحة في برنامجه السياسي وخطة

عمله . وكان من مصلحة الانتداب بالذات تثبيت اشكال من العمل النقابي والسياسي

تضع في اهدافها مصالح الانتداب بالدرجة الاولى بحيث ترسخ مفهوما مشوها

يضيئ العمال الطليعيين والساسة الوطنيين الى العمل ضد هذه الاشكال بالذات .

وبالمقابل ، كان هذا الحزب يطمح لان يصبح الحزب العمالي في لبنان الكبير

على غرار مثيله في بريطانيا . فأوروبا الغربية في بداية القرن العشرين كانت المركز

الرئيسي الذي تستوحى منه الليبرالية السياسية آنذاك (٥٩) ، لذا نرى سعادة

(٥٥) المرص - السنة الاولى - عدد ٢ حزيران ١٩٢١ .

(٥٦) « الاممية النقابية الحمراء » العدد ٤ الصادر في ١٥ نيسان ١٩٢٥ ص ٢٤٠ . ترجم النص

الدكتور عبدالله حنا « الحركة العمالية في سوريا ولبنان ١٩٠٠ - ١٩٤٥ » ص ٢٢٤ .

(٥٧) المصدر السابق ص ٢٢٥ .

(٥٨) المصدر السابق ص ٢٢٧ .

(٥٩) - Pierre Renouvin « La crise européenne et la première guerre mondiale... »

P. 15.

انيس بك الهاني ، رئيس حزب العمال في لبنان الكبير ، يبرق مهنا رمزي ماكدونالد ، رئيس وزراء بريطانيا ورئيس حزب العمال فيها ، بمناسبة نجاحه في الانتخابات (٦٠) .
اما سياسة حزب العمل العام ومبادئه ووسائله التطبيقية فكانت تحاول الظهور
دوما بمظهر الشرعية والتنسيق مع ادارة الانتداب الفرنسي تسيقا كاملا . تلك
سمة بارزة في جميع الاحزاب والنقابات الاصلاحية . ولا بد من التنويه في هذا
المجال « ان التميز بين النقابة والحزب آنذاك لم يكن واضحا تماما بل كان وجود اي
منهما يفترض وجود الآخر » (٦١) ومن الصعب الفصل بينهما بدقة .

واعتماد الاساليب « الشرعية » للوصول الى تحسين ظروف حياة العمال ،
كانت تتبع اساسا من تركيب هذا الحزب وقيادته غير العمالية والتي كانت تتوسل
اعداد العمال للوصول الى مراكز سياسية بارزة . وهذا ما يفسر اقتصار اللجنة
التنفيذية لهذا الحزب على الوجهاء والمحامين والاطباء وكبار التجار والعديد من
الموظفين ، كما كان له صحيفة مستقلة واسعة الانتشار باسم صحيفة « العمال »
لصاحبها سجع الاسمر ، وكان له ايضا مركز على جانب من الفخامة في البناء
والاثاث في منطقة تعتبر من الاحياء الغنية في بيروت .

بيد ان موالاة هذا الحزب للانتداب الفرنسي ، انطلاقا من الاعتقاد السائد عند
كثير من اللبنانيين آنذاك والقائل بأن الانتداب مرحلة « انتقالية » لن تدوم طويلا
ريثما يصبح اللبنانيون قادرين على حكم انفسهم بانفسهم ، جعلت اغلبيّة هذا
الحزب الساحقة تقتصر على المسيحيين ، وبشكل خاص على الموارنة ولم يلاحظ اي
وجود اسلامي في قيادته او احد مراكزه الاساسية طيلة تلك الفترة ، لان الاغلبية
انساحقة من المسلمين . كانت ترفض اساسا الانتداب الفرنسي وجميع ما يدور في
فلكه من احزاب سياسية او نقابات عمالية .

لقد سقط الحزب في برائن سياسة الانتداب الفرنسي ، عن وعي او بدون
وعى ، اذ اقتصر على وجه طائفي واحد من جهة ، وعلى المطالبة الاصلاحية عن طريق
الادارة الانتدابية كقيادة شرعية تحكم البلاد من جهة اخرى . وكان من مصلحة
الانتداب الفرنسي في لبنان الكبير قيام نموذج نقابي مزيف يتحتم على العمال انفسهم
النضال ضده في المستقبل .

كان هذا الحزب يمثل نقابات الطباخين ، وعمال الطباعة ، والتجارين ،
والحلاقين ، ومستخدمي شركة حصر التبغ والتبناك ، وتجار بيروت ، وبحارة
الزوارق ، وجمعية المصلحة المشتركة لمستخدمي وعمال خطوط حديد دمشق -
حماه وتمديداتها ، وغيرها من النقابات والجمعيات العاملة في لبنان الكبير . وبالشكل
الذي كان يدعو فيه « للتعاون بين العمال وارباب العمل » ويقترح « عرض المطالب
العمالية على الحكومة بالطرق الشرعية » فان اهدافه ووسائل « نضاله » لم تكن
ضد الانتداب بل على العكس ، تخدم ادارته العسكرية المتمركزة في بيروت الى
حد بعيد اذ تحفظ لفرنسا وجها ليبراليا طالما تفتت به مدارس الجزويت في

(٦٠) المعرض - السنة ٣ - العدد ٢٧٧ الصادر في ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٤ المنحة الاولى .

— J. Couland — op. cit. — P. 96.

(٦١)

لبنان ، وجه الحرية والعدالة والاخاء ، وجه الثورة الفرنسية الذي طمسه القمع المتواصل والتدمير وحرق القرى وفرض الغرامات المالية الباهظة على السكان من قبل الادارة الانتدابية المعسكرة .

وحزب العمل العام ، المتمركز في بيروت تحت اشراف ادارة الانتداب، والعامل بتوجيه مباشر منها وبمساعدهتها بالذات ، فرض على الطليعة الواعية من العمال الانتقال خارج بيروت لتكوين نواة عمالية حقيقية ، تناضل ضد التمثيل المزيف لهم الذي يدعيه حزب العمال هذا ، وتتخذ وجها معارضا ضد ادارة الانتداب الفرنسي وبالتنسيق مع الحركة الوطنية المعادية له .

ان ولادة التنظيم العمالي المعارض للانتداب باسم « حزب الشعب اللبناني » خارج بيروت ، وفي بكفيا بالذات ، لم يكن وليد صدفة ، بل ضرورة تاريخية حتمتها امكانية النضال بعيدا عن نفوذ « حزب الصيفي » من جهة ، وعن ادارة الانتداب الداعمة له من جهة اخرى .

ب - بين العاملين في الزراعة والاريف

كانت الحركة النقابية واسعة الانتشار في صفوف عمال الصناعة والحرف والمدن قبل الحرب وبعدها ، في حين اقتصر في الاريف على نقابتين فقط خلال تلك المرحلة الانتدابية ولم نعثر لها هناك على وجود في فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى ، لا في جبل لبنان المتصرفية ولا في باقي المناطق .

النقابة الاولى كانت « نقابة العمال الزراعيين لجبل لبنان » ويرئسها الياس الزاهر وكان شعارها الاساسي « الانتداب الفرنسي ضرورة حيوية لشعب لبنان بأسره » (١٢) ولم نتطع العثور على أي نشاط لهذه النقابة التي يبدو ان رئسها « الشيخ » كان من اعوان الفرنسيين في الريف ، ولم يسمع بها أي من النقابيين الذين عاصروا تلك الفترة . وقد عثرنا على برقية من رئسها الياس الزاهر ، تحث بشدة على محاولة ضم حاصبيا ومرجعيمون الى فلسطين وتؤيد غورو في مطالبته لحاقهما بلبنان الكبير (١٣) .

والنقابة الثانية والاهم هي « نقابة مزارعي الدامور » التي تأسست في تشرين الاول ١٩٢٠ ، وكان مؤسسوها من « النخبة المثقفة » في بلدة الدامور ، ورئسها خليل الفريب « محرز نيشان الاستحقاق الزراعي الافرنسي » ، وفي نيابة رئاستها الدكتور اسكندر عون ، ومن اعضائها البارزين : نعيم عون ، وسليم نورالله ، وفيليب هيكل وغيرهم .

وتحددت أهداف هذه النقابة الزراعية على الشكل التالي (١٥) :

(١٢) لسان الحال - العدد ٨١٩٤ الصادر في ٧ كانون الاول ١٩٢٠ .

(١٣) لسان الحال - العدد ٨١٩٣ الصادر في ٦ كانون الاول ١٩٢٠ .

(١٤) جريدة « الحقيقة » البيروتية - العدد ١٣٢٥ - السنة ١٣ ، الصادر في ٢٦ تشرين الاول ١٩٢٠ -

(١٥) المصدر السابق .

- ١ - السعي الى انشاء المصارف الزراعية في البلاد .
 - ٢ - الارتباط مع نظام الزراعة في لبنان الكبير ارتباطا تاما .
 - ٣ - ايجاد وسائل التضامن بين الملاك والزراع .
 - ٤ - السعي في توفير الوسائل العائدة لرشاء الزارع لامساكه عن الهجرة .
 - ٥ - الدفاع عن حقوق العامل الزراعي .
 - ٦ - السعي في معاضدة مشاريع الري التي تقوم بها نظارة الزراعة .
 - ٧ - السعي لانشاء لجنة الرفق بالحيوان الزراعي .
 - ٨ - محاربة الآفات والامراض الزراعية .
 - ٩ - السعي في انشاء معرض زراعي عام يكون مركزه في الدامور » .
- من قراءتنا لبرنامج هذه النقابة يتبدى لنا بوضوح اثر الفرنسيين في نشاتها والدور الذي لعبته ادارة الانتداب في تشكيل قيادتها وصياغة برنامجها بالذات بحيث لم تختلف عن اهداف « حزب العمل العام في دولة لبنان الكبير » ان من حيث فكرة التعاون بين العامل ورب العمل و « التضامن بين الملاك والزراع » ، او من حيث اقتصار برنامجها على التعاون مع السلطة الانتدابية و « معاضدة مشاريع الري التي تقوم بها نظارة الزراعة والارتباط الوثيق بهذه النظارة » ، ومن حيث انتشارها الوحيد الجانب في صفوف المسيحيين الموارنة دون سواهم .
- وتجدر الملاحظة ان الحركة النقابية في لبنان الكبير خلال السنوات الاولى للانتداب كانت تستمد برامجها ووسائل تحركها بتقليد الاحزاب الاشتراكية والعمالية في اوربا الغربية وبشكل خاص عن الحزب الاشتراكي الفرنسي وحزب العمال البريطاني . وقد دعت هذه الحركة صراحة الى الصلح الطبقي والتعاون مع سلطات الانتداب ، واقتصرت على العناصر المسيحية في الاغلبية الساحقة من اعضائها دون ان يكون للمسلمين وجود يذكر فيها .
- وبرايانا ان عدم اقبال المسلمين للانخراط في صفوف الحركة النقابية والسياسية لا ينبع من اساس طائفي ، كما يظن العديد من المؤرخين بل من رفض المسلمين للانتداب الفرنسي وجميع المؤسسات التي تعترف بشرعيته ، ورفضهم لفصل لبنان عن سوريا وعن باقي اجزاء العالم العربي ، ورفض اية نقابة او حزب سياسي لا يجاهر صراحة بهذا الرفض لدولة لبنان الكبير بالذات ، التي هي برايمهم ، صنعة الفرنسيين .

٣ - ولادة التيار الشعبي :

لقد تجسدت فكرة التعاون بين العامل ورب العمل ، وبين المالك العقاري والفلاح الفقير ، بتيار سياسي انتشر بسرعة بين صفوف المثقفين والذي سمي بالتيار الشعبي ، واحيانا يطلق عليه « التيار الديمقراطي - الاشتراكي » والذي وجد تعبيراً له في جريدة « الصحافي التائه » في زحلة ، والتي كان يصدرها اسكندر رياشي المعروف بارتباطاته الوثيقة بالفرنسيين .

ففي افتتاحية العدد الاول من « الصحافي التائه » يحدد سكندر رياشي اهدافه السياسية بالقول : « ان الصحافي التائه يعترف بالتآخي بين الطبقات ، وسوف يناضل من أجل ذلك » .

ويضيف « ان مبادئ الاشتراكية المعتدلة منبثقة من الكتابين الماويين : كتاب يسوع وكتاب محمد » (٦٦) .

ان فكرة التعاون بين المستغل (بالكر) والمستغل ، والتآخي بين الطبقات ، والاشتراكية الدينية وغيرها ، شكلت محور كتابات الجريدة بالإضافة الى محور واحد يتكرر دوماً ، عن الفقراء والاغنياء ، كما ان الجريدة اعتبرت نفسها « جريدة العمال والبؤساء » (٦٧) .

اما من الناحية السياسية فقد اختصرت « الصحافي التائه » سياستها بالقول « هذه الجريدة ، سياستها مع الانتداب الصحيح الذي تعترف بضرورة اشرافه على البلاد » (٦٨) .

ان التيار الشعبي ، بالرغم من جميع الاتجاهات التي كانت تتصارع في داخله ، قد أسهم في ولادة تيار اشتراكي حقيقي منذ ١٩٢٤ « والحقيقة التي لا بد لنا من تسجيلها هي ان « الصحافي التائه » كانت الجريدة التي دفعت الحركة الاشتراكية - الشيوعية الى الامام ، وعرفت أفرادها بعضهم الى بعض ، ونسقت جهودهم وساعدتهم على الانتشار والنمو وحفزتهم على الدراسة والتبحر في الاسس الاشتراكية . فاليها يعود الفضل الاول في قيام حركة شيوعية في سورية ولبنان » (٦٩) ان انتشار الافكار الاشتراكية الطوباوية كان وليد التأثير المباشر بالفكر الاشتراكي الاوروبي ، خاصة الفرنسي منه ، والذي كان لا يزال ينهل من أفكار الثورة الفرنسية الكبرى لعام ١٧٨٩ القائلة بالاخاء والعدالة والمساواة والتي ساعدت المدارس اليسوعية في لبنان على نشرها والمناداة بها . ولم يكن اي من هؤلاء الكتاب الاشتراكيين الاوائل في لبنان على اطلاع ، ولو جزئي ، على الفكر الاشتراكي العالمي (٧٠) .

نتيجه : المعارضون للانتداب

١ - في الخارج :

لم يكن من الممكن تشكيل حزب سياسي يعمل علانية ضد الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان خلال السنوات الاولى ، بل تميزت المعارضة برفض الانتداب ورفض ارتدى طابعا طائفيًا واضحًا نظرًا لانتشاره الواسع في صفوف المسلمين بشكل

(٦٦) الصحافي التائه - العدد الاول الصادر في ٢٨ أيلول ١٩٢٢ .

(٦٧) المصدر السابق .

(٦٨) المصدر السابق .

(٦٩) س. ايوب - « الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ١٩٢٢ - ١٩٥٨ » ص ٢١ .

(٧٠) راجع يوسف بيزك « قصة اول ايار في لبنان » .

خاص دون ان يتعداهم الا الى افراد من المسيحيين . وقد شعر دعاة الرفض هؤلاء بحرية العمل السياسي في الخارج لا في الداخل وتجمعوا حول فكرة « الاتحاد السوري » التي نادى بها الوجدويون في تلك الفترة وسما حزبهم باسم « حزب الاتحاد السوري » .

وتجمع هؤلاء الوجدويون السوريون في اول لقاء لهم في جنيف ، صيف ١٩٢١ في المؤتمر الذي سمي بالمؤتمر السوري في جنيف الذي بدأ التحضير له منذ ١٠ حزيران ١٩٢١ ، نظرا لانعقاد مجلس عصبة الامم المتحدة في تلك المدينة السويسرية خلال هذه الفترة .

وجاء في الدعوة التي وجهتها لجنة حزب الاتحاد السوري ما يلي (٧١) :

« رات لجنة الاتحاد السوري ، التي كانت وما زالت تجاهد بجميع الطرق المشروعة للحصول على استقلال البلاد التام ، ان تتأزر جميع الاحزاب والجمعيات السورية التي تعمل لغاية الاستقلال التام ووحدة البلاد ، سواء في سوريا نفسها او في المهاجر البعيدة المتفرقة ، وتتفاهم فيما بينها على اسس المبادئ والمساعي معا ، طالبة الحصول على حقها الطبيعي الوطني المؤيد بكثير من اليهود والوعود من اقطاب السياسة في العالم المتمدن . ولما كان مجلس عصبة الامم سيجتمع قريبا وينظر في شروط الوصاية المفروضة على سوريا وغيرها من البلاد المنفصلة عن تركيا ، فقد قررت لجنة حزب الاتحاد السوري ان تدعو جميع الجمعيات والاحزاب السورية الى عقد مؤتمر سوري عام في جنيف ، مركز عصبة الامم في ١٠ حزيران المقبل لتبرهن ، بكل ما لديها من الوثائق والحجج والادلة على ما لسورية من الحق بالحرية والاستقلال » .

وقد وقع الدعوة الرئيس ميشال لطف الله ، ونائبه محمد رشيد رضا . وفي ٧ آب ١٩٢١ صدرت قرارات مؤتمر جنيف ونصت على البنود الخمسة التالية (٧٢) :

- ١ - الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومي لسوريا ولبنان وفلسطين .
 - ٢ - الاعتراف بحق هذه البلاد في ان تتحد معا بحكومة مدنية مسؤولة امام مجلس نيابي ينتخبه الشعب وان تتحد مع باقي البلاد العربية المستقلة في شكل ولايات متحدة (فيدراسيون) .
 - ٣ - اعلان الغاء الانتداب حالا .
 - ٤ - جلاء الجيوش الفرنسية والانكليزية عن سوريا ولبنان وفلسطين .
 - ٥ - الغاء تصريح بلفور المتعلق بوطن قومي لليهود في فلسطين » .
- اما الاحزاب والجمعيات السياسية التي شاركت في التوقيع على مقررات مؤتمر جنيف فكانت (٧٣) :

(٧١) المنار - المجلد ٢٣ - الجزء الثاني - شباط ١٩٢٢ - ص ١١٦ - ١١٧ .
راجع ايضا عبدالله حنا « الحركة العمالية في سوريا ولبنان » ص ٢٠٦ - ٢٠٨ .
(٧٢) المنار - المجلد ٢٢ - الجزء السادس - ايار ١٩٢٢ - ص ٤٥٧ - ٤٥٨ .
(٧٣) المنار - المصدر السابق - ص ٤٥٩ .

- رئيس المؤتمر :** ميشال لطف الله - رئيس اللجنة المركزية لحزب الاتحاد السوري و مندوبها .
- نائب الرئيس :** رشيد رضا - رئيس المؤتمر السوري العام في دمشق ونائبه رئيس الاتحاد السوري و مندوبه .
- نائب الرئيس :** توفيق حماد - رئيس الجمعية الإسلامية المسيحية في نابلس - مندوب المؤتمر الفلسطيني المثل لجميع الاهالي .
- سكرتير عام :** شكيب ارسلان - مندوب حزب الاستقلال العربي .
- اعضاء :** احسان الجابري - مندوب حزب الاستقلال العربي .
- رياض الصلح : مندوب حزب الاستقلال العربي .
- نجيب شقير : مندوب حزب الاستقلال العربي .
- وهبه العيسى : رئيس اللجنة الفلسطينية بمصر و مندوبها .
- شلي الجمل : مندوب الوفد العربي الفلسطيني و سكرتيره .
- امين التميمي : مندوب الوفد العربي الفلسطيني
- مستشار رئيس الوزارة بدمشق سابقا .
- سليمان كنعان : عضو مجلس لبنان الاداري سابقا .
- صلاح عزالدين : مندوب الجمعية السورية الوطنية في بوسطن .
- طعان العماد : مندوب الحزب الوطني العربي في الارجنطين .
- جورج يوسف سالم : مندوب حزب تحرير سوريا في نيويورك .
- توفيق اليازجي : مندوب حزب استقلال سوريا و وحدتها في سانتياغو - شيلي .

اما في مصر ، فقد شن « **الحزب الوطني اللبناني** » هناك هجوما شديدا ضد الانتداب الفرنسي على سوريا . وكان حبيب البستاني رئيسا لهذا الحزب الذي ضم بين صفوفه ميشال زكور ، صاحب جريدة « المعرض » البيروتية ، ومؤسس حزب الشبيبة اللبنانية فيما بعد . ومن المؤكد ان الحزب الوطني اللبناني حاول ان يفتح فرعا له في بيروت ، الا ان نشاطه الفعلي بقي في اطار اللبنانيين في مصر . كما عقد هذا الحزب مؤتمرا للبنانيين في مصر ، في نيسان ١٩٢٢ ، احتج فيه بنفس على وجود الانتداب الفرنسي في لبنان الكبير . وقد علقت مجلة « آسيا الفرنسية » ، الصحيفة شبه الرسمية للانتداب ، على مؤتمر اللبنانيين في مصر بقولها « يبدو ان بعض اللبنانيين في القاهرة ، قد عقدوا اجتماعا هناك للاحتجاج على فرنسا المنتدبة على سوريا ولبنان . وهتف المجتمعون مرارا : لتسقط فرنسا » (٧٤) .

وفي ١٨ حزيران ١٩٢٢ ، نشرت جريدة « المعرض » عريضة مهتبه رفعها حبيب البستاني ، رئيس الحزب ، يحتج فيها على المجلس النيابي اللبناني لارساله برفقته المشهورة التي يشكر فيها الفرنسيين على انشاء دولة لبنان الكبير (٧٥) .

— L'Asie Française — No. 202 — Mai 1922 — P. 223.

(٧٤)

(٧٥) المعرض - السنة الثامنة - العدد ١١٧ - الصادر في ١٨ حزيران ١٩٢٢ - الصفحة الاولى .
Voir aussi « L'Asie Française... » — No. 203 — Juin 1922 — P. 270.

لقد تعالت صيحات العديد من اللبنانيين خارج الحدود ، متحدة مع اصوات اخوانهم السوريين والفلسطينيين في المهاجر ام منفصلة عنها ، تطالب برفض الانتداب الفرنسي وبضرورة النضال ضده . وتأثرت هذه الاصوات بالجو السياسي العام الذي ساد قبيل فرض الانتداب على سوريا ولبنان وفلسطين والعراق والشعارات الوجودية العلمانية للقومية العربية . ومهما كان من امر هذه الصيحات ، فقد بقي تأثيرها ضئيلا جدا على سير سياسة الانتداب الفرنسي ومخططاته في الداخل . فاقترص دور الاحزاب والجمعيات المعارضة في الخارج على الاعلام دون ان يتعداه الى الاعمال الجماهيرية المنظمة بسبب طبيعة تلك الاحزاب والجمعيات الفوقية المعزولة عن جماهير اللبنانيين في المهجر من جهة ، وبسبب سياسة التكنيز والاميركيين التي انقلبت ضد الحركة الوجودية السورية والى جانب الانتداب بعد اتفاقيات المصالح المشتركة .

٢ - في الداخل :

بدا الساخطون من التيار الموالي للانتداب سابقا ، والذين حرموا من المناصب الادارية في لبنان ، بالتجمع حول « حزب الاتحاد الديمقراطي » الذي بدأ نشاطه في كانون الاول ١٩٢٠ بارسال برقيات الى فرنسا وبريطانيا والى عصبة الامم ، احتجاجا على مطالب الصهيونيين بضم اراض من لبنان الى فلسطين . وجاء في برقية هذا الحزب « ان حزب الاتحاد الديمقراطي في بيروت يحتج بكل شدة على ما طلبه مجلس فلسطين من سلخ افضية حاصبيا ومرجعيون وبانياس والحولة والقنيطرة ووادي اليرموك عن البلاد السورية والحاقتها بفلسطين » (٧١) .

ويفهم من هذه البرقية الموقعة من داود عمون ، رئيس اول وفد لبناني الى مؤتمر الصلح في باريس للمطالبة « باستقلال لبنان التام وتوسيع اراضيه نحو حدوده التاريخية والطبيعية » ، ان داود عمون هذا كان رئيسا للجنة التنفيذية لحزب الاتحاد الديمقراطي .

وسار هذا الحزب شوطا واسعا في انتقاده ، بعد ان حرم من مغانم الادارة ، حتى وصل به الامر الى حد ارسال عريضة في ١٠ حزيران ١٩٢١ ، مرفوعة الى عصبة الامم بمناسبة انعقاد مجلسها في جنيف ، حدد الحزب فيها مطالبه بالبند التالي (٧٧) :

« ١ - ان يكون الانتداب مؤقتا وشكله استشاريا محدودا يتناول الدوائر الرئيسية ولا يتعداها .

٢ - ان يمكن اهل البلاد من انشاء حكومة وطنية نيابية مستقلة يرئسها ويدبرها وطنيون .

٣ - ان تُلغى الامتيازات الاجنبية .

(٧٦) لسان الحال - العدد ٨١٩٤ - تاريخ ٧ كانون الاول ١٩٢٠ .

(٧٧) جريدة المعرض البيروتية - السنة الاولى - العدد العاشر الصادر في ٢ حزيران ١٩٢١ .

٤ - ان تافى الضرائب والقوانين المستحدثة وان تبقى القوانين العثمانية مرعية الاجراء الى ان يلتئم المجلس النيابي الوطني الذي له وحده حق سن القوانين وفرض الضرائب .

اما على الصعيد الشعبي غير المنظم فقد ارتدت معارضة الانتداب طابعا اقليميا طائفيا . فوجدت فرنسا المنتدبة نفسها امام ترحيب سافر في بعض المناطق اللبنانية ورفض شعبي شامل في سائر المناطق التي رأت فيها دولة اجنبية محتلة . واضحت المناطق اللبنانية مقسمة سياسيا الى قسمين واضحين تماما يعترف احدهما بالوجود الانتدابي الفرنسي والكيان اللبناني الجديد ، ويرفض الآخر هذا الانتداب وهذا الوجود لدولة لبنان الكبير ويتوق الى وحدة كلية او جزئية مع سوريا (٧٨) .

٢ - النضالات المطالية المشتتة :

ان اول اضراب عمالي كبير ، بعد اعلان الانتداب الفرنسي على لبنان ، هو الاضراب الذي نفذه عمال ومستخدمو شركة خطوط السكة الحديدية المعروفة بخطوط دمشق - حماه وتمديداتها D.H.P. ، وذلك في صيف ١٩٢٠ ، واعادوا تنفيذه مرة اخرى خلال ١٩٢١ وذلك للمطالبة بزيادة الاجور (٧٩) .

وفي ٢٠ شباط ١٩٢١ (٨٠) ، قامت مظاهرة كبرى ، اغلبتها الساحقة من النساء ، فانطلقت من وسط المدينة الى دار الحكومة تطالب بفسخ عقود البيع التي جرت ايام الحرب نظرا لان الشاري لم يدفع ربع القيمة الحقيقية في حين كان البائع مضطرا للبيع بفعل ظروف الحروب والضائقة المادية والجوع . وقد طافت المظاهرة على ادارات الصحف سائلة اصحابها نصرتهم وابلاغ الحكومة شكواهم . مما اضطر المفوضية السامية الفرنسية الى فسخ تلك العقود الممأة « بيوع الحرب » بالقرار رقم ٧٩٧ تاريخ ٣١ آذار ١٩٢١ .

وفي ١٩٢١ ، قامت المفوضية العليا بفرض ضرائب جديدة على عربات النقل والواقف ، مما دفع الحوذيين الى اعلان الاضراب في الثالث من تموز ١٩٢١ . وتقول لسان الحال : « اليوم اصبحنا والحوذيون مصرون على الاعتصاب (الاضراب) والاسواق خالية منهم . لكن حضرة حاكم بيروت الاداري ، والبلدية ، اضطرا اصحاب العربات وحوذيينها بوجوب الرجوع الى العمل قبل ظهر اليوم والا اخذت منهم رخصهم ... » (٨١) مما افشل الاضراب . وكان الفشل دافعا لهم لتشكيل نقابة تدافع عن مصالحهم منذ ذلك التاريخ .

وكانت شركة الترامواي اللبنانية ، وهي شركة بلجيكية تفرض على الراكب من قرون الشباك الى البرج ، او من البرج الى الحرج تسعة متاليك حجر و ٤٥ قرشا

(٧٨) عادل الملح « حزب الاستقلال الجمهوري » ص ٨ .

— J. Coulard — op. cit. — P. 85.

(٧٩)

(٨٠) لسان الحال — عدد ٨٢٧ — تاريخ ٢١ شباط ١٩٢١ .

(٨١) لسان الحال — عدد ٨٢٩١ — تاريخ ٢ تموز ١٩٢١ .

ورقا نقديا . وتقول جريدة « الحقيقة » البروتية « ان الشركة في عام ١٩١٨ ، كانت تسمى لانزال سعر الورقة النقدية بدلا من رفعها ، وان الساسرة انفسهم لم يوصلوا حتى الآن سعر الورقة النقدية (اي الليرة التركية) الى اقل من ثمانية قروش . فهل تريد شركة الترامواي ان تبرهن على انها اقدر على انزال سعر الورقة من ساسرة السوق ؟ » (٨٢) .

لقد اشتدت وطأة النقل على المواطنين ، فقاموا بالاضراب عن استخدام الترامواي في ٨ تموز ١٩٢٢ . ووصفت جريدة « المعرض » هذا الاعتصاب تقول : « ثلاثماية شخص وما ينيف اجتمعوا مساء الجمعة في فرن الشباك من جميع محلات بيروت لتقرير الاعتصاب العام على الترامواي . انها كانت مظاهرة وطنية جميلة ضد استبداد الشركة التي امتصت وما برحت تمتص دماءنا بأسعارها الفاحشة كأن بيروت مكلفة أن تسدد ديونها وديون البلجيك معها » .

وجاء في البيان الذي نشره المجتمعون بعنوان « صوت من الشعب والى الشعب » ورد فيه « شركة الترامواي تنقاضي من فقيرك خمسة وسبعة غروش على مسافة يدفع عنها ابن الشام غرشا واحدا فقط ... » (٨٢) .

ان الحركة المطالبة في لبنان بدأت تنمو مع اتساع موجة الغلاء وتدني القدرة الشرائية للشعب اللبناني ، بسبب تسلط الشركات ، خاصة الفرنسية منها ، على مقدرات لبنان وفرض الضرائب الباهظة على سكانه . غير ان تلك المظاهرات والاضرابات بقيت معزولة وغير موحدة ، وكان ينقصها التنسيق والتوجه السياسي ضد المستغلين الفعليين أي الانتداب الفرنسي وأعدائه في الداخل .

كما ان هذه الحركة المطالبة لم تلاق أي دعم او اهتمام من « حزب العمل العام في لبنان الكبير » الذي كان يخطط زعماءه للوصول الى المجلس النيابي غير آبهين بمظاهرات العمال واضراباتهم والقمع المستمر الذي قاسوه من سلطة الانتداب وعساكرها . هذه الحركة ستشد وتقوى مع ولادة « حزب الشعب اللبناني » في أواخر ١٩٢٤ ، الذي عرف كيف يوحد بين نضالات الطبقة العاملة اللبنانية ، ويرفع شعارات مطلية واضحة ، ويسعى حثيثا الى تنظيم النقابات العمالية في « الكومسيون النقابي » لعام ١٩٢٥ الذي أبرز « ولأول مرة في تاريخ لبنان ، وجه الطبقة العاملة اللبنانية كطليعة للنضال المطلي والديمقراطي العام في وجه استغلال شركات الانتداب والتعاونين معها من أصحاب الرساميل المحلية .

(٨٢) الحقيقة - العدد ٩٧٣ - السنة ١١ - في ٢ تشرين الثاني ١٩١٨ .

(٨٣) المعرض - السنة الثانية - العدد ١٢٢ - الصادر في ٩ تموز ١٩٢٢ - ص ٣ .

□ الفصل الثاني □ مرحلة النضال الديموقراطي العام وولادة الدستور والجمهورية في لبنان □ ١٩٢٤ - ١٩٢٦ □

جلور الفكر الاشتراكي العلمي في لبنان

ان تحديد تاريخ اول ظهور للفكر الاشتراكي في لبنان ليس سهل المنال نظرا لانعدام الوثائق حول هذا الفكر ، خاصة وان أعمال اولئك الطليعيين الاوائل قد دفنت معهم كذلك أقوالهم ، المكتوبة او المعلنه خطايا ، بسبب الارهاب والقمع .
وقد أشار يوسف يزبك في مقاله « حكاية اول اول ايار في بيروت ١٩٢٥ » الى الحقيقة التاريخية التالية : « تكرارا اشير الى ان تلك المطالب - أي مطالب حزب الشعب اللبناني لعام ١٩٢٥ والتي سنتكلم عنها مطولا - هي الاولى من نوعها بسطا وتحديدا وتوضيحا ، وان لم يكن احتفالنا مثلها في الاولية ، اذ سبق لقبضة من المثقفين اللبنانيين ان احتفلوا به قبل ثماني عشرة سنة ويذكرهم التاريخ بأنهم اصحاب اول صوت ارتفع في الشرق كله في هذا السبيل » (١) .

وفي حواشي هذا المقال يوضح يوسف يزبك حقيقة هذا الاحتفال فيقول « جرى ذلك في اول ايار سنة ١٩٠٧ ، وقد دعا اليه المرحومون خيرالله خيرالله وداود مجاعص وجرجي نقولا باز وآخرون من زميرتهم التي قامت في العام الثاني بدور رئيسي جريء في بيروت بتأييد اعلان الدستور العثماني وبالنعوة الى حراسة الحرية ومكافحة بقايا الطفيلان الحميدي . وكان جيلنا الذي خلف اولئك الاحرار ، مباشرة ، ينظر اليهم باحترام واعجاب شديدين ويمتبرهم المعلمين والرواد الذين شقوا لنا الطريق . وقصة احتفالهم بأول ايار سنة ١٩٠٧ سمعتها من الرفقاء الثلاثة في مناسبات متباعدة . وكان المرحوم خيرالله يحتفظ بالشارة الحريية الحمراء التي علقها على صدره في ذلك اليوم ، كما علق رفاقؤه شارات اخرى . ولما احتفلنا في بيروت سنة ١٩٢٥ احتفالنا التاريخي انتزع خيرالله شارته من جيبه وهو يلقي خطابه ولوآح بها ثم اعطانيها علنا فأنار حماسة عاصفة في القاعة الهبت

(١) يوسف يزبك - مجلة البلاغ البيروتية - السنة الاولى - العدد ١٧ الصادر في اول ايار ١٩٧٢ -

الاكف بالتصفيق . اما مكان ذلك الاحتفال الرمزي فكان في الروشة ، على رمال الشاطيء ، بعيدا عن عيون الرقباء « (٢) » .

تلك هي البادرة الوجيهة التي تدل عن حركة « اشتراكية » في لبنان قبيل الحرب العالمية الاولى . انها حركة اشتراكية طوباوية معزولة عن جماهير العمال والفلاحين ، لكنها ، وعلى لسان راويها يوسف يزبك ، الاولى من نوعها ، ان لم نقل .

معها في الشرق كله تحفظا ، فهي دون شك الاولى في لبنان خلال تلك الفترة . بيد ان واقع ما جرى بعد الحرب حمل بذورا اشتراكية فعلية الى لبنان والمنطقة العربية المجاورة . وقد أسهمت مراسلات لينين وبعض الزعماء العرب فعليا في بروز أصوات اشتراكية في مصر وفلسطين خاصة منذ أواخر الحرب . فقد كتبت مجلة « المنار » ، الواسعة الانتشار آنذاك ، سلسلة مقالات بقلم الامام رشيد رضا - وهو لبناني من بلدة القلمون قرب طرابلس - أبرزها مقالان : « اله البلاشفة والعالم الاسلامي » في العدد العاشر لعام ١٩١٨ ، ومقال « الاشتراكية والبولشفية والدين » الذي جاء فيه : « الاشتراكية الحقيقية ليست سوى البلاشفة التي تعني الغاء استغلال الرأسماليين وعملائهم في السلطة » .

وكتب الشيخ رشيد رضا يقول ايضا : « ... ان الذي فهمناه من مجموع ما اطلعنا عليه في البلاشفية انها عين الاشتراكية المقصود منها ازالة سلطان ارباب الاموال الطامعين واعوانهم من الحكام المناصرين لهم الذين وضعوا قوانينهم المادية على قواعد هضم حقوق العمال في بلادهم واستعمار بلاد المستضعفين من غيرهم ، وان معناها الحرفي « الاكثرية » فالمراد منها ان يكون الحكم الحقيقي في كل شعب للاكثرية من اهله وهم العمال في الصناعة والزراعة وغيرها وذلك بعد اسقاط سلطة ارباب الثراء والكبراء المشايخين لهم . وقد فعلوا ذلك في روسيا ... لا يعجب القاريء اذا قلنا له ان ٩٩٪ من سكان الكرة الارضية هم من الاشتراكيين او البولشفيكيين وهؤلاء هم الشعب الذي تقول الامثال ان صوته هو صوت الله ... نعم انه لا يستطيع انشاء حكومات شعبية الا بعد ان تتبخر ثروة الاغنياء . ولكن الشعب لا يظلمهم بذلك بل ان طمعهم بابقاء سيطرتهم المطلقة ينتج لهم ان الشعب يضطر لاختلاها بالقوة والارغام ... » (٣)

يمثل هذا الوضوح عن البولشفية واهدافها كانت اقلام عربية تكتب خلال تلك الفترة . لذا فالقول بأن العالم العربي لم يكن يعرف عن الاشتراكية شيئا وان البولشفية كانت مجهولة تماما لدى جماهير المثقفين العرب قول يفتقر الى الكثير من الدقة والعلمية . ومهما كانت الدائرة ضيقة لمدي انتشار هذه الاصوات الاولى وتلك الصيحات المؤيدة للاشتراكية ، فان وجودها ، وعلى صفحات مجلة كبرى كالمنار الواسعة الانتشار آنذاك كانت وسيلة اتصال هامة بالعديد من المثقفين العرب . بيد ان هذا الموقف لم يكن ينبع من ايمان علمي بالاشتراكية والبولشفية دون شك بل انطلاقا من موقف اسلامي واضح . فقد كتب الشيخ الامام رشيد رضا

(٢) يزبك - المصدر السابق - الحاشية رقم ٥ ص ٢٨ .

(٣) رشيد رضا - المنار - المجلد ٢١ - الجزء الخامس - ص ٢٥٥ - ٢٥٦

نفسه يقول « ... بل فعلت دولة السوفيات أعظم من هذا : عقدت معاهدات بينها وبين الدول الإسلامية الثلاث - الترك والفرس والافغان - اعترفت فيها باستقلال كل منها ، وأرجعت اليهن ما كانت دولة القياصرة قبلها قد سلبتهن ، واسقطت للمدنيات منهن لروسيا ما كان لها من الدين عليهن ، وسمحت للدولة الإيرانية بما لها في بلادها من سكك الحديد وغيرها . لذا كان العالم الإسلامي مع الشعوب الشرقية كلها راضيا من حكومة الروس الجديدة ، شاكرا لها مثنيا عليها ، وان كان المسلمون أبعد الشعوب عن البلشفية ومذاهبها » (٤) .

لقد كان موقف ثورة اكتوبر من فضح الاتفاقيات الاستعمارية وتأييد ثورات شعوب الشرق التحررية ، الدافع الاول لتأييد العديد من مثقفي العالم الإسلامي لهذه الثورة ، كما جاءت المواقف الاستعمارية للحلفاء وتضامن الأميركيين معهم تزيد في مواقف التأييد للثورة السوفياتية في اوساط العالم العربي ، وتعالق اصوات المناصرين لها قبل ان يطالهم اضطهاد الانكليز والفرنسيين . ان تلك الاصوات ، على ندرتها ، كانت اولى الصيحات العربية التي نادى بالاشتراكية وأيدتها علنا على صفحات الجرائد والمجلات ، ودعت الى مؤازرة ثورتها الكبرى في روسيا وتشديد التضامن معها ضد غدر الحلفاء والمتعاونين معهم .

اما داخل بيروت فكانت جريدة « الحقيقة » - حسب وثائقنا الخاصة ومطالعنا حول هذا الموضوع - اول جريدة بيروتية قامت باصدار سلسلة مقالات عن الاشتراكية العلمية ابرزها ثلاث مقالات ظهرت تباعا في الاعداد ١٣٦٠ و ١٣٦١ و ١٣٦٢ الصادرة بتاريخ ١ و ٣ و ٤ كانون الاول ١٩٢٠ وتناولت على التوالي « النظام الانتخابي ومعنى السوفياتيات » و « الاحزاب السياسية في روسيا السوفياتية » و « الصناعة السوفياتية » . وتستنتج الجريدة « ان النظام البلشفي المطبق في روسيا حاليا ليس بالضبط النظام الذي أعلن عنه كارل ماركس لكنه خطوة على طريق ذلك النظام ، انها مرحلة انتقالية تلك التي تجتازها روسيا اليوم مع نظام السوفياتيات الجديد .

ان هذين المصدرين الهامين يوضحان دون ادنى ريب ان الفكر الاشتراكي والثورة البلشفية وجدا تأييدا واضحا من جانب الشعوب العربية خاصة بعد موقف الثورة بفضح الوثائق الاستعمارية لاتفاقية سايكس - بيكو ونداء لينين الشهر الى شعوب الشرق وبدعم ثورة اكتوبر للحركة التحررية التركية بقيادة مصطفى كمال ، وذلك اثر المواقف الاستعمارية التي تكشف عنها الوعود الانكلو - فرنسية للعرب بعد نهاية الحرب والتي تجددت عمليا باتفاق ١٥ ايلول ١٩١٩ الذي أوقع المنطقة العربية ، شرقي البحر الابيض المتوسط ، في براثن الاستعمارين الانكليزي والفرنسي باسم الانتداب .

اما جريدة « المعرض » البيروتية فقامت ترصد تطور الحركة البولشفية في فلسطين منذ أوائل ١٩٢١ . فقد كتبت عن حوادث اول ايار التي وقعت هناك « ان العمال اليهود نادوا بالبولشفية في اول ايار ١٩٢١ وتجمهروا يحملون اعلاما

(٤) رشيد رضا - المنار - المجلد ٢٢ - الجزء العاشر - ص ٧٢٦ .

حمراء (علامة البولشفيك) وتوجهوا الى امام دار الحكومة . فأرسل الحاكم نفرا من الشرطة ليطلب من المتظاهرين ان ينزلوا الاعلام الحمراء . فما كان من المتظاهرين ، وقد كانوا على اتم الاستعداد ، الا ان قتلوا الجندرمة وهم من اهالي فلسطين الوطنيين . فهاج رجال الجندرمة الوطنيون وهاجموا اليهود . ونشبت معركة حامية هناك . ونمي الخبر الى الاهالي فتجمهروا يشدون ازر الجندرمة الوطنية ضد العمال اليهود . وبلغ عدد القتلى ٧٥ شخصا ومن المسلمين ١٥ ومن النصارى ١٣ . وكانت المناشير التي منعها ادارة الرقابة تحض على الثورة البولشفية واسقاط الحكومة وانشاء حكومة سوفياتية في فلسطين « (٥) » .

وتعود « المعرض » مرة اخرى الى تلك الحوادث فتستنتج « ان السياسة الانكليزية عرفت ان تلعب لعبتها هذه المرة . فبعد ان كانت الحركة محض بولشفية ، انقلبت الى خلاف صهيوني - عربي واغتنمت الحكومة وقوف الوطنيين العرب بجانبها ضد هياج الصهيونيين فاتهمت الفريقين بالاخلال بالامن العام وقامت تحاكمهم كأن هناك خلافا صهيونيا - عربيا ولم يعد للحركة البولشفية خبر في نتائج تلك الاحداث » (٦) . ثم تعود ايضا الى الحوادث ذاتها فتقول « تتخوف الحكومة في فلسطين من امتداد الفكرة البولشفية في البلاد بعدما راته من قيام عمال اليهود ببث هذه الدعوة ، فرصت قواتها على الحدود لمنع كل تداخل (تواجد) بولشفيكي في الارض المقدسة » (٧) .

يستدل من ذلك ان « المعرض » لعبت ، في هذه الفترة وفي الفترة اللاحقة ، دورا هاما خلال السنوات الاولى للانتداب ، في اطلاع اللبنانيين على تطور الحركة البولشفية في الاراضي المجاورة اي فلسطين . وبدأت « المعرض » باستعراض طبيعة النظام الاشتراكي في سلسلة مقالات متواصلة كما ان الحركة الاشتراكية البولشفية في فلسطين ستلعب دورا ملحوظا في تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني في عام ١٩٢٤ .

اما جريدتنا « الصحافي التائه » و « زحلة الفتاة » اللتان كانتا تصدران في زحلة فكان لهما دور كبير في تجميع « الكتاب الاشتراكيين » اللبنانيين على صفحاتها . وكان اسكندر رياشي وراجي الراعي وشكري البخاش والشبح الباكي (اي يوسف ابراهيم يزبك) من ابرز قادة هذا التيار الاشتراكي الطوباوي الذي اطلق عليه لقب « التيار الشعبي » . فلم تكن اقلام هذا التيار تنهل من منابع الاشتراكية العلمية بل - كما يقول يوسف يزبك - « كنا شيوعيين ولم يكن منا من قرأ كتابا واحدا للينين » (٨) .

-
- (٥) المعرض - السنة الاولى - العدد الثالث - الصادر في ٨ ايار ١٩٢١ .
(٦) المعرض - السنة الاولى - العدد السادس - الصادر في ١٩ ايار ١٩٢١ .
(٧) المعرض - السنة الاولى - العدد ١٢ - الصادر في ٩ حزيران ١٩٢١ .
(٨) راجع يزبك - مقال البلاغ المشار اليه سابقا - العنوان - وراجع كذلك عبدالله حنا « الاتجاهات الفكرية في سوريا ولبنان ١٩٠٠ - ١٩٢٥ » خاصة عنوان « مرحلة يزبك او الصحافي التائه ١٩٢٢ - ١٩٣٠ » ص ٨٤ - ٨٩ .

ومهما يكن من أمر دعاء هذا التيار ، فمما لا شك فيه ان اقلامهم (وخاصة يوسف يزبك) ساهمت اسهاما فعالا في ولادة الفكر الاشتراكي في لبنان وسوريا . كما ان تفكير البعض منهم تجذر أكثر فأكثر باتجاه الفكر الاشتراكي العلمي في حين انقلب البعض الآخر الى وصوليين يتكهنون على أبواب ادارة الانتداب .

ان بذور الاشتراكية في لبنان بدأت في صفوف المثقفين الوطنيين . بيد ان تلك البذور لم تصبح صالحة للزرع الا بعد تلقيحها بالفكر الاشتراكي العلمي الذي حملته طليعة عمالية مجربة بدأت بفؤاد شمالي ، عامل التبغ المطرود من مصر ، وتوسعت مع طليعة نقابة عمال التبغ في بكفيا التي شكلت قيادة حزب الشعب اللبناني بالذات .

ما القول بان الفكر الاشتراكي العلمي في لبنان هو وليد فئة مثقفة من البورجوازية الوطنية فيدحضه الواقع التاريخي بالذات . ففكر تلك الفئة المثقفة لم يكن اشتراكيا علميا ولم يعرف تلك الصفة على الاطلاق . ان طليعة الطبقة العاملة اللبنانية ، المتمثلة آنذاك بنقابة عمال التبغ في بكفيا ، والتي ساندها العديد من المثقفين الوطنيين هي التي تقبلت ذلك الفكر المعبر عن مصالحها والمجسد لامانيها وهي التي عملت على نشره بين صفوف العمال والفلاحين يساندها في ذلك المثقفون الوطنيون الذين آمنوا بدور الطبقة العاملة الطليعي في بناء المجتمع الاشتراكي في لبنان .

الحياة السياسية عند أرمن سوريا ولبنان

١ - الهجرة الارمنية الى لبنان وسوريا

حسب تقدير مجلة الصناعيين والتجار الفرنسيين في الشرق لعام ١٩٢٧ ، فان تعداد الارمن في لبنان كان يقدر بحوالي ٢٩ ألفا (٩) منهم ٢١ ألفا في بيروت و ١٢٠٠ في زحلة و ١٠٠٠ في طرابلس . ويرفع لويس جالابير هذا الرقم الى ٣٢ ألفا (١٠) موزعين بين بيروت و عنجر . والاختلاف ليس كبيرا على كل حال .

وفي تقدير مجلة الصناعيين المذكورة ان ٩٤,٣٨٧ (١١) ارمنيا فقط كانوا يعيشون من عرق جباههم دون مساعدة الدولة مقابل ١٣٤,٣٦٩ ارمنيا تقدم لهم الدولة مساعدة جزئية في حين ان ٥,٩٦٥ ارمنيا كانت الدولة تقوم بكامل اعالتهم خلال تلك الفترة . وقد توزع الارمن ، استنادا الى احصائيات هذه المجلة ما بين ١٤ ألفا يقومون بالعمل الزراعي ، و ٤ آلاف حرفي في المناطق خارج المدن ، و ١١ ألف حرفي في المدن اللبنانية ، خاصة في بيروت . فقد امتاز هؤلاء بنشاط هائل في المجالات الحرفية الصغيرة التي كانت تتطلب مهارة يدوية وتقنية . فعملوا كحدادين

— Bulletin de C.I.F.L. — No. I — de 1927 — P. 76-77. (٩)

— Louis Jalabert « La Syrie et le Liban; réussite française ? » — P. 110. (١٠)

— Bulletin de C.I.F.L. — op. cit. — P. 77. (١١)

ومصنوعين ومزخرفين وعمال نسيج وعمال ميكانيك وغيرها ، وكانت بعض نسايمهم اختصاصيات في صناعة السجاد من الصوف الفاخر والبياضات والمطرزات(١٢) . وقد استفلت فرنسا المنتدبة هؤلاء المهاجرين ائشح استفلال بسبب حاجتهم الماسة للمائل والمسكن والملبس ، اذ كانوا مضطرين للعمل بأجور بالغة الانخفاض . وقد انتشرت الامراض بين صفوفهم بشكل مرعب ، خاصة في احياء الكرتينا . وبرزت تلك الامراض مرض الحصبة او الحميراء التي تكاثرت بسرعة بين اطفالهم بصورة خاصة والتي قالت عنها مجلة الحارس البيروتية « لم يبق بيت من بيوت الارمن الا وزارته الحميراء التي انتشرت بشدة بين اطفال بيروت حتى يكاد يزور بيوتها قاطبة »(١٣) . لقد استطاعت .دارة الانتداب استفلال الوضع المادي البائس لهؤلاء المهاجرين الارمن الى اقصى حد وقامت تشكل منهم فرقا صدامية ضد السكان لوطنيين خاصة في ابان الثورة السورية الكبرى لعام ١٩٢٥ .

ويؤكد روبر دوكة في تقريره امام اللجنة الدائمة للانتدابات في جنيف ان الارمن قدموا الى الدويلات الخاضعة للانتداب الفرنسي على دفتين كبيرتين(١٤) : الاولى بعد هزيمة الجيوش الفرنسية في كيليكيا وانسحابها من هناك نهائيا بموجب صلح انفورا في نهاية ١٩٢١ ، وقدر عدد افراد هذه الدفعة بحوالي ٣٠ الفا . والثانية بعد انتصار الاتراك على اليونانيين في نهاية ١٩٢٢ . وقدرت هذه النهجرات الجماعية في الدفعة الثانية بحوالي ٥٨ الفا . وتوزع المهاجرون الارمن على دويلات الانتداب كالاتي : ٣٢ الفا في لبنان الكبير ، و ١٠ آلاف في دمشق ، و ٢٧٤٠٠ في حلب ، و ١٢٠٠ في دير الزور ، و ٦٢٤٠ في الاسكندرون ، و ١٤٢٠ في دويلة العلويين ، مما يجعل المجموع العام ٨٨٩٠٠(١٥) مهاجر ارمني .

ويضيف تقرير ادارة الانتداب لعام ١٩٢٣ - ١٩٢٤ ان موجة ثالثة من الهجرة الارمنية بدأت بعد توقيع اتفاقية لوزان عام ١٩٢٣ وبلغ تعداد افرادها ١٠٢ الفاً(١٦) . مما رفع العدد النهائي للمهاجرين الارمن الى ١٠٠ ألف ارمني في دويلات الانتداب ، وقد ارتفع العدد الى ١٥٠ ألفا تقريبا في ١٩٢٥(١٧) .

ان هؤلاء المهاجرين الارمن ، الفارين من خطر الإبادة التركي ، وجدوا لهم مأوى واسعاً في دويلات الانتداب الفرنسي . وقد سهلت لهم انتماءاتهم الطائفية المسيحية - كما يقول دومنيك شفاليه - الانخراط بين الطوائف اللبنانية دون ان تذوب فيها . فقد بقي الارمن يحافظون على استقلاليتهم النسبية كمجموعات .

(١٢) — L. Jalabert — op. cit. — P. 128.

(١٣) مجلة الحارس - السنة الثالثة - العدد ٨ ايار ١٩٢٦ - ص ٧٥١ .

(١٤) — R. de Caix « C.P.M. » 4ème Séance - Genève 25-6-1924 — P. 33.

(١٥) — L. Jalabert — op. cit. — P. 110.

(١٦) — H. C. « Rapport sur les années 1923-1924 » — P. 26-27.

(١٧) ارتين مادويان - متابلة خاصة . اما اوزو فيقدر تعداد الارمن لعام ١٩٢٧ بشانين الفا فقط وهو رقم بعيد عن الحقيقة .

— R. O'Zoux « Etats du Levant... » — P. 206.

طائفية مسيحية من جهة ، وكقومية أرمنية متميزة من جهة ثانية(١٨) . ومن هذا المنطلق بالذات تبرز الحياة السياسية عند غالبية الأرمن بتمايزها عن الحياة السياسية اللبنانية في ظل الانتداب من جهة ، وبارتباطها العضوي مع السلطة الحاكمة في جميع الظروف ما عدا تيار اشتراكي صغر التف حول شبيبة سبارتاك الأرمنية التي انخرطت في نضال الحزب الشيوعي او البولشفيكي اللبناني منذ عام ١٩٢٥ .

٢ - الاحزاب السياسية الارمنية

كانت أحزاب الأرمن السياسية ثلاثة : الداشناق او الطاشناق ، والهانشاق ، والرمغافار ازاداجان . وحزب الطاشناق هو الذي تسلم السلطة في « أرمينيا الحرة » بمساعدة الحلفاء في عام ١٩١٨ . اما حزب الهانشاق فكان حزبا اشتراكيا ديمقراطيا يؤيد الثورة السوفياتية في أرمينيا انطلاقا من مواقع وطنية اكثر منها طبقية . اما حزب الرامغافار فيمثل تيارا ديمقراطيا ليبراليا داخل صفوف الأرمن(١٩) .

وبقيام السلطة السوفياتية في جمهورية اذربيجان في نيسان ١٩٢٠ ، وجد الحزب البولشفيكي او الشيوعي في أرمينيا ان الظرف مؤات للقيام بثورة اشتراكية تدعمها ثورة اوكتوبر العظمى فقلب سلطة الطاشناق وأعلن قيام جمهورية أرمينيا السوفياتية في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٢٢ .

ومع قيام جمهورية أرمينيا السوفياتية انشطرت حياة الأرمن السياسية في الخارج الى تيارين بارزين : الاول يميني شوفيني يدعو الى الحفاظ على « الشخصية » الأرمنية داخل المجتمعات التي تواجدت فيها وعدم الانخراط في النضالات المطالبة والنقابية والتحررية لتلك المجتمعات بل تشكيل « قومية أرمنية » منفصلة عن « القوميات » المحلية ولها شخصيتها واستقلاليتها . وقد تجددت هذه الدعوة عمليا بوقوف دعاة هذا التيار ومناصريهم دوما الى جانب الاحزاب اليمينية المحلية والسلطة الحاكمة(٢٠) ، خارجية كانت ام محلية ، ومحاربة الاشتراكيين والليبراليين داخل صفوف الأرمن . ان دعم السلطة الانتدابية للدعاة هذا التيار لم يكن خفيا منذ البداية ، فقد شكلت منهم فرقا صدامية عسكرية لضرب نضالات شعوب سوريا ولبنان ولعبت الفرقة الأرمنية في جيوش الانتداب دورا غير مشرف ابان الثورة السورية الكبرى ولا يقل بشاعة عن دور اية فرقة من الفرق السنفالية

(١٨) — D. Chevallier « Les Arabes et la fin du peuple juif de Friedmann » — Annales — 1966 — P. 1325.

(١٩) — M. Suleiman « Political parties in Lebanon » — P. 20; et Thorossian « L'histoire de l'Arménie » — P. 158; et A. Mandelstam « La Société des Nations et les puissances devant le problème arménien » — Consultation.

(٢٠) — M. Suleiman — Ibid — P. 20.

العاملة في تلك الجيوش . ان اثر دعاء هذا التيار كان قويا طيلة ايام الانتداب ، وبتشجيع مباشر من سلطته بالذات . ووقعت جماهير الارمن ، نتيجة ذلك ، فريسة استفلال بشع من جانب الراسماليين ، الاجانب والمحليين ، واستطاعت سلطة الانتداب ابقاء اعداد كبيرة من الارمن رديفا واحتياطيا أساسيا لسياستها القمعية .

اما التيار الثاني فهو ديمقراطي ، ليبرالي ، اشتراكي على درجات متفاوتة . وقد دعا قاداته الى الاشتراك في نضالات الجماهير المحلية في البلدان التي يعيش فيها الارمن . كما دعا الاشتراكيون العلميون الى الانخراط في الاحزاب الشيوعية المحلية والعمل في داخلها . وقد تجسدت هذه الدعوة عمليا بالانضمام المباشر « لشبيبة سبارتاك الارمنية » الشيوعية التي اعلنت حل نفسها والانضمام الى الحزب الشيوعي اللبناني السوري فور معرفتهم بوجود هذا الحزب بعد مهرجان اول ايار ١٩٢٥ في بيروت . وقد عبّر ارتين مادويان عن هذا التيار بالقول : « ان الطريق الوحيد لحماية الارمن في سوريا ولبنان وجميع البلدان العربية هو طريق وحدة النضال الى جانب الشعوب العربية التي تقاتل الامبريالية بضراوة من أجل تحريرها واستقلالها » (٢١) .

ان دعاء هذا التيار ومناصريهم كانوا قليلي العدد لكنهم بالفو النشاط . وقد اعترف لويس جالابير ، من أبرز الفرنسيين المؤيدين لسياسة الانتداب في سوريا ولبنان ، بهذه الحقيقة حين قال :

« ان الحياة السياسية بين المهاجرين الارمن كانت تدور في فلك الاحزاب الثلاثة . وكان الطاشناق والرامافانر معارضين للسلطة السوفياتية في ارمينيا ، في حين كان الثالث ، اي الهانشاق ، يؤيد سياسة موسكو . فالهجرة الارمنية اذا كانت تحمل في احشائها خلايا بولشفيكية نشيطة ، فاعلة ، قليلة العدد لكنها بالغة الديناميكية » (٢٢) . الا ان جالابير لم يستطع التمييز بين الهانشاق وشبيبة سبارتاك المنشقة عنه ، تلك الشبيبة وحدها التي يصح وصفها بالنشاط والفاعلية والديناميكية ، والتي سارع الهانشاق نفسه الى حلها والتبرؤ من أعمالها . لذا يجب التمييز بين الهانشاق كحزب ديمقراطي اشتراكي محافظ ، وشبيبة سبارتاك الارمنية التي شكلت فصيلا أساسيا داخل الحركة الشيوعية في سوريا ولبنان .

٣ - شبيبة سبارتاك الارمنية رافد اشتراكي آخر ضد الانتداب

كانت اولى بوادر الفكر الاشتراكي العلمي داخل صفوف الارمن في سوريا ولبنان تلك التي تمت مع ولادة « اتحاد الطلاب الهانشاق » الذي انشء على غرار

— A. Madéyan « De l'histoire de notre presse publiée au Liban et en Syrie » (٢١)
« Nor-Paros » « La Nouvelle Phare » — No. I — Juin 1925.

— L. Jalabert « La Syrie et le Liban, réussite française ? » — P. 130. (٢٢)

الاتحاد المائل له في أضنه ، داخل صفوف الارمن هناك . وقد أنشأ هذا الاتحاد في بيروت مجموعة من الطلاب الارمن . وكان سكرتيره العام ارتين مادويان . وقد اتخذ هذا الاتحاد اتجاهها يساريا واضحا مما دفع قادة حزب الهانشاق الى حل هذا الاتحاد في اواخر عام ١٩٢٣ والطلب الى المسؤولين عنه بتسليم المستندات والوثائق التي بحوزتهم للقيادة الهانشاقية(٢٢) . بيد ان التجمع اليساري في الاتحاد سرعان ما قام بحل نفسه وجميع ارتباطاته بحزب الهانشاق والاعلان عن قيام اتحاد جديد باسم « شبيبة سبارتاك » متخذا اتجاهها شيوعيا واضحا ويسير على خطى الاممية الشيوعية ويتخذ من « الشبيبة الشيوعية » في ارمينيا السوفياتية مثاله الأعلى . وانتشرت شبيبة سبارتاك واست لها فروعا في بيروت وزحلة وحلب وجبل موسى . وكان من أبرز قادتها آنذاك : آرام برتيزيان رئيسها ، وارتين مادويان سكرتيرها العام في بيروت ، وهيكازون بويادجيان وكريكور تاتيان في زحلة ، وماسيس بانوسيان وستراك هايكازيان في حلب ، وبانوس ارماسيان واغوب دربدروسيان في جبل موسى(٢٤) .

لقد رفعت شبيبة سبارتاك ، منذ البداية ، راية الدفاع عن الحقوق ائديمقراطية والقومية للارمن في سوريا ولبنان ، وناضلت في سبيل تحسين اوضاعهم المعيشية البالفة السوء في المخيمات ، ونادت بوحدة الارمن في لبنان وسوريا والعالم اجمع حول الوطن الام : ارمينيا السوفياتية(٢٥) .

وفي كانون الاول ١٩٢٤ بعثت قيادة سبارتاك برسالة الى الحزب الشيوعي الفرنسي تعلمه فيها بقيام هذه الشبيبة المناضلة الشيوعية وتطلب منه المساعدة التنظيمية والثقافية . وقد تلقت القيادة رسالة جوابية في اواخر هذا الشهر موقعة من لويس سيليه Louis Sellier ، لامين العام للحزب الشيوعي الفرنسي بالذات تؤكد وقوف الحزب الى جانب الشبيبة ودعمها بجميع الوسائل المتوفرة لديه (٢٦) . وفي أوّل عام ١٩٢٥ توجهت شبيبة سبارتاك بالرسالة التالية الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في ارمينيا السوفياتية وبرسالة مماثلة الى اللجنة المركزية للكمسومول او الشبيبة الشيوعية الارمنية . وهذه ترجمتها العربية(٢٧) :

» بيروت في ٨ كانون الثاني ١٩٢٥

» الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في ارمينيا - بريفان .

(٢٢) ارتين مادويان - مقابلة خاصة .

(٢٣) A. Madéyan « Quelques notes sur la formation du Parti Communiste au Liban et en Syrie... » - Documents privés ronéotypés - P. 2.

(٢٥) A. Madéyan « De l'histoire de notre presse au Liban et en Syrie... » - article paru dans Haratch le 26-7-1964.

(٢٦) ارتين مادويان - مقابلة خاصة .

(٢٧) وثيقة خاصة مترجمة عن النص الارمني الى اللغة الفرنسية . وقد تلقت الشبيبة رسالة جوابية من « كومحين » رئيس الكومسومول في ارمينيا السوفياتية ، يبيد استعداد شبيبهه للمساهمة في دعم نضال شبيبة سبارتاك . والرسالة مكتوبة بالارمنية وعدد صفحاتها ثمانية ومترجمة الى الفرنسية .

» ايها الرفاق .

» منذ عدة أشهر قامت مجموعتنا المؤلفة من بعض الشبان المنشقين عن اتحاد
» طلاب الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، حزب الهانشاق في بيروت ، بتأسيس
» اتحاد شبيبة سبارتاك الارمنية . ولم تمض فترة طويلة حتى التف حولنا
» مجموعات جديدة من شبيبة الهانشاق والشبيبة غير المنظمة سياسيا ، مما اتاح
» لنا تثبيت اقدامنا بالرغم من جميع الصعوبات التي وضعت لعرقلة نشاطنا .
» ان اتحادنا هذا هو مجموعة عناصر بروليتارية من عمال وطلاب وموظفين .
» وقد وضع الاتحاد في رأس اهدافه جمع الشبيبة العاملة في المستعمرات تحت
» راية الكومنترن و تربيتها سياسيا بايدولوجية وتاكتيك الكومنترن ، وشحنها
» بالروح الطبقية ، وتنظيمها كفصيل مناضل من فصائل البروليتاريا الاممية
» في الشرق .

» ان تسمية شبيبتنا باسم « سبارتاك » بدل الشبيبة الشيوعية ، فرضتها
» علينا ظروف النضال المحلية الناجمة عن فقدان حزب شيوعي في سوريا .
» ونحن ، كلاجئين هنا ، قد اخترنا هذه التسمية كي لا تسمى القوى المفرقة في
» رجوعيتها الى ضرب تحركنا منذ البداية ، ومحاربتنا على الصعيدين الوطني
» والديني وتحريض العمال المحليين علينا .
» الرجاء امدادنا بالتوجيهات الضرورية وبالدراسات التثقيفية الحزبية . كما
» نود ابلاغكم اننا اجرينا عدة اتصالات مع الحزب الشيوعي الفرنسي ومع
» « جماعة العمل الارمنية » .

» فاقبلوا في الختام تحياتنا الرفاقية الحارة

» عن لجنة اتحاد شبيبة سبارتاك

» الرئيس السكرتير

» ارام يراتزيان ارتين مادويان «

وقد كتبت مجلة « Banvor-Paris » الارمنية او « باريس العامل » مقالا
تحت عنوان « حياة الارمن في الخارج » لمراسلها في سوريا ، جاء فيه « تأسس
هنا منذ عدة أشهر اتحاد الشبيبة اللينينية باسم « شبيبة سبارتاك » بمبادرة قام
بها فريق من الطلاب المنشقين عن اتحاد طلاب حزب الهانشاق . وقد حصل
الانشقاق انطلاقا من موقف طبقي واضح . . . وبالرغم من جميع الاستفزازات
والملاحقات البوليسية التي لجأ اليها حزب الطاشناق ، وبالرغم من جميع العقبات
الاخرى ، فان « شبيبة سبارتاك » لا تنفك تفتني بأعداد جديدة من شبيبة
الهانشاق واللاحزبيين وحتى من شبيبة الطاشناق باللدات . وقد بدأت شبيبة
سبارتاك كذلك تنظيم ندوات تثقيفية جماعية يوم الاحد من كل اسبوع » (٢٨) .

ولعل شبيبة سبارتاك هي اول محاولة تنظيمية شيوعية ، متصلة بالاممية ، تقوم على ارض لبنان وسوريا . بيد ان جهل الارمن باللغة العربية ، واللبنانيين والسوريين باللغة الارمنية ، ومراقبة سلطات الانتداب لجميع التحركات السياسية المناوئة لها تحت ستار « محاربة الشيوعية » ، ابقى هذا التيار الاشتراكي العلمي محصورا داخل نطاق تجمعات صغيرة من شبيبة الارمن في سوريا ولبنان دون ان تتعداهم . وهذا ما جعل هؤلاء الارمن الاشتراكيين يترقبون ظهور اول تيار اشتراكي علمي لبناني للانخراط فيه والعمل معه . ولم تكن لشبيبة سبارتاك اية صلات بالمحاولات الجارية في صفوف اللبنانيين لتأسيس حزب شيوعي او بولشفيكي في سوريا ولبنان (٢٩) . وقد تأخر قيام تعاون مثمر ومشترك بين جناحي الاشتراكيين العلميين المتواجدين سويا على ارض لبنان حتى مهرجان الكريستال في اول ايار ١٩٢٥ . اما اسم سبارتاك فقد رافق الحركة الشيوعية في صفوف الارمن فترة طويلة . كما اصدرت جريدة « شبيبة سبارتاك » عديدين في عام ١٩٢٧ كرس الاول لثورة ١٩٠٥ الروسية والثاني بعنوان « مات لينين ، عاشت اللينينية » (٣٠) .

دور ساراي في تفتيت الجبهة الموالية للانتداب

جاءت انتخابات ١١ ايار ١٩٢٤ الفرنسية بكارثيل اليسار الى السلطة الذي عهد الى الجنرال ساراي بمفوضية بيروت . وكان تعيين ساراي كافياً لبث الرعب في نفوس اليسوعيين والاكليروس اللبناني لما عرف عنه من عداء شديد لرجال الدين . وبمعنوان « ساراي عدو الثوب الاسود » كتب اسكندر رياشي يقول : « وكان اول عمل قامت به حكومة المتطرفين (في باريس) استدعاء ويفان من سوريا ولبنان وتعيين الجنرال ساراي ، احد اركان الحزب المتطرف وعدو الثوب الاسود الاكبر ، مفوضا ساميا في البلدين ... ووقع الهم في ركاب المكرتيرية باجمعهم ، وهم يعرفون ان ساراي ، اذا لم يحبسهم حالا ، فهو سيرميهم بالبحر لانه يعرف انهم صنائع الجزويت والعازاريين والفريز والمطارين والكهنة ... » (٣١) . وكان ساراي يتهم بالتعصب الاعمى ضد اليسوعيين وبانه من الماسونيين . « وقام اليسوعيون يعبئون بطارياتهم بوجه ساراي المتعصب ، الملحد ... وفرضوا على تلامذة مدارسهم دقيقة صمت حزنا على الديمقراطية ، وبدأت جرائدهم حملة مباشرة ضد المفوض السامي الجديد ... وبدأوا بارسال العرائض والاحتجاجات الى رئيس الجمهورية الفرنسية ورئيس وزرائها والوزراء والنواب والشخصيات البارزة ، قبل مجيء ساراي بالذات . واستقبلته شبيبة اليسوعيين بالهتاف لويغان بدلا من الهتاف له » (٣٢) .

(٢٩) ارتين مادويان — معالجة خاصة .

(٣٠) — A. Madéyan « Quelques notes sur la formation du Parti Communiste... » P. 6.

(٣١) الرياشي — « رؤساء لبنان كما عرفتهم » ص ٢١ — ٢٢ .

(٣٢) فرنسوا خوري « ذكريات » ص ٨١ .

et La Mazière « Partant pour la Syrie » — P. 101-107.

فهل استعجل اليسوعيون فتح المعركة ضد ساراي ام كانوا على علم بما سيقوم به مسبقا ؟ ان ما يهمنا تاريخيا في هذا المجال ان اليسوعيين فتحوا ثغرة واسعة ، وللمرة الاولى ، بين ادارة الانتداب واخلفاء اعوانها في الداخل ، اي اليسوعيين ورجال الدين المسيحيين . هذه الثغرة استفاد منها كثيرا انصار الليبرالية ، والماسونيون ، والنقابيون والاشتراكيون اللبنانيون . « فنتيجة للهجوم العنيف الذي بادره به اليسوعيون قبل مجيئه الى بيروت ، لم يجد ساراي امامه سوى الراديكاليين والاشتراكيين والماسونيين للتعاون معهم » (٢٢) وقام ميشال زكور ، صاحب جريدة « المعرض » ، يؤسس حزبا يطلق عليه « حزب الشبيبة اللبنانية » في اواخر ١٩٢٤ بالذات ، على اثر اعلان ساراي « جئت من فرنسا لتنفيذ احكام صك الانتداب لا اكثر ولا اقل » . لذا رفع هذا الحزب الشعارات التالية :

- ١ - تأييد حق الشعب اللبناني بانتخاب رئيس لبناني لحكومته الوطنية كما اعن الجنرال المفوض السامي ساراي .
- ٢ - التثبيت بالقانون الاساسي (الدستور) للدولة اللبنانية وتخويل الامة حق وضعه .
- ٣ - شكر الدولة المنتدبة على تحقيقها ، بلسان مفوضها السامي ، احد الاماني اللبنانية « (٢٤) » .

وتألف حزب آخر في آذار ١٩٢٥ برئاسة فارس مشرق ، وهو « حزب الرابطة اللبنانية » . ووضع هذا الحزب نفسه ايضا بتصرف الجنرال ساراي ، وجعل شعاره « مع فرنسا المنتدبة من اجل تقدم لبنان الكبير » (٢٥) . كما استفل الماسونيون ، من جهتهم ، تلك الليبرالية ، ليلعبوا دورا بارزا ايام ساراي . ويؤكد محمد جميل بيهم (٢٦) ، رئيس المؤتمر الماسوني العام ، المعروف بمحفل قاسيون ، والذي عقد في دمشق في تلك الفترة ، ان هذا المؤتمر ضم ١٧ محفلا من سوريا ولبنان وفلسطين ، وكان سعيد صباغة وجبران تويني من اعضاء اللجنة التنفيذية لهذا المؤتمر . ويقبول بيهم ان في بيروت وحدها كان يوجد ٨ محافل منها الاتحاد والسلام والفرنسي والمصري والاسكتلندي . كما أكد ايضا ان ساراي نفسه كان ماسونيا . لذا كانت ردة الفعل عنيفة لدى الجزويت في هذا المجال ، فانشأوا عصابات مهمتها التعرض للماسونيين واهانتهم وتهديم مراكز محافلهم . ويؤكد الدكتور ادمون رباط (٢٧) انه كان في شبابه احد اعضاء تلك العصابات التي شكلها اليسوعيون في مدارسهم ببيروت . وزاد في تازيم الموقف ان ساراي كان يرفض دوماً حضور احتفالات اليسوعيين التقليدية ويرفض حضور الاحتفالات الدينية

— Ibid — P. 92.

(٢٢)

(٢٤) اورنته جريدة البشر — العدد ٢٢٧٤ تاريخ — ١٠ كانون الثاني ١٩٢٥ .

(٢٥) الحارس — العدد ١٧ — ١٨ ايار ١٩٢٥ — ص ٧ .

(٢٦) مقابلة خاصة — راجع ايضا عبد الله حنا « الحركة انعمالية في سوريا ولبنان » ص ١٠٢ .

(٢٧) مقابلة خاصة .

للكنيسة المارونية ، كما يرفض الذهاب الى بكرمي . لقد زاد ساراي ، بياسته تلك ، من اتساع ثغرة الخلاف بين ادارة الانتداب والموالين لها داخليا حتى اضطرت حكومة باريس للتدخل فصالحت بين ساراي وبكرمي . واطلق ساراي عبارته المشهورة « ان باريس تستاهل قداما » . غير ان تلك المصالحة لم تطل في عمر حكم ساراي هنا فجاء اندلاع الثورة السورية وقصفه البربري لمدينة دمشق ، بعد قمعه الوحشي لمظاهرة بيروت تجبر حكومة الكارتيل على سحب جنرالها « الاحمر ، الماسوني ، الملحد ... » .

النضال الديمقراطي ضد الانتداب

١ - الحزب الشيوعي يقود بالسرخى خبز الشعب اللبناني

كانت معامل لف السجائر واسعة الانتشار في بسكنتا وبكفيا وبيت شباب وانطلياس والخنشارة وضهور الشوير والشيخ وزحلة وغيرها . وكانت مؤسسات قاصوف ، صوايا وغيرهما اكبر مراكز تلك التجمعات الصناعية اللبنانية للفتبغ برساميل لبنانية محلية . وقد اوضحت تلك المعامل مراكز لتجمع العمال في معظم المناطق القريبة من بيروت بحيث ارتفع تعدادهم الى حوالي الالفين ، مما افسح المجال امام تأسيس « نقابة عمال التبغ » في لبنان في اواخر تموز - اوائل آب ١٩٢٤ والتي سرعان ما اسست لها فروعا في معظم المعامل . وكانت بكفيا المركز الرئيسي لتلك النقابة التي كان يديرها مجلس مستشارين بقيادة فؤاد الثمالي ، وهو لبناني هاجر الى مصر وشارك هناك في نضالات الطبقة العاملة المصرية واصبح عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري يوم طردته السلطات البريطانية الى لبنان في عام ١٩٢٣ .

وكان لنقابة عمال التبغ اثر كبير بين عمال التبغ في لبنان وبلغ من نفوذها ان نجحت باقامة اول لجنة للتنظيم النقابي الشامل للطبقة العاملة اللبنانية فأسست، منذ تشرين الاول ١٩٢٥ ، الكوميسيون النقابي او « اللجنة النقابية العليا » التي ضمت مندوبين عن عمال التبغ والطباعة والطهارة والنجارة والسكافين والسائقين وغيرهم . وكان ابرز قادة نقابة عمال التبغ : فؤاد الثمالي ، وفريد طعمه ، وبطرس حشيمه ، وبشارة كامل وغيرهم ، والتف حولهم مجموعة من المثقفين الديمقراطيين الذين آمنوا بدور الطبقة العاملة الاساسي في النضالات المطلوبة والسياسية والوطنية وكان على رأسهم يوسف ابراهيم يزبك ، ونمر هبه ، نقيب المحامين سابقا ، وشفيق مظهر ، طبيب اسنان وغيرهم (٢٨) .

وكان يوسف يزبك قد اقلع عن « البكاء » في الصحافي التائه وبدأ كتاباته

(٢٨) يوسف يزبك ، وارثين مادويان . مقابلات خاصة .

عن الاشتراكية منذ أوائل ١٩٢٣ وظهر له مقال هام حول « الاشتراكية في لبنان » (٣٩) بمناسبة الاول من ايار لهذا العام . وكانت جريدة « المعرض » ، لميشال زكور ، تحتضن هؤلاء المثقفين . وجاءت صداقة يزبك مع فؤاد الشمالي الحميمة لتزيده حماسا للأفكار الشيوعية والمناذاة بها . وبمناسبة موت لينين كتب يزبك مقالا في المعرض في اواخر كانون الثاني ١٩٢٤ يقول : « اخيرا مات الرفيق لينين ، الرجل الذي شغل العالم بأسره ، في حياته وفي مرضه وفي موته ... ان لينين ، الذي كان شبح الخوف والخطر لاوروبا وللعالم ، كان اذله الحكومات البولشفيكية الواسعة الاطراف ، وظل يبعث الدول وغول الحكومات حتى مات . وها قد تنفست اوروبا الصعداء في موته ولكن بدون ان تترحم عليه . على ان التاريخ سيقوم بهذه المهمة ... » (٤٠) .

وفي اواسط تشرين الاول ١٩٢٤ توفي اناتول فرانس فنعته المعرض بالكلمة التالية « مات هذا الاسبوع اناتول فرانس ، الرجل البولشفيكى الحقيقي والكتاب الانساني العظيم . وكان للنعي صداه في لبنان فقام كتابه الاشتراكيون يودعون الراحل الكبير » (٤١) . وقال فيه راجي الراعي : « ستجتمع بعد اليوم بهيجو ، وسيحدث اليك بيرن ، وسيقبل جينك فرجيل » (٤٢) . اما يوسف يزبك فكتب يقول : « مات صديق الفلاحين والعمال ، مات صديق المظلومين والفقراء ، مات صديق الحرية ورسولها ... » (٤٣)

ان تلك المقالات كانت فاتحة تعارف بين يوسف ابراهيم يزبك ، مراقب جوازات السفر في مرفأ بيروت ، وجوزف برجر ، أحد قادة الحزب الشيوعي في فلسطين الذي كان في بيروت خلال تلك الفترة . وكان يزبك يقيم صلات قوية مع فؤاد الشمالي المطرود من مصر والعامل في صناعة لف الجائر في الحدث . وجرى لقاء موسع بين برجر ويزبك والشمالي ومظهر وهبه وقشعمي وطعمه والياس ابو نادر والمحامي الياس جهشان ، في الحدث في ٢٤ تشرين الاول ١٩٢٤ . وقد تحدث المجتمعون حول امكانية تأسيس حزب شيوعي واصدار جريدة يومية تنطق باللغة العربية وتحمل خط الحزب الى الجماهير . ولم يتقبل الفكرة سوى يوسف يزبك وفؤاد الشمالي وفريد طعمه والياس قشعمي وانضم اليهم بطرس حشيمة فيما بعد . وهكذا تم تأسيس اول حزب شيوعي في سوريا ولبنان من هؤلاء العمال الاربعة في معامل لف التبغ والمثقف الديمقراطي يوسف ابراهيم يزبك ولم يكن هناك اي تجمع شيوعي آخر بين عرب سوريا ولبنان ولم تكن هناك ايضا اية معرفة مسبقة بوجود شبيبة ارمنية شيوعية . فالارمن لا يعرفون اللغة العربية والعرب لا يعرفون اللغة الارمنية ، ولم تكن نشاطات شبيبة سبارتاك تتمدى نطاق اعداد صغيرة جدا

(٣٩) راجع : « المعرض » العدد ٥٨ الصادر في ٥ ايار ١٩٢٣ .

(٤٠) المعرض - السنة ٣ - العدد ٢٧٧ الصادر في ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٤ - الافتتاحية .

(٤١) المعرض - السنة الرابعة - العدد ٣٤٤ الصادر في ١٩ تشرين الاول ١٩٢٤ .

(٤٢) المصدر السابق .

(٤٣) المعرض عدد ٢٤ تشرين الاول ١٩٢٤ - راجع يزبك « حكاية اول نوار » ص ٥٩ .

من الشبيبة الارمنية دون سواها نظرا للعداء الشديد الذي جوبهت به من قبل سلطات الانتداب وحزب الطاشناق وحزب الهانشاق المنفصلة عنه حديثا ، ولم تكن لها القوة الذاتية التي تمكنتها من نشر برنامجها وتكثيف وسائل عملها(٤٤) .

لقد قام الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان على اكتاف هؤلاء الخمسة الذين سارعوا الى توسيع نشاطه في صفوف عمال التبغ بشكل خاص وقرروا اتخاذ وجه علني لنضالهم تمثل بحزب الشعب اللبناني(٤٥) الذي اعتمد اساسا على نقابة عمال التبغ في توسيع نضاله داخل الحركة العمالية اللبنانية وقرر الاحتفال ، ولأول مرة في لبنان ، بعيد اول ايار ، عيد الطبقة العاملة العالمية(٤٦) . وكان هذا العيد فاتحة تعارف بين جناحين شيوعيين متواجدين سورياً على ارض لبنان : شبيبة سبارتاك الارمنية ، والقادة اللبنانيين الشيوعيين المستترين خلف حزب الشعب اللبناني . فقد عرف الارمن الشيوعيون بهذا الاحتفال من خلال الصحف اللبنانية . وقد تلاقى الفصيلان الشيوعيان بعد ايام قلائل من مهرجان الكريستال واتفقا على توحيد جهودهما في تنظيم سياسي واحد باسم الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا ضم المنظمتين اللبنانية والارمنية . وقد تسمى الحزب بهذا الاسم — كما يقول ارتين مادويان ويوسف يزبك — بسبب الارتباط التاريخي والاقتصادي لسوريا ولبنان من جهة ، وبسبب وجود عدو واحد ومصالحة مشتركة في النضال الموحد ، ضد الفرنسيين . وقد تشكلت اللجنة القائدة لهذا الحزب من يوسف يزبك وفؤاد الشمالي ، وفريد طعمه ، وبطرس حشيمة ، وارتين مادويان ، وهيكازون بويادجيان وتسمت باللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان واستمر حزب الشعب الوجه العلني لنشاط الحزب الشيوعي السري .

ان حزب الشعب اللبناني ، الذي لم ينل ترخيصا رسميا بنشاطه ، لعب دورا اساسيا في نقل خط الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان الى جماهير الطبقة العاملة ، كما ساهم الكوميسيون النقابي(٤٧) ايضا في اصال خط الحزب الى عمال الطباعة والطهارة والنجارة والسواقين والسكافين بالاضافة الى عمال التبغ . لذا كان ضرب الحزب الشيوعي في نهاية هذا العام ، باعتقال ونفي خيرة مناضليه ، ضربة رئيسية لحزب الشعب اللبناني ولهذا الكوميسيون النقابي بالذات .

لقد ارتدى نضال حزب الشعب اللبناني طابع الدمج في الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا حتى يصعب تاريخيا التمييز بين نضالاتهما التي كانت واحدة بالفعل وان كان الفرز واضحا بين اعضاء حزب الشعب اللبناني الذين قبلوا بالتسمية الشيوعية والذين رفضوها . فالحزبان واحد في النضال العملي والتفاوت فقط في مستوى وعي الاعضاء وازدواجية انتسابهم في الحزبين .

(٤٤) راجعنا في هذا المجال يوسف يزبك وارتين مادويان .

(٤٥) يزبك ومادويان — مقابلات خاصة . راجع كتاب يزبك « حكاية اول نوار » ص ٦٥ وما يليها

(٤٦) راجع مقالة يزبك في البلاغ « قصة اول ايار في لبنان » .

(٤٧) — A. Madéyan « Des notes sur le mouvement syndical au Liban » — P. I. —

٢ - حزب الشعب اللبناني مرحلة هامة للنضال المطلي

تمت ولادة حزب الشعب اللبناني كوجه علني للحزب الشيوعي او البولشفيكي اللبناني(٤٨) الذي بدأ نشاطه التأسيسي في اواخر تشرين الاول ١٩٢٤ . وقد تمركز قادة الحزب كطليعة نقابية لعمال التبغ في بكفيا والتي كان يشمل نشاطها الاغلبية الساحقة من عمال مصانع التبغ في لبنان .

وعندما اعلن ساراي عزمه على اقامة مجالس منتخبة ، لاقى التأييد التام من جانب حزب الشعب اللبناني الذي وجد في انفتاح ساراي على الليبراليين والعلمانيين والاشتراكيين فرصة طيبة للانتشار والتنظيم وطلب الترخيص الرسمي به .

ففي ٣٠ نيسان ١٩٢٥ ، وجه يوسف يزبك ، والياس سرور ، وبشارة كامل ، وفارس معتوق ، ومخايل داود ابي حنا، والياس قشعمي، وبطرس حشيمة، وفريد طعمه ، طلبا رسميا للتخصيص لهم بانشاء « حزب الشعب اللبناني » هذا نصح مترجما عن الفرنسية(٤٩) :

» الى السيد حاكم دولة لبنان الكبير .

» دولة الحاكم .

» ان الموقعين ادناه يتشرفون بأن يرفعوا الى مقامكم ما يلي :

» لقد اتفنا حزبا باسم « حزب الشعب اللبناني » هدفه الاسهام بكافة الوسائل

» لتطوير الصناعة والزراعة والتجارة في لبنان ، ولنشر روح الاخاء في صفوف

» الامة اللبنانية ، ولتبع الاكليروس من توسيع نفوذه على حساب المصلحة العامة ،

» ولدعم المدارس الوطنية وتوحيد البرامج على اساس التعليم العلماني ، ولتجميع

» العمال والفلاحين في نقابات تدافع عن مصالحهم المشتركة . ان حزب الشعب

» اللبناني سيستخدم كامل نفوذه لاختضاع الرساميل والميراث للضرائب وكي تعتبر

» الاملاك الوقف املاكا وطنية تخضع لاشراف الحكومة ، كما يعمل الحزب على

» تحرير المرأة اللبنانية ...

» ان هذه البنود مفصلة في نظامنا الاساسي . ومقر الحزب بكفيا . وقد

» انتدبنا فريد طعمة لتمثيلنا لدى الحكومة ، ولن يكون لحزب الشعب رئيس .

» اعتمادا على ما لديكم من انفتاح على حزب الشعب اللبناني ونظرا لما عرف

» عنكم من روح تحررية ، فنحن على ثقة تامة بأن طلبنا هذا سيجد استجابة

» تامة من مقامكم ... فاقبل ، يا دولة الحاكم ، جزيل احترامنا ... » .

ان برنامج حزب الشعب اللبناني هذا ، والذي لا يخلو من بصاهات التوجه

العام لسياسة الجنرال ساراي خاصة في محاربة الاكليروس وملكية الاوقاف العامة

والتعليم العلماني ، يدل بوضوح على مستوى سياسي رفيع من حيث شموله برنامجا

(٤٨) يوسف ابراهيم يزبك - « قصة اول اول ايار في لبنان » مجلة البلاغ البيروتية - العدد ١٧ -

الصادر في ١ ايار سنة ١٩٧٢ ص ٣٢ .

(٤٩) المصدر السابق ص ٢٤ - ٢٥ - النص الفرنسي الذي ترجمته الى العربية .

نقائيا ، مطلبيا ، سياسيا ، دون المناذاة علناً برفض الانتداب وسياسته بل كان يحاول اتخاذ وجه شرعي للنضال يختفي وراءه الحزب البولشفيكي ، كما يقول أحد مؤسسيه يوسف يزبك « كانت لنا قاعدة عمالية نخبية وراءها ونستتر بها ، اسمها « حزب الشعب اللبناني » ، وهو حزب الفئاه من الطبقة العاملة وحدها غطاء لحقيقتنا ، وأبدى فؤاد الشالي وفريد طعمه وفارس معتوق نشاطا كبيرا في ضم كثيرين من رفقاءهم عمال التبغ اليه من معامل بكفيا والشوير والخنشارة والشياح وما اليها » (٥٠) .

بيد ان هذا الحزب لم يحصل على الترخيص الرسمي بعمله وبقي محصورا ضمن الفئات المسيحية دون سواها ، كما يدل على ذلك لائحة مؤسسيه ، لان الحركة الوجودية في لبنان الكبير بقيت ترفض التعاون مع الانتداب وجميع المعترفين بشرعيته والنضال من داخله ، واكتفوا بالمقاطعة والرفض لانتخابات المجلس التمثيلي في عام ١٩٢٢ ، ولضم المناطق الاربعة وبيروت وطرابلس الى لبنان الكبير (٥١) . وبقي رفض الحركة الوجودية بهذا الشكل عائقا اساسيا في وجه تجميع القوى ذات المصلحة بضرب الانتداب والنضال لازاحته فعليا عن صدور اللبنانيين . ان حزب الشعب اللبناني كان اول من حاول تجميع القوى الوطنية ضد الانتداب الفرنسي متخطيا بذلك جميع الشعارات الطائفية والعنصرية التي كان يفذيها الانتدائيون بالذات .

اما نشيد حزب الشعب اللبناني فيدل بوضوح على تخطيه للطائفية والعنصرية اللتين كان الانتداب يحرص بشدة على تفديتهما خاصة في صفوف الموارنة والارمن . كما يدل النشيد الذي نظم كلماته يوسف ابراهيم يزبك ، وكان الاعضاء ينشدون مقاطع منه في كل اجتماع ، فلا يخلو من الجرأة في دعوته لاعتناق الشيوعية . ونحن ، اذ نورد هذه المقاطع على مسؤولية راويها ، ننوه الى ان يزبك يصر على ان المقطع الاخير قد اضيف الى النشيد ولم يكن موجودا فيه اصلا .
وتقول كلمات النشيد (٥٢) :

اللازمة :

رغم انف الظالمين
بدماء الكادحين

« يحيى حزب الشعب فينا
واذا ما عاش يروى



(٥٠) يوسف يزبك — البلاغ — المصدر السابق ص ٢٢ .

(٥١) — Pierre Rondot « Les institutions politiques du Liban » — P. 48.

(٥٢) وجدنا كلمات النشيد مكتوبة بدون توقيع بين اوراق محفوظات مجلة « الطريق » . وبعد الاتصال بالاستاذ يزبك اكد انها من تأليفه ونحن نوردتها ثقة منا بان الاستاذ يزبك مصدر موثوق من مصادر هذه الفترة .

في الحمى لا مسلمين
بالتأخي اجمعين

لا نصارى لا يهود
لا دروز بل عهود
اللازمة



انها الداء الذميمة
شعب لبنان الكريم

لا نريد الطائفية
فلتضم الشيوعية
اللازمة



اما المقطع المضاف ، حسب رأي الاستاذ يزبك ، فيقول
ثقله يضني النفوس
بالمطارق والفسؤوس

عشنا دوما تحت نير
حطموه يا رفاقي
اللازمة



٢ - مهرجان الكريستال يرسخ دور حزب الشعب اللبناني في قيادة المعارضة

قرر الشباب النعمة ، الذين وقعوا عريضة للترخيص بحزب الشعب اللبناني، الاحتفال بعيد اول ايار ١٩٢٥ ولأول مرة في لبنان . واصر الحزب دعوة للعمال يدعوهم فيها الى الاضراب ، وكان اول نداء من نوعه في لبنان (٥٢) . وجاء فيه :

« ان حزب الشعب اللبناني الذي أسسه عمال لبنان وفلاحوه ، وجعل من مطالبه الجهورية رفع الظلم عن الطبقة العاملة ، ينادي العمال في كل البلاد ليشاركوا مع اعضاء الحزب في الاضراب عن العمل في يوم اول ايار الذي هو العيد الرسمي الوحيد لجميع عمال العالم ، ويرجو منهم ان يظهروا للراسماليين والتمولين انهم لا يشتغلون في اليوم المذكور احتجاجا على الاعتساف اللاحق بهم منهم ، وتأييدا للمطالب التي أقرها مندوبو العمال في العالم كله في مؤتمر باريس، عام ١٨٨٩ .

« نطلب من جميع العمال والفلاحين في هذه البلاد الشقية ان يتركوا اعمالهم في يوم اول ايار ويبرهنوا للتمولين والاقطاعيين انهم طبقة لها الحق بالحياة الحرة كغيرها من الطبقات .

« يجب على جميع العمال الذين هم سعادة الوطن وساعد نجاحه ان يسمعوا صوت تظلمهم عاليا في اول ايار ، ويشاركوا اخوانهم اعضاء حزب الشعب اللبناني في الاحتجاج على الحيف الواقع عليهم .

(٥٢) يزبك - المصدر السابق - ص ٢٢ . ويزبك « حكاية اول نوار .. » ص ٧٨ - ٧٩ .

« فليحي العمال والفلاحون ، وليحي اول ايار !

اللجنة التنفيذية « (٥٤) .

وقد نشرت النداء جريدة الصحافي التائه في ٣٠ نيسان ١٩٢٥ ، كما نشرته « زحله الفتاة » في نفس التاريخ ، وقد صدرت هذه الصحيفة في ذلك اليوم تحت هذا العنوان « نداء حزب الشعب اللبناني الى جميع العمال والفلاحين . حركة اشتراكية في بيروت » (٥٥) .

وفي الساعة العاشرة من اول ايار ١٩٢٥ ، وصلت الى سينما الكريستال في بيروت، مكان المهرجان، خمون سيارة (٥٦) تقل وفود حزب الشعب اللبناني من القرى، مزينة برايات حمراء، وبعض رايات « لبنانية » وكانت القاعة مملوءة بالعمال والفلاحين . وتكلم الرفيق (٥٧) وديع الشيخاني مبينا اسباب الاجتماع وحاجة العمال الى التكتاف والتضامن للمطالبة بحقوقهم المهضومة . ثم الرفيق حنا ابي راشد فتكلم عن وجوب تأليف نقابات العمال من العمال انفسهم ، ثم الرفيق الياس متى عن ضرورة ملحمة لاتحاد العمال في نقابات منظمة ، ثم الرفيق فؤاد الشمالي الذي قال « علينا ان نتحد داخل النقابات ، عليكم ايها الاخوة ، ان تحذروا الدخلاء الذين يندسون بينكم . . اطردهم باحتقار من صفوفكم . . يجب ان يكون نوابنا من طبقتنا . ان العمال طبقة لها الحق في الحياة الحرة كغيرها من الطبقات . لتتحد ايها الاخوة ، ولنهتف بصوت واحد : ليحي العمال ! ليحي الفلاحون ! ليحي اول ايار ! وليسقط الطفأة » (٥٨) .

ثم تكلم الرفيق هنري الجميل واصفا حياة العامل وشقاءه . ثم القى الرفيق الياس ابو شبكة قصيدة نارية بعنوان « العامل الثائر » جاء فيها وصف لكبار الموظفين اللبنانيين الزاحفين في خدمة المستعمر !

« فهم الذئاب وفي سبيل وظيفة
تمشي اظافرهم على اكباده
« من يشرق قوما يعيش بمالهم
فلبصق الدنيا على الحاده » (٥٩)

ثم تكلم الصحافي خير الله خير الله بالعامية فقال « شوفوا فوق ، تطلعوا للسمما . . . شو في بين رؤوسكم والله ؟ ما شي . ما في شي ابدا . . . ليش الأقوياء بدهم يفصلوا بين رؤوسكم والسمما ؟ » ثم تكلم الرفيق يوسف يزبك عن تاريخ اول ايار ومؤتمرات العمال في العالم وبسط مطالبهم التي يجب ان يرفعوها الى الحكومة . والقى الصحافي شكري بخاش خطابا جاء فيه « ان كل الإنسانية سائرة نحو مبادئ فولتير وروسو وكارل ماركس » (٦٠) . وبدأت جريدته « زحله الفتاة » تصدر،

(٥٤) المصدر السابق - ص ٢٢ - والصحافي التائه في ٣٠ نيسان ١٩٢٥ .

(٥٥) راجع « زحله الفتاة » عدد ٣٠ نيسان ١٩٢٥ .

(٥٦) يزبك - المصدر السابق - ص ٢٢ .

(٥٧) يقول يزبك بان الحزب وزع بيايه على الصحف ونيه كلمة رفيق امام معظم الخلباء - المصدر

السابق ص ٢٦ .

(٥٨) الإنسانية - العدد الاول الصادر في ١٥ ايار ١٩٢٥ .

(٥٩) البلاغ - المصدر السابق ص ٢٣ .

(٦٠) زحله الفتاة - عدد ايار ١٩٢٥ .

في الحمى لا ملمين
بالتأخي اجمعين

لا نصارى لا يهود
لا دروز بل عهود
اللازمة



انها النداء اللذيم
شعب لبنان الكريم

لا نريد الطائفية
فلتضم الشيوعية
اللازمة



اما المقطع المضاف ، حسب رأي الاستاذ بربك ، فيقول
عشنا دوما تحت نير
حطموه يا رفاقي
تقله يضني النفوس
بالمطارق والفؤوس

اللازمة



٣ - مهرجان الكريستال يرسخ دور حزب الشعب البناني في قيادة المعارضة

قرر الشباب التسعة ، الذين وقعوا عريضة للترخيص بحزب الشعب اللبناني، الاحتفال بعيد اول ايار ١٩٢٥ ولأول مرة في لبنان . واصدر الحزب دعوة للعمال يدعوهم فيها الى الاضراب ، وكان اول نداء من نوعه في لبنان (٥٢) . وجاء فيه :

« ان حزب الشعب اللبناني الذي أسسه عمال لبنان وفلاحوه ، وجعل من مطالبه الجوهريّة رفع الظلم عن الطبقة العاملة ، ينادي العمال في كل البلاد ليشاركوا مع اعضاء الحزب في الاضراب عن العمل في يوم اول ايار الذي هو العيد الرسمي الوحيد لجميع عمال العالم ، ويرجو منهم ان يظهروا للراسماليين والتمولين انهم لا يشتغلون في اليوم المذكور احتجاجا على الاعتراف اللاحق بهم منهم ، وتأييدا للمطالب التي أقرها مندوبو العمال في العالم كله في مؤتمر باريس، عام ١٨٨٩ .

« نطلب من جميع العمال والفلاحين في هذه البلاد الشقية ان يتركوا اعمالهم في يوم اول ايار ويبرهنوا للتمولين والاقطاعيين انهم طبقة لها الحق بالحياة الحرة كغيرها من الطبقات .

« يجب على جميع العمال الذين هم سعادة الوطن وساعد نجاحه ان يسمعوا صوت تظلمهم عاليا في اول ايار ، ويشاركوا اخوانهم اعضاء حزب الشعب اللبناني في الاحتجاج على الحيف الواقع عليهم .

(٥٢) بربك - المصدر السابق - ص ٢٢ . ويزبك « حكاية اول نوار . . » ص ٧٨ - ٧٩ .

« فليحي العمال والفلاحون ، وليحي اول ايار !

اللجنة التنفيذية «(٥٤)» .

وقد نشرت النداء جريدة الصحافي التائه في ٣٠ نيسان ١٩٢٥ ، كما نشرته « زحله الفتاة » في نفس التاريخ ، وقد صدرت هذه الصحيفة في ذلك اليوم تحت هذا العنوان « نداء حزب الشعب اللبناني الى جميع العمال والفلاحين . حركة اشتراكية في بيروت »(٥٥) .

وفي الساعة العاشرة من اول ايار ١٩٢٥ ، وصلت الى سينما الكريستال في بيروت، مكان المهرجان، خمسون سيارة(٥٦) تقل وفود حزب الشعب اللبناني من القرى، مزينة برايات حمراء، وبعض رايات « لبنانية » وكانت القاعة مملوءة بالعمال والفلاحين . وتكلم الرفيق(٥٧) وديع الشيخاني مبينا اسباب الاجتماع وحاجة العمال الى التكتاف والتضامن للمطالبة بحقوقهم المهضومة . ثم الرفيق حنا ابي راشد فتكلم عن وجوب تأليف نقابات العمال من العمال انفسهم ، ثم الرفيق الياس متى عن ضرورة ملحمة لاتحاد العمال في نقابات منظمة ، ثم الرفيق فؤاد الشمالي الذي قال « علينا ان نتحد داخل النقابات ، عليكم ايها الاخوة ، ان تحذروا الدخلاء الذين يندسون بينكم .. اطردهم باحتقار من صفوفكم .. يجب ان يكون نوابنا من طبقتنا . ان العمال طبقة لها الحق في الحياة الحرة كغيرها من الطبقات . لتتحد ايها الاخوة ، ولننتهف بصوت واحد : ليحي العمال ! ليحي الفلاحون ! ليحي اول ايار ! وليسقط الطفأة »(٥٨) .

ثم تكلم الرفيق هنري الجميل واصفا حياة العامل وشقائه . ثم القى الرفيق الياس ابو شبكة قصيدة نارية بعنوان « العامل الثائر » جاء فيها وصف لكبار الموظفين اللبنانيين الزاحفين في خدمة المستعمر !

« فهم الذئب وفي سبيل وظيفة
تمشي اظافرهم على اكباده
من يسترق قوما يعيش بمالهم
فلبصق الدنيا على الحاده »(٥٩)

ثم تكلم الصحافي خير الله خير الله بالعامية فقال « شوفوا فوق ، تطلعوا للما ... شو في بين رؤوسكم والله ؟ ما شي . ما في شي ابدا ... ليش الأقوياء بدهم يفصلوا بين رؤوسكم والسما ؟ » ثم تكلم الرفيق يوسف يزبك عن تاريخ اول ايار ومؤتمرات العمال في العالم وبسط مطالبهم التي يجب ان يرفعوها الى الحكومة . وألقى الصحافي شكري بخاش خطابا جاء فيه « ان كل الانسانية سائرة نحو مبادئ فولتير وروسو وكارل ماركس »(٦٠) . وبدأت جريدته « زحله الفتاة » تصدر،

(٥٤) المصدر السابق - ص ٢٢ - والصحافي التائه في ٣٠ نيسان ١٩٢٥ .

(٥٥) راجع « زحله الفتاة » عدد ٢٠ نيسان ١٩٢٥ .

(٥٦) يزبك - المصدر السابق - ص ٢٢ .

(٥٧) يقول يزبك بان الحزب وزع بيايه على الصحف ونهيه كلمة رفاق امام معظم الخبثاء - المصدر السابق ص ٢٦ .

(٥٨) الانسانية - العدد الاول الصادر في ١٥ ايار ١٩٢٥ .

(٥٩) البلاغ - المصدر السابق ص ٢٢ .

(٦٠) زحله الفتاة - عدد ايار ١٩٢٥ .

منذ ذلك التاريخ وعليها شعار « جريدة يومية علمانية اشتراكية » (١١) .
وفي نهاية المهرجان انتخبت لجنة من خمسة وعشرين (١٢) عاملا لمتابعة المطالب
التي اقرها الحاضرون بالهاتف . وانتدبت اللجنة وفدا عنها من ثمانية رفاق يرفع
للحاكم « مطالب اول ايار » ويطلب رخصة تأليف نقابة عامة لجميع العمال . وتحددت
مطالب اول ايار كما يلي :

- ١ - تحديد اوقات العمل اليومي ثماني ساعات .
- ٢ - تحديد ادنى الاجور التي يجب ان تكون كافية لمعيشة العامل .
- ٣ - سن نظام يحمي العمال .
- ٤ - اصحاب المعامل مسؤولون عن كل حادث يقع على العامل اثناء شغله وتكون
تربية الاطفال ومعيشة المشوهين بسبب عملهم على عاتق الهيئة الاجتماعية
واصحاب العمل .
- ٥ - منع الشغل الليلي .
- ٦ - احياء المشاريع الاقتصادية .
- ٧ - ابقاء قرار لجنة الاجور ساريا على العمل » (١٣) .

وقامت اللجنة المكونة من الياس متى ، جبران نفاع ، غطاس كرم ، نمر هبه ،
حننا ابي راشد ، وديع الشبخاني ، فؤاد شمالي ، يوسف يزبك (١٤) ، بمقابلة حاكم
لبنان ورفع تلك المطالب اليه فوعد بتنفيذ البعض منها ، خاصة مسألة قانون لحماية
العمال والعاملات والاطفال .

لقد رسخ مهرجان الكريستال وحدة النضال المشترك بين طليعة النقابات
من جهة ، والمثقفين الوطنيين المعارضين لسياسة الانتداب من جهة اخرى . كما كان
هذا المهرجان فرصة طيبة لاكتشاف المجموعة الثالثة من الاشتراكيين ، مجموعة
« سبارتاك » الارمنية او « شبيبة سبارتاك » التي اسسها ارتين مادويان ، عضو
حزب الهانشاق سابقا ، منذ ١٩٢٣ ، والتي ضمت العديد من العمال والشبيبة
الارمنية .

لقد ترسخ دور حزب الشعب اللبناني بعد مهرجان الكريستال ، كأقوى حزب
سياسي معارض للانتداب ، يستند الى برنامج واضح ويفتح ابوابه لجميع الطوائف
وجميع القوميات . انه حزب من نوع جديد ، قال عنه روبير دو كيه بالذات : « سرعان
ما اصبح حزب الشعب اللبناني حزب المعارضة الحقيقي في دولة لبنان الكبير . . .
ان موقف ساراي من حزب الشعب اللبناني ، الحزب المعارض للانتداب ، شجع
اللبنانيين على الدعوة الى ان النظام الاساسي ينبغي ان يكون من عمل السكان المحليين
لا من عمل الانتداب . » (١٥) .

(١١) راجع اسماءهم في الملاحظة رقم ٨ لمقال يزك المنشور في البلاغ - العدد السابق - ص ٢٨ .

(١٢) راجع غلاف ملحق النهار الاقتصادي والمالي - الصادر في ٢٩ نيسان ١٩٧٢ .

(١٣) البلاغ - المصدر السابق - ص ٢٦ - نشرته الانسانية في العدد الثاني - ص ٢ .

(١٤) البلاغ - المصدر السابق - ص ٢٦ .

(١٥) R. de Caix « Histoire des Colonies françaises - T. III - La Syrie » P. 516 .

٤ - حزب الشعب اللبناني يتجه نحو تجذير المطالب الاجتماعية

ان النجاح المنقطع النظير الذي اصابه مهرجان الكريستال في اول ايار ١٩٢٥، خلق جواً حماسياً عارماً في اجتماع اللجنة التنفيذية لحزب الشعب اللبناني. وقررت توسيع نشاطها بحيث يشمل جميع الروافد الوطنية الاخرى . وقرر اصدار جريدة تنطق باسم الحزب البولشفيكي وترفع شعاراته الاشتراكية صراحة . وتشكلت لجنة مركزية جديدة بصورة مؤقتة من فؤاد الشمالي ويوسف يزبك وأرتين مادويان وهيكازون بوياجيان والياهو تير ممثل الاممية الشيوعية في الشرق الاوسط والياس أبو ناضر(٦٦) .

وبالفعل جرى اصدار جريدة « الانسانية » التي ظهر عددها الاول في ١٥ ايار ١٩٢٥ وتولى اصدارها يوسف ابراهيم يزبك كوسيلة اعلامية لنشر خط الحزب . وتسمية « الانسانية » بهذا الاسم مقتبس دون شك عن جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي « الاومانيتيه » او الانسانية . وجاء في عددها الاول : « الانسانية جريدة الطبقة العاملة . انشئت هذه الجريدة لخدمة العمال والفلاحين والمدافعة عن حقوقهم واسماع السلطات الحاكمة من افرنسية و « وطنية ! » (٦٧) ورأسمالية صوت تظلمهم . ولا نبالي بالمبادئ السياسية ولا الاجتماعية ولا الادبية ولا الدينية على اختلاف نزعاتها اذا كانت لا تهم العمال والفلاحين . ولا نعتزف بسلطة من السلطات الرجعية المسيطرة الا اذا كانت تحترم حقوق العمال والفلاحين . وننظر الى العالم كفتتين : فئة فقيرة عاملة هي الاكثرية المطلقة فنخدمها وندافع عنها، وفئة غنية كسولة مستبدة معدودة رجالها فنحاربها ونقوم عليها . شعارنا دوماً : ايها العمال والفلاحون اتحدوا » (٦٨) .

لقد جاءت « الانسانية » - كما يقول جالك كولان ، في الوقت المناسب، في يوم اخذ فيه اكثر العمال اللبنانيين استنارة يتلمسون طريقهم النضالي الصحيح » (٦٩) . وسرعان ما بدأت حملة واسعة قامت بها النقابات لتطهير انفسها طبقاً على اساس الوعي الجديد الذي بدأ يتلور في صفوفهم كطبقة ذات وجود مستقل ، واخذت النقابات تتخلص من البكوات والأمراء والزعماء الدخيلين عليها ، وبدأ فؤاد الشمالي سلسلة مقالات تدعو الى انشاء اتحاد للنقابات متجانسة اجتماعياً تحت عنوان « كيف هي نقاباتنا الآن وكيف يجب ان تكون » وجاء في المقال الاول « ... ومما هو اشد غرابة وادعى الى الدهشة ، وبدل دلالة واضحة على عدم فهم معنى النقابة عندنا ان كل هذه النقابات « الاسمية » تضم العمال واصحاب العمل ... فيا للخجل ! والذي هو اشد ايلاماً ونكاية والذي يسجل الجهل المطبق على عمال هذه البلاد ان البعض منهم يجتمع تحت سقف واحد مع الملاكين الممولين والوجهاء الراسماليين !!

(٦٦) س ايوب - الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان - ص ٦٨ .

(٦٧) صيغة التهمك هنا للجريدة .

(٦٨) الانسانية - العدد الاول الصادر في ١٥ ايار ١٩٢٥ - الصفحة ٤ .

— J. Couland — op. cit — P. 116.

(٦٩)

فالى متى هذه الفوضى وما معنى هذه البلاهة وما شأن الملاكين والتموليين الاغنياء مع العمال الفقراء المهضومة حقوقهم ؟ « (٧٠) .

وعلى اساس تلك المفاهيم الطبقيّة الواضحة جرى تعديل هام في مبادئ حزب الشعب اللبناني . ونشرت « الانسانية » في عددها الثاني تلك المبادئ بعد تعديلها على الشكل التالي : (٧١)

« ١ - تنشيط الصناعة والزراعة والتجارة اللبنانية والعمل لفرض ضريبة على الآلات الميكانيكية الصناعية والزراعية التي يتسبب من استعمالها شل الأيدي العاملة أو جعلها ملكا للحكومة وتسهيل دخول ما كان منها مساعدا للحياة الاقتصادية واليد العاملة في البلاد .

٢ - بث روح الاخاء العام وقتل جرائم النمصب الديني والطائفي والاقليمي ومنع رجال الدين من التدخل في الامور السياسية ومحاربة العوائد والتقاليد المضرّة .

٣ - تعزيز المدارس الوطنية وتوحيد التعليم الحر فيها وجعل التعليم الأولي اجباريا للبنين والبنات ، وان تكون المدارس الاجنبية خاضعة لبرنامج التعليم ، وان تهتم الحكومة بتشجيع المؤلفين لوضع او تعريب كتب العلوم التي تفي بحاجة البلاد وتغني الطلاب عن اقتباسها بغير لغة بلادهم التي يجب ان تكون رئيسية في عموم المدارس .

٤ - تنظيم العمال والفلاحين بالنقابات والدفاع عن مصالحهم المشتركة لينالوا حقوقهم كاملة في الحياة ، وسن نظام يؤيد حقوقهم (كتحريم تشغيل الاولاد الذين هم دون الرابعة عشر ، وجعل اوقات العمل اليومي ثماني ساعات وتحديد الحد الأدنى للأجور ليتمكن العمال من المعيشة براحة ، والزام اصحاب الأعمال بأن يعطوا العاملات الحاملات اجازة شهرين مبتدئاً قبل الوضع بشهر مع اعطائهن اجورهن الكاملة) .

٥ - العمل لفرض ضريبة على الإرث وضريبة على الثروة وتخفيف الضرائب عن عائق الشعب .

٦ - جعل الأوقاف العمومية ملكاً للشعب تحت ادارة الحكومة .

٧ - تحرير المرأة ومساعدتها لنيل حقوقها المهضومة (كمنع تعدد الزوجات ومنع الزواج الباكر ..)

٨ - يعتمد الحزب على الشعب اللبناني في الوطن والمهجر وعلى الشعوب الحرة ويتحد مع الاحزاب التي تماثله في الفاية ويتخذ جميع الوسائل الممكنة للوصول الى مطالبه « .

لقد جاءت الأهداف المطلوبة الجديدة بالفةالوضوح تتدرج من تنشيط الاقتصاد الى محاربة الطائفية والاقليمية والدعوة ، ولأول مرة في لبنان ، الى فصل الدين عن الدولة بمنع رجال الدين من تعاطي السياسة ، الى تشجيع المدارس العلمانية وجعل التعليم الابتدائي اجباريا للجنسين مع الدعوة الصريحة الى التعريب ، الى التنظيم النقابي لجميع العمال ، وفرض الضرائب على الاغنياء وتخفيفها عن الطبقات الشعبية

(٧٠) الانسانية - العدد الاول - ص ٣ .

(٧١) الانسانية - العدد الثاني - الصفحة ٢ و ٣ .

وتأميم الأوقاف وتحرير المرأة وتنشيط الصلات مع المهاجرين اللبنانيين والتعاون مع جميع الأحزاب العمالية العالمية .

ومما لا شك فيه ان تلك المبادئ لم تتجذر من الناحية السياسية ولم توجه النضال فعلياً ضد السلطة الانتدابية الفرنسية بل توجهت اليها من أجل تحقيق تلك المطالب . وهذا ما يعطي الحزب الطابع الاصلاحى البحت . فبقي الحزب اسير الشرعية في نضالاته . وقد حدد الاهداف المستقبلية للحركة النقابية على انها الشكل الأمثل من اشكال التنظيم والنضال الطبقي . لذا كانت مهمة التوفيق بين الشرعية النقابية والخط السياسي للحزب البلشفيكي الميسر لحزب الشعب اللبناني ، صعبة جدا ان لم تكن مستحيلة . فكان لا بد من الاصطدام بالسلطة الانتدابية وتوجيه النضال ضدها . فحزب الشعب اللبناني لم يكن بمقدوره رفع النضال المطليبي الى درجة النضال السياسي والايديولوجي الذي يريده الحزب الشيوعي المستر ورائه ، لذا بقي حزب الشعب حزباً ديمقراطياً ذا نزعة اشتراكية . انه حزب « ديمقراطي شعبي » - اذا صحت التسمية . فلم يكن حزب الطبقة العاملة اللبنانية ، بل حزباً عمالياً ووجهاً ظاهراً لنضال الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان على الساحة اللبنانية، وجهاً علياً بقدر ما تسمح الظروف السياسية والاجتماعية بالنضال العلني آنذاك .

٥ - وجهاً لوجه امام السلطة الانتدابية وضرب الحزب الشيوعي

لقد كان التوجه الأكثر جذرية في صياغة المبادئ الجديدة لحزب الشعب اللبناني ، والدعوة الى النضال الطبقي الواضح ، والتوجه الاعلامي لتغطية اخبار الاتحاد السوفياتي والدفاع عن النظام الاشتراكي (٧٢) من الأسباب التي عجلت في اغلاق جريدة الانسانية بعد صدور عددها الخامس فقط . وادى تعطيلها الى حرمان حزب الشعب اللبناني وبالتالي الحزب البولشفيكي ، من وسيلة اعلامية هامة لبث دعايته والترويج لأفكاره .

ومنذ اواخر ايار ١٩٢٥ ، قاد حزب الشعب اول حركة جماهيرية ضد التمثيل النيابي على اساس طائفي . ووقف في وجه ساراي ، الذي دعا الى اجراء الانتخابات التشريعية على نفس الاسس الطائفية السابقة . ووجه الحزب نداءً موقعاً من لجنته التنفيذية في ٢٣ ايار (٧٣) يدعو فيه العمال والفلاحين للامتناع عن التصويت لان هذا النمط من الانتخاب يحرمهم من الاختيار الحقيقي لممثليهم الذين سيشاركون في وضع الدستور الاساسي كخطوة اولى في طريق الاستقلال .

وفي ٢٠ تموز ١٩٢٥ ، قاد حزب الشعب مظاهرة جماهيرية ضخمة للمطالبة بتخفيض اجارات السكن ضمت الرجال والنساء والأولاد . وقام جنود ساراي بقمع المظاهرة بوحشية بالغة فقط تسعة قتلى وأربعين جريحاً والقى القبض على حوالي

(٧٢) راجع اعداد الانسانية الخمسة .

(٧٣) راجع الانسانية - العدد الرابع - الصادر في ٧ حزيران ١٩٢٥ .

ستين مظاهرا (٧٤) .

ووصلت انباء انفجار الثورة السورية الكبرى التي اندلعت في ٨ تموز ١٩٢٥ ، اثنان ذلك الاستياء الجماهيري العام ضد تصرفات سلطات الانتداب ، ووجد قادة الحزب ان الظرف السياسي العام مؤات للدعوة الى الكفاح المسلح ضد الفرنسيين . وتعمقوا في تحليلهم السياسي الشامل للأوضاع فقرنوا بين قمع الحركة العمالية المطالبة وبين القصف الوحشي للثورة الوطنية السورية واستنتجوا انهما مظهر واحد للاستعمار الفرنسي الجديد ودعوا العمال الى ضرورة تشديد النضال ضد هذا الاستعمار ومساندة الثوار السوريين بجميع الوسائل . واثار اجتماع اللجنة المركزية للحزب قررت هذه اللجنة بالاجماع دعم النضال المطلي لجماهير المستأجرين في بيروت وتأييد الثوار السوريين في كفاحهم البطولي ضد الاستعمار الفرنسي . فأصدرت بيانا مطبوعا على الجيلاتين ، وهو اول بيان موقع باسم الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان (٧٥) . وقد وزع البيان في بيروت وزحله وحلب وارسل بالبريد الى العديد من السوريين واللبنانيين . وأصدرت بيانا آخر يدعو الجنود الفرنسيين الى التآخي مع الثوار وتوجيه بنادقهم الى صدور قاداتهم الاستعماريين .

« لقد توجه الحزب طبقياً الى الجنود الفرنسيين للوقوف ضد قياداتهم التي تأمرهم بقتل اخوانهم في سوريا ولبنان . » (٧٦) . كذلك توجه الحزب ببيان باللفة للأرمنية يدعو فيه جماهير الأرمن للوقوف الى جانب الثوار السوريين ودعم نضالهم العادل . والهدف من هذا البيان ، يقول أرتين مادويان ، « ان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان كانت ترى خمسة أسباب موجبة لهذا لنداء الموجه للأرمن : »
« ١ - اجتماعياً : الأرمن لاجئون وبالتالي هم فقراء معدمون يتعاشون من عرق جباههم . فهم كادحون تستغل سلطات الانتداب اعداداً واسعة منهم لضرب نضال الشعبين السوري واللبناني .

« ٢ - سياسياً : كان كره شديد يعتمل في نفوس الأرمن ضد الانكليز والفرنسيين والاميركيين الذين وعدوهم كثيراً دون ان ينفذوا لهم ايأ من تلك الوعود بالحرية والاستقلال ولم يقوموا بحمايتهم من المجازر الرهيبة التي تعرضوا لها .

« ٣ - وطنياً : ادخل الفرنسيون في روع الاغلبية الساحقة من جماهير الارمن ان العرب المسلمين هم اترك اي سفاحون . بيد ان الواقع كان يدحض ذلك تماماً . فالثورات التحررية العربية كانت تقمع بالطائرات والدبابات والمدافع . والفرنسيون هم المضطهدون وليس العرب ، في حين ان الأرمن وجدوا كل ترحاب من جانب السكان المحليين . فالنضال اذاً نضال وطني للجماهير العربية ولجميع الواقعين تحت نير الاستعمار الفرنسي . اما امن الارمن او حمايتهم فلا يمكن ان تتعارض مع مشاعر الوطنيين العرب المناضلين من اجل حريتهم واستقلالهم . فنضال العرب الوطني اذاً ليس موجهاً ضد الارمن بل ضد الاستعمار الفرنسي الذي يقوم باضطهاد العرب

— Doriot « La Syrie aux Syriens » — P. 15. (٧٤)

— A. Madéyan « Quelques notes historiques... » — P. 4. (٧٥)

— M. Majzoub « L'indépendance libanaise » — thèse ronéotypée — P. 116. (٧٦)

والأرمن على السواء .

« ٤ - طبقياً : كان قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ذا دلالة واضحة على نجاح الثورة الطبقيّة ، ثورة العمال والفلاحين ضد استغلال الرأسمال . هذه الثورة الاشتراكية الاولى اثبتت قدرتها على تحرر الطبقات الفقيرة الكادحة واعطت القوميات الصغيرة امكانية التحرر من التعصب القومي والنمو الحر المستقل .

« ٥ - اهمياً : كان قيام جمهورية ارمينيا السوفياتية الاشتراكية بقيادة حزب الطبقة العاملة الأرمنية دعوة صريحة لجماهير الارمن في كل مكان من أجل النضال لتقويض اسس النظام الامبريالي العالمي . فللأرمن ، كباقي الشعوب الاخرى ، دور اساسي في حمل راية النضال الأممي ضد الجوع والفقر والمرض والاستعمار واستغلال الانسان للانسان . هذا الدور من واجب الأرمني القيام به ، لا داخل ارمينيا السوفياتية فحسب ، بل وايضا داخل اي مجتمع طبقي يعيش فيه وذلك بالانخراط في صفوف المناضلين الوطنيين وتأييد كفاحهم العادل . فالنضال ضد الامبريالية كان قد امتد ليشمل العالم بأسره ... » (٧٧)

وأصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان تباعاً عددين من جريدة « المنارة الجديدة » NOR PAROS الأرمنية وذلك على الجيلتين في شهري حزيران وتشرين الثاني ١٩٢٥ (٧٨) لتعريف جماهير الارمن بخط الحزب وبنضاله ضد الاستعمار الفرنسي ولدعوتهم للاشتراك في هذا النضال .

وقد علّقت الصحافة المحلية باللغات العربية والفرنسية والارمنية على هذه النداءات ودعت جريدة « سوريا » الناطقة بلسان الانتداب الى ضرب الحزب . وكانت السلطات الفرنسية تخطط فعلاً لاعتقال قادته وبدات الملاحقات والمراقبة الدقيقة لمنازل البارزين . وقد كتبت جريدة « كورورتان هاياستان » (٧٩) الارمنية تقول : « في سوريا كما في لبنان بدات ملاحقة المسؤولين عن المنظمات السياسية المدافعة عن حقوق الشعوب التي تضطهدها الامبريالية الفرنسية . وأبرز المنظمات التي طالتها الملاحقة الحزب الشيوعي وشبيبة سبارتاك الشيوعية . فقد مضى ثلاثة اشهر ولا تزال الامبريالية الفرنسية تجتاح سوريا بأساليبها الحربية وبطائراتها ومدفيعتها الثقيلة وعساكرها الجرارة التي تحاول خنق الانتفاضة الدرزية . لقد توجه الحزب الشيوعي السوري ضد هذه السياسة البربرية بالذات وفتح بوجهها معركة حاسمة . فأصدرت لجنة الحزب المركزية نداء موجهاً لجنود « اللواء السوري » الذي يضم في صفوفه اعداداً كبيرة من الارمن . والنداء مطبوع على أوراق حمراء ومكتوب باللغة الفرنسية ، وهو يدعو الجنود الى التأخي مع الدروز ويسأمل في تجاوز العقبات للوصول الى تشكيل جبهة ثورية موحدة ضد الامبريالية . وقد وزع ألبان في بيروت وجميع المدن اللبنانية والسورية . ان الحزب يقود حالياً

(٧٧) ارتين مادويان - جواب خاص على سؤالي حول سبب توجيه النداء الى الارمن .

(٧٨) — A. Madéyan « Quelques notes sur la formation historique... » — P. 6.

(٧٩) — Khorhourtayin Hayastan — No. 225 du 10 Novembre 1925 — traduit du français.

تضالا سوريا لكنه نضال ناجح . فالثورة التحررية ، ثورة العمال والفلاحين الدروز ، ستنتهي ، عاجلا ام آجلا ، بالنصر الاكيد . . . » .

« وفي أوائل كانون الاول ١٩٢٥ ، عقد الاجتماع الاول الموسع للجنة الحزب المركزية في بيروت . وقد حضر الاجتماع ١٥ مندوبا يمثلون خلايا بيروت ، بكفيا ، زحلة ، وحلب . وكان جدول اعماله :

- ١ - مناقشة تقرير اللجنة المركزية .
 - ٢ - الاطلاع على رسالة من الاممية تؤيد خط الحزب السياسي وتدعم نضاله .
 - ٣ - اعادة انتخاب اللجنة المركزية .
- وقد اسفر الاجتماع المذكور عن المقررات التالية :
- ١ - تأييد خط الحزب في مسانده التامة للثورة السورية الكبرى ودعمها بالكفاح المسلح .
 - ٢ - تشديد النضال ضد الامبريالية .
 - ٣ - تعميق النضال من اجل الاستقلال القومي والحريات الديمقراطية .
 - ٤ - دعم النضالات المطيبة للطبقة العاملة في سوريا ولبنان .
 - ٥ - الدعوة الى مصادرة اراضي الاقطاعيين الموالين لسلطة الانتداب وازاضي المعادين للثورة السورية الوطنية .
 - ٦ - التجديد للجنة المركزية السابقة « (٨٠) » .

وكانت عيون السلطة الانتدابية تراقب تحركات الحزب ونشاط قياديه عن طريق جواسيسها داخل صفوفه بالذات . لذلك سارعت ، مند مطلع ١٩٢٦ ، الى شن حملة واسعة ضد زعماء الحزب ومناضليه والعديد من الوطنيين المؤيدين للثورة ، وقامت السلطات الفرنسية تعتقل قادة الحزب تباعا وتحيلهم الى المحكمة العسكرية في بيروت بتهمة تأييد « العصاة السوريين » . وتدخل الحزب الشيوعي الفرنسي لصالحهم (٨١) وارسل جورج سادول للدفاع عنهم . لكن سلطات الانتداب منعتهم من ذلك ، فابرق النائب الشيوعي المحامي اندريه برتون يعن قدومه للدفاع عن المعتقلين على اول باخرة تقطع من مرسيليا . وخشية احراج « كارثيل اليسار » في باريس ، سارعت سلطات الانتداب الى منع محاكمتهم فأبصدتهم الى اميون ثم الى ارواد ثم الى سجن الرقة في صحراء سوريا . وكان ابرز المعتقلين : يوسف يزيك وفؤاد الشمالي وارتين مادويان والوطني المناضل علي ناصر الدين . ومنعت سلطات الانتداب كذلك نشاط حزب الشعب اللبناني .

لقد كانت فترة النهوض الجماهيري للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان قصيرة جدا لكنها حافلة بالنضال الديمقراطي والوطني . فلم يمهله الفرنسيون كي يرسخ اقدامه في صفوف جماهير الشعبين . بيد ان موقف الحزب الثوري والبالغ الاهمية ضد قمع الطبقة العاملة في نضالاتها المطيبة ، وضد قصف الثوار بالمدافع

(٨٠) — A. Madéyan « Quelques notes historiques sur la formation du Parti Communiste au Liban et en Syrie » — P. 5.

(٨١) راجع جريدة « العمال » السنة السابعة — العدد ٢ الصادر في ١ كانون الاول ١٩٢٠ .

والطائرات ، وضد الارهاب الاستعماري الفرنسي والدعوة الى حمل السلاح ضده ، جعلت الوطنيين يقبلون على الانخراط في صفوفه فور عودته الى النشاط السري منذ ١٩٢٨ . وعاد الحزب يحتل بسرعة فائقة دوره الطليعي في النضال الجماهيري في سوريا ولبنان ، على أسس أكثر متانة هذه المرة . ففي حين اقتصر حزب الشعب اللبناني على المسيحيين دون سواهم ، ارمنا كانوا ام لبنانيين ، فان الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان بعد عام ١٩٢٨ سيفتني برافد هام من الوطنيين المسلمين الذين أدركوا ان الانتداب حقيقة واقعة لا يمكن تجاهلها بالرفض الطوباوي لها ، بل بالعمل الوطني الثوري القائم على النضال اليومي ضد هذا الوجود . كما أدرك الوطنيون من المسلمين ، ان المسيحيين ليسوا بمجموعهم أعوانا للانتداب وموالين له ، بل هنالك معارضون لهذا الاستعمار الفرنسي البشع وعاملون على تقويضه بجميع الوسائل . لذا كان لا بد من تشكيل جبهة عريضة ضد الانتداب ، لا على أساس ديني ، بل على أساس المصلحة المشتركة لجميع المتضررين من وجود هذا الانتداب على صدورهم ، جبهة تضم المسلمين والمسيحيين ، العرب والارمن على السواء .

ان موقف الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان لعام ١٩٢٥ ، ووقوفه الحازم الى جانب النضالات الوطنية والديمقراطية والمطلبية ، جعلته يستعيد حجمه السابق بعد أشهر معدودة من بروزه مجددا الى الساحة ويزيد أعضائه الى عدة أضعاف ما كان عليه في اعوام ١٩٢٤ - ١٩٢٥ ، مما اكبه قوة جماهيرية بين المسيحيين والمسلمين ، بين الارمن واللبنانيين والسوريين ، فأصدر وثيقته - البرنامج لعام ١٩٣٠ بعنوان « لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري ؟ » (٨٢) التي اعتبرت بحق اول برنامج سياسي متكامل خلال تلك الفترة .

دستور ١٩٢٦ و اعلان الجمهورية اللبنانية في ظل الانتداب

في اواخر ١٩٢٥ ، غادر الجنرال ساراي ، المفوضة العليا في بيروت بعد ان ترك وراءه ثورة عارمة في سوريا ، ونقمة واستياء كبيرين في لبنان . وعينت حكومة باريس السيد هنري دو جوفنيل ، عضو مجلس الشيوخ الفرنسي ، كأول مفوض سام فرنسي في سوريا ولبنان .

وفور وصوله الى بيروت ، حدد المفوض السامي الجديد ، سياسته كما يلي :
« ان مرحلة الاستشارات والتجارب الفردية قد واثت . وكل ما يمكن ان تعلمنا اياه تلك التجارب ، أصبحنا الآن على معرفة تامة به . لذا ، فانا عازم على منح هذين البلدين تشريعات تؤمن لهما مستقبلا آمنا ودائما بحيث تتجنبان فيه كل أنواع

(٨٢) سنعرض لهذه الوثيقة البالغة الأهمية في دراستنا المقبلة « المجمع اللبناني من الجمهورية الى الاستقلال ١٩٢٦ - ١٩٢٣ » .

— H. C. « Rapport sur l'année 1925 » — P. 75 et L'Asie Française — No. 238
Février 1926 — P. 82.

الحروب الاهلية او الدينية او الخارجية « (٨٢) .

وفي غياب اية معارضة جدية في لبنان ، دعا هنري دو جوفنيل احد معاونيه المخلصين ، سوشيه ، وطلب منه ان يكتب دستورا للبنان . واردف يقول « انني راحل بعد شهر ، واريد دستورا للبنان قبل ذلك التاريخ . فأجابه سوشيه ضاحكا وهو يروح ويجيء حاملا دستور فرنسا عام ١٨٧٥ : « سيكون بين يدك خلال اسبوع واحد ! » . لقد كان همه ايجاد صيغة تجعل هذا الدستور الفرنسي يتلاءم مع الذوق المحلي ، اي بوضع كوفية عربية وعقال على راسه « (٨٤) .

ويؤكد الدكتور ادمون رباط (٨٥) ان الدستور اللبناني لم يكن من صنع اللبنانيين ، لا بنصه الفرنسي ولا العربي الركيك خاصة والمجلس النيابي في ذلك الحين كان يضم ادباء كبار بين اعضائه كالشيخ يوسف الخازن ، والشيخ ابراهيم المنذر وشبل دموس وغيرهم .

ان دستور لبنان لهذا العام لم يكن ثمرة نقاشات واستمزاج آراء المفكرين اللبنانيين ، بل جمعا لنظم مختلفة صدرت في فرنسا بين ١٧٨٩ و ١٨٧٥ . وباعتراف الفرنسيين انفسهم ، فان هذا الدستور « كان بالفعل ابعث من ان يتناسب مع مستوى التطور السياسي للشعب اللبناني وغير معبر اطلاقا عن حاجاته وامانيه » (٨٦) . فهل كان الانتداب الفرنسي يبحث عن دستور سياسي للبنان ام عن صيغة توفيقية بين الطوائف الدينية المتواجدة على ارضه ؟

لقد عبر هنري دو جوفنيل بوضوح عن هدفه من وضع دستور ١٩٢٦ عندما قال : « اني بالغ السرور باعلان الدستور اللبناني . انا وجدنا هنا اديانا واجناسا متفرقة ، ونحن نحاول ان ندفع بعضها نحو البعض الآخر ، لا لكي تصادم ، بل ليعملوا معا من اجل المصلحة العامة » (٨٧) . وطالما ان الصلاحيات باجمعها كانت بأيدي المفوض السامي الفرنسي في جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والتعليمية والعسكرية والادارية وغيرها ، فالمصلحة العامة هنا ليست سوى مصلحة الانتداب والمتعاونين معه دون غيرهم .

ان الدستور اللبناني لعام ١٩٢٦ لم يكن غريبا عن الدساتير التي مرت بها فرنسا ولا عن شرعة حقوق الانسان ولا عن نظام المجلسين : مجلس شيوخ ومجلس النواب . لكن الفارق الاساسي بين مجلسينا ومجلسي فرنسا ان شيوخنا وقضا من نوابنا كانوا بالتعيين . ولم يختلف جماع هؤلاء عن اقلية النواب المنتخبين من حيث الموالاتة التامة للانتداب الفرنسي ومفوضيته العليا في بيروت .

(٨٢) راجع ايضا وجيه علم الدين « مراحل استقلال دولتي لبنان وسوريا » . معاهدة دو جوفنيل مع سوريا من ١٨ - ٢٠ .

(٨٤) — Alfred Fabre-Luce « Deuil au Levant » — Cité par M. Majzoub « op. cit. » P. 37.

(٨٥) في ندوة حول كتابه « التكوين التاريخي للبنان » في معهد غوته الالمانى في بيروت بتاريخ ٨ آذار ١٩٧٤ .

(٨٦) — R. de Contant-Biron « Sur les routes de Syrie » — P. 13.

(٨٧) — L'Asie Française — No. 242 — Juin-Juillet 1926 — P. 247.

في ٢٣ ايار ١٩٢٦ ، اصبح للبنان دستوروه (٨٨) . وبعد ثلاثة ايام اصبحت له جمهوريته « الاولى في الشرق » ورئيسا لهذه الجمهورية ، فاخترت بذلك تسمية لبنان الكبير وحلت محلها الجمهورية اللبنانية في ظل الانتداب الفرنسي .

وخشية ان نظلم هذا الانتداب وادارته نقل هذا المقطع ، البالغ الدلالة ، الذي اورده احد الفرنسيين عن كيفية انتخاب شارل دباس رئيسا للجمهورية اللبنانية عام ١٩٢٦ . يقول بوبلان حرفيا « اجتمع مجلس الشيوخ والنواب في ٢٦ ايار ١٩٢٦ وانتخب رئيسا للجمهورية اللبنانية بأغلبية ٤٤ صوتا من اصل ٤٥ ووجود ورقة واحدة بيضاء هي ورقته . كان ذلك المنتخب هو السيد شارل دباس ، مدير العدلية سابقا . ولن نكون مباغين اذا قلنا ، وبالتأكيد ، ان عشية ذلك الانتخاب ، كان عشرة مرشحين على الاقل ، يأملون بالوصول الى هذا المنصب الرفيع في لبنان . لقد احتفظ الشيوخ والنواب ببطاقات الانتخاب جاهزة دون ان يعرفوا اسم من سيدونون عليها . وكانت انظارهم تتجه الى منصة المفوض السامي . ووصلت كلمة السر لحظة افتتاح الجلسة حين أعلن المفوض السامي انه لا يريد انتخابا بالاغلبية ، بل بالاجماع . تلك كانت التوصية وقد عمل الجميع بحذافيرها » (٨٩) .

لقد عبر اسكندر رياشي بأسلوبه المشهور عن حقيقة ذلك الوضع فقال « كان مصر جمهوريتنا متوقفا على كلمة واحدة تنطلق من شفاه الديكتاتور الفرنسي ، الذي اسمه المفوض السامي . . . كنا نمسي ولنا رئيس جمهورية ومجلس نواب ومجلس شيوخ ، فاذا اصبحنا نجد ان كل شيء قد انقلب او اوقف حتى اشعار آخر » (٩٠) .

« والانتخابات النيابية ، - يقول جورج حنا - لم تكن في عهد الانتداب ، الا مهزلة يلهون بها الشعب ، ومخازي يقصد منها التظاهر بانهم يهيئون البلاد للانظمة الحرة الديمقراطية ، فيحبل عملهم الجالسون سعداء في جمعية الامم ، اما اقتناعا او تواطؤا . . . » (٩١)

ان تعيين قسم من النواب ، و « تعيين » القسم الآخر عن طريق « الانتخاب » ، وتعيين اعضاء مجلس الشيوخ ، وتعيين رئيس الجمهورية ، وابقاء الدستور والمجلسين تحت امرة المفوض السامي الفرنسي ، تبرر بالفعل نعت جورج حنا لهذه الانتخابات بالمهزلة ، لا بل يؤكد فرنسوا خوري في مذكراته ان الفرنسيين كانوا

(٨٨) للاستزادة حول ولادة دستور ١٩٢٦ راجع كتاب الدكتور امون رباط « التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري » باللغة الفرنسية ، صفحة ٣٥٩ وما بعدها .

راجع ايضا نص الدساتير المتشابهة لدول سوريا ولبنان وبلاد العلويين وجبل الدروز في الكتاب الذي اصدرته المفوضية العليا الفرنسية بعنوان

Haut-Commissariat « Statut organique des Etats du Levant sous mandat française » — Paris 1930.

— Beauplan « Où va la Syrie ? » — P. 104.

(٨٩)

(٩٠) اسكندر رياشي « قبل وبعد » ص ٥٩ .

(٩١) جورج حنا « من الاحتلال الى الاستقلال » ص ٢٢ .

يحتقرون مجالس لبنان الانتخابية حتى ان الحاكم الفرنسي لا برو La Bruce نعت مجالس الادارة السابق لجبل لبنان « بالاصطبل » (٩٢) . فهل يلام اللبنانيون اذا جاءت احكامهم بالفة القسوة على ادارة الانتداب ومؤسساته المحلية ؟ ومهما يكن من امر هذه المجالس وسيطرة الفرنسيين عليها ، فمما لا شك فيه ان المرحلة الدستورية ستكون منطلقا لتجميع قوى المعارضة ضد الانتداب ، تلك المعارضة التي ستقود معركة الاستقلال وتحرير الدستور والبرلمان والعلم والسياسة والاقتصاد في لبنان من التبعية الوحيدة الجانب للفرنسيين .

بعض الاستنتاجات

عام ١٩٢٠ ، ومع ولادة دولة لبنان الكبير ، شهد المجتمع اللبناني تيارين سياسيين بالفي الوضوح : تيار يرفض الانتداب وجميع مؤسساته وجميع المتعاونين معه ويتسم بطابع اسلامي واضح وينتشر خاصة في المناطق التي ضمت الى جبل لبنان المتصرفية . هذا التيار كان يرفض لبنان الكبير ويصر على إلحاقه بسوريا التي فصل عنها بقوة الفرنسيين العسكرية . وتيار آخر يتعاون مع الانتداب ويهلل له كمنقذ للبنان من براثن الاتراك ومحقق اعادة لبنان الى ما اسماه بحدوده التاريخية والطبيعية التي حرمه منها نظام المتصرفية . وينتشر هذا التيار في جبل لبنان ، في اوساط المسيحيين صامة والموارنة بشكل خاص .

الا ان سياسة الفرنسيين في سوريا ولبنان كانت من العنف بحيث خرت اصدياقها التقليديين بعد ان فقدت اصلا امكانية جذب المعادين لها منذ البداية . ذلك ان السياسة العسكرية التي اعتمدها جنرالات فرنسا ، يمينا ويسارا ، كانت تنطلق فقط من مصلحة فرنسا دون اية التفاتة لصك الانتداب والبنود التي وردت فيه ، بل كانت تلك السياسة لا تختلف ، في مجمل مظاهرها ، عن اعمال حكام المستعمرات الفرنسيين في المناطق التي كانوا يسيطرون عليها ، وذلك باعتراف قادة الفرنسيين انفسهم . ان تلك السياسة التي طبقت في سوريا ولبنان ، ادت بالفعل الى خراب هذين البلدين ، بسبب ضعف مواردهما الاقتصادية واهمال الفرنسيين للقطاعات المنتجة وتركيزهم على التجارة وقطاع الخدمات من جهة ، وبسبب تعزيز السيطرة الاقطاعية وزيادة الضرائب والقروض من جهة ثانية ، مما زاد في نقمة السكان على الفرنسيين وسياستهم الاستعمارية الواضحة .

يبد ان تلك النقمة على الانتداب الفرنسي ورفض سياسته الاستعمارية في لبنان لم تبلور بوضوح الا بعد اشتداد الازمة الاقتصادية وازدياد نهب الفرنسيين للداخل السوري واللبناني وافراغ جميع مدخراته الذهبية ، وضرب القوى الوطنية المناوئة لسياستهم ، والعمل على جعل الانتداب مرحلة دائمة لا انتقالية كما ورد في صك الانتداب .

(٩٢) غرنسوا خوري « ذكريات » ص ٧٨ .

ان بروز التيار الشعبي منذ ١٩٢٢ والذي بدأ يستقطب أوساطا عديدة من المثقفين والليبراليين ، ورفع شعارات اشتراكية ، وان بأشكال طوباوية ، ساعد على رفع الوعي الجماهيري عبر صحيفتي « الصحافي الناه » و « زحلة الفتاة » ، وبدأ يتعمق مع جريدة « المعرض » المعارضة للانتداب آنذاك .

ومع تعيين الجنرال ساراي ، ممثل الكارتيل اليساري الناجح في انتخابات باريس ، بدأت مرحلة جديدة من النضال الديمقراطي ضد هيمنة المتعاونين سابقا مع الانتداب ، خاصة اليسوعيين ، لذا استفاد الطليعون في الحركة النقابية والتيار الشعبي من الانشقاق البارز في جبهة الانتداب والمتعاونين معه لتشكيل حزب من نوع جديد ، هو الحزب الشيوعي اللبناني الذي اتخذ وجها ظاهريا له تمثل « بحزب الشعب اللبناني » الذي قاد نضالا مطلبيا بالغ الأهمية خلال تلك الفترة . وتممقت مفاهيم هذا الحزب مع اشتداد أزمة الانتداب وانتقاله الى القسوة البالغة في قمع الحركة الوطنية والجماهيرية في سوريا ولبنان بعد مرحلة قصيرة جدا من الليبرالية والعلمانية والدعوة الى انتخاب المجالس الوطنية المحلية وحكم اللبنانيين والسوريين لانفسهم بأنفسهم .

وبالرغم من اقتصار حزب الشعب اللبناني على وجه مسيحي بارز نتيجة رفض الوطنيين المسلمين الانخراط في أية حركة سياسية تعمل من داخل الانتداب ، فان الحزب استطاع ان يكسر الطوق العرقي الذي فرضه الفرنسيون على مجرى السياسة اللبنانية ، فضم في صفوفه طليعة نقابية واعية خاصة بين عمال التبغ ، ونخبة من المثقفين الوطنيين ، وطلبة من الشبيبة الارمنية المماسة « بشبيبة سبارتاك » . وشكلت هذه التيارات الثلاثة اول حزب لبناني تخطى الطائفية والعرقية ودعا الى العلمانية والتعريب والاصلاح الاجتماعي .

بيد ان الحركة السياسية المعارضة للانتداب على اساس غير طائفي بقيت ضعيفة طيلة الفترة الانتدابية الاولى وتكاد تقتصر على محور بيروت - زحلة - بكفيا دون ان تتعداه . اما الحركة الوطنية في صفوف المسلمين فقد اقتصر على الرفض المطلق للادارة الفرنسية ولدولة لبنان الكبير بالذات ، واستمرت تطالب بالانضمام الى سوريا والانفصال عن دولة لبنان التي ضمت اليها بالاكراه ، تاركة العديد من زعمائها الوصوليين يتسابقون لتسلم مهام وظيفية وتمثيلية في ادارة الانتداب . واضحى كبار الاقطاعيين ، واغلبتهم الساحقة من المسلمين ، وثيقي الارتباط مع ادارة المفوضية العليا ومن اكبر دعاة التعاون الكامل معها بعد ان ثبتت سلطتهم قانونيا على الارياض التي كانوا يسيطرون عليها منذ ايام العثمانيين .

وهكذا اوجد الانتداب الفرنسي قاعدة داخلية له من الزعماء المحليين المتعاونين معه ، وربط الريف اللبناني ببيروت والجبل بواسطة حزام متين من وسطاء بيروت التجاريين وكبار اقطاعيي الريف وبعض مثقفي الجبل الذين تربوا على ايادي اليسوعيين ، فاتم بذلك حلقة « التعايش السلمي » بين الراسمالية والاقطاعية في لبنان . ذلك التعايش ، بدل التناحر ، سيطبع تطور الحياة السياسية اللبنانية طيلة ايام الانتداب وبعده ، وسيفسح المجال امام الفرنسيين لنقل لبنان الى

المرحلة الدستورية والجمهورية اللبنانية في ظل الانتداب ، حيث تبقى السيادة الفعلية لمثل الانتداب في بيروت .

ان المرحلة الدستورية تلك ستكون ذات أهمية خاصة بالرغم من استمرار سيطرة المفوض السامي على جميع مقدرات لبنان وسوريا ، فهي خطوة أساسية على طريق النضال الديمقراطي والتحرر . فقد أجبرت الثورة السورية الكبرى الفرنسيين على تحويل أسلوبهم الاستعماري العسكري الذي ساد طيلة الفترة الانتدابية الأولى الى أسلوب يعتمد المظهر الديمقراطي ولو شكليا . هذا المناخ الديمقراطي الشكلي سيسهم في تجميع القوى ذات المصلحة المشتركة في ضرب الانتداب بعد ان اثبتت الثورة السورية امكانية الانتصار عليه ، بالرغم من جميع الحشود العسكرية التي استخدمها في معاركه ضدها .

ان استفادة الحركة الوطنية اللبنانية من نتائج الثورة السورية للمطالبة بالدستور والجمهورية ربطت مصير الحركة الوطنية اللبنانية بمصير الحركة الوطنية السورية طيلة الفترة اللاحقة من الانتداب حتى الاستقلال ، وهذا ما ساعد ايضا على كسر الطوق الطائفي الذي فرضه الانتداب على تطور الحياة السياسية في لبنان ، بشكل خاص ، طيلة الفترة الانتدابية الأولى .

خاتمة

ضم الجنرال غورو الى متصرفية جبل لبنان السهول الخصبة في البقاع وعكار ومناطق بعلمك وراشيا وحاصبيا ومرجعيون وصيدا صور وكذلك مدينتي بيروت وطرابلس . فلم يعد تاريخ لبنان في الاول من ايلول ١٩٢٠ تاريخ جبل لبنان بمفرده ، بل اصبح تاريخ لبنان الكبير او لبنان بشكله الحالي ، وبدأت عملية الضم وكأنها نداء لدعاة الوطن اللبناني المنفصل عن سوريا وضرورة حيوية لشعب جائع في جبل قاحل ، اودت المجاعة بثلاث سكانه في سني الحرب العالمية الاولى . وباعلان دولة لبنان الكبير بدأت اهم مرحلة من تاريخ لبنان المعاصر . اذ ، على عكس المتصرفية ، كانت ولادة دولة لبنانية متوازنة كل التوازن ، ان من الناحية الاقليمية او من الناحية السكانية والمدنية .

بيد ان الفرنسيين ، رغبة منهم في تأمين مصالحهم الاقتصادية والسياسية بشكل افضل ، وتوسيع المجال الحيوي امام رؤوس أموالهم التي بدأت تتمركز أكثر فأكثر في بيروت ، ربطوا ذلك « الانفصال » اللبناني ربطاً محكماً بالسوق السورية - العراقية في الداخل ، واعتبروا سوريا ولبنان دولة واحدة على الصعيد الاقتصادي والاداري والعسكري .

وبتحويل بيروت الى مركز لجميع اصناف البضائع المستوردة من الخارج ، ومركز لرؤوس الاموال المصرفية ، خاصة الفرنسية منها ، ومركز للترانزيت واعادة التصدير ، وجدت دولة لبنان الكبير نفسها في تبعية مزدوجة .

- فهي مرتبطة بشكل بالغ الاحكام بالسوق الاوروبية - الاميركية المصدرة لتلك البضائع التي تفرغها بواخرها على شواطئ مرفأ بيروت

- وهي ، من جهة اخرى ، وثيقة الارتباط بالسوق التجارية العربية في الداخل التي تشكل المجال الحيوي لهذه الدولة اللبنانية المستقلة عنها سياسياً .

وبهذا بقي لبنان الكبير شديد الاندماج في الوحدة الاقتصادية العربية في شرقي البحر الابيض المتوسط ، لا بل تعمق ارتباطه بتلك الوحدة وأضحى جزءاً لا يمكنه الانفصال عنها .

اما العاصمة الجديدة ، بيروت ، فقد تطورت بسرعة بالغة ، لا على حساب باقي المدن اللبنانية فحسب ، بل وايضا على حساب المدن السورية كذلك ، الى مدت سيطرتها الى دمشق وحلب واللاذقية والاسكندرون والسويداء، فكانت بيروت المركز السياسي والاداري والثقافي والاقتصادي لتلك المدن .

وفي بيروت هذه ، اخذ الاقتصاد اللبناني يرتدي وجها جديدا . فقد ادى تراكم البضائع والثروات فيها الى نمو بورجوازية تجارية وسيطة تألفت من تجار بيروت بشكل خاص . وكانت هذه البورجوازية تشرف على مرور جميع السلع التي تفرغها سفن النقل التجارية ، وبالتالي على ملايين الليرات اللبنانية - السورية مما اتاح لها الفنى الفاحش ، واستفادت الى اقصى حد من وجود الحماية الانتدابية لها لتوسع دائرة نشاطها من لبنان الكبير الى سوريا والعراق وحتى ايران .

وساهمت البنوك الاجنبية المتمركزة في بيروت ، خاصة الفرنسية منها ، بولادة قطاع مصرفي بالغ النمو ، تلك الرساميل التي سارعت الى بسط سيطرتها على الشركات العاملة في لبنان وسوريا وبدات تحويلها الى شركات فرنسية الجنسية . وساهم اللبنانيون الوسطاء ايضا في هذا المجال اذ بدأوا ينشئون ، ولحسابهم الخاص ، مصارف صغيرة او كونتوارات للتسليف المالي لقاء رهونات وفوائد فاحشة ، ولاجال قصيرة الامد .

ولم يكن بإمكان الفرنسيين اغلاق حدود سوريا ولبنان امام الرساميل الاجنبية والسلع الاخرى ، بناء على سياسة الباب المفتوح التي ضمنها صك الانتداب بالذات ، لذا سارعت الرساميل الانكليزية والاميركية والايطالية والالمانية وغيرها لتوظيف رساميلها في بيروت وفتح فروع لبنوكها في عاصمة لبنان الجديدة ، وقام اللبنانيون يمدون تلك البنوك والسلع بالجهاز البشري اللازم للعمل فيها وتوزعوا على جميع المجالات بحيث نشأت اجنحة عديدة داخل البورجوازية اللبنانية المحلية ترتبط مباشرة برساميل الدول التي تعمل لها وتامر بأوامر تلك الدول بالذات اكثر من ارتباطها بالفرنسيين وسياستهم .

اما على الصعيد الثقافي فقد اصبحت بيروت من اكبر مراكز الثقافة الاجنبية في الشرق الاوسط بفضل جامعتها الاميركية واليسوعية . وبوجود هاتين الجامعتين والعدد الهائل من المدارس الاجنبية والمحلية الخاصة التي تدرس بالفرنسية والانكليزية والالمانية والايطالية وغيرها ، بدات عاصمة لبنان تتخذ صفة همزة الوصل الثقافية لنقل التراث الاوروبي الغربي والاميركي الى المشرق العربي . غير ان هاتين الجامعتين بقيتا حكرا على اغنياء اللبنانيين والعرب دون سواهم ، وشكلت المدارس الخاصة قطاعا تجاريا وافر الارباح ، وازدهرت تجارة التعليم بعد ان اصبحت شهادات تلك المدارس والجامعات سبيلا فريدا للتمايز الاجتماعي لا يقل اهمية عن جمع الثروة والجاه السياسي . ان مدارس بيروت وجامعتها كانت اداة طبقية هامة بيد سلطات الانتداب لضرب التعليم الرسمي وابقائه في ادنى المستويات ويقتصر على ابناء الفقراء دون سواهم .

كذلك استفادت بيروت من قطاع الاصطياف الجديد وائعثت جوارها بمداخيل

ثابتة ووافرة . غير ان المناطق القريبة من عاصمة لبنان وحدها هي التي نمت بسرعة ونالت نصيبها الوافر من اموال المصطافين الاثرياء العرب . كما ادى هذا القطاع الجديد الى نهضة هامة في مناطق الاصطياف وفي بيروت بالذات خاصة في حركة البناء وما يرافقها .

أما الارياف اللبنانية ، وعلى الاخص ارياف لبنان المضموم ، فقد استمرت تحت امرة سادته السابقين من كبار الاقطاعيين . وجاء الانتداب الفرنسي يزيد من نفوذ هؤلاء ، فهم الذين شكلوا القاعدة التي ارتكزت عليها فرنسا المنتدبة في مناطقهم بالذات . ومن اجلهم ، قام الانتداب يضيف صفة الشرعية القانونية على النهب الاقطاعي الذي تم في عهد الاتراك ، عن طريق المساحة التي قامت بها دولة لبنان الكبير . وهكذا أضحت الملكية العقارية الاقطاعية في تلك المناطق ، واملاك الاوقاف المسيحية والاسلامية الواسعة ، الشكل القانوني السائد في دولة لبنان الكبير وذلك على حساب خراب صغار الفلاحين والمزارعين الذين شكلوا الغالبية الساحقة من اللبنانيين آنذاك . وبهذه المساحة أصبح قانون « من يملك لا يزرع ومن يزرع لا يملك » يرتدي طابعا رسميا .

لقد وجد الفلاحون انفسهم ، مرة اخرى بعد الحرب ، بعضهم الجوع في قراهم ، منهوبين من سادتهم الاقطاعيين المدعومين من سلطات الانتداب ، وازحين تحت اعباء الضرائب الباهظة التي تفرضها عليهم الدولة ، فلم يروا بدأ من الرحيل ، واتخذوا طريق بيروت والبحر . وفي حين اقتصرت الهجرة في الماضي على متصرفية جبل لبنان ، فقد فتحت ادارة الانتداب باب الهجرة على مصراعيه امام شعب لبنان بأسره واضطرت قسا كبيرا منه للرحيل .

ان سياسة الانتداب في الريف قامت على نهب هذا الريف واستغلاله لصالح كبار الاقطاعيين الموالين لها . وهذا ما يفسر جزئيا الركود الاقتصادي الذي عاناه ريف لبنان طوال عهد الانتداب ، فلم يرق فيه مشروع تنمية اقتصادية واحد في طول البلاد وعرضها . فهل وجد الفلاح اللبناني فارقا كبيرا بين حكم الاتراك وحكم الفرنسيين ؟

أما سادة الريف من الاقطاعيين ، فاستمروا يحكمونه دون ما رادع من ضمير او قانون . لذا ، فلا الحركة التجارية الناشطة في بيروت ، ولا حركة الاصطياف في جوارها ، ولا الحركة النقابية لعمال التبغ وغيرهم ، ولا الحركة السياسية لحزب الشعب اللبناني وباقي الاحزاب ، كانت لتجد طريقا لها نحو ذلك الريف . الفرنك الفرنسي الورق وحده وجد سبيله الى هناك ومتسعا رحبا في جيوب الفلاحين والسكان الريفيين الذين اجبروا على ابدال ليراتهم التركية الذهب ، بهذا الفرنك الدائم الهبوط . وما مضت عشر سنوات حتى خلا الريف اللبناني تماما من آخر مدخراته الذهبية . لقد نجح الفرنسيون ايما نجاح في افقار الريف اللبناني ونهب خيراته لحساب بنوكهم وتجارتهم والاقطاع المحلي الموالي لهم والمرابين بفوائد فاحشة .

ان الانتداب الفرنسي الذي تقرر في سان ريمو كمرحلة انتقالية لمدة ثلاث

سنوات يوصل خلالها اللبنانيين والسوريين الى « ادارة انفسهم بانفسهم » استمر في السيطرة على هذين البلدين خمسة وعشرين عاما (١٩١٨ - ١٩٤٣) .

لقد كان الاختلاف في مستوى التطور بين لبنان المصرفية ولبنان المضموم بالغ الوضوح ، تلك حقيقة تاريخية ولا شك . غير ان هذا الاختلاف استمر في الازدياد اكثر فأكثر طيلة ايام الانتداب الفرنسي وحتى اليوم ، واستغلت ارياف لبنان لصالح بيروت وادارتها الفرنسية ومصارفها وشركاتها الاجنبية ، واستمرت المناطق المضمومة تزرح لانظمة القرون الوسطى والعهد التركي البائد في شتى المجالات .

ان الاول من ايلول ١٩٢٠ شهد ولادة دولة جديدة في لبنان تعززت قاعدتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية بوجود الفرنسيين وجنود المستعمرات التابعين لهم . وكانت بيروت المستفيد الاكبر ومركز تلك القاعدة . واضحت بورجوازيته التجارية الوسيطة تمتلك ثروات ضخمة وتمثل دور رائد التقدم اللبناني ايام الانتداب . وجاءت جمهورية ١٩٢٦ ودستورها يعطيان نموذجا اوروبيا لدولة رأسمالية حديثة على ارض لبنان ذات لباس فرنسي واضح في المؤسسات الدستورية والقوانين والجيش والادارة والتعليم واللغة وغيرها . لقد دفعت هذه الجمهورية العديد من الساسة المحليين الى الواجهة السياسية في لبنان واغضبت العديد منهم ايضا فرمتهم بأحضان المعارضة ، وطنية كانت ام للوصول الى كراسي الحكم . وارتبط هؤلاء بالمناوئين اقتصاديا وثقافيا وسياسيا لهيمنة الفرنسيين على مقدرات لبنان وارتفعت اصواتهم تنادي بالاستقلال السياسي ضمن الحدود التي ترسخت في لبنان عام ١٩٢٠ وعلى نفس الاسس التي وضعت لدور لبنان في المنطقة .

ان مرحلة النضال الدستوري بعد ١٩٢٦ سترتدي طابع التمسك بهذا الكيان السياسي للبنان الذي انشأه الفرنسيون عام ١٩٢٠ . لذا ستشهد المعارضة تغييرا جذريا في توجهها السياسي ضد الفرنسيين . هذا التوجه لن يبقى كالسابق اسير الرقض المطلق للانتداب الفرنسي ولدولة لبنان الكبير ، بل رفض التبعية الوحيدة الجانب التي ربط بها الفرنسيون هذه الدولة . وعلى أعقاب دعوة الانفصال اللبناني سياسيا عن سوريا ستنشأ دعوة الاستقلال اللبناني عن الفرنسيين واعادة وجه لبنان المصرفية المتعدد الارتباطات الخارجية ، انما على اسس رأسمالية حديثة بالغة التطور ، وعلى وفاق طائفي يأخذ بالاعتبار التوازن الطائفي الجديد في لبنان المعاصر وارتباطه الاقتصادي البالغ الاحكام مع الدول العربية المجاورة .

مكتبة البحث

مراجع باللغة العربية

- أبيلا ، روبر : « اطوار الحكم في لبنان » - بيروت ١٩٤٣ .
أديب باشا : « لبنان بعد الحرب » - القاهرة ١٩١٩ .
اسماعيل ، عادل : « السياسة الدولية في الشرق العربي » ، الجزء الخامس - بيروت ١٩٧٠ .
أسود ، ابراهيم : « تنوير الاذهان في تاريخ لبنان » ، اربع مجلدات - بيروت ١٩٢٥ - ١٩٣٥ .
انطونيوس ، جورج : « بقظة العرب » - بيروت ١٩٦٦ .
أيوب ، س : « الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان » - بيروت ١٩٥٩ .
بيهم ، محمد جميل : « قوافل العروبة ومواكبها » ، الجزء الثاني - بيروت ١٩٥٧ .
بيهم ، محمد جميل : « لبنان بين مشرق ومغرب ١٩٢٠ - ١٩٦٩ » - بيروت ١٩٦٩ .
بيهم ، محمد جميل : « العهد المخضرم في سوريا ولبنان ١٩١٨ - ١٩٢٠ » - بيروت ١٩٧٢ .
جابر ، منذر محمود : « مؤتمر الحجير وآثاره » ، رسالة كفاءة في التاريخ غير منشورة - كلية التربية - الجامعة اللبنانية - بيروت ١٩٧٣ .
جدعون ، الياس وجرجي : « الدليل السوري » بيروت - سنوات ١٩٢٢ - ١٩٢٧ .
حرفوش ، الأب ابراهيم : « دلائل العناية الصمدانية » ، جونه-١٩٣٥ .
العصري ، ساطع : « يوم ميلتون » - دمشق ١٩٦٤ .
حقي ، اسماعيل : « لبنان ، مباحث علمية واجتماعية » منشورات الجامعة اللبنانية ، جزآن - بيروت ١٩٦٩ و ١٩٧٠ ، باشراف الدكتور فؤاد افرام البستاني .
الحكيم ، يوسف : « سوريا والعهد الفيصلي » - بيروت ١٩٦٦ .
حماده ، سعيد : « النظام النقدي والصرفي في سوريا » ، ترجمة شبل دموس عن الانكليزية - بيروت ١٩٣٦ .

- حنا ، جورج : « من الاحتلال الى الاستقلال » - بيروت ١٩٤٦ .
- حنا ، عبد الله : « الاتجاهات الفكرية في سوريا ولبنان ١٩٢٠ - ١٩٤٥ »
- دمشق ١٩٧٣ .
- حنا ، عبدالله : « الحركة العمالية في سوريا ولبنان ١٩٠٠ - ١٩٤٥ » .
دمشق ١٩٧٤ .
- الخازن ، فيليب : « كتاب الشهيد » تقديم يوسف ابراهيم يزبك - بيروت
١٩٥٧ .
- خاطر ، لحد : « عهد المتصرفين في لبنان » ، منشورات الجامعة اللبنانية
- بيروت ١٩٦٧ .
- خياز ، حنا : « فرنسا وسوريا » ، الجزء الثاني - القاهرة ١٩٢٩ .
- خوري ، مجيد : « نظام الانتداب ، تحليل ونقد » - بقداد ١٩٣٣ .
- خوري ، مجيد : « الاتجاهات السياسية في العالم العربي » - بيروت
١٩٧٢ .
- خوري ، بشاره خليل : « حقائق لبنانية » ، ثلاثة اجزاء - بيروت ١٩٦٠ .
- خوري ، وثيف : « الفكر العربي الحديث ، اثر الثورة الفرنسية في توجيهه
السياسي والاجتماعي » - بيروت ١٩٤٣ .
- خوري ، فرنسوا : « مذكرات فرنسوا خوري » - بيروت ، مجهول تاريخ
الاصدار .
- راسي ، سلام : « لثلاث تضيع » - بيروت ، الجزء الاول ، مجهول تاريخ
الاصدار والمرجع ١٩٧٣ .
- رستم ، اسد : « لبنان في عهد المتصرفية » - بيروت ١٩٧٣ .
- رفيق وبهجت ، محمد : « ولاية بيروت » - بيروت ١٩١٤ .
- رياشي ، اسكندر : « قبل وبعد ١٩١٨ - ١٩٥٣ » - بيروت ١٩٥٣ .
- « الايام اللبنانية » - بيروت ١٩٥٧ .
- « رؤساء لبنان كما عرفتهم » - بيروت ١٩٦١ .
- ريحاني ، امين : « فيصل الاول » - بيروت ١٩٣٤ .
- زياده ، نقولا : « ابعاد التاريخ اللبناني الحديث » - بيروت ١٩٧٢ .
- زين ، زياده وآخرون : « دراسات في الثورة العربية الكبرى » - عمان
١٩٦٧ .
- زين ، زين نور الدين : « نشوء القومية العربية » - بيروت ١٩٦٨ .
- زين ، زين نور الدين : « الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي
سوريا ولبنان » - بيروت ١٩٧١ .
- سعاده ، جورج عارج : « النهضة الصحفية في لبنان » - جونه ١٩٦٠ .
- سعيد ، امين : « اسرار الثورة العربية الكبرى » - بيروت ، دون تاريخ
الاصدار .
- سفرجلاني ، محي الدين : « تاريخ الثورة السورية الكبرى » - دمشق
١٩٦١ .

- سليمان ، موسى : « الثورة العربية الكبرى ، وثائق واسانيد » - عمان . ١٩٦٦ .
- سليمان ، موسى : « الحركة العربية ، تاريخ النهضة العربية الاولى ١٩٠٨ - ١٩٢٤ » - بيروت ١٩٧٠ .
- سميليانسكايا : « الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الاول من القرن التاسع عشر » ، مترجم - بيروت ١٩٧٢ .
- شبيكه ، مكى : « العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الاولى » - بيروت ١٩٧١ .
- شقير ، سعيد : « تقرير عن مالية لبنان » - بحدون ١٩١٣ .
- شهيندر ، عبد الرحمن : « الثورة السورية الوطنية » - دمشق ١٩٣٣ .
- صايغ ، انيس : « الهاشميون والثورة العربية الكبرى » - بيروت ١٩٦٦ .
- صلح ، عادل : « حزب الاستقلال الجمهوري » - بيروت ١٩٧٠ .
- صليبي ، كمال : « تاريخ لبنان الحديث » - بيروت ١٩٦٧ .
- ضاهر ، مسعود : « الادارة في لبنان زمن الانتداب الفرنسي » ، دبلوم دراسات عليا في التاريخ . غير منشور . كلية الاداب والعلوم الانسانية - الجامعة اللبنانية - بيروت ١٩٧٠ .
- طربين ، احمد : « الوحدة العربية ١٩١٦ - ١٩٤٥ » - القاهرة ١٩٥٩ .
- طربين ، احمد : « لبنان منذ عهد المتصرفية الى بداية الانتداب ١٨٦١ - ١٩٢٠ » - القاهرة ١٩٦٨ .
- عارج ، انطوان : « لبنان ، السلطات العامة » - بيروت ١٩٦٣ .
- علم الدين ، وجيه : « اليهود المتعلقة بالعالم العربي » - بيروت ١٩٦٥ .
- علم الدين ، وجيه : « مراحل استقلال دولتي لبنان وسوريا ١٩٢٢ - ١٩٤٣ » - بيروت ١٩٦٧ .
- قاسمي ، ظافر : « وثائق جديدة عن الثورة السورية الكبرى » - بيروت ١٩٦٥ .
- كرد علي ، محمد : « خطط الشام » ستة أجزاء - دمشق ١٩٢٢-١٩٢٨ .
- مرفص ، ميشال : « تاريخ الحياة الانتخابية في لبنان ١٨٤٣ - ١٩٧٠ » - بيروت ١٩٧٠ .
- مزهر ، يوسف : « تاريخ لبنان العام » ، الجزء الثاني - بيروت ١٩٦٠ .
- مسعد ، بولس : « لبنان وسوريا قبل الانتداب وبعده » - القاهرة ١٩٢٩ .
- موسى ، منير : « الفكر العربي في العصر الحديث : سوريا من القرن الثامن عشر حتى ١٩١٨ » - بيروت ١٩١٨ .
- نخله ، وشيد : « كتاب المنفى » ، تقديم امين نخله - بيروت ١٩٥٦ .
- النقاش ، زكي : « لبنان بين الحقيقة والخيال : دراسة تحليلية ونقد موضوعي لكتاب حقائق لبنانية » - بيروت ١٩٦٥ .
- يزبك ، يوسف ابراهيم : « حكاية اول نوار في العالم وفي لبنان » - بيروت ١٩٧٤ .

جرائد ومجلات باللغة العربية وردت أسماءها في الكتاب

ب) مجلات :	أ) جرائد :
اوراق لبنانية ،	الصحافي التائه ،
الحارس ،	زحله الفتاة ،
البلاغ ،	العمال ،
المشرق ،	صوت العمال ،
المنار ،	المعرض ،
الطليعة ،	لسان الحال ،
الطريق ،	البرق ،
اليقظة ،	الانسانية ،
الحياة النيابية في لبنان .	الحقيقة ،
	البشير ،
	النهار .

مراجع باللغات الأجنبية

THESES EDITEES OU RONEOTYPEES

- ABOU KHATER Jamil Ibrahim** : « La Condition des Etrangers en Syrie et au Liban ». BOSC — Lyon, 1933.
- ABOUSSOUAN Benoît** : « Le Problème Politique Syrien ». Duchemin, Paris, 1924.
- ACHQAR Joseph** : « La France et l'Angleterre dans le Proche-Orient : l'Evolution Politique de la Syrie et du Liban, de la Palestine et de l'Irak ». M. Martin. Paris, 1934.
- ACHI Georges** : « Le Passage de la Liberté au Contrôle dans les échanges extérieurs de la Syrie 1929-1947 ». Thonon-Les-Bains, Suisse, 1949.
- AJALANI Mounir** : « La Constitution de la Syrie ». Les Presses Modernes, Paris, 1932.
- AYOUB Charles**: « Les Mandats Orientaux ». Sirey. Paris, 1924.
- BIKHAZI Samia Jibran** : « The Lebanese Chamber of Deputies ». A.U.B. Beirut, 1962.
- BURCKARD (Charles)**: « Le Mandat Français en Syrie et au Liban : La Politique et l'œuvre de la France au Levant ». Courrouy — Nimes, 1925.
- CHAOUI Joseph** : « Le Régime Foncier en Syrie ». Duriez. Lille, 1928.
- CHATILA Khaled** : « Le mariage chez les musulmans en Syrie ». Les Presses Modernes. Paris, 1933.
- CHEHAB ED DINE Saïd** : « Géographie humaine de Beyrouth ». Mise-à-jour. Beyrouth, 1960.
- CHERIF Ihsan el** : « La Condition Internationale de la Syrie ». La Vie Universitaire. Paris, 1922.

- CHEVALLIER Dominique** : « La Société du Mont-Liban à l'époque de la Révolution Industrielle en Europe ». Geuthner. Paris, 1971.
- COULAND Jacques** : « Le mouvement syndical au Liban 1919-1946 ». Editions Sociales. Paris, 1970.
- DAGHESTANI Kazem** : « Etude Sociologique sur la famille musulmane contemporaine en Syrie ». Leroux. Paris, 1928.
- DESJARDINS Maurice** : « Le problème syrien au point de vue économique ». Duriez. Lille, 1928.
- DJABRY Omar** : « La Syrie sous le Régime du Mandat ». Dition. Paris, 1934.
- FAYYAD Halim Farid** : « The effects of sectarianism on the Lebanese Administration ». A.U.B. Beirut, 1956.
- GEMAYEL Sleiman** : « Evolution du budget libanais ». Pichon. Paris, 1962.
- GROUSSET Philippe** : « La Constitution Libanaise du 23 Mai 1926 révisée le 17 Octobre 1927 ». Cledier. Toulouse, 1928.
- HILAN Rizkallah** : « Culture et Développement en Syrie et dans les Pays retardés ». Anthropos. Paris, 1969.
- JONES John Morgan** : « La fin du Mandat Français en Syrie et au Liban ». Pedone. Paris, 1938.
- JOUPLAIN M.** : « La question du Liban ». Arthur Rousseau. Paris, 1908.
- KAZEM Mourad** : « L'Union douanière Libano-syrienne ». Grivet. Genève, 1950.
- KHOURY Youssef** : « Prix et Monnaie en Syrie ». Vie Universitaire. Paris, 1937.
- KURI Victor A** : « L'Evolution du Mandat A : Article 22 du Pacte de la S.D.N. ». Les Presses Modernes. Paris, 1927.
- KUZBARI Nader** : « La question de la cessation du Mandat Français sur la Syrie ». Pedone. Paris, 1937.
- LAPIERRE Jean** : « Le Mandat Français en Syrie : origines, doctrine, exécution ». Sirey. Paris, 1936.
- LEGA Raoul Colona de** : « La Zone Franche du Port de Beyrouth ». Catholique, Beyrouth, 1957.
- LONGRIGG Stephen Hemsley** : « Syria and Lebanon under French Mandate ». Oxford University Press. London, 1958.
- LUQUET Jean** : « Le Mandat A et l'Organisation du Mandat Français en Syrie ». Vie Universitaire. Paris, 1923.

- MAJZOUB Mohamed** : « L'Indépendance Libanaise dans l'Ordre interne et international ». Aix-en-Provence. Dactylographiée, 1956.
- MILLOT Albert** : « Contribution à l'Etude des Mandats Internationaux ». Larose. Paris, 1924.
- MONICAULT Jacques de** : « Le Port de Beyrouth et l'Economie des Pays du Levant sous le Mandat Français ». Librairie Technique et Economique. Paris, 1936.
- MUFARRIJ Fouad K.** : « Syria and Lebanon under the French Mandate ». A.U.B. Beirut, 1935.
- NASR Nafhat Nassim** : « The Presidency of Lebanon ». A.U.B. Beirut, 1960.
- NICOLAS Maxime** : « Questions Monétaires en Syrie ». Rey. Lyon, 1921.
- RABBATH Edmond** : « L'Evolution Politique de la Syrie sous Mandat de 1920-1925 ». Rivière. Paris, 1928.
- RONDOT Pierre** : « Les Institution Politiques du Liban ». Imprimerie Nationale. Paris, 1947.
- SABEA Michel** : « La Réorganisation du Conseil d'Etat en Syrie ». Leroux. Paris, 1932.
- SADAQA Najib** : « La question syrienne pendant la guerre de 1914 ». Larose. Paris, 1940.
- SAFA Elie** : « L'Emigration Libanaise ». Imprimerie Catholique. Beyrouth, 1960.
- SAMMAN Ahmad** : « Le Régime monétaire de la Syrie ». Rode-tein, Paris, 1935.
- SARRAGE Mohammed** : « La nécessité d'une réforme agraire en Syrie ». Imprimerie Sud-Ouet. Toulouse, 1935.
- SOREL Jean-Albert** : « Le Mandat Français et l'Expansion Economique de la Syrie et du Liban ». Marcel Girard. Paris, 1929.
- SPENCER Noël W.** : « The role of the Maronite Patriarchate in Lebanese Politics from 1840 to the present ». A.U.B. Beirut, 1963.
- SULEIMAN Michael W.** : « Political Parties in Lebanon ». Cornell University Press, New York, 1967.
- STOYANOVSKY Jean** : « La Théorie Générale des Mandats Internationaux ». Presses Universitaires de France, Paris, 1925.
- THOUMIN Richard** : « Géographie humaine de la Syrie Centrale ». Arrault, Tours, 1936.

TOUMA Toufic : « Paysans et institutions féodales chez les Druzes et les Maronites du Liban du XVIIème Siècle à 1914 ». Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth, 1971-1972.

WEULERSSE Jacques : « Le Pays des Alaouites ». Arrault, Tours, 1940.

ZEINEDDINE Farid M. : « Le régime du Contrôle des Mandats de la S.D.N. ». P.U.F. Paris, 1932.

RECUEILS

REPUBLIQUE FRANÇAISE,
MINISTÈRE DES AFFAIRES ÉTRANGÈRES

HAUT-COMMISSARIAT EN SYRIE ET AU LIBAN :

- « La Syrie et le Liban en 1921 : La Foire-exposition de Beyrouth, Avril-Mai 1921 ». Larose. Paris, 1922.
- « Ce que tout Français doit savoir de la Syrie et du Liban ». Paul Barbey. Le Caire. 1921.
- Bulletin hebdomadaire officiel des actes administratifs du Haut-Commissariat ». Jeanne d'Arc. Beyrouth, 1921-1927.
- « La Syrie et le Liban en 1922 ». Larose, Paris, 1923.
- « Recueil des Actes administratifs du Haut-Commissariat de la République Française en Syrie et au Liban ». Cinq volumes, 1919-1924. Jeanne d'Arc. Beyrouth. 1920-1925.
- « Rapport sur la situation de la Syrie et du Liban (Juillet 1923-Juillet 1924) ». Imprimerie Nationale. Paris. 1924.
- « Rapport sur la situation de la Syrie et du Liban : Année 1924 ». Genève. 1925.
- « Rapport provisoire à la Société des Nations sur la situation de la Syrie et du Liban : Année 1925 ». Imprimerie Nationale. Paris. 1926.
- « Syrie et Liban ». Comité Franco-Syrien de propagande pour l'exposition des arts décoratifs. ». Paris, 1925. Imprimerie Graphique.
- « Statut organique des Etats du Levant sous mandat français ». Paris. Hugnin 1930.
- « Dix ans de Mandat ». Paris. Joune. 1930.
- « Quinze ans de Mandat ». Paris. Joune. 1936.

SUR LE MANDAT FRANÇAIS EN SYRIE ET AU LIBAN

BERGER-LEVRAULT (éditeur) : « La Syrie et le Liban sous l'occupation et le Mandat Français 1919-1927 ». Auteur inconnu. Paris, Nancy. 1929.

BOURGEOIS Léon : « L'œuvre de la S.D.N. 1920-1923 ». Payot. Paris. 1923.

FERIET René de : « L'application d'un mandat ». Joune. Paris. 1926.

O'ZOUK Raymond : « Les Etats du Levant sous Mandat Français ». Larose. Paris. 1931.

PICOT François-Georges : « Discours à Tripoli ». Beyrouth. 1919.

REIS Van : « Les Mandats Internationaux : Les principes généraux du régime des mandats ». Rousseau. Paris. 1928.

RONDOT Pierre : « L'expérience du Mandat Français en Syrie et au Liban 1913-1945 ». Extrait de la Revue Générale de Droit international public. Pédone. Paris. 1948.

SFEIR Abdallah : « Le Mandat Français et les traditions françaises en Syrie et au Liban ». Paris. 1922.

TABET Ayyoub : « L'Etat du Liban et le Mandat Français ». Catholique. Beyrouth. 1926.

SUR L'HISTOIRE DU LIBAN AVANT ET SOUS LE MANDAT

ABOUCHDID Eugénie Elle : « 30 years of Lebanon and Syria 1917-1947 ». The Sader Rihani Printing. Beirut. 1948.

CAYLA Léon et NAMMOUR Moussa : « Anniversaire de la proclamation du Grand-Liban ». Discours prononcés le 1er Septembre 1925. Imprimerie des Lettres. Beyrouth. 1925.

CHIHA Michel : « Politique Intérieur ». Trident. Beyrouth. 1964.

COMITE LIBANAIS DE PARIS : « Mémoire sur la question du Liban » ; Pariset, Paris, 1912.

COZE Edouard : « La Syrie et le Liban ». Conférence. Paris. 1922. Bibliothèque Nationale.

DAHDAH Nagib : « Evolution Historique du Liban ». Oasis. Mexico. 1964.

EDDE Camille : « La justice en Syrie et au Liban ». Conférence. Le Caire, 1930.

SOCIETE DES NATIONS :

Mandats: Série 1920-1928. Bibliothèque Nationale. Paris.

S.D.N. :

« Commission Permanente des Mandats (C.P.M.) — Procès-verbaux de la Huitième Session (extraordinaire), tenue à Rome du 16 Février au 6 Mars 1926 ». Publication de la S.D.N., 1926.

FEGHALI Mgr. Michel :

- « La famille catholique au Liban ». Revue d'éthnographie et des traditions populaires, Nos. 23-24. Paris. 1925.
- « Contes, légendes, coutumes populaires du Liban et de la Syrie ». Librairie d'Amérique et d'Orient. Paris. 1935.

GEIGER André : « Syrie et Liban ». Arthaud. Grenoble. 1932.

GHALEB Pierre : « Le protectorat religieux de la France en Orient ». Avignon, 1913.

JALABERT Louis : « Syrie et Liban : Réussite française ? ». Plon. Paris. 1934.

KAIRALLAH Kairallah :

- « La question du Liban ». Plon-Nourrit. Paris. 1915.
- « Les régions arabes libérées ». C.C. SYRIEN — DOCUMENTS. Paris. 1919.

KHAIR Antoine : « Le Moutaçarrifat du Mont-Liban ». Beyrouth. 1973.

LYAUTEY Pierre : « Liban Moderne ». Julliard. Paris, 1965.

MUNICIPALITE DE ZAHLE : « La Béqu'a aux Libanais ; Arguments historiques et économiques ; Mémoire présentée aux gouvernements des grandes puissances protectrices du Liban par les Conseils Municipaux de la ville de Zahlé et du Mont-Liban, Mars 1913 ». Zahlé al Fatat. Zahlé. 1913.

RABBAT Edmond : « La Formation historique du Liban politique et Constitutionnel ». Beyrouth. 1973.

RISTELHUEBER René : « Traditions françaises au Liban ». Alcaïn, Paris, 1925.

SAMNE Georges : « Le Liban autonome de 1861 à nos jours ». Arts et Manufactures. Paris. 1919.

TABET Ibrahim : « Projet Constitutionnel pour le Grand-Liban ». Catholique Beyrouth, 1920.

TYAN Ferdinand : « France et Liban : défense des intérêts français en Syrie ». Perrin. Paris. 1917.

YAMMINE Antoine : « Quatre ans de misère : Le Liban et la Syrie pendant la Guerre ». Hindié. Le Caire. 1922.

SUR L'HISTOIRE DE L'ENTRE DEUX GUERRES 1918-1939

ANDREA Le Général : « La révolte druze et l'insurrection de Damas 1925-1926 ». Payot. Paris. 1937.

BAUMONT Maurice : « La faillite de la Paix 1919-1939 ». Deux volumes. P.U.F. Paris. 1960.

BEAUPLAN Robert de : « Où va la Syrie ? Le mandat sous les Cèdres ». Tallandier. Paris. 1929.

BERQUE Jacques :

— « Collège de France : Leçon inaugurale ». Décembre 1956.

— « Dépossession du Monde ». Seuil. Paris. 1964.

— « Les Arabes d'hier à demain ». Seuil. Paris. 1969.

— « L'Orient second ». Gallimard. Paris. 1970.

BRIOT P. et DRESCH Jean : « La Méditerranée et le Moyen-Orient ». 2ème Volume. P.U.F. Paris. 1956.

BOISSIERE Paul : « La Syrie : importance actuelle des intérêts français en Syrie ». Chaix. Paris. 1919.

BOURON Capitaine N. : « Les Druzes : Histoire du Liban et de la Montagne Haouranaise ». Berger - Levrault. Paris. 1930.

BOURBON Prince Sixte de : « La Syrie et la France ». Emile Paul. Paris. 1919.

BUEHRIG Edward : « Woodrow Wilson and the Balance of Power ». Indiana University Press. U.S.A. 1955.

CAIX Robert de : « Histoire des colonies françaises : La France dans le Levant ». Tome III. La Syrie. Plon. Paris. 1931.

CAPDEJELLE Commandant et HACHEM Chelkh Aziz al : « La question syrienne ». Gédéon. Beyrouth. 1927.

CARDAHI Choukri : « Le problème de l'organisation judiciaire dans les pays du Levant placés sous Mandat français ». Sirey. Paris. 1928.

CATROUX Le Général : « Deux missions en Moyen-Orient 1919-1922 ». Plon. Paris. 1958.

CLEMENCEAU Georges : « Grandeurs et Misères d'une victoire ». Plon. Paris. 1946.

COMITE CENTRAL SYRIEN :

- « L'opinion syrienne à l'étranger pendant la guerre ». Documents. Paris. 1918.
- « La Syrie devant la Conférence ». Barnagand. Paris. 1919.

DORiot : « La Syrie aux Syriens ». Discours prononcé à la Chambre des Députés le 20 Décembre 1925. L'Humanité. Paris. 1926.

DUPIN Gustave : « M. Poincaré et la Guerre de 1914 ». Librairie du Travail. Paris. 1935.

GRIMAL Henri : « La décolonisation 1919-1963 ». A. Colin. Paris. 1965.

GONTAUT-BIRON Compte René de :

- « Comment la France s'est installée en Syrie 1918-1919 ». Plon. Paris. 1923.
- « Sur les Routes de Syrie après neuf ans de Mandat ». Plon. Paris. 1928.

HARDY Georges : « La politique coloniale et le partage de la terre aux XIXème et XXème siècles ». Albin Michel. Paris. 1937.

HUNTZIGER : « Le livre d'or des troupes du Levant 1918-1936 ». Paris. 1938.

JUNG Eugène : « La Révolte arabe de 1906 à la révolte de 1916 (Tome I) » et « de Juin 1916 à nos jours : la lutte pour l'Indépendance ». Colbert. Paris. 1925.

LAMAZIERE Pierre : « Partant pour la Syrie ». Baudinière. Paris. 1926.

LESSOURD Y.A. et GERARD G. : « Histoire économique XIXème et XXème siècle », Tome II. A. Colin. Paris. 1963.

MAESTRACI Noël : « La Syrie Contemporaine ». Lavauzelle. Paris. 1930.

MANDELSTAM André :

- « Le Sort de l'Empire Ottoman ». Payot. Paris. 1917.
- « La Société des Nations et les Puissances devant le Problème Arménien ». Association Libanaise des Universitaires Arméniens. Beyrouth. 1970.

PICHON Jean : « Le partage du Proche-Orient ». Paris. 1936.

RABBATH Edmond : « Unité Syrienne et devenir arabe ». Rivière. Paris. 1937.

RENOUVIN Pierre :

- « La crise européenne et la Première Guerre Mondiale ». P.U.F. Paris. 1962.

— « Les buts de guerre du gouvernement français 1914-1918 ». Revue Historique No. 235. Paris. 1966.

RODINSON Madame : « Marxisme et Monde Musulman ». Seuil. Paris. 1972.

RONDOT Pierre : « Les Chrétiens d'Orient ». Cahiers d'Afrique et d'Asie, No. IV. Paris. 1955.

ROYER André : « Treize mois en Syrie 1924-1925 ». Edition inconnue.

SAINT-POINT Victoria de : « La vérité sur la Syrie par un témoin ». Cahiers de France. Paris. 1929.

SAMNE Georges : « La Syrie ». Bossard. Paris. 1920.

THOBIE Jacques : « Les intérêts français dans l'Empire Ottoman au début du XXème siècle ». Revue Historique No. 235. Paris. 1966.

SUR L'INSTRUCTION PUBLIQUE

ASSOCIATION AMICALE DES ANCIENS ELEVES DE L'U-

NIVERSITE SAINT-JOSEPH (U.S.J.) : « Livre d'or ». Catholique. Beyrouth. 1949.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT (A.U.B.) : « Directory of Alumni 1870-1957 ». Catholic. Beirut. 1957.

CORM Charles : « La Montagne inspirée ». La Revue Phénicienne. Beyrouth. 1964.

DAHAN Robert : « Souvenirs d'Orient : la vie d'étudiant en Syrie ». Revue Moderne des Arts et de la Vie. Paris. 1932.

DEHERAIN Henri : « Histoire des colonies françaises : l'œuvre scientifique en Asie Mineure, en Syrie et en Perse du XVIIème au XXème siècle ». Tome III. Plon. Paris. 1931.

U.S.J. :

— « Distribution des Prix 1910-1930 ». Catholique. Beyrouth. 1931.

— « Unesco : Assemblée Générale au Liban 1948 ». Catholique. Beyrouth. 1948.

— « Les Jésuites au Liban : Le Livre d'or 1881-1956 ». Catholique. Beyrouth. 1956.

— « Beyrouth et Grand-Liban ». Catholique. Beyrouth. 1922.

— « Les Jésuites en Syrie 1831-1931 ». Paris. 1931.

VALINE : « Le pluralisme socio-scolaire au Liban ». Dar Al Machriq. Beyrouth. 1969.

SUR L'ECONOMIE

- ABD-UL AZIZ l'Emir Ali** : « Etudes sur l'Histoire des Relations Economiques franco-syriennes ». Saint-Gilles. Paris. 1936.
- ACHARD** : « Le coton en Syrie et en Cilicie ». Supplément de l'Asie Française. Juin 1922.
- BANQUE DE SYRIE ET DU LIBAN** : « Bulletin de la Banque de Syrie et du Liban ». Paris. 1920-1930.
- BERGASSE Louis** : « L'œuvre française en Syrie ». Barlatier. Marseille. 1922.
- BERIEL** : « La sériciculture au Liban ». Supplément de l'Asie Française. Septembre-Octobre 1922.
- CHAMBRE DE COMMERCE DE MARSEILLE** : « Congrès français de la Syrie : Marseille, Janvier 1919, Programme Provisoire ». Barlatier. Marseille. 1919.
- COMPAGNIE DU PORT DE BEYROUTH** : « Documents constituant le statut de la concession ». Saint Amand. 1936.
- DUCOUSSO Gaston** : « L'industrie de la soie en Syrie et au Liban ». Catholique. Beyrouth. 1913.
- FEGHALI Mgr. Michel** : « L'élevage du ver à soie au Liban ». Le Caire. 1934.
- HAMADAY Saïd** :
- « Monetary and Banking system of Syria ». American University, Beirut, 1936. (Traduit en arabe par Chibl Dammous).
 - « Economic Organization of Syria ». American University, Beirut, 1935.
- HUVELIN Paul** : « Que vaut la Syrie ? ». Supplément de l'Asie Française de Décembre 1921.
- MENASSA Gabriel** : « Plan de reconstruction de l'économie libanaise et de réforme de l'Etat ». La Société Libanaise de l'Economie Politique. Beyrouth. 1948.

SUR LE REGIME FONCIER ET LE PROBLEME AGRAIRE (OUVRAGES)

- BLOCH Marc** : « La Société Féodale ». Albin Michel. Paris. 1970.
- BOUTRUCHE Robert** : « Seigneurie et Féodalité ». Aubier. Paris. 1959.
- CARLE G.** : « L'Hydraulique agricole et industrielle en Syrie ». Editions Géographiques. Paris. 1923.

**CENTRE D'ETUDES ET DE RECHERCHES
MARXISTES (C.E.R.M.) :**

- « Sur le mode de production asiatique ». Editions Sociales. Paris. 1969.
- « Sur les Sociétés pré-capitalistes : Textes choisis de Marx, Engels, Lénine ». Editions Sociales. Paris. 1970.
- « Sur le Féodalisme ». Editions Sociales. Paris. 1971.

CLAVEL Eugène : « Le Wakf ou Habous ». Dienner. Le Caire. 1896. 2 Volumes.

DUFOUR Alphonse : « La Syrie d'aujourd'hui, ses ressources, son avenir ». Société des Ingénieurs Civils de France. Paris. 1922.

LATRON André : « La vie rurale en Syrie et au Liban ». Beyrouth. 1936.

SEMAINES SOCIALES DU LIBAN : « Problèmes ruraux et devenir libanais ». Editions des Lettres Orientales. Beyrouth. 1962.

WEULERSSE Jacques :

- « Paysans de Syrie et du Proche-Orient ». Gallimard. Paris. 1946.
- « L'Oronte ». Arrault. Tours. 1940.

**SUR L'AGRICULTURE
LA VIE RURALE ET L'ECONOMIE SOUS MANDAT
(ARTICLES)**

ACHARD :

- « Etudes sur la Syrie et la Cilicie ». L'Asie Française — supplément spécial — Paris. 1922.
- « La plaine du Akkar ». L'Asie Française. No. 209. Mars. 1923.

CHEVALLIER Dominique:

- « Lyon et la Syrie en 1919 : Les bases d'une intervention. Revue Historique. No. 224. P.U.F. Paris. 1960.
- « A Damas, production et société à la fin du XIXème siècle ». Annales d'E.S.C., 1964, p. 966-972. Paris.
- « Les cadres sociaux et l'économie agraire dans le Proche-Orient au début du XIXème siècle : le cas du Mont-Liban ». Revue Historique, No. 239. Paris. 1968.

DONDON Jean : « La question foncière en Syrie et au Liban ». L'Asie Française. No. 208. Février 1923.

DUCRUET Jean : « Les Capitaux européens au Proche-Orient ». Paris. 1964.

LATRON André : « En Syrie et au Liban : villages communautaires et structure sociale ». Annales d'Histoire Economique et Sociale. No. 27. Mai. 1934.

PARMENTIER Paul : « L'Agriculture en Syrie et en Palestine ». Extrait de la Revue de Botanique appliquée et d'Agriculture coloniale. Paris. 1922.

SOBOUL Albert : « La Révolution Française et la féodalité ». Notes sur le prélèvement féodal. Revue Historique No. 240, Année 1968.

THOUMIN Richard : « La maison syrienne ». Documents d'Etudes Orientales. Institut Français de Damas. Leroux. Paris. 1923.

WEULERSSE Jacques : « Régime agraire et vie agricole en Syrie ». Bulletin de l'Association Française, No. 110. Coueslant. Janvier 1938. Paris.

SUR LA METHODOLOGIE ET LE MANDAT (ARTICLES) et (COLLOQUES)

BRAUDEL Fernand : « Sur une conception de l'histoire sociale ». Annales d'E.S.C. de 1959, p. 308-319.

CHEVALLIER Dominique :

— « Politique et religion dans le Proche-Orient : une Icônographie des Maronites du Liban ». Revue d'Histoire Moderne et contemporaine. P.U.F. Paris. 1963. Tome X.

— « Ombres et lumières sur le Liban ». Annales d'E.S.C. 1965. p. 825-827.

COLLOQUE DE L'ECOLE NORMALE SUPERIEURE DE SAINT-CLOUD. 15-16 MAI 1965 : « L'Histoire Sociale : Sources et Méthodes ». P.U.F. Paris, 1967.

COLOMBE Marcel : « Islam et Nationalisme arabe à la veille de la première Guerre Mondiale ». Revue Historique, No. 223. P.U.F., Paris, 1960.

COULAND Jacques : « L'impérialisme français au Moyen-Orient ». Nouvelle Critique, No. 36, Septembre 1970.

DOUMER Paul : « Les intérêts de la France en Syrie ». Paris. 1913.

HAYE Henri : « Les relations de la France et de la Syrie ». Conférence au Centre d'Etudes de Politique étrangère. Paris. Février 1939.

VIENOT Pierre : « Le Mandat Français sur le Levant ». Conférence au Centre d'Etudes de Politique étrangère. Paris, le 9 Février 1939.

- LEFEBVRE Georges** : « Marc Bloch : Apologie pour l'Histoire ». Revue Historique, No. 210, Paris, 1953.
- LA PENSEE (Revue)** : « Sur la catégorie de Formation Economique et Sociale », Numéro Spécial 159, Octobre 1971.
- RONDOT Pierre** : « Les structures socio-politiques de la Nation Libanaise ». Revue Française de Science Politique. Volume IV, No. 1. P.U.F. Paris. 1954.
- SIMIAND François** : « Méthode Historique et Science Sociale ». Annales d'E.S.C., 1960, p. 83-119.
- VILAR Pierre** : « L'Histoire et l'historien : Histoire sociale et philosophie de l'histoire ». Recherches et débats du Centre Catholique des Intellectuels Français. A. Fayard. Cahier No. 47. Paris. Juin 1964.

**PERIODIQUES
(SELECTION)**

A — PRESSE en langue française :

La Syrie,
Le Commerce du Levant,
L'Orient,
L'Orient-Le Jour
Le Temps (Paris).

B — REVUES (articles choisis) :

En langue française

- Annales : Economies, Sociétés, Civilisations (E.S.C.).
- « L'Asie Française ».
- L'Association des Commerçants et Industriels français au Levant (C.I.F.L.), (revue mensuelle).
- Correspondance d'Orient,
- La Nouvelle Critique,
- La Pensée,
- La Revue des Deux Mondes,
- La Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine,
- La Revue Historique,
- La Revue d'Economie Politique,
- La Revue de Paris.

(١)

- ابراهيم باشا ١٦٣
ابراهيم عبدالله ٨٦
ابو حنا مخايل داود ٣٠٢
ابو مروب اسماعيل ٨٦
ابو خاطر ابراهيم ٢٦٣
ابو راشد حنا ٣٠٥ - ٣٠٦
ابو راشد ميثال ٢٧٤
ابو شبكة الياس ١٦٢ - ٢٦٠ - ٢٧٤ - ٣٠٥
ابو شقرا نعمان ٨٦
ابو صوان بنوا ١٥٤ - ١٨٨
ابو عيد حسين ٨٦
ابو نادر الياس ٣٠٠
ابو ناصر الياس ٣٠٧
اده اميل ٢٦٣ - ٢٧٣
اديب باشا ٢٦٣
ارسلان شكيب ٦٤ - ٢٨٢
ارقتس رزق الله ٢٤
ارمايسان بانوس ٢٩٥
اسعد بك ٤١
اشار ٩٨ - ١٠٢ - ٢٠٩
الارمنازي نجيب ١١٠
الاسود ابراهيم ٢٧٥ - ٢٧٦
اندريا ٣٩
اوهانس باشا ٢٤ - ٤٩ - ٥٠
اوزو ريمون ٧٩
اوهرى ٨١

(ب)

- باخوس خليل ٢٧٦
باخوس نعووم ٢٧٣
بارتون اندرية ٨٢
باز جرجي نقولا ٢٨٧
باز سليم ٢٧٦
بانوسيان ماسيس ٢٩٥
بخاش شكري ٢٩٠ - ٣٠٥
برتون اندرية ٣١٢
برجر جوزف ٣٠٠
برجية - ليفرو ١٣٤
برك جاك ٥٣ - ٢٠٦
برهوم حبيب ٢٧٤
برو ٣١٦
بريان ارستد ٩٥
بزي هاني ٢٠٦
بستاني بطرس ٢٦١
بستاني حبيب ٢٨٢
بعقلين ٢٧٥
بلس هوارد ٣٣
بلفور ٢٦ - ٣٢ - ٣٤ - ٢٤٠ - ٢٨١
بليب ادبون ١٥٠
بوادغار الن ٢٧٤
بوالو ١٦٣
بوانكارية ريمون ٢٣ - ٣١ - ٤٩ - ٧٠ - ٧٣ - ٧٨ - ٨٥
بوبلان ٤٢ - ٣١٥
بوربون ١٧٢
بوتشيل ٨١
بويادجيان هيكازون ٢٩٥ - ٣٠١ - ٣٠٧
برار فيكتور ٣١
بران ٣٠٠
بيشون جان ٣٤
بيكو فرنسوا جورج ٦٦ - ٧٢ - ١٧٩ - ٢٥٩
بيهم محمد جميل ٢٩٨
بيهم ٢٤٠
بيرون غونتور ٨٧

(ت)

- تابت ايوب ٢٤
تابت حبيب ٢٧٦

ناتيان كريكور ٢٩٥
ترابو ٧٢
تشيشرن ٣٦
التميمي امين ٢٨٢
توما توفيق ٢٠٦
توماس عمانوئيل ١٥٩
تويني جبران ١٩٨
تويني نخلة ٢٤
تبير الباهو ٣٠٧

(ج)

الجابري احسان ٢٨٢
الجابري عمر ١٠٩ — ١٣٥
جالا بر لويس ٢٩١ — ٢٩٤
جراح ٢٠٢
الجراح محمد ٢٠٢
جرجس حنا ٢٠٨
الجزائري مختار ٢٦٩
جمال باشا ٢٥ — ٢٦ — ١٢٠ — ١٢١ — ١٢٢ — ١٢٤ — ٢٥٩
الجميل شبلي ٢٨٢
الجميل سليمان ١٤٦
الجميل هنري ٣٠٥
الجميل يوسف ٢٧٤
جنبلاط محمود ٢٦٣
جهشان الياس ٣٠٠
جورج لويد ١٢٤
جونس مورغان ١٤٦
جونغ ١٦٢
جيلي ١٥٥

(ح)

الحجار حليم ٢٦٣
حسين الشريف ٢٦ — ٢٩ — ٢٥٩
حشيرة بطرس ٢٩٩ — ٣٠٠ — ٣٠١ — ٣٠٢
حمادة تامر ٢٦٣
حمادة توفيق ٢٨٢
حمادة سعاد ١٢٢
حمادة محمود ٢٧٦
حنا جورج ٢٦٢ — ٣١٥

حنبكاني الياس ٢٧٦
حويك (البطريرك) ٧٢ — ٢٦٢ — ٢٦٣ — ٢٦٤ — ٢٦٥
حويك — عبدالله ١٢٢

(خ)

الغازن فيليب تعداد ٢٥٩
الغازن يوسف ٣١٤
خاطر لحد ٤٩ — ٥٠
خاطر مرشد ٢٧٤
خالدي ٢٤٠
خوري اميل
الخوري بشارة خليل ٦٨ — ٢٧٣
الخوري بشارة عبدالله ٢٥٩
الخوري رثيف ٢٦٠
خوري عبدالله ٢٦٣
الخوري عيسى مخايل ٢٦٦
خوري فرنسوا ٧٠ — ٣١٥
خوري فؤاد ٦٩
خير الله خير الله ٢٤ — ٢٨٧ — ٣٠٥

(د)

دارك جان ١٦٢
الداغستاني كاظم ٢٣٦
دياس شارل ٣١٥
دريد روسيان اغوس ٢٩٥
دروبي علاء الدين ٤١
الدقوني اسعد ٢٧٦
دلكاسية ٢٣
ردوس شبل ٢٦٦ — ٣١٤
دهان بشارة ٢٠٥
نوريو ٣٠ — ٧٨ — ٨٥ — ١٦٥
دي جاردان موريس ٧٧ — ٧٨ — ٧٩ —
دينز ٢٩
ديكارت ١٦٢
ديورلوسيان ٩٥

(ر)

رابليه ١٦٢

راسين ١٦٢
الراسي سلام ٨٦
الراعي راجي ٢٩٠ - ٣٠٠
رباط ادمون ٦٧ - ٧٤ - ١٠٩ - ١٧٢ - ٢٠٥ - ٢٦٠ - ٢٧٠ -
٣١٤ ٢٩٨
الرحباني ابراهيم متري : ٣٢
رشاد محمد ١١٩
رضا رشيد ١٥٣ - ١٦٣ - ٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٨
رودنسون مكسيم ١٩ - ٣٥
روسو ٢٠٥
ريثاني اسكندر ٨٣ - ٢٧٣ - ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٩٠ - ٢٩٧ -
٣١٥
الريحاني امين ٣٩ - ٤٣

(ز)

زغلول سعد ٣٦
زكور ميشال ٢٨٢ - ٢٩٨ - ٣٠٠
زيادة جوزف ٢٦
زيادة نقولا ١٧٢
زيد الامير ٢٧ - ٢٨ - ٦٥ -
زين زين ٣٣
زينية الفونس ٢٧٣
زينية خليل ٢٤

(س)

سادول جورج ٣١٢
ساراي ٨٠ - ٨١ - ٨٤ - ١٢٤ - ١٦٨ - ١٨٠ - ١٨٣ - ١٨٤
١٨٥ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩ - ٣٠٢ - ٣٠٦ - ٣٠٩ -
٣١٣ - ٣١٧
سالم جورج يوسف ٢٨٢ -
ساموتراس ٢٧٤ -
سايكس مارك ٢٩
السباعي بدر الدين ١٢٦
سرمق شارل ٢٧٥
سركيس سليم ٢٦٧
سرور الياس ٣٠٢
سعادة خليل ٢٦٨
سعد ميشال ٢٧٤
سمنة جورج ٤٦

سموتس ٦٣
سوبول البير ٢٠٦
سوئيه ٣١٤
سبله لويس ٢٦٥

(ش)

شانتور ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧
شاهين ٢٠٢
شاهين سير الطرزي ٢٠٢
شاهين طانيوس ١٩٤ - ٢٢٢
شاوي جوزف ٢٠٣
شحادة جويد الحاج ٨٦
شدياق ميشال ٢٧٦
شديد يوسف ٢٦٦
شرلمان ١٦٢
شقر نجيب ٢٨٢
شهاب نسيب ٢٧٤
شويري الياس ٢٦٢
شيجا ميشال ١٦٤ - ٢٠٥ - ٢٧٣
الشيخاني وديع ٣٠٥ - ٣٠٦

(ص)

صادر ميشال ٢٧٤
صالح ٢٠٢
صباغة سعيد ٢٩٨
صفا ايلي ١٥٣
صغير عبدالله ٧١ - ٧٤ - ٢٦٩ - ٢٧١
الصلح رياض ٦٠ - ٢٧١ - ٢٨٢

(ب)

طاهر الياس ٢٧٨
طبارة بهيج ٢٤٦
طراد بترو ٢٤
طعمة فريد ٢٩٩ - ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣

(ع)

الغازور محمود ٨٦

عبد الحميد الثاني ١١٩ — ٢٦٠ — ٢٦٧
عبد الرزاق عبود ١٩٦ — ٢٤٤
عبد العزيز ١١٩
عبد المجيد ١١٩
عبد الملك فؤاد ٢٦٢
عرب اميل ٢٧٣
عزمي بك ٢٤٠
عسليّة صلاح ١٥٠
عشي جورج ١٢٢
العظم حقي ٢٦٩
عقل خليل ٢٦٢
عماد طعان ٢٦٧ — ٢٨٢
عمون داود ٢٦٣ — ٢٨٣

(غ)

غامبيتا ١٦٥
غاملان ٨٠ — ٨٢
غانم شكري ٢٦٨
غريب خليل ٢٧٨
غريب ميشال ٢٠٦
غورو ٣٠ — ٣٨ — ٤١ — ٤٢ — ٥١ — ٥٩ — ٦٥ — ٦٦ — ٦٨
— ٧٠ — ٧١ — ٧٥ — ٨٠ — ٨١ — ٩٥ — ١٠٨ — ١٢٤
— ١٢٥ — ١٢٦ — ١٣٥ — ١٤٣ — ١٦٥ — ١٦٦ — ١٦٧
— ٢٦١ — ٢٦٢ — ٢٦٣ — ٢٧٠ — ٢٧١ — ٢٧٤ — ٢٧٨
٣١٩
غونتو — بيرون ١٣٦ — ١٤٧
غيز هنري ٥٠

(ف)

فرانس اناتول : ٣٠٠
فرجيل : ٣٠٠
فرنسيس الاول : ١٦٢
فرنسيس سعيد : ٨٦
فريج اجان دو : ٢٧٣
فغالي ميشال : ٢٢٩
فلاندان اتيان : ١٩
فولتير : ٣٠٥
فياض هاني : ١٧٦
فيرجو : ١١٩
فيصل : ٢٦ — ٢٧ — ٢٩ — ٣٠ — ٣١ — ٣٤ — ٣٨ — ٣٩ — ٤٠

— ٤١ — ٦٤ — ٦٥ — ٦٦ — ١٢٥ — ١٦٧ — ٢٦٢ — ٢٦٥
فینوس میلو : ٢٧٤

(ق)

قدورة ٢٤٠
قرداحي شكري ٢٧٣
قرم شارل ١١٦ — ٢٧٣ — ٢٧٤
قشعمي الياس ٣٠٠ — ٣٠٢
قشوع اميل ٢٧٣

(ك)

كاترو : ١٣٥ — ١٦٦ — ١٦٧ — ١٦٨ — ١٧٠
كاربيه ٨١
كاردون لوييس ٤٠٢
كاستيلاني ٢٢ — ١٣٨
كامل بشاره ٢٩٩ — ٣٠٢
كايل ليون ٥٢ — ١٨٣ — ١٨٤
كرم عطاس ٣٠٦
كريستاني ١٣٤
كعك ٢٠٢
كلومنييس ١٦٢
كليمنسو ٢٦ — ٣٠ — ٤٠ — ٧٢ — ١٢٤
كمال مصطفى ٣٦ — ٢٤١ — ٢٨٩
كنعان سليمان ٢٦٢ — ٢٨٢
كوانية جان ٢٣
كورنيل ١٦٣
كولان جاك ٣٠٧
كيرزون ٢٩
كينغ — كراين ٣٣ — ٢٦٢ — ٢٦٥

(ل)

لاترون اندرية ٢٠٢
لامونتين ١٦٣
لامازير ١٨٤
لحدود جميل ٢٧٤
لطف الله ميشال ٢٨١ — ٢٨٢
اللنبي ٢٩ — ٣٠ — ٣٤ — ٦٦ — ١٢٣ — ١٢٤ — ١٢٩
لوييس الرابع عشر ١٦٢

لينغ جورج ٢٠
لينين ٣٥ - ٣٧ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٧ - ٣٠٠

(م)

مادويان ارتين ٢٩٤ - ٢٩٥ - ٣٠١ - ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣١٠ -
٣١٢
ماركس كارل : ٢٨٩ - ٣٠٥
ماكنونالد رمزي ٢٧٧
ماكير سيريل ١٥٩
متي الياس ٢٠٥ - ٣٠٦
مجاخص داود ٢٨٧
محسن محمد ٢٦٢
المحمد كامل ٨٦
مراد محمد ٢٠٨
المرمري ٢٧٤
المرعبي عبود عبد الرزاق ٥٣
مزهري يوسف ٢٦٤
مسايكي بطرس ٢٧٤
مشرق فارس ٢٩٨
مطران يوسف ٩٤
مظهر شفيق ٢٩٩ - ٣٠٠
معنوق فارس ٣٠٢ - ٣٠٣
المعلوف جميل ٢٦٦
المنذر ابراهيم ٢٧٢ - ٣١٤
منسي غبريل ١٢٢
مورنة ٨١
موريل ٨١
مبيوالبير ٣٢

(ن)

نابليون الثالث ٢٠
ناصر الدين علي ٣١٢
نعيم ادمون ٤٥
نفاع جبران ٣٠٦
نقاش الفريد ٢٧٣
نور الله سليم ٢٧٨

(هـ)

الهاني انيس ٢٧٥ - ٢٧٧

الهاني يوسف ٢٤
هبة نمر ٢٩٩ — ٣٠٠ — ٣٩٦
هنانو ابراهيم ٣٧
هوفلان ٤٧ — ١٠٠ — ١٠٢
هيجو ٣٠٠
هيكازيان ستراك ٢٩٥
هيكل فيليب ٢٧٨

(و)

وايزمن ٢٦
ويلرس جاك ٩٥
ويلسون ٣١ — ٣٢ — ٣٣
ويغان ٧٣ — ٨٠ — ٨١ — ٨٢ — ٨٥ — ١١١ — ١٢٤ — ١٣٦ —
٢٩٧ ١٨٤

(ي)

اليازجي ابراهيم ٢٦١
اليازجي توفيق ٢٨٢
اليامي عبدالله ١٦٨
يرتيزيان ارام ٢٩٥
يزبك الياس ١٥٩
يزبك الياس ١٥٩
يزبك يوسف ابراهيم ١٥٣ — ٢٨٧ — ٢٨٨ — ٢٩٠ — ٢٩١ — ٢٩٩
٣٠٠ — ٣٠١ — ٣٠٢ — ٣٠٣ — ٣٠٥ — ٣٠٦ —
٣١٢ — ٣٠٧
اليوسف خلف ٨٦
اليوسف كامل حسين ٨٦

فهرس الاماكن

(1)

- ابل القمح ٨٦
اذربيجان ٢٩٣
ارغون ٣٠
ارمينيا ٢٩٣ — ٢٩٥ — ٣١١
استانة ٢٣ — ٢٦٠
استراليا ١١٦
اسكندنافيا ١١٦
اسيا ٢٢
اضنة ٢٩٥
افريقيا ٦٣ — ٦٦ — ٧٠ — ٧٥ — ١٥٢ — ١٦٦
اقليم التفاح ٤٥
اقليم الخروب ٤٥
اكروم ٤٦ — ١٩٧ — ١٩٨ — ٢٤٣
الارجنتين ٢٦٧
الاسكندرون : ٨٤ — ٨٥ — ٩٩ — ١٠٢ — ١٠٤ — ١٠٦ — ١٤٥
الامبراطورية العثمانية ١٩ — ٢١ — ٢٢ — ٢٣ — ٣٢ — ٤٢ — ٥٠
٦٥
المانيا ٢١ — ٢٢ — ٩٦ — ١٠٨ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ — ١١٦ —
١٤٩
امريكا ٢٤ — ٢٧ — ٣٢ — ١٢٧ — ١٥٢ — ١٥٤ — ١٦١ — ١٦٦ —
٢٦٥ — ٢٦٧ — ٢٦٨
امريكا الجنوبية : ٥٠ — ١٥٢
اميون : ٣١٢
الاناضول : ١٢٠ — ٢٠٤ — ٢٥٩
انفة : ٤٧
انطلياس : ٤٧ — ٢٩٩

انكتره : ٢٢ - ٢٩ - ٣٠ - ٣٥ - ١١٢ - ١١٤ - ١٤٩ - ٢٦٨
اهدن : ٤٦ - ١٨٢
اوروبيا : ١٩ - ٢٢ - ٢٧ - ٣١ - ٣٥ - ٤٠ - ٥٩ - ١٢٠ -
١٢١ - ١٢٧ - ١٦١ - ١٦٤ - ٢٤١ - ٢٦٨
ايران : ٢٣ - ١٠٨ - ١١٦ - ١٤٩ - ٢٢٠
ايطاليا : ٢١ - ٢٢ - ٢٩ - ٣٩ - ٤٠ - ٩٧ - ١١٢ - ١١٤ - ١١٥ -
١١٦ - ١٢٦ - ١٤٩ - ١٨٢ - ٢٢٦ - ٢٦٨

(ب)

الباروك : ٢٣
باريس : ٢٤ - ٢٧ - ٢٢ - ٢٢ - ٢٧ - ٢٨ - ٦٣ - ٦٨ - ٧٣ -
٧٦ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٤ - ١٢٦ - ١٢٧ - ١٢٨ - ١٢٩ - ١٣٠ -
١٣١ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٤٠ - ١٧٥ - ١٨٤ - ١٨٥ - ٢٦١ -
٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٨٣ - ٢٩٧ - ٢٩٩ - ٣٠٤ - ٣١٢ - ٣١٣
٣١٤ - ٣١٧
بانياس : ٢٨٣ -
بترون : ٢٦ - ٤٥ - ٤٦ - ٥٢ - ٨٤
بترون السفلى : ٤٦
بترون العليا : ٤٦
بترون الوسطى : ٤٦
بحدون : ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٦ - ٢٦٦ -
بر الياس : ١٩٧
برلين : ١١٠
بريفة : ٥١
برمانا : ١٤٤ - ١٥١ - ١٥٦
بروكسل : ١١٠
بريطانيا : ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ - ٢٦ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ -
٣١ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٩ - ٤٠ - ٤٢ - ٩٣ -
٩٦ - ٩٧ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٥ - ١٢٦ - ٢١٦ - ٢٦٥
٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٨٣
بيكتنا : ٤٥ - ٢٩٩ -
بشري : ٤٥ - ٤٦ - ١٨٢
بعبدأ : ٥٢ - ١٧٧
بعطيك : ٤٦ - ٤٧ - ٥١ - ٥٢ - ٥٦ - ١٣٤ - ١٤٥
بغداد : ٦٥ - ١٠٧ - ١٤٦ - ١٥٠
البقاع : ٢٤ - ٢٥ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ -
٥٨ - ١٢٢ - ١٣٤ - ١٥٦ - ١٨٧ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ -
٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٥ - ٢٠٨ - ٢١٨ - ٢٤٩ - ٢٥٢ - ٣١٩
البقاع الغربي : ٥٦
البقيمة : ٥١ - ٥٣ - ١٩٦ - ١٨٧ - ٢٤٣ - ٢٥٢
بكركي : ١٨٥ - ١٩٥ - ٢٩٩
بكبيا : ٢٤ - ٤٧ - ١٥٦ - ١٧٧ - ٢٧٨ - ٢٩١ - ٢٩٩

بلجيكا : ٩٥ — ١١٢ — ١١٢ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ — ١١٦

بوسطن : ٢٨٢

بونس ايرس : ٢٦٧

بيت شباب : ٤٧ — ٤٨ — ٢٩٩

بيت مري : ٢٨

بيروت : ٢٣ — ٢٤ — ٢٥ — ٢٦ — ٢٣ — ٢٨ — ٤٦ — ٤٧ — ٤٨

— ٤٩ — ٥١ — ٥٢ — ٥٤ — ٥٥ — ٥٨ — ٦٠ — ٦١ — ٦٦ — ٦٨

— ٦٩ — ٨٠ — ٨٢ — ٨٤ — ٨٥ — ٨٧ — ٩٣ — ٩٤ — ٩٥ — ٩٦

— ٩٧ — ٩٨ — ٩٩ — ١٠٠ — ١٠١ — ١٠٢ — ١٠٣ — ١٠٥ — ١٠٦

— ١٠٧ — ١٠٨ — ١١٠ — ١١١ — ١١٢ — ١١٤ — ١١٥ — ١١٦

— ١١٧ — ١٢٢ — ١٢٥ — ١٢٦ — ١٢٧ — ١٢٨ — ١٢٩ — ١٣٠

— ١٣٢ — ١٣٤ — ١٣٥ — ١٣٦ — ١٣٨ — ١٣٩ — ١٤١ — ١٤٣ — ١٤٤

— ١٤٥ — ١٤٦ — ١٤٧ — ١٥٠ — ١٥١ — ١٥٢ — ١٥٤ — ١٥٦

— ١٥٧ — ١٥٩ — ١٦٠ — ١٦٣ — ١٦٥ — ١٦٦ — ١٦٧

— ١٦٨ — ١٦٩ — ١٧٠ — ١٧٢ — ١٧٦ — ١٧٧ — ١٧٨ — ١٨٢

— ١٨٤ — ١٨٧ — ١٨٨ — ١٩٤ — ١٩٥ — ١٩٩ — ٢٠١ — ٢١٠ — ٢١١

— ٢١٤ — ٢١٦ — ٢١٧ — ٢٢٢ — ٢٢٥ — ٢٢٦ — ٢٢٧ — ٢٣٥

— ٢٣٨ — ٢٣٩ — ٢٤٠ — ٢٤١ — ٢٥٠ — ٢٥٤ — ٢٥٩ — ٢٦٥

— ٢٦٦ — ٢٧٣ — ٢٧٥ — ٢٧٧ — ٢٧٨ — ٢٨٢ — ٢٨٤ — ٢٨٧

— ٢٨٩ — ٢٩١ — ٢٩٢ — ٢٩٤ — ٢٩٥ — ٢٩٦ — ٢٩٧ — ٢٩٨

— ٢٩٩ — ٣٠٣ — ٣٠٥ — ٣١٠ — ٣١١ — ٣١٢ — ٣١٣ — ٣١٧

— ٣١٩ — ٣٢٠ — ٣٢١ — ٣٢٢

بيسان : ٥١

(ت)

تدمر : ١٥٠

تركيا : ٢١ — ٢٥ — ٢٧ — ٤٩ — ٦٤ — ٦٥ — ٨٢ — ٨٥ — ٩٣

— ١٠٥ — ١٠٧ — ١١٠ — ١١٢ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ — ١١٦

— ١١٩ — ١٢٠ — ١٢٦ — ١٣٠ — ١٣٧ — ١٣٨ — ١٦١ — ٢٤١

ترنك : ٨١

تشيكوسلوفاكيا : ١١٦

تل حياة : ٥٣

توغلند : ٦٣

تونس : ١٩ — ٢٠ — ٦٩ — ٨٨ — ١١١

(ج)

جبانة الخشب : ٨١

جبة بشري : ٤٧

جبل العروز : ٦٦ — ٨٧ — ١٨٧

جبل الريحان : ٤٥

جبل لبنان : ١٩ — ٢٠ — ٢١ — ٢٢ — ٢٣ — ٢٤ — ٢٥ — ٢٦ —
 — ٢٧ — ٢٨ — ٢٩ — ٣١ — ٣٢ — ٣٣ — ٣٧ — ٣٨ — ٣٩ — ٤٠ —
 — ٤١ — ٤٥ — ٤٧ — ٤٨ — ٤٩ — ٥٠ — ٥١ — ٥٢ — ٥٣ — ٥٤ —
 ١٣٦ — ١٣٤ — ١٢٥ — ١٢٢ — ٩٧ — ٧٠ — ٦٥ — ٦٠ — ٥٨ — ٥٥
 — ١٦١ — ١٥٩ — ١٥٤ — ١٥٢ — ١٥١ — ١٥٠ — ١٤٥ — ١٣٩ —
 ١٦٢ — ١٦٣ — ١٦٤ — ١٨٥ — ١٨٧ — ١٩٤ — ١٩٥ — ٢٠٠ — ٢٠٥ —
 — ٢٢٩ — ٢٢٧ — ٢٢٤ — ٢١٨ — ٢١٧ — ٢١٦ — ٢١٢ — ٢٠٧ —
 ٢٦١ — ٢٥٦ — ٢٥٥ — ٢٥٣ — ٢٥٠ — ٢٤٦ — ٢٤٢ — ٢٣٩ — ٢٣٨
 — ٣٢١ — ٣١٦ — ٢٧٨ — ٢٧٥ — ٢٦٦ — ٢٦٤ — ٢٦٣ — ٢٦٢ —
 ٣٢٢

جبل موسى : ٢٩٥
 جبيل السفلى : ٤٦ — ٨٤
 جبيل العليا : ٤٦
 جديدة قنوبين : ٢٦٣
 جديدة مرجعيون : ١٨٢
 جرد المبري : ٢٠١
 جرد جبيل : ٤٦
 الجرد الجنوبي : ٤٥
 الجرد الشمالي : ٤٥
 جرد كسروان : ٤٦
 الجزائر : ١٩ — ٦٩ — ٨٨ — ١١١ — ١٦٧
 الجزيرة العربية : ١٠٥ — ١٤٩
 جزين : ٤٥ — ٤٧ — ٤٨ — ٥٨ — ١٥٠ — ٢٤٣ — ٢٤٩
 جسر القمر : ٥١ —
 جنفلة : ٨١
 الجنوب : ٢٠٥ — ٢٠٨
 جنوب افريقيا : ٦٣
 جنيف : ٢٨ — ٢٤٧ — ٢٧٠ — ٢٨١ — ٢٨٣ — ٢٩٢
 جونية : ٤٦ — ٤٧ — ٨٤ — ١٧٧

(ج)

حاربنا : ٥١
 حاصبيا : ٥١ — ٥٢ — ٥٦ — ٨٧ — ١٤٥ — ٢٤٣ — ٢٤٥ — ٢٤٩
 ٢٧٨ — ٢٨٣ — ٣١٩
 الحجاز : ٣٤ — ١١١
 الحدث : ٤٧
 حرمون : ٢٤٣
 حشمس : ٢٠٨
 حصرون : ٤٦
 حلبا : ١٤٦
 حلب : ٦٦ — ٩٤ — ٩٥ — ١٠٠ — ١٠٢ — ١٠٥ — ١٠٦ — ١١٦

— ١٢٩ — ١٣٤ — ١٩٩ — ٢٩٢ — ٢٩٥ — ٣١٠ — ٣١٢ — ٣٢٠ —
حمانا : ١٧٧
حماة : ١٠٠ — ١١١ — ١٣٦ — ٢٧٧ — ٢٨٤
حمص : ١٠٠ — ١٢٩ — ١٤٤ — ١٤٥ — ١٤٦ —
حوران : ١٢٢
حوثب : ٥٣
حولة : ٨٥ — ٨٦ — ٢٨٣
الحيصا : ٥٣
حيفا : ١٠٢ — ١١١

(خ)

الخالصة : ٨٦
خان الدوير : ٨٦
الخصاص : ٨٦
الخليج العربي : ١٩
الخنشارة : ٤٧ — ٢٩٩ — ٣٠٣

(د)

دارين : ٥٣
الدامور : ٤٧ — ٢١٤ — ٢٧٨ — ٢٧٩
دريب : ٢٤٥ — ٢٤٩
دقنة : ٨٦
دمشق : ٣٧ — ٣٨ — ٣٩ — ٤١ — ٤٦ — ٥٣ — ٦٥ — ٦٦ — ٨٠ —
— ٨١ — ٨٧ — ٩٤ — ٩٥ — ١٠٠ — ١٠٦ — ١٠٨ — ١١١ — ١١٥ —
— ١١٦ — ١٢٥ — ١٢٩ — ١٣٤ — ١٣٦ — ١٤٤ — ١٤٥ — ١٥٠ —
١٥٦ — ١٦١ — ١٦٣ — ١٦٦ — ١٦٧ — ١٦٨ — ١٦٩ — ١٧٠ — ٢٤٠ —
— ٢٤١ — ٢٦٥ — ٢٦٩ — ٢٧١ — ٢٧٤ — ٢٧٧ — ٢٨٢ — ٢٨٤ —
٢٩٢ — ٢٩٨ — ٣٢٠ —
الدوارة : ٨٦
دير الزور : ٢٩٢
دير القمر : ٤٥ — ٤٦ — ٥٢
دير ميماس : ٨٧

(ذ)

الذوق : ٢٦ — ٤٦
الذوق التحتاني : ٨٦
الذوق الفوقاني : ٨٦

(و)

رأس العين : ٢٠١
راشيا : ٤٦ — ٥١ — ٥٢ — ٥٦ — ٢٤٣ — ٢٤٩ — ٣١٩
رعيت : ٢٠٩
الرقة : ٣١٢
روسيا : ٢٢ — ٢٨ — ٢٦ — ١١٢ — ٢٨٨ — ٢٨٩
روثة : ٢٦ — ٣٥
روما : ١٦٠
رومانيا : ١١٦
الروملي : ١٢٠ — ٢٠٤ — ٢٥٩
رياق : ١٤٤ — ٢٠٨ — ٢٠٩

(ز)

الزاوية : ٤٦ — ٤٧ — ٢٤٥ — ٢٤٩
زحلة : ٢٤ — ٤٥ — ٤٧ — ٤٩ — ٥٢ — ٥٧ — ٥٨ — ١٢٩
١٤٥ — ١٨٣ — ٢٦٦ — ٢٧٩ — ٢٩٠ — ٢٩١ — ٢٩٥ — ٢٩٩ — ٣١٠
٣١٢ — ٣١٧
زغرنا : ٤٥ — ٥٢
الزوية : ٨٦

(س)

سان ريمو : ٢٤ — ٣٠ — ٣٤ — ٣٩ — ٤٠ — ٦٤ — ٢٦٤ — ٢٧٠
٣٢١
جزيرة سموا : ٦٣
السودان : ١٩
سوريا : ٢٠ — ٢١ — ٢٢ — ٢٣ — ٢٤ — ٢٥ — ٢٦ — ٢٧ — ٢٨
٢٩ — ٣٠ — ٣١ — ٣٢ — ٣٣ — ٣٤ — ٣٦ — ٣٧ — ٣٨ — ٣٩
٤٠ — ٤١ — ٤٢ — ٤٣ — ٤٩ — ٥٠ — ٥٢ — ٥٣ — ٦١ — ٦٣
٦٤ — ٦٥ — ٦٦ — ٦٧ — ٦٨ — ٦٩ — ٧٠ — ٧٢ — ٧٣ — ٧٤ — ٧٥
٧٦ — ٧٧ — ٧٨ — ٧٩ — ٨٠ — ٨١ — ٨٢ — ٨٣ — ٨٤ — ٨٥ — ٨٧
٨٨ — ٨٩ — ٩٣ — ٩٤ — ٩٧ — ٩٨ — ٩٩ — ١٠٢ — ١٠٣ — ١٠٤
١٠٥ — ١٠٦ — ١٠٧ — ١٠٨ — ١٠٩ — ١١٠ — ١١١ — ١١٢ — ١١٣
١١٤ — ١١٥ — ١٢٠ — ١٢١ — ١٢٢ — ١٢٣ — ١٢٤ — ١٢٥
١٢٦ — ١٢٧ — ١٢٨ — ١٢٩ — ١٣٠ — ١٣١ — ١٣٢ — ١٣٣ — ١٣٤
١٣٥ — ١٣٦ — ١٣٧ — ١٣٩ — ١٤٠ — ١٤٤ — ١٤٦ — ١٤٧
١٤٨ — ١٥٤ — ١٥٥ — ١٥٩ — ١٦١ — ١٦٢ — ١٦٣ — ١٦٤ — ١٦٥
١٦٦ — ١٦٧ — ١٦٨ — ١٧١ — ١٧٧ — ١٧٩ — ١٨٠ — ١٨٢
١٨٧ — ١٨٩ — ١٩٦ — ٢٠١ — ٢٠٧ — ٢٠٨ — ٢٠٩ — ٢١٤ — ٢٣٩

٢٤٠ — ٢٤١ — ٢٤٤ — ٢٥٢ — ٢٥٩ — ٢٦٠ — ٢٦١ — ٢٦٢ — ٢٦٤ —
— ٢٦٥ — ٢٦٦ — ٢٦٧ — ٢٦٨ — ٢٦٩ — ٢٧٠ — ٢٧١ — ٢٧٢ —
٢٧٤ — ٢٧٥ — ٢٧٦ — ٢٧٩ — ٢٨٠ — ٢٨١ — ٢٨٢ — ٢٨٤ — ٢٩٣ —
— ٢٩٤ — ٢٩٥ — ٢٩٦ — ٢٩٧ — ٢٩٨ — ٣٠٠ — ٣٠١ — ٣٠٩ —
٣١٠ — ٣١١ — ٣١٢ — ٣١٣ — ٣١٦ — ٣١٧ — ٣١٨ — ٣١٩ — ٣٢٠

سوق الغرب : ١٥١

السويداء : ٨١ — ١٤٥ — ٣٢٠

(ش)

الشام : ٤١

شتورة : ١٤٥

الشمير : ٤٥

الشرق الاوسط : ٢٣ — ٤٢ — ١٦٩ — ١٨٥

شرق الاردن : ١٠٧ — ١٨٩

الشرق الاقصى : ١٦٩

شمسطار : ٤٥

الشوف : ٤٥ — ٤٦ — ٤٧ — ٥٢ — ٥٨ — ٨١ — ١٩٩

الشوفين : ٤٥

الشوير : ٤٥ — ٤٧ — ٣٠٣

الشويفات : ٢٤٥ — ٢٤٩

الشيح : ٢٩٩ — ٣٠٣

شيخانة : ٨١

الشيلي : ٢٨٢

(ص)

الصالحية : ٨٦

صور : ٢٥ — ٤٦ — ٥١ — ٥٢ — ٥٤ — ٥٥ — ٨٤ — ٩٩ — ١٠١

١٠٢ — ١٤٥ — ٢٠١ — ٢١٤ — ٢٤٩ — ٣١٩

صوفر : ١٥٠ — ١٥١ — ١٥٦

صيدا : ٢٥ — ٤٦ — ٤٧ — ٥١ — ٥٢ — ٥٥ — ٩٥ — ٩٩ — ١٠٢

١٢٩ — ١٤٥ — ٢١٤ — ٢٤٩ — ٣١٩

(ض)

الضنية : ٤٦ — ٢٤٣

ضهور الشوير : ١٥١ — ١٥٦ — ٢٩٩

(ب)

طرابلس : ٢٥ — ٤٦ — ٤٧ — ٥١ — ٥٢ — ٥٣ — ٥٤ — ٥٥ — ٥٦ —
٥٧ — ٨٤ — ٩٥ — ٩٩ — ١٠٠ — ١٠١ — ١٠٢ — ١٠٦ — ١١٢ —
١١٣ — ١١٤ — ١٢٢ — ١٢٩ — ١٣٤ — ١٤٤ — ١٤٥ — ١٤٦ — ١٧٧ —
١٨٢ — ١٩٩ — ٢٠٤ — ٢١٤ — ٢٤٩ — ٢٨٨ — ٢٩١ — ٣٠٣ — ٣١٩ —
طهران : ١٠٧ — ١٤٦ —
الطبية : ٨٧

(ع)

العاقورة : ٢٤٩
عاليه : ١٥٠ — ١٥١ — ١٥٦ — ١٧٧ — ٢٤٩ —
العباسية : ٨٦
عبدلي : ٢٦
العبيدة : ١٤٦
عبرين : ٢٦
المرقوب الاعلى : ٥٥
المرقوب الشمالي : ٥٥
المرقوب الجنوبي : ٥٥
عزرا : ١٤٦
عكار : ٢٥ — ٤٧ — ٥١ — ٥٢ — ٥٣ — ٥٤ — ٥٦ — ٥٧ — ١٢٢ —
١٩٦ — ١٩٧ — ١٩٨ — ٢٠٤ — ٢٠٨ — ٢٤٣ — ٢٤٤ — ٢٤٨ —
٢٤٩ — ٢٥٢ — ٣١٩ —
علي النهري : ٢٠٩
عنجر : ٢٩١
عينطورة : ١٧٧
العراق : ٢٩ — ٣١ — ٣٤ — ٣٦ — ٣٧ — ٣٨ — ٣٩ — ٩٨ —
١٠٥ — ١٠٧ — ١٦٦ — ١٤٩ — ١٥٠ — ١٦٣ — ١٨٩ — ٢٨٢ —
٣٢٠

(غ)

الغرب الاعلى : ٥٥
الغرب الاقصى : ٥٥
الغرب الشمالي : ٥٥
غوسطا : ٤٦

(ف)

فارس : ١٠٥

فالوغا : ٢٦٦

الفتوح : ٤٦

فرنسا : ١٩ — ٢٠ — ٢١ — ٢٢ — ٢٣ — ٢٤ — ٢٥ — ٢٧ — ٢٨ —
٢٩ — ٣٠ — ٣١ — ٣٣ — ٣٤ — ٣٥ — ٣٦ — ٣٨ — ٣٩ — ٤٠ —
٤٩ — ٦٧ — ٧٠ — ٧٢ — ٧٣ — ٧٤ — ٧٥ — ٧٨ — ٧٩ — ٨٢ —
٨٥ — ٨٦ — ٨٨ — ٨٩ — ٩٣ — ٩٦ — ٩٧ — ١٠٠ — ١٠١ —
١٠٦ — ١٠٨ — ١٠٩ — ١١٠ — ١١٢ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ —
١٢٥ — ١٢٦ — ١٢٧ — ١٢٨ — ١٣٠ — ١٣٢ — ١٣٣ — ١٣٧ —
١٣٨ — ١٣٩ — ١٤٣ — ١٤٧ — ١٤٩ — ١٥٩ — ١٦٤ — ١٦٥ —
١٦٦ — ١٧٧ — ١٧٩ — ١٨٤ — ١٨٥ — ١٨٦ — ١٨٨ — ٢٠٤ —
٢٠٦ — ٢١٦ — ٢٢٦ — ٢٥٩ — ٢٦٢ — ٢٦٣ — ٢٦٤ — ٢٦٥ —
٢٦٨ — ٢٦٩ — ٢٧٠ — ٢٧١ — ٢٧٢ — ٢٧٣ — ٢٧٤ — ٢٧٦ —
٢٧٧ — ٢٨٢ — ٢٨٣ — ٢٨٤ — ٢٩٢ — ٢٩٨ — ٣١٤ — ٣١٦ —
٣٢١

فرباي : ٨٥ — ٢٦٤

فرن الشباك : ٤٧ — ٢٨٥

فلسطين : ٣١ — ٣٤ — ٣٦ — ٣٧ — ٣٨ — ٣٩ — ٥١ — ٨٥ —
٨٦ — ١٠٢ — ١٠٦ — ١٠٧ — ١١٦ — ١٥٥ — ١٦١ — ١٨٩ —
٢٥٩ — ٢٦٥ — ٢٦٦ — ٢٦٩ — ٢٧٠ — ٢٧٨ — ٢٨١ — ٢٨٣ —
٢٨٨ — ٢٨٩ — ٢٩٠ — ٢٩٨

فنلندا : ١١٦

فنيقيا : ٢٧٤

(ق)

قاديشا : ٤٦

قاسيون : ٢٩٨

القاطع : ٤٥

القاهرة : ٦٦ — ٢٦٧ — ٢٨٢

القببات : ١٤٦ — ١٨٢

القسطنطينية : ٢٢ — ١٢٩ — ١٣٤ — ١٦١

القلمون : ٢٨٨

القلعة : ٨٧

قنات : ٤٦

قنيطرة : ٤١ — ٨١ — ١٤٥ — ٢٨٣

القويطع : ٤٦

(ك)

الكاميرون : ٦٣

كسروان : ٤٥ — ٥٢ — ٥٨ — ١٩٥ — ١٩٩ — ٢٠٤

كفر كلا : ٨٧

كفرملكي : ٨٧
الكورة : ٤٥ — ٤٦ — ٤٧ — ٥٤ — ٢٤٥
الكورة الشمالية : ٤٦
الكورة الوسطى : ٤٦
كوريز : ٨٨
كيليكيا : ٢٠ — ٢٦ — ٢٨ — ٦٥ — ٨٢ — ١٠٧ — ٢٩٢

(ل)

اللاذقية : ٨٤ — ٩٥ — ٩٩ — ١٠٢ — ٢٢٠
لبنان الجنوبي : ١٨٧
لبنان الشمالي : ١٨٧
لبنان الكبير : ٣٤ — ٤١ — ٤٢ — ٤٣ — ٥١ — ٥٢ — ٥٣ — ٥٤ — ٥٧ — ٥٨ — ٥٩ — ٦٠ — ٦١ — ٦٢ — ٦٣ — ٦٤ — ٦٥ — ٦٦ — ٦٧ — ٦٨ — ٦٩ — ٧٠ — ٧١ — ٧٢ — ٧٣ — ٧٤ — ٧٥ — ٧٦ — ٧٨ — ٧٩ — ٨٠ — ٨١ — ٨٢ — ٨٣ — ٨٤ — ٨٥ — ٨٧ — ٨٨ — ٨٩ — ٩٠ — ٩١ — ٩٢ — ٩٣ — ٩٤ — ٩٥ — ٩٧ — ٩٨ — ٩٩ — ١٠٠ — ١٠٢ — ١٠٣ — ١٠٤ — ١٠٥ — ١٠٦ — ١٠٧ — ١٠٨ — ١٠٩ — ١١٠ — ١١١ — ١١٢ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ — ١١٦ — ١١٧ — ١١٨ — ١١٩ — ١٢٠ — ١٢١ — ١٢٢ — ١٢٣ — ١٢٤ — ١٢٥ — ١٢٦ — ١٢٧ — ١٢٨ — ١٢٩ — ١٣٠ — ١٣١ — ١٣٢ — ١٣٣ — ١٣٤ — ١٣٥ — ١٣٦ — ١٣٧ — ١٣٨ — ١٣٩ — ١٤٠ — ١٤١ — ١٤٢ — ١٤٣ — ١٤٤ — ١٤٥ — ١٤٦ — ١٤٧ — ١٤٨ — ١٤٩ — ١٥٠ — ١٥١ — ١٥٢ — ١٥٣ — ١٥٤ — ١٥٥ — ١٥٦ — ١٥٧ — ١٥٨ — ١٥٩ — ١٦٠ — ١٦١ — ١٦٢ — ١٦٣ — ١٦٤ — ١٦٥ — ١٦٧ — ١٦٨ — ١٦٩ — ١٧٠ — ١٧١ — ١٧٢ — ١٧٣ — ١٧٤ — ١٧٥ — ١٧٧ — ١٧٨ — ١٧٩ — ١٨٠ — ١٨١ — ١٨٢ — ١٨٣ — ١٨٤ — ١٨٥ — ١٨٦ — ١٨٧ — ١٨٨ — ١٨٩ — ١٩٠ — ١٩١ — ١٩٢ — ١٩٣ — ١٩٤ — ١٩٥ — ١٩٦ — ١٩٧ — ١٩٨ — ١٩٩ — ٢٠٠ — ٢٠١ — ٢٠٢ — ٢٠٣ — ٢٠٤ — ٢٠٥ — ٢٠٦ — ٢٠٧ — ٢٠٨ — ٢٠٩ — ٢١٠ — ٢١١ — ٢١٢ — ٢١٣ — ٢١٤ — ٢١٥ — ٢١٦ — ٢١٧ — ٢١٨ — ٢١٩ — ٢٢٠ — ٢٢١ — ٢٢٢ — ٢٢٣ — ٢٢٤ — ٢٢٥ — ٢٢٦ — ٢٢٧ — ٢٢٨ — ٢٢٩ — ٢٣٠ — ٢٣١ — ٢٣٢ — ٢٣٣ — ٢٣٤ — ٢٣٥ — ٢٣٦ — ٢٣٧ — ٢٣٨ — ٢٣٩ — ٢٤٠ — ٢٤١ — ٢٤٢ — ٢٤٣ — ٢٤٤ — ٢٤٥ — ٢٤٦ — ٢٤٧ — ٢٤٨ — ٢٤٩ — ٢٥٠ — ٢٥١ — ٢٥٢ — ٢٥٣ — ٢٥٤ — ٢٥٥ — ٢٥٦ — ٢٥٧ — ٢٥٨ — ٢٥٩ — ٢٦٠ — ٢٦١ — ٢٦٢ — ٢٦٣ — ٢٦٤ — ٢٦٥ — ٢٦٦ — ٢٦٧ — ٢٦٨ — ٢٦٩ — ٢٧٠ — ٢٧١ — ٢٧٢ — ٢٧٣ — ٢٧٤ — ٢٧٥ — ٢٧٦ — ٢٧٧ — ٢٧٨ — ٢٧٩ — ٢٨٠ — ٢٨١ — ٢٨٢ — ٢٨٣ — ٢٨٤ — ٢٨٥ — ٢٨٦ — ٢٨٧ — ٢٨٨ — ٢٨٩ — ٢٩٠ — ٢٩١ — ٢٩٢ — ٢٩٣ — ٢٩٤ — ٢٩٥ — ٢٩٦ — ٢٩٧ — ٢٩٨ — ٢٩٩ — ٣٠٠ — ٣٠١ — ٣٠٢ — ٣٠٣ — ٣٠٤ — ٣٠٥ — ٣٠٦ — ٣٠٧ — ٣٠٨ — ٣٠٩ — ٣١٠ — ٣١١ — ٣١٢ — ٣١٣ — ٣١٤ — ٣١٥ — ٣١٦ — ٣١٧ — ٣١٨ — ٣١٩ — ٣٢٠ — ٣٢١ — ٣٢٢

اللاذقية : ٨٦
لندن : ٢٩ — ١٢٩

لوزان : ٢٢ - ١١١ - ١٣٧ - ٢٩٢
ليون : ٢٣ - ١٦٠

(م)

مار نعمة : ٢٦
مقربة : ٥١
المتن : ٤٥ - ٥٢ - ٥٨ - ١٩٩ - ٢٤٩
المتن الاعلى : ٤٥
مراكشي : ٢٠ - ٨٨
مرج : ٢٠٢
مرجعيون : ٢٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٥١ - ٥٢ - ٥٥ - ٨٥ - ٨٦ -
٨٧ - ١٤٥ - ١٧٧ - ٢١٤ - ٢٤٣ - ٢٤٩ - ٢٧٨ - ٢٨٣ -
٣١٩
مرسيليا : ١٠٤ - ٣١٢
مزرعة الشوف : ٨١
مسا : ٢٠٩
المسعودية : ٥٣
مشفرة : ٢٣٤
مصر : ١٩ - ٢٧ - ٣١ - ٣٦ - ٣٨ - ٥٠ - ٩٣ - ١٠١ -
١٠٨ - ١١٠ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٦ - ١٢٦ - ١٥٢ -
١٥٤ - ١٦٢ - ١٨٩ - ٢٤٠ - ٢٦٠ - ٢٦٥ - ٢٦٧ - ٢٦٩ -
٢٨٢ - ٢٨٨ - ٢٩١
مصرعة : ٥١
المطلة : ٨٦
المعاملتين : ١٤٤
المعلقة : ٥١ - ٥٢
المغرب : ٢٠ - ٦٦ - ٦٩
مفروود : ٢٨
الناصف : ٤٥
النصورة : ٨٦
المنيطرة : ٤٦
مهجر : ٨١
موسكو : ٢٩ - ٣٥
الموصل : ٢٣ - ٣٠ - ٣٤ - ١١٠
ميسلون : ٣٨ - ٣٩ - ٤١ - ٦٥ - ٦٦ - ٧٣ - ٧٥ - ٧٨ -
٨١

(ن)

نابلس : ٢٨٢
الناصرية : ٢٠٩

الناعمة : ٨٦
الناقورة : ١٤٤ — ١٤٥
النبطية : ٢٤٩
النحف : ١٦٣
نجد : ١.٧ — ١.٨
النخيلة : ٨٦
النمسا : ٢١ — ١.٨ — ١١٢ — ١١٦
نهر الذهب : ٢٦
نيويورك : ٢٦٦ — ٢٦٧

(هـ)

الهرمل : ٤٥ — ٤٦ — ٤٧ — ٥٢ — ٥٦ — ٥٧ — ١٩٧ — ١٩٨ —
٢١٨ — ٢٤٣ — ٢٤٦
الهند : ١٩ — ٢٩ — ٤٣ — ١.٨ — ١١٤
الهند الصينية : ٦٦ — ٦٩ — ٧٠
هولندا : ١١٦
هونين : ٨٦

(و)

وادي التيم : ٢٥
وادي شحرور : ٤٧
واشنطن : ٣٤
الولايات المتحدة : ٢٢ — ٣١ — ٣٢ — ٣٣ — ٣٤ — ٣٥ — ٥٠ —
٦٣ — ٩٦ — ١.١ — ١.٦ — ١.٨ — ١١.٠ — ١١١ — ١١٢ — ١١٣ —
١١٤ — ١١٥ — ١١٦ — ١٢٠ — ١٢١ — ١٢٦ — ١٤٧ — ١٤٩ —
١٦٠ — ١٦٦ — ١٦٧ — ١٦٨ — ١٧٥ — ١٨٤ — ١٨٩ — ٢٦٩

(ي)

يريفان : ٢٦٥
اليمن : ١٩ — ٢٩
يونين : ١٩٧

فهرس الموضوعات

صفحة

٢

الأهداء

١٧

الباب الاول : من لبنان الصغير الى لبنان الكبير

١٩

الفصل الاول : سياسة الوفاق الاستعماري في الشرق الاوسط
وفرض الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان

٤٥

الفصل الثاني : من المصرفية الى لبنان المعاصر ،
توازن من نوع جديد

٦٣

الفصل الثالث : صك الانتداب في التطبيق العملي

٩١

الباب الثاني : بيروت تحجب لبنان وجميع دويلات الانتداب الفرنسي

٩٣

الفصل الاول : تجارة بيروت قلب الانتداب النابض

١١٩

الفصل الثاني : ربط الاقتصاد اللبناني بمجلة الفرنك الفرنسي
والشركات الفرنسية في بيروت

١٤٣

الفصل الثالث : ولادة قطاع جديد : الاصطياف في جوار بيروت

١٥٩

الفصل الرابع : التعليم الخاص يهيمن على التعليم الرسمي

١٩١

الباب الثالث : الارياف اللبنانية في مطلع عهد الانتداب

الفصل الاول : سياسة الانتداب بدعم مركز كبار الاقطاعيين
في الريف اللبناني

١٩٣

٢٢١

الفصل الثاني : ملامح من الحياة الاجتماعية اللبنانية

٢٥٧

**الباب الرابع : الحركة السياسية في لبنان :
من الحكم المباشر الى الديمقراطية الشكلية (١٩١٨ - ١٩٢٦)**

الفصل الاول : بين الرفض المطلق والتبعية الكاملة للانتداب
(١٩٣٠ - ١٩٢٤)

٢٥٩

الفصل الثاني : مرحلة النضال الديمقراطي العام وولادة الدستور
والجمهورية في لبنان (١٩٢٤ - ١٩٢٦)

٢٨٧

٣١٩

خاتمة

٣٢٢

مكتبة البحث

٣٢٥

مراجع باللغة العربية

٣٢٩

جرائد ومجلات باللغة العربية وردت اسمائها في الكتاب

٣٣١

مراجع باللغة الاجنبية

٣٤٥

فهرس الاعلام

٣٥٥

فهرس الاماكن

